المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي

مجلة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

العدد الأول
رجب ١٤٠٩ هـ
فبراير ١٩٨٩ م

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي

مجلة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مجلة علمية محكمة

العدد الأول
رجب ١٤٠٩ هـ
فبراير ١٩٨٩ م

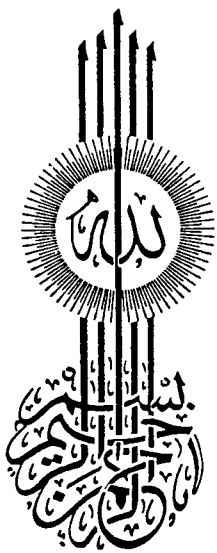
بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

هيئة الإشراف

المشرف العام : معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
مدير الجامعة

رئيس التحرير : الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيّع
عميد البحث العلمي

هيئة التحرير : الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة
الأستاذ بقسم أصول الفقه في كلية الشريعة بالرياض

الدكتور ابراهيم بن مبارك الجوير
الأستاذ المشارك بقسم الاجتماع في كلية العلوم الاجتماعية
بالرياض

الدكتور صالح بن حسين العايد
الأستاذ المساعد بقسم النحو والصرف وفقه اللغة
في كلية اللغة العربية بالرياض

محمد بن علي الصامل
المحاضر بقسم البلاغة والنقد ومناهج الأدب الإسلامي
في كلية اللغة العربية بالرياض

عنوان المجلة : المملكة العربية السعودية
الرياض ١١٤١٥
ص. ب ١٨٠١١ — هاتف ٤٣٥٨٢٨٤

قواعد النشر

أولاً : يشترط في البحث الذي ينشر في المجلة ما يلي:

١ - أن يكون متسما بالأصالة وسلامة الاتجاه.

٢ - أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.

٣ - أن تتحقق له السلامة اللغوية.

٤ - ألا يكون قد سبق نشره.

ثانيـــاً : تخضع البحوث والدراسات المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم.

ثالثـــاً : البحوث والدراسات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى الجامعة.

رابعـــاً : ترتيب محتويات المجلة يتم وفقاً لأمور فنية.

خامساً : يعطى كل مشارك في المجلة خمس نسخ وثلاثين مستلة مما نشر له.

سادساً : توجه الرسائل إلى رئيس التحرير.

المحتـــــوى

* **الافتتاحية لمعالي مدير الجامعة**
الأستاذ الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي ..... ١١ - ١٣

البحـــوث

١ - **توثيق المعاملات : حقيقته وحكمه ومحله**
للدكتور : صالح بن عثمان الهليـل ..... ١٧ - ٤٦

٢ - **أثر القرافي في الدراسات الأصولية**
للدكتور عياضة بن نامي السلمي ..... ٤٧ - ٨٢

٣ - **الأصالة والمعاصرة: خصيصتان من خصائص الدعوة الإسلامية**
للدكتور محمد أبو الفاتح البيانوني ..... ٨٣ - ١٤٧

٤ - **لمعة في الكلام على لفظة آمين لابن الخشاب**
تقديم وتحقيق الدكتور سليمان بن إبراهيم العايد ... ١٤٩ - ١٧٩

٥ - **الإمالة بين النحاة القدامى واللغويين المحدثين**
للدكتور محمد أحمد العمروسي ..... ١٨١ - ٢١٩

٦ - **الصورة البلاغية في شعر أبي تمام**
عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشعلان ..... ٢٢١ - ٢٧٥

٧ - **أدب التاريخ : دراسة في المصطلح والإطار النظري**
للدكتور محمد عويس محمد ..... ٢٧٧ - ٣٠٦

٨ ـ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابات المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي
للدكتور عبدالمنعم إبراهيم الجميعي ..... ٣٠٧ ـ ٣٢٣

٩ ـ أثر النشاط البشري على الأرض
للدكتور إبراهيم بن سليمان الأحيدب ..... ٣٢٥ ـ ٣٦١

١٠ ـ الحاجة إلى أعضاء هيئة تدريس مؤهلين في الجامعات العربية حتى عام ٢٠٠٠م
للدكتور محمد عبدالعليم مرسي ..... ٣٦٣ ـ ٤١٥

١١ ـ العوامل المؤدية إلى تعاطي المخدرات والمنظور الإسلامي لمواجهتها
للدكتور سعود بن عبدالعزيز التركي ..... ٤١٧ ـ ٤٧٢

التقـــريرات

١ ـ تقرير عن ندوة آثار صدور الأمر السامي بقتل مهربي المخدرات
للدكتور عبدالله بن صالح الحديثي ..... ٤٧٥ ـ ٤٨٤

٢ ـ تقرير عن المؤتمر الدولي لتطوير تعليم اللغة العربية في باكستان
للدكتور حمد بن ناصر الدخيّـل ..... ٤٨٥ ـ ٥٠٣

٣ ـ تقرير عن مؤتمر اللغة العربية العالمي الأول
للدكتور محمد بن خالد الفاضل ..... ٥٠٥ ـ ٥١٠

٤ ـ تقرير عن ندوة تطوير البرامج الدينية في تلفزيونات الخليج
للدكتور سمير محمد حسين ..... ٥١١ ـ ٥٤٣

٥ ـ تقرير عن رسالة الماجستير التي أعدها أحمد السعيد حول إدمان الحشيش
للدكتور عمر بن عبدالرحمن المفدى ..... ٥٤٥ ـ ٥٥٤

٦ ـ تقرير عن رسالة الماجستير التي أعدها سليمان الفالح عن المخدرات .
للدكتور إبراهيم بن محمد العبيدي ..... ٥٥٥ ـ ٥٥٩

الافتتاحية : لمعالي مدير الجامعة

والمشرف العام على المجلة

الأستاذ الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد : فهذا هو العدد الأول من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . نقدمه للقراء الكرام يزف إليهم البشرى بميلاد مجلة علمية إسلامية تعنى بالبحث العلمي في مجالات الدراسات الإسلامية والعربية والإنسانية . وتسهم مع المجلات العلمية الإسلامية الأخرى في تقديم البحث الرصين والدراسة الواعية لقضايا الفكر الإسلامي .

وقد كانت كليات الجامعة ومعاهدها العليا ومراكزها تصدر دوريات علمية متخصصة وكانت تلك الدوريات العلمية تقدم بحوثا علمية جيدة عم نفعها واستفاد منها المتخصصون وأصبحت بحوثها ودراساتها مراجع يرجع إليها الباحثون والحمد لله.

ثم رئي توحيد تلك الدوريات في مجلة علمية باسم «مجلة الجامعة» وفي ذلك خير ـ إن شاء الله ـ لأن توحيد تلك الدوريات سيؤدي إلى القوة والعمق والتركيز. ومجلة واحدة قوية البناء محكمة التنظيم خير من مجلات كثيرة قد لا تتهيأ لها الظروف والامكانات الجيدة دائما.

وإصدار مجلة علمية ترقى إلى آمال الجامعة وتطلعاتها وتخدم الفكر الإسلامي الأصيل ليس بالأمر السهل لكن عزمات الرجال وإخلاص المخلصين ـ بعد الاعتماد على الله تعالى والاستعانة به ـ كفيل بأن تكون مجلة الجامعة في مستوى

طمـوحها وأن تصبح منذ العدد الأول نموذجا للمجلات الإسلامية الأصيلة التى تخدم الفكر بعمق وتقدم البحوث النافعة والمعالجات العلمية لقضايا المسلمين.

* * *

ولا شك في أننا بحاجة إلى مجلة علمية يكون من أهم معالمها:

أولاً : العمق العلمي واللغة الرصينة والأسلوب المقنع.

ثانيـاً: الاهتمام بما استجد على ساحة الفكر الإسلامي من قضايا ومشكلات.

ثالثـاً: الـريـادة العلمية الواعية والاستشراف الحكيم لآفاق المستقبل والسير الواعي لمشكلات الأمة وآمالها وآلامها.

رابعـاً: الجمع الواعي بين العناية بالتراث الأصيل والاهتمام بالحاضر وما يحتاج إليه من بحوث ودراسات.

خامساً: المتابعة الرصينة للأحداث العلمية من مؤتمرات وندوات وكتب جديدة ورسائل علمية مفيدة.

* * *

وهـذه المجلة التي بين يديكم هي ثمـرة جهود علمية أسهمت فيها وحدات الجامعة وأجهزتها العلمية.

فالمجلس العلمي للجامعة وضع القواعد المنظمة للمجلة.

ثم هيئة التحرير تولت التخطيط والإشراف والتنفيذ والمتابعة.

والإخوة الكرام من أعضاء هيئة التدريس لم يبخلوا على المجلة ببحوثهم القيمة ومشاركاتهم النافعة.

وكـان للأساتـذة.والعلمـاء الكـرام الذين تولـوا مراجعـة البحـوث وتقويمهـا فضـل التقـويم الحسـن والتوجيـه السديد والحـرص على أن تكـون البحوث في أعـلى المستويات.

* * *

وفي الأعداد القادمة ـ إن شاء الله ـ ستزداد المجلة عمقا وستطرق موضوعات جديدة وستخصص هيئة التحرير بعض الأعداد لجوانب معينة من اهتمامات الجامعة، فهيئة التحرير كما أعرف من متابعتي لاجتماعاتها تخطط لإصدار أعداد خاصة ـ بالإضافة إلى الأعداد العامة ـ عن الإعلام الإسلامي والتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية والمشكلات الفقهية المعاصرة، ومشكلات الدعوة والداعية في العصر الحديث. وغير ذلك من المجالات العلمية المهمة.

هذا وإن النهضة العلمية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز لا تحتاج إلى إيضاح فقد نال قطاع التعليم منه ـ أيده الله ـ كل عناية واهتمام وتشجيع وأصبحت شواهدها في طول البلاد وعرضها من أهم معالم نهضة البلاد في كل مجال، ونسأل الله عز وجل أن يديم على هذه البلاد المباركة وقيادتها الرشيدة نعمة الإسلام والأمن والإيمان ويمنحها مزيداً من القوة والعزة، وأن يتولاها بعنايته ورعايته وحفظه.

وقبل أن أختم هذه الافتتاحية أوجه دعوة صادقة إلى علمائنا الكرام وأدبائنا ومفكرينا بأن يدعموا المجلة بالبحوث والآراء والاقتراحات.

وفق الله الجميع إلى ما فيه الخير.
وصلى الله على نبينا محمد.

مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عبدالله بن عبدالمحسن التركي

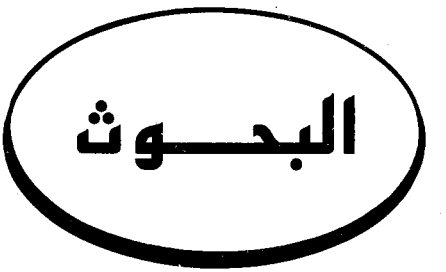
البحـــوث

توثيق المعاملات : حقيقته وحكمه ومحله

للدكتور
صالح بن عثمان الهليل
الأستاذ المساعد في قسم الفقه
بكلية الشريعة بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فهذا بحث يتضمن موضوعاً من الأهمية بمكان، وهو موضوع توثيق المعاملات في الفقه الإسلامي وأهميته تظهر في كونه يشمل جميع طبقات المجتمع إذ كل فرد بحاجة ماسَّة إلى التبادل التجاري مع غيره. وهذا الأمر ذو أثر خطير على العلاقات بين الناس، فقد أحضرت الأنفس الشح، ومن هنا فإطلاق التعامل بين الناس دون عمل الاحتياطات اللازمة لحفظ الحقوق من الجحود، أو النسيان ـ قد يؤدي إلى المنازعة، والمخاصمة بين الأفراد، وهذا أمر له ما بعده من تفكيك المجتمع، وتناحر أفراده. الأمر الذي يتنافى مع مبادىء الإسلام. وبناء على ما سبق تظهر أهمية هذا الموضوع الذي يعنى بوسائل حفظ الأموال وبيان الأحكام الشرعية لها.

والجدير بالذكر أن هذا الموضوع متشعب فلا يمكن الكلام عن موضوعاته في بحث واحد. لذا فسوف أقصر الكلام هنا على الموضوعات الآتية:

الموضوع الأول: بيان حقيقة التوثيق
الموضوع الثاني: بيان حكم توثيق المعاملات
الموضوع الثالث: بيان محل التوثيق من المعاملات

الموضوع الأول

بيان حقيقة التوثيق

يأتي التوثيق في اللغة للمعاني[1] الآتية :

العهد، والائتِمَان، والإحْكام، والشدّ .

يقال : واثق الرجل الرجل بمعنى عاهده. ومنه قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2]

فالمِيثَاقُ بمعنى العهد، والمُواثَقَة بمعنى المُعَاهَدة، وتواثقنا على كذا أي تعاهدنا.

ويقال أيضاً: وَثِقَ به يَثِقُ بمعنى ائْتَمنَه.

ويقال: وَثّقْتُ الشيء أي أحكمته ومنه قولهم: ناقة موثَّقة الخَلق بمعنى محكمة. والوثيق الشيء المحكم. وقولهم أخذ الأمر بالأَوْثَق أي : الأسد الأحكم.

ويقال: وَثّقْت الشيء تَوثيقاً فهو مُوَثَّق، وأوثقه في الوِثَاق أي شدّه في الرباط ومنه قوله تعالى: ﴿ . . . فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾[3].

---

(١) انظر مادة وثق في معجم مقاييس اللغة ٦/٨٥، أساس البلاغة ٢/٤٩١ ط الثانية. مختار الصحاح ص ٧٠٨. لسان العرب ١٠/٣٧١/٣٧٢.

(٢) المائدة آية (٧). هذا وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ أن معنى الميثاق في الآية العهد. كما هو في كتب اللغة. انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٣٠.

(٣) محمد آية / ٤ والآية كاملة ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرِّقَاب حتى إذا أَثْخَنْتُمُوهم فشدُّوا الوَثَاق فإمّا منّاً بعد وإمّا فِداء حتى تضعَ الحرب أَوْزَارَها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم﴾ هذا وقد فسر الوثاق بالرباط كما في المختصر في تفسير القرآن للتجيبي ص ٤٠٥.

أما تعريف التوثيق اصطلاحاً فقد عُرِّف بأنه: «الأمر الذي يحصل به التقوِّي على الوصول للحق»[٤].

والذي يظهر أن هذا التعريف غير مانع حيث يدخل فيه ما لا يعد توثيقاً كالدعوى[٥] فإنها من الأشياء التي يُتَقَوَّى بها للوصول إلى الحق، ومع ذلك لا تعتبر من التوثيق في شيء. والمفروض في التعريف أن يكون مانعاً من دخول غير أفراد المعرف.

وعرف أيضاً بأنه: عبارة عن مجموعة من الوسائل التي تؤدي إلى استيفاء الحق عند تعذره من المدين، أو إثباته في ذمته عند الإنكار[٦].

وهذا التعريف ـ لعله ـ أولى من غيره لكونه جامعاً مانعاً، ومنه: يتضح أن وسائل التوثيق قسمان:

القسم الأول:

الوسائل التي يقصد منها الاستيفاء، وهي ثلاث وسائل: الرهن، والضمان، والكفالة.

القسم الثاني:

الوسائل التي يقصد منها إثبات الحق وهي وسيلتان: الشهادة والكتابة.

ومن هذا القسم تنشأ العلاقة بين التوثيق والإثبات، ولا يعني هذا عدم الفارق بينهما، بل بينهما فروق منها:

أولاً: تقدم التوثيق على الإثبات في الوجود. فالتوثيق يكون عند التعامل المقتضي انشغال الذمة بالحق. والإثبات لا يكون إلَّا بعد إنكار ذلك الحق.

---

(٤) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجَلَالَين للدقائق الخفية ١/ ٢٣٠.

(٥) الدعوى: أن يضيف الإنسان إلى نفسه استحقاق شيء في يد غيره أوفي ذمته. انظر المغني ٩/ ٢٧١.

(٦) انظر مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ـ الصادرة عن كلية الشريعة والدراسات الإسلامية التابعة لجامعة أم القرى ـ العدد السادس ٤١/ ٤٢.

ثانياً : يمثل التوثيق ـ أحياناً ـ بعض وسائل الإثبات ـ إلا أن الإثبات أوسع باباً منه وهذا ما صرح به شيخ الإسلام ابن تيمية[٧] ـ وتلميذه ابن القيم[٨] ـ رحمهما الله تعالى ـ حيث قالا : ما مفاده : إن الطرق التي يحكم بها الحاكم (وسائل الإثبات والحكم) أوسع من الطرق التي أرشد الله ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب الحق إليها حتى يحفظ حقه من الضياع أو النسيان . وتلك وسائل التوثيق[٩]

ومن هنا يظهر الفرق بين الإثبات والتوثيق ويتبين منه أن وسائل كل منهما قد تتمحض له وقد يشتركان فيها على ما مرّ.

---

(٧) هو شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحكيم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي . الإمام الفقيه، المجتهد المحدث، الأصولي الزاهد المجاهد . ولد بحران سنة ٦٦١هـ . وتوفي سجيناً بالقلعة سنة ٧٢٨ ـ له مصنفات كثيرة منها :

١ ـ الفتاوى مطبوع في ٢٩ مجلداً بما في ذلك الفهارس .

٢ ـ له كثير من الرسائل في العقيدة والرد على الملاحدة مثل العقيدة الواسطية والرسالة التدمرية وغيرهما كثير.

انظر في ترجمته الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/٣٨٧ .

(٨) هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي الفقيه الحنبلي، بل المجتهد المفسر، النحوي، الأصولي، المتكلم الشهير بابن قيم الجوزية، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية . ولد سنة ٦٩١هـ وتوفي سنة ٧٥١ هـ له مصنفات كثيرة منها :

١ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين .

٢ ـ بدايع الفوائد .

٣ ـ الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية وهي القصيدة المعروفة بالنونية .

انظر في ترجمته النجوم الزاهرة ١٠/٢٤٩ . شذرات الذهب ٦/١٦٨ .

(٩) انظر: إعلام الموقعين ١/٩٦ . الطرق الحكمية ص ٧١ .

المـوضوع الثانى

بيان حكم التوثيق

اختلف العلماء في حكم التوثيق على ثلاثة أقوال:

القـول الأول : أنه مستحب :

ذهب إلى هذا القول الحنفية[١٠] والمالكية[١١] والشافعية[١٢] والحنابلة[١٣] وقال عنه ابن الجوزي[١٤] ـ رحمه الله تعالى ـ : إنه مذهب جمهور العلماء[١٥].

القول الثاني أنه واجب :

وهذا قول[١٦] ابن عباس[١٧] ـ رضي الله عنهما ـ ومذهب الظاهرية[١٨]، وقال به[١٩]

(١٠) انظر أحكام القرآن للجصاص م١/٤٨٢. التفسير الكبير للرازي ١١٨/٧.

(١١) انظر تبصرة الحكام بهامش فتح العلي ٢٠٩/٢. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٨٣/٣، ٤٠٢، ٤٠٣

(١٢) انظر الأم ٨٨/٣. أحكام القرآن للشافعي ١٢٥/٢، المجموع ١٦٢/٩.

(١٣) انظر المغني ٣٠٢/٤، ٣٦٢. كشاف القناع ١٨٨/٣، ٣٢١.

(١٤) هو أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي الفقيه الحنبلي، الواعظ، كان إمام عصره في الحديث وصناعة الوعظ. ولد عام ٥٠٨ هـ وقيل ٥١٠هـ وتوفي سنة ٥٩٧هـ ببغداد ودفن بباب حرب. له مصنفات عدة منها:
١ ـ زاد المسير في علم التفسير. ٢ ـ «المنتظم» في التاريخ. ٣ ـ الموضوعات في أربعة أجزاء.
انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١٤٠/٣/١٤٢. شذرات الذهب ٣٢٩/٤.

(١٥) انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢٨٢/١.

(١٦) انظر المغني ٣٠٢/٤، المبدع في شرح المقنع ٥٠/٤. هذا ولم أعثر على أثر لابن عباس في هذا المجال ـ وذلك من خلال كتب الآثار التي اطلعت عليها.

(١٧) هو حبر الأمة، وترجمان القرآن، أبو العباس عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وأدركه دعاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ له بالفقه بالدين وعلم التأويل. مات بالطائف سنة ٦٨ هـ. انظر في ترجمته الاستيعاب ٣٥٠/٢. الإصابة ٣٣٠/٢.

(١٨) انظر المحلي ٢٨٤/٩.

(١٩) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٧٩/٣ و ٨٩. التفسير الكبير للرازي ١١٨/٧.

عطـاء[٢٠]، وابن جريج[٢١]، والنخعي[٢٢]، واختاره[٢٣] ابن جرير الطبري[٢٤].

القول الثالث أنه مبـاح :

حيث قال أصحابه: إن التوثيق كان واجباً ثم نسخ. وهذا يفهم منه أنهم يرون إباحته[٢٥].

---

(٢٠) هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح، واسم أبي رباح أسلم، وقيل سالم بن صفوان مولى بني فهر، أو جميح: المكي. أخذ العلم عن عدد من الصحابة منهم ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وغيرهم. توفي سنة ١١٥هـ، وقيل سنة ١١٤هـ، وعمره ٨٨ سنة. انظر ترجمته في طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٩. وفيات الأعيان ٣/٢٦١.

(٢١) هو أبو خالد، أو أبو الوليد عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الرومي الأموي بالولاء، المكي، الفقيه. ولد سنة ٨٠ هـ، وتوفي سنة ١٥٠. كان عابداً. له ترجمة في تذكرة الحفاظ ١/١٦٩ ـ ١٧١. تهذيب التهذيب ٦/٤٠٢ ـ ٤٠٦.

(٢٢) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، أبو عمران، روى عن علقمة ومسروق، والأسود وغيرهم. أخذ عنه حماد بن أبي سليمان الفقيه، والحكم بن عتيبة قال الأعمش: كان إبراهيم صيرفياً في الحديث، وكان يتوقى الشهرة. توفي سنة ٩٥هـ وقال بعضهم ٩٦. له ترجمة في تذكرة الحفاظ ١/٧٣، ٧٤. تهذيب التهذيب ١/١٧٧، ١٧٨. وفيات الأعيان ١/٢٥.

(٢٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٣/٧٩، ٨٩.

(٢٤) هو: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، الإمام، المؤرخ، المفسر ولد في آمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ، وسكن بغداد، وكان ثقة مجتهداً، فصيحاً. توفي ببغداد سنة ٣١٠هـ. له مؤلفات منها: تفسير القرآن المسمى: جامع البيان في تفسير القرآن. أخبار الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري. له ترجمة في وفيات الأعيان ٤/١٩١/١٩٢. تذكرة الحفاظ ٢/٧١٠ ـ ٧١٦.

(٢٥) جاء في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه في معرض الكلام على آية الدَّيْن قوله: أمر الله ـ جل ذكره ـ في هذه الآية بكتاب الدَّيْن للتوثق. . . ، وأمر بالإشهاد أمراً عاماً. . ثم نسخ ذلك وخففه بقوله ﴿**فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته**﴾ وهذا قول أبي سعيد. . . فيكون هذا ـ على هذا القول ـ مما نسخ فرضه بغير فرض بل نحن مخيرون في فعل الأول وتركه من شاء كتب ومن شاء لم يكتب ومن شاء أشهد ومن شاء لم يشهد انتهى مختصراً من ص ١٦٤.

ذهب إلى هذا القول[٢٦] أبو سعيد الخدري[٢٧] ـ رضي الله عنه ـ والحسن[٢٨] والشعبي[٢٩] .

الأدلـــة :

أولاً : أدلة القول الأول :

استدل أصحابه بالكتاب والسنة، والمعقول. أما الكتاب فقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا

---

(٢٦) انظر المصدر السابق/١٦٤. زاد المسير لابن الجوزي ١/٣٤٠.
التفسير الكبير للرازي ٧/١١٨. تفسير البغوي بهامش تفسير الخازن ١/٢٥٦. والأثر أخرجه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنه تلا آية الدين فلما بلغ قوله تعالى: ﴿**فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته**..﴾ قال: نسخت هذه الآية ما قبلها.
انظر سنن ابن ماجه ٢/٧٩٢ وأخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٤٥.

(٢٧) هو الصحابي الجليل سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة الأبجر. والأبجر هو خدرة بن عوف بن الحرث بن الخزرج، الأنصاري الخزرجي. اشتهر بأبي سعيد الخدري. أول مشاهده الخندق وقد غزا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنتي عشرة غروة. توفي سنة ٧٤هـ وقيل ٦٣، وقيل غير ذلك. انظر الاستيعاب لابن عبدالبر ٢/٤٧. الإصابة لابن حجر ٢/٣٥.

(٢٨) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ـ مولى الأنصار ـ وأمه خيّرة مولاة أم سلمة، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ ونشأ بوادي القرى وكان فصيحاً عالماً. من كبار التابعين جمع كل فن : من علم وزهد، وورع وعبادة. مات بالبصرة سنة ١١٠هـ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ـ رحمه الله رحمة واسعة .
انظر تهذيب التهذيب ٢/٢٦٣. وتذكرة الحفاظ ١/٧١، ٧٢.

(٢٩) هو أبو عمرو عامر بن شراحبيل الشعبي الحميري الكوفي، تابعي مشهور، معدود في الثقات. ولد سنة ١٩ هـ، وتوفي سنة ١٠٣هـ على خلاف في ذلك. له ترجمة في تذكرة الحفاظ ١/٧٩ ـ ٨٨، تهذيب التهذيب ٥/٦٥ ـ ٦٩.

فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ (٣٠)

وجـه الاستشهـاد :

جاء في هاتين الآيتين الأمر بكتابة الدين والإشهاد عليه وأخذ الرهن به والأمر للوجوب ما لم يصرفه صارف فإن صرفه صارف صار للندب. وهذه الأمور قد صرفت من الوجوب إلى الندب لوجود القرينة، والقرينة أحد أمور:

الأول : قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ
ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾

(٣٠) البقرة آية ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

وجه الاستشهاد من هذه الآية :

هو أن الله أمر بالكتابة والإشهاد ثم أمر بأخذ الرهن إذا لم يجد الكاتب بدلاً من الإشهاد ثم أباح: ترك الرهن وقال:

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ . . ﴾ الآية.

فلما جاز أن يترك الرهن الذي هو بدل الشهادة جاز ترك الإشهاد. فدل ذلك على أن الأمر للندب لا للوجوب الذي يأثم تاركه[٣١]

الثاني : قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٣٢]

ووجه الاستدلال من هذه الآية هو أن الله سبحانه وتعالى أباح البيع على الإطلاق[٣٣] ولم يأمر بتوثيقه في هذه الآية فدل ذلك على عدم وجوبه .

الثالث :

ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث دالة على تركه الكتابة

---

(٣١) انظر أحكام القرآن للشافعي ٢/١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣٢) البقرة / ٢٧٥ .

(٣٣) انظر الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ١٦٥ .

والإشهاد في تعامله وتلك قرينة على أن الأمر في الآية الكريمة المراد به الندب[٣٤]. إذ لو كان واجباً ما تركه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هذه الأحاديث ما يأتي: وهي أدلة هذا القول من السنة:

الحديث الأول :

«حديث طارق[٣٥] بن عبدالله المُحَارِبي قال: أقبلنا في ركب من الرَّبذَة[٣٦] وجنوب الربذة حتى نزلنا قريباً من المدينة ومعنا ظعينة[٣٧] لنا فبينا نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه، فقال: من أين أقبل القوم؟ فقلنا: من الربذة وجنوب الربذة. قال: ومعنا جمل أحمر؛ فقال: تبيعوني جملكم قلنا نعم، قال: بكم؟ قلنا بكذا وكذا صاعاً من تمر قال: فما استوضعنا شيئاً وقال: قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتوارى عنا، فتلاومنا بيننا وقلنا: أعطيتم جملكم من لا تعرفونه فقالت الظعينة: لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليحقركم[٣٨]، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمَر ليلة البدر من وجهه. فلما كان العِشَاء أتانا رجل فقال: السلام عليكم أنا رسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليكم، وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا قال: فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا حتى

---

(٣٤) انظر المغني ٤/٣٠٢/٣٠٣، المبدع ٤/٥٠.

(٣٥) هو طارق بن عبدالله المُحاربي، من محارب. صحابي نزل الكوفة لكنه قليل الحديث حتى قال: ابن البرقي له حديثان، وقال: ابن السكن ثلاثة، حديثه في الكوفيين.
انظر الاستيعاب ٢/٢٣٦. الإصابة ٢/٢٢٠.

(٣٦) الرَّبَذَة قرية من قرى المدينة، وهي قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/٢٤.

(٣٧) الظعينة: هي الهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن. والظعينة أيضاً تطلق على المرأة ما دامت في الهودج فإن لم تكن فيه فليست بظعينة. انظر مختار الصحاح/ ٤٠٤ مادة: ظعن.

(٣٨) قال في مختار الصحاح ص ١٤٦: «حَقَره غيره من باب ضرب استصغره وكذا (احتقره و (استحقره) و(حقّره تحقيراً) صغّره...».

استوفينا». أخرجه[٣٩] الدارقطني[٤٠].

الحديث الثاني :

حديث عُمَارَة[٤١] بن خُزَيْمَة أن عمه[٤٢] حدثه، وهو من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ ابتاع[٤٣] فرساً من أعرابي فاستتبعه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المشي وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلَّا بعته، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سمع نداء الأعرابي قال: «أو ليس قد ابتعته منك؟ فقال الأعرابي: لا، والله ما بعتكه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ـ «بل قد ابتعته منك» فطفق الأعرابي يقول: هلمَّ شهيداً، فقال خُزَيْمَة[٤٤] بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي

---

(٣٩) انظر سنن الدارقطني ٣/٤٤/٤٥ وقال في التعليق المغني: رواته كلهم ثقات. انظر التعليق المغني بذيل سنن الدارقطني ٣/٤٤.

(٤٠) هو العالم الجليل علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي الدارقطني أبو الحسن، الحافظ الشهير: صاحب السنن والعلل، والأفراد. قال الحاكم أوحد عصره في الفهم والحفظ والورع، إمام في القراء، والمحدثين لم يخلّف على أديم الأرض مثله. ولد سنة ٣٠٦هـ وتوفي سنة ٣٨٥هـ.
انظر تذكرة الحفاظ ٣/٩٩١. شذرات الذهب ٣/١١٦.

(٤١) هو عُمَارَة بن خُزَيْمَة بن ثابت الأنصاري أبو عبدالله، ويقال: أبو محمد المدني روى عن أبيه، وعمه، وعثمان بن حنيف وعمرو بن العاص. وروى عنه ابنه محمد أبو خزيمة، ومحمد بن زرارة، وعمرو بن خزيمة. وغيرهم. مات سنة ١٠٥ وقيل مات في أول خلافة الوليد، وكان ـ رحمه الله ثقة قليل الحديث ـ.
انظر في ترجمته الكاشف للذهبي ٢/٣٠٢. وتهذيب التهذيب ٧/٤١٦.

(٤٢) قال ابن سعد في الطبقات ما نصه: «لم يسم لنا أخو خزيمة بن ثابت الذي روى هذا الحديث، وكان له أخوان يقال لأحدهما وَحْوَحَ ولا عقب له. والآخر عبدالله وله عقب. وأمهما أم خزيمة كُبيشة بنت أوس بن عدي بن أمية الخَطْمي» انتهى كلامه. الطبقات ٤/٣٧٩. وانظر أيضاً عون المعبود ١٠/٢٥.

(٤٣) معنى قوله ابتاع: أي اشترى. انظر حاشية الإمام السندي بهامش سنن النسائي ٧/٣٠١.

(٤٤) هو الصحابي الجليل أبو عبادة خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخَطْمي الأنصاري من بني خَطْمة من الأوس يعرف بذي الشهادتين، لأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل شهادته كشهادة رجلين. شهد بدراً وما =

ـ صلى الله عليه وسلم ـ على خزيمة فقال: «بم تشهد» ؟ فقال بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين. أخرجه أبو داود[٤٥] في سننه بهذا اللفظ[٤٦].

وجه الدلالة من هذين الحديثين :

دل الحديثان على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشترى ولم يكتب، ولم يُشْهِد، ولو كانت الكتابة والشهادة واجبتين لما تركهما ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلما تركهما مع الأمر بهما في القرآن الكريم ـ كما تقدم ـ دل ذلك على أن الأمر للندب لا للوجوب[٤٧].

= بعدها من المشاهد وقيل أوّل مشاهده أحد. استشهد في صفين سنة سبع وثلاثين. انظر الاستيعاب لابن عبدالبر ١/٤١٧. الإصابة لابن حجر ١/٤٢٥.

(٤٥) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمر بن عمران الأزدي السجستاني. أحد حفاظ الحديث، وعلومه، وعلله، وهو يعتبر من طبقات الفقهاء أيضاً ولد سنة ٢٠٢هـ، وتوفي بالبصرة سنة ٢٧٥هـ. له كتاب السنن المعروف بسنن أبي داود. انظر وفيات الأعيان ٢/٤٠٤.

(٤٦) انظر سنن أبي داود ٣/٣٠٨. وأخرجه النسائي أيضاً في سننه انظر سنن النسائي ٧/٣٠١ و ٣٠٢ وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال عنه: «هذا حديث صحيح الإسناد ورجاله باتفاق الشيخين ثقات ولم يخرجاه. وعمارة بن خزيمة سمع هذا الحديث من أبيه أيضاً».
انظر المستدرك ٢/١٧ ، ١٨.
وقد وافق الذهبي على ذلك كما في التلخيص بذيل المستدرك ٢/١٧ ، ١٨.
وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٤٥ ، ١٤٦.
هذا وقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه ـ قال نسخت الصحف في المصاحف ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ بها فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهادته شهادة رجلين وهو قوله: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. . .﴾ الأحزاب آية ٢٣.
فاقتصر فيه البخاري على ما ذكر ولم يذكر القصة التي كانت سبباً لهذا الحديث وهي موطن الاستشهاد.
انظر صحيح البخاري ٣/٢٠٥ ، ٢٠٦.

(٤٧) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/٤٠٣ السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١٤٦.

مناقشة الاستدلال بحديث خزيمة بن ثابت :

رد ابن حزم[٤٨] ـ رحمه الله تعالى ـ الاستدلال بهذا الحديث من وجوه عدة هي :

الأول : أنه خبر لا يصح . لأن في سنده راوياً مجهولاً هو «عُمَارَة بن خزيمة»[٤٩] .

دفع هذا الاعتراض :

يمكن أن يجاب عن هذا الاعتراض: بأن يقال: إنّ بعض رجال الحديث قد حكموا على هذا الحديث بالصحة منهم الحاكم[٥٠] ـ رحمه الله ـ قال بعد إخراج الحديث: «هذا حديث صحيح الإسناد، ورجاله باتفاق الشيخين ثقات ولم يخرجاه»[٥١] .

ووافقه الذهبي[٥٢] في التلخيص[٥٣] .

---

(٤٨) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن سفيان . ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ وتوفي سنة ٤٥٦هـ . كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث والفقه ، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة . كان شافعي المذهب ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر . ومصنفاته كثيرة منها :

١ ـ المحلي وهو كتاب مشهور . ٢ ـ كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة .

(٤٩) انظر المحلي ٩/ ٢٩٠ .

(٥٠) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد النيسابوري المعروف بالحاكم . كان إمام أهل الحديث في عصره ، وبيته بيت صلاح وورع . توفي سنة ٤٠٥هـ . له مصنفات منها :

١ ـ المستدرك على الصحيحين . ٢ ـ تاريخ نيسابور . ٣ ـ فضائل الشافعي .

انظر طبقات الشافعية لأبي بكر المصنف ص ٤١ .

(٥١) المستدرك ٢/ ١٧ ـ ١٨ .

(٥٢) هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، تركماني الأصل ، حافظ ، مؤرخ ، محقق ولد سنة ٦٧٣هـ بدمشق . وبها توفي سنة ٧٤٨هـ . له مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ تذكرة الحفاظ . ٢ ـ سير النبلاء . ٣ ـ الكاشف .

انظر النجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٢ .

(٥٣) انظر التلخيص بذيل المستدرك ٢/ ١٧ ـ ١٨ .

أما قول ابن حزم: «إن في سنده راوياً مجهولاً هو عمارة بن خزيمة» ففيه نظر لأن عمارة بن خزيمة رجل ثقة، وثّقه أكثر من واحد من أهل العلم والمعرفة بالرجال[٥٤] وقد تقدمت ترجمته، وذكر فيها أنه روى عن أبيه وعن عمه ـ رحمه الله تعالى ـ .

قال ابن حجر العسقلاني[٥٥] وهو يترجم له: «وغفل ابن حزم في المحلى قال: إنه مجهول لا يدرى من هو»[٥٦].

الثاني: لو فرض صحة الحديث لم يكن فيه حُجَّة. لأنه ليس فيه: أن الأمر تأخر مقدار مدة يمكن فيها الإشهاد. فلم يشهد عليه السلام. حتى يتم الاحتجاج به. كل ما في الأمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتاع منه الفرس ثم استتبعه ليوفيه الثمن فأسرع ـ عليه السلام ـ وأبطأ الأعرابي ـ والبيع لا يتم إلا بالتفرق بالأبدان ـ وإلاَّ فلم يكن تم بعد ولذا ترك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإشهاد لأنه لا يجب إلا بعد تمام البيع وصحته[٥٧].

دفع هذا الاعتراض:

يمكن لأصحاب القول الأول أن يردوا هذا الاعتراض فيقولوا: ورد في الحديث ما يدل على أن البيع قد تم وصح بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين الأعرابي

---

(٥٤) منهم ابن سعد في الطبقات قال عنه: «وكان ثقة قليل الحديث» ٥/٧١. ومنهم ابن حيان حيث عده في الثقات.
انظر الثقات لابن حبان ٥/٢٤٠.

(٥٥) هو: أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني أبو الفضل، أحد أئمة الحديث العظام. نشأ يتيماً، وحفظ القرآن وهو ابن سبع. ولد بمصر سنة ٧٧٣هـ وتوفي ٨٥٢هـ له مصنفات عدة منها:
١ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري.
٢ ـ تهذيب التهذيب.
انظر ترجمته في شذرات الذهب ٧/٢٧٠ـ٢٧٣.

(٥٦) انظر تهذيب التهذيب ٧/٤١٦.

(٥٧) انظر المحلي ٩/٢٩٠.

وذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «بل قد ابتعته منك» وحاش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعي شيئاً لم يتم بعد.

ومن ناحية أخرى: فإن الإشهاد يكون بعد العقد سواء حصل التفرق أو لم يحصل ومع ذلك لم يُشْهِد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يفهم من الحديث.

الثالث: لو فرضنا أن الخبر صحيح. وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترك الإشهاد وهو قادر عليه والبيع قد تم.

وهذا لا يوجد أبداً، فليس فيه: أنه كان بعد نزول الآية ـ ونحن نقر بأن الإشهاد إنما وجب بنزول الآية لا قبل نزولها فكيف يكون قرينة حاملة للأمر على الندب مع جهالة التاريخ[٥٨].

دفع هذا الاعتراض:

يمكن لأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا الاعتراض فيقولوا: لا نوافق على أن معرفة التاريخ شرط لصحة القول بحمل الأمر على الندب وإنما تكون معرفة التاريخ شرطاً لصحة القول بالنسخ ونحن لا نقول: إن الحديث ناسخ للأمر الوارد في الآية. بل نقول هو صارف له إلى الندب فقط.

الرابع: قولكم إن الحديث ليس فيه ذكر للإشهاد. وهذا دليل على ترك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لـه.

هذا غير مسلم به لكم لأن عدم ذكر الراوي للإشهاد لا يدل على ترك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك. بل كل الأحاديث التي من هذا القبيل لا متعلق لكم فيها، لأنها جميعاً لم تتعرض لإثبات الإشهاد أو نفيه[٥٩]

---

(٥٨) انظر المصدر السابق.

(٥٩) انظر المصدر السابق ٢٩٢/٩.

دفع هذا الاعتراض :

يمكن لأصحاب القول الأول أن يردوا هذا الاعتراض من وجهين :

الوجـه الأول :

إن هذه الأحاديث لم يصرح رواتها بأنه أشهد على بيعه وعدم التصريح دليل على عدم الإشهاد. لأنه لو أشهد لذكره الراوي لأنه من جملة الحديث المروي فلمَّا لم يذكره دل على عدم حصوله .

الوجـه الثانـي :

سلَّمنا جدلاً بما قلتم: من أن هذه الأحاديث ليس فيها تصريح بالإشهاد أو عدمه .

لكن لا نسلِّم لكم عدم دلالتها على تركه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإشهاد وخاصة حديث خزيمة إذ فيه دلالة واضحة على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترك الإشهاد وذلك في مساق الحديث بينه وبين الأعرابي حيث ناداه الأعرابي قائلاً : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أو ليس قد ابتعته منك؟» فقال الأعرابي: لا والله مابعتكه فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «بل قدابتعته منك» فطفق الأعـرابي يقـول: «هـلمّ شاهـداً يشهـد . .» فلم يقـل الـرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشاهد فلان وفي هذا دليل على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يُشْهِد وهو بيت القصيد .

أما دليلهم من المعقول :

فإن في إيجاب الكتابة والإشهاد أعظم التشديد والحرج على المسلمين. وذلك لا يتناسب مع روح هذه الشريعة التي جاءت باليسر والتسهيل على الناس[٦٠] . قال الله

(٦٠) انظر الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ١٦٥ . التفسير الكبير للرازي ١١٨/٧ . المغني ٣٠٣/٤ .

تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. ﴾ الآية[٦١].

أدلة القول الثاني :

استدل أصحابه بالكتاب والسنة والمعقول:

أما الكتاب فظاهر قول الله تعالى ـ في آية الدين ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ .. ﴾ الآية.

ووجه الاستشهاد من هذه الآية :

أن الله سبحانه وتعالى أمر بكتابة الدين بقوله: «فاكتبوه» وبالإشهاد بقوله: «وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ» وبالرهن في قوله: «فرهان مقبوضة». وتلك أوامر مغلظة مؤكدة لا تحتمل تأويلاً فلا يجوز صرفها عن ظاهرها بدون قرينة فبقيت على الأصل في الأمر وهو الوجوب[٦٢].

مناقشة الاستدلال بالآية :

أجاب أصحاب القول الأول عن هذا الاستدلال بقولهم: نحن معكم في كون الأمر أصله الوجوب، وهذا أمر، لكنه صرف هنا من الوجوب إلى الندب، لوجود القرينة المقتضية لذلك. وقد سبق ذكرها[٦٣].

---

(٦١) الحج آية ٧٨. وكمالها: ﴿... وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾.

(٦٢) انظر المحلي ٩/ ٢٨٥.

(٦٣) انظر ص ٢٥.

أمـا دليلهم من السنـة فحديث أبي موسى الأشعري[٦٤] الذي يرويه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم رجل كانت تحته امرأة سيئة الخُلُق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يُشْهد، ورجل آتى سفيهاً ماله وقد قال الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[٦٥] أخرجه[٦٦] الحاكم والبيهقي[٦٧].

وجه الدلالة من هذا الحديث :

أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر في هذا الحديث ـ بأن من ترك الإشهاد على ماله لم يستجب له، وكونه لا يستجاب له يدل على عصيانه بترك الإشهاد. وهذا يُفْهِم أن ترك الإشهاد معصية يعاقب عليها، فدل ذلك على وجوبه، إذ لو كان ندباً لما استحق العقوبةَ تاركُه.

---

(٦٤) هو: الصحابي الجليل أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري أسلم بمكة، وهاجر إلى الحبشة، وقدم المدينة ـ والنبي صلى الله عليه وسلم ـ في خيبر، كان ذا صوت حسن بالقرآن الكريم، ولاه عمر ـ رضي الله عنه ـ البصرة سنة ٢٠ هـ، وتولى الكوفة في خلافة عثمان، توفي بمكة سنة ٤٢، وعمره ثلاث وستون سنة. على خلاف في ذلك. انظر الاستيعاب ٢/٣٧١/٣٧٢. الإصابة ٢/٣٥٩.

(٦٥) النساء آية ٥. والآية كاملة: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً**﴾.

(٦٦) انظر المستدرك للحاكم ٢/٣٠٢. وقد قال بعد ذكر الحديث: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبي موسى..» وأخرجه الذهبي في التلخيص ٢/٣٠٢. وقال بعـده: «ولم يخرجاه لأن الجمهور رووه عن شعبة موقوفاً، ورفعه معاذ بن معاذ عنه». وانظر السنن الكبرى للبيهقي ١٠/١٤٦. فقد أخرجه أيضاً من حديث أبي موسى الأشعري.

(٦٧) هو: الإمـام أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى البيهقي، فقيه شافعي، حافظ محدث، مشهور بنسبته إلى بيهق وهي قرى مجتمعة بنيسابور. ولد سنة ٣٨٤، وتوفي سنة ٤٥٨هـ في نيسابور. ثم نقل إلى بيهق. له مصنفات منها:
١ ـ السنن الكبرى في الحديث. ٢ ـ دلائل النبوة.
انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١/٧٥.

مناقشة الاستدلال بهذا الحديث :

أجيب عنه بالمنع إذ ليس في الحديث ما يدل على الوجوب، إنما فيه الدلالة على أن فاعل ذلك تارك للاحتياط، والتوصل إلى ما جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه المخرج والخلاص .

والدليل على أن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لا يستجاب لهم» لا يدل على الوجوب أنه ذكر في الحديث من له امرأة سيئة الخُلُق ولم يطلقها. ولا خلاف في عدم وجوب طلاقها فدل هذا عن أن ما في هذا الحديث على نسق واحد، وأنه من باب الاحتياط فقط[٦٨].

أما دليلهم من المعقول: فالقياس على النكاح وبيانه: أن البيع عقد معاوضة فيجب الإشهاد عليه كالنكاح[٦٩]

مناقشة هذا الدليل :

يمكن لأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا الدليل فيقولوا: إنه قياس في مواجهة النصوص فلا ينهض حجة.

دليل القول الثالث :

استدل القائلون به بقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ الآية.

وجه الدلالة من هذه الآية :

دلت الآية الكريمة على أنه متى ما حصل الائتمان بين المتعاملين، فإن الواجب

(٦٨) انظر أحكام القرآن للجصاص ١ م/٤٨٢.

(٦٩) انظر المغني ٤/٣٠٢. المبدع ٤/٥٠.

تأدية الحقوق، وعدم الخيانة فيها، ومن هنا فالأوامر بكتابة الدين، والإشهاد عليه، وأخذ الرهن به للإباحة، فهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية.

وعلى هذا تبقى الحال على الإباحة الأصلية، ويصير التوثيق بما ذكر من باب المباح[٧٠].

والقول بالنسخ مروي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ فقد تلا آية الدَّين، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا.﴾ قال: نسخت هذه الآية ما قبلها[٧١].

مناقشة القول بالنسخ :

رد القول بالنسخ من عدة وجوه منها :

الوجه الأول :

ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: لما قيل له: «إنَّ آية الدَّين منسوخة قال: لا والله إن آية الدَّين محكمة ليس فيها نسخ . .»[٧٢].

الوجه الثاني :

قولهم : إن النسخ لا يكون إلا في حكمين لا يمكن اجتماعهما وهذه الآية ليست

---

(٧٠) انظر الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ١٦٤ . التفسير الكبير للرازي ١١٨/٧ . تفسير البغوي ٢٥٦/١ . تفسير الخازن المسمى : لباب التأويل في معاني التنزيل ٢٥٦/١ :

(٧١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٧٨/٣ . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٨٣/٣ . الأثر عن أبي سعيد الخدري سبق تخريجه في ص٢٣ .

(٧٢) أحكام القرآن للجصاص ٤٨١/١ . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٠٤/٣ . والقول: إن آية الدّين محكمة مروي عن ابن عمر وأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ .
انظر الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ١٦٥ .

من هذا القبيل لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما أذن بترك الكتابة عند تعذرها كما لو عدم آلة الكتابة أو الكاتب. فأما مع وجودهما فالفرض إذا كان الدَّيْن إلى أجل مسمى ما أمر الله تعالى به من الكتابة والإشهاد[٧٣].

بهذا يظهر أن الآية من باب المحكم لا من باب المنسوخ.

الترجيح :

من خلال ما سبق من عرض لأدلة كل قول ومناقشة ما أمكن مناقشته منها يظهر ـ والله أعلم ـ رجحان القول الأول فيكون التوثيق من باب المستحبات.

وسبب الترجيح :

١ ـ قوة أدلة هذا القول مع عدم وجاهة الاعتراضات التي وجهت إلى البعض منها.
٢ ـ ضعف أدلة القولين الثاني والثالث حيث أجيب عنها كما سبق.

(٧٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٣/٧٩.

المـوضوع الثالث

في بيان محـل التوثيق من المعاملات

تنقسم المعاملات ـ بالنظر إلى كونها محلاً للتوثيق أو عدمه ـ إلى قسمين: أبحثهما في المبحثين الآتيين :

المبحث الأول : في المعاملات المتفق على مشروعية توثيقها وهي :

الديـون: فهذه لا خلاف بين العلماء في مشروعية توثيقها وإنما وقع الخلاف بينهم في حكمه التكليفي، فمن قائل بوجوب توثيقها. ومن قائل بندبه، ومن قائل بإباحته.

وقد ذُكِر هذا الخلاف ورجح استحباب توثيقها فيما سبق[٧٤].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا فرق بين كثير الدَّيْن وقليله وهذا صريح القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿... وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ...﴾[٧٥].

فما دام أن هنـاك تأجيلاً فالقـرآن الكريم يرشدنا إلى توثيق الدَّين، وينهانا عن الضجر والملل من كتابته، والقليل من المال في هذا الاحتياط كالكثير، لأن النزاع الحاصل بسبب القليل ربما أدَّى إلى فساد عظيم ولجاج شديد[٧٦]. تجب حماية المجتمع المسلم منه.

---

(٧٤) انظر ص ٢٢.

(٧٥) البقرة آية / ٢٨٢.

(٧٦) انظر التفسير الكبير للرازي ١٢٤/٧.

المبحث الثاني : في المعاملات المختلف في توثيقها وهي :

التجارة الحاضرة : والمراد بها : التعامل المدار بين المتعاقدين بدون تأجيل ثمن، أو مثمن.

فهذا النوع من التعامل قد وقع الخلاف في توثيقه، ويمكن إيضاحه على النحو الآتي :

تمهيد : تنقسم التجارة الحاضرة إلى قسمين :

القسم الأول : التجارة الحاضرة ذات الثمن الكثير «ماله خطر».

القسم الثاني : التجارة الحاضرة ذات الثمن القليل «ما لا خطر فيه».

وسوف أبيّن حكم توثيق هذين القسمين في مسألتين منفصلتين على الوجه الآتي :

المسألة الأولى : في التجارة الحاضرة ذات الثمن الكثير :

وهذا القسم من التجارة يباح ترك كتابته لحصول التقابض من الطرفين. وعمدة ذلك قوله تعالى:

﴿... إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ..﴾[77] الآية.

ففي هذا الجزء من آية الدَّيْن الترخيص من الله سبحانه وتعالى في ترك كتابة هذا النوع من التعامل لكثرة جريانه بين الناس[78]. ولأن كلاً من المتبايعين بالنقد، يأخذ

(٧٧) البقرة /٢٨٢ .

(٧٨) انظر التفسير الكبير للرازي ١٢٦/٧ . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٠١/٣ / ٤٠٢ . تفسير الخازن ٢٥٩/١ .

حقه من الآخر في مجلس العقد فلا حاجة إلى الكتابة لانتفاء إمكان التجاحد أو النسيان[٧٩].

قال القرطبي[٨٠] ـ رحمه الله تعالى ـ إن التجارة الحاضرة لا حاجة إلى توثيقها بالكتابة إذا كانت في قليل الثمن. أما إذا كانت في كثير الثمن كالأملاك من الأراضي والمباني ونحوها فلا مانع من تسجيلها وكتابتها[٨١]. وإن كانت من قبيل التجارة الحاضرة.

وهـذا التقسيم لا يتعـارض مع قول الله تعـالى:

﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ... ﴾ لأن الآية الكريمة نفت الإثم على ترك الكتابة. فمن كتب فقد فعل أمراً مباحاً.

وبعبارة أخرى: إذا كان التوثيق الكتابي في التجارة الحاضرة غير مطلوب لا إيجاباً ولا ندباً، وغير منهي عنه لا تحريماً ولا كراهة. فلم يبق حينئذ إلا كونه مباحاً[٨٢].

هذا بالنسبة للتوثيق بالكتابة إذا كانت المعاملة بالنقد. أما حكم التوثيق بالإشهاد فقـد اختلف العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ بالنسبة لترك التوثيق بالإشهاد في التجارة الحاضرة ذات الثمن الكثير على ثلاثة أقوال:

القول الأول: يستحب الإشهاد عليها وهذا هو مذهب جماهير العلماء[٨٣].

---

(٧٩) المصادر السابقة.

(٨٠) هو: محمـد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، أبو عبدالله، المفسر، كان رجلاً صالحاً، عالماً عارفاً، رحل إلى الشرق، واستقـر في شمال أسيوط بمصر، وبها توفي سنة ٦٧١هـ. له مصنفات من أهمها: تفسيره المعرف بالجامع في أحكام القرآن. انظر ترجمته في الديباج المذهب ص ٣١٧. شذرات الذهب ٥/٣٣٥.

(٨١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣/٤٠٢ بتصرف.

(٨٢) انظر مجلة الأزهر جـ ٢١/٤٩٨.

(٨٣) منهم الجصاص في أحكام القرآن ١/٥٢١. والرازي في التفسير الكبير ٧/١٢٤. وابن العربي في أحكام القرآن ١/٢٥٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣/٤٠١. وابن الجوزي في زاد المصير ١/٣٣٩. ابن قدامة في المغني ٤/٣٠٢. وانظر أيضاً ص ٢٢.

القول الثاني : يجب الإشهاد عليها.

ذهب إلى هذا القول جماعة منهم[٨٤]: سعيد بن جبير[٨٥] وعطاء، والضحاك[٨٦].

القول الثالث : إباحة الإشهاد عليها.

ذهب إلى[٨٧] هذا القول جماعة منهم: الحسن البصري، والشعبي - رحمهما الله تعالى -.

الأدلة :

دليل القول الأول:

استدل أصحابه بقوله تعالى: ﴿... وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ...﴾[٨٨] الآية.

وجه الدلالة من الآية :

في هذه الآية الأمر بالإشهاد على التبايع على وجه العموم سواء أكان التبايع ناجزاً «تجارة حاضرة»، أو مؤجلاً. وهذا يفهم أن الإشهاد واجب في التجارة الحاضرة. لكنه صرف عن الوجوب إلى الاستحباب بأمور كثيرة سبق ذكرها في الموضوع الثاني من هذا البحث فليراجع[٨٩].

---

(٨٤) انظر أحكام القرآن للجصاص ١/٤٨١. أحكام القرآن لابن العربي ١/٢٥٩. تفسير البغوي ١/٢٥٩. تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٣٦.

(٨٥) هو العالم العابد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي أبو محمد وقيل: أبو عبدالله الكوفي، روى عن جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وأبو سعيد الخدري وغيرهما. قتله الحجاج في شعبان سنة ٩٢. وله من العمر ٤٩ سنة وقيل قتله سنة ٩٥، وقيل ٩٤. رحمة الله على سعيد. انظر تهذيب التهذيب ٤/١١. طبقات الحفاظ ص ٣١.

(٨٦) هو الضحاك بن مزاحم البلخي المفسر أبو القاسم ويقال أبو محمد الخراساني لقي سعيد بن جبير بالري، فأخذ عنه التفسير، وثقه أحمد - رحمه الله تعالى - قيل مات سنة ١٠٥هـ، وقيل بل سنة ١٠٦ هـ. انظر ترجمته في ميزان الاعتدال ٢/٣٢٥. تهذيب التهذيب ٤/٤٥٣/٤٥٤.

(٨٧) انظر أحكام القرآن للجصاص ١/٥٢٢. (٢) البقرة/٢٨٢.

(٨٨) البقرة آية ٢٨٢.

(٨٩) انظر ص ٢٦.

دليل القول الثاني :

استدل أصحابه من الكتاب بقوله ـ تعالى ـ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ: ووجه الدلالة من الآية: أنها أمرت بالإشهاد على التبايع على وجه العموم سواء كان التبايع ناجزاً أو مؤجلاً[٩٠]. وبناء على ذلك فهي شاملة للتجارة الحاضرة. فيشهد عليها كغيرها.

مناقشة هذا الاستدلال :

يمكن لأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا الاستدلال فيقولوا: وافقناكم على أن الإشهاد مأمور به لكنه ليس أمر إيجاب كما تقولون. بل أمر استحباب لتضافر القرائن على ذلك. على ما سبق تقريره[٩١].

أدلة القول الثالث :

استدل أصحابه بالكتاب والمعقول..

أما الكتاب فقوله تعالى:

﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾

ووجه الدلالة من هذه الآية: أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً . . ﴾ إلخ استثناء منقطع من الأمر بالكتابة والإشهاد ومعنى الآية على ذلك: لكن التجارة الحاضرة يجوز فيها عدم الكتابة والإشهاد[٩٢].

---

(٩٠) انظر الكشاف للزمخشري ١/٤٠٤. تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٣٦.

(٩١) انظر ص ٢٥.

(٩٢) انظر الكشاف للزمخشري ١/٤٠٤. تفسير القرآن العظيم ١/٣٣٦.

مناقشة هذا الاستدلال :

يمكن الإجابة عن هذا الاستدلال بأن يقال: إن ظاهر الآية الكريمة يأبى هذا التأويل. فقد نصت على ترك كتابة التجارة الحاضرة. ولم تتعرض للإشهاد. فالقول إنه استثناء من الأمر بالكتابة والإشهاد قول فيه نظر لأنه مخالف لظاهر الآية مع عدم الدليل المسوي بين الكتابة والإشهاد في ذلك.

والأولى أن نقف مع ظاهر الآية فنقول: الكتابة للتجارة الحاضرة لا مانع من تركها. أما الإشهاد فيبقى على حكمه الأصلي وهو كونه مأموراً به.

أما المعقول : فقد استدلوا بأدلة عقلية منها:

الأول : قالوا: إذا نظرنا إلى التجارة الحاضرة وجدناها كثيرة الوقوع بين الناس فلو كلفوا بكتابتها والإشهاد عليها لشق عليهم ذلك[٩٣].

الثاني : قالوا: فيه إن التجارة الحاضرة يحصل فيها التقابض من الطرفين فلا خوف حينئذ من التجاحد فلا حاجة فيها إلى كتابة أو إشهاد[٩٤].

مناقشة هذين الدليلين :

يمكن الإجابة عن هذين الدليلين بأن يقال: إذا نظرنا إلى هذين الدليلين وجدناهما تعليلين عقليين لا يقويان على مواجهة عموم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ فلا ينهضان حجة والحال ما ذكر. .

الترجيح :

الراجح هو القول الأول القاضي باستحباب الإشهاد على التجارة الحاضرة كثيرة الثمن. كما ظهر من استعراض الأدلة ومناقشة ما أمكن مناقشته منها.

---

(٩٣) انظر التفسير الكبير للرازي ٧/١٢٦. تفسير الخازن ١/٢٥٩.

(٩٤) انظر المصدرين السابقين.

المسألة الثانية :

التجارة الحاضرة قليلة الثمن «التعامل الذي لا خطر فيه»

هذه المسألة قد صرح كثير[٩٥] من العلماء ـ خاصة أهل التفسير ـ بعدم استحباب توثيقها سواء بالكتابة أو الإشهاد. وعللوا ذلك بأمور منها:

أولاً : كثرة هذا التعامل بين الناس، مما يجعل تدوينه، والإشهاد عليه أمراً فيه كلفة، ومشقة على العباد.

ثانياً : جريان العادة بين الناس، وتعارفهم على ترك توثيق مثل هذه الأشياء. «والعادة محكمة إذا[٩٦] لم تعارض نصاً شرعياً».

هذا هو مذهب جماهير العلماء بناء على التعليلات السابقة. خلافاً للقائلين بوجوب الإشهاد على التجارة الحاضرة فإنهم لم يفرقوا فيها بين الكثير والقليل، ومن هنا فالقليل يوثق بالإشهاد عليه عندهم كالكثير سواء بسواء[٩٧].

لكن القول القاضي بترك الإشهاد على قليل التجارة الحاضرة «مالا خطر فيه» وجيه للاعتبارات السابقة[٩٨].

---

(٩٥) منهم الإمام الرازي في التفسير الكبير ١٢٤/٧، وابن العربي في أحكام القرآن ٢٥٧/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤٠١/٣، والطبري المعروف بالكيا الهراس في أحكام القرآن ٤٠٥/١، وابن قدامة في المغني ٣٠٢/٤، والبهوتي في كشاف القناع ١٨٨/٣.

(٩٦) العادة محكمة قاعدة شرعية عظيمة تشمل فروعاً كثيرة، وهي إحدى القواعد الكلية الكبرى التي تنطلق منها الفروع الفقهية. انظر في ذلك كتاب الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٩٣. الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٩٩.

(٩٧) انظر أحكام القرآن للجصاص ٤٨١/١. فقد ذكر فيه عن عطاء أنه لما سئل: هل يشهد الرجل على أن بايع بنصف درهم قال: نعم. وانظر التفسير الكبير للرازي ١١٨/٧. فقد جاء فيه ما نصه: «قال: النخعي يشهد ولو على دستجة بقل. وروى عن الضحاك أنه قال: والإشهاد واجب في صغير الحق وكبيره ونقده ونسيئه. انظر الكشاف للزمخشري ٤٠٤/١. وتفسير البغوي ٢٥٩/١.

(٩٨) انظر ص ٤٤.

الخلاصـــة :

يتلخص مما سبق في هذا الموضوع الآتي :

أولاً : أما بالنسبة للدين فإنه محل للتوثيق على سبيل الاستحباب مطلقاً. قليله وكثيره.

ثانياً : التجارة الحاضرة توثيقها بالكتابة من باب المباحات مطلقاً القليل منها والكثير.

ثالثاً : التجارة الحاضرة توثيقها بالإشهاد فيه تفصيل. والراجح استحبابه في الكثير منها دون القليل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أثر القرافي في الدراسات الأصولية

للدكتور
عياضة بن نامي السلمي
الأستاذ المساعد في قسم أصول الفقه
بكلية الشريعة بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمـــــــة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

وبعـــــد:

فإن الحديث عن أثر القرافي في الدراسات الأصولية يستدعي أن نعرِّف القارىء أولاً بالقرافي ونعطيه نبذة عن حياته وعصره. فأقول:

القـرافي: هو الشيخ شهـاب الدين أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن بن يلين - بتشديد اللام وكسرها - الصنهاجي البهفشيمي الفقيه الأصولي المتكلم.

والصنهاجي: نسبة إلى صنهاجة بطن من قبيلة حمير.[1] والبهفشيمي: نسبة إلى «بهفشيم» بفتح الموحدة وسكون الهاء وفتح الفاء وكسر الشين المعجمة بعدها ميم. وهذا ضبط ابن فرحون[2]. وقال: «لم أقف لها على معنى ولعلها قبيلة من قبائل صنهاجة»[3].

وقال ابن تغرى بردى[4]: البهبشيمي: نسبة إلى «بهبشيم» وضبط الكلمة بفتح

(١) ينظر اللباب في تهذيب الانساب (٢/٢٤٩).

(٢) ابن فرحون: هو ابراهيم بن على بن محمد بن فرحون اليعمرى من علماء المالكية نشأ بالمدينة ومات بها سنة ٧٩٩ هـ. ومن مصنفاته الديباج المذهب في تراجم علماء المالكية، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام وغيرهما. (الدرر الكامنة ١/٤٩).

(٣) الديباج المذهب (ص ٦٦).

(٤) ابن تغرى بردى: هو يوسف بن تغرى بردى اليشبغاوى الظاهرى مؤرخ مشهور كان أبوه من القادة في دولة الناصر فرج بن برقوق. توفي سنة ٨٧٤هـ له مصنفات منها النجوم الزاهرة، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، وحوادث الدهور. وغيرها. (الضوء اللامع: ١٠/٣٠٥ - ٣٠٨) وشذرات الذهب (٧/٢٣٣ - ٢٣٤) وحسن المحاضرة (١/١٢٧).

الباء الموحدة وفتح الهاء وسكون الباء الموحدة وكسر الشين المعجمة بعدها ميم. وقال انها بلدته التي عاش فيها وهي في صعيد مصر الأسفل[٥].

والقرافي: نسبة إلى القرافة محلة بمصر القديمة معروفة.

ولد القرافي سنة ٦٢٦ هـ في صعيد مصر الأسفل وانتقل إلى مصر القديمة التي هى جزء من مدينة القاهرة الآن. ودرس في مدارسها وتلقى علمه على أيدى جماعة من العلماء والفضلاء مثل ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) وعبدالحميد الخسرو شاهي (٦٥٢ هـ) والعز بن عبدالسلام (٦٦٠ هـ) وغيرهم.

واقتصر القرافي على مهنة التدريس، ولم يتولَّ منصب قضاء ولا غيره إلى أن توفي سنة ٦٨٤ هـ.

وقد خلف ثروة علمية ضخمة في مجالات شتى[٦].

وإذا أردنا أن نعرف أثره في الدراسات الأصولية على وجه الخصوص فلابد أن نتناول بالبحث والدراسة جوانب ثلاثة هي بمثابة الأعمدة التي يرتكز عليها شراع هذا البحث. وهذه الجوانب هي:

١ ـ مؤلفات القرافي الأصولية وقيمتها العلمية.
٢ ـ آراؤه الأصولية واختياراته.
٣ ـ تأثر الدراسات الأصولية المتأخرة بمؤلفاته وآرائه.

والكلام عن تلك الجوانب في ثلاثة مباحث:

---

(٥) المنهل الصافي (١/٢١٥ ـ ٢١٧).

(٦) راجع ترجمة القرافي في الديباج المذهب ص (٦٣ ـ ٦٦) والمنهل الصافي (١/٢١٥ ـ ٢١٧). والوافي بالوفيات (٦/٢٣٣ ـ ٢٣٤) وحسن المحاضرة (١/١٢٧).

المبحث الأول

مؤلفات القرافي الأصولية ، وقيمتها العلمية

كتب القرافي كتبا كثيرة في علوم شتى، في الفقه، وأصوله، والعقائد، والنحو، وغيرها. وخص أصول الفقه بخمسة كتب هي: تنقيح الفصول في اختصار المحصول وشرح تنقيح الفصول، والعقد المنظوم، ونفائس الأصول في شرح المحصول، وتعليق على المنتخب.

وللقرافي كتب أخرى ليست في أصول الفقه خاصة، ولكنها اشتملت على مباحث أصولية ذات قيمة علمية كبيرة لا تكاد توجد في غيرها إلاَّ نقلاً عنها. ومن أهم تلك الكتب:

١ - أنوار البروق في أنواء الفروق.
٢ - الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام.
٣ - الاستغناء في أحكام الاستثناء.

وإليك نبذة موجزة عن كل واحد من الكتب المتقدمة بنوعيها :

أولا : تنقيح الفصول:

هذا الكتاب يعده كثير من العلماء من مختصرات المحصول لأن اسمه مشعر بذلك، فمؤلفه قد سماه «تنقيح الفصول في اختصار المحصول» حيث قال في مقدمة شرحه: «أما بعد فان كتاب تنقيح الفصول في اختصار المحصول كان الله يسره عليَّ ليكون مقدمة أول كتاب الذخيرة في الفقه»[٧].

(٧) شرح تنقيح الفصول: ص ٢.

وإذا أمعنا النظر في هذا المختصر وجدناه يسير في ترتيبه ـ غالبا ـ على طريقة المحصول، ولكنه ليس كغيره من المختصرات، فهو مختلف عن المنتخب والتحصيل والحاصل ونحوها، لأنه يشتمل على زيادات مهمة واختيارات لمؤلفه، ونقول عن علماء المالكية لم تذكر في المحصول ولا في مختصراته الأخرى مما يجعل عدَّهُ من مختصرات المحصول لا يصح إلا بشيء من التسامح.

والكتاب طبع بمفرده، وطبع مع شرحه، وطبع في مقدمة الجزء الأول من كتاب الذخيرة في الفقه.

ثانياً : شرح تنقيح الفصول:

وهذا الكتاب من أواخر كتب القرافي ولكني قدمته على ما بعده لأتبعه بأصله المشروح.

وهذا الشرح المختصر أودعه مؤلفه عصارة فكره وخلاصة رحلته الطويلة في مضمار أصول الفقه. ولهذا فلا نستغرب اذا وجدناه يقول في مقدمته: «فلما كثر المشتغلون به (يعنى التنقيح) رأيت أن أضع له شرحا يكون عونا لهم على فهمه وتحصيله، وأبين فيه مقاصد لا تكاد تعلم إلا من جهتي، لأني لم أنقلها عن غيري، وفيها غموض، وأوشِّح ذلك إن شاء الله بقواعد جليلة، وفوائد جميلة، ابتغاء لثواب الله عز وجل وجهه الكريم»[٨].

فهذا الكلام من القرافي لا يعدو أن يكون تصويرا للواقع، واعترافا بنعمة الله عليه. فهوليس فيه مبالغة ولا إعجاب بالنفس كما ستعرف إن شاء الله تعالى.

وطريقة القرافي في هذا الشرح أنه يذكر عبارة التنقيح كاملة متصلة ثم يشرحها شرحا مختصرا، ويدلل على ما ذكر ويزيده إيضاحا بالأمثلة، ويضيف فوائد وقواعد ذات علاقة بالموضع المراد شرحه.

---

(٨) المصدر السابق: ص ٢.

وقد يورد أسئلة واشكالات مهمة على بعض المباحث الأصولية التي يتلقاها بعض الأصوليين على أنها قضايا مسلمة لا تقبل المناقشة.

وقد عني المصنف في تنقيح الفصول وفي شرحه وفي سائر كتبه بالحدود عناية كبيرة وأكثر من النظر فيها وإيراد الأسئلة والاعتراضات عليها.

وفي تنقيح الفصول وشرحه جعل للحدود التي يكثر ورودها في كتب العلماء بابا مستقلا في بداية الكتاب.

وهذا الكتاب يضم كثيرا من آراء القرافي التي انفرد بها عن جمهور الأصوليين، وأعلن فيه رجوعه عن بعض الآراء التي كان يذهب إليها كما فعل في تعريف الرخصة فانه عرفها في تنقيح الفصول تعريفا لم يرض عنه حين شرح الكتاب بل أعلن عجزه عن ضبط الرخصة بتعريف جامع مانع[٩].

وكما فعل في تعريف الحقيقة حيث قال في الشرح المذكور: «وقولي في الكتاب (يعني التنقيح) » الحقيقة استعمال اللفظ فى موضعه، صوابه: اللفظة المستعملة أو اللفظ المستعمل. وفرق بين اللفظ المستعمل وبين استعمال اللفظ.. »[١٠].

والكتاب طبع بتحقيق طه عبدالرؤوف سعد ولا يزال بحاجة إلى إعادة التحقيق.

ثالثا: نفائس الأصول في شرح المحصول:

هذا الكتاب ألفه المصنف بعد كتاب تنقيح الفصول وقبل شرحه[١١]. والكتاب شرح لكتاب المحصول للفخر الرازي المتوفى سنة (٦٠٦ هـ).

وطريقته في الشرح تجمع بين طريقة الشرح بالقول وطريقة شرح المضمون، فنجده

(٩) المصدر السابق: ص ٨٧.

(١٠) المصدر السابق: ص ٤٣.

(١١) راجع نفائس الأصول في شرح المحصول (١/ ٢٩٨) بتحقيق كاتب هذا البحث، وشرح تنقيح الفصول: ص ٨٧.

يذكر رأس المسألة أو المبحث أو الفصل كما يذكره الإمام الرازى أو يختصره ثم يبدأ في شرح ما ذكر تحت هذا العنوان كلمة كلمة، أو جملة جملة، فيقول: قوله كذا تقريره كذا، أو يرد عليه كذا.

فاذا وافق الإمام فيما قاله اكتفى بتقرير كلامه وذكر ما يؤيده، وأجاب عن الأسئلة التى قد تورد عليه.

وإن خالفه أورد عليه الأسئلة والاعتراضات التى يرى أنها قوية، سواء كانت مما أورده العلماء السابقون أم ممّا ابتكره. وإذا رأى أن بعض الأسئلة ضعيف أجاب عنه. فإذا فرغ من الكلام عن عبارة المحصول وما يرد عليها انتقل إلى الكلام عن مختصراته، والتزم بالنظر في أربعة منها هي: المنتخب للفخر الرازي، والتنقيح للتبريزى[12] (ت: ٦٢١ هـ) والحاصل لتاج الدين الأرموى[13] (ت: ٦٥٦ هـ) والتحصيل لسراج الدين الأرموى[14] (ت: ٦٨٢ هـ).

ومن عادته أن يذكر موافقة تلك المختصرات للأصل إن وافقته، وإن خالفته ذكر وجه المخالفة وأي العبارتين أسلم؛ عبارة المحصول أم عبارة المختصر؟ وهل يرد على عبارة المختصر ما يرد على عبارة الأصل من الأسئلة والاعتراضات؟

والقرافي يعدُّ شرحه هذا شرحا للمحصول ولمختصراته الأربعة إذ يقول بعد بيان منهجه في الشرح: «ويكون ذلك شرحا للمحصول ولمختصراته من المنتخب والحاصل وغيره»[15].

(١٢) التبريزى: هو المظفر محمد بن أبي اسماعيل بن علي أمين الدين التبريزى الراراني - براءين مهملتين - فقيه شافعي تعلم ببغداد. مات سنة ٦٢١ هـ صنف التنقيح في اختصار المحصول، والمختصر في الفقه. له ترجمة في الطبقات الكبرى للسبكي: ٨/٣٧٣ وحسن المحاضرة: ١/٢١٠.

(١٣) هو محمد بن الحسين بن عبدالله الارموى من تلاميذ الفخر الرازى. توفى سنة ٦٥٦هـ له ترجمة في الوافي بالوفيات: ٣/٣٥٣، وطبقات الاسنوى ١/٤٥١ - ٤٥٢.

(١٤) هو محمود بن أبي بكر بن أحمد الارموى الفقيه الاصولي المتكلم توفي سنة ٦٨٢ هـ صنف التحصيل، واللباب مختصر الأربعين في أصول الدين للرازى والبيان والمطالع في المنطق. وله ترجمة في طبقات السبكي: ٨/٣٧١ ومفتاح السعادة: ١/٢٤٥.

(١٥) نفائس الأصول: ١/١٢.

والغالب أنه يذكر ما في المختصرات من زيادة أو تغيير تحت عنوان «تنبيه».

وبعد ذلك ينتقل إلى ذكر ما جاء في غيرها من كتب الأصول التي جمعها لتكون مراجع هذا الشرح، فيذكر ما فيها من إضافة تحت عنوان «فائدة»، ولم يلتزم بذكر كل ما جاء من فوائد وزيادات في كتب الأصول كلها، بل يقتصر على ما له علاقة وثيقة بالعبارة المشروحة.

وإذا كان لفظ المحصول واضحا لا يحتاج إلى بيان فإنه يتركه إلا أن يكون عليه سؤال أو اعتراض فإنه يذكره ويجيب عنه.

وقد بدأ القرافي هذا الشرح بمقدمة أوضح فيها أهمية علم أصول الفقه وفضله على سائر العلوم، وذكر فيها منهجه في الشرح على النحو الذي لخصته فيما سبق، وذكر فيها أهم المصادر التي اعتمد عليها في هذا الشرح.

والقرافي شغوف بايراد الأسئلة والاعتراضات على عبارة المحصول سواء كان ما يذكره الرازى لنفسه أو مما ينقله عن غيره من الخصوم. وقد يورد الأسئلة على العبارة نفسها مع علمه بمراد المؤلف وسلامة قصده، وهو بهذا يطبق قاعدة «المراد لا يدفع الإيراد».

ولذلك نجد الجزء الأول من الشرح يحتوى على حوالي ثلاثمائة سؤال منها نحو ستة وخمسين سؤالا نقلها عمن سبقه والبقية من إيراده هو. والأسئلة التى أجاب عنها نحو ستين سؤالا فقط وعد البقية واردة على عبارة المحصول.

والكتاب مليء بالتنبيهات الدقيقة والقواعد المهمة والفوائد الجمة فى اللغة والمنطق والبلاغة والفقه والأصول وغيرها. والشرح المذكور حققتُ الجزء الأول منه وحقق الاخوان الدكتور عبدالكريم النملة والدكتور عبدالرحمن المطير الجزأين الثاني والثالث، ولكنه لم ينشر بعد.

رابعاً : العقد المنظوم في الخصوص والعموم:

هذا الكتاب كما يظهر من عنوانه خصصه مؤلفه لمباحث العموم والخصوص، وهي من أهم مباحث أصول الفقه وأكثرها فائدة من الناحية التطبيقية. ويعد هذا الكتاب

المرجع الأول في بابه فهو أوسع كتابٍ في العموم والخصوص إلى أواخر القرن الرابع عشر الهجري حيث بدأ الباحثون يكتبون في مسائل جزئية من مباحث العموم كتبا مستقلة تساوى كتاب القرافي هذا في حجمها أو تزيد.

والكتاب جعله مؤلفه في خمسة وعشرين بابا تناول فيها تعريف العام، وصيغه، ودلالته على الأحكام، وتخصيصه بالمخصصات المتصلة، والمنفصلة. وهو غني بالأمثلة الفقهية، مليء بالقواعد والفوائد الأصولية واللغوية والمنطقية وغيرها.

وهو مشتمل على كثير من الاشكالات والأسئلة التي يعز الجواب عنها على كثير من الفضلاء. والغالب أنه يجيب عنها بأجوبة قوية مقنعة. وقد يعلن عجزه عن الجواب عنها تاركا لمن جاء بعده المجال مفتوحا ليحاول الجواب عن السؤال ودفع الإشكال.

وقد أطال المصنف في بيان صيغ العموم حتى أوصلها بالتفريع إلى مائتين وخمسين صيغة. وكلامه في هذا الباب عليه بعض المآخذ إذ إنه أدخل في صيغ العموم صيغا لم يذكرها أحد قبله ولا بعده في صيغ العموم.

والكتاب حققه الدكتور محمد الختم في جامعة أم القرى ولم ينشر.

خامسا: التعليق على المنتخب:

هذا الكتاب مفقود لم أعثر له على أثر إلا ما يرد في كتب التراجم التى ترجمت للشهاب القرافي أو لابن بنت الأعز[١٦]. الذى تقول كتب التراجم إنه قرأ على القرافي تعليقه على المنتخب[١٧].

وأغلب الظن أن ما ذكره القرافي في هذا التعليق قد اشتمل عليه شرح المحصول

(١٦) هو عبدالرحمن بن عبدالوهاب بن خلف العلامي المشهور بابن بنت الأعز من علماء الشافعية، تولى القضاء والوزارة والخطابة في الأزهر. توفي سنة ٦٩٥هـ. له ترجمة في الطبقات الكبرى للسبكي: ١٧٢/٨ - ١٧٥، والنجوم الزاهرة: ٨٢/٨، ١٢٣، وطبقات الاسنوى: ١٥١/١ - ١٥٣ وقال (العلائي) بدل العلامي، وهو تحريف.

(١٧) ينظر الطبقات الكبرى للسبكي: ٧٢/٨، والمنهل الصافي: ٢١٦/١.

المسمى نفائس الأصول، لأن المنتخب مختصر المحصول ونفائس الأصول شرح لأصله.

وكتاب المنتخب للامام فخر الدين الرازي صاحب المحصول اختصره من كتاب المحصول. هذا هو المشهور الشائع في كتب التراجم وفهارس المكتبات والكتب المؤلفة في أسماء الكتب والفنون مثل كشف الظنون.

ولكن القرافي يثير شبهة حول نسبة هذا الكتاب للفخر الرازي. ومصدر تلك الشبهة شيخه شمس الدين الخسرو شاهي[18] (ت ٦٥٢ هـ) حيث نقل عنه قوله ان المنتخب ليس للفخر الرازي بل لضياء الدين حسين[19]. وضياء الدين حسين لم أجد له ترجمة مع البحث الطويل. ومحقق المنتخب وهو الدكتور عبدالمعز حريز تعرض في مقدمة تحقيقه لهذه الزوبعة وردها ردا جميلا، ولكنه لم يذكر شيئا عن ضياء الدين حسين الذى ينسب إليه القرافي ـ تبعا للخسرو شاهي ـ كتاب المنتخب، ولعله بحث ولم يجد له ترجمة.

سادساً: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام:

هذا الكتاب جديد في بابه، فريد في موضوعه وترتيبه وتبويبه، لخص القرافي الدافع إلى تأليفه في مقدمته فقال: «أما بعد: فإنه قد وقع بيني وبين الفضلاء مع تطاول الأيام مباحث في أمر الفرق بين الفتيا التي تبقى معها فتيا المخالف، وبين الحكم الذى لا ينقضه المخالف، وبين تصرفات الحكام، وتصرفات الأئمة... فأردت أن أضع هذا الكتاب مشتملا على تحرير هذه المطالب. وأوردها أسئلة كما وقعت بيني وبينهم، ويكون جواب كل سؤال عقيبه»[20].

(١٨) هو عبدالحميد بن عيسى بن عمّوية الخسرو شاهي بضم الخاء المعجمة وسكون السين المهملة وفتح الراء، فقيه أصولي من أهالي خسروشاه من قرى تبريز. وهو من تلاميذ الامام الرازى المقربين. توفي سنة ٦٥٢ هـ في دمشق، له ترجمة في طبقات السبكي: ٨/١٦١ ـ ١٦٢، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ص: ٦٤٨.

(١٩) انظر نفائس الأصول: ١/٢٦.

(٢٠) ص ٤.

وعدد الأسئلة التي اشتمل عليها الكتاب أربعون سؤالا كلها لا تخلو من إشكال يعز حله على غير الراسخين في هذا المضمار.

ومن أهم المباحث الأصولية التى اشتمل عليها الكتاب ما يلي:

١ ـ التفريق بين تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بمقتضى الرسالة والتبليغ، وتصرفاته بمقتضى الامامة العامة، وتصرفاته بمقتضى كونه قاضيا.
وقد أوضح المصنف هذه المسألة أكمل إيضاح وضرب لها أمثلة كثيرة تدل على صحة الفرق المذكور ومراعاة الأئمة المتقدمين لذلك المعنى[٢١]

٢ ـ الحالات التى ينقض فيها حكم الحاكم[٢٢].

٣ ـ ضابط المذهب المقلد[٢٣].

٤ ـ تعليل الحكم بصحة صلاة الحنفي خلف المالكي والعكس مع اختلافهم في بعض شروط الصلاة[٢٤]. وهو كلام نفيس.

وقد تضمن كتاب أنوار البروق الآتي ذكره كثيرا من مباحث هذا الكتاب.

وكتاب الاحكام حققه الشيخ عبدالفتاح أبوغدة، وطبع في مكتب المطبوعات الاسلامية في حلب سنة ١٣٨٧ هـ.

سابعاً: أنوار البروق في أنواء الفروق:

هذا الكتاب يعد في زمرة كتب القواعد الفقهية. وقد صنفه القرافي بعد كتاب الإحكام المتقدم ذكره[٢٥]. ولهذا فقد اشتمل على بعض مباحث الإحكام.

وكتاب أنوار البروق كتاب نفيس لهج العلماء قديما وحديثا بالثناء عليه، وأكثروا من النقل عنه والاقتباس منه.

(٢١) انظر ص: ٨٦ ـ ١٠٩ من الكتاب المذكور.

(٢٢) انظر ص: ١٢٨ ـ ١٣٢.

(٢٣) انظر ص: ١٩٤ ـ ٢١٧.

(٢٤) انظر ص: ٢٢٧ ـ ٢٣٠.

(٢٥) انظر أنوار البروق: ١/٣.

وفي مقدمة هذا الكتاب ينص المصنف على أن كتابه هذا في الفرق بين القواعد فيقول: «وعوائد الفضلاء وضع كتب الفروق بين الفروع، وهذا (يعني كتابه أنوار البروق) في الفروق بين القواعد وتلخيصها، فله من الشرف على تلك الكتب شرف الأصول على الفروع. وسميته لذلك أنوار البروق في أنواء الفروق...»[٢٦].

والكتاب كما أوضح مصنفه مشتمل على التفريق بين القواعد المتشابهة في الظاهر المختلفة في الباطن، مع بسط القول فيها، وإيراد الأمثلة الكثيرة التي تجعل القارىء يطمئن إلى صحة القاعدة وصحة الفرق الذى يذكره المصنف.

والكتاب اشتمل على خمسمائة وثمان وأربعين قاعدة[٢٧] من القواعد الأصولية والفقهية. وقد نظمها المؤلف في ستة وسبعين ومائتي فرق، أولها الفرق بين الشهادة والرواية وآخرها الفرق بين قاعدة ما هو مكروه من الدعاء وقاعدة ما ليس بمكروه.

والكتاب اشتمل على مباحث أصولية كثيرة أهمها ما يلي:

١ ـ الفرق بين الشرط والسبب والمانع، وبيان كل منها. (١/٦٠).
٢ ـ قاعدة «كل من له عرف فيحمل كلامه على عرفه» (١/٨٢).
٣ ـ الفرق بين قاعدتي الشرط والاستثناء. (١/١١١).
٤ ـ الفرق بين الشرط وعدم المانع. (١/١١٦).
٥ ـ الفرق بين فرض الكفاية وفرض العين. (١/١١٦).
٦ ـ الفرق بين خطاب التكليف وخطاب الوضع. (١/١٦١).
٧ ـ العرف القولي والعرف الفعلي. (١/١٧١).
٨ ـ حمل المطلق على المقيد في الكلي والكلية، وفي الأمر والنهي والنفي. (١٩٠).
٩ ـ تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم بالقضاء والفتوى والإمامة العظمى. (١/٢٠٥).
١٠ ـ المأمور به يصح مع التخيير والمنهي عنه لا يصح مع التخيير (٢/٤).

---

(٢٦) ١/٤.

(٢٧) انظر مقدمته ١/٤.

١١ ـ الفرق بين خطاب غير المعين، والخطاب بغير المعين (٢/١٦).
١٢ ـ الكلام عن قاعدة سد الذرائع. (٢/٣٣).
١٣ ـ الكلام عن مفهوم المخالفة. (٢/٣٦ ـ ٤٠).
١٤ ـ ما يوصف بالأداء والقضاء وما لا يوصف بهما. (٢/٥٥).
١٥ ـ اقتضاء النهي الفساد (٢/٨٢).
١٦ ـ الفرق بين قاعدة: حكاية الحال إذا تطرق إليها الاحتمال سقط بها الاستدلال، وقاعدة حكاية الحال إذا ترك فيها الاستفصال تقوم مقام العموم في المقال. (٢/٨٢).
١٧ ـ المفرد المعرف بأل يفيد العموم في غير الطلاق. (٢/٩٤).
١٨ ـ متى يكون الاستثناء من النفي إثباتا؟ (٢/٩٥).
١٩ ـ ما يجوز التقليد فيه وما لا يجوز. (٢١/١٠٠).
٢٠ ـ من يجوز له أن يفتى ومن لا يجوز له ذلك (١/١٠٧).

وهذا الكتاب مطبوع من غير تحقيق باسم «الفروق» وبهامشه حاشية ابن الشاط[٢٨] المسماة ادرار الشروق على أنواء الفروق وفيها تعقيب على بعض المباحث التي يذكرها القرافي.

ثامناً: الاستغناء في أحكام الاستثناء:

هذا الكتاب خصصه المؤلف لدراسة مسائل الاستثناء من جميع جوانبه، فهو يوضح حكمه من حيث الإعراب ومن حيث المعنى الذى يدل عليه، ويقرر ما قاله علماء اللغة والنحو والأصول والفقه فيه. وقد جعله في واحد وخمسين بابا، منها ما أطال الكلام فيه، ومنها ما لا يزيد على بضعة أسطر، وذلك كله بحسب ما يحتاجه المقام من إيجاز وإطناب.

(٢٨) ابن الشاط: هو قاسم بن عبدالله بن محمد الأنصارى والشاط لقب جده لقب بذلك لطوله. وهو فقيه أصولي مالكي من أهالى سبتة. توفي سنة ٧٢٣ هـ. له مصنفات أشهرها أدرار الشروق على أنواء الفروق. له ترجمة في الديباج المذهب ص: ٢٢٥ ـ ٢٢٦ وهدية العارفين: ١/٨٢٩ ـ ٨٣٠.

وفي مقدمته بين الدافع إلى تأليفه فقال: «أما بعد فإن الاستثناءات الغريبة أوقع الله لى فيها مباحث جميلة وقواعد جليلة أودعت منها شرح المحصول جملا كثيرة، وبقي على خاطري منها ما لا يليق وضعه هناك، فخشيت أن يأتي الموت فيذهبها علي وعلى إخواني من أهل العلم فأردت وضعها في هذا الكتاب»[٢٩].

والمصنف ذكر في كتابه هذا أمثلة كثيرة من الكتاب والسنة حتى يكاد ألاّ يوجد استثناء في القرآن يشكل فهمه إلا تكلم عنه وبينه، وضرب أمثلة من الفروع الفقهية المبنية على قواعد الاستثناء مما لا تجد له نظيراً في غير هذا الكتاب.

يقول القرافي رحمه الله: «وألهمني الله تعالى في الكتاب العزيز والسنة النبوية وأسمعني من أفواه العلماء استثناءات غامضة تحتاج إلى بحث دقيق ونظر أنيق فآثرت أن أجعلها في هذا الكتاب تكميلا للفائدة بالقاعدة الكلية في نفسها، وبمعرفة البحث في خصوص ذلك المثال، حتى لا أكاد أترك استثناء في كتاب الله عز وجل فيه غموض إلا لخّصته وهذبته وبينته تمثيلا به في تلك الأبواب، وكذلك ما حضرني من السنة النبوية»[٣٠].

والقرافي في هذا الكتاب يسير على النسق نفسه الذى اتبعه في سائر كتبه من إيراد الأسئلة والإشكالات والتنبيه على صعوبتها وكيفية الجواب عنها، والإكثار من التنبيهات المفيدة والقواعد الجليلة.

والدارس في أصول الفقه يحتاج إلى هذا الكتاب ويفيد من أكثر مباحثه، لما علم من أن قواعد أصول الفقه تعتمد كثيرا على قواعد اللغة العربية، نحوها وصرفها، إذ لا يفهم القرآن والسنة إلا بمعرفة اللغة والتعمق في معانيها ومدلولاتها وقواعدها.

ومبحث الاستثناء من المباحث المشتركة بين النحاة والأصوليين. فتعريف الاستثناء، وأدواته وما يجوز إخراجه وما لا يجوز، والحد الذى يصل إليه الاستثناء،

(٢٩) ص: ٨٦ من الكتاب نفسه.

(٣٠) الموضع السابق.

وكون الاستثناء من النفي إثباتا ومن الإثبات نفيا، والاستثناءات المتكررة، والاستثناء الوارد عقيب الجمل إلى أيها يعود ؟ كل هذه المباحث مما يشترك في بحثه النحاة والأصوليون وهي من مباحث هذا الكتاب التي حظيت بدراسة وافية من المؤلف رحمه الله.

والكتاب حققه الدكتور طه محسن وطبع في بغداد سنة ١٤٠٢ هـ في مطبعة الارشاد.

المبحث الثاني

آراؤه الأصولية واختياراته

ليس المقصود بهذا المبحث حصر آراء القرافي الأصولية وعرضها وتقويمها لأن هذا العمل يحتاج إلى مؤلف مستقل، ولا يمكن استيفاؤه في هذا البحث المختصر[٣١]. ولكن المقصود أن نعطي القارىء نبذة عن آراء ذلك العالم الجليل والاضافات العلمية التي انفرد بها حتى لا تعرف من غيره إلا نقلا عنه.

وينبغي أن نعلم أنه ليس كل من ألفّ في علم من العلوم كان ذا أثر فيه وإنما يتبين أثره بما يضيفه من رأي، واستدلال، أو توجيه، أو تفريع على أصل، أو تأصيل للفروع المتشابهة التي تندرج تحت قاعدة واحدة، ونحو ذلك.

والقرافي وإن فاته أن يكون من جيل الرواد الذين أسسوا هذا العلم لكنه لم يفته أن يكون من طبقة الشراح المحققين الذين ظهرت آثارهم واضحة جلية لكل منصف. وذلك بما أضافه إلى ذلك الصرح الشامخ من إضافات تناقلها العلماء بعده وتناولوها بالدراسة والبحث، فكان منهم المؤيد المعجب، ومنهم المخالف المنكر، وكلا الفريقين أيد رأيه بمؤلفات أثْرت المكتبة الأصولية ووسعت قاعدتها.

والإضافات التى أضافها الشهاب القرافي اتخذت أنماطا متعددة أهمها مايلي:

١ ـ استدراكه على ما يذكره السابقون من الحدود والتعريفات: فالقرافي رحمه الله كان يكثر النظر في الحدود، ويعتني بها عناية كبيرة، ويورد عليها الأسئلة

(٣١) لقد أعانني الله على جمع آراء القرافي في كتاب سميته «شهاب الدين القرافي ـ حياته وآراؤه الأصولية» وسيصدر قريباً ان شاء الله تعالى.

والإشكالات، ثم ينتهي إلى اقتراح حدّ جديد بعيد عن الحدود التى يذكرها المتقدمون، كما فعل في تعريف الدلالة حيث ذكر تعريفين للمتقدمين وردهما واختار أن تعرف بأنها: «إفهام السامع كمال مسمى اللفظ أو جزءه أو لازمه»[٣٢] وكما فعل في تعريف العام حيث ذكر تعريف الرازى ومن وافقه، ورده واقترح أن يعرف بأنه «اللفظ الموضوع لمعنى كلي بقيد تتبعه في محالِّه»[٣٣].

وقد يقترح أن يزاد فى الحد قيد آخر حتى يصح، وذلك كما فعل فى تعريف الحكم الشرعي حيث ذكر تعريف الرازى وانتقده بأنه لم يشمل الحكم الوضعي، واقترح أن يزاد فى الحد قيد يدخل الحكم الوضعي فعرفه بأنه «كلام الله القديم المتعلق بأفعال المكلفين على وجه الاقتضاء أو التخيير أو ما يوجب ثبوت الحكم أو انتفاءه»[٣٤].

وقد يقترح حذف بعض القيود المذكورة في تعريف من سبقه لاعتقاده الاستغناء عنها، كما فعل فى تعريف المشترك حيث نقل عن الإمام الرازى أنه عرفه بأنه «اللفظ الموضوع لحقيقتين مختلفتين أو أكثر وضعا أولا من حيث هما كذلك»[٣٥]

وانتقد الحد بأن قوله «مختلفتين» قيد زائد لا حاجة له، لأن كل قيد إنما يحترز به عن ضده، فيكون هذا القيد للاحتراز عن الوضع للمتماثلين والوضع للمتماثلين ممتنع عقلا، فلا حاجة للاحتراز عنه وبرهن فى ذلك الموضع على قوله إن الوضع للمتماثلين ممتنع[٣٦].

٢ ـ اختياره رأيا يخالف ما عليه جمهور العلماء واستدلاله عليه بأدلة لم يسبق إليها، ولم ترد فى كلام المتقدمين، أو وردت تلميحا لا تصريحا.

---

(٣٢) نفائس الأصول: ١/٥٠٦، وشرح تنقيح الفصول: ص ٢٣.

(٣٣) نفائس الأصول: ١/٥١٦، وشرح تنقيح الفصول: ص ٣٨.

(٣٤) شرح تنقيح الفصول ص: ٦٩ ـ ٧٠. وتعريفه جار على مذهب الأشاعرة في أن كلام الله هو المعنى القائم بذاته. ومذهب أهل السنة أن كلام الله قديم النوع متجدّد الآحاد، وأن القرآن كلام الله بلفظه ومعناه لا بالمعنى فقط.

(٣٥) المحصول: ١/١/٣٥٩.

(٣٦) انظر نفائس الأصول: ١/٧٤١.

والآراء التى ينطبق عليها هذا الوصف كثيرة منها:

أ ـ اختياره عدم جواز النهي عن واحد غير معين، ومخالفته جمهور الأصوليين في هذه المسألة وموافقته المعتزلة واستدلاله على رأيه بأدلة من اللغة والعقل غير ما عرف عن المعتزلة من استدلال على الرأي نفسه[٣٧].

ب ـ اختياره عدم وضع العرب الخبر للصدق والكذب، بل للصدق فقط وإنما يدخله احتمال الكذب من جهة المتكلم[٣٨].

جـ ـ اختياره مذهب القائلين إن الضمائر تدخل تحت مسمى الكلي لا تحت مسمى الجزئي. واستدلاله على ذلك بما لا أعرف أنه سبق إليه[٣٩].

د ـ اختياره أن النكرة في سياق النفي لا تعم إلا في مواضع معينة وانتقاده من أطلق القول بعمومها. وفي هذا المعنى يقول: «وأما النكرة في سياق النفي فهي من العجائب في إطلاق العلماء من النحاة والأصوليين، يقولون: النكرة في سياق النفي تعم وأكثر هذا الإطلاق باطل...»[٤٠]

ثم بين السر في خطأ هذا الإطلاق وانتهى إلى أن النكرة فى سياق النفي وما في معناه تعم في حالتين:

الأولى: سماعية وهى النكرات المستعملة في النفي فقط مثل:
ما بها أحد، وما بها ديَّار. وذكر نحو ثلاثين لفظةَ كلها من هذا القبيل.

الثانية: قياسية: وهى النكرة المبنيّة على الفتح نحو: لا رجل فى الدار[٤١].

٣ ـ بحثه مسائل جديدة لم يسبق بحثها على النحو الذى ذكره:
ومن ذلك مثـلاً:

---

(٣٧) راجع أنوار البروق: ٢/٤ ـ ٨.

(٣٨) راجع نفائس الأصول: ١/٤٦٦ ـ ٤٦٧.

(٣٩) المصدر السابق: ١/٥٧٨ ـ ٥٨٠ وشرح تنقيح الفصول: ص ٣٤ ـ ٣٦.

(٤٠) شرح تنقيح الفصول: ص ١٨١.

(٤١) راجع المصدر السابق: ص ١٨٤.

أ ـ مسألة العام فى الأشخاص هل يكون عاما فى الأزمان والأمكنة والأحوال والمتعلقات ؟

فهذه المسألة لم ترد ـ حسب علمي ـ في كتب المتقدمين على هذا النحو الذي ساقه القرافي، وإنما كَثُر البحث فيها من معاصريه ومن بعدهم وكان منهم المؤيدون والمعارضون. يقول ابن دقيق العيد: [٤٢] أولع بعض أهل هذا العصر وما يقرب منه بأن قالوا: إن صيغة العموم إذا وردت على الذوات مثلا أو على الأفعال كانت عامة فى ذلك مطلقة في الزمان والمكان والأحوال والمتعلقات. [٤٣]

والقرافي نص على أن العام في الأشخاص مطلق في الأزمنة والبقاع، والأحوال والمتعلقات. [٤٤]

وهذه المسألة كانت مثار نزاع طويل بين المتأخرين وكثير منهم ربما فهم كلام القرافي على وجه لا يوافق مراده.

ب ـ مسألة دلالة العام على فرد من أفراده أهي من باب المطابقة أم التضمن أم الالتزام ؟

والقرافي ـ حسب علمي ـ أول من تكلم في هذه المسألة ثم تتابع كلام العلماء عنها حتى ألفّ بعضهم فيها مؤلفا مستقلا[٤٥].

٤ ـ إيراده الأسئلة والإشكالات القوية على مواضع من أصول الفقه. ومن هذه الإشكالات التى أثارها وأجاب عنها:

(٤٢) هو: محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيرى، تقي الدين، الفقيه المحدث. توفي سنة ٧٠٢ هـ له مصنفات منها إحكام الأحكام في شرح عمدة الأحكام، والالمام وشرحه المسمى الامام وشرح مختصر ابن الحاجب ولم يكمله. له ترجمة في طبقات السبكي: ٩/٢٠٧ ـ ٢٤٩، وحسن المحاضرة: ١/٣١٧ ـ ٣١٨ وشذرات الذهب: ٦/٥ ـ ٦.

(٤٣) إحكام الاحكام: ١/٥٤.

(٤٤) ينظر شرح تنقيح الفصول: ص ٢٠٠.

(٤٥) من الذين ألفوا في دلالة العام على فرد من أفراده الشيخ محمد البليدى المتوفى سنة ١١٧٦ هـ ألف رسالة في دلالة العام على بعض أفراده والشيخ محمد بن أحمد الخالدى المشهور بالجوهرى الصغير المتوفي سنة ١٢١٥ هـ. ألف رسالة بعنوان حلية ذوى الافهام بتحقيق دلالة العام.

أ ـ الإشكال الذى أورده على عموم أدوات الشرط. وخلاصته: أن جعل أدوات الشرط للعموم يستلزم أنه إذا قال الرجل لزوجته: «متى دخلت الدار فأنت طالق» فدخلت الدار وخرجت ثم دخلت وخرجت ثم دخلت وخرجت أنها حينئذ تطلق ثلاثا، ولكن العلماء لم يقولوا هذا بل قالوا تطلق بالدخول الأول طلقه واحدة فقط وهذا لا يتفق مع قولهم إن أدوات الشرط للعموم[٤٦].

ب ـ الإشكال الذى أورده على عموم الجمع المحلى بأل:

وخلاصته: أن أرباب العموم يقولون: أل التعريف تعم أفراد ما دخلت عليه، فإذا دخلت على جمع وجب أن تعم الجموع ولا تعم الأفراد. وحينئذ يتعذر الاستدلال بتلك الصيغة على ثبوت الحكم لفرد من أفراد الجمع[٤٧].

ومن الإشكالات التى توقف فى الجواب عنها:

أ ـ استشكاله الخلاف في أقل الجمع دون التفريق بين جموع القلة وجموع الكثرة، مع أن جموع الكثرة لا تطلق إلا على ما زاد عن العشرة فكيف يختلفون في أنها تطلق على ثلاثة أو اثنين ؟ وقد أشار القرافي إلى توقفه فى الجواب عن هذا السؤال فقال فى التنبيه على صعوبة السؤال «إشكال عظيم صعب.. لي نحو عشرين سنة أورده على الفضلاء والعلماء بالأصول والنحو فلم أجد له جوابا يرضيني وإلى الآن لم أجده..»[٤٨].

ب ـ الإشكال الذى أورده على نوع دلالة العام على فرد من أفراده، أهي من دلالة المطابقة أم التضمن أم الالتزام؟

هذا الإشكال ذكره القرافي في نفائس الأصول وأجاب عنه ثم كرره فى شرح تنقيح الفصول الذى ألفه بعد نفائس الأصول وقال:

هذا سؤال صعب، وقد أوردته في شرح المحصول وأجبت عنه بشيء فيه نكادة وفي النفس منه شيء..»[٤٩].

(٤٦) انظر الإشكال وجوابه في العقد المنظوم ص: ٥٠٦.

(٤٧) انظر الإشكال وجوابه في شرح تنقيح الفصول: ص ١٨٠.

(٤٨) العقد المنظوم: ٥٤٥ ـ ٥٤٧.

(٤٩) شرح تنقيح الفصول: ص ٢٦.

٥ ـ تفريقه بين القواعد والمصطلحات الأصولية المتقاربة في الظاهر، والتمثيل لكل منها بأمثلة واضحة لا تدع مجالا للشك في ثبوت الفرق:

ومن ذلك مثلاً:

أ ـ تفريقه بين الشرط وعدم المانع[٥٠].

ب ـ تفريقه بين الشرط اللغوى وغيره[٥١].

جـ ـ تفريقه بين أجزاء العلة والعلل المجتمعة[٥٢].

د ـ تفريقه بين أجزاء العلة والشرط[٥٣].

هـ ـ تفريقه بين تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم بالفتيا وتصرفه بالقضاء وتصرفه بالإمامة العظمى[٥٤].

وأمثلة هذا النوع كثيرة جدا في كتبه وبخاصة في أنوار البروق، والإحكام.

٦ ـ توجيهه لما ينقل عن الأئمة من قواعد ظاهرها التناقض أو التعارض مع الفروع المنقولة عنهم. ومن أمثلة ذلك:

أ ـ جمعه بين ما نقل عن الإمام الشافعي رحمه الله من قوله «ترك الاستفصال في حكايات الأحوال مع قيام الاحتمال ينزل منزلة العموم فى المقال» مع قوله: «حكايات الأحوال إذا تطرق إليها الاحتمال كساها ثوب الإجمال وسقط بها الاستدلال». فهاتان القاعدتان ظاهرهما التناقض، ولكن القرافي جمع بينهما ونزل كل قاعدة على نوع من الوقائع[٥٥].

ب ـ توجيهه لقول العلماء إن الاثم يتكرر بتكرار الفعل المنهي عنه، والكفارة لا تتكرر بتكرر الحنث، مع تشابههما[٥٦].

---

(٥٠) راجع أنوار البروق: ١/١١١.

(٥١) المصدر السابق: ١/٦١.

(٥٢) المصدر السابق: ١/١٠٩.

(٥٣) المصدر السابق: ١/١١٠.

(٥٤) راجع الإحكام: ص ٨٦ ـ ١٠٩ وأنوار البروق: ١/٢٠٥.

(٥٥) راجع العقد المنظوم: ٤٣٩، وأنوار البروق: ٢/٨٨ ـ ٩٢.

(٥٦) راجع أنوار البروق: ٣/٧٨ ـ ٨٠.

جـ - توجيهـه لقـول جمهور العلماء «مفهوم المخالفة يحتج به إلا إذا خرج مخرج الغالب» مع أن خروجه مخرج الغالب كان ينبغي أن يكون علة للعمل به لا تركه، لأنه إذا ذكر الوصف مثلا مع أنه غالب فلا يذكر إلا لغرض صحيح، والعمـل بمفهـومـه يصلح أن يكـون هو الغرض من ذكره مع أنه يمكن الاستغنـاء عنـه لمعرفته، بخلاف ما إذا كان الوصف ليس مما يخرج مخرج الغالب فإنه يؤتى به لبيان حال الموصوف لا للاستدلال بمفهومه.

وقد وجه القرافي كلام العلماء توجيها صحيحا مقبولا[٥٧].

(٥٧) راجع المصدر السابق: ٢/٣٨-٤٠.

المبحث الثالث

تأثر الدراسات الأصولية بعد القرافي بمؤلفاته وآرائه

من المسلم به أن القرافي بمؤلفاته الكثيرة وآرائه السديدة كان له أثر واضح فيما ألف بعده من الكتب الأصولية، بل كان له أثر فيما كتبه معاصروه من الأصوليين فتكاد لا تجد كتابا مطولا في أصول الفقه ألف بعد القرافي إلا فيه ذكر لهذا العالم في معرض الكلام عن رأي أو استدراك أو استدلال أو تحرير محل نزاع، أو تفريع على أصل، أو جمع بين قولين أو تفريق بين قاعدتين، أو نحو ذلك.

والـذين نقلوا عنـه، منهم من صرح باسمـه ونسب الفضـل لأهله وهؤلاء هم الأغلبية، ومنهم من نقل الفائدة ولم ينسبها لأحد، مع أن احتمال عدم الاطلاع عليها في كتب القرافي ضعيف، لما لكتبه من شهرة ذائعة لا تخفى على أهل هذا العلم.

والنقل عنه والتأثر بكتبه يلحظ فى مقامين:

١ ـ مقام النقل عنه على سبيل الموافقة والتأييد.

٢ ـ مقـام النقل عنه على سبيل المعارضة والمناقشة لآرائه التى تبناها والإجابة عن إشكالاته التى يثيرها.

وفيما يلى نذكر أهم الكتب التى تأثر مؤلفوها بما كتبه القرافي سواء نصوا على ذلك أم لا، وسواء كان تأثرهم على سبيل الموافقة أم المخالفة.

١ ـ الكاشف عن المحصول: للشيخ شمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني المتوفى سنة ٦٨٤ هـ.

ومؤلف هذا الكتاب من معاصري القرافي لكن القرافي كان قد سبق إلى شرح

المحصول كما يتضح ذلك من تعقب الأصفهاني للقرافي فى بعض المواضع التى اعترض فيها على الإمام الرازى، أو أجاب عنه بجواب لم يرض الأصفهاني.

ويؤيد ذلك أيضا ما قاله تاج الدين السبكي (ت ٧٧١ هـ) فى طبقات الشافعية الكبرى حيث قال في أثناء ترجمة الأصفهاني ما نصه: «وشرحه للمحصول حسن جدا، وإن كان قد وقف على شرح القرافي وأودعه الكثير من محاسنه، لكنه أوردها على أحسن الأسلوب وأوجز تقرير بحيث إنك ترى الفائدة من كلام القرافي وإن كان هو المبتكر لها كالعجماء، وتراها من كلام هذا الشيخ الأصفهاني قد تنقحت وجرت على أسلوب التحقيق، ولكن الفضل للقرافي..»[٥٨].

فهذا النص من عالم شافعي أصولي عليم بتأريخ الرجال خبير بكتب أصول الفقه متقدمها ومتأخرها. وهو يشهد، بسبق القرافي إلى شرح المحصول واستفادة الأصفهاني من ذلك الشرح.

والغريب أن الأصفهاني في الكاشف لم يذكر القرافي باسمه ولو مرة واحدة ولم يذكر كتابه نفائس الأصول حسب علمي مع أني لا أشك في أن من يقدم على شرح كتاب مشروح لابد أن يطلع على شرح المتقدم. ولكن الأصفهاني كان إذا وجد في شرح القرافي ما يعجبه نقله من غير أن ينسبه، وإذا وجد فيه ما لا يروق له قال: زعم بعضهم كذا أو قال بعض العلماء أو بعض الفضلاء أو عبارة نحو هذه. ومن أمثلة ذلك:

أ ـ نقل الخلاف في الضمائر أهى من الكليات أم من الجزئيات ؟ على نحو ما ذكره القرافي، ووافق رأى القرافي فيها وهو أنها من الكليات[٥٩].

ب ـ نقل سؤال ابن التلمساني[٦٠] المشهور في مسألة وجود المشكك والفرق بينه

(٥٨) طبقات الشافعية الكبرى: ٨/١٠١.

(٥٩) انظر الكاشف: ١/ل ٨٢ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٧٣ أصول.

(٦٠) التلمساني: هو عبدالله بن محمد بن علي الفهرى، شرف الدين فقيه شافعي شرح المعالم في أصول الفقه وشرح المعالم في أصول الدين للرازى. توفي سنة ٦٤٤هـ (طبقات السبكي: ٨/١٦٠، وحسن المحاضرة ١/٤١٣).

وبين المتواطيء وأجاب عنه بمثل جواب القرافي، دون أن ينسبه إليه[٦١].

جـ- نقل اعتراضات القرافي على تعريف الفخر الرازى المشترك ولم ينسبها إليه[٦٢].

د- نقل جواب القرافي عن قول الامام الرازى إن الألفاظ متناهية والمعاني غير متناهية، لأن الألفاظ مركبة من المتناهي والمركب من المتناهي متناه. ولم ينسب الجواب لأحد.[٦٣].

هـ- اعترض على تمثيل الرازي تسمية الشيء باسم الصورة بتسمية اليد بالقدرة. وقال ان هذا المثال فيه نظر، لأن القدرة ليست نفس صورة اليد بل لازمة لصورة اليد. وهذا الاعتراض أورده القرافي فى شرحه[٦٤].

و- نقل اعتراض القرافي على ما صنعه الامام فى بداية كلامه عن كون الأصل فى الكلام الحقيقة من نقله ما يؤيد خلاف ذلك، وذكره ما يقوي حجة من قال المجاز غالب على اللغة، ولم يذكر القرافي باسمه بل قال «لا يقال ادعى المصنف فى أول المسألة أن المجاز غير غالب على اللغات ولم يذكر عليه حجة بل ذكر بعد ذلك ما يؤيد حجة الخصم[٦٥]. ثم أجاب عن الاعتراض.

٢ - تلقيح الفهوم فى تنقيح صيغ العموم: للحافظ صلاح الدين خليل ابن كيكلدى المشهور بالعلائي المتوفى سنة ٧٦١ هـ.

هذا الكتاب خصصه العلائي لبيان صيغ العموم وتكلم فيه عن قوة دلالة العام كلاما مختصرا. وإذا قارنت هذا الكتاب بكتاب القرافي «العقد المنظوم فى الخصوص والعموم» رأيت مدى تأثر العلائي بكتاب القرافي واعتماده عليه في أكثر مباحث الكتاب. وقد ذكر القرافي من صيغ العموم أكثر مما ذكر العلائي، لأن

---

(٦١) راجع الكاشف: ١/ل ٨٤.

(٦٢) المصدر السابق ١/ل ١١٠.

(٦٣) المصدر السابق ١/ل ١٦٢ وانظر نفائس الأصول (١/ ٩٣١-٩٣٣).

(٦٤) الكاشف: ١/ل ١٧٤.

(٦٥) المصدر السابق ١/ل ١٧٩ - ١٨٠.

الأخير قد ترك الكلام عن بعض ما عده القرافي من صيغ العموم. وترك التفريع الذى اتبعه القرافي وجعله يوصل صيغ العموم إلى مائتين وخمسين صيغة.
والعلائي لم يهمل ذكر القرافي كما فعل الأصفهاني ولكنه كان ينقل عنه فى مواطن كثيرة ويذكره باسمه وقد يذكر اسم كتابه الذى نقل عنه. وقد أحصى محققه المواضع التى نقل فيها عن القرافي مع التصريح باسمه فبلغت أكثر من ثلاثين موضعا، ومنها:

أ - تعريف العام. وقد نقل العلائي كلام القرافي في الدافع الذى حمله على تعريف العام بأنه «اللفظ الموضوع لمعنى كلي بقيد تَتَبُّعِهِ فى محالِّهِ» فقال: لكن نشير هاهنا إلى بحث ذكره الامام شهاب الدين القرافي في بعض كتبه، ذكر فيه أن حقيقة مسمى العموم فى غاية الغموض والإشكال» ثم نقل كلام القرافي بمعناه مع طوله [٦٦].

ب - إشكال القرافي الذى أورده على خلاف العلماء فى أقل الجمع، دون التفريق بين جموع القلة وجموع الكثرة مع أن أهل النحو فرقوا بينهما وقالوا إن جموع الكثرة لا تطلق على ما دون العشرة الا مجازا، والاصوليون يحكون الخلاف في الجميع ويذكرون فى المسأله قولين، الأول ان أقل الجمع ثلاثة والثاني: أن أقله اثنان ولا يفرقون بين القلة والكثرة. وقد نقل العلائي كلام القرافي بطوله ونقل ما قاله الأصفهاني في الجواب عن ذلك السؤال ولم يعقب بشيء[٦٧].

جـ - تقسيم القرافي الطرق المفيدة للعموم. نقله العلائي وعقب على بعض الأقسام بتعقيبات مقتضبة[٦٨].

٣ - تحقيق المراد في أن النهي يقتضي الفساد: للحافظ العلائي المتقدم ذكره. وقد نقل عن القرافي في مواطن منها:

(٦٦) تلقيح الفهوم: ١٠٠-١٠٢.
(٦٧) المصدر السابق: ٣٦٣-٣٦٦.
(٦٨) المصدر السابق: ٤٣٢-٤٣٣.

أ ـ حين الكلام عن تعريف الصحة والفساد نقل عن القرافي قوله:
إن الخلاف بين المتكلمين والفقهاء في مسألة صلاة من ظن أنه متطهر خلاف لفظي، لأن الجميع قائلون بوجوب الإعادة إذا علم أنه صلى بلا طهارة.
واعترض على قول القرافي هذا بأن فيه نظرا من جهة مسألة الصلاة خلف الخنثى المشكل إذا تبين أنه رجل، ففي أحد القولين عن الشافعي أنه لا يجب القضاء، فهى صحيحة إذاً عند الفقهاء لإسقاطها القضاء، وفاسدة عند المتكلمين لعدم موافقتها أمر الشرع[٦٩].

ب ـ نقل عنه مذهب المالكية في مسألة اقتضاء النهي الفساد واكتفى به[٧٠].

جـ ـ نقل قول القرافي إن الحنفية والشافعية والحنابلة طردوا أصولهم في مسألة اقتضاء النهى الفساد وعدمه. ورد العلائي ذلك فيما يتعلق بالحنفية والحنابلة وأيده فيما يخص الشافعية. وفي كلام العلائي في هذا الموطن نزعه مذهبية ظاهرة[٧١].

د ـ نقل عن القرافي كلاما طويلا في مسألة الصلاة في الدار المغصوبة والفرق بينها وبين مسألة صوم يوم النحر، ولم يتعقبه بشيء[٧٢].

٤ ـ الإبهاج فى شرح المنهاج: الأصل المشروح للقاضي ناصر الدين البيضاوي المتوفى (سنة ٦٨٥ هـ) وهو مختصر للمحصول. والشرح بدأه تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ) ولكنه مات ولم يكمله بل وصل فيه إلى مقدمة الواجب. ثم أتمه ابنه تاج الدين المتوفى سنة (٧٧١ هـ) وهذا الكتاب فيه نقول كثيرة عن القرافي وفيه تعقيبات على بعض ما ينقله وهو يصرح بالنقل عن القرافي ـ غالبا ـ وقد ينقل عنه من غير إشارة ومن المواطن التى نقل فيها عن القرافي:

أ ـ حين تعريف المتواطيء والمشكك نقل سؤال ابن التلمساني الذى أورده على

(٦٩) راجع تحقيق المراد في أن النهي يقتضي الفساد: ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٧٠) المصدر السابق: ص ٩١.
(٧١) المصدر السابق: ص ٢٠٢.
(٧٢) المصدر السابق: ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

القول بوجود المشكك وأجاب عنه بمثل جواب القرافي ولم ينسبه إليه فلعله نقله منه[٧٣].

ب ـ نقل عن القرافي رأيه فى مسألة العام في الأشخاص هل يكون عاما فى الأحوال والأزمنة والبقاع والمتعلقات ؟

وذكر أنه كان يرى أن العام في الأشخاص عام في هذه الأمور الأربعة ثم تبين له فيما بعد أنه مطلق فيها، فوافق القرافي في أصل المسألة واعترض عليه في بيانه لها بما لا يتسع هذا البحث لذكره ومناقشته[٧٤].

٥ ـ نهاية السول في شرح منهاج الأصول: للشيخ جمال الدين الإسنوى ـ المتوفى سنة (٧٧٢ هـ). وقد نقل في هذا الكتاب عن القرافي فى مواضع منها:

أ ـ قوله إن الخلاف في تعريف الصحة بين المتكلمين والفقهاء خلاف لفظي، وقد وافقه على ذلك[٧٥].

ب ـ الإشكال الذى أورده القرافي على تعريف الرخصة نقله ولم يجب عنه[٧٦].

جـ ـ رأي القرافي في مسألة الضمائر، أهي من أقسام الكلي أم الجزئي ؟ وقد أيده على أنها من الكلي[٧٧].

٦ ـ **الموافقـــــات** :

للشيخ إبراهيم بن موسى اللخمي المشهور بالشاطبي المتوفى سنة (٧٩٠ هـ). نقل الشاطبي في هذا الكتاب بعض إشكالات القرافي وناقشه فيها وأجاب عنها ومن ذلك مثلا :

أ ـ الإشكال الذى أورده القرافي على ضابط المصلحة المعتبرة والمفسدة والمعتبرة

(٧٣) راجع الابهاج في شرح المنهاج: ١/٢٠٩.

(٧٤) راجع المصدر السابق: ٢/٨٤ـ٨٥.

(٧٥) راجع نهاية السول مع حاشية المطيعي: ١/٩٨.

(٧٦) راجع المصدر السابق: ١/١٢١.

(٧٧) راجع المصدر السابق: ٢/٥٣ـ٥٤.

عند المعتزلة وأهل السنة وقد نقل الشاطبي كلام القرافي على الرغم من طوله ثم أجاب عنه[٧٨].

ب ـ اعتراض القرافي على تعريف الرخصة الذى ذكره الامام الرازى وتوقفه في تعريفها. نقله ثم أعقبه بالتعريف المختار في نظره وأجاب عن سؤال القرافي[٧٩].

جـ ـ قول القرافي إن القول بمراعاة الشارع مصالح العباد في تشريعه لا يصح إلا على القول بأن المصيب واحد في مسائل الاجتهاد، وأما المصوبة فلا يمكنهم أن يقولوا بمراعاة المصالح، إذ يستحيل أن تكون المصلحة الخالصة أو الراجحة في الحكم وفي نقيضه، بل لا تكون إلا في أحدهما وهو الراجح، وما عداه خطأ لا مصلحة فيه. وتعقبه وقال إن القول بمراعاة المصالح جار على المذهبين التصويب والتخطئة، لأن المصوبة الا حكامُ عندهم إضافية فحكم الله عندهم تابع لنظر المجتهد والمصالح تابعة للحكم أو متبوعة له[٨٠].

٧ ـ البحر المحيط:

لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي المتوفى سنة (٧٩٤ هـ). ذكر الزركشي في مقدمته الكتب التي اعتمد عليها ومنها كتاب شرح تنقيح الفصول وكتاب نفائس الأصول، ثم نقل عن القرافي في مواطن كثيرة جدا منها:

أ ـ قول القرافي الأصل يطلق على أربعة معان. نقله ثم عقب عليه فزاد معاني أخر[٨١].

ب ـ قوله في تعريف الاطراد والانعكاس. نقله وأيده[٨٢].

---

(٧٨) راجع الموافقات: ٢/٤٢ ـ ٤٤.

(٧٩) راجع المصدر السابق: ٢/٤٢ ـ ٤٤.

(٨٠) راجع المصدر السابق: ٢/٥٤ ـ ٥٨.

(٨١) راجع البحر المحيط بتحقيق الدكتور محمد الدويش (رسالة دكتوراه): ١/٣٥.

(٨٢) راجع البحر المحيط: ١/٢٥٣.

جـ - زيادة التقديرات في أقسام الحكم الوضعي. نقله ولم يتعقبه بشيء[٨٣].

د - قولـه ليس كل واجب يثاب على فعله وليس كل محرم يثاب على تركه.. وقال: وفيه نظر. وبينه[٨٤].

٨ - المختصر في أصول الفقه: لعلي بن محمد بن علي البعلي المشهور بابن اللحام من علماء الحنابلة توفي سنة (٨٠٣ هـ).

وقد نقل عن القرافي مع التصريح باسمه في ثلاثة مواطن:

أ - التفـريق بين العلو والاستعـلاء اللذين يذكـرهما العلماء حين الكلام عن تعريف الأمر، وهل من شرطه العلو أو الاستعلاء ؟

وقـد فرق بينهـما القرافي بأن العلو هيئة في الآمِر، من شرفه، وعلو منزلته بالنسبة للمأمور. والاستعلاء: هيئة في الأمر، من رفع الصوت به. وورودِه على جهة القهر والغلبة[٨٥].

ب - رأي القرافي فى مسألة العام في الأشخاص هل هو عام في الأحوال والأزمان والأمكنة والمتعلقات ؟

نقله البعلي واختار خلافه فقال: عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة والبقاع عند الأكثر خلافا للقرافي وأبي العباس[٨٦]. (يعني ابن تيمية).

جـ - نقل عن القرافي قوله عدم جواز التقليد في أصول الفقه[٨٧]. والقرافي نقل هذا القول عن أبي الحسين البصري صاحب المعتمد ووافقه[٨٨].

٩ - شرح الكـوكب المنـير: للشيخ محمـد بن أحمد بن عبدالعزيز الفتوحي الحنبلي المشهور بابن النجار المتوفى سنة ٩٧٢ هـ.

(٨٣) راجع المصدر السابق: ١/٣٠١.

(٨٤) راجع المصدر السابق: ١/٤٤٨-٤٤٩.

(٨٥) راجع المختصر في أصول الفقه: ص ٩٧.

(٨٦) المصدر السابق: ص ١٠٦.

(٨٧) المصدر السابق: ص ١٠٦.

(٨٨) انظر نفائس الأصول: ١/٩٥-٩٦.

وهذا الكتاب أكثر مؤلفه من النقل عن القرافي مع التنبيه على الكتاب الذى نقل عنه في أغلب الأحيان. ومن المواضع التى نقل فيها عن القرافي:

أ ـ تحرير محل النـزاع في مسألة «المشتق هل يشترط لإطلاقة حقيقة بقاء وجه الاشتقـاق ؟ «نقله عن القرافي فقال: قال القرافي: محل الخلاف إذا كان المشتق محكـومـا به كزيد مشرك وسـارق، أما إذا كان متعلق الحكم وهو المحكوم عليه كـ «الزانية والزاني» «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» فهو حقيقة مطلقا فيمن اتصف به في الماضي والحال والاستقبال[٨٩].

ب ـ تفريق القرافي بين الخبر والإنشاء. نقله بكامله على وجه التأييد[٩٠].

جـ ـ قول القرافي فى مسألة وضع الخبر للصدق فقط أو للصدق والكذب ؟ نقله المصنف وحاول الجمع بين القولين وبيّن سبب الخلاف[٩١].

د ـ رأيه في أن العام في الأشخاص مطلق في الأزمان والأمكنة والأحوال. نقله وخالفه فيه، واختار أن العموم في الأشخاص يقتضي العموم في الأحوال والأزمنة والأمكنة[٩٢]

١٠ ـ رسالة في دلالة العام على بعض أفراده: ألفها الشيخ محمد بن محمد البليدي المالكي المتوفى سنة ١١٧٦هـ في جواب الإشكال الذى أورده القرافي على نوع دلالة العام على بعض أفراده. وخلاصة هذا الإشكال أن القرافي يقول: دلالة العام على فرد من أفراده لا تصلح أن تكون دلالة مطابقة لأن المطابقة هي دلالة اللفظ على تمام مسماه. ولا تصلح أن تكون دلالة تضمن لأن دلالة التضمن هي دلالة اللفظ على جزء مسماه والفرد ليس جزء مسمى العام لأنه لو كان جزء مسمى العام لكان مسمى العام كلا، ومسمى العام كلية لا كلا لأنه لو كان مسماه كلا لما صح الاستدلال به على فرد من أفراده فى حالتي النفي والنهي، لأن النهي عن الكل ليس نهيا عن كل فرد من أفراده، ونفي الكل ليس نفيا

(٨٩) شرح الكوكب المنير: ١/٢١٨ ـ ٢١٩.

(٩٠) المصدر السابق: ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٩١) المصدر السابق: ٢/٣٢٢.

(٩٢) المصدر السابق: ٣/١١٦.

لكل فرد من أفراده. ولا تصلح أن تكون دلالة العام على فرد من أفراده من دلالة الالتزام، لأن دلالة الالتزام هي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسمى اللفظ لازم له، ولو كان الفرد الواحد خارجا عن مسمى العام لخرجت جميع أفراده. فلا يخلو إما أن يبطل حصرهم دلالة اللفظ في الأنواع الثلاثة ـ المطابقة والتضمن والالتزام أو لا يكون العام دالا على فرد من أفراده دلالة وضعية[٩٣].

والرسالة التي ألفها البليدى تقع في تسع صفحات. وهي مخطوطة فى دار الكتب تحت رقم ١١١ أصول فقه.

١١ ـ حلية ذوى الأفهام بتحقيق دلالة العام. تأليف الشيخ محمد بن أحمد ابن حسن الخالدي المشهور بالجوهرى الصغير المتوفى سنة ١٢١٥ هـ.

وهي رسالة صغيرة تقع في اثنتى عشرة صفحة ألفها في الجواب عن إشكال القـرافي المتقدم واختار أن العام يدل على كل فرد من أفراده دلالة مطابقة. والرسالة مخطوطة في المكتبة الأزهرية. ٣٥٦ مجاميع.

١٢ ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: للعلامة محمد بن على بن محمد الشوكاني الأصولي المحدث المفسر المشهور توفي سنة ١٢٥٥ هـ وهذا الكتاب فيه نقول كثيرة عن القرافي وغيره من العلماء وقد أفاد مؤلفه كثيرا من كتاب البحر المحيط للزركشي. وهو قد نقل عن القرافي في مواضع منها:

أ ـ مسألة وضع العرب الخبر للصدق فقط أو للصدق والكذب، ووافق القرافي في أن العرب وضعته للصدق فقط وإنما يدخله احتمال الكذب من جهة المتكلم[٩٤].

ب ـ تفريق القرافي بين معنى العام والأعم في إطلاق العلماء بأن العام يستعمل في اللفظ، والأعم يستعمل في المعنى، فاذا قيل «هذا أعم» تبادر إلى الذهن العموم المعنوي، واذا قيل «هذا عام» تبادر إلى الذهن اللفظ العام.

وهذا الكلام نقله الشوكاني وأقره.[٩٥].

(٩٣) راجع الإشكال المتقدم في شرح تنقيح الفصول: ص ٢٦ والعقد المنظوم: ص ٨٥.

(٩٤) راجع ارشاد الفحول: ص ٤٤. (٩٥) المصدر السابق: ص ١١٥.

الخاتمة

بعد هذا العرض الموجز لمؤلفات القرافي الأصولية وما تضمنته من إضافات قيمة لعلم أصول الفقه، وبعد ذكر جملة من الكتب الأصولية التي كانت آراء القرافي واختياراته تشكل جزءاً من مادتها العلمية ومرجعاً مهما لمؤلفيها، أرجو أن أكون قد وفقت في إعطاء القارىء صورة واضحة عن الأثر الذى تركه القرافي بآرائه ومؤلفاته فيمن عاصره أو جاء بعده من علماء أصول الفقه وطلابه.

وإنني على يقين من أن هذا البحث لن يشبع نهم أهل العلم المتخصصين، لأن طبيعة البحث تحتاج إلى بسط وإيضاح تكتمل به الفائدة وتتضح به الصورة، ولكن ذلك مما لا يمكن استيفاؤه في مجلة دورية بل يحتاج إلى كتاب مستقل يجمع آراء ذلك العالم واختياراته التي انفرد بها عن جمهور الأصوليين، وعرف بها وعرفت به وأرجو أن يتم ذلك قريبا. والحمد لله أولا وآخرا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مصادر البحث

١ - الإبهاج في شرح المنهاج لتقي الدين السبكي وابنه تاج الدين ـ تحقيق د. شعبان محمد اسماعيل ـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٤٠٢ هـ.

٢ - احكام الاحكام لابن دقيق العيد ـ نشر دار الكتب العلمية ببيروت.

٣ - الاحكام في تمييز الفتاوى عن الاحكام وتصرفات القاضي والامام لشهاب الدين القرافي. تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبوغدة ـ نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

٤ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر ـ بيروت.

٥ - الاستغناء في أحكام الاستثناء للقرافي ـ تحقيق د. طه محسن ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢هـ مطبعة الارشاد ـ بغداد.

٦ - أنوار البروق في أنواء الفروق للقرافي. طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

٧ - البحر المحيط: لبدر الدين الزركشي ـ تحقيق د. محمد الدويش (رسالة دكتوراه) لم ينشر بعد (جـ ١).

٨ - تلقيح الفهوم في تنقيح صيغ العموم: للحافظ العلائي تحقيق عبدالله بن محمد بن اسحاق آل الشيخ ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.

٩ - تنقيح الفصول للقرافي. مطبوع مع شرحه بتحقيق طه عبدالرؤوف سعد ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٣ هـ.

١٠ - حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧ هـ.

١١ - حلية ذوى الأفهام بتحقيق دلالة العام للشيخ محمد الجوهرى الصغير مخطوط بالمكتبة الأزهرية برقم ٣٥٦ مجاميع.

١٢ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محمد سيد جاد الحق ـ نشر دار الكتب الحديثة بمصر .
١٣ ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي : ليوسف بن تغرى بردى ـ تحقيق فهيم شلتوت ـ طبع مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ نشر مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى .
١٤ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون . نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت .
١٥ ـ رسالة في دلالة العام على بعض أفراده : لمحمد البليدى ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١١١ أصول فقه .
١٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبدالحي بن العماد الحنبلي تحقيق لجنة احياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ـ بيروت .
١٧ ـ شرح تنقيح الفصول للقرافي (تقدم) .
١٨ ـ شرح الكوكب المنير لمحمد بن أحمد بن النجار ـ تحقيق د . وهبه الزحيلي ود . نزيه حماد ـ نشر جامعة أم القرى .
١٩ ـ طبقات الشافعية : لجمال الدين الاسنوى تحقيق ـ د . عبدالله الجبورى ـ طبع رئاسة ديوان الأوقاف سنة ١٣٩١ هـ .
٢٠ ـ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي تحقيق د . عبدالفتاح الحلو، ود . محمد الطناحي . الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣ هـ .
٢١ ـ العقد المنظوم في الخصوص والعموم للقرافي تحقيق د . محمد الختم ـ (رسالة دكتوراه) لم تنشر بعد .
٢٢ ـ اللباب في تهذيب الانساب لابن الاثير الجزرى ـ طبعة دار صادر بيروت .
٢٣ ـ مفتاح السعادة : لطاش كبرى زادة ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد سنة ١٣٢٩ هـ .
٢٤ ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : ليوسف بن تغرى بردى ـ طبع مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٥ هـ ـ تحقيق أحمد يوسف بخاتي .
٢٥ ـ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ـ الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٨هـ .

٢٦ - نفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي (جـ١ ، ٢) . تحقيق عياضه السلمي ، د. عبدالكريم النملة (رسالة دكتوراه) لم تنشر بعد .
٢٧ - . نهاية السول في شرح منهاج الأصول - لجمال الدين الاسنوى - طبعة عالم الكتب - بيروت .

الأصالة والمعاصرة: خصيصتان من خصائص الدعوة الإسلامية

للدكتور
محمد أبو الفتح البيانوني
الأستاذ المشارك في قسم الدعوة والاحتساب بالمعهد العالي للدعوة الإسلامية
بالمدينة المنورة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه المبين: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]

والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد، الهادي إلى أقوم طريق وأهدى سبيل، والقائل: «قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك..»[2].

ورضي الله عن الصحابة والتابعين، الهادين المهديين، وعن الدعاة العاملين، عن من تبعهم ونهج نهجهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن للدعوة الإسلامية خصائص عديدة، ولعل من أبرز هذه الخصائص، وأعظمها أثراً في حياة الدعوة، خصيصَتيْ: الأصالة والمعاصَرَةِ اللتين كَثُر الحديث عنهما، والدعوةُ إليهما في العصر الحاضر.

إلا أن المُعايِشَ لواقع الدعوة في العصر الحديث، والمتتبّع لسير الدعاة ونهجهم في الدعوة، يجد اختلافاً واضطراباً في مفهوم هاتين الخصيصتين، وتطبيقاتهما في حياة الدعوة المعاصِرَة.

---

(١) الآية / ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٢٦، ومثله في مقدمة سنن ابن ماجه، الباب السادس رقم/٤٣، وورد في الباب الأول من مقدمة سنن ابن ماجه رقم/٥ بلفظ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء».

مما جعل الأصالة والمعاصَرَة كلمتين جميلتين تتداولهما الألسن، وشعارَيْن بَرّاقَيْن، يتعارف على رفعهما الدعاة، دون أن يكون لكل منهما حدودُه الواضحة، ومعناه البيِّن، وما من شيء أخطر على الدعوة من أن تلتبس سماتُها الأساسية، أو يُلابس خصائصُها غموضٌ أو اضطراب.

فلا بد من التعرف على تلك الحدود، والوقوف على ذلك المعنى، لتتضح المعالم، وتعرفَ الضوابط، وتَسْلَمَ للدعوة الإسلامية خصائصها، وتتجلى للناس سماتها.

لذا، أحببتُ أن أبحث هذا الموضوع، متبيناً معنى هاتين الخصيصتين، مجتهداً في تأصيلهما، واستخلاصِ ضوابطهما، مشيراً إلى عظم آثارهما في حياة الدعوة الإسلامية...

وجعلتُ بحثي هذا في عدة نقاط، وهي :

١ ـ تعريف كل من الأصالة والمعاصرة.
٢ ـ بيان مصادرهما واستمدادهما.
٣ ـ مظاهرهما في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.
٤ ـ تطبيقاتهما في سيرته صلى الله عليه وسلم.
٥ ـ تطبيقاتهما في سيرة الخلفاء الراشدين.
٦ ـ اهتمام الدعاة ومؤسسي الجماعات الإسلامية بهما.
٧ ـ ضوابطهمـــا.
٨ ـ التنبيه إلى أخطاء في مفهومهما وتطبيقاتهما قديماً وحديثاً.
٩ ـ بيان آثارهما الدعوية.
١٠ ـ خاتمة في بيان واجب الدعاة والعاملين للإسلام تجاههما.

والله أسأل أن يعينني على وفاء البحث حقَّه، وأن يرزقني السداد في القول والعمل، فهو ولي التوفيق.

ooo

١ ـ تعريف كل من الأصالة والمعاصَرَة :

أ) تعريف الأصالة :

جاء في لسان العرب: «وأَصُلَ الشيءُ؛ صار ذا أصل، قال أميةُ الهذلي :

وما الشُّغلُ إلا أنني متهيِّبٌ لعِرْضِكَ، ما لم تجعَلِ الشيءَ يَأْصُلُ

وكذلك : تأَصَّلَ[٣].

وفي المعجم الوسيط: «أَصُلَ الشيءُ أصالةً: ثبتَ وقوي . . والأصالةُ في الرأي : جودته، وفي الأسلوب: ابتكاره، وفي النسب: عراقَتُه.

وأَصْلُ الشيءُ : أساسه الذي يقوم عليه، ومنشؤه الذي ينبتُ منه.»[٤].

واستئناساً بهذه التعريفات اللغوية، يمكننا أن نعرف أصالَةَ الدعوة في الاصطلاح بأنها:

«المحافظةُ على ذاتيَّةِ الدعوة، باستنادِها إلى الأصول والأدلة الشرعية، والتَمَسُّكِ بمبادئها الأساسية».

ويقابل هذه الأصالة: «تَبَعيّةُ الدعوة، وبُعْدُها عن أصولها وأدلتها الشرعية، وانحرافها عن مبادئها الأساسية».

ومن هذا التعريف نستخلص: أن وصف الدعوة بالأصالة صالح لكل زمان ومكان، إذا تحققت فيها هذه المواصفات، وليس وصفاً خاصاً بزمن نشأتها، وعصر تأسيسها، كما قد يُتوهم.

---

(٣) انظر لسان العرب / ١١ : ١٦.

(٤) انظر المعجم الوسيط / ١ : ٢٠.

ب) تعريف المعاصرة :

المُعَاصَرَةُ لغةً: مفاعَلَةٌ من عاصَرَ يعاصر، وفي المعجم الوسيط: عاصر فلان فلاناً؛ إذا عاش معه في عصر واحد[٥].

ومن هذا التعريف اللغوي، يمكننا تعريف معاصرة الدعوة في الاصطلاح، بأنها: «تكافؤ الدعوة مع العصر الذي تعيش فيه بحيث تعالجُ واقِعَه، وتُلَبِّي مُتَطَلَّباته».

فالدعوة المعاصرة لعصر ما، هي الدعوة التي تعالج واقع ذلك العصر، وتلبي متطلباته، وذلك من حيث حسنُ التخطيط، وتخيُّر الأساليب، ومناسبة الوسائل، وما إلى ذلك...

ويقابل هذا المعنى للمعاصرة: «قصورُ الدعوة، وعَدَمُ قدرتها على معالجة واقع عصرها، وتلبية مُتَطلّباته» وكأنها تعيش عصراً غير عصرها...

ومن هذا التعريف يمكن أن نستخلص: أن وصف الدعوة بالمعاصَرَة، صالح لكل زمان ومكان، إذا تحققت فيها هذه المواصفات، وليس وصفاً خاصاً بالعصر الحديث كما قد يتوهم، فدعوة الناس بلسانهم ولغتهم معاصرة، واختيار الأسلوب الدعوي المناسب لموقف من المواقف معاصرة، استخدام الوسائل المتوفرة في عصر من العصور لنشر الدعوة معاصرة، وهكذا.

ويجدر التنبيه في هذا المقام إلى أمرين :

أ) إن استعمالنا لمصطلح الدعوة في هذا المقام، يشمل المعنيين الأساسيين لكلمة دعوة، فيشمل الدعوة بمعنى (الرسالة الإسلامية) كما يشمل الدعوة بمعنى (الدعوة إلى الرسالة وعملية تبليغها وتعليمها وتطبيقها)، وذلك لأن الدعوة

(٥) انظر المعجم الوسيط / ٢ : ٦١٠.

الإسلامية بالمعنيين السابقين، تحمل هاتين الخصيصتين، فتوصف الرسالة الإسلامية بالأصالة والمعاصرة، لأنها تعتمد على أصول ثابتة، وتصلح لكل عصر ومصر، كما توصف عملية الدعوة إليها بذلك، إذا استندت إلى الأصول الثابتة، واعتمدت المناهج والأساليب والوسائل الشرعية من جهة، وعالجت واقع عصرها، ولبَّت متطلباته من جهة أخرى.

ب) إن الأصالة والمعاصرة وصف لازم ثابت للدعوة بمعنى (الرسالة) لا يختلف من زمن إلى زمن، ولا من عصر إلى عصر، خلافاً لوصف الدعوة بالمعنى الثاني بذلك، فهو وصف نسبي متغيِّرٌ يختلف من زمن إلى زمن، وعصر إلى آخر ـ كما يفهم من تدبر التعريفين.

فما وصف بالأصالة في زمن، قد لا يوصف به في زمن آخر، وذلك لعدم اعتماده على الأصول الثابتة، أو انحرافه عن المبادىء الأساسية.

وما كان معاصراً في زمن، قد لا يبقى معاصراً في زمن آخر، وما كان معاصراً في مكان معيَّن، أو بيئة محددة، قد لا يوصف بالمعاصرة في مكان آخر أو بيئة مخالفة، وهكذا، حسب تحقيق الدعوة والدعاة لذلك الانسجام المطلوب، والقيام بالوظيفة الدعوية الواجبة...

ومن هنا، جاء تمثيل الله عز وجل لكلمة التوحيد وكلمة الكفر، ذلك التمثيل الرائع المتميز في كتابه الكريم، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ
حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٦)

٢ ـ بيانُ مصادرهما واستمدادهما :

تعود أصاله الدعوة الإسلامية ومعاصرَتُها إلى خصائص الرسالة الإسلامية التي تدعو إليها، وسماتها الأساسية، كما تُسْتَمدُّ حقيقةُ هاتين الخصيصتين من أمور عديدة، منها:

أ) ربانيَّةُ المصدر :

فالدعوة الإسلامية، دعوةُ الله عز وجل، قال تعالى:

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (٧)

وقال:

﴿ .... أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ .... ﴾ (٨)

---

(٦) الآيات / ٢٤ ـ ٢٦ من سورة إبراهيم عليه السلام.

(٧) الآية / ١٤ من سورة الرعد .

(٨) الآية / ٢٢١ من سورة البقرة .

وقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .... ﴾ (٩)

ب) ربانية الغاية :

فالدعوة الإسلامية كما هي دعوة الله سبحانه وتعالى، وهي دعوةٌ إليه وَحْدَه، قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٠)

وقال:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (١١)

وقال:

﴿ .... قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ (١٢)

---

(٩) الآية / ٢٤ من سورة الأنفال.

(١٠) الآية / ٣٣ من سورة فصلت .

(١١) الآية / ١٠٨ من سورة يوسف عليه السلام.

(١٢) الآية / ٣٦ من سورة الرعد.

ج) طبيعة النصوص والأدلة الشرعية:

اقتضت حكمة الله عز وجل، أن تستند الأحكام الشرعية في كثير من مجالاتها إلى نصوصٍ عامة، وقواعد كلية، تصلح للتفريع عليها، ويتدرج تحتها كثير من الجزئيات المستجدَّة، وذلك ليجد العلماء والمجتهدون سعةً في استنباط الأحكام، والاستدلال عليها، ولتتحقَّق للشريعة الإسلامية خصائصُ الخلود والاستمرار والوفاء بمتطلبات الحياة المتجددة إلى يوم القيامة، مما يجعلها صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.

فما من مسألة مستجدة في حياة المسلمين، إلا ويجد الفقهاء لها نصاً عاماً يشملها، أو أصلاً يقيسونها عليه، أو قاعدة كلية يلحقونها بها..

ولذا كان من مصادر الاستنباط القياسُ، والاستحسانُ، وكان من القواعد الشرعية المقررة[١٣]: الأمورُ بمقاصدها، والعادة مُحَكَّمة، والضروراتُ تبيح المحظورات، والضرورات تُقَدَّر بقدرها...

ولا يخفى ما تُحقِّقُه طبيعةُ هذه النصوص الشرعية والأدلة من توازن بين الاعتماد على الأصول الشرعية، ومراعاة الظروف والأحوال، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

«... إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العدل، وأسفر صُبْحُه بأي طريق كان، فثمَّ شرعُ الله ودينه ورضاه وأمره.

والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد، وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بَيَّنَ بما شرعَه من الطرق: أن مقصوده

(١٣) انظر على سبيل المثال القواعد في مجلة الأحكام العدلية، وشرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقا ـ رحمه الله تعالى ـ.

إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استُخْرِجَ بها الحق، وعُرِفَ العدل في ضوء النصوص الشرعية، وجبَ الحكم بموجبها ومقتضاها.

والطرق أسبابٌ ووسائلُ لا تراد لذواتها، وإنما المراد غاياتُها التي هي المقاصد، ولكن نَبَّه بما شرعه من الطرق على أشباهها وأمثالها، ولن تجد طريقاً من الطرق المبيِّنة للحق، إلا وهي شرعةٌ وسبيل للدلالة عليها. . . »[١٤].

د) تنوعُ أحكام تصرفاتِ الرسول صلى الله عليه وسلم :

بَيَّن بعض العلماء أن تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم، تختلف أحكامها تبعاً لتعدد صفات هذه التصرفات وتنوعها. . .

فهناك تصرفات له صلى الله عليه وسلم تصدر عنه بصفته مبلغاً عن الله ومفتياً في حكم شرعي، فإن هذه التصرفات تأخذ حكم العموم والشمول ما لم تُقَيَّد بقيد، ولا تَخُصُّ حادثةً بعينها، ولا زمناً محدداً إلى يوم القيامة، كما هو حال معظم الأحكام الشرعية العامة الصادرة عنه صلى الله عليه وسلم.

وهناك تصرفاتٌ له صلى الله عليه وسلم، تصدر عنه بصفته قاضياً، وذلك حين يَفْصل بين مُتَخاصِمَيْنْ في قَضيّة. . .

فهذه التصرفات تخص الحادثة نفسها، وتقاس عليها الحوادث التي طابقتها في ظروفها وواقعها تماماً، ولا تَعُمُّ كل صورة مشابهة من وجه من الوجوه من صور القضاء. لأن أي تغيّر في ظروف الواقعة، أو أحوال الشهادة قد تغير من الحكم، فعلى القاضي أن يدقق فيها، فيحكم بما ورد في مثلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجتهد في الحكم فيما غايرها من القضايا.

وهناك تصرفات له صلى الله عليه وسلم، تصدر عنه بصفته قائداً وإماماً

---

(١٤) انظر إعلام الموقعين: ٤/٣٧٣ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

للمسلمين، يَنْظُر فيها إلى ما يحقق مصالحهم، ويسير أمورهم، ويسوس حياتهم، إما عملاً بنص شرعي فيها، أو عملاً بالسياسة الشرعية الموكولة إلى الإمام، المبنيّة على اعتبار المصالح ودرء المفاسد التي تختلف في تقديرها الأفهام، كما هو الشأن في كثير من أحكام السياسة والحكم، وشؤون الغزوات والمعارك، والأحوال الدعوية. . .

وهذه التصرفات، قد لا تأخذ صفة العموم والشمول، ولا تلزم الأئمة والخلفاء من بعده، بل قد تُتْرَكُ في كثير من أحوالها إلى الإمام والقائد في كل عصر ومصر، للنظر فيها، والعمل بما يحقق المصلحة في زمنه.

ومن هذا، اختلاف السلف رحمهم الله تعالى في حمل قوله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين «من قتل قتيلاً له عليه بيّنة، فله سَلَبُه»[١٥].

فقد قال الإمام مالك رحمه الله: هذا تصرف من النبي صلى الله عليه وسلم بالإمامة، فلا يجوز لأحد أن يختص بسَلَب إلا بإذن الإمام في ذلك قبل الحرب، كما اتّفَقَ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وخالف في هذا الإمام الشافعي رحمه الله، فجعله تصرفاً من الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الفُتْيا، فيستحق عنده القاتلُ السَلَبَ بغير إذن الإمام. . .

وقد فَصَّل الإمام القرافي رحمه الله تعالى وبَيَّنَ سبب الخلاف في هذه المسألة، ودَلَّلَ عليها، ثم قال: «ونظائر هذه المسألة كثيرٌ في الشريعة، فَتَفَقّدهُ تجده، وتجد فيه علماً كثيراً، ومُدْركاً حسناً للمجتهدين»[١٦].

---

(١٥) الحديث متفق عليه، انظر صحيح البخاري (٦/١٧٧) و (٨/٢٩)، وصحيح مسلم (١٢/٥٩).

(١٦) انظر كتاب «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، وتصرفات القاضي والإمام» للإمام القرافي المالكي ص: (٨٦ ـ ١٠٨) ففيه تفصيل هذه الفوارق، وقد طبع محققاً من قبل الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ـ حفظه الله تعالى ـ عام ١٣٨٧هـ. وانظر كلاماً مفيداً حول هذا الموضوع للإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه: «إعلام الموقعين» (٤/٣٧٢ ـ ٣٧٥).

وهكذا يُعطي هذا التنوع في التصرفات، واختلافُ أحكامها مجالاً خصباً للعلماء والمجتهدين في الاعتماد على الأصول الشرعية، ومراعاة الأحوال والظروف المستجدة في أزمانهم، فتتحقق الموازنة بين الأصالة والمعاصرة على وجهها الصحيح.

وعلى هذا يُحمل قول عمر رضي الله عنه في تعليل عدم قسمه لأراضي العراق، حيث قال: «لولا آخِرُ الناس، لقسمتُ الأرض كما قسم النبي صلى الله عليه وسلم خيبر، فقد وقف الأرض ـ رضي الله عنه ـ مع علمه بفعل النبي صلى الله عليه وسلم، فدَلَّ أن فعله ذلك ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن متعيناً»[17] وذلك لأنه من تصرفات الإمامة والسياسة في نظره والله أعلم[18].

هـ) سيرتُهُ صلى الله عليه وسلم في استخدام الأساليب والوسائل الدعوية :

إن المتتبع لسيرته صلى الله عليه وسلم في دعوته يجده قد بلغ ذروة الحكمة في الدعوة سواء من حيث عنايته بالتخطيط لها، أو تنوع أخذه بالأساليب والوسائل من أجلها، ولا غرابة، فهو الذي مُلِيءَ قلبُه حكمةً، وإيماناً، كما حَدَّث عن نفسه، فقال:

«فُرِجَ سقفُ بيتي ـ وأنا بمكة ـ فنزل جبريل، فَفَرجَ صدري، ثم غَسَله بماء زمزم، ثم جاء بطستٍ من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه»[19].

---

(١٧) انظر كتاب «المغني» لابن قدامه (٢/٥٨٢).

(١٨) يمكن تقييدُ كلام عمر رضي الله عنه في قسم النبي صلى الله عليه وسلم لخيبر، بأنه أراد شكلاً من أشكال فعله صلى الله عليه وسلم فيها، فإنه صلى الله عليه وسلم قسم جزءاً من أراضيها، ولم يقسمها كلها عند التحقيق، فقد نقل السهيلي في الروض الأنف عن أبي عُبَيْد في كتاب الأموال قوله: «قسم النبي صلى الله عليه وسلم أرض خيبر أثلاثاً أثلاثاً، السُّلالِم والوَطِيحَ والكتيبَة، فإنه تركها لنوائب المسلمين وما يعروهم، وفي هذا ما يُقوي أن الإمام مخيّر في أرض العنوة، إن شاء قسمها أخذاً بقول الله سبحانه: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ الآية، فيُجْريها مجرى الغنيمة، وإن شاء وقفها كما فعل عمر ـ رضي الله عنه ـ أخذاً بقول الله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ إلى قوله: ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾. فاستوعَبَت آيةُ الفيء جميع المسلمين ومن يأتي بعدهم، فسمى آية القُرى فيئاً، وسمى الأخرى: غنيمة، فدل على افتراقهما في الحكم، كما افترقا في التسمية» ا. هـ انظر الروض الأنف (٦/٥٨٠) بتحقيق عبدالرحمن الوكيل.

(١٩) رواه الإمام مسلم في صحيحه، انظر م (١/١٤٨) رقم (١٦٣) الإسراء، وانظر النووي على مسلم (٢/٢١٨).

وهو الذي بُعِثَ إلى الناس ليعلمهم الكتاب والحكمة، قال تعالى:

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٠)

كما نجده صلى الله عليه وسلم متمسكاً بأصالة دعوته لا يحيد عنها، ولا يقبل مساومةً فيها، معالجاً واقع عصره، متفنناً في تخير الأساليب النافعة لدعوته، مستخدماً جميع أنواع الوسائل المشروعة المتوفرة في عصره، غير زاهد بشيء منها...

وهو القدوة والأسوة في ذلك كله لمن تبعه، ودعا بدعوته.. إلى غير ذلك من أصول شرعية، وأدلة عامة وخاصة تَمُدُّ هاتين الخصيصتين بالقوة والحياة، وتجعلهما جليّتين واضحتين...

٣ ـ مظاهرهما في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام:

لما كانت دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام واحدةً في حقيقتها وأهدافها، متفقةً في مصادرها واستمداداتها، كانت خصيصتا الأصالة والمعاصرة واضحتين جليَّتَيْن في دعوة كل رسول منهم عليهم الصلاة والسلام.

فقد كانت دعوتهم جميعاً إلى الله وحده، وإلى تحقيق عبادته والخضوع له سبحانه، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (٢١)

---

(٢٠) الآية / ١٥١ من سورة البقرة.

(٢١) الآية / ٢٥ من سورة الأنبياء.

كما كانوا جميعاً ملتزمين بمنهج الله عز وجل، لا يحيدون عنه قيد شعرة، ولا يَتَزَحْزَحون عن أصولهم ومبادئهم، قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٢٢)

وقال عن نبيه صالح عليه السلام:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (٢٣)

وقال مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ .... ﴾ (٢٤)

فكل هذه النصوص وأمثالها تكشف لنا عن مدى عمق الأصالة في دعوتهم، وتُجلِّي لنا هذه الخصيصة في أكمل صورها، وأسمى معانيها...

كما استخدم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام في سبيل دعوتهم، جميعَ المناهج الدعوية، وتخيروا لها من الأساليب والوسائل المتنوعة ما يخدم دعوتهم، ويحقق هدفهم...

---

(٢٢) الآية / ٧٩ من سورة آل عمران.

(٢٣) الآية / ٦٣ من سورة هود عليه السلام.

(٢٤) الآية / ٥٠ من سورة الأنعام.

فهذا نوح عليه السلام يتفنّن في دعوة قومه، وينوّع أساليبه معهم، مراعياً في ذلك طبيعتهم، وظروفهم وأحوالهم . . .

يخبرنا القرآن الكريم عنه، فيقول:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[٢٥]

وهذا إبراهيم عليه السلام، يستخدم في سبيل دعوته مع قومه أنواع الأساليب، ومختلف الوسائل، ويخاطبهم بما تفهمه عقولهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾

الآيات إلى قوله سبحانه: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾[٢٦].

---

(٢٥) الآيات / ٢ ـ ٩ من سورة نوح عليه السلام.

(٢٦) الآيات / ٥١ ـ ٧٠ من سورة الأنبياء.

وسليمان عليه السلام يستخدم في دعوته جميع ما خَصَّه الله به من علم، ويستعمل من وسائل عصره ما مكَّنه منه سبحانه، يقول تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ . . . ﴾[٢٧]

ويقول أيضاً:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . . ﴾

إلى أن قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ . . . ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين﴾[٢٨].

---

(٢٧) الآية / ١٢ من سورة سبأ.

(٢٨) الآيات / ١٧ ـ ٤٤ من سورة النمل.

إلى غير ذلك من أساليب ووسائل استخدمها الرسل الكرام في دعوتهم لأقوامهم، فحققوا بذلك خصيصة المعاصَرَةِ في أجمل صورها، وأدق معانيها، وقد عرضها علينا القرآن الكريم، لتكون لنا أسوة وقدوة، قال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ .....﴾[٢٩]

٤ - تطبيقاتها في سيرته صلى الله عليه وسلم:

إن المتأمل في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والمتتبِّع لمواقفه الدعوية، والناظر في أساليبه ووسائله... يجد أمامه التطبيق الأمثل، والنموذج الأسمىٰ للأصالة والمعاصرة.

فعندما حاول قومُه أن يصرفوه عما أمره الله به، أو يساوموه في دعوته، وقف منهم موقفاً حازماً، وروي عنه أنه قال:

«يا عمّ: والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يُظهرَه الله، أو أهلكَ فيه، ما تركتُه»[٣٠].

ولم يكتف بذلك، بل وضح لهم أصالة دعوته، وحدود إمكاناته في ذلك، قال الله عز وجل في ذلك:

---

(٢٩) الآية / ٨٩، ٩٠ من سورة الأنعام.

(٣٠) انظر السيرة النبوية لابن كثير (١/٤٧٤)، وهذا الخبر رواه ابن إسحق عن يعقوب بن عتبة أحد ثقات التابعين، مُفصّلاً، وله أصلٌ موصول في مسند أبي يعْلىٰ، رجاله رجال الصحيح - كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٥)، انظر سيرة ابن هشام (١/٢٦٦) وانظر مسند أبي يعلى رقم (٦٧٧١) - كما عزاه الهيثمي أيضاً إلى «المعجم الكبير» و «الوسط» للطبراني.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣١)

كما صارحهم وفاصلهم، قال الله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (٣٢)

ولما أراد صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم، حرص عليهم كل الحرص، فخاطب قلوبهم وحواسهم، وحاكمهم إلى عقولهم وأفهامهم، ونوَّعَ أساليبه معهم، فوعظهم وجادلهم، وخطبَ فيهم، وقصَّ عليهم، وضرب لهم الأمثال... وأراهم من المعجزات ما أراهم...

وأكثر فيهم من الاتصالات الشخصية، والزيارات الدعوية، وأقام لهم الدعوات العامة والخاصة، وتنقَّل من بلد إلى بلد، ومن قبيلة إلى أخرى، يخاطب كل قبيلة بلهجتها. وذهب إليهم في فجاجهم وأسواقهم، وسافر إليهم، وصبر عليهم...

كما نراه يكاتب الملوك والرؤساء، ويبني المساجد، ويستخدم الوسائل المتوفرة في عصره من ركوب وسلاح، بل توسع في ذلك حتى استخدم من الوسائل المحليّة والوافِدَة ما يحقِّق هدفه ويخدم دعوته.. فاستعمل المنجنيق يوم الطائف، وحفر الخندق يوم الأحزاب...

---

(٣١) الآية / ١٥ من سورة يونس عليه السلام.

(٣٢) سورة الكافرون.

إلى غير ذلك مما هو معروف مشهور في سيرته، ومنسجمٌ مع توجيهات ربه، يُحقِّق الأصالة المعاصرة في دعوته.

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[٣٣]

وقال سبحانه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٣٤]

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[٣٥]

---

(٣٣) الآيات / ١٢٥ ـ ١٢٨ من سورة النحل.
(٣٤) الآية / ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٣٥) الآية / ٦٠ من سورة الأنفال.

٥ ـ تطبيقاتهما في سيرة الخلفاء الراشدين :

تَبِعَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في سيرته هذه صحابتُهُ الأكرمون، وخلفاؤه الراشدون، فكانوا على نهجه سائرين، ولسنته متَّبعين، ولطبيعة دعوته واعين فاهمين. . . قال تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ . ﴾[٣٦]

فحقَّقوا للدعوة الإسلامية خصائصها، وحافظوا على أصالتها ومعاصرتها، ودفعوا بركب الدعوة إلى الأمام، فامتد خيرُها، واتسعتْ رقعتها، وشاع هَدْيُها في الآفاق. . .

ولأهمية تطبيقات كل من الأصالة والمعاصرة في هذا العهد، واختلاف طبيعته عن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان الوحي فيه يتنزل، فيقرُّ فيه ما يقر، ويُصوب ما يصوب. . .

سأعرض موقفين مُهمّين من مواقف الصحابة الكرام والخلفاء الراشدين، تتجلى فيهما الموازنة الدقيقة بين الأصالة والمعاصرة، وكان لهما الأثر الكبير في سير الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء، وفي سلوك الدعاة والعلماء من بعدهم، حيث جَعَلَ رسولُ الله سيرةَ الخلفاء الراشدين سنةً شرعية، وأمر باتباعها والحرص عليها، ففي الحديث الشريف:

«. . . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ. . .»[٣٧]

أ) **الموقف الأول** : موقف الصحابة الكرام من إنفاذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه.

---

(٣٦) الآية / ١٠٨ من سورة يوسف عليه السلام.

(٣٧) الحديث رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، وقال الترمذي عنه: حديث حَسَن صحيح، انظر: د (٤٦٠٧) وانظر ت (٢٦٧٨).

ذكر الإمام ابن الأثير ـ رحمه الله ـ في الكامل ما خلاصته:

«أنه في المحرم من سنة إحدى عشرة للهجرة، ضَرَبَ النبي صلى الله عليه وسلم بَعْثاً إلى الشام وأميرهم: أسامة بن زيد رضي الله عنه، فولاه، وأمَرَهُ أن يُوطِىءَ الخيلَ تُخومَ البلقاء والداروم من أرض فلسطين.

فبينما الناس على ذلك، مرضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أواخر صفر، ووصَلَتْ أخبار بظهور الأسود العَنْسي باليمن، ومُسَيْلمة باليمامة، وطُلَيْحَة في بني أسد، وعَسْكَرَ بِسُمَيْراء[٣٨]...

فتأخر مسير أسامة لمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولخبر الأسود العنسي ومسيلمة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه من الصداع، فقال:

إني أُريتُ فيما يرى النائم: أن في عَضُدَيَّ سوارَيْن من ذهب، فنَفخْتُهما فطارا، فأولتهما بكذّاب اليمامة، وكذّاب صنعاء، وأمر بإنفاذ جيش أسامة...»[٣٩].

ويقول أسامة رضي الله عنه:

«لما ثَقُلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، هَبَطْتُ أنا ومن معي إلى المدينة، فدخلنا عليه، وقد صَمَتَ فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء، ثم يَضَعُها عليَّ، فعلمتُ أنه يدعو لي..»[٤٠].

ولما عزم أبوبكر رضي الله عنه ـ الخليفة الأول ـ على إرسال الجيش وإنفاذه، وأَمَرَ الناس باللّحاق بأسامة رضي الله عنه:

«قال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء ـ يعنون جيش أسامة ـ جُنْدُ المسلمين، والعربُ على ما ترى قد انتفضَتْ بك، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك، فقال أبوبكر:

---

(٣٨) سُمَيْراء: اسم موضع عَسْكَرَ فيه طليحة، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/٢٥٥ و ٢٥٦).

(٣٩) انظر الكامل لابن الأثير (٢/٣١٧ ـ ٣١٨).

(٤٠) انظر الكامل لابن الأثير (٢/٣٢١).

والذي نفسي بيده، لو ظَنَنْتُ أن السباع تَخطَفُني، لأنفذتُ جيشَ أسامة، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم. . .

فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجُرْف وتكاملوا، أرسل أسامةُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان معه في جيشه، إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجعَ بالناس، وقال: إنَّ معي وجوه القوم وحَدَّهم، ولا آمَنُ على خليفة رسول الله، وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يتخطَّفهم المشركون. . .

فما كان من أبي بكر إلا أن أجاب عمر: لو خطَفَتْني الكلاب والذئابُ، لأنفذتُه كما أمر به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ولا أردُّ قضاءً قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو لم يبقَ في القُرى غيري لأنْفذتُه. . .»[41].

وذكر الإمام ابن كثير في البداية والنهاية:

«أنه كان من جملة من أشار بذلك عُمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبىٰ أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال:

والله لا أُحِلُّ عُقدةً عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير تخطفُنا، والسباعُ من حول المدينة، ولو أن الكلاب جَرَّتْ بأرجل أمهاتِ المؤمنين لأجهزَنَّ جيش أسامة، وآمرَ الحرسَ يكونون حولَ المدينة.

فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يَمرّون بحيٍّ من أحياء العرب إلا أُرْعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء إلا وبهم مَنَعَةٌ شديدة. . .»[42].

ومن تَدَبُّر هذا الموقف الصعب الذي اختلفت فيه آراء الصحابة رضوان الله عليهم في تقدير المصلحة مِن إنفاذ جيش أسامة أو عدم إنفاذه، وتحليل موقف أبي بكر رضي

---

(٤١) انظر الكامل لابن الأثير (٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥)، وتاريخ الطبري (٣/ ٢٢٦) ط، دار سويدان ببيروت.

(٤٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٠٤ ، ٣٠٥). وانظر الكامل (٢/ ٣٣٦).

الله عنه الخليفة الراشد، تتجلى لنا دقّةُ الموازنة بين الأصالة والمعاصرة في القضية.

فما أشار الصحابة رضوان الله عليهم، وفيهم عمر بن الخطاب بعدم إنفاذه إلا خوفاً منهم على مصلحة الدعوة، ورأياً منهم بأن الظروف قد تغيرت، والمصلحة تقتضي بقاء هذا الجيش العظيم في عاصمة الدولة وحول الخليفة ـ وقد هدَّدها ما هدَّدها من عدو ماكر لدود...

ولم يجدوا في ذلك معارَضةً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في إنفاذ الجيش، وإنما هي مصلحةٌ قد طرأت، وظروف قد تغيرت يمكنها أن تُقيِّدَ ذلك الأمر، الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصلحة سابقة، وفي ظروف متغيّرة.. ولا سيما إذا عَدَدْنا إرسال الجيوش والسرايا من تصرفات الإمامة والسياسة التي يعود أمرُ تقديرها لكل إمامٍ في عصره ـ كما سبق أن أشرت إلى تنوع تصرفاته صلى الله عليه وسلم عند العلماء ـ.

وإلا، فالصحابة الكرام جميعاً أحرصُ الناس على الاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع أمره...

وما أبىٰ أبوبكر رضي الله عنه ـ وهو الإمام ـ ذلك الإباءَ الشديد، وحَزَمَ كل ذلك الحزم، إلا وهو يرى المصلحة في إنفاذ ذلك الجيش، وأنه أمرٌ منه صلى الله عليه وسلم يلزمه ويلزم المسلمين.

فإنه صلى الله عليه وسلم لم يَعقد ذلك اللواء، ولم يرسل ذلك الجيش فحسب، وإنما أراده أن يَمْضي ولو بعد وفاته ـ وهو المسدَّدُ بالوحي والناطِقُ به، وذلك لإصراره عليه في مَرَض موته، وتوصيته بإنفاذه، والوصايا واجبة كغيرها من الأحكام، ولو كان فعلُه صلى الله عليه وسلم ذلك مصلحةً في وقته رآها، ولظروف خاصةٍ اقتضتها، لما أكد ذلك في وصيته «... وأن يُنْفَذَ بعثُ أسامة» انظر الفتح (٥/٣٦٣). بَلْ سكتَ عنه...[٤٣].

(٤٣) جاء في صحيح مسلم «... أوصيكم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، قال: وسكت عن الثالثة، أو قال: فأُنْسيتُها...» قال الإمام النووي في الشرح: الساكتُ =

ولذا، خضع المسلمون جميعاً لرأيه، وكان الخير كل الخير في فعله، وثبت للناس صوابُ رأيه، وتلاشَتْ تلك المصالح الكثيرة التي كانت بارزةً في أعين الصحابة الكرام قبل إنفاذ الجيش.

وفي هذا يقول أبو هريرة رضي الله عنه، فيما يرويه الإمام ابن كثير عنه:

«والله الذي لا إله إلا هو، لولا أَنَّ أبابكر استُخْلِفَ ما عُبِدَ الله، ثم قال الثانية والثالثة - أي كرر ذلك القسم - فقيل له: مَهْ يا أبا هريرة؟! فقال:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجَّهَ أسامة بن زيد رضي الله عنه في سبعمائة إلى الشام، فلما نَزَلَ بذي خَشب، قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتدَّتِ العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: رُدَّ هؤلاء، تُوجِّهُ هؤلاء إلى الروم، وقد ارتدت العربُ حول المدينة!!؟ فقال:

والـذي لا إله غيره، لو جَرَّتِ الكلاب بأرجل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما رَدَدْتُ جيشاً وجَّهَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حَلَلْتُ لواءً عقدَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم... إلخ»[٤٤].

ب) **الموقـف الثانـي**: موقف الصحابة الكرام من جمع القرآن الكريم في مصحف واحد.

توفي رسـول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم مُوَزَّعٌ بين المسلمين، لا يجمعُه مصحف واحد ولا كتاب واحد، وإنما كان محفوظاً حفظاً كاملاً في الصدور والسطور، موزعاً بين الصحابة رضوان الله عليهم.

وانقـطع الـوحيُ، وفقـد المسلمون بوفاته صلى الله عليه وسلم المعلم الناطق،

= ابن عباس، والنامي: سعيد بن جبير، قال المهلب: الثالثة: هي تجهيز جيش أسامة رضي الله عنه» انظر شرح النووي على مسلم (١١/٩٤)، وذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري رواية عن ابن إسحاق، فيها:

(٤٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٦/٣٠٥).

والحكم الفَصْل في نزاعاتهم واختلافاتهم، ولا سيما في قراءاتهم للقرآن الكريم. . .

وكان الموقفُ حَرِجاً على الصحابة رضوان الله عليهم، هل يكتفون بما كان في عهده صلى الله عليه وسلم، أو يجمعونه في مصحف واحد، وكتاب واحد!؟ هل يتمسكون بما كان في عهده صلى الله عليه وسلم الذي لم يكن يصلح له الجمع في كتاب واحد، والوحي يتنزل والقرآن يتكامل، وقد يعرض عليه من النسخ ما يعرض، وذلك باسم الأصالة، والتمسك بالسنة النبوية ؟

أم يجمعونه في مصحف واحد، وقد اكتمل نزوله، ولم يَعد يَعرض له من العوارض السابقة ما يعرض، وقد جَدَّت في ذلك المصالح، ودَعَتْ إلى ذلك الدواعي، وذلك باسم المعاصَرَة والمصلحة المستجِدَّة!؟

يحدثنا عن هذا الموقف الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه، ففيه: «أن زيد ابن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليَّ أبوبكر الصديق مَقْتَلَ أهل اليمامة، فإذا عمر ابن الخطاب عنده، قال أبوبكر رضي الله عنه:

إن عُمَرَ أتاني فقال: إن القَتْلَ قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى إن استمر القَتْلُ بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

قلتُ لعمر: كيف نَفعلُ شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال عمر: هذا والله خير، فلم يَزَل عمر يراجعني، حتى شرح الله صدري لذلك ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبوبكر: إنك رجل شاب عاقلٌ لانتَّهمك، وقد كنتَ تكتبُ الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتَتَبَّعِ القرآن فاجمَعْهُ، فوالله لو كلفوني نَقْلَ جبلٍ من الجبال، ما كان أثقلَ علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت:

كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال: هو والله خير،

فلم يَزَل أبوبكر يراجعني، حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدرَ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فتتبَّعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخافِ وصدور الرجال، حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياتَه، ثم عند حفصةَ بنت عمر رضي الله عنه.»[٤٥].

كما روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

«أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه، وكان يُغازي أهل الشام في فتح إرمينيَّة وأَذْرَبيجان مع أهل العراق فأَفْزَعَ حذيفَة اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين: أَدْرِك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصةَ أن أرسلي إلينا بالصُحُف نَنْسَخُها في المصاحف، ثم نردُّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير، وسعيد ابن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة:

إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردَّ عثمان الصحفَ إلى حفصَة، فأرسل إلى كل أفقٍ بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحْرَق»[٤٦].

(٤٥) انظر صحيح البخاري رقم (٤٩٨٦) باب جمع القرآن، وانظر فتح الباري (٩/ ١٠ - ١١).

(٤٦) انظر صحيح البخاري رقم (٤٩٨٧) باب جمع القرآن، وفتح الباري (٩/ ١١).

هكذا وقف الصحابة رضوان الله عليهم من أخطر قضية مرت عليهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، تتعلق بكتاب الله، فوازنوا موازنة دقيقة بين الأصل الذي كان عليه القرآن في زمنه صلى الله عليه وسلم وبين الضرورة المُلِحَّة، والمصلحة الراجحة التي استجدت بعد وفاته، فحققوا بموقفهم هذا أكبر خصيصة من خصائص دعوتهم، وهي الأصالة والمعاصرة على وجهها الصحيح، مصدِّقين بذلك قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[٤٧].

ويا ترى، ماذا كان سيحدث لو تمسك أبوبكر رضي الله عنه في هذه القضية بموقفه باسم الأصالة والوقوف على ما كان في زمنه صلى الله عليه وسلم!!.

يقول العلامة ابن بطّال ـ رحمه الله :

«إنما نَفَر أبوبكر أولاً، ثم زيد بن ثابت ثانياً، لأنهما لم يجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فَعَلَه، فكَرِها أن يَحلاّ أنفسَهما محل من يزيدُ احتياطه في الدين على احتياط رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما نَبَّههما عمرُ على فائدة ذلك، وأنه خشيةَ أن يتغيَّر الحال في المستقبل إذا لم يُجمع القرآن، فيصيرَ إلى حالة الخفاء بعد الشُهرة رجعا إليه، قال: ودَلَّ ذلك على أن فعلَ الرسول صلى الله عليه وسلم إذا تجرد عن القرائن ـ وكذا تركُه ـ لا يَدُلّ على وجوب ولا تحريم»[٤٨].

ويقول الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ:

«وليس ذلك من الزيادة على احتياط الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هو مُسْتَمَدٌّ من القواعد التي مَهَّدها الرسول صلى الله عليه وسلم..»[٤٩].

---

(٤٧) الآية / ٩ من سورة الحجر.

(٤٨) انظر فتح الباري : (١٣/٩ و ١٤).

(٤٩) انظر فتح الباري : (١٣/٩ و ١٤).

وواضح من السياق: أن عَملَ أبي بكر رضي الله عنه في جمع القرآن الكريم، مَهَّد لعثمان رضي الله عنه جَمْعَهُ الثاني له، فلم يستشكل في المسألة لما عرضها عليه حذيفة رضي الله عنه، كما استشكل من سبقه فيها، وإنما كان اجتهاد عمر وأبي بكر وزيد رضي الله عنهم سنةً متبعةً لمن بعدهم في مثل هذه المواقف.

ومع هذا كله، لم يَخْلُ زمن عثمان رضي الله عنه، ممن حاول أن يستغل جَمْعَهُ للقرآن باسم الأصالة، مما دعا علياً رضي الله عنه أن يدافع عنه ويثني على عمله، فقد روى سويد بن غفلة عن علي رضي الله عنه أنه قال:

«يا معشر الناس، اتقوا الله وإياكم والغُلُوّ في عثمان، وقولكم: حَرّاق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأٍ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وعن عمر بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كنتُ الوالي وقت عثمان، لفعلتُ في المصاحف مثل الذي فعل عثمان.»[٥٠].

إلى غير ذلك من مواقف تمثل هذا المنهج، ظهر أثرها في كثير من مواقف الدعاة والعلماء على مر العصور، مقتفين في ذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده، حتى أَصَّلُوا من ذلك قاعدة أصولية عظيمة، عرفت «بالمصالح المرسلة» يعرف تفصيلها في كتب الأصول.

وما من شيء يُعَبِّر عن الموازنة بين الأصالة والمعاصرة تعبيراً دقيقاً مثل هذا الأصل العلمي الذي اعتمده العلماء المجتهدون في اجتهاداتهم، والذي أساء فهمَهُ وتطبيقَهُ عددٌ من المتأخرين والمعاصرين، كما سأنبه إلى ذلك، عند الحديث عن الخطأ في مفهوم الخصيصتين وتطبيقاتهما من هذا البحث، إن شاء الله تعالى.

---

(٥٠) انظر تفسير القرطبي: (١/٤٧).

٦ ـ اهتمام الدعاة ومؤسسي الجماعات الإسلامية بالأصالة والمعاصرة :

لقد اهتم علماءُ المسلمين ودعاتُهم الأوائل بكلٍ من الأصالة والمعاصَرَة كل الاهتمام، فحققوا التوازن بينهما في علمهم وعملهم، وكانوا قدوة عملية لغيرهم، متَّبِعين غيرَ مبتدعين، أُصَلاءَ غير متنازلين عن شيء من أصول دينهم أو متهاونين فيه، معاصِرين غير جامدين على أشياءَ لا تناسب عصرهم ولا تخدم دعوتهم . . .

ثم توارث هذا الاهتمام من بعدهم العلماء العاملون، والدعاة المخلصون، فركزوا هذه المعاني في دعوتهم، ونصوا عليها وأكدوها في تأسيس جماعاتهم، حتى امتدَّتْ هذه الدعوة الإسلامية خلال التاريخ الطويل، وشقت طريقها على مختلف الأماكن والأزمان، مواكبةً تلك العصور، معالجةً لواقعها، ملبيةً متطلباتها إلى قيام الساعة ـ بإذن الله ـ.

ولولا هاتان الخصيصتان، لما كتب لتلك المؤسسات الدعوية البقاء، ولما بقيَت تلك الجماعات قادرةً على النمو والعطاء، كما حدث لبعض الدعوات التي جانَبتْ هاتين الخصيصتين، فجمدت على أشكال وأساليب ووسائل متوارثة لا تناسب العصور، أو ذابَتْ في المجتمعات الحديثة، وتلاشى أمرها وانقطع خيرها . . . ـ على سبيل المثال ـ.

وسنقف على نماذج من مبادىء بعض الجماعات وأقوال مؤسسيها تؤكد لنا ذلك الاهتمام، من ذلك:

أ) ما قاله الإمام حسن البنا ـ رحمه الله تعالى ـ في معرض بيانه لإصلاح الحكومة الإسلامية إذ يقول:

« . . . والحكومة الإسلامية: ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدّين لفرائض الإسلام، غير مجاهرين بعصيان، وكانت منفِّذةً لأحكام الإسلام وتعاليمه، ولا بأس بأن تستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة، ولا عبرة بالشكل الذي

تتخذه، ولا بالنوع، ما دام موافقاً للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي.»[٥١].

وقال أيضاً في بيان الركن الخامس من أركان الفهم:

«ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوهاً عدة، وفي المصالح المرسلة، معمولٌ به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغيَّر بحسب الظروف والعرف والعادة، والأصلُ في العبادات التعبُّد، دونَ الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات: الالتفاتُ إلى الأسرار والحكم والمقاصد»[٥٢].

ويقول أيضاً في بيان المرتبة الأولى من المراتب المطلوبة من الأخ الصادق: «إصلاح نفسه حتى يكون: قويُّ الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادراً على الكسب، سليمَ العقيدة، صحيح العبادة، مجاهداً لنفسه، حريصاً على وقته، منظِّماً في شؤونه، نافعاً لغيره، وذلك واجب كل أخ مسلم على حِدَه...»[٥٣]

إلى غير ذلك من أقوال مبثوثة في رسائله، تؤكد اهتمامه بهاتين الخصيصتين. ومن ذلك:

ب) ما نَصَّت عليه المادة الخامسة من دستور «الجماعة الإسلامية» التي أسسها الأستاذ أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ فقد جاء فيها:

«إن الجماعة الإسلامية تتّخذُ المبادىء الأساسية التالية منهجاً دائماً لها:

١ ـ إنها تنظر قبل أن تقرر أمراً، أو تخطو خطوة، ما هو توجيه الله ورسوله في ذلك الباب، وتضع المصالح الأخرى في الدرجة الثانية، وتراعيها بقدر ما يكون لها مُتَّسَعٌ في الإسلام.

---

(٥١) انظر رسالة التعاليم لحسن البنا: المرتبة الخامسة من مراتب العمل.

(٥٢) انظر رسالة التعاليم لحسن البنا: الركن الخامس من أركان الفهم.

(٥٣) انظر رسالة التعاليم لحسن البنا: المرتبة الأولى من مراتب العمل.

٢ ـ لا تستخدم أبداً لنَيْل أهدافها الوسائلَ والأساليب المنافية للصدق والأمانة، أو المثيرة للفساد في الأرض. . إلخ»[٥٤].

ومن ذلك: منهجه في إصلاح المجتمع، حيث لخَّصهُ في ثلاثة مبادىء:

أ) القدوة قبل الكلمة.

ب) البدء بالأهم فالمهم، والأصول قبل الفروع.

جـ) تصنيف الدعوة إلى قطاعات ومجالات. . .[٥٥].

ويقول في بيان المبدأ الثاني من هذه المبادىء:

«وبهذا الصدد قد بذلنا أقصى ما كنا نملك من الجهد والتفكير، لأن نرشد أعضاءنا والعاملين معنا إلى الطريق الذي دعا إليه الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد، حيث يقول:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .... ﴾[٥٦] أي:

أن يعرضوا على الناس قبل كل شيء مبادىء الدين الأساسية، ثم يدعوهم إلى مطالبه ومقتضياته، ولوازمه شيئاً فشيئاً، وأن لا يجرّعوا أحداً منهم غذاءً يستعصي على قوة هضمه، وأن لا يقدموا الفروعَ على الأصول، والأحكام الجزئية على الكليات والقواعد الشاملة، وأن لا يضيعوا أوقاتهم في تهذيب المفاسد الظاهرة، وقطع الفروع الخارجية وشذْبها، قبل أن يعالجوا المفاسد الأساسية الثابتة من الداخل. .»[٥٧].

إلى غير ذلك من أقوال تؤكد اهتمامه بهاتين الخصيصتين.

---

(٥٤) انظر كتاب: الإمام أبو الأعلى المودودي، ومنهجه في الدعوة، لمنظور الحق حَقّاني، بحث مكمل لدرجة الماجستير في المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص ٦٠.

(٥٥) انظر «الإمام أبو الأعلى المودودي ومنهجه» المرجع السابق ص ١٢١ ـ ١٢٥.

(٥٦) الآية / ١٢٥ من سورة النحل.

(٥٧) انظر تذكرة دعاة الإسلام، للأستاذ المودودي ص ٢٥، وانظر البحث السابق عن الإمام المودودي ص ١٢٤.

إلى غير ذلك من نصوص وأقوال لمؤسسي الجماعات على مختلف أشكالها، تؤكد حِرْصَ تلك الجماعات الإسلامية على تحقيق خاصيَّتي الأصالة والمعاصرة للدعوة الإسلامية.

٧ ـ ضوابط الأصالة والمعاصرة :

انطلاقاً من تعريفنا للأصالة والمعاصرة، وحرصاً منا على سلامة مدلولهما من الغموض، وتطبيقاتهما من الخطأ والانحراف، كان لا بد من التعرّف على ضوابطهما حتى لا يُساءَ فَهمُهُما فتصابُ الدعوة بالجمود والتَّزمُّت، أو تقع في التنازلات والتجاوزات.

فليست الأصالة ـ كما يفهمها بعضهم ـ جموداً على النصوص، ولا تحجراً في العقول، وليست المعاصَرَةُ أيضاً ميوعةً في المواقف، ولا ذَوَباناً في الشخصية، وإنما هي كما سَبَق من تعريفها: محافظةٌ على الذاتية بالاستناد إلى الأصول والأدلة الشرعية، وتَمَسُّكٌ بالمبادىء الأساسية.

وهي من وجه آخر: تكافؤٌ مع العصر، بمعالَجَةِ واقعه وتَلَبيةِ متطلباته في إطار تلك الأصول والمبادىء...

وليست الغايةُ من الدعوة إرضاءَ الناس وتحقيقَ رغباتهم، وإنما هي هدايتُهم ودلالتهم على الصراط المستقيم.

فلن يرضى المخالفون المعاندون عن الداعية مهما تنازل لهم، وسايرهم، إلا أن يكون تبعاً لأهوائهم، ومحققاً لرغباتهم، قال تعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[٥٨]

(٥٨) الآية / ١٢٠ من سورة البقرة.

ويمكننا إجمال ضوابط الأصالة والمعاصرة فيما يأتي :

أ) المحافظةُ على الأصول الشرعية محافظة تامة، والتمسكُ بالسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين، والعضُّ عليها بالنواجذ:

قال تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ... ﴾[٥٩]

وفي الحديث الشريف عن أبي نجَيحٍ العِرْباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وَعَظَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم موعظةً بليغةً وَجِلَتْ منها القلوب، وذرفَتْ منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظةُ مودِّع فأَوْصِنَا، قال:

«أوصيكم بتقوى الله، والسمعِ والطاعة وإن تأَمَّر عليكم عبد، وإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعةٍ ضلالة»[٦٠].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام: أن الاتّباع والتأسّي بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم، يَشملُ أقوالهم وأفعالهم، كما يشملُ سيرتهم العملية، ومناهجهم التطبيقية.

وليس هذا الاتباع خاصاً بأقوالهم، أو قاصراً على نتيجة أحكامهم وآرائهم التي توصلوا إليها باجتهاداتهم ـ كما توهم بعض الناس ـ.

فإن من الناس مَنْ إذا دُعِيَ إلى قول من أقوال الخلفاء الراشدين، أو احتُجَّ عليه بحكم من أحكامهم خَضَعَ واستجاب، وإذا دُعِيَ إلى منهجهم وأسلوبهم، واحتُجَّ

---

(٥٩) الآية / ٧ من سورة الحشر.

(٦٠) الحديث رواه أبو داود، والترمذي وغيرهما، وقال الترمذي عنه: حديث حَسَنٌ صحيح، انظر د (٤٦٠٧) و ت (٢٦٧٨).

عليه بسيرتهم في الأمور العلمية والعملية توقف وتردد، ظنا منه أن منهجهم خاصٌ بهم، لا يتعدى غيرهم، كما هو في جانب التشريع بالنسبة له صلى الله عليه وسلم!!.

وقد غَفَلَ هؤلاء عن أن الأصل في السنة التي أُمِرْنا باتباعها هي الطريقة وما الحكم والقول الصادر عنهم إلا تبعٌ لتلك الطريقة، وأثر لذلك المنهج..!

علماً بأن الاتباع في المناهج والأساليب مُقَدَّمٌ في الأهمية على الاتّباع في الأقوال والأحكام، لأن الأحكام والأقوال ـ مهما كثرت ـ جزئياتٌ محدودة، تعالج مسائلَ ومواقفَ محصورة، أما المناهجُ والأساليبُ، فهي كلياتٌ واسعة وأصول مستَمِرَّةٌ، يستفاد منها في كل زمان ومكان، ويُستَهْدى بها في مختلف الأحوال والمواقف. وقد سبق عرض نماذج من منهجهم في تحقيق هاتين الخصيصتين، عندما تحدثنا عن تطبيقاتهما في سيرة الخلفاء الراشدين.

٢ ـ اجتناب البدع اجتناباً كاملاً، والحذر منها كل الحذر:

فقد جاء في الحديث السابق :

«... وإيّاكم ومُحْدَثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة.»[٦١].

كما جاء في حديث آخر:

«... فإنَّ خير الحديث كتابُ الله، وخَيْرَ الهَدْي هديُ محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور مُحْدَثاتُها، وكل بدعةٍ ضلالة...»[٦٢].

وجاء أيضاً :

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٦٣]

(٦١) سبق تخريجه.

(٦٢) الحديث متفق عليه، انظر م (٨٦٧) خ (٨/٥٣٠) (٩/٤٥١) (١١/٢٩٩).

(٦٣) الحديث متفق عليه، انظر خ (٥/٢٢١) م (١٧١٨).

ومما يَجْدُر التنبيه إليه هنا أيضاً، أنه من اللازم في فهم هذه النصوص الشرعية الواردة في ذم البدع والتحذير منها، أن تُحْمَلَ الأحاديث المطلقة منها على المقيَّدة، وذلك ليصحَّ فهمُها، وينسجمَ حكمُها مع سيرة الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين، من جهة، ولنَسْلَمَ من التأويلات البعيدة، والاستثناءات العديدة من جهة أخرى.

فإننا إذا لم نفعل ذلك، نكون قد أَهمَلْنا القيد الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: ما ليس منه، والعمل بالمنطوق والمفهوم خيرٌ من العمل بأحدهما.

كما نكون قد خَطَّأنا أفعال كثير من سلفنا الصالح في عمل وإقرار ما كان مُحْدَثاً في عهدهم، إذ رأوه منسجماً مع أصل دينهم، أو خادماً له، كما حدث في مسألة جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، وغيرها من المسائل المستجدة في عصورهم...

ويمكننا التفريقُ بين استخدامنا لمثل هذه النصوص العامة والمطلقة وأمثالها من عمومات القرآن والسنة في مجال التحذير من البدع وبيان خطرها، فَنُبْقِي العموم على عمومه، والمطلَق على إطلاقه، تخويفاً وتحذيراً، ليفعلَ فعلَهُ في النفوس.

فنفرِّقَ بين هذا المقام، وبين مقام الحكم على فعل مُسْتَحْدَثٍ حَسَن قد وقع، وصار إليه بعض الأئمة والعلماء، فلا بد في هذا المقام عندئذ من حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وذلك ليتحدَّدَ الحكمُ، ويُعْرَفَ الممدوح من المذموم، والحسن من القبيح، كما فعل عمر رضي الله عنه بعد أن اجتهد في جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح، فلما أعجَبَهُ ذلك، ورآه مُحدَثاً، خشي أن يأتي يومٌ يستشكل فيه الناسُ فِعْلَه، أمامَ الأحاديث المطلقة الناهية عن البدعة، فقال لمن معه: نِعمَ البدعةُ هذه.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبدالرحمن بن عَبْدٍ القاري أنه قال: «خرجتُ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلةً في رمضان إلى المسجد، فإذا الناسُ

أوزاعٌ متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: إني أرى لو جمعتُ هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل، ثم عَزَمَ فجمعهم على أبيّ بن كعب، ثم خرجتُ معه ليلةً أخرى، والناسُ يُصَلُّون بصلاة قارئهم، قال عمر: نِعْمَ البدعةُ هذه، والتي ينامون عنها أفضلُ من التي يقومون - يريد آخر الليل - وكان الناس يقومون أوله»[٦٤].

فإننا بهذا التفريق نكون قد حقَّقنا أثر أسلوب الإطلاق والتعميم الوارد في النصوص الشرعية، في التحذير والتنفير من البدع من جهة، وأعطينا لكل شيء مستحدَثٍ حُكْمَهُ ووصفَه، وفرقنا بين الحسن والقبيح، والممدوح والمذموم من جهة أخرى، كما جاء في حديث:

«مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنةً فله أجرها، وأجرُ من عملَ بها من بعده، من غير أن يَنْقُصَ من أجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وِزْرُها ووزرُ من عملَ بها من بعده، من غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيء.»[٦٥].

وعلى هذا يُحمل فعلُ الإمام الشافعي ومن بَعْدَه من الأئمة الذين قسموا البدعة إلى ممدوحة ومذمومة، أو حسنةٍ وسيئة، مع استشهادهم بالنصوص العامة والمطلقة الواردة في هذا الباب في مواقف أخرى.

فقد روى أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده إلى الإمام الشافعي قوله: «البدعةُ بدعتان: بدعةٌ محمودة، وبدعةٌ مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم، واحتج بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قيام رمضان: نعمت البدعة هي»[٦٦].

---

(٦٤) انظر فتح الباري (٤/٢٥٠).

(٦٥) رواه مسلم، انظر م (١٠١٧).

(٦٦) انظر حلية الأولياء (٩/١١٣) في ترجمة الإمام الشافعي - رحمه الله، وفتح الباري (١٣/٢٥٣).

كما أخرج البيهقي في مناقبه عنه أنه قال: «المحدثاتُ ضربان: ما أُحدث يخالف كتاباً، أو سنة، أو أثراً، أو إجماعاً، فهذا بدعة الضلال، وما أحدث من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك، فهذه محدثة غير مذمومة.»[٦٧]ا.هـ.

وبهذا يندفع الإشكالُ والتخوُّف الذي تخوَّفَ منه الإمام ابن تيميّة رحمه الله، من وراء مثل هذه التقسيمات، ونتخلَّصُ من الاستثناءات التي أشار إليها في ذلك[٦٨].

فليس العاصمُ من ابتداع البدع بقاءَ نصوص التعميم والإطلاق على عمومها وإطلاقها، وتجاهُلَ نصوص التخصيص والتقييد، وصَرفَها عن ظاهرها.

وإنما هو بالتأكيد على أنه لا يجوز أن يجتهد في مثل هذه المواطن الدقيقة من شاء، فيستحسنَ ما يراه حَسَناً، ويستَصْلحَ ما يراه مصلحة، وإنما ذلك خاصٌ بمن كان أهلاً لذلك من أهل العلم والاجتهاد، الذين هم وحدَهم أهلُ هذا الميدان، أصابوا في ذلك أو أخطأوا، ولن يعدموا في ذلك أجراً...

وبهذا المنهج يتجلى لنا ضابطٌ هام من ضوابط الموازنة بين الأصالة والمعاصرة اللتين نتحدث عنهما.

٣ ـ التمييزُ الدقيق بين المناهج الدعوية الثابتة، وبين المناهج الدعوية والأساليب والوسائل المتطورة.

فكثيراً ما يختلط الأمر على بعض الدعاة، فتتداخل عليهم أنواع المناهج، كما تلتبس عليهم بعض الأساليب بالمناهج، مما يترتب عليه تمسُّكٌ ببعض الأساليب والوسائل، وجمودٌ عليها، أو انحرافٌ عن بعض الخطط والمناهج وتخَبُّطٌ فيها.

ومما لا شك فيه: أن المناهج الدعوية، منها ما هو ربانيٌّ ثابت، لا يجوز أن يطرأ عليه تحويل أو تغيير، قال تعالى:

---

(٦٧) انظر فتح الباري (١٣/٢٥٣).

(٦٨) انظر مجموعة فتاوى ابن تيمية (١٠/٣٧٠ ـ ٣٧١).

﴿ . . . . فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾[٦٩]

ومنها ما هو بَشَريّ متطور، يَضَعُه الدعاة بما يتناسب مع المدعوين، مجتهدين في ذلك، مقتبسين له من منهج الله عز وجل ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا النوع من المناهج يتطور ويتغيَّر بحسب المدعوين، وتبعاً لظروفهم وأحوالهم ومستوياتهم. . .

وإذا كان الأصلُ في المناهج الربانية الثبوتَ والاستمرارَ وعدم التحول، فإن الأصلَ في الأساليب والوسائل والمناهج البشرية التطورُ والتحول إلى ما يناسب كل عصر وبيئة. . .

وإن مثل هذا التمييز الدقيق بين الأساليب والوسائل والمناهج، يساعدُ على ضبط عمليّة الموازنة بين الأصالة والمعاصرة في حياة الدعوة.

٤ ـ المحافظة على شرعية المناهج والأساليب والوسائل، وتجنب مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»:

فإن على الداعية أن يجتنب الحرام، ولو تَوَهَّم أن فعله قد يوصله إلى خير، أو يقربه من المدعوّين، كما عليه أن يفعل الواجب، وإن توهم أنَّ تركه يدفع عنه شراً، أو يقربه من المدعوين أيضاً، فإن الشر لا يأتي إلا بشر.

قال تعالى:

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا

(٦٩) الآية / ٤٣ من سورة فاطر.

يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[٧٠]

وروي في الحديث الشريف عن منصور بن المُعْتَمِر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«تَحرَّوا الصدقَ، وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة.»[٧١] وجاء في رواية أخرى بزيادة: «واجتنبوا الكذب، وإن رأيتم أنه فيه النجاة، فإن فيه الهلكة»[٧٢].

ولايتعارض هذا مع ما ورد من ترخيص الشارع بالكذب في بعض المواطن، فقد جاء في الحديث الشريف عن أم كلثوم ـ رضي الله عنها ـ أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس، فَيَنْمي خيراً أو يقول خيراً»[٧٣] وفي رواية لمسلم بزيادة «قالت أم كلثوم: ولم أسمعه يُرَخِّصُ في شيء مما يقول الناس، إلا في ثلاث، تعني: الحَرْبَ، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأتَه، وحديثَ المرأة زوجَها».

فإن هذا ترخيصٌ خاص من حكم عام، وفي هذا يقول الإمام النووي: «اعلم أن الكذب، وإن كان أصلُه محرماً، فيجوز في بعض الأحوال بشروط قد أوضحتُها في كتاب: «الأذكار» ومختصر ذلك:

أن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكنُ تحصيلُه بغير الكذب، يَحرُمُ الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيلُه إلا بالكذب، جاز الكذب. ثُمَّ إن كان

---

(٧٠) الآية / ٤٩ من سورة المائدة.

(٧١) الحديث رواه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب، وقال عنه: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصَمْت هكذا معضلاً، ورواته ثقات» انظر الترغيب والترهيب (٣/ ٥٩٠) طبعة قطر، انظر فيض القدير (٣/ ٢٣٤).

(٧٢) روى هذه الزيادة «هنَّاد عن مُجَمِّع بن يحيى بن يزيد مرسلاً، قال المناوي: هو الأنصاري الكوفي، قال الذهبي: ثقة، وفي التقريب: صدوق، ورمز السيوطي له بالحُسْن» انظر فيض القدير (٣/ ٢٣٤).

(٧٣) الحديث متفق عليه، انظر صحيح البخاري مع فتح الباري (٥/ ٢٢٠) وانظر صحيح مسلم (٢٦٠٥).

تحصيل ذلك المقصود مباحاً، كان الكذب مباحاً، وإن كان واجباً، كان الكذب واجباً، فإذا اختفى مسلمٌ من ظالم يريدُ قَتْلَه، أو أَخْذَ ماله، وأخفى ماله، وسئل إنسان عنه، وجب الكذب بإخفائه، وكذا لو كان عنده وديعةٌ، وأراد ظالم أَخْذَهَا، وجب الكذب بإخفائها، والأحوطُ في هذا كله أن يُوَرِّيَ، ومعنى التورية: أن يَقْصِدَ بعبارته مقصوداً صحيحاً، ليس هو كاذباً بالنسبة إليه، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ، وبالنسبة إلى ما يفهَمُهُ المخاطَب، ولو ترك التورية، وأطلق عبارة الكذب، فليس بحرام في هذه الحال. . .»[٧٤].

وقد قال تعالى مؤكداً هذا الضابط من ضوابط الأصالة والمعاصرة:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٧٥]

٥ ـ مراعاة الاختلاف في الأحكام الشرعية، فلا يُنَزَّل الأمر المختلفُ فيه، منزلةَ الأمر المتَّفَق عليه: فإن على الداعية أن يفرق في موقفه، بين الأحكام الشرعية القطعية التي لا يختلَف فيها، وبين الأحكام الاجتهادية المختلف فيها، فيعمل بما ترجح لديه فيها ـ إن كان أهلاً للترجيح ـ ويسعه العملُ بأي القولين ـ إن لم يكن أهلاً لذلك ـ.

كما عليه أن يَعْذُرَ الآخرين المخالفين له في الاجتهاد أو العمل، ولا يُنكرَ عليهم. . . وفي هذا المعنى يقول الإمام سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ:

«إذا رأيتَ الرَّجُلَ يعمل العملَ الذي قد اختُلِفَ فيه، وأنت ترى غيرَه، فلا تَنْهَه»[٧٦] ويقول أيضاً: «ما اختلف فيه الفقهاء، فلا أنهى أحداً من إخواني أن يأخذ به»[٧٧].

(٧٤) انظر رياض الصالحين: باب بيان ما يجوز من الكذب، ص ٥٩٢.

(٧٥) الآية / ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٧٦) انظر حلية الأولياء (٦/٣٦٨) وانظر كتاب «الإمام سفيان الثوري ـ حياته العلمية والعملية ـ ص ٩٨.

(٧٧) انظر كتاب «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/٦٩)، وكتاب «دراسات في الاختلافات الفقهية» ص٨٣.

وإن هذا الضابط يُعطي الداعيةَ سَعَةً كبيرةً في العمل، ولا سيما في الأمور المستجدّة التي تختلف الآراء في حكمها غالباً، فيمكنه التوسُّع بقول بعضهم، إن وجد في الأمر مصلحةً راجحة، أو حاجةً مُلِحَّة، كما يمكنه التورُّعُ عن ذلك، والأخذ بالأحوط فيما عدا هذه الأحوال. . .

٦ ـ البعدُ عن الغُلُوّ والتشدُّد، وتجنُّبُ التقصير والتساهل، والتوسُّطُ والاعتدال في التمسك بالدين:

فكثيراً ما يقع بعض المسلمين في التساهل والتقصير في أمور دينهم، ويضعف التزامهم بأحكام وآداب شريعتهم، مستدلين على ذلك بمثل قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الدين يسر، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلَبه. . .»[٧٨] الحديث.

كما يقع آخرون منهم في التشدد في غير محله، ويلزمون أنفسهم بما لم يلزمهم به الله، حرصاً منهم على الكمال بزعمهم.

وقد نسي هؤلاء وأولئك، أن التوسط والاعتدال في الأمور خصيصةٌ من خصائص هذا الدين، وأنه قد ورد النهي عن التشدد في غير محله، فقد جاء في الحديث الشريف: «هَلَكَ المتنطّعون، قالها ثلاثاً»[٧٩] قال الإمام النووي: المتنطعون: المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد.»[٨٠].

كما غفل المتساهلون عن منهج القَصْد والاعتدال في الأمور الذي جاء في حديثهم الذي استشهدوا به على تساهلهم، القائل: «إن الدين يسر» فقد جاء في تكملته قولُه صلى الله عليه وسلم: «فَسدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة، وشيء من الدُّلْجَة» وفي رواية: «سددوا وقاربوا، واغدوا ورُوحوا، وشيءٌ من الدُّلْجَة، القَصْدَ القَصْدَ تبلغوا»[٨١].

---

(٧٨) الحديث رواه البخاري، انظر صحيح البخاري مع الفتح (١/٨٧ و٨٨) و(١١/٢٥٤، ٢٥٥).

(٧٩) الحديث رواه مسلم، انظر صحيح مسلم (٢٦٧٠).

(٨٠) انظر رياض الصالحين ص ٧٨.

(٨١) رواه البخاري، انظر صحيح مع الفتح (١/٨٧، ٨٨) و(١١/٢٥٤ و ٢٥٥).

يقول الإمام ابن المنيِّر في شرحه لصحيح البخاري: «في هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منه طَلَبُ الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل»[٨٢].

وجاء في حديث آخر: «مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا، وكان أحب الدين إليه، ما داوم صاحبه عليه.»[٨٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهْط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا، كأنهم تقالّوها، وقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدَّهْرَ ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٨٤].

كما جاء النهي عن الغلو صراحة، ففي الحديث الشريف: «يا أيها الناس إياكم والغُلُوّ في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغُلُوُّ في الدين».[٨٥]

٧ ـ الرجوع في حكم المسائل المستجدّة، وتحقيق التوازن بين الأصالة والمعاصرة، إلى أهل العلم والاختصاص، وعدمُ الجرأة في اتخاذ المواقف منها، وإصدار الفتاوى فيها:

---

(٨٢) انظر فتح الباري (١/٩٤).

(٨٣) الحديث متفق عليه. انظر صحيح البخاري مع الفتح (٣/٣١) وصحيح مسلم (٧٨٥).

(٨٤) الحديث متفق عليه، انظر صحيح البخاري مع الفتح (٩/٨٩ـ٩٠) وصحيح مسلم (١٤٠١).

(٨٥) الحديث رواه ابن ماجه، انظر رقم (٦٣) و (٢/١٠٠٨).

فإن إصـدار الأحكام الشرعية، والفتاوى، أمرٌ دقيقٌ وخطير، وإن للتحقيقات العلمية، والموازنات العملية بين الأصالة والمعاصرة، رجالَها وأهلَ الاختصاص فيها، وليس لكل داعية أو مسلم أن يُدْليَ بدلوه فيها، مهما حَسُنَتْ نيتُه وسلم قصدُه ـ كما يحدث كثيراً في زماننا ـ، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[٨٦]

ولكم كان أسلافنا ـ رحمهم الله تعالى ـ يتورعون في إصدار الأحكام، ويتدافعون الفتوى، مخافَة أن يشملهم هذا الوعيد الشديد. !!

وفي الحديث الشريف: «إن الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعُه من الناس، ولكن يقبضُ العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتَّخَذَ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلّوا»[٨٧].

إلى غير ذلك من ضوابط ومعايير، تُحقق هاتين الخصيصتين، وتضبط الموازنة بينهما، وتَعْصِمُ من الزَّلَلَ فيهما...

٨ ـ التنبيهُ إلى أخطاء في مفهومِهما، وتطبيقاتِهما قديماً وحديثاً:

لقـد أساءَ بعض الناس مفهومَ كلٍ من الأصالة والمعاصرة على مدى التاريخ، فوقعوا في أخطاء تطبيقية عملية باسم الأصالة أو باسم المعاصرة، أَوْدَتْ ببعضهم إلى الكفر والضلال، وأوقعَتْ آخرين بالاضطراب والتخبّط في طريق الدعوة، وما إلى ذلك...

---

(٨٦) الآية / ١١٦ من سورة النحل.

(٨٧) الحديث متفق عليه، انظر صحيح مع الفتح (١/ ١٧٤، ١٧٥) وصحيح مسلم (٢٦٧٣).

وسأعرض لنماذج من هذه الأخطاء تنبيهاً إليها، وتحذيراً من سوء آثارها. . . فمن ذلك:

أ) اعتبارُ بعض المَدْعوين تقليدَ الآباء والأجداد، والتمسُّكَ بما كانوا عليه، دون نظرٍ إلى حَقِّيَتِهِ أو بُطلانه، نوعاً من الأصالة التي يُحْرَصُ عليها ويُتَمسَّكُ بها، ويُدعىٰ إليها. . .

كما وقع للمدعوين قديماً، حيث جاءتهم الرسُلُ عليهم الصلاة والسلام بالهدى ودين الحق، فأعرضوا عنهم، وأنكروا عليهم، مبررين ذلك بتمسُّكِهم بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من وثنيةٍ وشركٍ وضلال. . .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن موقفهم مُنْكِراً له، فقال تعالى:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾(٨٨)

وكما يقع لكثير من الناس اليوم، عندما يَرَوْنَ في الحق الذي يُدْعَوْنَ إليه خروجاً عن عاداتهم، وتقاليد آبائهم وأجدادهم، فيصرّون على واقعهم، ولا يستجيبون لنداء الحق الذي جاءهم. . . وذلك باسم الاتباع والأصالة. . .

فكم في المسلمين اليوم من حَجَزَتْهُ عاداتُه، وأعرافُه العامة والخاصة عن قبول الحق، وجعلَتْهُ يستمر في عاداته، ويُصِرُّ على واقعه وانحرافه!! كما يجري كثيراً في

(٨٨) الآيات (٢٢ ـ ٢٤) من سورة الزخرف.

العادات والأعراف التي يفعلها الناس في الأفراح والأتراح وغيرها، وما يقعون فيه من إسراف وتبذير، والتزام ما لا يلزم، فإذا نُصحوا في ذلك، وبُيِّنت لهم أحكام هذه العادات، منعتهم عاداتهم وأعرافهم من الاستجابة للحق والنصيحة.

ب ـ اعتبارُ بعض الناس الخروجَ على مُطلَق العادات، والتنكُّرَ للأعراف والتقاليد، والزُّهْدَ بكل قديم متوارَثٍ نوعاً من المعاصَرَةِ المطلوبة، فيدعون إلى الخروج عليها، والتجديد في كل شيء، ناسينَ أن الخَيْرَ في الاتباع لا في الابتداع، غافلين عن أن الحكم على الأمور بحق أو باطل، وحَسَنٍ أو قبيح، لا يُعتبرُ فيه القدمُ لذاته، ولا الحداثَةُ لذاتها، وإنما هو في موافقة الحق، والتمسُّكِ بالأصول من جهة، وفي مراعاة الظروف والأحوال، وتغيّر الأزمنة والأمكنة في ضوء تلك الأصول من جهة أخرى. فلابد من التفريق بين العادات البشرية المجردة، وبين العادات والأعراف المستندة إلى دليل شرعي، فإن العادات المستندة إلى دليل شرعي يحرص عليها ويتمسك بها، وذلك مثل عادة اللحية أو بعض أشكال الحجاب قبل الإسلام، فقد جاءت نصوص شرعية تطالب بها، وتؤكد على التمسك بها، مما جعلها أحكاماً شرعية، وأخرجها عن كونها عادة أو عرفاً زمنياً.

جـ) إنزالُ بعض الدعاة لأقوال وسلوك أصحاب دعوتهم، ومؤسسي جماعتهم، ورؤساء تنظيماتهم، منزلة الأصول الثابتة، والحجة القاطعة، على الرغم من ثبوت خطئها أحياناً، أو ظهور عدم صلاحيتها في حالٍ من الأحوال أو ظَرْفٍ من الظروف.

فترى بعض الدعاة يجمدون على ذلك، ويتمسكون بها، ويدافعون عنها، ويبررون لإثباتها، وكأنها حق قطعي مُنَزَّل، أو منهج رباني مقدس.

كما تراهم يحصرون أنفسهم في نطاقها، ولو فَوَّتَ ذلك عليهم وعلى غيرهم مصالحَ دعوية لدعوتهم، كما هو واقع في كثير من أصحاب التنظيمات الإسلامية القائمة، وأتباع الجماعات العاملة في الساحة الإسلامية.

وهذا إن جاز أن يقع فيه بعض العامة من المدعوين لقلة علمهم، وقصور

فهمهم، فلا يجوز أن يقع فيه طلبة العلم من الدعاة الذين يجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس فهماً لدعوتهم، ودعاةً إلى التحرر منه وتبيينه. . .

ولو تفكَّر كل منا في واقعه، وتَفحَّصَ سَيْرَهُ في دعوته، وجَدَ نفسه أسيراً في بعض أموره ومواقفه لما لا يحسُنُ أن يأسُرَه، بل إلى ما ليس في صالح دعوته أحياناً، مما قد لا يرضي الله ورسوله أولاً، ولا ينسجم مع رغبة أصحاب الدعوات والمؤسسين فلنراجع مواقفنا دائماً، ولننظر في أساليب عملنا ووسائلنا، مبتغين في ذلك رضاءَ الله وحدَه، ومصلحةَ الدعوة وحْدَها. . .

د) عدم التمييز الدقيق بين مبادىء الدعوة ومناهجها، وبين أساليبها ووسائلها: فلكلٍّ من هذه الأمور خصائص مشتركة، وأخرى متميزة، لا بد من الوقوف عليها، والتمييز بينها.

وإذا كان الأصل في المبادىء والمناهج الثبات والاستمرار، فإن الأصل في الأساليب والوسائل التطورُ والتغيُّر. . .

ومن الخطأ أن يتصور الداعيةُ الأسلوبَ منهجاً، أو المنهجُ أسلوباً، فتختلط المصطلحات، ويُعطى هذا من خصائص ذاك ما لا يناسبه.

ولدقة هذا المَلْحظ، أود أن أضرب عليه مثالين واقعيين في حياة الدعوات، كثر الكلام فيهما، واختلفت الآراء حولهما، وهما:

١ ـ القيادة الجماعية:

فهناك من يرى أن من مشكلات الدعوة والداعية اليوم الأَخْذَ بمبدأ: القيادة الجماعية، ويرى أن القيادة في الإسلام لا تكون إلا لفرد واحد، وليست لمجموعة الأفراد والآراء، وأن القيادة الجماعية ليست من الإسلام، ولا تتفق مع طبيعته التشريعية وشواهده التاريخية . . . إلخ[٨٩].

(٨٩) انظر ما يراه في ذلك الأستاذ الداعية: فتحي يكن في كتابه: «مشكلات الدعوة والداعية» الطبعة التاسعة، نشر مؤسسة الرسالة، صـ١٧٠ ـ ١٨١.

علماً بأن القيادة في الإسلام مبدأ ومنهج لا بد منه، ولا تستغني عنه جماعة مسلمة، أياً كان عصرها، وحيث وجدت.

أما شكلها وطبيعتها، وكونها فرديةً أو جماعيةً، إنما هو أسلوب وتطبيق يمكن أن تختلفَ فيه الأنظار، وتعتَورَه الأشكال والأطوار...

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٩٠]

وجاء في الحديث الشريف: «على المرء المسلم السمعُ والطاعةُ فيما أحبَّ أو كره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصية، فلا سمعَ ولا طاعة.»[٩١].

وجاء أيضاً: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطع الأميرَ فقد أطاعني، ومن يعصي الأمير فقد عصاني»[٩٢].

كما جاء في حديث آخر: «إذا خرج ثلاثةٌ في سفر، فليؤمروا أحدَهم»[٩٣].

وإذا نَصَّ الشارع على شكل من أشكال القيادة، فجعلها فرديَّةً في الإمامة العظمى، أو في السفر وغيره... فإنَّ مثلَ هذه النصوص لا تمنعُ ذلك الخليفة العام، أو ذلك الأميرَ الخاص من اختيار مجموعةٍ من إخوانه، تُعينه على أمر القيادة، ويلتزم بشوراها، ويأخذ بقرارها ـ إذا رأى مصلحة في ذلك ـ.

فإن مدارَ أمر القيادة، سواء في الإمامة العظمى، أو في المؤسسات والمنظمات، على الكفاءات والثقة بين الأمير والمأمور، أو بين القيادة والقاعدة...

---

(٩٠) الآية / ٥٩ من سورة النساء.

(٩١) الحديث متفق عليه، انظر خ (١٣/١٠٩) م (١٨٣٩).

(٩٢) الحديث متفق عليه، انظر خ (١٣/٩٩) م (١٨٣٥).

(٩٣) الحديث رواه أبو داود بإسناد حسن، انظر د (٢٦٠٨).

فإذا توفر هذان العنصران يوماً ما، ولظرفٍ ما في قيادة جماعية أكثر من توفرها في قيادة فردية، صحَّ أن تكون هذه القيادة جماعية، أو فُضِّلَ ذلك في حينه، وكان لهذه المجموعة جميعُ الحقوق والواجبات الثابتة للقيادة الفردية.

علماً بأن القيادات الجماعية المعهودة اليوم، لا تخرج في حقيقة أمرها عن أصل المبدأ أو المنهج المقرر للقيادة الفردية، إذ لا تخلو تلك المجموعات القائدة من رأس واحد لها، ترجع إليه، أو يرجح بين آرائها عند الاختلاف المتساوي في عدد الآراء، مهما اختلفت تسمية ذلك الرأس أو كان له من لقب.

وإذا كانت الشواهد التاريخية مع القيادة الفردية ـ كما يقول الأستاذ فتحي يكن ـ فإن مصلحة الدعوة، ومرونة الحركة، ومعالجة الأوضاع الشاذة السائدة أحياناً، قد تكون مع القيادة الجماعية ـ كما هو مشاهد اليوم ـ.

وليس في شرع الله ما يحصر شكلَ أو أسلوبَ تطبيق مبدأ القيادة ومنهجها في شكل معين، أو أسلوب محدَّد، ويمنع الأشكال والأساليب الأخرى. . . والله أعلم.

٢ ـ الشورى المُلْزِمَة :

وهنـاك من يعتبر الشورى الملزمة أيضاً مشكلةً من مشكلات الدعوة والداعية، ويرى أن الشورى في الإسلام مُعْلِمَةً للأمير، وليست ملزمةً له، وأن الشورى الملزِمة ليست من الإسلام في شيء[٩٤].

وتعود مناقشة هذا المثال إلى أساس مناقشة المثال الأول، فإن الشورى في الإسلام مبدأ ومنهج ثابتٌ لا بد منه في نظام الإسلام، ولا يجوز لجماعة مسلمة تجنُّبُه والخروجُ عليه.

---

(٩٤) انظر هذا المعنى في كتاب «مشكلات الدعوة والداعية» للأستاذ فتحي يكن، المرجع السابق.

أما شكلُها وطبيعتُها، وأسلوبُ تطبيقها، فيمكن أن تختلفَ فيه الأنظار، وتعتورَه الأشكالُ والأطوار[٩٥]. . .

قال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[٩٦]. وقال أيضاً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٩٧]

وإذا وجدنا في السيرة النبوية الشريفة، والشواهد التاريخية من سيرة الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ما يُستدل به على إلزاميَّة الشورى أو عدم إلزاميتها. . فلا يعتبر ذلك نصاً على شكل من أشكالها، ومنعاً للأشكال الأخرى، وإنما يعتبر ذلك الاختيار لشكلٍ من أشكالها في موقف من المواقف، تبعاً لاختيار الإمام والقائد لما يراه أصلحَ وأعدلَ، فإن تصرفاته صلى الله عليه وسلم في مثل هذا الباب يمكن أن ترجع إلى تصرفاته بصفة الإمامة والسياسة التي أشرنا إليها سابقاً في حديثنا عن استمداد هاتين الخصيصتين[٩٨].

وهذا التنوع في الأمثلة التاريخية الذي يستدل كل طرفٍ على قوله بنوعٍ منه، إنما يؤكد طبيعة هذه التصرفات، وأنها ليست من تصرفات التبليغ والفتوى الملزِمة.

وإن مدارَ أمر الشورى مبني على نبذ الفردية والاستبداد في الرأي والإعجاب به، واستجماع الآراء، واستطلاع الأقوال الأخرى في المسألة، لأنه أدعى إلى إصابة الحق من جهة، وأقربُ إلى تحقيقِ الطمأنينة في القلوب، وتوفير السمع والطاعة للأمير من جهة أخرى.

فإذا رأى الأمير في حالٍ من الأحوال أن الشورى الملزِمَة تحقق الغَرَض من

---

(٩٥) انظر في ظلال القرآن (١/٥٠١) الطبعة التاسعة، ط دار الشروق.

(٩٦) الآية / ٣٨ من سورة الشورى.

(٩٧) الآية / ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٩٨) انظر ص ٧ ـ ٨ من هذا البحث.

مشروعية الشورى أكثر من غيرها، جاز له ـ إن لم يكن أفضل له ـ أن يختار الالتزام بها، والاعتماد على الشكل المناسب من أشكالها.

وكذلك إن رأت جماعةٌ من الجماعات، أو مؤسسة من المؤسسات أن تقيد أميرَها أو مسؤولها بشكل من هذه الأشكال، وقَبِلَ الأمير والمسؤول ذلك الشكل، كان لازماً عليه الوفاءُ بهذا الشرط، وأداءُ ذلك الحق.

وهذا النوع من المرونة في الأساليب والتطبيقات، يعتبر خصيصةً من خصائص الرسالة الإسلامية، ومن أبرز محاسنها.

هـ) ظَنَّ بعض الكتاب المُحْدَثِين خطأً، وهم يُعلِّلون مواقف واجتهادات بعض السلف التي يظهر منها معارضتها لبعض النصوص الشرعية، ظنَّ هؤلاء بالسلف الصالح، ولا سيما بالخلفاء الراشدين، أنهم قَدَّموا المصلحةَ الزمنية على النص الشرعي الثابت، فعملوا بالمصالح، وتركوا النصوص، أو قدموها عليها... ظناً منهم أنها تدخل في إطار المصالح المرسلة، وتُحقِّقُ المعاصَرَة[٩٩]...

ناسين أن المصالح المرسلة هي التي لم يرد في الشرع دليلٌ على اعتبارها أو إلغائها، فجعلوا مواقف عمر رضي الله عنه وغيره في وَقْف أراضي العراق المفتوحة، وعدم تقسيمها كما قَسَمَ الرسول صلى الله عليه وسلم أراضي خَيْبَر، كما جعلوا قوله في عدم قطع يد السارق عامَ المجاعة، وفي إيقاف سهم المؤلفة قلوبهم وما إلى ذلك... من تقديم المصلحة على النصوص، وتركاً للنصوص الشرعية، وعملاً بروح الشريعة الإسلامية...

فلم يَتَنَبَّهْ أمثال هؤلاء إلى حقيقة تلك المواقف، وطبيعة تلك الاجتهادات، ولم يفرقوا بين التصرفات الشرعية المبنية على الإمامة والسياسة، وبين النصوص الشرعية المُبَيِّنَةِ للأحكام والفتاوى...

---

(٩٩) انظر على سبيل المثال ما قاله الأستاذ عبدالحميد متولي في كتابه «الإسلام وموقف العلماء المستشرقين» ص ١٩ وما بعدها.

وعَدّوا هذه المواقف في زعمهم: مرونةً في الشريعة، ومعاصَرَةً في الدعوة ردوا بذلك على من اتهم هذه الشريعة الإسلامية بالجمودِ، والقصورِ عن معالجة الأوضاع المستجدة على مَرِّ العصور. . .

وغفلوا عن أنهم بأسلوبِ دفاعهم هذا، يطعنون في عمر رضي الله عنه وأمثالِه من الخلفاء والمجتهدين، ويظنون بهم ظنَّ السوء، إذ يخرجونهم بذلك على النصوص الشرعية، ويَتَّهمونَهم بتقديم اجتهاداتهم وآرائهم على شرع الله، وهم لا يشعرون. . !!

و) الالتباسُ الواقع عند بعض الدعاة، بين معالجة المنكرات وتغييرها، وبين معايشة أصحابها والركون إليهم.

فترى بعض الدعاة يعيش مع أصحابِ المنكرات، ويركن إليهم، بدعوى دعوتهم وتغيير منكرهم. . . وإذا بالمنكر ينتشرُ ويتَّسعُ خطره، ويصعبُ التخلص منه، بل قد يتعدى شرُّه إلى الداعية نفسه، فيقع في المنكر، أو يَغْفَلُ عنه، حتى يُصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً. . .

وترى آخرين يبتعدون عن أصحاب المنكرات، ويعتزلونهم ويهجرونهم، خوفاً من الوقوع في الإثم. . . ليسَ عملُ الأولينَ معاصَرَةً يُحرصَ عليها، ولا عملُ الآخرين أصالةً يُتمسَّكُ بها.

ولدقَّة هذا الأمر، وشدة خطره، حذرنا منه الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين لنا: أنَّ أول ما دخل النقصُ على بني إسرائيل، كان من هذا الباب، فقد جاء في الحديث الشريف:

«إن أَوَّلَ ما دخل النقصُ على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجلَ فيقول: يا هذا، اتّقِ الله ودَعْ ما تَصْنَع، فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه.

فلما فعلوا ذلك، ضَرَبَ الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[100]

ثم قال: «والله لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذن على يَدِ الظالم، ولتأطِرُنَّه على الحق أطراً، ولتَقْصُرُنَّه على الحق قَصْرا... أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليَلْعنكم كما لعنهم»[101].

وفي لفظ آخر للترمذي: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما وقَعَتْ بنو إسرائيل في المعاصي، نَهَتْهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجلسهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان متكئاً، فقال: (لا والذي نفسي بيده، حتى تأطِروهم على الحق أطراً)[102]».

---

(١٠٠) الآيات / ٧٨ - ٨١ من سورة المائدة.

(١٠١) الحديث رواه أبو داود والترمذي، وهذا لفظ أبي داود، انظر د (٤٣٣٦).

(١٠٢) الحديث رواه الترمذي، وقال عنه: حديث حَسَن، انظر ت (٣٠٥٠).

وكم في المسلمين اليوم من يقعُ فيما وقع فيه بنو إسرائيل، فيخالط أهل المنكرات مع السكوت عن منكراتهم، محتجاً بأنه قد ذكّرهم وأمَرَهم ونهاهم مرة أو مرتين. . !!

ونسي أنـه لا بد لنجاته من هذا المزلق الخطير، من أن يتابع التذكير والإنكار، ويعمل على تغيير المنكر بأية وسيلة كانت، ويصبر على ذلك، دون غَفْلَة عن المنكر واستمرارية وجوده، وبهذا يَسْلَم من الوعيد الشديد الوارد في هذا الحديث على من أنكر أولاً ثم سكت عن المنكر. .

وقد جاء في الحديث الشريف: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضلُ من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١٠٣).

فإن شأنَ الداعية في هذا، شأنُ الطبيب المعالج، يعايشُ المريضَ بحذَرٍ، ويعالجُه باستمرار، ويلاحظُ واقعَه، ويتجنَّبُ شرَّه ومفاسدَه. . .

وبمثل هذا الموقف تتحقق للداعية الأصالةُ والمعاصَرَةُ، ويسلمُ من الوعيد الشديد الوارد في أمثال هؤلاء.

قال تعالى:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١٠٤)

(١٠٣) الحديث صحيح، رواه الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه، انظر تعليقات الشيخ عبدالعزيز رباح، والشيخ الدقاق على رياض الصالحين، صـ ٢٨١.

(١٠٤) الآيات / ١١٢ ـ ١١٥ من سورة هود عليه السلام.

ز) استعمالُ أساليبَ دعوية في غير محلّها، وهجرُ أساليبَ أخرى أنفع منها:

فإن في الدعاة من يستعمل أسلوب الشدة في مكان اللين، أو أسلوب اللين في موطن الشدة، أو يحرص على أسلوب من الأساليب لم يعد يصلح في بيئة معينة، ويُهملُ أساليبَ أخرى أنفعَ منه وأجدى. . .

فكم في الدعاة من يستعمل أسلوب الهجر في الله عز وجل في غير محله!!

ولا شك أنه أسلوب من أساليب الدعوة، نص عليه القرآن الكريم، وطبقه الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[١٠٥]

وقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوبَ الهجر والمقاطعة على الثلاثة الذين خُلِّفوا وتأخروا عن غزوة تبوك، فهجرهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وهجرهم الناس من حولهم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم.

وقد حدثنا عن أثر الهجر فيهم القرآن الكريم، حيث يقول:

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ

(١٠٥) الآيات / ٦٨ - ٦٩ من سورة الأنعام.

مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٦﴾

كما هجر السلف الصالح في سبيل الله أقربَ الناس إليهم، ومات بعضهم وهو هاجر لبعض أولاده بسبب منكرات أصروا عليها . . .

ثم خلف في المسلمين خَلْفٌ، استعملوا الهجر في غير محله، وطبقوه حيث لم يعد ينفعُ ولا يُصْلح، غافلين عن أن الهجر أسلوب من أساليب الدعوة، ودواء من الأدوية، لا ينفع إلا بشروطٍ مُصَاحِبَةٍ، وظروف مناسبة . . .

وما نفع الهجر في الماضي إلا يوم أن غَلَبَ على المجتمعاتِ الصلاحُ، فأَحْكَمتِ الهَجْرَ على العصاة أيَّ إحكام، فقد كانت الشدة التي يراها المهجور تدفعه إلى الندم والتوبة، وتعود به إلى الأهل والأقارب والأحباب . .

أما اليوم، فلو هجر الداعية عاصياً لمعصيته، أو صاحب منكر لمنكره، كان هجرُه فردياً، وأثرهُ ضعيفاً، وتَلَقَّفَ المهجورَ أقربُ الناس إلى الهاجر، وعامله المجتمع بالشفقة والحنان، فيجد في عامة الناس من حوله من يخفف عنه ألم الهجر، ويزيل عنه وحشته، ويبطل نفعه وأثره . . .

ومع هذا كله، ترى بعضَ أهل الصلاح اليوم، يستعمل هذا الأسلوب ويدعو إليه، بدعوى الأصالة، والتمسك بمنهج السلف الصالح فيه، وكأن الهجر منهجٌ ثابت، ومبدأ لازمٌ فيجانبُ الداعية في ذلك الحكمة، ويؤدي به إلى الوَحْدَةِ والعُزْلة، وقد يصيبُه باليأس والقنوط ! !

إلى غير ذلك من استعمال لأساليب في غير موضعها، أو فَهْمٍ للأصالة على غير وجهها الصحيح . .

---

(١٠٦) الآية / ١١٨ من سورة التوبة .

حـ) اعتماد بعض الدعاة في دعوتهم على وسائلَ ضعيفةٍ متوارَثة، وإهمالهم وسائلَ حديثةٍ متطورة..

والأصل في الوسائل الدعوية أن تُمكِّنَ الدعاة من الوصول إلى أهدافهم، وتعينهم على تحقيق غاياتهم، فكلما وجد الداعية وسيلة شرعية أجدى، وسبيلاً أقصر، كان لزاماً عليه أن يستفيد منها، وأن يستخدمها في سبيل الوصول إلى هدفه...

ومع هذا، تجد في الدعاة من يَزْهدُ أحياناً بوسائل التِّقْنِيَة الحديثة، ويفضل عليها استخدامَ بعض الوسائل القديمة الضعيفة، باسم الأصالة، والتمسك بما استخدمه السلف في دعوتهم.!!

وأذكر أنَّ أحدهم قام متحدثاً إلى الناس في جامع كبير، يُصلي فيه آلافُ الناس، فلما قدَّم إليه المؤذن مُكبِّر الصوت، ووضعَهُ أمامه، توقف عن كلامه، ورجاه أن يُبْعِدَه عنه، وكأن مكبِّر الصوت منكرٌ أو بدعةٌ شرعية محدثَة، وتابَع حديثه المعتاد بما يُسمع عشرات الناس مكتفياً بذلك، فأَيْنَ هذا من الأصالة والمعاصرة!؟

وقِسْ على هذا، مواقفَ كثيرةً من دعاة اليوم الذين يكتفون بحِلَق الوعظ، والتعليم المتوارثة، ويزهدون بما تقدمه إليهم التِّقْنِيَةُ الحديثةُ من وسائل تُعِينُ على نشر علمهم، وتعميم وعظهم، في الوقت الذي يتنافس فيه أهل الباطل في استخدام تلك الوسائل، ويتفَنَّنون في تسخيرها لدعوتهم.

إلى غير ذلك من مواقف وأخطاء تحدث باسم الأصالة أو المعاصَرَة، والأصالةُ والمعاصَرَةُ منها براء...

فكم في شباب الدعوة اليوم من لا يتميَّزُ سلوكه عن سلوك عامة الناس، فيقع في المحرمات والمخالفات في طريق الدعوة، متوهماً أنه يحقق بذلك نوعاً من المعاصرة اللازمة...

وكم في شباب الدعوة من يُصابُ بنوع من التحجُّر والجمود، فيتشدَّدُ في أمور

ويتزمَّتُ في أخرى، ويُنَفِّر الناسَ من حوله، متوهماً أنه يُحقِّق نوعاً من الأصالة المطلوبة، وهو يقع في الإفراط والتفريط الذي حذرنا منه في الضوابط السابقة.

فليس من المعاصرة في شيء، أن يَمُدَّ الداعيةُ يده، ليصافحَ النساء الأجانب عنه، مصافحته للرجال، وذلك لاعتياد الناس عليها، وتساهلهم فيها...

وليس من المعاصرة في شيء، أن يتساهل الداعية بمظهره الشرعي، فيحلق لحيته لاعتياد الآخرين على حلقها، وعدم تَفَهُّمِهم لحكمها...

وليس من المعاصرة في شيء أن يتساهل الداعية في حجاب زوجه أو بنته، أو تتساهل الأخت المسلمة في حجابها فتخرج به عن حدوده الشرعية، بدعوى استغراب الآخرين للحجاب الشرعي، واعتيادهم على التبرج والسفور...

وليس من المعاصرة في شيء، أن تعيشَ الأسرة المسلمةُ في سبيل الدعوة مع الناس حياةَ الاختلاط بين الرجال والنساء، دون مراعاة للضوابط الشرعية، فَتَفْقِدَ الأسرةُ المسلمة بذلك الحياء، وتَفْسُدُ تربيتها للأبناء، وذلك بدعوى اعتياد الناس على ذلك، واستنكارهم للفصل بين الجنسين...

وليس من المعاصرة في شيء أن يألف المسلمون أنغام الموسيقى المحرمة، فيستمعون إليها وإلى الأغاني المحرمة، وينشأ أهليهم وأولادهم على استماعها والاعتياد عليها، والتساهل في شأنها، لأنها أصبحت موضة العصر، وكثر انتشارها وعم بلاؤها في كل مكان، وإنما على المسلم والداعية أن يتحفظ منها ويبتعد عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويكفيه من شرها ما يغزو سمعه منها هنا وهناك، ولا يملك له دفعاً.

كما أنه ليس من الأصالة في شيء، أن يَمْنعَ الداعية من لباس دون لباس، أو تُمْنَع المرأة المسلمة من حجابٍ دون حجاب، وذلك إذا تعارف على لباسٍ ما، أو حجاب ما، وانطبقت عليه المواصفاتُ الشرعية، ولم يكن ذلك اللباسُ أو الحجاب شعاراً لغير المسلمين، ولا سيما إذا دعت إلى استعماله مصلحة زمنية، أو حاجة عملية...

وليس من الأصالة في شيء أن يُحجر على المرأة في بيتها، وتُمنَع من الخروج والزيارات المباحة، وفي وقتٍ زادت فيه دواعي الخروج تبعاً لمقتضيات الحياة الجديدة ومتطلباتها، ونظراً لتطور العلاقات الاجتماعية وتوسعها، واختلاف طبيعة السكن والمنازل، ما دام الخروج منضبطاً بالأحكام الشرعية...

إلى غير ذلك من مواقف وتصرفات تحدث في حياة المسلمين، ويتمسك بها أصحابها، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً...

٩ - بيان آثارهما الدعوية :

إن للأصالة والمعاصرة، وتحقيق التوازن بينهما، آثاراً دعوية مهمة في حياة الدعوة، حيث تبثُّ فيها الحياة، وتدفعُ بها إلى طريق التقدم والنجاح، وتُحَصِّنُها من الانجراف أو الانحراف، وتعصمها من الميوعة والذَوَبان...

ولوضوح هذه الآثار، وبروزها للعيان، سأكتفي بذكر بعض هذه الآثار مُلَخَّصَةً، إشارةً إليها، وتذكيراً بأهميتها، ومن ذلك:

١ - إنهما يُحقِّقان للدعوة انسجاماً مع نفسها، فتحافظ على ذاتيتها وشخصيتها، وتتحقق لها خصائصها، وإذا ما افتقدت الدعوة أصالتها أو معاصرتها، فقدت بذلك هُويتها، وشُلَّت حركتها.

٢ - كما يحققان للدعوة انسجاماً مع محيطها الخارج عنها، فتعيش في كل عصر ومصر، وتقدم بوظيفتها في كل ميدان، وبفقد هاتين الخصيصتين، تَنْغلقُ الدعوة على نفسها، وتعمل في غير ميدانها.

٣ - كما يحققان للدعوة إعجابَ الناس بها، وتقبلهم لها، وإقبالَهم عليها، فإن الدعوة الأصيلة المعاصرة، مهما لاقت في طريقها من صدود أو إعراض، تبقى أقربَ الدعوات إلى النفوس البشرية، وأكثرها تلبيةً لحاجات الناس وتطلّعاتهم، وإن كثيراً من الناس مَهْما ظهروا مجانبين للأصالة، مُعْرضين عنها، متطلعين إلى الميوعة والذوبان، وذلك بدافع من شهواتهم ورغباتهم، هم في قرارة أنفسهم

يُقـدِّرون الموقف الصحيح، والخطَّ الملتزم، لأنه موقف الحق المنسجم مع الفطرة، والمؤيد بالعقل السليم.

وكم في الناس من يتظاهر بالضيق من سلوك الملتزمين المحافظين، وهم في قرارة أنفسهم يحترمونهم ويقدرون مواقفهم!!

وكم فيهم من يتظاهر بالإعجاب بالمتساهلين والمتنازلين، وهم في قرارة أنفسهم يستَضْعِفونهم، ويَهْزأون بهم.!!

ومن هنا: جاء توجيه الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين معه، بالمحافظة على الاستقامة، والحذر من تجاوز الحدود، والصبر على ذلك الحال، مهما أظهر الناس رغباتهم بالتنازلات، وأبدوا إعجابهم بالتجاوزات، قال تعالى:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١٠٧)

كما قال أيضاً:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾(١٠٨)

---

(١٠٧) الآيات / ١١٢ ـ ١١٥ من سورة هود عليه السلام.

(١٠٨) الآية / ١٥ من سورة الشورى.

٤ - كما تحققان للدعوة استمراريتها وقوةَ عطائها، فلا استمرارية بدون أصالة، ولا عطاءَ بدون معاصَرَة.

ومن هنا، جاء في وصف الطائفة الباقية المنصورة أنها ظاهرة على الحق قائمةٌ به، فقد جاء في الحديث الشريف:

«لا يزال من أمتي أمةٌ قائمة بأمر الله لا يضرهم من كذبهم ولا مَنْ خَذَلهم، حتى يأتيَ أمر الله وهم على ذلك»[١٠٩].

وإن مقتضى القيام بالحق، والظهورِ على الآخرين به، الوقوفُ عنده والتمسكُ به من جهة، والدفاعُ عنه والحفاظُ عليه من جهة أخرى.

٥ - كما تدفعان عن أصحاب الدعوة صفاتِ الذَمِّ وألقاب السوء، التي كثيراً ما تطلق على الدعاة، ويَجِدُ أهلُ الباطل تبريرات لإطلاقها من واقع بعض الدعاة اليوم..

فعلى الداعية أن يقطع عليهم الطريق، ولا يمكنهم بتصرفاته وأخطائه من إقناع الناس بباطلهم، واستغلال ذلك للطعن في دينه وتوهين دعوته...

فهذه ظاهرة استُغِلَّت قديماً، ولا تزال تُستَغَلُّ حديثاً، ومن هنا، جاء في وصف السلف الصالح على لسان أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، حيث كتَبَ إلى رجلٍ سألَه عن القَدَر، فكان مما قاله:

«... لقد قَصَّرَ قومٌ دونهم فجَفَوْا، وطَمِحَ عنهم أقوام فَغَلَوْا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم...»[١١٠]. إلى غير ذلك من آثار...

١٠ - خاتمةٌ في بيان واجب الدعاة والعاملين للإسلام تجاههما:

بعد أن ظهرت لنا أهميةُ الأصالة والمعاصرة في الدعوة إلى الله، وتحدَّدَ لنا مفهومهُما، وتجلَّت لنا دقةُ الموازنة في تحقيقهما، نَخْلُص إلى أن واجب الدعاة نحوهما كبيرٌ...

---

(١٠٩) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة، وهذا لفظٌ من ألفاظ البخاري، انظر خ (رقم/ ٧٤٦٠ و ٧٤٥٩ و ٧٣١١) وانظر فتح الباري (١٣/٢٩٣، ٤٤٢). وانظر شرح النووي على مسلم (١٣/٦٥ - ٦٨).

(١١٠) انظر سنن أبي داود (٥/١٩) رقم (٤٦١٢) ترتيب عزّت الدعاس، وعادل السيد.

فلا بد للدعاة من تَفَهُّمٍ صحيح لهما، يميز بين الأصالة والجمود، وبين المعاصرة والانحراف، كما لا بُدَّ لهم من اقتناع كامل بأهمية هاتين الخصيصتين، وضرورة تحقيقهما في حياة الدعوة.

ولا بد لهم أيضاً في تحقيقهما من الرجوع إلى أهل العلم والاختصاص، المتحلِّين بالصلاح والتقوى، وعدم الاعتماد في ذلك على الأفهام الشخصية، والترعات العلمية...

كما عليهم بعد ذلك أن يراعوا في حالة الاختلافات العلمية في مسألة من المسائل، الضوابط الشرعية التي كان عليها سلف هذه الأمة في المسائل الاجتهادية المختلف عليها عملاً وإنكاراً، فلا يَحْكُموا على هذا بالجمود، وعلى ذاك بالميوعة والانحراف حتى يتبيَّن لهم الحق، وتتضح المآخذ...

فكم من مواقف اتّهمها الناس بالجمود والتزمُّتِ فظهرَتْ حَقيَّتُها وأصالتها ورجع الناس إليها!!

وكم من مواقف اتهمها الناس بالميوعة والانحراف، فظهرت سلامتُها وصلاحيتها، وصار الناس إليها!!

وقِسْ على هذا كثيراً من الأساليب الدعوية، والوسائل الحديثة التي اجتهد بعض الدعاة فيها واستحسنها، وأنكرها آخرون وأعرضوا عنها، مما حَدَثَ ويحدث على مَرِّ العصور والأزمان...

فقد توجدُ هناك ملاحظاتٌ دعوية، ومقتضياتٌ زمنية أو عرفية، وضروراتٌ محلِّيةٌ عالميّة، تجعل الآراء تختلف في اتباع هذا الأسلوب أو ذاك، وتأخذ بهذه الوسيلة أو تلك...

فلا بد من اعتبارها واحترامها، والعمل على مناقشتها وتمحيصها، تَبَيُّناً لوجه الحق والصواب فيها، مع اتِّساع الصدر لها، ما دامت اجتهاداتٍ في الأساليب والوسائل،

لا تمسُّ المناهجَ الثابتة، والمبادىء الأساسية...

كما يجب التَنَبُّـه والحذرُ من تساهلاتٍ وتنازلات في طريق الدعوة، تحدث باسم المصلحة الدعوية، وتنحرف بالدعوة شيئاً فشيئاً، حتى تخرج بها عن الجادة...

ومن مثل هذا يُحذِّرُ الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ فيقول:

«... وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله، فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم.

فغَيْر المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية، والتحرج البالغ، خِيفَةَ أن يدخل عليهم الشيطان من ثَغْرَةِ الرغبة في نُصرةِ الدعوة، والحرص على ما يسمونه «مصلحة الدعوة».

فلا بد من الـدقة واليقظة والحذر، وإلا ضاعت الدعوة الإسلامية بين أبنائها، وتشوهت صورتها بين الناس جموداً أو انحرافاً، وما ضاع هذا الدين إلا بين الغالي فيه والمقَصِّر...

كما لا بد للدعاة من إدراكٍ كامل لمستجدّات عصرهم، ليكونوا على بصيرة تُمكِّنهُم من تسخير هذه المستجدات والمخترعات العلمية الحديثة، لصالح دعوتهم، وتحقيق أهدافها.

ويتوقف هذا على وجود كفاءاتٍ موثوقة مُتَخصِّصَة مُتَنَوِّعةٍ في صفوف الدعاة، تُجيدُ معرفة المستجدات، وتُحْسِنُ تسخيرها واستعمالها للوصول إلى الأهداف الدعوية.

ولا يكون هذا، إلا بتخطيط مُحْكَم من قبل القيادات الدعوية، يَهدفُ إلى إيجاد وتوفير هذه الإمكانات من جهة، وتوظيف تلك الطاقات والقدرات من جهة أخرى.

ولا يُتَصَوَّر تحقُّقُ هذه الواجبات الدعوية، إلا على أيدي قيادات واعية، وعقليّاتٍ نامية، تَضَـعُ الأمـور في مواضعهـا، وتُقـدِّرُ الحـاجة قَدْرها، بعيدةً عن العقليات

التقليدية، طامحةً إلى تحقيق الأحسن والأفضل في كل شيء، مُنطلقةً من تَفَهُّمِها لواجباتها، مستنيرةً بهَدْيِ كتابها الذي يهدي للتي هي أقوم.

أسأل الله عز وجل: أن يجعلنا من الذين يَتَمسَّكون بأصالة هذه الدعوة الخالدة، حريصين على تحقيق معاصرتها، متفهِّمين حقيقة هاتين الخصيصتين على وجههما الصحيح، وأن يجعلنا من الذين يهتدون بهدي كتابه، ويقتفون سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن الذين قال في حقهم:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[111]

والحمد لله رب العالمين.

(١١١) الآية / ٢٣ من سورة الأحزاب.

مصـادر البحـث

١ ـ القرآن الكريم، وبعض تفاسيره، مثل :

ـ الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي .
ـ في ظلال القرآن ـ لسيد قطب، الطبعة التاسعة، دار الشروق.

٢ ـ من كتب السنة النبوية وشروحها :

ـ الترغيب والترهيب ـ للمنذري ، طبعة قطر.
ـ رياض الصالحين ـ للنووي، تعليق الشيخين رباح والدقاق.
ـ سنن ابن ماجه ـ لابن ماجه، ترقيم فؤاد عبدالباقي. ط. دار الفكر.
ـ سنن أبي داود ـ لأبي داود. ترتيب الدعاس، والسيد.
ـ سنن الترمذي ـ للترمذي .
ـ شرح النووي على مسلم ـ للنووي. ط. دار الفكر.
ـ صحيح البخاري ـ للبخاري .
ـ صحيح مسلم ـ لمسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط. دار الفكر.
ـ فتح الباري ـ لابن حجر، تصحيح الشيخ عبدالعزيز بن باز، ط. دار الفكر.
ـ فيض القدير ـ للمناوي .
ـ مسند الإمام أحمد ـ للإمام أحمد.

٣ ـ كتب متنوعـة :

ـ الإحكام، في تمييز الفتاوى عن الأحكام، وتصرفات القاضي والإمام، للقرافي، تحقيق الأستاذ الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ط ١ عام ١٣٨٧هـ.

- الاسلام، وموقف العلماء المستشرقين ـ عبد الحميد متولي ط، شركة مكتبات عكاظ.
- إعلام الموقعين ـ لابن القيم ، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد.
- الإمام أبو الأعلى المودودي، ومنهجه في الدعوة ـ لمنظور الحق حقاني.
- الإمام سفيان الثوري ـ محمد أبو الفتح البيانوني، الطبعة الثانية ـ دار السلام.
- البداية والنهاية ـ لابن كثير.
- تاريخ الطبري ـ للطبري، ط سويدان بيروت.
- تذكرة دعاة الإسلام ـ للمودودي.
- حلية الأولياء ـ لأبي نعيم، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
- دراسات في الاختلافات الفقهية ـ محمد أبوالفتوح البيانوني ـ الطبعة الثالثة ـ دار السلام.
- رسالة التعاليم ـ لحسن البنـا.
- الروض الأنف ـ للسهيلي.
- السيرة النبوية ـ لابن كثير ـ الطبعة الثانية، تحقيق مصطفى عبدالواحد.
- شرح القواعد الفقهية ـ أحمد الزرقا، الطبعة الأولى، نشر دار الغرب الإسلامي
- الفقيه والمتفقه ـ للخطيب البغدادي، تعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري.
- الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير.
- لسان العرب ـ لابن منظور. ط دار صادر ببيروت.
- مجلة الأحكام العدلية.
- مجموعة فتاوى ابن تيمية ـ لابن تيمية.
- مشكلات الدعوة والداعية ـ لفتحي يكن، الطبعة التاسعة، ط. مؤسة الرسالة.
- معجم البلدان ـ لياقوت الحموي.
- المعجم الوسيط ـ الصادر عن مجمع اللغة العربية، ط. المكتبة العلمية طهران.
- المغني ـ لابن قدامه ط دار الكتاب العربي.

لُمْعَةٌ في الكلام على لفظة آمين المستعملة في الدعاء وحكمها في العربية

جمع الشيخ الإمام أبي محمد عبدالله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ابن الخشاب (٤٩٢ ـ ٥٦٧هـ) رحمه الله

تقديم وتحقيق الدكتور
سليمان بن إبراهيم العايد
الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية بمكة المكرمة
جامعة أم القرى

الحَمْدُ لِلَّهِ، والصَّلاَة على رسُولِ الله. وبعـد:

فيطيب لي أَنْ أُقَدِّم لِطُلاَّب العلم، رسالةً اكتتبها أَحَدُ أَعْلامِ الحنابلَةِ في بغداد في القَـرْنِ السَّـادِس. كَانَ لَهُ شأنـه في عُلُوم العـربيَّة، ومُقَدَّماً على كَثِيرٍ مِنْ أربابها وجهابيذها، وهِيَ رِسَالَةٌ تَنَاوَلُ شيئاً أَوْ قَوْلاً أَوْ دُعَاءً يمارِسُهُ المُسْلِم في صَلاَتِهِ كُلَّ يوم بَلْ كُلَّ وَقْتٍ، وهِيَ على صِغَرِ حَجْمِها مُسْتَجَادٌ مَوْضوعها، لَطِيفٌ مَأْخذها، تَنَاوَلَتْ هَـٰذِه الكَلِمةَ مِنْ ناحِيَةِ اللُّغَةِ، وَتَناوَلَ الفُقَهاءُ ما يَتَعَلَّق بأحكامِهَا الفقهية. وَاطَّرَحَ بَعْضُ المُفَسِّرين الحَـدِيثَ عَنْ «آمـين» جانِبـاً، لأَنَّهَا لَيْسَتْ مِن القُـرْآن، والتَفْسِيرُ مَوْضـوعُـهُ تَأْوِيلُ كَلاَم اللَّهِ، قال أبـوحَيَّان: «وكَـذَلِـكَ تَكَلَّمُوا على آمِينَ ولُغَاتِها، والاختلاف في مَدْلُولاتِها، وحُكْمِهَا في الصَّلاَةِ، ولَيْسَتْ مِنَ القُرْآن، فَلِذَلك أَضْرَبْنَا عَنِ الكَـلاَمَ عَلَيْهـا صَفْحاً»[1]. ووقَى الحَدِيثَ عنها كَثِيرٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ. بِحَسَبِ مَا يَقْصِدُونَ إِلَيْهِ ويَرُومُونَهُ.

وَتَلَقَّى القُرَّاءُ «آمِين» مِنْ في رسُولِ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلّم كَمَا تَلَقَّوُا القُرْآنَ، وسَمِعُوه في صَلاَتِهِ، ورَوَتْهَا السَّبْعَةُ وغيْرُهُمُ بالمَدِّ والتَّخْفِيفِ، وحَكَىٰ الواحِدِيُّ عَنْ حَمْزَةَ والكِسَائِيّ الإمالة[2].

والمَدُّمع التخفيف هُوَ الَّذِي رَوَاهُ أَصْحَابُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم عَنْهُ كما قال ذلك ابْنُ دَرَسْتَوَيهِ، ولَمْ يَرْوِه أَحَدٌ عَنْهُ بالقَصْرِ، ولِكنْ مَمْدوداً، وَهُوَ الأَصْلُ الصَّحِيحُ[3].

١ - البحر المحيط ١/٣٢.
٢ - انظر فتح الباري ٢/٢٦٢.
٣ - انظر اللمعة ص ١٧٠.

وهَـٰذَا الَّذِي اسْتَظْهَرَه بَلْ قَالَ بِهِ ابْنُ دَرَسْتَوِيهِ جَاءَ صَرِيحاً فِي السُّنَّةِ فيما رَوَاهُ الإِمامُ أَحْمَـدُ قال: حَدَّثَنَـا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَـا سُفْيَانُ، عَنْ سَلَمَـةَ بْنِ كُهَيْلٍ، عَنْ حُجْرِ بن عَنْبَسٍ، عَنْ وَائِـلِ بن حُجْـرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَرَأَ «وَلَا الضَّالِّينَ» فقال: «آمِينَ يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ»[4]. وعِنْدَ البَيْهَقِيِّ «وقَالَ الفِرْيابيُّ عَنْ سُفْيَانَ فِي هَـٰذَا الحَدِيثِ: رَفَعَ صَوْتَهُ بـ «آمِينَ» وَطَوَّلَ بِهَا»[5]. «ورَوَاهُ زَيْدُ بْنُ أَبِي أُنَيْسَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الجَبَّارِ، وَقَالَ: «مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ»[6].

وهَـٰذا المَدُّ لازِمُ الجَهْرِ وإِظْهارِهَا، قال البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال عَطَاءٌ: آمِينَ دُعَـاءٌ، أَمَّنَ ابنُ الزُّبَيْرِ وَمَنْ وَرَاءَهُ حَتَّى إِنَّ لِلْمَسْجِدِ لَلَجَّةً وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُنَادِي الإِمَامَ: لا تَفُتْنِي بـ «آمِينَ»[7].

وقَالَ ابْنُ حَجَرٍ عَنْ قَوْلِ عَطَاءٍ هَـٰذَا: «وَصَلَهُ عبْد الرَّزَّاق عَن ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ يُؤَمِّنُ عَلَى أَثَرِ أُمِّ القُرْآنِ؟. قَالَ: نَعَمْ، وَيُؤَمِّنُ مَنْ وَرَاءَهُ حَتَّى إِنَّ لِلْمَسْجِدِ لَلَجَّةً، ثُمَّ قَالَ: إِنَّما آمِينَ دُعَاءٌ، قال: وَكَانَ أَبُوهُرَيْرَةَ يَدْخُلُ المَسْجِدَ وَقَدْ قَامَ الإِمام [قَبْلَهُ] فينادِيه، فَيَقُولُ: لا تَسْبِقْنِي بـ «آمِينَ»[8] ».

وَقَدْ رَوَىٰ الحَرْبِيُّ حَدِيْثَ وائِلٍ عَنْ حُجْرِ بْنِ عَنْبَسٍ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم فَلَمَّا قَالَ: «ولا الضَّالِّينَ» قَالَ: آمِين يُخْفِي بِهَا صَوْتَهُ. ومِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ زُرَيْعٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سَلَمَةَ، عَنْ حُجْرٍ، به «قال: «آمِين» أَخْفَىٰ بِهَا صَوْتَهُ»[9].

---

٤ - المسند ٤/٣١٦ وانظر غريب الحديث للحربي ٨٣٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٢/٥٧ من طريق وكيع وغيره.

٥ - السنن الكبرى ٢/٥٧.

٦ - السنن الكبرى ٢/٥٨.

٧ - البخارى (كتاب الأذان باب جهر الإمام بالتأمين) ٢/٢٦٢.

٨ - فتح البارى ٢/٢٦٢ وانظر مصنف عبدالرزاق ٢/٩٦-٩٧ رقم ٢٦٤٠.

٩ - غريب الحديث للحربيّ ٨٣٧ والمسند ٤/٣١٦ وفيه «يَمُدُّ» و «يَجْهَرُ» بدل «يُخْفِي».

قالَ الحَرْبِيُّ: قَوْلُه «يُخْفِي صَوْتَهُ بـ «آمِينَ» رَوَىٰ بَعْضُ أَصْحَاب شُعْبَةَ عَنْ سَلَمَةَ «يُخْفِي» وبَعْضٌ رَوَى «وأَخْفَىٰ». والَّذِي عِنْدِي أَنَّ الَّذِينَ قالوا «يُخْفِي» بَرَفْعِ اليَاءِ أَرادُوا يَخْفَىٰ بِنَصْبِ اليَاءِ، وأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا أَخْفَىٰ بِأَلِفٍ أَرَادُوا خَفَىٰ بِغَيْرِ أَلِفٍ؛ لأَنَّ أَخْفَىٰ كَمَا ذُكِرَ يُخْفِي: سَتَر. وخَفَىٰ يَخْفِي: أَظْهَر، وَكُلٌّ لَمْ يُصِبْ وَجْهَ الكَلَام؛ لأَنَّ شُعْبَةَ رَوَاهُ أَخْفَىٰ كَمَا ذَكَرَ يَزِيدُ وَيَحْيَىٰ وغُنْدَر، واسْتَجَازَ أَبُو الوَلِيدِ وسُلَيمَانُ أَن يَقُولا: يُخْفِي، أَوْ يكُون قَالَ: يَخْفِي، فاسْتَجَازَ الَّذِينَ قَالُوا: أَخْفَىٰ؛ لأَنَّهَا مِنْهَا أَخْفَىٰ.

وَيدُلُّ عَلَى رِوَايَةِ سُفْيَانَ، عَنْ سَلَمَةَ قَوْلُهُ «يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآمِينَ». فَلَوْ أَخْفَاهَا لَمْ يُعْلَمْ بِمَدِّها، وَقَوَّىٰ مَارَوَى سُفْيَانُ حَدِيثُ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الجَبَّارِ، عَنْ أَبِيهِ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ رَفَعَ صَوْتَهُ بـ «آمين».

وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ سَلَمَةَ أَخْبَرَنَا عَنِ القَرَّاءِ: أَخْفَيْتُ: سَتَرْتُ، وخَفَيْتُ: أَظْهَرْتُ»[10].

وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طـه: ١٥]. فَفَسَّرَها بـ «أُظهِرُها»[11].

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: «أَخْفَى لَهَا مَوْضِعَانِ: مَوْضِعُ إِظْهَارٍ، ومَوْضِعُ كِتْمانٍ، كَسَائِرِ حُرُوفِ الأَضْدَاد»[12].

وأَنْشَدَ أَبُو الخَطَّابِ قَوْلَ امْرِىءِ القَيْسِ عَنْ أَهْلِهِ فِي بَلَدِهِ:

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لا نُخْفِهِ وَإِنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لَا نَقْعُدِ

---

١٠ ـ غريب الحديث للحربيّ ٨٣٩ ـ ٨٤٠.

١١ ـ غريب الحديث للحربيّ ٨٤١.

١٢ ـ مجاز القُرْآن ٢/١٦ وغريب الحديث للحربي ٨٤٣.

وَرَوَاه الأَصْمَعِيُّ: نَخْفِه بنصب النُّونِ، يَقُولُ: لَا نُظْهِرْهُ، وَلَوْ صَحَّ مَا قَالَ أَبُو عُبَيدَةَ عَنْ أَبي الخَطَّاب رفع النُّونِ في نُخْفِه كَانَتْ مِنْ أَخْفَى، وَكَانَ في ذَلِكَ حُجَّةٌ لِشُعْبَةَ في روَايَتِه حِينَ قَالَ: أَخْفَى صَوْتَهُ، وَلكِنَّهُ لَيْسَ وَجْهَ الكَلَام، لأَنَّ العَرَبَ تَقُولُ: خَفَيْتُ مَلَّتِي مِنَ النَّار: استخرَجتُهَا. وَيُقَالُ لِلرَّكِيَّةِ الَّتِي قَدِ انْدَفَنَتْ ثُمَّ استَخرَجْتَهَا خَفِيَّةٌ، والجَمِيعُ خَفَايَا»[13].

وَمَا قَالَهُ أَبُو عُبَيدَةَ مِنَ أَنَّ «الإخفاءَ» مِنَ الأَضْدَادِ قالَهُ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ، فَقالَ: وأَخْفَيْتُ حَرْفٌ من الأضداد؛ يقال: أَخْفَيْتُ الشَّيْءَ إذا سَتَرْتَهُ، «وأَخْفَيْتُه إِذَا أَظْهَرْتَهُ»، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ فمعناه أكاد أسترها، وفي قراءةِ أُبَيٍّ: «أكادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي، أَطلِعُكُمْ عليها». فَتَأْوِيلُ «مِنْ نَفْسِي» مِنْ «قِبَلِي» ومِنْ «غَيْبِي» كَمَا قال: «تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ولَا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ». ويُقَالُ: مَعْنَى الآيَةِ «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُظْهِرُها، ويُقَالُ: خَفَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَظْهَرْتَهُ. وَلَا يَقَعُ هَذَا - أَعْنِي الَّذِي لَا أَلِفَ فِيهِ على السَّتْرِ والتَّغْطِيَةِ»[14].

وَتَرِد أَخْفَى بِمعْنَى سَتَرَ نَحْوُ قَوْلِه ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. قالَ الحَرْبِيُّ «قَوْلُهُ» «مَا أُخْفِي لَهُمْ» هَذَا مِنَ الغَيْبِ والسِّتْرِ. . . عَنِ الحَسَنِ: أَخْفَى لَهُمْ بالخُفْيَةِ خُفْيَةً، وبالعَلانِيَةِ عَلَانِيَةً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ فَلَمْ يَخْتَلِفِ القَرَّاءُ والمُفسِّرُونَ أَنَّ ذَلِكَ ما سَتَرَهُ اللَّهُ لهم»[15].

وقالَ «وكَذَلِكَ «بَلْ بَدَا لَهُمْ مَاكَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ [الأنعام: ٢٨]» يَعْنِي مَا يَسْتُرُونَ، وَقَالَ: ﴿وَيَعْلَمُ ما يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ

---

١٣ - غريب الحديث للحربيّ ٨٤٣ - ٨٤٤ وانظر مجاز القرآن ٢/ ١٧ وتهذيب اللُّغَةِ للأَزْهَرِيِّ ٧/ ٥٩٥.

١٤ - الأضداد ٩٥ - ٩٦.

١٥ - غريب الحديث للحربيّ ٨٤٦.

عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [ابراهيم: ٣٨] ومِثْلُ هَـٰذَا كَثِيرٌ فِي القُرْآنِ والعَرَبِيَّةِ والشِّعْرِ»[١٦].

وَمَا وَرَدَ فِي «آمِينَ» لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا الإِظْهَارَ؛ لِوُجُودِ القَرَائِنِ المَانِعَةِ عَنْ إِرَادَةِ المَعْنَى الآخر. كَالَّذِي سَبَقَ إِيرَادُهُ مِنَ الآثَارِ، ومِثْل حديث عَطَاءٍ: «أَدْرَكْتُ مِائَتَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فِي هَـٰذَا المَسْجِدِ إِذَا قَالَ الإِمام «ولا الضَّالِّينَ» سَمِعْتَ لَهُمْ رَجَّةً بـ «آمِينَ» وَرَوَاه إِسْحَاقُ الحَنْظَلِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحَسَنِ، وَقَالَ: «رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بـ آمِينَ»[١٧].

وَرَوَىٰ البَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ إِمَاماً كَانَ أَوْ مَأْمُوماً[١٨]. وَمِنَ المَعْلُومِ حِرْصُ ابْنِ عُمَرَ عَلَى التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللَّهِ، والاقْتِدَاءِ بِهِ.

ورَوَىٰ البَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ أُمِّ القُرْآنِ رَفَعَ صَوْتَهُ، فَقَالَ: آمِين»[١٩]

وَعَنْ نُعَيْمٍ المُجْمِرِ قَالَ: صَلَّى بِنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، ثُمَّ قَرَأَ بِأُمِّ القُرْآنِ حَتَّى بَلَغَ «غَيْرِ المَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. قَالَ: آمِين ثُمَّ قَالَ: والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ صَلَاةً بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيه وسَلَّم»[٢٠].

وكَـذَلِكَ حَدِيثُ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ رُوِيَ بلفظ «رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ» وبلفظ «يَقُولُ فِي

---

١٦ - غريب الحديث للحربيّ ٨٤٧.

١٧ - السنن الكبرى للبيهقي ٢/٥٩ وانظر فتح الباري ٢/٢٦٧.

١٨ - السنن الكبرى للبيهقي ٢/٥٩.

١٩ - السنن الكبرى للبيهقي ٢/٥٨.

٢٠ - السنن الكبرى للبيهقي ٢/٥٨.

الصَّلاَة آمِينَ»، وبلفظ «يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ» وبلفظِ «رَافِعاً بِهَا صَوْتَهُ»، وبلفظ «يَجْهَرُ» وبلفظ «رَفَعَ صَوْتَهُ بـ آمينَ وَطَوَّلَ بِهَا».

وأَمَّا رِوَايَةُ «خَفَضَ بِهَا صَوْتَهُ» فَلِلْعُلَمَاءِ فِيها كلام[٢١].

ويُشْرَع التَّأْمِينُ لِكُلِّ مَنْ قَرَأَ الفاتِحَةَ بِدَليلِ حَدِيثِ ابْنِ شِهَابٍ مُرْسلاً «كانَ رسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَقُولُ: آمِينَ»[٢٢].

ولِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم قال: «إِذا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ، وَقَالَتِ المَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ»[٢٣].

قالَ النَّـوويُّ: «يُسْتَحَبُّ لِكُلِّ قَارِىءٍ كَانَ فِي الصَّلاَةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا إِذَا فَرَغَ مِنَ الفاتِحَةِ أَنْ يَقُولَ: آمِينَ. والأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَشْهُورَةٌ»[٢٤].

وقـال ابن كثـير: «ويُسْتَحَبُّ لِمَنْ قَرَأَ الفـاتحـة أَنْ يَقُولَ بَعْدَها: آمِينَ... قال أصحابنا (يَقْصد الشافِعِيَّةَ): ويُسْتَحَبُّ ذَلِكَ لِمَنْ هُوَ خارِجَ الصَّلاَةِ، ويَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ المُصَلِّي، وسَوَاء كان منفرداً أَوْ إماماً أَوْ مَأْموماً، وفي جَمِيعِ الأَحْوَالِ»[٢٥].

وُيُشْرَعُ الجَهْرُ بِهَا لِلإِمامِ والمَأْمُومِ لِلأَحادِيثِ والآثَارِ الوَارِدة في ذلك وَإِنْ لم يكن بَعْضُهَا صَرِيحاً فِي جَهْرِ المَأْمُومِ بِهَا. وَمِنْ ذَلِكَ ما رَوَاهُ البُخَارِيُّ مُعَلَّقاً عَنْ عَطَاءٍ «قال: آمِينَ دُعاءٌ. أَمَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَمَنْ وَراءَهُ حتى إنّ للمسجد لَلَجَّةً. وكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُنَادِي الإِمام: لاَ تَفُتْنِي بـ آمِينَ». وقَدْ وَصَلَهُ عَبْدَ الرَّزَّاقِ.[٢٦]

---

٢١ ـ انظر السنن الكبرى للبيهقي ٢/٥٧.

٢٢ ـ البخاريّ (كتاب الأَذَانِ بَاب جَهْرِ الإِمَامِ بالتَّأْمِينِ) ٢/٢٦٢.

٢٣ ـ البخاريّ (كتاب الأَذَانِ بَاب فضل التأمين) ٢/٢٦٦.

٢٤ ـ التبيان في آداب حَمَلَةِ القرآنِ ٧٥

٢٥ ـ تفسير ابن كثير ١/٤٨.

٢٦ ـ انظر ما تقدَّم ص ٣ والمحلّى ٣/٣٤١ فَقَدْ رَوَاهُ مِنْ هَـذَا الطَّرِيقِ.

قال الشَّيْخُ ناصِرُ الدِّين الأَلْبَانيُّ: «صَرَّحَ ابْنُ جُرَيْجٍ في هَـذِه الرِّوايَةِ أَنَّهُ تَلَقَّىٰ ذَلِكَ عَنْ عَطاءٍ مُبَاشَرَةً فَأَمِنَّا بذلك تَدْلِيسَهُ، وثَبَتَ بِذَلِكَ هَـذَا الأَثَرُ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ». [٢٧]

وبإِسْنَادِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ المَذْكُورِ عَنْ عَطاءٍ حديثٌ مُقَارِبٌ في لفظه، بل اختلافُهُ يَسِيرٌ، عَن ابْنِ جُرَيْجٍ، قُلْتُ لِعَطاءٍ: آمين قالَ: لَا أَدَعُهَا أَبَداً، قال: إِثْرَ أُمِّ القُرْآنِ في المَكْتُوبَةِ والتَّطَوُّعِ؟ قَالَ: وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ الأَئِمَّةَ يَقُولُونَ على إِثْرِ أُمِّ القُرْآنِ آمين. هُمْ أَنْفُسُهُمْ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ حَتَّىٰ إِنَّ للمَسْجِدِ لَلَجَّةً»[٢٨].

ومِنْهَا مَا أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي رَافِعٍ أَنَّ أَبَا هُرَيرَةَ كَانَ يُؤَذِّنُ لِمَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ، فَاشْتَرَطَ أَنْ لا يَسْبِقَهُ بِـ«الضَّالِّينَ» حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ الصَّفَّ، فكانَ إِذَا قَالَ مَرْوَانُ: «وَلَا الضَّالِّينَ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: آمِينَ يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ، وَقَالَ: إِذَا وَافَقَ تَأْمِينُ أَهْلِ الأَرْضِ تَأْمِينَ أَهْلِ السَّمَاءِ غُفِرَ لَهُمْ»[٢٩].

وَقَـدْ وَسَمَ الشَّيْخُ ناصِرُ الـدِّين الأَلْبَـانيُّ هذا الأَثَـرَ بالصِّحَّةِ، وَقَالَ: «إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ». ثُمَّ عَقَّبَ بَعْدُ، فَقَالَ: «فَإِذَا لَمْ يَثْبُتْ عَنْ غَيْرِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وابْنِ الزُّبَيْرِ مِنَ الصَّحَابَةِ خِلَافُ الجَهْرِ الَّذِي صَحَّ عَنْهُمَا، فالقَلْبُ يَطْمَئِنُّ لِلأَخْذِ بِذَلِكَ أَيْضاً، وَلَا أَعْلَمُ الآنَ أَثَراً يُخَالِفُ ذَلِكَ. واللَّهُ أَعْلَمُ»[٣٠].

وَقَدْ فُعِلَ ذَلِكَ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ، إِنْكَارُهُ، وما تَمَسَّكَ بِهِ القائِلُونَ بِعَدَمِ الجَهْرِ لَيْسَ صَرِيحاً في دَلَالَتِهِ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ بِالتَّأْمِينِ، وَحَضَّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُؤَمِّنُ،

---

٢٧ - سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢/٣٦٩.

٢٨ - المصنف ٢/٩٧ رقم ٢٦٤٣.

٢٩ - السنن الكبرى ٢/٥٩.

٣٠ - سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢/٣٦٩.

ويَرْفَعُ صَوْتَهُ، ومَعْلُومٌ أَنَّهُ قَدْ قَالَ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي». وَهَذَا أَمْرٌ عَامٌّ يَتَنَاوَلُ التَّأْمِينَ وَغَيْرَهُ، وَإِخْرَاجُ الجَهْرِ بالتَّأْمِينِ مِنْهُ يَحْتَاجُ إلى مخصص يُخَصِّصُهُ كالسُّكُوتِ والإمام يَقْرَأُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ومَعْلومٌ أَنَّ التَّأْمِينَ في الصَّلَاة تابِعٌ لِلْقِرَاءَةِ، فَإِنْ كَانَتْ جَهْرِيَّةً جَهَرَ بها، وإن كانَتْ سِرِّيَّةً أَسَرَّ بها.

وهَذَا لَيْسَ مَكَانَ تَفْصِيلِ هَذِهِ المَسَائِلِ فَلْتُرَاجَعْ في مَوَاطِنِهَا مِثْل المجموع للنَّوويِّ ٣/٢٩٩ ـ ٣٠٦ والمغني ١/٤٨٩ ـ ٤٩١ والسُّنن الكبرى للبيهقيِّ ٢/٥٥ ـ ٥٩ والاستذكار لِابْنِ عَبْدالبَرِّ ٢/١٩٥ ـ ١٩٩ وغيرها.

* * * *

وَقَدْ وَرَدَ في فَضْلِ التَّأْمِينَ أَخْبَارٌ، منها:

١ ـ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَالَ: «إذا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الملَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» رواه البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ.[٣١]

٢ ـ مَارَوَتْهُ عائِشَةُ رَضِيَ الله عنها وَعَنْ أَبِيهَا، قَالَتْ: بَيْنَمَا أَنَا قَاعِدَةٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ جَاءَ ثلاثَةُ نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فاسْتَأْذَنَ أَحَدُهُمْ وَذَكَرَ... الحَدِيثَ وفِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَالَ: تَدْرِينَ عَلَى مَا حَسَدُونَا، قُلْتُ: اللَّهُ ورسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: فَإِنَّهُمْ حَسَدُونا عَلَى القِبْلَةِ الَّتِي هُدِينَا لَهَا وضَلُّوا عَنْهَا، وعلى الجُمُعَةِ الَّتِي هُدِينَا لَهَا وضَلُّوا عَنْهَا، وعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الإمام آمِينَ».[٣٢].

---

٣١ ـ البخاري (كتاب الأذان باب جهر الإمام بالتأمين) ٢/٢٦٢ ومسلم (كتاب الصّلاة باب التسميع والتحميد) ٢/٥١ ـ ٥٢.

٣٢ ـ المسند (حديث عائشة) ٦/١٣٤ ـ ١٣٥ والسنن الكبرى للبيهقي ٢/٥٦ واللّفظ له.

ورَوَاه ابن ماجه بلفظ «مَا حَسَدَتْكُمُ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَاحَسَدتْكُمْ عَلَى السَّلَام وَالتَّأْمِين»[٣٣].

ورُوِي عن ابن عَبَّاس نَحْوٌ مِنْ هذا في التَّأْمِين[٣٤].

٣ - مارَوَاه ابن مَرْدُويه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قَالَ: «آمين: خاتم رَبِّ العالمين على عِبَادِه المُؤمنين».

٤ - وعَنْ أَنَسٍ قال: قال رسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: أُعْطِيتُ آمِينَ في الصَّلَاةِ، وعِنْدَ الدُّعَاءِ، لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوسَىٰ، كَانَ مُوسَىٰ يَدْعُو وَهَارُونُ يُؤَمِّنُ. فاخْتِمُوا الدُّعَاءَ بِآمِينَ، فَإِنَّ اللَّه يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[٣٥].

٥ - ما أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ نافعٍ أَنَّ ابنْ عُمَرَ كَانَ إِذَا خَتَمَ أُمَّ القُرْآنِ قَالَ: آمِين، لا يَدَعُ أَنْ يُؤَمِّنَ إذا خَتَمَها، وَيَحُضُّهُمْ على قَوْلِهَا. قَالَ: وسَمِعْتُ مِنْه في ذلك خَبراً»[٣٦].

وبَعْدَ هَـٰذَا الحَدِيثِ عَنْ «آمِينَ» يَجْمُلُ بِنَا أَنْ نَأْتِيَ إِلَى الكِتَابِ الَّذِي نُقَدِّمُهُ، فنقول:

هَـٰذِه رِسَالَةٌ صَغِيرَةٌ، تَنَاوَلَتْ آمِينَ بالبَحْثِ والدَّرْسِ مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ، جَمَعَ فِيها مُؤَلِّفُهَا أَقْوَالاً لسابِقِيه، بَعْضُها مِنْ كُتُبٍ لَمْ تَصِلْ إِلَيْنَا، وَبَعْضُها مِنْ مَصَادِرَ انْتَهَتْ إلينا، عَرَفَهَا النَّاس وتداولوها، أَوْ بَقِيتْ مَحْفُوظَةً في زَوَايَا المخطوطات.

وَلَمْ يَكُنِ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ - لِيَكْتَفِي بالنَّقْلِ، بَلْ خرج إلى المناقَشَةِ والرَّدِّ وَالتَّرْجِيح. مِمَّا سَنَزِيدُه إيضاحاً فِيمَا بَعْدُ.

---

٣٣ - ابن ماجه (كتاب الإقامة باب الجهر بآمين) ١/٢٧٨ وقال في الزوائد: «هذا إسنادٌ صحيحٌ. ورجالُهُ ثقاتٌ. احتجَّ مسلمٌ بجميع رُوَاتِه».

٣٤ - ابن ماجه ١/٢٧٩ وفي الزوائد «إسناده ضَعِيفٌ لا تُفَاقِهِمْ عَلَى ضَعْفِ طَلْحَةَ بْنِ عَمرو».

٣٥ - تفسير ابن كثير ١/٤٩.

٣٦ - المصنف ٢/٩٧ رقم ٢٦٤١.

فَمَنْ هُوَ المُؤلّف ؟[٣٧]

إنَّهُ عَلَمٌ مِنْ أَعْلاَمِ الحَنَابلَةِ في بَغْدَاد، حاضِرَة العالم الإسلامِيِّ آنَذَاكَ، عاشَ في القَرْنِ السَّادس، وأَدْرَكَ في طُفُولَتِه آخر القرن الخامِس ، إذْ وُلِدَ سَنَةَ اثنتين وتِسْعِينَ وأَرْبَعِمائةٍ، وتُوفِّي سَنَةَ سَبْعٍ وسِتِّينَ وخَمْسِمائة .

إنَّه عَبْدُاللَّه بنُ أَحْمَدَ بن أحمد بن عبدالله بن نصرِ بن الخَشَّابِ البَغْدَادِيُّ النَّحْوِيُّ المُحَدِّث، ذُو المَعْرِفَةِ بالشِّعْرِ والفَرَائض والحساب والقِرَاءات .

أَخَذَ عَنْ مَشَايِخ عَصْرِه، ومنهم :

١ ـ أَبُوالقاسِم عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ الرَّبَعِيُّ .

٢ ـ أُبَيٌّ النَّرسِيُّ .

٣ ـ يَحْيَىٰ بْنُ عَبْدِالوَهَّابِ بْنِ مَنْدَه .

٤ ـ أَبُوعَبْدِ اللَّهِ البَارع .

٥ ـ أَبُوغالِب البَنَّاءُ .

٦ ـ هِبَةُ اللَّهِ بْنُ الحُصَيْنِ .

وأَخَذَ العَرَبِيَّةَ وعُلُومَهَا عن أبي بكر بْنِ جَوَامرد القَطَّانِ النَّحْوِيِّ، ثُمَّ عَنْ أَبي الحَسَنِ عَلِيِّ بْن أبي زَيْدٍ الفَصِيحِيِّ الأَسْتَرَابَاذِيِّ ، ثُمَّ عَنِ الشَّرِيفِ أَبي السَّعَادَاتِ الشَّجَرِيِّ،

---

٣٧ ـ مصادر ترجمته :

ـ المنتظم لابن الجوزيّ ١٠/٢٣٨ .

ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢/٩٩ ـ ١٠٣ وانظر المصادر المدوّنة في هامشة .

ـ معجم الأُدَباءِ لياقوت ١٢/٤٧ ـ ٥٣ .

ـ سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٢٣ ـ ٥٢٨ وانظر مصادر ترجمته في هامشة .

ـ ذيل طبقات الحنابلة ١/٣١٦ ـ ٣٢٣ .

ـ الترجمة المستوفاة التي كتبها عليّ حيدر في مقدمة تحقيقه لكتاب المرتجل .

وعن هذه المصادر أخذت ماكتبته عن ابْنِ الخَشَّاب .

وقَاطَعَه، ورَدَّ عَلَيْهِ، وأبي عَليٍّ الحَسَن بْن عَليٍّ المحوَّليِّ، وَأبي مَنْصُورٍ الجَوَالِيقيِّ، وغير هَؤُلاءِ، فاقَ أَقْرَانَهُ في عُلُوم العَرَبيَّةِ نَحْواً وَلُغَةً وشعراً وأدباً، وجَمَعَ مِنْ كُتُبِ العِلْمِ الشيْءَ الكَثِير.

وَأَقْبَلَ الطُّلاَّب عَلَيْهِ بَلِ ازدَحمُوا، وَصَار مَأْمُهُمْ ومَقْصَدَهُمْ بَعْدَ أَنْ صَارَ إِمَامَ أَهْلِ عَصْرِه في عِلْمِ العَرَبيَّةِ، قَالَ المُوفَّقُ بْنُ قُدْامَة:
«حَضَرْتُ كَثِيراً مِنْ مَجَالِسِه، ولَمْ أَتمكَّنْ مِنَ الإِكْثَارِ عَنْهُ لِكَثْرَةِ الزِّحامِ عَلَيْهِ». وكان مِنْ تَلاَمِيذِه السَّمْعاني، وأَبُو اليُمْنِ الكِنْدِيُّ، والحافِظُ عَبْدُالغَنِيِّ، والشَّيْخ مُوَفَّق الدِّين بن قُدَامَة، وأبو البَقَاءِ العُكْبُرِيُّ، ومُحَمَّدُ بْنُ عِمَادٍ، وفخر الدِّين بن تَيْمِيَّةَ، ومنصور بن أحمد بن المعوّج.

وَكَانَ فِيهِ ـ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ـ صِفَاتٌ غَيْرُ مَرْضِيَّةٍ؛ إِذْ كَانَ ضَيِّقَ العَطَنِ، ضَجُوراً، يُبَالِغُ في بَذَاذَتِهِ حَتَّى تَبْلُغ الغَايَةَ مِن القَذَارَةِ، في ثَوْبِهِ ومَسْكَنِهِ وَكَانَ قَلِيلَ المُبَالاَةِ بحفظ نامُوسِ العِلْمِ والمَشْيَخَةِ، فَكَانَ يَلْعَبُ بالشطرنج على قَارِعَةِ الطَّرِيقِ مَعَ العَوَامِّ، ويُمَازِجُ السُّفَهَاءَ في الشَّوَارِعِ، ويقِفُ على حلقِ المُشَعْبذِينَ، وأَصْحَابِ اللَّهْوِ، ومَنْ يَلْعَبُ بالقِرَدَةِ والدِّبابِ مِنْ غَيْرِ مُبَالاَةٍ، «وَلَمْ يَكُنْ في دِينِهِ بِذَاكَ» إلى جانبِ صِفَاتٍ أُخْرَى ذَمُّوه فيها.

ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَثْنَىٰ العُلَمَاءُ على عِلْمِه، قَالَ المُوَفَّقُ: «كَانَ حَسَنَ الكَلاَمِ في السُّنَّةِ وشَرْحِها». وقال ابن النَّجَّار: «كَانَ ثِقَةً». وكانَ يُدِيمُ القِرَاءَةَ مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ، ولهَ مَعرفَةٌ تامَّةٌ بالحَدِيث، وكَانَ مُتْقِناً لما يَقْرَأُ ضَابطاً، كَتَبَ بِخَطِّهِ المَلِيحِ المَضْبُوطِ شَيْئاً كَثِيراً، وقال المُوَفَّقُ: كان إماماً في عصره في عِلْمِ العَرَبيَّةِ والنَّحْوِ واللُّغَةِ، وكَانَ عُلَمَاءُ عَصْرِه يَسْتَفتُونَهُ فِيها، ويَسأَلُونَهُ عَنْ مُشكِلاَتِهَا». وقَدْ بَالَغَ بَعْضُهُمْ ففضلَهُ عَلَى أَبي عَليٍّ الفَارِسِيِّ، وذَكَرُوا عَنْهُ التَّواضُعَ واطِّراح التَّكلف، والتَّشدُّدَ في السُّنَّةِ، والتَّظَاهُرَ بها في مَحَافِلِ علومه ومجالسِ تلاميذه وأصحابه.

وكَانَ يَنْتَحِلُ مَذْهَبَ الإمامِ أَحْمَدَ وَيَنْتَصِرُ له عَلَى غَيْرِهِ مِنَ المَذَاهِبِ، ويصرّحُ ببراهينِهِ وحججه على ذلك. وكان مَعْروفاً بالمِزَاحِ والدّعابة، ولَهُ أَخْبارٌ في ذَلِكَ، وَلَعَلّ هذه الصِّفَاتِ تَرْجَحُ بِمَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ المَثَالِبِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِمِثْلِهِ. ولم يُخَلِّفْ ذُرِّيَّةً إِذْ لَمْ يَتَزَوَّجْ.

وله تصانِيفُ عـدة، ذكروا منها:

١ ـ المرتجل في شَرْحِ جُمَلِ عبدالقاهر، وَقَدْ طُبِعَ.

٢ ـ شرح اللمع لابن جني، ولم يُتِمَّهُ.

٣ ـ شرح مقدمة الوزير ابن هُبَيْرَةَ، في النّحو، لم يُتِمَّهُ.

٤ ـ الرَّدّ على الخطيب التَّبْرِيزيِّ في تَهْذِيبِ إصلاح المنطق لابن السِّكِّيت.

٥ ـ حاشية على دُرَّةِ الغَوَّاص.

٦ ـ الرَّدُّ على أَمالي ابن الشَّجَرِيِّ.

٧ ـ الرَّدُّ عَلى ابْنِ بابشـاذ.

٨ ـ أَغْلَاط الحَرِيريِّ في مَقَاماتِهِ.

٩ ـ القصيدة البـديعة الجامعة لأشتاتِ الفَضَائل والرُّمُوزِ العِلْمِيَّةِ، تَحَدّىٰ بِهَا ابْنَ الدَّهَّانِ[٣٨]. ومنها نسخة في دار الكتب المصرية برقم ٣٩٠٨، وأَوْرَدَها السبكيُّ في طبقات الشافعية الكبرى ٩/١١٦ ـ ١٢٣ وانظر ٥٩٠ ـ ٥٩٤.

١٠ ـ جَوَابُ المسائل الإسكندرانية في الاشتقاق.

١١ ـ اللُّمْعَةَ في الكلام على لَفْظَةَ آمين. وهُوَ الكِتابُ الَّذِي نُقَدِّمه في هذا العمل.

وَصَلَ إلينا مِن كتابة «اللُّمْعَة» نسخة واحِدَةٌ محفوظة في مكتبة كوبريلي في إسطمبول برقم ١٣٩٣.

---

٣٨ ـ كذا ذكر، والذي على الورقة الأولى من المخطوطة. «.. وبعث بها إلى الإمام كمال الدين عبدالرحيم الأنباريّ» وأشار إليه بقوله في القصيدة:

وحُثّا إلى عَبْدِالرَّحِيمِ رِكائبـاً ... تُحاكِي قِسِيَّ النَّبْعِ فَوْقَ أَسْهُمَا

وعنوانها «لُمْعَةٌ في الكَلَامِ على لَفْظَهِ آمِينَ المستعْمَلَةِ في الدُّعَاءِ وحُكْمِهَا في العَرَبِيَّةِ». جمعها الشيخ الإمام أبو محمد عبدالله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بْن الخَشَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذه الرسالة ضمن مجموع تقع فيه مِنْ ٤٦ أ إلى ٥٠ ب.

وهِيَ نُسْخَةٌ معتنىً بها يَرُوقُكَ ضَبْطُهَا وإتْقانها، منقولَةٌ مِنْ خَطٍّ نُقِلَ مِنْ خطِّ المصنِّفِ ابْنِ الخَشَّاب، وَوَقَّعَ عَلَيْهِ بِخَطِّهِ «هَـذَا صَحِيحٌ. وكتب عبدالله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن الخَشَّابِ بِخطِّهِ في التاريخ حامداً للّهِ تَعَالَىٰ، ومُصَلِّياً على رسُولِهِ محمَّدٍ المصطفى».

وعليها سَمَاعُ نَصُّهُ «الحَمْدُ لِلَّه، أَنْهَاهُ قِراءَةً بِقَدْرِ الطَّاقَةِ كاتِبَتُهُ سُليمانُ بن عبدالرحمن المغربي الجربي دَاراً المصريّ مَزَاراً على وَحِيدِ دَهْرِه، وفَرِيد عَصْرِهِ بَقِيَّةِ الأَوائِلِ ومحط رِحَالِ الأَفَاضِلِ الشَّيخ نُور الدِّين البحيريِّ المالِكيِّ أَمْتَعَ اللَّهُ بِوُجُودِه، وذلك في خامِسِ شعبان المبارك سنة ٩٣٦هـ عرف الله خيره وما بعد [هـ].

وتَنَاوَل المُصَنِّفُ في رِسَالَتِهِ هذه المَوْضوعاتِ الآتية:

١ - آمين هَلْ هِيَ اسْمٌ أَوْ فِعْلٌ أَوْ حَرْفٌ ؟
٢ - لُغَـات آمين.
٣ - هَل الكَلِمَةُ مُعَرَّبَةٌ ؟
٤ - تعليل بِنَائِها على الفتح.
٥ - الرَّدّ على مَنْ قَالَ: آمِين اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ.

* * * *

فَأَمَّـا لُغَـاتُ آمِينَ فذكر منها ثلاثاً وترك لُغَةً رَابِعَةً لَمْ يَذْكُرْها، قال ابن حجر في الفتح: «آمين - وهي بالمدِّ والتخفيف في جَمِيعِ الرِّواياتِ، وَعَنْ جَمِيعِ القُرَّاءِ، وحَكَىٰ

الواحِدِيُّ عَنْ حَمْزَةَ والكِسائيِّ الإمالَةَ، وفيها ثلاثُ لُغاتٍ أُخْرَى شَاذَّةٌ:

ـ القَصْرُ، حكاه ثعلبٌ، وأَنْشَدَ لَهُ شَاهِداً، وأَنْكَرَه ابْنُ درستويه، وطَعَنَ في الشَّاهِدِ بِأَنَّهُ لِضَرُورَةِ الشِّعْرِ، وحَكَىٰ عِيَاضٌ ومَنْ تَبِعَهُ عَنْ ثَعْلَبٍ أَنَّهُ إِنَّما أجازَهُ في الشِّعْرِ خاصَّةً.

ـ والتَّشْـدِيدُ مَعَ المَدِّ والقَصْرِ، وخَطَّأَهُمَا جَماعَةٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ»[39]. فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ المُصَنِّفَ لم يَذْكُرِ الإِمَالَةَ ـ وهي فَرْعٌ عَنِ اللُّغَةِ المَشْهُورَةِ، ولَيْسَتْ بِرأْسٍ في نَفْسِهَا. ولم يَذْكُرِ التَّشْدِيدَ مَعَ القَصْرِ.

وحَكَىٰ الواحِدِيُّ آمِّين بالمَدِّ وتَشْدِيدِ الميم. قال: رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ، والحُسَيْنِ أبي الفضل، قَالَ: ويُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ جَاءَ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ أَنَّ تَأْوِيلَهُ قَاصِدِينَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ الكَرِيمُ مِنْ أَنْ تخيب قَاصِداً، وحَكَىٰ لُغَةَ الشَّدِّ أَيْضاً القَاضِي عِيَاضٌ، وهِي شَاذَّةٌ مُنْكَرَةٌ مَرْدُودَةٌ. ونَصَّ ابْنُ السِّكِّيتِ وسَائِرُ أَهْلِ اللُّغَةِ عَلَى أَنَّهَا مِنْ لَحْنِ العَوَامِّ، ونَصَّ أَصْحَابُنَا (يَقْصِدُ الشافعية) في كتب المَذْاهَب على أَنَّها خَطَأٌ.

قال القاضِي حُسَيْنٌ في تَعْلِيقِهِ: لَا يجُوزُ تَشْدِيدُ الميم، قَالُوا: وهَـٰذا أَوَّلُ لَحْنٍ سُمِعَ مِنَ الحُسَيْنِ بن الفضل البَلْخِيِّ حِينَ دَخَلَ خُراسَانَ. وقالَ صَاحِبُ التَّتِمَّهِ: لا يَجُوزُ التَّشْدِيدُ، فَإِنْ شَدَّدَ مُتَعَمِّداً بَطَلَتْ صَلَاتُهُ.

وقـالَ الشَّيْخُ أَبُـو مُحَمَّدٍ الجُوَيْنِيُّ في التَّبْصِرَةِ، والشَّيْخُ نَصْرٌ المقدسيُّ: «لا تَعْرِفُهُ العَرَبُ وإِنْ كَانَتِ الصَّلَاة لا تَبْطُلُ بِهِ لِقَصْدِهِ الدُّعَاءَ، وهَـٰذا أَجْوَدُ مِنْ قَوْلِ صَاحِبِ التَّتِمَّةِ»[40].

---

٣٩ ـ فتح الباري ٢/٢٦٢.

٤٠ ـ المجموع ٣/٣٠١ـ٣٠٢.

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بتعْريب الكَلِمَة فَقَدْ نَقَلَ رَأْيَ ابْنِ دَرَسْتَوَيْهِ أَنَّهَا كَلِمَةٌ عِبْرَانِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ، ولَمْ يُنكِرْهُ، وأَنْكَرَ عَلَى أَبِي هِلَالٍ زَعْمَهُ حينَ قَالَ: «وعَنْدَنَا أَنَّهَا كَلِمَةٌ فارسِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ، وأَصْلُها «آذُونَ» أَيْ كذا يَكُونُ. ثُمَّ قَالَ: وأَنَا لَا أَدْرِي ما هَـٰذِه الفارِسِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو هِلالٍ، وفي رسالة المنشي أَنَّ «آمِينَ» صَوْتٌ سُمِّيَ بِهِ الفِعْلُ الَّذِي بِمَعْنَىٰ اسْتَجِبْ كَرُوَيْدَ. وقِيلَ: تَعْرِيب هَمِينْ أَيْ هَمِين مِيْ خَوَاهَدْ أَوْ هَمِينْ مِيْ بَايْدَ[41].

وعبـارتُهُ تشعر بتضعيفِ التعريب، وقد أَحْسن بذلك صُنْعاً؛ لأَنَّهُ «اسْمُ فِعْلٍ عَرَبِيّ، وَقِيلَ: إِنَّهُ غَيْرُ عَرَبِي، لأَنَّ فاعِيلَ لَيْسَ مِنْ أَوْزَانِهِمْ كقابِيلَ وَهَابِيلَ، ورُدَّ بِأَنَّهُ لَمْ يُعْهَدْ لنا اسْمَ فِعْلٍ عَرَبِيّ، ونُدْرَةُ وَزْنِهِ لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ، وإِلَّا لَزِم كَوْنُ الأَلِفِ النَّادِرَةِ كُلِّها كَذَلِكَ، ولا قائِلَ بِهِ، عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنَّ أَصْلَهُ القَصْرُ، فَوَزْنُه فَعِيلٌ ثُمَّ أُشْبِعَ؛ لأَنَّهُ لِلدُّعاءِ المُسْتَدْعِي مَدَّ الصَّوْتِ، وفِيهِ أَنَّ دِهْ اسْمُ فِعْلٍ مَعَ أَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ أَعْجَمِيٌّ[42].

وأَمَّا قَوْلُ مَنْ قالَ: إِنَّ آمِينَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَإِنَّ مِنَ المَعْلُوم أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَوْقِيفِيَّةٌ، لا يُثْبَتُ لِلَّهِ مِنْهَا إِلَّا مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم. وقَدْ وَرَدَتْ بَعْضُ الآثارِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا أَنَّ آمِينَ «اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، ومِنْهَا مارَوَاهُ عَبْدُالرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ «عَنْ الثَّورِيِّ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ هِلَالِ بْنِ يِسَاف قال: آمِينَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[43].

---

٤١ - رسالة في التعريب للمنشي ١٣٤.

٤٢ - الطراز لوحة ١٤ ورسالتان في المعرب ١٣٤ وقصد السبيل ص ٩٦ وده اسم فعل عربي مع أنَّ أصله أعجمي. ومنه دِهْد رَين مِنْ أسماء الكذب والباطل من قول سعد القين «ده بدوروز». انظر قصد السبيل ص ٩٦.

٤٣ - المصنف ٢/ ٩٩ وأخرجه ابن أبي شيبة عن جرير، عن منصورٍ به ٢/ ٤٢٦ وفيه أيضاً من طريق وكيع عن سفيان عن منصورٍ به.

وعَنْ بشرِ بْنِ رَافِعٍ عَنْ أبي عَبْدِاللَّهِ، عن أَبِي هُرَيرَةَ: يَقُولُ: كان مُوسَىٰ بن عِمْرانَ إِذَا دعا أَمَّنَ هَارُونُ على دُعائِهِ، قال: وسَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: آمِين اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ[٤٤].

قال الحافِظُ بْنُ حَجَرٍ: «وقِيلَ: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ، وعَنْ هِلالِ بن يساف التَّابعِيِّ مِثْله، وأنكره جَمَاعَةٌ[٤٥]». وأَخْرَجَهُ ابْنُ أبي شَيْبَةَ عن هِلالٍ: أَنَّهُ اسْم مِنْ أَسْماء الله[٤٦].

ولثعْلَب قَوْلٌ بهٰذا، قَالَ في المَجَالِس: آمِين اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ[٤٧].

وهٰذا القَوْلُ لَا يَسْنُدُهُ أَثَرٌ صَحِيحٌ كما رَأَيْتَ، وَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ بِمكَانٍ غَيْرِ مَرْضِيٍّ، أَنْكَرَهُ أَئِمَّتُهُمْ مثل الأَزْهَرِيِّ وَأَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ، وابن الخَشَّاب، وكَذَلِكَ الفُقَهَاءُ مِثْل النَّوَوِيِّ في المجموع ٣٠٢/٣ إِذْ قَالَ: «وقِيلَ: هُوَ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وهٰذَا ضَعِيفٌ جِدّاً». . . وانظر ما نَقَلَهُ المصنِّفُ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ في تَوْهِينِ هٰذَا القَوْلِ ورَدِّه[٤٨].

• وَقَدْ أَبَانَ ابن الخَشَّاب عَنْ مَصَادِره في هذه الرسالة، فكانَ مِنْ تِلْكَ المَصَادِرِ:

١ ـ فَصِيح ثعلب.

٢ ـ شرح الفَصِيح لابن دَرَسْتَوَيْهِ.

٣ ـ شَرْح الفَصِيح لِأَبِي هِلَالٍ العَسْكَرِيِّ.

٤ ـ شرح الفَصِيح لِأَبِي الفتح محمّدِ بْنِ عِيسَىٰ بْنِ عُثْمَانَ العَطَّار النَّحْوِيِّ.

---

٤٤ ـ المصنف ٩٩/٢.

٤٥ ـ الفتح ٢٦٢/٢.

٤٦ ـ المصنف ٤٢٦/٢ وانظر ما تقدم هامش رقم (٤٣).

٤٧ ـ المجالس ١٢٦.

٤٨ ـ انظر ص ١٧٣ ـ ١٧٦.

٥ ـ شرح الفَصِيح للمرزوقِيّ.

٦ ـ المسائل الحَلَبِيَّاتُ لِأَبي عَليٍّ الفَارِسِيِّ.

وبعض هذه المصادر انْتَهَىٰ إِلَيْنَا واطَّلَعْنَا عَلَيْهِ، وبعضها انتهى إلينا خَبَرُهُ، وبعضها عرفناه مِنْ خِلال هَذِهِ الرِّسالَةِ.

وما أُرَىٰ أَنَّ هذه الرسالَةَ تَحْتَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ هَـٰذَا، وأَخْشَى أَنْ أُمِلَّ القارِىء بكلامٍ قَدْ يَرَى أَنْ لا طائل تَحْتَهُ، ورَغْبَةً مِنِّي أَلَّا أَحُولَ بين القارىء وما كتبه ابْنُ الخشَّاب، وأَلَّا أُدَافع تِلْكَ الرَّغْبَة أَدَعُهُ وكِتَابَ اللمعة، نفعنا اللَّهُ بها عَلَّمَنَا، وجَعَلَ هذا العَمَلَ لِوَجْهِهِ خالِصاً. وَتَقَبَّلَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وصلّى اللَّهُ وسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصحبه.

لُمْعَةٌ في الكَلَام على لَفْظَة آمِينَ
المُسْتَعْمَلَةِ في الدُّعاءِ وحُكْمِهَا في العَرَبِيَّةِ

جَمَعَها الشَّيْخُ الإمام أَبُو مُحَمَّدٍ عبدالله بْنُ أَحْمَدَ
ابن أحمد بن أحمد بن الخشاب رحِمَهُ اللَّهُ

بســـــم الله الرحمن الرحيم
وبه أَسْتَعِينُ

القَوْلُ في آمِينَ وحُكْمِهَا في العربيَّةِ.

لا تَخْلُو هَـٰذِهِ الكَلِمَةُ مِنْ أَنْ تكونَ اسْماً أَوْ فِعْلاً أو حَرْفاً. فَكَوْنُهَا غَيْرَ فِعْلٍ ظاهِرٌ؛ لِأَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْ صِيَغِ الأَفْعالِ المَوْجُودَةِ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ مَاضٍ وَمُضَارِعٍ وفِعْلِ أَمْرٍ، سَواءٌ قُصِرَتْ فَكَانَتْ عَلَى وَزْنِ فَعِيلٍ كَقَوْلِكَ أَمِينَ أَوْ مُدَّتْ فكانَتْ على وَزْنِ فَاعِيلَ كآمِينَ. فإذا لم تكن فِعْلاً بَقِي أَنْ تَكُونَ اسماً أَوْ حَرْفاً، فَلَا تَكُونُ حَرْفاً لِأَوْجُهٍ مِنْها:

أَنَّ الحُرُوفَ مَعَانِيهَا في غيْرِهَا مِنَ الاسْتِفْهَامِ والنَّفْيِ وَالشَّرْطِ وَغيْرِ ذَلِكَ. والأَسْمَاءُ معانيها في أَنْفُسِهَا. ولهذا قِيلَ في حَدِّ الاسْمِ: كُلُّ لَفْظٍ دَلَّ عَلَى مَعْنىً في نَفْسِهِ غَيْرِ مُقْتَرِنٍ بِزَمَانٍ مُحَصَّلٍ.

وآمِينَ كَلِمَةٌ مَعْنَاهَا في نَفْسِهَا لَا في غَيْرِهَا، فَثَبَتَ أَنَّها اسْمٌ لَا حَرْفٌ.

ومنها أَنَّ الأَسْمَاءَ عِنْدَ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ هِيَ الأُصُولُ. فَإِذا جُهِلَ حُكْمُ الكَلِمَةِ حُمِلَتْ عَلَى الأَصْلِ فَقُضِيَ بِأَنَّهَا اسْمٌ حَتَّى تَقُومَ دَلَالَةٌ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا أَنَّ مِنَ المُفَسِّرِينَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ومُحَالٌ أَنْ يَكُونَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالىٰ حَرْفاً مِنْ حُرُوفِ المَعَانِي كَهَلْ وَبَلْ وَقَدْ.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: تَفْسِيرُهَا اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ، فَهِيَ عِنْدَ قَائِلِ هَـٰذَا القَوْلِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الأَفْعالِ كَصَهْ وَمَهْ وَإِيْهٍ وَإِيهاً ونَزَالِ وَتَرَاكِ وحَذَارِي وَعَلَيْكَ وإِلَيْكَ ودُونَكَ ومَكَانَكَ وَكَمَا أَنْتَ، ومَا جَرَىٰ هَذَا المَجْرَى مِنَ الكَلِمِ المُفْرَدَةِ والمُرَكَّبَةِ الَّتِي اسْتُعْمِلَتْ أَسْمَاءً لِلأَفْعالِ.

وَأَسْمَاءُ الأَفْعَالِ كُلُّهَا عِنْدَهُمْ أَسْمَاءٌ، ولَيْسَتْ بِحُرُوفٍ؛ لأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى مَا وُضِعَتْ عَلَيْهِ مِنَ الأَفْعَالِ، وَقَامَتْ مَقَامَهُ، دَلاَلَةَ الاسْمِ عَلَى مُسَمَّاهُ.

ومِنْهَا أَنَّهَا فِي اللُّغَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَرَدَتَا فِيهَا عَلَى وَزْنٍ يُوجَدُ نَظَائِرُهُ فِي الأَسْمَاءِ لا فِي الحُرُوفِ والأَفْعَالِ، فَأَمِينَ بالقَصْرِ على فَعِيلٍ كَقَضِيبٍ وَكَثِيبٍ وَرَغِيفٍ وظَرِيفٍ. وآمِينَ عَلَى فَاعِيلَ كَقَابِيلَ وهَابِيلَ ورَاعِيلَ وَحَامِيمَ.

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ[٤٩]: وَإِذَا دَعَا الرَّجُلُ قُلْتَ أَمِينَ بِقَصْرِ الأَلِفِ، وأَنْشَدَ شَاهِداً عَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ:

تَبَاعَدَ مِنِّي فُطْحُلٌ وَابْنُ أُمِّهِ أَمِينَ فَزَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدا[٥٠]

وخَيَّرَ فِي اللُّغَةِ الأُخْرَى، فَقَالَ: وَإِنْ شِئْتَ طَوَّلْتَ الأَلِفَ، وأَنْشَدَ عَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ:

يَارَبُّ لا تَسْلُبَنِّي حُبَّهَا أَبَداً وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْداً قَالَ: آمِينَا[٥١]

قَالَ: وَلاَ تُشَدِّدِ المِيمَ فَإِنَّهُ خَطَأٌ».

---

٤٩ - فصيح ثعلب ٣١٥ - ٣١٦ وفيه زيادة «أَمِينَ [رَبَّ العالمين] بِقَصْرٍ...».

٥٠ - عُزِي البيت في التلويح ٨٦ إلى جُبَيْرِ بْنِ الأَضْبَطِ، وكان سَأَلَ الأَسَدِيَّ خَالَةً فحرمه، والبيت في اللسان (أمن، فحطل، فطحل)، والصحاح (أمن) ٢٠٧٢/٥ ورواية هذه المصادِر مُوافقة لما في الفصيح «إِذْ سَأَلْتُهُ» أو إِذْ «رَأَيْتُه» بدل «وابن أُمِّه».

وَقَدْ ذكر ابْنُ بَرِّيٍّ - كما في اللسان - بَيْتاً آخَرَ قُصِرَتْ فِيهِ آمين:

سَقَى اللَّهُ حَيّاً بَيْنَ صَارَةَ والحِمَى جَنَى فَيْدَ صَوْبَ المُدْجِنَاتِ المَوَاطِرِ
أَمِينَ وَرَدَّ اللَّهُ رَكْباً إِلَيْهِمُ بِخَيْرٍ ووَقَاهُمْ حِمَامَ المَقَادِرِ

٥١ - عُزِيَ البَيْتُ في اللسان (أمن) إلى عمر بن أبي ربيعة، ولم أَجِدْهُ في دِيوانِهِ. والبيت في الصحاح (أمن) غير مَعْزُوٍّ. وعَزَاه الهَرَوِيّ في التَّلْوِيح ٨٦، والمُرْتَضَى في التاج (أمن) لمجنونِ بني عامر، مجنونِ لَيْلَى، قَيْسٍ العامِرِيّ. وانظر ديوانه ص ٣.

قُلْتُ: قَدْ خَيَّرَ ثَعْلَبٌ كَمَا تَرَىٰ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ فِي آمِينَ بين المَدِّ والقَصْرِ، وَقَدَّمَ لُغَةَ القَصْرِ، ولَعَمْرِي إنَّها الكَثِيرَةُ على أَلْسِنَةِ العَامَّةِ مِنْ قَارِيءٍ وغيْرِهِ، فَأَمَّا العَجَمُ فَتَكْثُرُ اللُّغَةُ الأُخْرَىٰ - أَعْنِي المَمْدُودَةَ - عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ بَلْ لا يَكَادُونَ يَسْتَعْمِلُونَ الأُولَىٰ.

فَأَمَّا أَكْثَرُ العُلَمَاءِ بالعَرَبِيَّةِ غَيْرُ[٥٢] ثَعْلَبٍ [لا] سِيَمَا[٥٣] مُفَسِّرِي كِتَابِهِ أَعْنِي مُخْتَصَرَ الفَصِيحِ فَإِنَّهُمْ نَصُّوا عَلَى خِلَافِ ما دَلَّ عَلَيْهِ كَلَامُهُ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ دَرَسْتَوَيْهِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ تَصْحِيحَ الفَصِيحِ: «وَلَيْسَ أَمِينَ بِقَصْرِ الهَمْزَةِ مَعْرُوفاً فِي الاسْتِعْمَالِ، وإنَّما قَصَرَهُ الشَّاعِرُ ضَرُورَةً إنْ كَانَ قَصَرَهُ، وَقَدْ رُوِيَ هَـٰذَا البَيْتُ مَمْدُوداً على غَيْرِ مَا رَوَاه ثَعْلَبٌ، وهو:

فَآمِينَ زَادَ اللَّهُ ما بَيْنَنَا بُعْـدَا[٥٤]

فَهَذَا مَمْدُودٌ لَا ضَرُورَةَ فِيهِ وَهُوَ المَعْرُوفُ، ورَوَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إذا قَالَ الإِمَامُ وَلَا الضَّالِّينَ فَقُولُوا: آمِينَ»[٥٥]. وَلَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ عَنْهُ بالقَصْرِ ولَكِنْ مَمْدُوداً وَهُوَ الأَصْلُ الصَّحِيحُ.

فَلِلشَّاعِرِ أَنْ يَقْصُرَ المَمْدُودَ فِي الشِّعْرِ خاصَّةً إذَا اضْطُرَّ[٥٦] إلىٰ تَقْوِيمِ وَزْنٍ أَوْ قَافِيَةٍ، وَلَيْسَ لِلْمُتَكَلِّمِ فِي غَيْرِ الشِّعْرِ ذَلِكَ.

---

٥٢ - ضُبِطَتْ فِي الأَصْلِ «غَيْرُ» بالرَّفْعِ والجَرِّ، وتَوجِيهُهَا أَنْ تكونَ نَعتاً يَتْبَعُ أَكْثَرَ أو العُلَمَاء.

٥٣ - فِي الأصل «سيا» ويَظْهَرُ أَنَّ «لا» سَاقِطَةٌ، وفِي هَـٰذَا التركيب مخالَفَتان: الأولَىٰ حَـذْفُ الـواو، والثَّانِيَةُ تخفيف سيّ، وهُوَ خِلافُ ما أَوْجَبَهُ ثَعْلَبٌ، وذكر غَيْرُهُ أَنَّهُ قَدْ يُخَفَّفُ، وقَدْ تُحْذَفُ الوَاوُ كقوْلِهِ: فِهْ بالعُقودِ وبالأيمان لا سِيَمَا عَقْدٌ وَفَاءٌ به مِنْ أَعْظَمِ القُرَبِ». (انظر المغني ١٣٩ - ١٤٠.

٥٤ - انظر ماتقدَّم ص١٦٩ وقَدْ أَوْرَدْنا هُنَاكَ بَيْتاً عَنِ ابْنِ بَرِّيٍّ فِيهِ قَصْرُ «آمِينَ» ضَرُورَةً.

٥٥ - مِنْ حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، انظر السنن الكُبْرَىٰ للبيهقيِّ ٢/٥٥ وهُوَ مِنْ أَحاديثِ المُوَطَّإِ (كتاب الصَّلاة باب ما جَاءَ بالتأمين خلف الإمام) ٧٦ رقم ٤٨.

٥٦ - في الأصل «اضْطَرَّ، ويُقَالُ: اضْطَرَّهُ إلى كذا أَحْوَجَهُ، واضْطُرَّ إِلَيْهِ».

وَمَعْنَىٰ آمِينَ اسْمَعْ واسْتَجِبْ، وَيُقَالُ: اللَّهُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ، وَهِيَ كَلِمَةٌ عِبْرَانِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ مَبْنِيَّةٌ على الفَتْحِ لِلْيَاءِ الَّتِي قَبْلَ نُونِهَا، وَقَدْ شَرَحْنَا أَمْرَهَا وَزَوَالَ تَمَكُّنِهَا في كِتَابِنَا في القُرْآنِ». آخِرُ كَلَامِ ابْنِ دَرَسْتَوَيْهِ. وَهُوَ كَمَا تَرَىٰ مُخَالِفٌ لِظَاهِرِ كَلَامِ ثَعْلَبٍ.

وَقَالَ أَبُوهِلَالٍ الحَسَنُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ العَسْكَرِيُّ في شَرْحِهِ لِهَذا الكِتَابِ كَلَاماً قَرِيباً مِنْ مَعْنَى كَلَامِ ابْنِ دَرَسْتَوَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ شَيْئاً غَرِيباً؛ لِأَنَّهُ قَالَ: وَهِيَ كَلِمَةٌ عِبْرَانِيَّةٌ[٥٧] مُعَرَّبَةٌ، ثُمَّ قَالَ: وَعِنْدَنَا أَنَّهَا كَلِمَةٌ فَارِسِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ، وَأَصْلُهَا آذُونَ أَيْ كَذَا يَكُونُ، هَـٰذا آخِرُ كَلَامِهِ، وَأَنَا لَا أَدْرِي مَا هَـٰذِهِ الفَارِسِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو هِلَالٍ.

وَذَكَرَ القَاضِي أَبُو الفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَىٰ بْنِ عُثْمَانَ العَطَّارُ النَّحْوِيُّ صَاحِبُ السِّيرَافِيِّ في شَرْحِهِ لِهَـٰذَا الكِتَابِ كَلَاماً مِثْلَ كَلَامِ ابْنِ دَرَسْتَوَيْهِ، واسْتِدْلَالاً مِثْلَ اسْتِدْلَالِهِ مِنْ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ تَرْوِ آمِينَ إِلَّا بِالمَدِّ، وَذَكَرَ أَنَّ قَصْرَهُ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الشِّعْرِ وَلَيْسَ بِلُغَةٍ.

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ المَرْزُوقِيُّ أَحَدُ أَصْحَابِ أَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ في شَرْحِهِ كِتَابَ الفَصِيحِ: آمِينَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الفِعْلِ، والمَعْنَى اسْتَجِبْ، والقَصْرُ لُغَةٌ فِيهِ، وَإِنَّمَا بُنِيَ عَلَى الحَرَكَةِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، واخْتِيرَتِ الفَتْحَةُ؛ لِأَنَّهَا أَخَفُّ الحَرَكَاتِ[٥٨]، وَلَا يَجُوزُ تَشْدِيدُ المِيمِ مِنْهُ، والعَامَّةُ قَدْ أُولِعَتْ بِهِ، واحْتَجَّ لِلْقَصْرِ بِقَوْلِهِ:

أَمِينَ، فَزَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْـدَا.

قال: «وَقَدْ قَدَّمَ مَا يُخْتَمُ بِهِ الدُّعَاءُ عَلَى الدُّعَاءِ كَأَنَّهُ قَالَ: تَبَاعَدَ مِنِّيَ هَـٰذَا الرَّجُلُ، زَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْداً، أَمِينَ.

---

٥٧ ـ انظر ما تقدَّم ص١٦٤.

٥٨ ـ في اللسان (امن) «وحقُّهما (آمين وأَمين بالمدِّ والقصْرِ) مِنَ الإعْرَابِ الوَقْفُ؛ لأنَّهما بمنزلة الأَصْواتِ إِذَا كانَا غَيْرَ مشتقَّيْنِ مِنْ فِعْلٍ، إِلَّا أَنَّ النُّونَ فُتِحَتْ فِيهِمَا لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ. ولَمْ تُكْسَرِ النُّونُ لثقل الكسرة بَعْدَ الياءِ كما فتحوا أَيْنَ وكَيْفَ».

وَاحْتَجَّ لِلْمَدِّ بِقَوْلِ الآخَرِ:

يَارَبِّ لا تَسْـلُبَنِّي . . . . وَأَنْشَدَ البَيْتَ.

قَالَ: وَفِي البَيْتِ سِوَىٰ المُحْتَجِّ لَهُ أَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ دُعَاءَيْنِ أَحَدُهُمَا لِنَفْسِهِ، والآخَرُ لِمَنْ يُعِينُـهُ بالتَّـأْمِينِ على ما طَلَبَهُ، وإِنَّما قَصَدَ إِلَى تَرْقِيقِ القُلُوبِ لِنَفْسِهِ فِيما اشْتَكَاهُ مِنَ الحُبِّ، وَاسْتَـدْعَـاهُ مِنْ دَوَامِـهِ لَهُ عَلَى مَا بِهِ. وهَـٰذِهِ طَرِيقَةُ أَرْبَابِ الجَلَدِ فِي الهَوَىٰ ومُظْهِرِي التَّلَذُّذِ بِهِ.

قَالَ: «وَلَوْ شَدَّدْتَ المِيمَ مِنْ آمِينَ لَكَانَ مَعْنَاهُ قَاصِدِينَ»[٥٩]. آخر كلام المَرْزوقِيِّ فِي هَـٰذَا الاسْمِ.

قُلْتُ: وَقَدْ نَصَّ كَمَا تَرَىٰ على أَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الأَفْعَالِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَفَا فِي ذَلِكَ أَثَرَ شَيْخِهِ أَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأَنَّهُ نَصَرَ كَوْنَ آمِينَ اسْماً مِنْ أَسْمَاءِ الأَفْعَالِ، وَزَيَّفَ قَوْلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَعَادَ فَتَأَوَّلَهُ فِي مَسْأَلَةٍ ذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ المَعْرُوفِ بالمَسَائِلِ الحَلَبِيَّاتِ، تُعْرَفُ بِمَسْأَلَةِ آمِينَ اسْتَوْفَىٰ الكَلَامَ فِيهَا. وذَكَرَ أَقْوَالَ النَّاسِ فِي هَـٰذِهِ اللَّفْظَةِ، وَطَوَّلَ وعَرَّضَ فِي قَرِيبٍ مِنْ عِشرِينَ قَائِمَةً[٦٠] وأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْقُلُ كَلَامَهُ فِيهَا عَلَى وَجْهِهِ عِنْدَ حُضُورِ نُسْخَتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَمِمَّا أَذْكُرُهُ مِنْ مَعْنَى كَلَامِهِ فِي هَـٰذِهِ الكَلِمَةِ أَنَّهُ ذَكَرَ «أَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِيهَا.

فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الفِعْلِ كَمَا ذَكَرْتُ، ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ[٦١]»، واسْتَدَلَّ على صِحَّةِ القَوْلِ الأَوَّلِ بِمَا رَوَىٰ حَجَّاجٌ عَنِ ابْنِ

---

٥٩ ـ انظر شرح الفصيح نسخة كوبريلي لوحة ١٧٠ ونسخة جامعة اسطمبول لوحة ١٣٧.

٦٠ ـ القائمةُ: الوَرَقَةُ مِنَ الكِتاب. القاموس (قوم).

٦١ ـ الحلبيات ٩٧.

جُرَيْجٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا [يونس : ٨٩] » . قَالَ : كَانَ مُوسَىٰ يَدْعُو وَهَارُونُ يُؤَمِّنُ . وَرَوَىٰ حَجَّاجٌ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : أَمَّنَ هَارُونُ عَلَىٰ دُعَاءِ مُوسَىٰ ، فَقَالَ اللَّهُ : «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ، فَاسْتَقِيمَا»[٦٢] .

قَالَ أَبُوعَلِيٍّ : «فَكَمَا أَنَّ قَوْلَ مُوسَىٰ ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس : ٨] . جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ وَكَلَامٌ تَامٌّ . كَذَلِكَ قَوْلُ هَارُونَ آمِينَ جُمْلَةٌ تَامَّةٌ ، وَكَلَامٌ مُسْتَقِلٌّ[٦٣] ، وَلَوْلَا أَنَّهُ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هَارُونُ دَاعِياً ، كَمَا لَا يَكُونُ آمِراً ، فَكَمَا أَنَّ قَوْلَهُمْ صَهْ بِمَنْزِلَةِ اسْكُتْ ، وَمَهْ بِمَنْزِلَةِ اكْفُفْ ، كَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي الدُّعَاءِ آمِينَ بِمَنْزِلَةِ اسْتَجِبْ ، وَفِيهِ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ مَرْفُوعٌ بِأَنَّهُ فَاعِلٌ كَمَا أَنَّهُ فِي سَائِرِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي يُسَمَّىٰ بِهَا الْفِعْلُ أَسْمَاءٌ مُضْمَرَةٌ مُرْتَفِعَةٌ بِذَلِكَ»[٦٤] ، قَالَ أَبُوعَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ : «وَلِأَنَّهُ دُعَاءٌ يَعْنِي قَوْلَهُمْ : آمِينَ أُخْفِيَ فِي قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ فِي الصَّلَاةِ وَلَمْ يُجْهَرْ بِهِ ؛ لِأَنَّ الْمَسْنُونَ فِي الدُّعَاءِ الْإِخْفَاءُ بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[٦٥] [الأعراف : ٥٥] .

قَالَ : «وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الَّتِي سُمِّيَ بِهَا الْفِعْلُ كَصَهْ وَمَهْ مُضَمَّنَةٌ ضَمَائِرَ مَرْفُوعَةً مُسْتَتِرَةً أَنَّكَ لَمَّا عَطَفْتَ عَلَى الْمُضْمَرِ الْمَرْفُوعِ أَكَّدْتَهُ كَمَا يُفْعَلُ ذَلِكَ فِي لَفْظِ الْأَمْرِ

---

٦٢ - الحلبيات ٩٧ - ٩٨ .

وقولُ مجاهد عند ابن أبي شيبة في المصنف ٢/٤٢٦ من طريق وكيع عن سُفيانَ . عَنْ يونس . عَنْ مجاهدٍ به .

ومِنْ طريق إسماعيل بن علية عَنْ ليثٍ عن مجاهدٍ به .

وقول عكرمة عند الطبري في التفسير ١١/١٦٠ - ١٦١ .

وقد نسب هذا القول أيضاً إلى أبي العالية وأبي صالح ، وحَكيم بن جابر ، وعِكْرِمة ومحمد بن كعب القرظِيّ ، والربيع بن أنس ، وابن زيد . كلهم قالوا : أمين اسْمٌ مِنْ أسماء الله .

انظر مصنف ابن أبي شيبة ٢/٤٢٦ وتفسير الطبري ١١/١٦٠ - ١٦١ وابن كثير ٤/٢٢٦ .

٦٣ - قوله «كَذَلِكَ قَوْلُ هَارُونَ آمِينَ جُمْلَةٌ تَامَّةٌ ، وكلامٌ مستقِلٌّ» ساقِطٌ مِنَ المسائل الحلبيّاتِ المطبوعة ، والمقصود لا يحصل إلَّا بِهَا .

٦٤ - الحلبيات ٩٨ .

٦٥ - الحلبيات ٩٩ .

إِذَا كَانَ فِعْلاً مَحْضاً، فَنَظِيرُ قُمْ أَنْتَ وَزَيْدٌ و ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥ والأعراف: ١٩] » قَوْلُه تَعَالَى «مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ [يونس: ٢٨]». فَمَكَانَكُمُ اسْمٌ لِلْفِعْلِ، ومَعْنَاه اثْبُتُوا، وفيه ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ مَرْفُوعٌ، ولِهذَا لَمَّا عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ «وشُرَكاؤُكُمْ» أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ «أَنْتُمْ»[٦٦]

وَإِذا ثَبَتَ احْتِمَالُ هَـذِهِ الأَسْمَاءِ المُسَمَّى بِهَا الفِعْلُ لِلضَّمِيرِ كَمَا تَحْتَمِلُهُ أَمْثِلَةُ الأَمْرِ ثَبَتَ أَنَّهَا جُمَلٌ كَمَا أَنَّ أَمْثِلَةَ الأَمْرِ مَعَ الضَّمَائِرِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا جُمَلٌ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّ آمِينَ جُمْلَةٌ؛ لأَنَّهُ اسْمٌ لِفِعْلٍ هُوَ دُعَاءٌ، والدُّعَاءُ بِمَنْزِلَةِ الأَمْرِ إِلَّا أَنَّهُ اسْتُعْظِمَ أَنْ يُقَالَ لِلأَعْلَى أَمَرْتُ فَقِيلَ: دَعَوْتُ.

وَإِذا ثَبَتَ أَنَّ آمِينَ جُمْلَةٌ ثَبَتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ مَا هُوَ جُمْلَةٌ بَلْ جَمِيعُ أَسْمَائِهِ عَزَّ وعَلَا أَسْمَاءٌ مُفْرَدَةٌ، صِفَةٌ[٦٧] كَانَ الاسْمُ أَوْ غَيْرَ صِفَةٍ، فَالصِّفَةُ كَالعَالِمِ والقَادِرِ والخَالِقِ والرَّازِقِ، وغَيْرُ الصِّفَةِ مَاكَانَ مَصْدَراً كَالسَّلَامِ والعَدْلِ والإِلَـهِ.[٦٨] وفِيهِ نَظَرٌ، وكِلَا القِسْمَيْنِ خَارِجٌ عَنْ أَسْمَاءِ الأَفْعَالِ، فَهَـذَا التَّقْرِيرُ يُبَعِّدُ أَنْ يَكُونَ آمِينَ اسْماً لِلَّهِ تَعَالَى»، وَحَمَلَ أَبُو عَلِيٍّ مَا رُوِيَ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الحَمِيدِ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ هِلَالِ بْنِ يِسَافٍ، وشَرِيكٌ عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ مِنْ أَنَّ آمِينَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى[٦٩]، على أَنَّ هَـذَا الاسْمَ لَمَّا تَضَمَّنَ الضَّمِيرَ المَرْفُوعَ الَّذِي ذَكَرَهُ،

---

٦٦ - الحلبيات ٩٩.

٦٧ - المقصود بالصفة هنا المشتق.

٦٨ - الحلبيات ١٠٠.

٦٩ - أخرج أثر هلال هذا ابن أبي شيبة في مصنّفه ٢/٤٢٦ بالطريق المذكور، وكذا قول مجاهد انظر ماتقدم ص١٧٢ وقد أوردَهُ مِنْ طريقين.

وأخرج أثر هلال أيضاً عبدالرّزاق في مصنفة ٢/٩٩.

وأخرج عبدالرزاق عن بشر بْنِ رافعٍ عَنْ أبي عَبْدِ اللَّهِ قال: سَمِعْتُ: أبا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: «آمين اسْمٌ من أسماءِ الله عَزَّ وَجَلَّ». المصنف ٢/٩٩.

وَكَانَ ذَلِكَ الضَّمِيرُ مَصْرُوفاً إِلَى اللَّهِ قَالَ: إِنَّهُ اسْمُ اللَّهِ عَلَى هَـٰذَا التَّقْدِيرِ، وَلَمْ يُرِدْ أَنَّ الكَلِمَةَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ دُونَ هَـٰذَا الضَّمِيرِ كَعَالِمٍ وَرَازِقٍ[٧٠]، قَالَ: «فَإِذَا احْتَمَلَ هَـٰذَا الَّذِي وَصَفْتُ لَمْ يَكُنْ فِيما رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ حُجَّةٌ لِمَنْ قَالَ: إِنَّ جُمْلَةَ الكَلَامِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ»[٧١]. قال: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ باسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ الأَفْعَالِ عَلَى ما بَيَّنْتُ لَكَ أَنَّهُ مَبْنِيٌّ كَمَا أَنَّ هَـٰذِهِ الأَسْمَاءَ المَصُوغَةَ لِلأَمْرِ مَبْنِيَّةٌ وَلَيْسَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ اسْمٌ مَبْنِيٌّ عَلَى هَـٰذَا الحَدِّ، فَلَمَّا كَانَ هَـٰذَا الاسْمُ مَبْنِيّاً كَصَهْ ومَهْ ونَحْوِهِمَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ بِمَنْزِلَتِهَا، وَلَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ القَدِيمِ سُبْحَانَهُ إِذْ لَيْسَ فِي أَسْمَائِهِ اسْمٌ مَبْنِيٌّ عَلَى هَـٰذَا الحَدِّ»[٧٢].

واعْتَرَضَ أَبُو عَلِيٍّ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا حَكَاهُ سِيبَوَيْهِ وَعَامَّةُ البَصْرِيِّينَ[٧٣] مِنْ قَوْلِهِمْ: «لَهْيَ[٧٤] أَبُوكَ» فَزَعَمَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِهِ لِلَّهِ أَبُوكَ، وَهَـٰذَا الاسْمُ مَبْنِيٌّ»[٧٥]. وأَطَالَ[٧٦] فِي الجَوَابِ عَنْ هَـٰذَا الاعْتِرَاضِ بِمَا يُخْرِجُ عَنِ الغَرَضِ المَقْصُودِ جَرْياً عَلَى عَادَتِهِ فِي البَسْطِ. وسَأُثْبِتُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى على الوَجْهِ عِنْدَ حُضُورِ كِتَابِهِ المَوْسُومِ بِالحَلَبِيَّاتِ. واللَّهُ المُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ، المُجْزِلُ لِمَنْ أَخْلَصَ لِوَجْهِهِ الثَّوَابَ.

نَقَلْتُهُ مِنْ خَطٍّ نُقِلَ مِنْ خَطِّ المُصَنِّفِ، وَوَقَّعَ عليه بِخَطِّهِ: هذا صحيحٌ، وكتب عبداللَّهِ بن أحمدَ بْنِ أحمدَ بْنِ أحمدَ بْنِ الخَشَّابِ بخطِّه في التَّاريخِ حَامِداً للَّهِ تَعَالَىٰ وَمُصَلِّياً على رسُولِهِ مُحَمَّدٍ المُصْطَفَىٰ. وبهامش الأَصْل «الحَمد لله، أنهاه قِرَاءةً بقدْر

٧٠، ٧١ ـ الحلبيات ص ١٠١.

٧٢ ـ الحلبيات ص ١٠١.

٧٣ ـ هكذا ضُبِطَتْ في الأصل بكسر الباءِ وهُوَ صحيحٌ، وعدَّه بعضهم مِنْ شَاذِّ النِّسبةِ، وبعضهم قال: إنّ البصرة يجوزُ في بنائها ثلاثة أوجُهٍ، والمكسور نسبة إلى المكسور منها.

٧٤ ـ في الأصل «لَهِيَ». وانظر المسألة في البصريات مسألة ١٧٣ ص ٩٠٩ ـ ٩١٢.

٧٥ ـ الحلبيات ص ١٠١.

٧٦ ـ انظر ما أشار إليه المصنف في المسائل الحلبيات ١٠١ ـ ١٢٠ وقد خَصَّ أَبُو عَلِيٍّ. هذه المسألةَ ببحثٍ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ صحيفةً ١٩٦ ـ ١٢٠.

الطَّاقَةِ كاتِبةُ سُلَيْمَان بن عبدالرحمن المغربي الجربي داراً المصري مَزَازاً عَلَى وَحِيدِ دَهْرِهِ وفَرِيدِ عَصْرِهِ بَقِيَّةِ الأَوْائِلِ ومَحَطِّ رِحَالِ الأَفَاضِلِ الشَّيْخِ نُورِ الدِّينِ البحيري المالكي أمتع الله بوجوده، وذلك في خامس شعبان المبارك سنة ٩٣٦ هـ عرف الله خَيْرَه وما بعد [هـ][٧٧].

٧٧ - ما بين الحاضرتين قصر التصوير عنه فاجتهدت في تقديره.

دَلِيل المَرَاجع والمَصَادِر

- الاستذكار / ابن عبدالبرّ (٤٦٣) القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م / المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- الأضداد / محمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨) تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم / الكويت / ١٩٦٠م.
- إنباه الرّواةِ / القفطي (٦٤٦) تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم / ١٣٦٩هـ / القاهرة.
- البحر المحيط / أبوحَيَّانَ النحويّ (٧٤٥) مكتبة النصر / الرياض / صورة.
- تاج العروس / المرتضَىٰ الزَّبيديّ (١٢٠٥) بيروت / صورة.
- التبيان في آداب حملة القرآن / النووي (٦٧٦) / دار المعرفة ومكتبة الغزاليّ.
- تفسير القرآن / ابن كثير (٧٧٤) تحقيق البنا ورفيقيه / القاهرة.
- التَّلْويح في شرح الفصيح / أبوسهل محمد بن علي الهروي (٤٣٣) نشر محمد الخفاجي / ط أولى ١٣٦٨هـ. مكتبة التوحيد / القاهرة.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٨م.
- ديوان مجنون ليلى = قيس بن الملوّح.
- ذيل طبقات الحنابلة / ابن رجب (٧٩٥) مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢.
- رسالة في التعريب / لمحمد بدر المنشي (١٠٠١) = رسالتان في المعرّب.
- رسالتان في المعرب / لابن كمال والمنشي / تحقيق د. سليمان العايد / جامعة أم القرى ١٤٠٨هـ.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة / الألباني / المكتب الإسلاميّ.

- سنن ابن ماجه / محمد بن يزيد (٢٧٥) تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي / ١٣٧٢ / القاهرة.
- السنن الكبرى / البيهقي (٤٥٨) صورة عن طبعة الهند.
- سير أعلام النبلاء / الذهبي (٧٤٨) ط أولى / مؤسسة الرسالة / بيروت.
- شرح الفصيح / المرزوقي (٤٢١) نسخة كوبريلي ونسخة جامعة اسطمبول.
- الصحاح / الجوهريّ (٣٩٣) نشر أحمد عبدالغفور عطار.
- صحيح البخاريّ. انظر فتح الباري.
- صحيح مسلم ومعه شرح النوويّ / مسلم بن الحجاج (٢٦١) / دار الشعب.
- طبقات الشافعية الكبرى / السبكي (٧٧١) تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح الحلو / ط. أولى.
- الطراز المذهّب في معرفة الدخيل والمعرب / محمد النهالي (١١٨٦) نسخة بخطّ المؤلّف / مصورة في مكتبة جامعة أمّ القرى برقم (٢١٤١).
- غريب الحديث للحربي (٢٨٥) المجلدة الخامسة منه (تحقيق د. سليمان العايد / جامعة أم القرى / ١٤٠٥ هـ.
- فتح الباري / ابن حجر (٨٥٢) ط. السلفية / ١٣٨٠هـ / القاهرة.
- الفصيح / ثعلب (٢٩١) تحقيق د. عاطف مدكور / دار المعارف / مصر / ١٩٨٤م.
- قيس بن الملوّح ـ المجنون وديوانه / تحقيق د. شوقية إنالجق / أنقرة ١٩٦٧م/ جامعة أنقرة.
- لسان العرب / ابن منظور (٧١١) دار لسان العرب / بيروت.
- مجاز القرآن / أبوعبيدة (٢١٠) تحقيق فؤاد سزكين / ط. ثانية / ١٣٩٠هـ / القاهرة.
- مجالس ثعلب (٢٩١) تحقيق عبدالسلام هارون (١٤٠٨هـ) ط. ثانية / القاهرة.

- المجموع النووي (٦٧٦) تحقيق المطيعي / القاهرة.
- المحلّى / ابن حزم (٤٥٦) القاهرة / ١٣٨٧ هـ.
- المُرْتجل / ابن الخشاب (٥٦٧) تحقيق علي حيدر / دمشق / ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- المسائل البصريات / أبوعلي الفارسيّ (٣٧٧) تحقيق د. محمد الشاطر / مطبعة المدني.
- المسائل الحلبيّات / أبوعلي الفارسي (٣٧٧) تحقيق د. حسن هنداوي / دار القلم / دمشق ١٤٠٧ هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١) المكتب الإسلاميّ / بيروت / صورة.
- المصنف / عبدالرزّاق الصنعاني (٢١١) تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي / ١٣٩٠ هـ.
- المصنف / لابن أبي شيبة (٢٣٥) ط. الدار السلفية / الهند.
- معجم الأدباء / ياقوت (٦٢٦) مكتبة عيسى الحلبي / مصر.
- المغني لابن قُدَامَةَ (٦٢٠) / رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء / الرياض / ١٤٠١ هـ.
- مغني اللبيب / ابن هشام (٧٦١) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد / مصر.
- المنتظم لابن الجوزي (٥٩٧) المطبوع ٥ - ١٠ صورة عن طبعة الهند.
- الموطأ / للإمام مالك بن أنس (١٧٩) تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي / القاهرة.

الإمالة بين النحاة القدامى واللغويين المحدثين

للدكتور
محمد أحمد العمروسي
الأستاذ المساعد في قسم النحو والصرف وفقه اللغة
بكلية اللغة العربية بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنه لا يكاد يخلو كتاب من الكتب النحوية عن ذكر موضوع «الإمالة» بين موضوعات النحو المختلفة ابتداءً من كتاب سيبويه[1] إمام النحاة حتى كتب النحاة المتأخرين، الأمر الذي يدل على أهمية هذا الموضوع عند نحاتنا القدامى، فضلاً على ارتباطه بطريقة من طرق الأداء في القراءات القرآنية عند بعض القراء. ومن ثم سأحاول في هذا البحث - إن شاء الله - إبراز أهم قواعد الإمالة كما نص عليها علماء النحو أولاً، ثم أتناول دراسة هذه الظاهرة من وجهة نظر علماء اللغة المحدثين بعد ذلك.

وينبغي أن يعلم ابتداءً أن المقابلة بين الدراسة النحوية القديمة والدراسة اللغوية الحديثة لهذا الموضوع لا يفهم منها التقليل من شأن النحاة القدامى، أو من جهودهم العظيمة في فهم اللغة والوصول إلى حقائقها؛ فلا بد إذن من أن نضع في أذهاننا أمرين هامين:

١ - بعد المسافة التاريخية بيننا وبينهم، وما يعني ذلك من عدم وجود الوسائل والإمكانات التي هي متاحة الآن لدى المحدثين.

(١) انظر الكتاب: ٣/٣٨٦ - ٣٨٨، ٤/١١٧ - ١٤٤ تحقيق: هارون. والمقتضب للمبرد: ٣/٤٢ - ٥٣ تحقيق: عضيمه، وشرح شافية ابن الحاجب للرضي: ٣/٤ - ٣٠، والفصول الخمسون لابن معطي: ٢٥٦. تحقيق: محمود الطناحي، وتسهيل الفوائد لابن مالك: ٣٢٥ - ٣٢٧ تحقيق بركات. وارتشاف الضرب لأبي حيان: ١/٢٣٨ - ٢٤٩ تحقيق د. مصطفى أحمد النماس والهمع: ٢/٢٠٠، وشرح الأشموني على الألفية: ٤/١٤٢ - ١٥٣، وشرح التصريح للأزهري: ٢/٣٤٦.

٢ ـ أن الفكر الإنساني في زمن نحاتنا القدامى لم يكن قد وصل إلى ما وصل إليه الفكر الإنساني الحديث من الاستعانة بنتائج العلوم المختلفة في معالجة قضاياه المتعددة.

وليس الهدف من هذا البحث هو مجرد تكرار الحديث عن هذا الموضوع كما هو مذكور في كتب النحو، وإنما هدفي أمران:

الأول : توضيح المقصود منه عند النحاة. وإبراز جهودهم التي بذلوها في تقعيد هذا الباب.

الثاني : محاولة الاستعانة بما تقدمه لنا الدراسات اللغوية الحديثة في تفسير ظاهرة الإمالة تفسيراً يكسب الدارس اللغوي مدخلاً جديداً لفهمها .

ولقد قسمت هذا البحث قسمين على النحو التالي:

أولاً : الإمالة عند النحاة القدامى.

ثانياً: الإمالة عند اللغويين المحدثين.

واللهَ ـ سبحانه و تعالى ـ أسأل أن يوفق الجميع لما فيه خدمة لغتنا العربية، وأن ينفع به إنه سميع مجيب.

(١)

الإمالة عند النحاة القدامى

الإمالة «مصدر أملتُ الشيء إمالة إذا عدلت به إلى غير الجهة التي هو فيها، من مال الشيء يميل ميلاً إذا انحرف عن القصد»[٢].

وأما في اصطلاح علماء النحو فقد عرَّفها المبرد بقوله: «وهو أن تنحو بالألف نحو الياء، ولا يكون ذلك إلا لعلة تدعو إليه»[٣]. وقال ابن الحاجب: «الإمالة: أن ينحى بالفتحة نحو الكسرة»[٤].

ولا تعارض بين تعريف المبرد وابن الحاجب، فالعلاقة بين الفتحة والألف وبين الكسرة والياء هي علاقة القصر والطول، فالفتحة هي الحركة القصيرة للألف والكسرة هي الحركة القصيرة للياء، وقد نص على ذلك ابن جنى بقوله: «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو. فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاثة وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة»[٥].

وقد أكَّدَ ابن جنى هذا المعنى أيضاً بقوله: «ويدلُّك على أن الحركاتِ أبعاضُ لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدةً منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه، وذلك

(٢) شرح التصريح: ٣٤٦/٢.

(٣) المقتضب: ٤٢/٣.

(٤) شرح شافية ابن الحاجب للرضي: ٤/٣.

(٥) انظر: سر صناعة الإعراب: ١٩/١.

نحو فتحة عين (عَمر)، فإنك إن أشبعتها حدثت بعدها ألف فقلت: عامر، وكذلك كسرة عين (عِنب)، إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة وذلك قولك: عينب، وكذلك ضمة عين (عُمر)، لو أشبعتها لأنشأت بعدها واواً ساكنة، وذلك قولك: عومر: فلولا أن الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها لما تنشأت عنها ولا كانت تابعة لها[٦].

وإذا تبين لنا أنه لا فرق بين التعبير بالفتحة والتعبير بالألف إلا على اعتبار واحد هو القصر والطول فإننا نجد الرضي يفضل تعريف ابن الحاجب لعمومه وشموله بقوله: «لأن الإمالة على ثلاثة أنواع: إمالة فتحة قبل الألف إلى الكسرة فيميل الألف نحو الياء، وإمالة فتحة قبل الهاء إلى الكسرة، كما في رحمة، وإمالة فتحة قبل الراء إليها، نحو: الكبر، فإمالة الفتحة نحو الكسرة شاملة للأنواع الثلاثة، ويلزم من إمالة فتحة الألف نحو الكسرة إمالة الألف نحو الياء؛ لأن الألف المحض لا يكون إلا بعد الفتح المحض، ويميل إلى جانب الياء بقد إمالة الفتحة إلى جانب الكسرة ضرورة، فلما لزمتها لم يحتج إلى ذكرها»[٧].

وعلى أية حال فقد جمع ابن مالك بين التعريفين السابقين بقوله: «وهي أن ينحى جوازاً في فعل أو اسم متمكن بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء»[٨] وأكد أبو حيان ذلك بقوله: «الإمالة أن ينحى بالألف نحو الياء فيلزم أن ينحى بالفتحة قبلها نحو الكسرة»[٩].

ويطلق مصطلح الإمالة مرادفاً عدة مصطلحات أخرى في كتب التراث النحوي، منها: الإجناح، وهو مصطلح الخليل، يقول سيبويه: «فزعم الخليل أن إجناحَ الألف أخفُّ عليهم، يعني الإمالة»[١٠].

(٦) انظر المرجع السابق: ١/٢٠

(٧) شرح شافية ابن الحاجب للرضي ٣/٤.

(٨) تسهيل الفوائد: ٣٢٥.

(٩) ارتشاف الضرب: ١/٢٣٨.

(١٠) الكتاب: ٣/٢٧٨.

وتسمى الإمالة أيضاً: «الكسر، أي لما فيها من الإمالة إلى الكسر. . . . والبطح، أي لما فيها من بطح الفتحة إلى الكسر أي إمالتها إليها، وأصل بطح الشيء: إلقاؤه ورميه، ويلزمه إمالته. .»[11]، ويقال لها أيضاً: الإضجاع[12].

ولا تستعمل ألفاظ الإضجاع والبطح والكسر إلا في الإمالة المحضة أي الشديدة، أما الإمالة المتوسطة فلها ألفاظ: التقليل أو التلطيف أو بين بين، يقول ابن الجزري:

«والإمالة أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء (كثيراً) وهو المحض، ويقال له: الإضجاع، ويقال له: البطح، وربما قيل له الكسر أيضاً (وقليلاً) وهو بين اللفظين، ويقال له أيضاً التقليل والتلطيف وبين بين، فهي بهذا الاعتبار تنقسم أيضاً إلى قسمين: إمالة شديدة وإمالة متوسطة، وكلاهما جائز في القراءة جارٍ في لغة العرب»[13].

ويقابل مصطلح الإمالة في المعنى عدة مصطلحات أخرى، مثل: الفتح والتفخيم والنصب، يقول ابن الجزري: «والفتح هنا عبارة عن فتح القارىء لفيه بلفظ الحرف، وهو فيما بعده ألف أظهر، ويقال له أيضاً التفخيم، وربما قيل له النصب»[14].

الإمالة ظاهرة لهجية:

يتفق علماء النحو على أن الإمالة ظاهرة لهجية لبعض العرب، يقول الرضي: «وليست الإمالة لغة جميع العرب، وأهل الحجاز لا يميلون، وأشدهم حرصاً عليها بنو تميم»[15]، ويقول أبو حيان: «وأصحاب الإمالة تميم وقيس وأسد وعامة أهل

(١١) انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني: ١٤٣/٤.
(١٢) انظر: شرح الأشموني: ١٤٣/٤.
(١٣) النشر: ٣٠/٢.
(١٤) النشر: ٢٩/٢.
(١٥) شرح شافية ابن الحاجب للرضي: ٤/٣. وكلمة: لغة تعني لهجة.

نجد، وأصحاب الفتح الحجازيون إلا في مواضع قليلة»[16]، وينقل السيوطي هذا المعنى بقوله: «لأن العرب مختلفون في ذلك فمنهم من أمال وهم تميم وأسد وقيس ويمامة أهل نجد، ومنهم من لم يمل إلا في مواضع قليلة وهم أهل الحجاز»[17]، ونقل ابن الجزري عن أبي عمرو الداني قوله: «الإمالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالفتح لغة أهل الحجاز والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس»[18].

وهكذا نرى إجماعاً من النحاة على أن ظاهرة الإمالة كانت تتركز في نطق معظم قبائل أهل نجد.

حكم الإمالة:

مع أن الإمالة ظاهرة لهجية إلا أن حكمها هو الجواز، يقول الرضي: «اعلم أن أسباب الإمالة ليست بموجبة لها، بل هي المجوِّزة لها عند من هي في لغته، وكل موضع يحصل فيه سبب الإمالة جاز لك الفتح»[19]، ويقول السيوطي: «ثم الإمالة جائزة لا واجبة بالنظر إلى لسان العرب»[20]، ويردُّ السيوطي في الإتقان على من حكموا عليها بالكراهة بقوله: «كره قوم الإمالة لحديث: «نزل القرآن بالتفخيم»[21]، وأجيب عنه بأوجه: أحدها أنه نزل بذلك ثم رخص في الإمالة، ثانيها: أن معناه أنه يقرأ على قراءة الرجال لا يخضع الصوت فيه ككلام النساء، ثالثها: أن معناه أنزل بالشدة والغلظة على المشركين.. رابعها: أن معناه بالتعظيم والتجليل، أي: عظموه وبجلوه فخص بذلك على تعظيم القرآن وتبجيله، خامسها: أن المراد بالتفخيم تحريك أوساط

(١٦) ارتشاف الضرب: ١/٢٣٨.

(١٧) الهمع: ٢/٢٠٠.

(١٨) النشر: ٢/٣٠.

(١٩) شرح شافية ابن الحاجب للرضي ٣/٥.

(٢٠) الهمع: ٢/٢٠٠.

(٢١) الحديث في المستدرك على الصحيحين للحاكم: ٢/٢٣١، ويقول الذهبي عنه: «لا والله العوفي مجمع على ضعفه وبكار ليس بعمدة والحديث واه منكر».

الكلم بالضم والكسر في المواضع المختلف فيها دون إسكانها لأنه أشبع لها وأفخم»[٢٢].

ومع هذه الأوجه المتعددة التي خُرِّج بها الحديث فإننا وجدنا ابن الجزري يذكر أن الإمالة من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم معتمداً في ذلك على ما نقله عن أبي عمرو الداني من إسناده حديث حذيفة بن اليمان أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين»[٢٣] قال [الداني] فالإمالة لا شك من الأحرف السبعة ومن لحون العرب وأصواتها»[٢٤].

بل إن البعض قد صرحوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينطق بالإمالة، فقد ذكر السيوطي أن صفوان بن عسال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ: «يا يحي»، فقيل له يا رسول الله تميل وليس هي لغة قريش فقال: هي لغة الأخوال بني سعد»[٢٥].

ولقد ذكر العلماء أن معظم القرّاء العشرة كانوا يميلون إلا ابن كثير[٢٦]، ويستطيع أن يرجع إلى كتب القراءات[٢٧] من يريد الإلمام بمواضع الإمالة في القراءات القرآنية، وسأكتفي هنا بذكر بعض ما يدخل تحت ضابط معين، منها: أن حمزة والكسائي وخلفاً أمالوا كل ألف منقلبة عن ياء حيث وقعت في القرآن، سواء كانت في اسم نحو: الهدى والهوى أو فعل نحو: أتى وأبى[٢٨]. وكذلك أمالوا كل ألف تأنيث جاءت

(٢٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١/٩٣.

(٢٣) الحديث في : جامع الأصول : ٢/٤٥٩ ، ولطائف الإشارات : ٢١٨ .

(٢٤) النشر : ٢/٣٠ .

(٢٥) الاتقان : ١/٩١ .

(٢٦) الاتقان : ١/٩٢ ، ٩٣. وابن كثير هو القارىء المكي المشهور انظر: لطائف الإشارات: صـ ٩٣ ، وغاية النهاية ١/٢٦١ .

(٢٧) انظر النشر : ٢/٢٩ ـ ٩٠، والسبعة : ١٤٥ والكشف: ١/١٦٨.

(٢٨) النشر : ٢/٣٥. وحمزة من قرّاء الكوفة (ت ١٥٦هـ) انظر: غاية النهاية : ١/٥٣٥ ، والكسائي (ت/١٨٩هـ) انظر : غاية النهاية: ٢/٣٣٠. وخلف (ت ٢٢٩هـ) انظر: غاية النهاية : ١/٢٧٢.

من (فَعلى) مفتوح الفاء، نحو مَوتى، أو مضمومها نحو: طُوبى أو مكسورها نحو إحدى[٢٩]. وكذلك أمالوا ما رسم في المصاحف بالياء، نحو متى وبلى[٣٠].

ووافقهم أبو عمرو من جميع ما تقدم على ما كان فيه راء بعدها ألف ممالة بأي وزن كان، نحو: ذكرى وبشرى وأسرى[٣١].

وأمال أبو عمرو والكسائي كل ألف بعدها راء متطرفة مجرورة، سواء كانت الألف أصلية أم زائدة نحو الدار والغار والقهار[٣٢]. وأمال حمزة الألف من عين الفعل الماضي من عشرة أفعال وهي: زاد وشاء وجاء وخاب وران وخاف وزاغ وطاب وضاق وحاق حيث وقعت وكيف جاءت[٣٣].

وأمال الكسائي هاء التأنيث وما قبلها في الوقف، وهي الهاء التي تكون في الوصل تاء آخر الاسم نحو: نعمة ورحمة فتبدل في الوقف هاء، وعندما قيل له: «إنك تميل ما قبل هاء التأنيث فقال: هذا طباع العربية، وقال الحافظ أبو عمرو الداني: يعني بذلك أن الإمالة هنا لغة أهل الكوفة وهي باقية فيهم إلى الآن وهم بقية أبناء العرب يقولون: أخذته أخذه، وضربته ضربه»[٣٤].

وأمال حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو وابن عامر وأبوبكر (آلر) في أول يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر، (وآلمر) أول الرعد[٣٥].

---

(٢٩) انظر النشر: ٢/٣٦.

(٣٠) انظر النشر: ٢/٣٧.

(٣١) النشر: ٢/٤٠. وأبو عمرو هو أبو عمرو بن العلاء من أئمة قراء البصرة المشهورين (ت ١٥٤هـ) انظر: غاية النهاية (١/٣٦٤).

(٣٢) النشر: ٢/٥٤، ٥٥.

(٣٣) النشر: ٢/٥٩.

(٣٤) النشر: ٢/٨٢.

(٣٥) انظر: النشر: ٢/٦٦ وابن عامر هو عبدالله بن عامر انظر: غاية النهاية في طبقات القراء: ١/٤٢٣. وأبوبكر هو: شعبة بن عياش إمام عالم (توفي ١٩٣هـ) انظر: غاية النهاية ١/٣٢٥.

هـل الإمالـة فـرع عن الفتـح ؟ :

اختلف علماء العربية في الإجابة عن هذا السؤال فريقين ؛ منهم من رأى أن الإمالة فرع عن الفتح ، ومنهم من رأى أن كلاً منهما أصل ، وليس أحدهما فرعاً عن الآخر، يذكر ابن الجزري الخلاف في هذا الأمر وأدلة كل فريق بقوله : «وقد اختلف أئمتنا في كون الإمـالة فرعاً عن الفتح ، أو أن كلاً منهما أصل برأسه . . . فذهب جماعة إلى أصالة كل منهما وعدم تقدمه على الآخر، وكذلك التفخيم والترقيق ، وكما أنه لا يكون إمالة إلا بسبب فكذلك لا يكون فتح ولا تفخيم إلا بسبب ، قالوا : ووجود السبب لا يقتضي الفرعية ولا الأصالة ، وقال آخرون : إن الفتح هو الأصل وإن الإمالة فرع ؛ بدليل أن الإمالة لا تكون إلا عند وجود سبب من الأسباب فإن فقد سبب منها لزم الفتح ، وإن وجد شيء منها جاز الفتح والإمالة ، فما من كلمة تمال إلا وفي العرب من يفتحها ، ولا يقال كل كلمة تفتح ففي العرب من يميلها ، قالوا : فاستدْللنا باطراد الفتح وتوقف الإمالة على أصالة الفتح وفرعية الإمالة ، قالوا : وأيضاً فإن الإمالة تصيِّر الحـرف بين حرفـين ، بمعنى أن الألف الممالة بين الألف الخالصة والياء ، وكذلك الفتحة الممالة بين الفتحة الخالصة والكسرة والفتح يبقي الألف والفتحة على أصلهما قالوا : فلزم أن الفتح هو الأصل والإمالة فرع»[٣٦] .

ومع اختلاف الأئمة في هذا الأمر ـ كما صوره ابن الجزري ـ فإن هذا لا يمنع من اعـترافهم جميعاً بأن كلاً من الإمالة والفتح لهجتان فصيحتان صحيحتان نزل بهما القرآن الكريم .

فائـدة الإمالـة :

ذكر السيوطي أن «المقصود بالإمالة تناسب الصوت ، وذلك أن الألف والياء وإن تقاربا في وصف قد تباينا من حيث إن الألف من حروف الحلق والياء من حروف الفم

(٣٦) النشر : ٢/٣١ ، ٣٢ .

فقاربوا بينهما بأن نحوا بالألف نحو الياء ولا يمكن أن ينحى بها نحو الياء حتى ينحى بالفتحة نحو الكسرة فيحصل بذلك التناسب»[٣٧].

وكلام السيوطي هنا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه فقط، وهو أن الغرض من الإمالة تناسب الصوت إلا أننا نختلف معه في قوله: «إن الألف من حروف الحلق، والياء من حروف الفم» وذلك لأن الألف من حروف المد، أو بتعبير المحدثين من اللغويين من الحركات الطويلة التي يحدث حال النطق بها أن يخرج هواؤها حراً طليقاً من الحلق والفم دون أن يقف في طريقه عائق، ودون أن يضيق مجرى الهواء ضيقاً من شأنه أن يحدث احتكاكاً مسموعاً، وهي بهذا تعد الحركة الطويلة للفتحة. كما أن الياء تكون من الحركات الطويلة أيضاً في مثل: (أرمي) (والقاضي)، وهي بهذا الوصف لا يكون لها مخرج أو حيز معين من مخارج النطق، إلا أنها يمكن أن تكون من حروف الفم في مثل: (بَيْت ويَلد)، وهي في مثل هذين المثالين تسمى بنصف الحركة.

على أن ابن الجزري، قد توصل إلى تعليل مقنع بقوله: «وأما فائدة الإمالة فهي سهولة اللفظ، وذلك أن اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع؛ فلهذا أمال من أمال، وأما من فتح فإنه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل»[٣٨].

وقريب من هذا ما ذكره خالد الأزهري بقوله عن الإمالة: «إنما كانت من أجل تناسب الأصوات وصيرورتها من نمط واحد، وبيان ذلك أنك إذا قلت: عابد، كان لفظك بالفتحة والألف تصعداً واستعلاء، فإذا عدت إلى الكسرة كان انحداراً وتسفلاً فيكون في الصوت بعض اختلاف فإذا أملت الألف قرب من الياء وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة فتقارب الكسرة الواقعة بعد الألف وتصير الأصوات من نمط واحد»[٣٩].

---

(٣٧) الهمع: ٢/٢٠٠.

(٣٨) النشر: ٢/٣٥.

(٣٩) شرح التصريح: ٢/٣٤٦.

محـل الإمالـة :

الإمـالة من خواص الأفعال والأسماء المتمكنة، فلذلك لا تطرد في غير المتمكن نحو: (إذا) ، (وما) ، ويستثنى من ذلك الضميران (ها) (ونا) فيجوز إمالتهما لكثرة استعمالهما، قال أبو حيان: «وقد أمالوا من هذا النوع (نا) وألف (ها) نحو: مر بنا، ونظر إلينا، ومر بها ونظر إليها، ويريد أن يضربها وبينها»[٤٠].

وأما ما عرض بناؤه نحو: يا فتى، ويا حبلى فتجوز إمالته، وقد سمع إمالة بعض الأسماء المبنية مثل: متى وأنى وذا الإشارية[٤١]، كما سمع إمالة بعض الأفعال المبنية مثل: عسى، كما سمع إمالة بعض الحروف مثل (بلى)، و (يا) في النداء، و(لا) في قولهم إما لا، وأمال الفراء ألف (لكن) تشبيهاً بألف فاعل، ومنعه الجمهور[٤٢]، وقد اختلف في (حتى) قال أبو حيان: (وأما «حتى» فالعامة فيها على الفتح، وحكى ابن مقسم الإمالة فيها عن بعض أهل نجد وأكثر أهل اليمن)[٤٣]، وذهب سيبويه إلى منع إمالة (حتى) بقوله: «ومما لا يميلون ألفه: حتى (وأمّا) و(إلا) فرقوا بينها وبين ألفات الأسماء نحو حبلى وعطشى»[٤٤].

وإذا سمى بالحروف أميلت، ولذا أميلت الراء في (آلر وألر) في فواتح السور[٤٥] لأنها أسماء ما يلفظ به من الأصوات المقطعة.

أسباب الإمالة :

علم من تعريف الإمالة أن الذي يمال نوعان هما: الألف والفتحة، فتمال الألف نحو الياء، وتمال الفتحة نحو الكسرة، ولكل منهما مواضع تتضح مما يلي:

(٤٠) ارتشاف الضرب : ١/٢٤٥ .
(٤١) ارتشاف الضرب : ١/٢٤٥ .
(٤٢) ارتشاف الضرب : ١/٢٤٦ .
(٤٣) السابق : ١/٢٤٦ . وابن مقسم هو: أبو الحسن أحمد بن مقسم ت ٣٨٠هـ.
(٤٤) الكتاب : ٤/١٣٥ .
(٤٥) النشر : ٢/٦٦ .

أولاً : مواضع إمالة الألف:

ذكر علماء النحو أن الألف تمال نحو الياء في مواضع ستة[٤٦]:

الأول: انقلاب الألف عن الياء متطرفة، سواء في ذلك طرف الإسم نحو: مرمى أو طرف الفعل نحو: رمى، وذكر أبو حيان عن هذا الموضع قوله: «وهو سبب تقديري ضعيف ليس في قوة الكسرة والياء»[٤٧]، وذكر سيبويه أن من العرب من لا يميل ما انقلبت فيه الألف عن ياء[٤٨].

الثاني: الألف الصائرة إلى الياء دون زيادة أو شذوذ، وذلك نحو ألف: ملهى، فإن الألف وإن لم يكن أصلها الياء إلا أنها تصير ياء في التثنية فتقول: ملهيان.

ويتحقق هذا الموضع في كل ما وقعت فيه الألف متطرفة زائدة على الثلاثة نحو: مغزى، وكل ما في آخره ألف التأنيث المقصورة نحو: حبلى[٤٩].

واحترز بقولهم: (دون زيادة) من كل ما فيه ألف ترجع إلى الياء بسبب زيادة كقولهم في تصغير: قفا: قُفَيّ، وفي تكسيره: قُفَى، فلا يمال: قفا لذلك؛ قال سيبويه: «وقد يتركون الإمالة فيما كان على ثلاثة أحرف من بنات الواو، نحو قَفا. . . وذلك أنهم أرادوا أن يبينوا أنها مكان الواو»[٥٠]. واحترز بقولهم: (أو شذوذ) من قلب الألف ياء في الإضافة إلى ياء المتكلم في لهجة هذيل[٥١]، كقولهم: في عصا وقفا:

---

(٤٦) ذكر أبو حيان أن سيبويه قد زاد ثلاثة أسباب شاذة: وهي: شبه الألف بالألف المشبهة بالألف المنقلبة، وفرق بين الاسم والحرف، وكثرة الاستعمال» انظر: ارتشاف الضرب: ١/٢٤٤، والكتاب: ٤/١٣٥، ١٤٠. والهمع: ٢/٢٠٠، والأشباه والنظائر: ٢/١٧٢.

(٤٧) ارتشاف الضرب: ١/٢٤٢.

(٤٨) انظر الكتاب ٤/١٢٠، ١٢٦.

(٤٩) جاء في ارتشاف الضرب: ١/٢٤٢ قوله: «ومال الألف إلى الياء في حال ما أجري مجرى ما انقلبت فيه الألف عن الياء نحو: حُبْلى، فإنها تؤول إلى الياء في حال التثنية والجمع، فتقول: حبليان وحبليات».

(٥٠) الكتاب: ٤/١١٩.

(٥١) في لهجة هذيل تقلب ألف المقصور ياء عند إضافته إلى ياء المتكلم، ثم تدغم الياء في الياء، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهُمُ فتُخُرِّمُوا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ

انظر: أوضح المسالك لابن هشام ٢/٤٠٠.

عصىً وقفىً، ومن قلب الألف ياء في الوقف في بعض اللهجات[٥٢] نحو: عصى وقفى، فلا تسوغ الإمالة لأجل ذلك.

الثالث: الألف الواقعة بدلاً من عين فعل تكسر فاؤه عند إسناده إلى تاء الضمير، سواء كانت تلك الألف منقلبة عن واو، نحو: خاف أم منقلبة عن ياء نحو: باع ودان؛ وذلك لأن هذه الأفعال عندما تسند إلى تاء ضمير تكون على وزن (فِلت) بكسر الفاء.

أما إذا كان الفعل يصير عند إسناده إلى التاء على وزن (فُلت) بضم الفاء نحو: قال وجال امتنعت الإمالة.

وقد وضح أبو حيان الخلاف في هذا الموضع بقوله: «وانقلاب الألف عن عين ياء أو واو في فعل ثلاثي إذا أسند إلى ضمير متكلم أو مخاطب وذهبت عينه وانكسرت فاؤه، وذلك نحو: طاب وجاء وشاء مما هو على فَعَل بفتح العين، وهاب وخاف مما هو على فَعِل بكسرها، فالإمالة لبعض الحجازيين يوافقون بني تميم، وعامتهم فرّق بين ذوات الواو نحو: خاف فلم يمل، وبين ذوات الياء نحو: طاب وهاب فأمال، وبعض النحاة يعبر عن هذا بالإمالة لكسرة تعرض في بعض الأحوال»[٥٣].

الرابع: الألف الواقعة قبل ياء مفتوحة متصلة بها مثل: بايعته، أو الواقعة بعد ياء سواء أكانت متصلة بها نحو: بيان، أم منفصلة بحرف نحو يسار، أو بحرفين ثانيهما (هاء) نحو: أدِرْ جَيْبها. فإن كانت منفصلة بحرفين ليس ثانيهما (هاء) نحو: بيننا، أو بأكثر من حرفين امتنعت الإمالة. يقول أبو حيان: «فالياء تمال الألف لأجلها إذا اتصلت متقدمة نحو: سيَّال وضيّاع وبَيّاع، وهي في المشددة أقوى منها في المخففة، أو انفصلت عن الألف بحرف نحو: شيبان والحيوان، ورأيت زيداً في

(٥٢) هي لهجة لفزارة وناس من قيس يقلبون الألف الموقوف عليها ياء انظر: الكتاب: ٤/١٨١، والمفصل للزمخشري: ٣٤٠، وارتشاف الضرب: ١/٣٩٣.

(٥٣) ارتشاف الضرب: ١/٢٤٣.

الوقف، والإمالة مع الساكنة أقوى منها مع المتحركة، أو حرفين ثانيهما هاء بشرط فتح ما قبلها نحو: بينها، ورأيت يدها، أمالوا بينها كما أمالوا لن ينزعها»[٥٤].

الخامس : الألف الواقعة بعد كسرة أو قبلها، فتمال الألف في نحو: عالِم لوقوع الكسرة بعدها، وفي نحو: كِتاب لوقوعها بعد حرف يلي كسرة، وفي نحو شِمْلال لوقوعها بعد حرفين وليا كسرة، سواء أكان أولهما ساكناً كما مثّل أم كلاهما متحركاً وأحدهما هاء نحو: يريد أن يضربها. «وكلما كانت الكسرةُ أقربَ إلى الألف كانت الإمالةُ أولى، فكِتاب أولى من جِلْباب، وكلما كثرت الكسرات كانت الإمالة أولى، فجليلات أولى من جلباب»[٥٥].

السادس : التناسب، ويتحقق في إحدى صورتين:

الأولى: أن تمال الألف لمجاورة ألف أخرى ممالة، وذلك مثل إمالة الألف الثانية في نحو قولك: رأيت عماداً، لمناسبة الألف الأولى الممالة لأجل الكسرة، ويطلق سيبويه على هذا السبب بأنه الإمالة للإمالة[٥٦].

الثانية : أن تمال الألف لكونها آخر تركيب مجاور لتركيب آخر أميل آخره، وذلك كإمالة ألف (تلا) من قوله تعالى: (والْقَمَرِ إذا تَلَاهَا)[٥٧]، فإنها أميلت لمناسبة ما بعدها مما ألفه أصلها ياء أي قوله (جَلَّاهَا، يَغْشَاهَا).

وقد لخص ابن الجزري أسباب وجود الإمالة في الكلمة في سببين: «المناسبة والإشعار، فأما المناسبة فَقِسْمٌ واحدٌ وهو فيما أميل لسبب موجود في اللفظ، وفيما أميل لإمالة غيره، فأرادوا أن يكون عمل اللسان ومجاورة النطق بالحرف الممال وبسبب الإمالة من وجه واحد وعلى نمط واحد، وأما الإشعار فثلاثة أقسام: أحدها: الإشعار بالأصل، وذلك إذا كانت الألف الممالة منقلبة عن ياء، أو عن واو مكسورة. الثاني:

(٥٤) ارتشاف الضرب : ١/٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٥٥) السابق : ١/٢٣٨ .

(٥٦) انظر الكتاب : ٤/١٢٣ .

(٥٧) سورة الشمس آية رقم : ٢ .

الإشعار بما يعرض في الكلمة في بعض المواضع من ظهور كسرة أو ياء حسبما تقتضيه التصاريف دون الأصل. . . الثالث: الإشعار بالشبه المشعر بالأصل، وذلك كإمالة ألف التأنيث والملحق بها»[٥٨].

موانع إمالة الألف:

يمنع إمالة الألف ثمانية أحرف منها سبعة تسمى بأحرف الاستعلاء هي: الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والغين والقاف، والثامن: الراء غير المكسورة، وقد علل سيبويه ذلك بقوله: «وإنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنّها حروفٌ مستعليةٌ إلى الحنَك الأعلى، والألف إذا خرجتْ من موضعها استعلتْ إلى الحنَك الأعلى، فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية. . وكانت الألف تستعلي، وقربتْ من الألف، كان العملُ من وجهٍ واحد أخفَّ عليهم، كما أن الحرفين إذا تقارب موضعُهما كان رفعُ اللسانِ من موضعٍ واحد أخفَّ عليهم فيدغمونه»[٥٩].

وقريب من هذا ما ذكره الأشموني: «أن السبعة الأولى تستعلي إلى الحنك فلم تمل الألف معها طلباً للمجانسة، وأما الراء فشبِّهت بالمستعلية لأنها مكررة»[٦٠].

وهذه الحروف المانعة من الإمالة إما أن تأتي متأخرة عن الألف، أو متقدمة عليها، فإن تأخرت عن الألف يشترط فيها ـ لكي تمنع الإمالة ـ أن تكون متصلة بها، وذلك نحو: ناصح وناضج وباطل وناظر وفاقد وراغب، فلا تمال الألف في هذه الكلمات لاتصالها بأحد حروف الاستعلاء. أما إذا فصلت هذه الأحرف عن الألف بحرف مثل: ناشط، أو حرفين مثل: مواثيق ومواعيظ فالأكثر عدم الإمالة، وحكى سيبويه أن قوماً أمالوا حين تراخت حروف الاستعلاء عن الألف وهي قليلة[٦١]. وذهب المبرد إلى منع الإمالة في مناشيط وأخواتها[٦٢]،

(٥٨) النشر: ٢/٣٥.

(٥٩) الكتاب: ٤/١٢٩.

(٦٠) شرح الأشموني على الألفية: ٣/١٤٧.

(٦١) انظر الكتاب: ٤/ ١٣٠.

(٦٢) انظر المقتضب: ٣/٤٧.

وجعل أبو حيان الفصل بين حروف الاستعلاء والألف بحرف كعدم الفصل في منع الإمالة بقوله: «وإذا تأخر عن الألف حرف استعلاء متصل نحو: ناقد وعاطس وساقط وعاضب وباخل ولاغب وخاطل أو بينهما حرف نحو: نافخ ونافق وسامط وناهض وواعظ وداحض غلب المستعلى الكسرة، ولا يميلها أحد إلا من لا يؤخذ بلغته، فإن كان الفصل بحرفين نحو: مناشيط ومغاليط ومغاريض ومواعيظ ومباليغ ومنافيخ ومساليخ فالنصب هو الكثير»[٦٣].

أما إذا تقدمت الحروف المانعة من الإمالة على الألف فيشترط فيها ـ لكي تمنع الإمالة ـ أن لا تكون هذه الحروف مكسورة أو ساكنة بعد كسر، فإن كانت هذه الحروف مكسورة مثل: طِلاب وقِتال وغِلاب أو ساكنة بعد كسر[٦٤] مثل: إصْلاح ومِقْدام ومِطْواع وإرْشاد جازت إمالة الألف في كل ذلك.

هل تجوز إمالة الألف مع وجود هذه الحروف الثمانية السابقة؟

سبق أن ذكرت أن هناك حروفاً ثمانية تمنع الألف من الإمالة سواء تأخرت أم تقدمت، ولكن الراء المكسورة تبطل عمل حروف الاستعلاء فترد الكلمة إلى الإمالة، وعلى ذلك يمال نحو: على أبصارهم، ونحو: غارم، وضارب، ولا أثر لحروف الاستعلاء ولا للراء غير المكسورة لوجود الراء المكسورة.

وترد الراء المكسورة الألف إلى الإمالة إذا كانت متصلة بها فإن كانت منفصلة فلا تؤثر نحو: بقادر[٦٥]، يقول سيبويه: «واعلم أن الذين يقولون هذا قارب (فيميلون) يقولون: مررت بقادر، ينصبون الألف ولم يجعلوها حيث بعدت تقوى»[٦٦].

(٦٣) ارتشاف الضرب: ١/٢٣٨، ٢٣٩، والنصب يعني عدم الإمالة.

(٦٤) بعض العرب يمنع الإمالة في الساكن إثر كسر لأجل حرف الاستعلاء، انظر: ارتشاف الضرب: ١/٢٣٩، وشرح الأشموني ٤/١٤٨.

(٦٥) بعض العرب يجيز تأثير الراء المكسورة في إمالة الألف المنفصلة عنها. انظر: ارتشاف الضرب: ١/٢٤٠، وشرح الأشموني: ٤/١٤٨، ١٤٩.

(٦٦) انظر المقتضب: ٣/٤٨ ـ ٥١.

وقد ذكر النحاة أن شرط تأثير سبب الإمالة أن يكون من الكلمة التي فيها الألف، فلا تمال ألف: سابور للياء قبلها في قولك: رأيت يدي سابور، ولا ألف: (مال) للكسرة قبلها من قولك: لهذا الرجل مال، وكذلك لو قلت: ها إن ذي عذرة، لم تمل ألف (ها إن) لكسرة (إن) لأنها من كلمة أخرى[٦٧]، يقول ابن مالك: «ولا يؤثر سبب الإمالة إلا وهو بعض ما الألف بعضه»[٦٨].

ثانياً: إمالة الفتحة:

ذكر النحاة سببين لإمالة الفتحة:

الأول: أن تكون قبل راء مكسورة متطرفة، وألا تقع على ياء، وألا يكون بعد الراء حرف استعلاء، مثال ذلك قولك: للأيسرِ مِلْ. قال أبو حيان: «وإذا تلت الراء المكسورة فتحة جاز إمالة الفتحة بشرط أن لا تكون الفتحة في ياء نحو: من الغيَر، ويشترط ألا يكون بعد الراء المكسورة حرف استعلاء نحو: السرق والصراط، وسواء كانت الفتحة من حرف استعلاء نحو: من اليعَر، أو في راء نحو بشَرَر، أو في غيرها نحو من النَفَر، ومن الكبر، أو فصل بين الفتحة والراء المكسورة نحو: ناشر، أو ساكن غير الياء نحو: من عمرو وخَيْر، لا يمال فيها الفتحة كان ذلك في كلمة كما مثّلنا أو في كلمتين نحو: رأيت خبط رياح»[٦٩]. وإمالة الفتحة مع هذا السبب تصح وصلاً ووقفاً.

الثاني: أن تقع الفتحة قبل هاء التأنيث، وليس قبلها ألف، وتكون في حالة الوقف فقط، نحو: نعمه، قَيْمه، قال سيبويه: «سمعت العرب يقولون: ضربت ضَرْبَهْ، وأخذتُ أخْذَهْ، وشبّه الهاء بالألف فأمال ما قبلها كما يميل ما قبل الألف»[٧٠].

(٦٧) يستثنى من ذلك ألف (ها) التي هي ضمير المؤنثة في نحو: لم يضربها وأدرجيبها فإنها قد أميلت وسببها من كلمة أخرى لما مر. انظر: شرح الأشموني: ٤/١٤٩.

(٦٨) تسهيل الفوائد: ٣٢٦.

(٦٩) ارتشاف الضرب: ١/٢٤٦، ٢٤٧. وقد أجاز سيبويه الإمالة في نحو: «رأيت خبط رياح» في قوله: «وتقول: هذا قفا رياح، كما تقول: رأيت خَبطَ رياح، فتميل طاء خَبطَ للراء المنفصلة المسكورة، وكذلك الف قفا في هذا القول» الكتاب: ٤/١٤٣.

(٧٠) الكتاب: ٤/١٤٠.

وتشمل هاء التأنيث هاء المبالغة، فالإمالة معها جائزة، نحو: علامة، أما هاء السكت فلا إمالة معها نحو: كتابيهْ[٧١]، كذلك إذا وقع قبل الهاء ألف فلا إمالة، نحو: الصلاة والحياة.

العلاقة بين الإمالة والتفخيم :

مرّ بنا أن الإمالة هي أن تنحوَ بالألف نحو الياء، وبالفتحة نحو الكسرة، ومرّ بنا أيضاً أن علماءنا القدامى أطلقوا عليها عدة مصطلحات مرادفة لها، مثل: الإجناح، والكسر، والبطح والإضجاع. وأما عدم الإمالة عندهم فيعني: الفتح والتفخيم، وربما قيل له النصب. لكن هل يعني هذا أن لفظ الترقيق المقابل للتفخيم يتساوى في دلالته مع الإمالة؟

يقول ابن الجزري: «الترقيق من الرقة، وهو ضد السمن، فهو عبارة عن إنحاف ذات الحرف ونحوله، والتفخيم من الفخامة، وهي العظمة والكثرة، فهي عبارة عن ربو الحرف وتسمينه، فهو والتغليظ واحد، إلا أن المستعمل في الراء في ضد الترقيق هو التفخيم، وفي اللام التغليظ»[٧٢]، ويقول في موضع آخر: «تقدم أن تغليظ اللام تسمينها لا تسمين حركتها، والتفخيم مرادفه إلا أن التغليظ في اللام والتفخيم في الراء، والترقيق ضدهما، وقد تطلق عليه الإمالة مجازاً»[٧٣].

وواضح هنا أن مصطلح التفخيم يرادف مصطلح التغليظ، لكنه شاع استعمال مصطلح التفخيم مع الراء في حين شاع مصطلح التغليظ مع اللام، ويطلق الترقيق مضاداً لهذين المصطلحين، وقد يطلق الترقيق مراداً به الإمالة من قبيل التجوز.

ولقد أطلق الزمخشري مصطلح التفخيم في الراء مضاداً لمصطلح الإمالة في قوله:

---

(٧١) ذهب ثعلب وابن الأنباري إلى جواز الإمالة فيما قبل هاء السكت والصحيح المنع. انظر: ارتشاف الضرب: ٢٤٤/١.

(٧٢) النشر: ٩٠/٢.

(٧٣) النشر: ١١١/٢.

«والـراء غير المكسورة، إذا وليت الألف منعت منع المستعلية، تقول: راشد وهذا حمارك ورأيت حمارك على التفخيم. والمكسورة أمرها بالضد من ذلك يمال لها ما لا يمال مع غيرها. تقول: طارد وغارم»[٧٤].

أي أن الراء غير المكسورة (التي حركتها ضم أو فتح) تمنع من إمالة الألف المجاورة لها شأنها في ذلـك شأن حروف الاستعلاء فتنطق الألف مفخمة حينئذ، وأما الراء المكسورة فأمرها على عكس ما سبق فتنطق الألف منها ممالة أي مرققة.

وواضح مما سبق أن هناك التقاء بين مصطلحي الترقيق والإمالة في بعض المواضع، كما أن هناك اختلافاً بينهما أيضاً: «فالترقيق في الحرف دون الحركة إذا كان صيغته، والإمالة في الحركة دون الحرف إذا كانت لعلة أوجبتها وهي تخفيف كالإدغام سواء، كما يقول الداني»[٧٥].

وقد صرح ابن الجزري بتوضيح العلاقة بين الترقيق والإمالة بقوله: «وقد عبر قوم عن الترقيق في الراء بالإمالة بين اللفظين كما فعل الداني وبعض المغاربة، وهو تجوز إذ الإمـالـة أن تنحو بالفتحة إلى الكسرة وبالألف إلى الياء... والترقيق: إنحاف صوت الحرف فيمكن اللفظ بالراء مرققة غير ممالة ومفخمة ممالة، وذلك واضح في الحس والعيان، وإن كان لا يجوز رواية مع الإمالة إلا الترقيق»[٧٦].

ومع ما ذكر من فروق بين الإمالة والترقيق (مضاد التفخيم) فإن الصلة بينهما تبدو وثيقة، حيث لا تجوز رواية مع الإمالة إلا الترقيق كما نص على ذلك ابن الجزري.

ومن جانب آخر، لقد نسب القدامى ظاهرة الإمالة إلى طائفة اللهجات النجدية من تميم وقيس وأسـد[٧٧]، مقـابل ميل أهل الحجاز إلى الفتح والتفخيم[٧٨]، فلقد

(٧٤) المفصل في علم العربية: ٣٣٧.

(٧٥) النشر: ٢/٩١.

(٧٦) النشر: ٢/٩٠.

(٧٧) انظر: شرح المفصل ٢/١٢٥٢، وشرح شافية ابن الحاجب للرضي: ٣/٤، والهمع: ٢/٢٠٠.

(٧٨) انظر: شرح المفصل ٢/١٢٥٢.

جنحت اللهجات الحجازية بوجه عام إلى تفخيم الألف في النطق، ومعنى التفخيم أن تميل الألف نحو الواو[٧٩].

ويلاحظ أن التفخيم لم يكن مقصوراً على الحجازيين وحدهم، فقد جاء في لسان العرب: «أن أهل اليمن يقولون: الحيوَة بواو قبلها فتحة. وكذلك يفعل أهلّ اليمن بكل ألف منقلبة عن واو كالصلَوة والزكوة»[٨٠].

ومن جانب ثالث رأينا أن القدامى قد نصوا على أن موانع إمالة الألف حروف الاستعلاء والراء المسكورة، أما خروف الاستعلاء فلكونها مستعلية إلى الحنك الأعلى، فلم تمل الألف معها طلباً للمجانسة كما مر. وهذه الحروف نفسها هي الحروف المفخمة، يقول ابن الجزري: «والاستعلاء من صفات القوة وهي سبعة يجمعها قولك: خص ضغط قظ، وهي حروف التفخيم على الصواب، وأعلاها الطاء، كما أن أسفل المستفلة الياء، وقيل حروف التفخيم هي حروف الإطباق، ولا شك أنها أقواها تفخيماً، وزاد مكي عليها الألف وهو وهم فإن الألف تتبع ما قبلها فلا توصف بترقيق ولا تفخيم»[٨١].

وابن الجزري هنا يصرح بأن حروف الاستعلاء هي حروف التفخيم على الصواب، وينص على حقيقة هامة تدل على فهمه الدقيق للفرق بين حروف الاستعلاء والألف، أو ما يسمى بتعبير المحدثين بالفرق بين الحروف الصامتة والحركات.

وأما الراء غير المكسورة ـ وهي تشمل المفتوحة والمضمومة ـ فشبهت بحروف الاستعلاء في منعها إمالة الألف، وأما إن كانت مسكورة فإنها ترد الألف إلى الإمالة، وهذه الأحوال نفسها نجدها في ترقيق الراء وتفخيمها، فهي ترقق إذا كسرت وتفخم إذا ضمت أو فتحت كما في قولنا: رُبَّ أو رَبى.

هذا فهم مجمل لموضوع «الإمالة» عند نحاتنا القدامى. فماذا عن تصور علماء اللغة المحدثين عنها؟.

(٧٩) انظر: سر الصناعة ٥٦/١١، وشرح الشافية ٢٥٥/٣، والبحر المحيط: ١٧٢/٦.

(٨٠) انظر: اللسان: ٢١١/١٤.

(٨١) النشر: ٢٠٢/٢.

(٢)
الإمالة عند اللغويين المحدثين

أنـواع الإمالـة :

ذكر علماء اللغة المحدثون أربعة أنواع للإمالة هي :

أ) إمالة من الفتحة إلى الكسرة .

ب) إمالة من الفتحة إلى الضمة .

جـ) إمالة من الكسرة إلى الضمة .

د) إمالة من الضمة إلى الكسرة .

ويمكن توضيح هذه الأنـواع بأن نقول : إن الحركات القصيرة في اللغة العربية ثلاث هي : الفتحة والكسرة والضمة ، ولو تصورنا أن الفتحة الصريحة توجد على رأس مثلث ، وأن الكسرة الصريحـة توجـد في الـزاوية اليمنى من قاعـدته ، وأن الضمة الصريحة توجد في الزاوية اليسرى من هذه القاعدة ، فإننا يمكننا أن نذكر أن :

أ) النـوع الأول من أنواع الإمالة ، وهو الإمالة من الفتحة إلى الكسرة ، وهذا النوع الوحيد من أنواع الإمالة هو الذي اهتم به نحاة العرب القدامى ، ويذكر د. إبراهيم أنيس أن القُرَّاء في إمالتهم لم يعنوا إلا بالإمالة من الفتح إلى الكسر «لأنها أكثر شيوعاً وانتشاراً وظهوراً بين القبائل العربية المشهورة»[٨٢] . وهذا النوع هو الذي مضى ذكر الحديث عنه في القسم الأول من هذا البحث .

ب) النوع الثاني وهو الإمالة من الفتحة إلى الضمة ، وقد أشار إليها ابن جنى في كتابه «سر صناعة الإعراب» ، وعلل بها كتابة الصلاة والزكاة وأمثالهما في الخط العثماني بالواو»[٨٣] .

(٨٢) في اللهجات العربية : ٦٥ .

(٨٣) سر صناعة الإعراب : ٥٦/١ .

ويذكر الدكتور أنيس أن هذه الإمالة «ظلت مهملة يشار إليها أحياناً في بعض المطوّلات من كتب اللغة على أنها لهجة لبعض القبائل دون نسبتها إلى قبيلة خاصة»[٨٤].

ويمثل د. ظاظا لهذا النوع من الإمالة بقوله: «كما تقول في بعض عامياتنا (يوم) بإمالة مضمومة بدلاً من فتح الياء وسكون الواو، الذي يسميه بعض اللغويين المحدثين (الصوت المزدوج)، وهذه الضمة الممالة... تكون أحياناً أقرب إلى الفتحة الخالصة، وأحياناً أقرب إلى الضمة القحة»[٨٥].

جـ) النوع الثالث: الإمالة من الكسرة إلى الضمة، وهذه الإمالة هي التي عبر عنها النحاة القدامى باسم: الإشمام، وهي تلك التي نجدها في صيغ البناء للمجهول في مثل: قيل وغيض وسيق وبيع، ويبدو في هذا النوع أن نطق الكسرة أوضح من نطق الضمة فيه «ولعل هذا الوضوح في نطق الكسرة مُتأتٍ من أن اللسان كان قد أخذ وضع النطق بالكسرة إلا أن الشفتين استدارتا وكأنهما تريدان النطق بالضمة فنتج من جراء ذلك هذا الصوت»[٨٦].

د) النوع الرابع: الإمالة من الضمة إلى الكسرة، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن جنى لهذا الصوت بقولهم في الإمالة «مررت بمذعور، وهذا ابن بور» أي أن العرب نحت بضمة العين في (مذعور) وضمة الباء في (بور) نحو الكسرة إذ أشموها شيئاً من تلك الكسرة»[٨٧]. وتأتي طريقة نطق هذا الصوت بحيث «يكون اللسان قد اتخذ فيه وضع النطق بالضمة، في حين كانت الشفتان قد اتخذتا وضع النطق بالكسرة فنتج جراء ذلك الصوت المختلط»[٨٨].

(٨٤) في اللهجات العربية: ٦٥، ٦٦.
(٨٥) انظر كلام العرب من قضايا اللغة العربية: ١٠.
(٨٦) في الأصوات اللغوية: ١٧٠.
(٨٧) انظر سر صناعة الإعراب: ١/٥٦.
(٨٨) في الأصوات اللغوية: ١٧٠.

ويمكن توضيح أنواع الإمالة الأربعة بالشكل التالي :

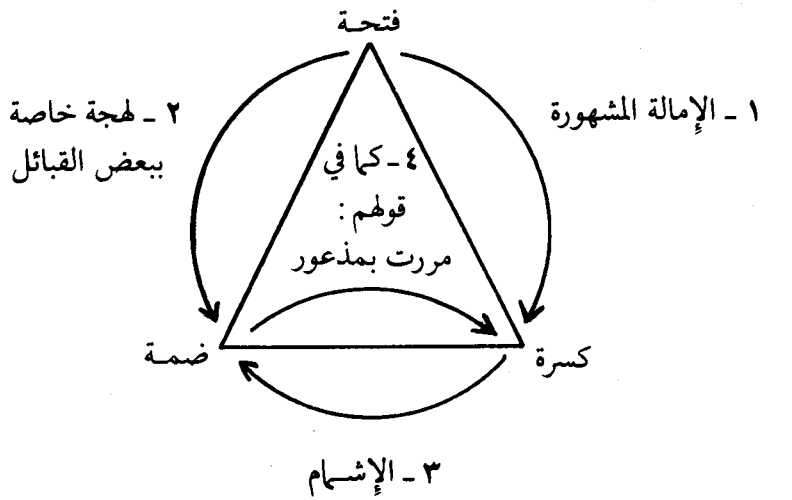

وسنركز في حديثنا التالي على النوع الأول من أنواع الإمالة السابقة، لأنها هي التي اهتم بها نحاتنا القدامى لشهرتها وشيوعها.

وصف الإمالة :

إذا كانت الحركات القصيرة في اللغة العربية ثلاثة هي الفتحة والكسرة والضمة فمعلوم في الدراسة الصوتية أن الشفتين ينفرجان حال النطق بالكسرة، ولكنهما ينضمان حال النطق بالضمة، ويكون اللسان مع الفتحة مستوياً في قاع الفم[٨٩].

وفي ضوء هذا يمكننا تصور كيفية حدوث الإمالة كما يراها الدكتور أنيس بقوله: «واللسان مع الفتح يكاد يكون مستوياً في قاع الفم، فإذا أخذ في الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذي يسمى بالإمالة، وأقصى ما يصل إليه أول

(٨٩) انظر : المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : ص ٩٢ ـ ٩٣. د. رمضان عبدالتواب.

اللسان في صعوده نحو الحنك الأعلى هو ذلك القياس الذي يسمى عادة بالكسرة طويلة كانت أو قصيرة . . . وهكذا نرى أن الفرق بين صاحب الفتح وصاحب الإمالة ليس إلا اختلافاً في وضع اللسان مع كل منهما حين النطق بهذين الصوتين، واللسان في حالة الإمالة أقرب إلى الحنك الأعلى منه في حالة الفتح»[٩٠].

وتعريف الإمالة عند المحدثين لا يعدو إلا أن يكون صوت مد «يحدث من ارتفاع مقدم اللسان نحو منطقة الغار ارتفاعاً يزيد على ارتفاعه مع الفتحة المرققة، ويقل عن ارتفاعه مع الكسرة، ويكون وضع الشفتين مع الإمالة وضع انفراج إلا أنه دون الانفراج الذي يكون مع الكسرة»[٩١].

درجات الإمالة :

لقد نص علماء النحو القدامى في تعريف الإمالة على أن الذي يمال نوعان :

هما الألف والفتحة، فتمال الألف نحو الياء، وتمال الفتحة نحو الكسرة ويعبر بعض اللغويين المحدثين عن هذا بدرجات الإمالة، يقول د. غالب المطلبي : «إن درجة إمالة الألف تختلف من سياق إلى آخر شدة وخفة، لكننا على أية حال نستطيع تحديد درجتين من درجات الإمالة :

أ) إمالة قصيرة : نشأت نتيجة النحو بالفتحة نحو الكسرة، ومن الممكن أن ترمز لها هنا بالرمز (e) .

ب) إمالة طويلة : نشأت نتيجة النحو بالألف نحو الياء، ومن الممكن أن نرمز لها بالرمز (ee) »[٩٢].

ويقول د. أنيس : «الفتح والإمالة صوتان من أصوات اللين، سواء كانا قصيرين أو طويلين، وأصوات اللين القصيرة في الاصطلاح الحديث هي ما كان يسميه القدماء

(٩٠) في اللهجات العربية : ٦٤ .

(٩١) انظر المحيط لمحمد الانطاكي : ٤٢/١ .

(٩٢) في الأصوات اللغوية : ١٦٣ .

بالحركات، أما أصوات اللين الطويلة، فهي ما كانوا يسمونه بألف المد وياء المد وواو المد، ولا فرق بين القصيرة والطويلة إلا في الكمية، فمخرج الفتحة ووضع اللسان معها هو نفسه مخرج ألف المد ووضع اللسان معها، والفرق بينهما فرق في الكمية، وكذلك الكسرة وياء المد متماثلتان في المخرج ووضع اللسان، كما أن الضمة وواو المد متماثلتان فيهما أيضاً. فلا فرق إذن بين أن تمال الفتحة أو تمال ألف المد؛ لأن العملية العضوية في الحالتين واحدة»[٩٣].

وهكذا لا نجد فرقاً بين تعبير المحدثين وتعبير القدامى حول هذا الأمر، لأن من اللغويين القدامى من نص على أن الحركات أبعاض حروف المد واللين[٩٤]، كما سبق، بل إن ابن يعيش نفسه قد عبر عن درجات الإمالة عند تعريفها بأنها: «عدول بالألف عن استوائه وجنوح به إلى الياء، فيصير مخرجه بين مخرج الألف المفخمة ومخرج الياء، وبحسب قرب ذلك الموضع من الياء تكون شدة الإمالة وبحسب بعدها تكون خفتها»[٩٥].

الإمالة عادة لغوية :

لقد نظر النحاة القدامى إلى ظاهرة الإمالة إلى أنها من الأمور الجائزة، وقد مر بنا قول الرضي: «اعلم أن أسباب الإمالة ليست بموجبة لها، بل هي المجوزة لها عند من هي في لغته، وكل موضع يحصل فيه سبب الإمالة جاز لك الفتح»[٩٦]، وقول السيوطي: «ثم الإمالة جائزة لا واجبة بالنظر إلى لسان العرب»[٩٧].

والحقيقة أنه يمكننا أن نفهم حكم الجواز بالنسبة لنا، لا بالنسبة للقبائل العربية التي كانت الإمالة إحدى خصائصها اللغوية القديمة، بمعنى أنه إذا توافرت لنا

(٩٣) في اللهجات العربية : ٦٤ .
(٩٤) انظر سر صناعة الإعراب : ١٩/١ .
(٩٥) انظر شرح المفصل ١٢٥٢/٢ .
(٩٦) انظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي : ٥/٣ .
(٩٧) انظر : الهمع : ٢٠٠/٢ . . .

أسباب الإمالة في كلمة جاز لنا أن نلجأ إلى الإمالة فيها محاكين القبائل التي كانت تميل هذا اللفظ وأشباهه، أما الإمالة من حيث هي صورة لهجية لبعض القبائل التي كانت تعيش في وسط الجزيرة وشرقيها مثل: تميم وأسد وطيء وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب، فالأمر عندهم لم يكن جائزاً بل كان عادة لغوية يكتسبها كل من يقطن هذه القبائل.

يقول د. أنيس: «ولا نستطيع أن نتصور كيف جعل النحاة الإمالة من الأمور الجائزة!!... ولو صح هذا القول لأمكن أن نتصور أن من القبائل من كانوا يميلون ويفتحون كما تشاء لهم أهواؤهم، وذلك أمر لا يقبله اللغوي الحديث، إذ ليس الأمر أمر مواضعة مقصودة متعمدة، وإنما هو عادة لكل قبيلة، فتلك التي تميل لا تستطيع غير الإمالة، وتلك التي تفتح لا تطاوعها ألسنتها بغير الفتح، فالمسألة لا تعدو أن تكون عادة ككل العادات اللغوية، يتوارثها الخلف عن السلف دون شعور بها، فكان واجب النحاة أن يقولوا إن الإمالة لا مفر منها عند تلك القبيلة التي تميل في كلامها، والفتح واجب عند من لا يستطيعون غيره كمعظم الحجازيين»[٩٨].

والذي يبدو لي أن هذا الفهم كان وارداً في أذهان نحاتنا القدامى ويمكن أن نلمحه في قول الكسائي السابق عندما قيل له: إنك تميل ما قبل هاء التأنيث، فقال: هذا طباع العربية» يقصد أنها عادة أهل الكوفة اللغوية التي لا مفر منها، أو على حد تفسير أبي عمرو الداني لعبارة الكسائي: «يعني بذلك أن الإمالة هنا لغة أهل الكوفة وهي باقية فيهم إلى الآن»[٩٩].

أسباب الإمالة:

لقد مر بنا أن أسباب الإمالة عند النحاة ستة مواضع، وقد زاد سيبويه ثلاثة مواضع أخرى شاذة، وإذا نظرنا إلى رأي علماء اللغة المحدثين فإننا نجد أن آراءهم قريبة من رأي القدامى على الرغم من اختلاف صيغ التعبير وطريقة الفهم.

---

(٩٨) في اللهجات العربية: ٦٩.

(٩٩) انظر النشر: ٢/٨٢. والمقصود بالآن يعني زمن أبي عمرو الداني.

فالدكتور أنيس يحصر أسباب الإمالة في أمرين بقوله: «فإمالة الفتح إلى الكسر يجب في الحقيقة أن تعزى بصفة عامة إلى أحد عاملين:

١ ـ الأصل اليائي.

٢ ـ الانسجام بين أصوات اللين»[١٠٠].

أما العامل الأول ـ وهو الأصل اليائي ـ فنحن إذا راجعنا أسباب الإمالة التي ذكرها النحاة فسنجد المواضع التي أميلت بسبب الأصل اليائي هي: الموضع الأول الذي يختص بانقلاب الألف المتطرفة عن الياء كما في مثل: مرمى ورمى، ثم الموضع الثالث المختص بإمالة الألف الواقعة بدلاً من عين فعل تكسر فاؤه عند إسناده إلى تاء الضمير، وهذه الألف منقلبة عن ياء مثل: باع ودان.

ولكن ماذا يقول د. أنيس عن الألف التي تمال إلى الياء وليس أصلها ياء كما في الموضع الثاني، وهي الألف الصائرة إلى الياء دون زيادة أو شذوذ نحو: ملهى؟ وأيضاً ماذا يرى في الألف الواقعة بدلاً من عين فعل تكسر فاؤه عند إسناده إلى تاء الضمير، وأصل هذه الألف واو كما في خاف؟

يقول د. أنيس: «غير أنه من الصعب مع هذا أن نبرر من الناحية الصوتية ما زعمه بعض النحاة من جواز الإمالة فيما أصله واو مثل (خاف) لأن الإمالة في مثل هذه الحالة كان حقها أن تكون من الفتح إلى الضم، لا من الفتح إلى الكسر، على أن النحاة قد اختلفوا في الحكم على إمالة أمثال (خاف) فأنكرها بعضهم»[١٠١].

ولقد ذكر د. غالب المطلبي تفسيراً للإمالة في هذه المواضع بقوله: «ولعل الإمالة كانت في هذه المواضع لأسباب تتعلق بالنبر[١٠٢]، مستنداً في ذلك إلى ما ذكره بروكلمان من أن جنوح الألف والفتحة في الأشورية إلى الإمالة بتأثير أصوات المد المجاورة إنما كان بتأثير النبر في ذلك الموضع»[١٠٣].

(١٠٠) في اللهجات العربية: ٦٨.

(١٠١) في اللهجات العربية: ٦٨، ٦٩.

(١٠٢) في الأصوات اللغوية: ١٦٥.

(١٠٣) انظر فقه اللغات السامية: ٦٥.

أما العامل الثاني الذي ذكره د. أنيس وهو الإنسجام بين أصوات اللين فنجده في كل مواضع الإمالة التي توجد فيها الكسرة في سياق الكلمة، كما في الألف الواقعة بعد كسرة أو قبلها، فتمال الألف في نحو: عالم؛ لوقوع الكسرة بعدها، وفي نحو: كتاب لوقوعها بعد حرف يلي كسرة، وفي نحو: شِمْلال، لوقوعها بعد حرفين وليا كسرة، وفي نحو: يريد أن يضربها لوقوعها بعد حرفين متحركين أحدهما هاء، وفي نحو ذلك مما ورد في الموضع الخامس والموضع السادس.

يقول د. أنيس: «أما حين تعرض الإمالة لغير أصل من أصول الكلمة كإمالة الفتحة، أو إمالة ألف غير المنقلبة عن أصل، فليس هذا إلا نوعاً من الإنسجام بين أصوات اللين»[١٠٤].

ولقد فهم النحاة القدامى ظاهرة الإنسجام بين أصوات اللين فهماً يدل على شدة ذكائهم ونبوغهم في التحليل الصوتي، ولقد مر بنا قول السيوطي: «المقصود بالإمالة تناسب الصوت...»[١٠٥]، وتفسير خالد الأزهري للإمالة بأنها إنما كانت من أجل تناسب الأصوات وصيرورتها من نمط واحد»[١٠٦].

وهكذا يتفق اللغويون المحدثون مع النحاة القدامى في فهمهم ظاهرة تناسب الأصوات في السياق اللغوي.

يتبقى بعد ذلك الكلمات التي أميلت وليست الألف فيها أصلاً عن ياء، ولم توجد الكسرة في سياقها، والظاهر أنها ترجع إلى شيوع استعمال الإمالة وانتشاره في بعض اللهجات العربية، وقد نص على هذا الانتشار لظاهرة الإمالة ابن يعيش بقوله: «الإمالة أكثر كلام العرب»[١٠٧]، الأمر الذي جعل من الصعب وضع ضوابط محددة لمواضعها في السياقات المختلفة، يذكر د. غالب المطلبي: «أن انتشار هذه الإمالة في

(١٠٤) في اللهجات العربية: ٦٧.

(١٠٥) انظر الهمع: ٢/٢٠٠.

(١٠٦) انظر: شرح التصريح: ٢/٣٤٦.

(١٠٧) شرح المفصل ٢/١٢٦٣.

غير الحالات الأساسية التي ذكرها سيبويه توضح أن هذه الإمالة تحتل معظم مكان الألف في نطق اللهجات القديمة، وما كانت قاصرة على سياقات معينة مشروطة، وإنما خرجت إلى غيرها من السياقات لدرجة جعلت سيبويه نفسه يرى أن من الصعوبة وضع قوانين صوتية محددة لظاهرة الإمالة»[١٠٨].

هل الإمالة صوت مستقل من أصوات المد في العربية؟

مر بنا أن أئمة العربية اختلفوا في نظرتهم إلى الإمالة، فنظر بعضهم إليها على أنها فرع عن الفتح، ونظر بعض آخر منهم إليها على أنها أصل قائم برأسه، ومع هذا الاختلاف فلم نجد منهم من يشير إلى أنها كانت صوتاً مستقلاً من أصوات المد في العربية.

وحين استعرضنا أقوال اللغويين المحدثين في هذا الأمر وجدنا بعضاً منهم يثبت قدم ظاهرة الإمالة في اللغة العربية مستنداً في ذلك إلى أن هذه الظاهرة قد لوحظت في الأسماء العربية التي كتبت بحروف يونانية في طائفة من النقوش القديمة[١٠٩].

لقد ذهب «كانتينو» إلى أنه من المحتمل أن الألف المقصورة إنما كانت تستعمل للدلالة على صوت الإمالة[١١٠]، وهو بهذا لم يأت بشيء جديد عما قرره علماء العربية القدامى، فابن معطي يقول: «وكل ما أميل كتب بالياء»[١١١] ومر بنا أن بعض القرّاء كان يميل ما رسم في المصاحف بالياء[١١٢]، ونقل السيوطي ما حكى عن أبي حاتم من قوله: «احتج الكوفيون في الإمالة بأنهم وجدوا في المصحف الياءات في موضع الألفات، فاتبعوا الخط وأمالوا ليقربوا من الياءات»[١١٣].

(١٠٨) في الأصوات اللغوية: ١٦٦.
(١٠٩) انظر: دروس في علم أصوات العربية: ١٥٩.
(١١٠) السابق: ١٦١.
(١١١) الفصول الخمسون: ٢٥٧.
(١١٢) انظر: النشر: ٢/٣٧.
(١١٣) الاتقان في علوم القرآن: ١/٩١.

وقد دفع القولُ بقدم ظاهرة الإمالة بعض اللغويين المحدثين[١١٤] إلى القول بأن صوت الإمالة قديماً كان أحد أصوات المد الأساسية في اللغات السامية، ثم فقد بعد ذلك قيمته كمقطع صوتي وأصبح صورة نطقية فحسب.

لقد رأى برجستراسر : أن الإمالة في بعض اللهجات العربية القديمة إنما كانت بقية من آثار ذلك الصوت الرابع الموجود في اللغة السامية القديمة[١١٥].

ويعلق د. غالب المطلبي على هذا الرأي بقوله: «غير أن علينا أن نحترز في الذهاب إلى ذلك فيما أورثناه من أمثلة الإمالة في العربية ولا سيما تلك الأمثلة اللهجية التي تشير إلى أن علة الإمالة فيها كانت الجنوح إلى الانسجام المدي، ثم إن الإمالة في العربية لا تمثل قطعاً فونيما مستقلاً، بل هي صورة نطقية Allophone من صور نطق الألف حسب»[١١٦].

ومع هذا الاحتراز الذي يدعو إليه د. غالب المطلبي فإننا نلمحه في موضع آخر ينص على أن الإمالة هي الأصل، وإنها أقدم من الفتح متأثراً بالرأي السابق بقوله: «ومن جانب آخر من الممكن أن تكون الإمالة قد نشأت في طائفة من المفردات من تغير حدث في نطق الياء بأن نحت نحو الألف فنطقت في حقبة من الحقب ألفاً ممالة ثم خلصت في العربية الموحدة إلى ألف محض، وهو أمر قد يفسر من طرف آخر وجود رمز الألف المقصورة الشبيه برمز الياء في تلك الطائفة من الكلمات فكان ياء متطرفة جنحت إلى التطور شيئاً فشيئاً فإذا بها تصير إلى صوت ممال ثم إلى ألف محض»[١١٧].

وفي الجانب المقابل نجد اتجاهاً لغوياً حديثاً آخر ينص على أن الإمالة متفرعة عن الفتح، وهي أحدث في التطور عنه في بعض المواضع كإمالة الفتحة أو إمالة ألف المد غير المنقلبة عن أصل؛ لأن هذا ليس إلا نوعاً من الانسجام بين أصوات اللين، يقول

(١١٤) انظر: التطور النحوي: ٣٤، وفقه اللغات السامية: ٥٣.

(١١٥) انظر: التطور النحوي: ٣٩. وفقه اللغات السامية: ٥٣.

(١١٦) في الأصوات اللغوية: ١٦٧. ويقصد بمصطلح الفونيم: المقطع الصوتي.

(١١٧) السابق: ١٦٧.

د. أنيس: «ولا شك أن الانتقال من الكسر إلى الفتح أو بالعكس يتطلب مجهوداً عضوياً أكبر مما لو انسجمت أصوات اللين بعضها مع بعض، بأن تصبح متشابهة؛ لأن حركة الإمالة أقرب إلى الكسرة منها إلى الفتحة، ومتى سلمنا بنظرية السهولة والاقتصاد في الجهد العضوي استطعنا أن نتصور أن الكلمة التي تشتمل على أصوات لين منسجمة، أحدث من نظيرتها التي خلت أصوات لينها من الإنسجام، ونستطيع لهذا أن نقول: إن كلمة (كتاب) كما ينطق بها بغير إمالة أقدم في نسجها منها مع الإمالة»[١١٨].

لكن الإمالة في مواضع أخرى كانت أقدم من الفتح وذلك في الكلمات التي أصل الألف فيها ياء.كما يرى د. أنيس بقوله: «نستطيع أن نرجح أن بعض الكلمات العربية التي اشتملت على ياء أصلية قد تطورت أولاً إلى الإمالة ثم إلى الفتح. فالأصل إذن في مثل هذه الكلمات (يقصد كما في باع) هو الإمالة، وقد تفرع الفتح عنها. ونستنبط من هذا أن قبائل الحجاز التي عرف عنها الفتح قد قطعت مرحلة أخرى في تطور لهجاتها، إذا انتقلت من الإمالة إلى الفتح، كما نستنبط أن لهجات بعض القبائل في وسط الجزيرة وشرقيها قد احتفظت بمرحلة الإمالة التي هي أقدم حين تكون الياء أصلية في الكلمات، وربما كان السر في احتفاظ البدو بهذه الظاهرة أنهم عرفوا بها فتعصبوا لها»[١١٩].

العلاقة بين التفخيم والإمالة عند المحدثين:

لقد استطاعت البحوث العلمية الحديثة في مجال دراسة الأصوات أن تكشف لنا عن وجود بعض الظواهر التي يمكن ملاحظتها عند النطق بالصوت المفخم، منها: رجوع اللسان إلى الخلف مع انخفاض في وسطه، وارتفاع في مؤخره ومقدمه، ومع ما يصحب ذلك من وجود توتر في أعضاء النطق، وخصوصاً مؤخرة اللسان وأوردة الرقبة.

(١١٨) في اللهجات العربية: ٦٧.

(١١٩) السابق: ٦٦، ٦٧.

لذلك وجدنا المحدثين يفسرون صوت الألف المفخم بأنه صوت مد «يحدث من ارتفاع مؤخر اللسان نحو مؤخر الحنك ارتفاعاً يزيد على ارتفاعه مع الفتحة المفخمة التي تلي أصوات الاستعلاء، ويقل عن ارتفاعه مع الضمة، ويكون وضع الشفتين مع ألف التفخيم وضع انضمام لا يبلغ الاستدارة التامة كما هو الشأن مع الضمة»[١٢٠].

ويمكننا ـ بناء على هذا الوصف ـ توضيح الفروق بين الألف الممالة والألف المفخمة عند المحدثين حال النطق بكل منهما: فاللسان مع الألف الممالة يوجد فيه ارتفاع في مقدمته، لكنه ارتفاع يقل عن ارتفاع اللسان في حال نطقه للكسرة، ويزيد على ارتفاعه في حال نطق الفتحة، في حين يوجد ارتفاع في مؤخرة اللسان مع الألف المفخمة. ويكون وضع الشفتين مع الألف الممالة وضع انفراج، إلا أنه دون الانفراج الذي يكون مع الكسرة، في حين يكون وضع الشفتين مع ألف التفخيم وضع انضمام لا يبلغ الاستدارة الكاملة حال نطقنا للضمة.

ومع هذه الفوارق في شكل اللسان، أو في وضع الشفتين فإن إمالة الألف أو تفخيمها ليسا سوى مظهرين من مظاهر نطق الألف عند المحدثين، يقول د. غالب المطلبي: «إن ألف التفخيم ليست إلا صورة من صور نطق الألف، وهي بهذا لا تحمل أية قيمة فونيمية خاصة بها خارجة عن فونيم الألف العربية المعروفة مثلها في ذلك مثل الإمالة في اللهجات النجدية»[١٢١].

وكما ذهب بعض المحدثين إلى إرجاع بعض مواضع الإمالة لأسباب تتعلق بالنبر فإننا نجد أيضاً منهم من يقول بهذا الرأي عند تفسيره لظاهرة التفخيم، فقد ذهب كانتينو إلى أن التفخيم ظاهرة مقيدة تقيداً شديداً، ولعلها كانت لأسباب تتعلق

(١٢٠) انظر: المحيط للأنطاكي: ١/٤٣، واللغة العربية معناها ومبناها: ٥٣، ودروس في علم أصوات العربية: ١٦٣.

(١٢١) في الأصوات اللغوية: ١٦٨.

(١٢٢) انظر: في الأصوات اللغوية: ١٦٥، وفقه اللغات السامية: ٦٥.

بالنبر، فقد لوحظ أن الفتحات الطويلة القديمة التي يقع عليها النبر تصير في العربية والفينيقية أصوات مد خلفية نصف ضيقة أي ألفات مفخمة»[١٢٣].

وإذا نظرنا إلى الأصوات الصامتة من حيث التفخيم والترقيق فإننا نجد بعضها يفخم تفخيماً كلياً في كل سياق وهو أربعة أصوات هي : الصاد والضاد والطاء والظاء، تلك الأصوات التي كانت تسمى قديماً بأحرف الإطباق، ونجد ثلاثة أصوات أخرى مرتبتها من التفخيم أقل من أصوات الإطباق أثراً في السمع، حيث تنطق بصورة بين التفخيم والترقيق وهي : القاف والغين والخاء، وتسمى هذه الأصوات السبعة (أحرف الإطباق الأربعة والثلاثة الأخرى) أحرف الاستعلاء قديماً، وما عداها من الأصوات الصامتة مرقق ترقيقاً كاملاً، في كل سياق.

ويستثنى من هذه الأصوات التي ترقق في كل سياق صوتان هما: صوت الراء وصوت اللام :

فالراء يلحقها التفخيم، كما يلحقها الترقيق، لكن الترقيق مقصور على سياقين: أحدهما: إذا كانت الراء مكسورة كما سبق، وثانيهما: إذا وقعت الراء ساكنة بعد كسرة لازمة، ولم تكن متلوة بحرف استعلاء، وذلك مثل: فِرْعون ومِرْية، وتفخم فيما عدا ذلك، وقد أشار بعضهم إلى هذا المعنى بقوله:

ورقق الراء إذا ما كسرت ... كذاك بعد الكسر حيث سكنت
إن لم تكن من قبل حرف استعلا ... أو كانت الكسرة ليست أصلاً

وأما اللام فالأصل فيها الترقيق، ولكنها تفخم في لفظ الجلالة، وذلك إذا وقعت بعد فتح أو ضم مثل: (قال الله ـ قالوا اللهم) أما إذا وقعت بعد كسرة فإنها ترقق على أصلها مثل قول: (لله ـ أفي الله شك).

هذا فيما يتعلق بالأصوات الصامتة، أما الحركات فلا توصف بترقيق أو تفخيم

(١٢٣) انظر : دروس في علم أصوات اللغة العربية : ١٦٣ .

لذاتها، سواء في ذلك الحركات القصيرة كالفتحة والكسرة والضمة أو الحركات الطويلة كالألف والياء والواو، وإنما «تتأثر تأثراً كبيراً بالأصوات الصامتة المجاورة»[١٢٤].

ومن ثم فإن الفتحة ـ وهي حركة قصيرة ـ والألف ـ وهي الحركة الطويلة لها ـ قد يفخمان أو يرققان تبعاً لما يجاورهما من أصوات مرققة أو مفخمة، ويمكننا ملاحظة ذلك في حركة الفتحة في أوائل الكلمات التالية:

فالفتحة مفخمة تماماً في: صبر ـ ضرب ـ طرد ـ ظلم. وهي بين التفخيم والترقيق في: قلم ـ غَرب ـ خسف، وهي مرققة تماماً في قولنا: سبر ـ لمع ـ كتب.

ويمكننا ملاحظة الفرق في نطق الألف فيما يلي:

فهي مفخمة في قولنا: صام ـ ضاع ـ طاب. وهي بين التفخيم والترقيق في قولنا: غاب ـ خاب ـ قال. وهي مرققة في قولنا: ساد ـ ذاب ـ لام.

أي أن الفتحة والألف قد يفخمان تفخيماً كلياً، أو تفخيماً جزئياً، أو يرققان متأثرين بالأصوات المجاورة، وهما في حالة ترقيقهما يقبلان الإمالة ـ وهذا ما يعنينا ـ إذا وجد أحد أسبابها الداعية إليها.

وإذا كان القدماء قد نصوا على أن من موانع إمالة الألف وقوعها قبل أو بعد أحد حروف الاستعلاء فإن ذلك له مدلوله الواضح وهو الارتباط بين حروف الاستعلاء وظاهرة التفخيم التي تلازمها في كل سياق لغوي، ومن ثم كانت الألف التي تسبق بأحد هذه الحروف أو تأتي بعدها ـ لا تجوز إمالتها؛ لما في الإمالة من ترقيق لا يتفق مع طبيعة هذه الأصوات المفخمة.

(١٢٤) انظر: فقه اللغات السامية: ٧١.

خـاتمـــة

في نهاية مطاف هذه المقـابلة بين ما قالـه نحاتنا القدامى، وما قاله علماء اللغة المحدثون في موضوع «الإمالة» أود ذكر الأمور التالية:

١ ـ لا بد أن نسجل كل تقدير لجهود نحاتنا القدامى، وأيضاً لا بد أن نثبت لهم كلّ فضل وإعجاب بما توصلوا إليه من نتائج قيمة في الدرس النحوي، تلك النتائج التي كانت أسساً لدراسة علماء اللغة المحدثين فيما بعد، ومما يزيد من إعجابنا بهم وتقديرنا لهم، أنهم توصلوا إلى هذه النتائج في ذلك الوقت المبكر عن طريق منهج الملاحظة الذاتية لما سمعوه عن العرب القدماء.

٢ ـ أن الإمـالـة صورة نطقية من صور نطق الألف أو الفتحـة في اللغة العربية، ويترتب على ذلك أنها ليست صوتاً رابعاً من أصوات المد في العربية، كما ذهب إلى ذلك بعض المحدثين.

٣ ـ لا يمكن الجزم بأن هذه الصورة النطقية (الإمالة) كانت أصلاً تفرع منها الفتح، أو كانت فرعاً نتجت عنه، كما ذهب إلى ذلك بعض القدامى والمحدثين، لأن الثـابت أن الإمالة لهجة من اللهجات العربية التي لها أماكنها المستقلة بها في الجزيرة العربية، ثم إن قضية الأصل والفرع هذه تحتاج إلى دليل قاطع، وهو ما لم يتوفر هنا.

٤ ـ ما زالت الإمالة اللغوية شائعة في بعض اللهجات العربية الحديثة، وستظل بإذن الله ثابتة كذلك في بعض القراءات القرآنية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والحمد لله أولاً وآخراً.

المراجع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن ـ للسيوطي ـ دار الندوة الجديدة.

٢ ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب ـ لأبي حيان. تحقيق د. مصطفى أحمد النماس ـ مطبعة النسر الذهبي (١٩٨٦م).

٣ ـ الأشباه والنظائر للسيوطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م).

٤ ـ أوضح المسالك لابن هشام ـ نشر مع ضياء السالك إلى أوضح المسالك لمحمد عبدالعزيز النجار (١٤٠١هـ ١٩٨١م).

٥ ـ الإيضاح العضدي لأبي علي الفارسي. تحقيق : حسن فرهود ـ الرياض ١٩٨١م.

٦ ـ البحر المحيط لأبي حيان : مكتبة ومطابع النصر الحديثة بالرياض (مصورة أوفسيت).

٧ ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك: تحقيق محمد كامل بركات. نشر: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٨ ـ التطور النحوي للغة العربية: ج برجشتراسر ـ مطبعة السماح ـ القاهرة. ١٩٢٩ ـ ١٩٢٥ ـ ١٩٦٦م.

٩ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير تحقيق : عبدالقادر الأرناؤوط. مكتبة الحلواني ـ دمشق ١٣٣٩هـ.

١٠ ـ دراسات في علم اللغة : د. كمال محمد بشر. دار المعارف بالقاهرة (١٩٦٩م).

١١ ـ دروس في علم أصوات العربية: جان كانتينيو. ترجمة : صالح القرمادي. مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية. تونس (١٩٦٦م).

١٢ ـ السبعة في القراءات ـ لأبي بكر بن مجاهد ـ تحقيق د. شوقي ضيف ـ دار المعارف القاهرة)١٩٨٠م).
١٣ ـ سر صناعة الإعراب ـ لابن جنى ـ تحقيق : مصطفى السقا وآخرين مطبعة : مصطفى البابي الحلبي بمصر (١٩٥٤م).
١٤ ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك مطبوع مع حاشية الصبان ـ الطبعة الأولى بالمطبعة الشرفية (١٣١٩هـ).
١٥ ـ شرح التصريح على التوضيح لخالد الأزهري ـ دار إحياء الكتب العربية.
١٦ ـ شرح شافية ابن الحاجب للرضي: تحقيق محمد نور الحسن وآخرين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٧ ـ شرح المفصل لابن يعيش ـ ليبزج (١٨٧٦ ـ ١٨٨٦م).
١٨ ـ علم اللغة العام (الأصوات) د. كمال بشر ـ دار المعارف بمصر (١٩٧٣م).
١٩ ـ غاية النهاية في طبقات القراء ـ لابن الجزري. تحقيق : برجشتراسر ـ مطبعة الخانجي ـ القاهرة (١٩٣٢م).
٢٠ ـ الفصول الخمسون لابن معطي ـ تحقيق محمود الطناحي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي.
٢١ ـ فقه اللغات السامية : كارل بروكلمان : ترجمة د. رمضان عبدالتواب ـ مطبوعات جامعة الرياض ـ الرياض ـ (١٩٧٧م).
٢٢ ـ في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية: د. غالب فاضل المطلبي نشر وزارة الثقافة والإعلام بالعراق ١٩٨٤م.
٢٣ ـ في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس ـ مطبعة الأنجلو المصرية الطبعة الخامسة.
٢٤ ـ الكتاب لسيبويه : تحقيق : عبدالسلام هارون ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م).
٢٥ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت (١٤٠١هـ).

٢٦ ـ كلام العرب من قضايا اللغة العربية: د. حسن ظاظا ـ دار المعارف بمصر (١٩٧١م).
٢٧ ـ لسان العرب لابن منظور ـ دار صادر بيروت (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦م).
٢٨ ـ لطائف الإشارات لفنون القراءات للقسطلاني ـ الجزء الأول. تحقيق د. عبدالصبور شاهين والشيخ عامر عثمان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة (١٣٩٢هـ).
٢٩ ـ اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (١٩٧٣م).
٣٠ ـ المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها لمحمد الأنطاكي ـ مكتبة دار الشرق بيروت طبعة (١٩٧٢م).
٣١ ـ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبدالتواب. مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، طبعة أولى (١٩٨٢م ـ ١٤٠٣هـ).
٣٢ ـ المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ومعه التلخيص للحافظ الذهبي. نشر مكتب المطبوعات الإسلامية. حلب.
٣٣ ـ المفصل في علم العربية للزمخشري: دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ـ بيروت.
٣٤ ـ المقتضب للمبرد: تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (١٣٨٦هـ).
٣٥ ـ النشر في القراءات العشر: لابن الجزري ـ بتصحيح: على محمد الضباع ـ دار الفكر.
٣٦ ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية للسيوطي ـ تصحيح: النعساني ـ دار المعرفة ـ بيروت (مصورة أوفسيت).

الصورة البلاغة في شعر أبي تمام

عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشعلان
الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
بكلية اللغة العربية بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

يرى الباحث فى الدرس البلاغى أن أبا تمام[١] كان أهم الشعراء الذين أمدوا علماء البلاغة بالشواهد والأمثلة التى تمثل مقاييسها وفنونها، والتى لا نشك فى أنه قد تمثلها قبلهم على نحو ما.

ولطريقته الخاصة فى تمثل أساليبها وفهم فنونها، تعرض لكثير من الأدباء والشعراء والنقاد، مما كان له أعظم الأثر فى صياغة تلك المقاييس وجمعها ثم تهذيبها وشرحها.

وقد يظن بعض أدبائنا أن البحث فى شعر أبى تمام قد أشبع بتكاثر البحوث والدراسات حوله، كما قد يظن من فتن منهم بأدب الغرب ومقاييسه أن الارتباط بأدب التراث لا جدوى له، وأن الانشغال بالبحث حول الحداثه والمعاصرة والتماس المقاييس المستمدة من أدب الغرب أجدى على أدبنا من البحث فى التراث، بعطائه الزاخر وخصائصه المتميزة، ومقاييسه الفنية.

وتعتقد بنت الشاطىء (أن الأديب الذى يفقد اتصاله بتاريخ قومه وتراث أمته، لا يصلح بحال ما أن يعبر عن وجدانها المعاصر لأن فقدان وعيه لشخصيتها يجعله أجنبيا عنها، غريبا عليها، لا ينتمى اليها إلا الانتماء الرسمى الذى يشبه انتماء الطارئين عليها من المستوطنين الدخلاء)[٢].

أما عن الظن الأول فقد كفانا الدكتور / محمد النويهى الإجابة عنه حين قال: [٣](فان

(١) أبوتمام حبيب ابن أوس الطائى، ولد سنة ١٩٢ (وقيل غير ذلك) نشأ بمصر ثم انتقل إلى العراق، له ديوان الحماسه ومختار من شعر القبائل، وديوان شعره، كان ظريفا حسن الأخلاق كريم النفس، متوقد الذهن، قيل أنه يحفظ ١٤ ألف أرجوزه، بلغ فى الشعر غاية الكمال، فنظم فى كل ضرب، ولكنه بلغ فى الرثاء درجة لم يبلغها شاعر قبله ولا بعده - توفى فى الموصل سنة ٢٣٢ وعمره نيف وثلاثون.
- المصادر: وفيات الأعيان ١/٣٣٤، أخبار أبى تمام - للصولى، الموازنة للآمدى.

(٢) قيم جديده للأدب العربى ص ١٨٤.

(٣) الشعر الجاهلى، د. محمد النويهى ١/٢٩ ط، الدار القومية بالقاهرة.

ظننا أن ما ألفناه فى دراسة المتنبى ـ مثلاً ـ ولعله أسعد شعرائنا حظا فى عدد ما كتب عنه من الدراسات، قد بلغ كثرة تسمح لنا بالرضى والزهو، فاننا سيتبخر غرورنا ونثوب إلى رشدنا حين نقارن ما كتب عنه، لا بما كتب عن شاعر انجليزى من الطبقة الأولى بل بما كتب عن شاعر انجليزى دونها بطبقات، ومقارنتنا هنا أيضا محصورة فى الكم، فان وسعناها إلى القيمة تقطعت نفسنا حسرات، أحصيت الكتب والبحوث والرسالات التى ألفت عن الشاعر والقصص الانجليزى الحديث «د. هـ. لورنس» فزاد على ثمانمائه).

أما البحث عن أصالة أدبنا، والمزج بين الماضى والحاضر فى درسه والإفاده من معطيات الحاضر، فقد عبر عنه أحد نقادنا المعاصرين بقوله[٤] (بعث حضارة الشرق يجب أن يكون بإحيائها من سبيل بحثها على الطرائق الحديثة... وليقتحم أدبنا ماضينا، وليقتحم هذا الماضى بأدوات البحث الأدبى، وبأساليب الكتابة الحاضرة... وإحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه فى ماضينا، فى هذا الأمس العظيم الذى يفاخر به الشرق القديم تاريخ الإنسانيه جميعا، والذى يدعونا إلى أن نقيم عليه حضارة الشرق الجديد، أترى أن الوقت الذى يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد قد حان؟ بذلك أناديه فهل بلغت النداء؟).

قيمة الصورة البلاغية فى الشعر

يقول ابن سنان[٥]: (حكى أن بعض ملوك الروم سأل عن شعر المتنبى فأنشد له:

كأن العيس كانت فوق جفنى مناخات فلما ثرن سالا

وفسر له معناه بالرومية فلم يعجبه، وقال كلاماً معناه: ما أكذب هذا الرجل! كيف يمكن أن يناخ جمل على عين إنسان؟ وما أحسب أن العلة فيما ذكرته عن النقل إلى (غير) اللغة العربية منها وتباين ذلك، إلا أن لغتنا فيها من الاستعارات والألفاظ الحسنة

(٤) ثورة الأدب، د. محمد حسنين هيكل، ص ٢١٥ ـ ص ٢١٨.

(٥) سر الفصاحة، ص ٤١.

الموضوعة ما ليس مثله فى غيرها من اللغات، فاذا نقلت لم يجد الناقل ما يتوصل به إلى نقل تلك الألفاظ المستعارة بعينها وعلى هيئتها لتعذر مثلها فى اللغة التى تنقل إليها. . . وقد تصرف فى هذه اللغة بما لم أظنه تصرفاً فى غيرها من اللغات، فلم توجد إلا طيعه عذبه فى كل ما استعمل فيه نظما ونثرا، وهى إلى الآن لا تقف على غاية فى ذلك ولا تصل إلى نهاية كما قال أبوتمام فى هذا المعنى:

ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

حقا: ان الشعر ليس فى اللفظ وحده (كما يقول ابن خلدون) ولا هو فى المعنى وحده (كما يقول ابن رشيق) ولكنه فى الصورة البلاغية (الشعرية) كما يقول ضياء الدين ابن الأثير:

(٦) والشعر الجيد هو الذى يتعاون فيه اللفظ والمعنى على إبراز الصورة البلاغية بروزاً واضحا، وعند نقل مثل هذا الشعر من لغة إلى لغة يجوز للشاعر الناقل أن يضع معنى جزئيا مكان معنى جزئى، ولفظه معنية مكان لفظة معينة ولكن الصورة المقصودة يجب أن تبقى واحدة مع الهزة الشعرية التى يجىء بها الشعر الجيد. . إن رباعيات «عمر الخيام»، مثلا قد نقلت إلى لغات كثيرة نقولا مختلفة، ولهذه الرباعيات فى اللغة العربية نقول لأحمد حامد الصراف، ولأحمد الصافى النجفى، ولأحمد رامى، ولوديع البستانى ولغيرهم، والفروق بين هذه النقول مختلفة باختلاف مقدرة أصحابها، فهى تمثلهم هم ولا تمثل عمر الخيام الا بما بقى فيها من المعانى الخاصة به. . ولنأخذ مثلا واحدا من رباعياته نقلها النجفى نقلا حرفيا صحيحا كما يلى:

أتمنى ديوان شعر ونصفاً
من رغيف و. . . . . .
وجلوسا مع الحبيب بقفر
ذاك خير من ملك ذى سلطان

وقد نقلها (نصف رغيف) ومثله فعل أحمد رامى، أما محمد السباعى الذى جعل هذه

(٦) عبقرية اللغة العربية، د. عمر فروخ ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ١٤٠١ هـ ص ٣٠٠ وما بعدها.

الرباعية حماسية فقد نقلها (ورغيف) وأما وديع البستانى الذى جعلها سباعية فقد نقلها (ورغيفان) وهذا كله يدل على أن اللفظه لا تصنع الشعر ولا التركيب النحوى يصنعه، وانما يصنع الشعر الصورة البلاغية . . .).

وقد فسح أبوتمام فى شعره مراراً لاعتداده بنفسه وفخره ببلاغته، وأنه أخضع شعره لفكر دقيق، وملأه حكمة وبلاغة. ويرى بعض النقاد: (أن شعر أبى تمام[٧] متباين مباينة واضحة للشعر العربى المعروف لذلك العهد، لا من حيث أن أباتمام أفرط فى استعمال التشبيه والمجاز وغيرهما من وجوه البيان، ولكن لأنه يختلف عمن تقدمه ومن عاصره من الشعراء فى تصوره للشعر نفسه، وفى شدة أخذ نفسه بتحديد المعانى، ووحدة القصيدة وفى كلفه بوصف الطبيعة، وميله إلى المعانى الفلسفية يضمنها شعره أيا كان الموضوع الذى ينظم فيه، وقد راع ابوتمام معاصريه بما ابتدع فى الشعر، ولم يفرغ الناس بعد من الجدل فى محاسن شعره وعيوبه، وهو شعر نلحظ الأثر اليونانى ماثلا فيه من غير مراء).

اقرأ قوله مشيراً إلى بلاغته وأنه أخرج شعره كالدر والمرجان، أو كاللؤلؤ فى عنق الفتاة الجميلة.

[٨]كَشَفْتُ قِناعَ الشعر عن حُرِّ وجههِ ... وطَيّرتُه عن وكرِهِ وهو واقع
بغُر يراها من يراها بسمعهِ ... ويدنو إليها ذو الحجى وهو شاسع[٩]
يود وداداً أن أعضاء جسمه ... إذا أُنْشِدَتْ، شوقاً إليها مسامع

وكقوله: [١٠]

خذها مثقفة القوافى وبها ... بسوابغ النعماء غير كنودِ

(٧) مقدمة كتاب نقد النثر.

(٨) ديوان أبى تمام جـ ٤ ص ٥٩٠ شرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام، ودلائل الاعجاز، تعليق محمود شاكر ص ٥١٤، مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٨٤م.

(٩) أى أظهرت الشعر بعد كتمانه وأخرجته من مكنه بقواف يراها من يراها بسمعه دون بصره لأن الكلام لا يدرك بحاسة البصر ويدنو إليها العاقل إذا سمعها لحسنها وان كان بعيداً عن سماع الشعر) الديوان.

(١٠) ديوان أبي تمام جـ ١ ص ٣٩٧-٣٩٨ شرح التبريزي ودلائل الاعجاز ص ٥١٥ تعليق محمود شاكر، وقبل الأبيات

حَذّاءُ[11] تملأ كل أذن حكمةً وبلاغةً وتدر كل وريدِ
كالدر والمرجان ألف نظمه بالشذر فى عنق الفتاةِ الرَّود
كشقيقة البردُ المنمنم وشيه فى أرض مهرة أو بلاد تَزيد
يعطى بها البشرى الكريمُ ويرتدى بردائها فى المحفل المشهودِ
بشرى الغنى أبى البنات تتابعت بشراؤهُ بالفارس المولودِ

وقوله:[12]

إليك أرحنا عازب الشعر بعدما تمهلَّ فى روض المعانى العجائب
غرائبُ لاقت فى فنائك أُنْسها من المجد فهى الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت حياضك منه فى السنين الذواهب
ولكنه صوبُ العقول اذا انجلتْ سحائبُ منه أعقبْت بسحائب

من نادر وصفه للبلاغة قوله[13] فى بلاغة محمد بن عبدالملك الزيات الكاتب الوزير:

قوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يُعرف طيب عرق العود

(١١) حذاء: خفيفه السير فى البلاد.
تدر كل وريد: تذبح من يحسده أو يحاول ما حاوله.
الشذر: ما يصاغ من ذهب أو فضة على هيئة اللؤلؤه.
الفتاة الرود: الناعمة المتمايلة دلالا.
الشقيقة: ما يشق من البرد.
المنمنم: المنقوش نقشاً دقيقاً.
مهرة: من بلاد اليمن.
بلاد تزيد: من قضاعة تنسب إليها البرود النفيسه.

(١٢) ديوانه جـ ١ ص ٢١٣ - ٢١٤ ودلائل الاعجاز ص ٥١٦ ومطلع القصيدة:
على مثلها من أربعٍ وملاعب أذَلَتْ مصونات الدموع السواكب

(١٣) دلائل الاعجاز ص ٥١٨.

فى نظام من البلاغة ما شكَّ امرؤ أنه نظام فريدِ
وبديع كأنه الزهر الضاحك فى رونق الربيع الجديدِ
مشرق فى جوانب السمع ما يذ لقه عَوْدهُ على المستعيدِ
حجج تخرس الألدَّ بألفا ظ فرادى كالجوهر المعدودِ
ومعان لو فصلتها القوافى هجنت شعر جرول ولبيدِ
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدرك ن به غاية المراد البعيدِ

كان أبو تمام عالماً بالمقاييس البلاغية، بل إنه بلغ فى فهمها مبلغاً لم يبلغه شاعر قبله أو بعده.

(. . . ولا محالة أن العلم فى شعره أظهر منه فى شعر البحترى، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم)[١٤]

وعلم أبى تمام بصناعة الشعر يتجاوز ما ذكره النقاد مما (يحتاج مؤلف الكلام إليه من معرفة اللغة التى هى لغة العرب قدر ما يعرف كل شىء باسمه الذى وضعته له، ويجب أن يكون ذلك الاسم أفصح أسمائه ان كانت له عدة أسماء. . . ويحتاج فى علم النحو إلى معرفة اعراب ما يقع له فى التأليف، حتى لا يذكر لفظة إلا موضوعة حيث وضعتها العرب من إعراب أو بناء. . . ويحتاج إلى معرفة الخمسة عشر بحراً التى ذكرها الخليل بن أحمد، وما يجوز فيها من الزحاف. . . يحتاج إلى معرفة المشهور من أخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها ومنازلها وسيرها وصفة الحروب التى كانت لها، وما له قصه مشهوره، وحديث مأثور، فإنه قد يفتقر فى النظم إلى ذكر شىء منه، ويكون للمعنى به تعلق شديد وإذا ورد استحسن)[١٥].

وقد يفصح عن المصطلح البلاغى كقوله[١٦] (في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري):

---

(١٤) الموازنة، ص ١١.

(١٥) سر الفصاحة، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(١٦) ديوانه جـ ٢ ص ٣٢٢ من قصيدة في مدح محمد بن يوسف الثغري منها قوله:

وتقفـو لى الجـدوى بجـدوى وانـما يـروقـك بيت الشعـر حين يصرَّع[17]

وليس الغرض هنا الدفاع عن أبى تمام الذى (لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مخطئا أو محيلا، أو عن الغرض عادلا، أو مستعيراً استعارة قبيحة أو مفسداً للمعنى الذى يقصده بطلب الطباق والتجنيس، أو مبهما بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم، ولا يوجد له مخرج مما لو عددناه لكان كثيرا فاحشا، فكيف يكون ما أخذ على الشعراء من الوهم وقليل الغلط عذرا لمن لا تحصى معايبه ومواقع الخطأ فى شعره)[18].

ولكن هذا لم يمنع الآمدى من أن يصف بعض منتقدى أبى تمام بمثل قوله: (وتجاوز[19] ذلك بعضهم إلى القدح فى الجيد من شعره، وطعن فيما لا يطعن عليه، واحتج بما لا تقوم حجه به، ولم يقنع بذلك مذاكرة ولا قولا حتى ألف فى ذلك كتاباً، وهو أبو العباس أحمد بن عبدالله بن عمار القُطْربّلى، ثم ما علمته وضع يده من غلطه وخطئه الا على أبيات يسيره، ولم يقم على ذلك الحجة، ولم يهتد لشرح العلة، ولم يتجاوز فيما نعاه بعدها عليه، الأبيات التى تتضمن بُعْد الاستعارة، وهجين اللفظ...).

كما أن الغرض هنا ليس الانتصار لقضية عمود الشعر العربى التى دافع عنها الآمدى كثيراً فى كتابه الموازنة.

وانما الغرض الوقوف عند بعض الصور البلاغية فى شعر أبى تمام وبيان آراء بعض البـلاغيين والنقـاد فيهـا ومـا كان لاختلافهم فيها من أثر فيما بعد فى تنظيم قواعدها واحكامها على يدى عبدالقاهر الجرجانى والزمخشرى ثم السكاكى والخطيب وشراحهما.

= فَرُدَّتْ علينـا الـشمس والـليل راغـم شمس لهم من جانب الخدر تَطْلُعُ
فوالله ما أدرى أأحـلام نائـمٍ أَلَمْـتْ بنـا أم كان فى الـركـب يوشـع

(١٧) التصريع: تصيير مقطع المصراع الأول فى البيت الأول من القصيدة مثل القافيه فانه اذا كان كذلك دل على الروى وفيه دلالة على تمكن الشاعر واقتداره.

(١٨) الموازنـة، ص ٤٨.

(١٩) الموازنة، ص ٥ ـ ص ٨ وانظر مقدمة ديوان أبي تمام بشرح التبريزي جـ ١ ص ١٧ تحقيق محمد عبده عزام.

ويرى طه حسين (أن الذين عاصروا أبانواس ت ١٩٩ هـ. وجاؤوا بعده من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة، لم يكن لهم فى النقد مذهب معروف أو خطة واضحة، وان شئت فقل انهم كانوا يذهبون فى النقد مذاهب لا ترضينا ولا تحقق ما أصبحنا نسمو إليه من مثل أعلى فى النقد خاصة وفى الأدب عامة. . . ولكنى أستطيع أن أقول ان هذه المذاهب التى نجدها منبثة فى كتب الأدب على اختلافها قبل أن يصبح البيان علما ذو قواعد وأصول ليس من شأنها أن ترضى باحثاً أو تقنع أديبا. . . فانا لا نعرف لأدباء القرن الثانى والثالث للهجرة مذهباً فى النقد معروفاً أو خطة فيه واضحة ومع ذلك فقد نقدوا وحكموا على الشعر والنثر فاستحسنوهما وازدروهما، ولم تكن أحكامهم متفقة. . . فالشاعر ليس شاعراً لأنه يقول فيحسن وانما هو شاعر لأن قوله الحسن هذا يمثل عواطف الذين يسمعونه ويقرؤونه، يرضيهم ويقع من نفوسهم موقع الاعجاب. . .)[٢٠].

والمتتبع لهذه الخصومة النقدية حول مذهب ابى تمام يدرك أن الاختلاف فيها طبيعى، بل هو ضرورى أيضاً، شأن كل قضايا الأدب التى تتسع لمثل هذا الاختلاف، لكن غير الطبيعي أن يكون ذلك مدفوعا بالتعصب ومبنياً على التزييف، الذى أشار التبريزى إلى شىء منه فى مقدمة شرحه ديوان أبى تمام حين قال: (وبعد: فانى نظرت فى شعر أبى تمام حبيب بن أوس الطائى، وفيما ذكر فيه من التفاسير، فرأيت بعضهم يُنحى عليه، ويُهجِّن معانيه ويزيّف استعاراته، وبعضهم يتعصب له، ويقول من جهل شيئا عابه، كما أن من اعتسف طريقاً ضَلَّ فيه).

أما الصولى فقد استهوته طريقة أبى تمام فمضى يدافع عنه بمثل قوله: (. . .[٢١] وليت أبا تمام منى بعيب من يجل فى علم الشعر قدره، أو يحسن به علمه، ولكنه منى بمن لا يعرف جيداً ولا ينكر رديئاً الا بالادعاء. . .

ولو عرف هؤلاء ما أنكره الناس على الشعراء الحذاق من القدماء والمحدثين لكثر حتى يقلّ عندهم ما عابوه على أبى تمام، اذا اعتقدوا الانصاف ونظروا بعينه، ومنزلة عائب

(٢٠) حديث الأربعاء جـ ٢ / ص ٣٧١، ص ٣٧٢ ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٤م.

(٢١) أخبار ابى تمام للصولى، ٣٨.

أبى تمام ـ وهـو رأس فى الشعـر ـ ومبتدئاً لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغ فيه حتى قيل مذهب الطائى ، وكل حاذق بعده ينسب إليه ويقتفى أثره ـ منزلة حقيرة ، يصان عن ذكرها الذم ، ويرتفع عنها الوهد) .

والواقع أن الصورة البلاغية فى شعر أبى تمام قد شغلت كثيراً من البلاغين والنقاد القدماء ، كما وجدت مكاناً فسيحاً في البحث البلاغى والنقدى عند المعاصرين وخاصة الذين اطلعوا على الأدب الغربى ونقده ، وكثر الخلاف فى شعره لما قيل من خروجه عن عمود الشعر العربى المألوف . ولترسمه خطى مسلم بن الوليد الذى نشأت عنه مدرسة البديع ، وأنه من الذين تكلفوا ألوانه ، ومن الذين يستقصون المعانى لدرجة ابهامها وأن شعره (جاء على غير ما ألف القوم ، بعيد المعاني ، غريب الاستعارات ، مليئاً بالطباق والجناس فتعثرت به الأفهام والأقلام وكثر فيه التأويل ، وزاد فيه التصحيف والتحريف)[٢٢] .

قضية الابداع عند أبى تمام بين الطبع والتكلف

ان أبا تمام كما يقول المرزوقى : [٢٣] معروف المذهب فيما يقرضه ، مألوف المسلك لما ينظمه ، نازع فى الابداع إلى كل غاية ، حامل فى الاستعارات كل مشقة ، متوصل إلى الظفر بمطلوبه من الصنعة أين اعتسف وبماذا عثر ، متغلغل إلى توعير اللفظ وتغميض المعنى أنَّى تأتى له وقدر) .

ولكن المرزوقى يدرك حقيقة أنه من الصعب على أبى تمام فى تجربته الابداعية أن يتبع طريقة سابقيه ، ولذلك لا نجده يلومه فيها كما يفعل الآمدى فى دعوته إلى المحافظة على (عمود الشعر) بل كثيرا ما يعتذر له بما يوحي بأن الصورة انعكاس للمجتمع الذى يعيش فيه أو أنها تعبير شخص استمده من تراث أمته .

(٢٢) مقدمة ديوان أبى تمام ، ص ١٥ ، دار المعارف ١٩٦٤م .

(٢٣) مقدمة شرح ديوان الحماسه / للمرزوقى .

والحق أن أبا تمام كان مطبوعاً على النظم، متمكنا من قران الألفاظ بأخواتها وتنزيلها في منازلها في كثير من شعره، ومع ادراك أن قريحته لا تجود بألوان البديع من غير كدٍ، ولا تدر بها غريزته عفواً من غير قصد.

(وأن أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو لحسن ملاءمته ـ وان كان مطلوباً ـ بهذه المنزلة، وفي هذه الصورة)[٢٤].

وأن الصورة اذا كانت مطلوبة لم يسلم صاحبها من خطر الاستكراه والخطأ، والوقوع في الذم، كما وقع لأبي تمام في مواضع من شعره.

(ولن تجد أيمن طائـرا، وأحسن أولا وآخـرا، وأهـدى إلى الاحسـان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعاني على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فانها اذا تركت وما تريد لم تكتس الا مايليق بها، ولم تلبس من المعارض الا ما يزينها فأما أن تضع في نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم... وذلك كما تجده لأبي تمام اذا أسلم نفسه للتكلف، ويرى أنه ان مرَّ على اسم موضع يحتاج إلى ذكره، أو يتصل بقصه يذكرها في شعره، من دون أن يشتق منه تجنيسا، أو يعمل فيه بديعاً، فقد باء باثم، وأخـل بغـرض حتم)[٢٥]. ومـع أخـذ كثـير من البلاغيين والنقاد بملاحظات عبدالقاهر، فان بعضهم لا يرى أن ترسل المعاني على سجيتها لتطلب لأنفسها الألفاظ (فالشعر صناعة وضرب من التصوير).

كما لا يرى عيبا في الشاعر أن تكون الصورة البلاغية عنده مطلوبة، وتحتاج منه إلى تعمّل وجهد، اذا كان مطبوعا متمكنا من صناعة الشعر.

اذ لابد: (أن يسلك في تأليفه الطريق التي تخرجه من حكم الكلام المنثور العاطل

(٢٤) اسرار البلاغة ١٠.

(٢٥) اسرار البلاغة ١٣.

الذى يستعمله العامة فى المخاطبات والمكاتبات إلى حكم المؤلف الحالى بحلى البلاغة والبديع كالاستعارات والتشبيهات والأسجاع والتقسيم والتتميم والمقابلات وغيرها . .

فان الكلام انما يخرجه من حد النثر إلى حد النظم ما يقع فيه من هذه الفنون الا أنها وان كانت كذلك فانه لا ينبغى (للمؤلف) أن يستعمل شيئا منها على سبيل استكراه وتعسف، وانما يجب أن يستعمل منها ما جادت به قريحته من غير كد، ودرت به غريزته من غير غصب، فانه اذا تكلف ايقاع هذه الأنواع فى كلامه، ولم تأته عفواً لم يخل من افساد المعنى واحالته، وادخال الخلل فيه والاضطرار إلى وضع اللفظه فى غير موضعها، اللهم الا أن يكون مطبوعا على النظم متمكنا من قران الألفاظ بأخواتها وتنزيلها فى منازلها، ولا يحيل معنى عن وجهه ولا يستعمل لفظاً فى غير مكانه)[٢٦] .

وحين يتحدث ابن سنان عن التكلف يوضح أنه قدر مشترك بين القدماء والمحدثين (وأما من ذهب إلى تفضيل أشعار المتقدمين على أشعار المحدثين من حيث كانوا لم يتكلفوا أشعارهم، وانما نظموها بالطبع، والمحدثون بخلاف ذلك، فانه يقال له: ما الدليل على أن أشعار المتقدمين كانت تقع من غير تكلف؟ فان قال: بهذا جاءت الروايات عنهم، قيل الأمر بخلاف ذلك، والمروى عن زهير بن أبى سلمى أنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين، وكان يسميها الحوليات، ويقول: خير الشعر الحولى المحكك، والرواة كلهم مجمعون على هذا غير مختلفين فيه، واذا فضلوا شعر زهير قالوا: كان يختار الألفاظ ويجتهد فى احكام الصنعة، واذا وصفوا الحطيئة شبهوا طريقته فى الشعر بطريقة زهير. . . وهذا كله بمعزل عن الطبع وسهولة النظم، ولو لم يدل على ذلك الا قلة أشعارهم ـ فان ديوان بعض هؤلاء المحدثين مثل أشعار جماعة من المتقدمين فى الكثرة ـ لكفى ذلك فى تكلفهم الشعر ونقبهم فيه)[٢٧] .

(ولو[٢٨] تأملت قصيدة واحدة من شعر من يدعى القريض فى هذا العصر وجدت

(٢٦) كتاب مواد البيان «لعلى بن خلف» عاش فى منتصف القرن الخامس الهجرى ص ٨٤ / مخطوط، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية فى اطار جامعة فرانكفورت، ١٤٠٧هـ.

(٢٧) سر الفصاحة، ص ٢٧٥.

(٢٨) المصدر السابق، ص ٦٦.

فيها عدة أمثلة لكل ما أكرهه وأنكره، الا أنى أعتمد على التمثيل بأشعار هؤلاء الفحول المتقدمين فى هذه الصناعة لأمور: أولها: صيانة هذا الكتاب عن تهجينه بذكر غيرهم، وثانيها: أن اللفظة التى تكره فى نظم هؤلاء الحذاق تقع فريدة وحيدة يظهر مباينتها لكلامهم، فالعلم بها واضح، وكشفها جلى وقد قال حبيب بن أوس: [٢٩].

وكذاك لم تفرط كآبةُ عاطلٍ حتى يجاورها الزمـان بحـالى)

ويوضح أن التكلف لا يصح أن يكون معياراً فى المفاضلة والحكم على الشعراء الا اذا اعتمده الشاعر، وتكلف النصب طوعاً واختياراً وهوى وقصداً، وحظر المباح، وحرم الحلال وضرب لذلك مثلا فقال:

([٣٠] قف بالطلول الدراساتِ عُلاثا أضحتْ حبال قطينهن رثاثا

وإذا كان الروى قاده إلى ذلك، فليت شعرى من خطر عليه القوافى، واقتصر به على الثاء دون غيرها من الحروف؟ وليس يؤثر عنه إلا الشعر الحسن على أقرب الوجوه وأسهل السبل، دون ما يتكلف الشقة فى نظمه والعناء فى تأليفه، وليس يغفل للشاعر - لأجل ما يلزم به نفسه - عن ذنب، ولا يغفل له عن خطأ، إذا كان حظر المباح، وحرم الحلال، واعتمد تكلف النصب طوعاً، واختياراً وهوى وقصداً، لكنه، إذا أتانا بالسليم من الزلل البعيد من التكلف والخطل، وكان ذلك فى مأخذ صعب، ومسلك وعر، حمدناه الحمد الكامل، ووصفناه الوصف التام).

ولعل من الطريف أن نسوق هنا بعض ما أورده الآمدى الذى لم يتسامح مع أبى تمام كتسامح ابن سنان فى قضية التكلف الذى وجده عنده. (وأن اللفظة التى تكره فى شعره وغيره من الفحول الحذاق تقع فريدة وحيدة. . .).

يقول الآمـدى: -

([٣١] وأنـا أذكـر فى هذا الجـزء الـرذل من ألفاظه، والساقط من معانيه، والقبيح من

(٢٩) ديوان أبي تمام جـ٣ ص ١٣٢ من قصيدة في مدح المعتصم.

(٣٠) ديوان ابى تمام جـ ١ ص ٣١١. (٣١) الموازنة، ١/ ٢٥٩.

استعاراته، والمستكره المعقد من نسجه ونظمه، على ما رأيت المتأخرين يتذاكرونه، وينعون عليه، ويعيبونه، وعلى أنى وجدت لبعض ذلك نظائر فى أشعار المتقدمين فعلمت أنه بذلك اغْتَرَّ، وعليه فى العذر اعتمد، طلبا منه للإغراب والإبداع وميلا إلى وحشيِّ المعانى والألفاظ).

ولأن شعر أبى تمام كما قيل قد سبق عصره وخرج فى كثير منه على المألوف من عمود الشعر العربى فمن الطبيعى أن يلقى مقاومة شديدة شأن كل تجديد، فقد هاجمه كثير من أقرانه، كما ظلمه كثير من النقاد فى عصره، بل إن الخصومة حول شعره كانت أشد بعد عصره.

ولعل فى هذا المثال الذى نسوقه ما يصور شيئاً مما لقيه أبوتمام من بعض النقاد من محاولات وتمحلات لسلبه الأصاله، وعدم الاعتداد بإبداعه فى الشكل أو المضمون أو الصورة الجمالية مع أنه (من المجمع عليه عند أكثر نقدة المعانى وجهابذة الكلام أن أبا تمام من بين متعاطى صناعة النظم لم يكن يقول مما يصوغه إلا على ما يبتدعه خاطره، ويمتاحه رشا فكره من قليب قلبه ويجود به عفو هاجسه ولا يرتضى أمثال كلام الأولين، والاحتذاء على مثل السالفين، ثقه بنفاذ غريزته وصحة قريحته، وأنه لا تخلو قصيدة من قصائده من مثل سائر ومعنى نادر، وخبر غريب)[٣٢].

ويمضى هذا الناقد قائلا: (وأنت[٣٣] اذا اعتبرت جلّ معانيه وألفاظه لم تلف منها الا ما سُبق إليه، وتُقُدّم فيه، وقد أوردنا أبياتاً من نظمه مقرونه بأبيات من نظم من تقدمه ليعلم أنه متبع لاحق لا متسع سابق قال أبو تمام[٣٤]: -

(١) على مِثْلِهـا من أَرْبـعٍ وملاعب أُذِيلَتْ مَصُونـاتُ الـدموعِ السواكبِ

معنى هذا البيت مبتذل مطروق فى الشعر قديمه ومحدثه، والذى يضاهيه قول بعضهم:

(٣٢) مواد البيان، ص ٢٨٣ وما بعدها.

(٣٣) مواد البيان، ص ٢٨٣ وما بعدها.

(٣٤) فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى: أنظر الديوان ١/١٩٨ وما بعدها.

على أمثالهن من الربوع أذال الصب مكنون الدموع
(٢) أقولُ لِقُرحانٍ من البين لم يُضِفْ رسيس الهوى بين الحشا والترائب

هذا البيت من قول جرير:

. . . . . لو كنتُ من زفراتِ البين قُرحانا

والقرحان: الذى لم يُحذَّر، وهو فى البيتين مستعار.

(٣) أعنِّى أفرق شملَ دمعى فاننى أُرى الشَّمل منهم ليس بالمتقارب

هذا البيت ناقص الصنعة، لأنه كان ينبغى أن يقول:

ليس بالمتجمع

أو يقول (أعنّى أباعد شمل دمعى) حتى يطابقه «المتقارب» وليس هذا من الكلام اللازم، لكنه هو الأحسن فى ترتيب الكلام ومثل معناه قوله:

أعِنْ صَبًّا مُفَرَّقَ شملِ دمعٍ على شَمْلٍ يُفَرِّقُ للجميع
(٤) فما صار فى ذا اليوم عُذلك كله عَدوى حتى صار جهلَك صاحبى

معنى هذا البيت: أن صاحبه لما عذله على البكاء، ومنعه من الوقوف قال له: لم أتصور عذلك بصورة العدو حتى تملكنى، واستولى علّى استيلاء الصاحب، وعلمت أنك لا تعذل عن بصيرة، كما يعذل الناصح، ولكنك بلوتنى غرضاً فى إراحة الإبل وإعفائها من الحبس فى الدار، ويدل على صحة هذا التفسير قوله فى البيت بعده:

وما بِكَ اركابى من الرشد مُركباً الا انما حاولتَ رُشدَ الركائب

وهذان البيتان منتسخان من قول الآخر:

وما عَادَى هواى هواك حتى تمكن فرطُ جهلك فى الخليع
وما حاولتَ ارشادى ولكن حنوتَ على الضوامر فى النسوع
(٥) فكلنى إلى شوقى وسر يسر الهوى إلى حر قاتى بالدموع السوارب

وهذا قريب من قول الآخر:

فكلنى للجوى واترك جفونى تصب ماء الصبابة بالنجيع
(٦) أصابتك أبكار الخطوب فشتتت هواك بأبكار الظباء الكواعب

ومثـــــــله :

أصـابـتـك الخـطوب الـسـود لما أصـبـت بنهـد سوداء الـفـروع

(٧) وركب يساقون الركاب زجاجه من الـسـير لم تقصـد لها كف قاطب

يريد أنهم لم يمزجوا السير براحة .

ومثـــــــله :

وركـب فلا يسـاقـون المـطايا كؤوس سرى تدور بلا هجـوع

(٨) كأن به ضغـنـا على كل جانب من الأرض أو شوقـا إلى كل جانـب

وهو معنى قول منقذ الهلالى .

كل فج من الـبـلاد كأنـى طالـب بعض أهـله بدخـول

ومثـــــــله :

كأن له هوى فى كل أفـق وثـاراً يبـتـغـيه بكـل ريع

(٩) اذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد تقـطع ما بينـى وبـين الـنـوائـب

ومثل معنـاه :

اذا لاقـى الامـام بنـا المـهـارى أمـنـا سورة الخـطب الـفـظيع

(١٠) هنـالـك تلقى الجود حيث تقطعت تمائـمـه والمـجـد مرخـى الـذوائـب

يريد أن الجود لا يتحول عنه ، ومثله قول بعض بنى يربوع :

ما قصر الجـود عنـكـم يابـنـى مطر ولا تجـاوزكـم يا آل مسـعـود

يحل حيث حللتـم لا يفـارقـكـم ما عاقب الـدهـر بين البيض والسود

وهاتان الاستعارتان كثيراً ما وردتا فى الأشعار :

أعنى تقطيع التمائم ، وارخاء الذوائب ـ مستعارة لغير هذا المعنى ، ولا يتعذر على أهل الصنعة نقلهما إليه .

(١١) تكـاد مغـانيه تهـسن عراصهـا فتركـب من شوق إلى كل راكـب

هذا معنى حسن ومثله :

تكاد رباعه تهوى سراعا إلى العافين من فرط اشتياق
(١٢) يرى أقبح الأشياء أوبة آيب كسته يد المأمول حلة خائب

ومثله :

ترى عاراً إياب ذوى الأمانى عن المأمول بالرفد الصنيع

الا أن فى بيت أبى تمام استعارة حسنة .

(١٣) وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

هذا بيت حسن الصنعة، والمعنى رائع الديباجة، وقد قال بعضهم فى الشيب (الأخطل) .

رأين بياضاً فى سواد كأنه بياض العطايا فى سواد المطالب
(١٤) اذا ألجمت يوما لجيم وحولها بنو الحصن نجل المحصنات النجائب
فان المنايا والصوارم والقنا أقاربهم فى الروع دون الأقارب
حجافل لا يتركن ذا جبريه سليماً ولا يحربن من لم يحارب

هذا كما قال الآخر:

اذا سار الوليد إلى الأعادى بجيش فى المغافر والدروع
فان جموعه فى كل ضنك عزائم رأيه دون الجموع
عزائم تترك الجبار عبدا ويعرض بأسها دون الخنوع

(١٥) اذا افتخرت يوم تميم بقوسها
وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذى قار أمالت سيوفكم
عروس الذين استرهنوا قوس حاجب

وهذا معنى متداول، وقد قال أبو نواس يهجو تميما :

أول مجد لها وآخره أن ذكر المجد قوس حاجبها

(١٦) محاسن من مجد متى تقرنوا بها
محاسن أقوام تكن المعايب

المحاسن ليست (كفوا) للمعايب، وانما لفقها (المساوىء والمقابح) ولو قال: (مناقب) وقابلها (بمثالب) لكان أذهب بالصنعة.

(١٧) مكارم لجت فى علو كأنها تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

هذا من قول بشار:

معال تمادت فى العلو كأنما لها ترة عند السهى والفراقد

(١٨) وفيها:

اليك أرحنا عازب الشعر بعدما تمهل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقت فى فنائك أنسها من المجد فهى الآن غير غرائب

ومثلها:

اليك أرحت غارب كل شعر يرى معناه فى الروض المريع
غرائب من بديع المدح أضحت أوانس منك بالمجد البديع

(١٩) ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت
حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت
سحائب منه أعقبت بسحائب

وهذا قريب من قول أوس بن حجر:

أقول بما صبت على غمامتى وجهدى فى حبل العشيرة أحطب

وشبيه بقول الآخر:

ولو كان القريض له فناء لأفنته مواهب كالسيول

فتأمل افتقاد هذا الناظم المغلق، والقارض المبتدع فى الأمثال والابتداع وتقصيره فى

أكثر الأحوال، ليعلم أن الآخر عيال على الأول، واللاحق كَلٌّ على السابق).

ولا شك أن أبا تمام قد وفق فى هذه القصيدة فى كثير من الصور البلاغية وبرزت أصالته فى كثير من ا لمعانى على الرغم من تعقب هذا الناقد له، وقد وقف[٣٥] عبدالقاهر الجرجانى وهو يتحدث عن الجناس عند براعة أبى تمام فى قوله فى هذه القصيدة:

يمـدون من أيد عواص عواصـم تصـول بأسـياف قواض قواضـب

كما وقف الخطيب وغيره عنده، وعند قوله فيها أيضاً:

اذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا
صدور العوالى فى صدور الكتائب

ومعلوم أن هذه الصورة (صدور، وصدور) إحدى صور الجناس التام المفرد، الذى هو أرقى أنواع الجناس.

ويضيف ذلك الناقد:

(إن[٣٦] المعانى غير متناهية، الا أنها بما اعتورها من التداول والاستعمال لا تكاد تظفر منها بما لم يطرق، فأما التوارد فى المعنى الواحد فكثير جداً، ويوضح ما ذكرناه من ضيق المذهب على التالين فى استنباط المعانى الأحرار أن التالى اذا جد فى الابتداع واجتهد، وأصدر فى الاختراع وأورد، ووقع على معنى لم يطرق سمعه، وظن أنه ابتكره واخترعه، لم يخل أن يجده اذا تصفح كلام من تقدمه قد سبق إليه، وملك عليه، ويشهد على ذلك قول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

والمعنى: هل ترك الشعراء ـ لى ـ معنى من معانى الكلام الا وقد عطفوا عليه وسبقوا

(٣٥) وعلق على وجه الحسن فيه بقوله: (انك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم أنها هى التى مضت، وانما أتى بها للتأكيد، حتى اذا تمكن آخرها فى نفسك ووعاه سمعك، انصرف عنك ذلك التوهم، وفى ذلك حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها).

(٣٦) مواد البيان، ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

إليه، . . . وقد قالوا أيضاً: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وإن كان هذا القول على سبيل المبالغة لا على سبيل التحقيق، لأن المعانى لا تتناهى.

وقال الشاعر:

لا تقل بيت هجاء لا ولا بيت مديح
سبق الناس إلى كل قبيح ومليح)

ثم ضرب هذا الناقد مثالاً على التوارد على المعنى الواحد فقال: (يقول الأفوه الأودى:

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار

أخذه النابغة فقال:

اذا ما غدوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله اذا ما التقى الجمعان أول غالب

وأخذه حميد بن ثور فقال:

اذا ما غدا يوماً رأيت عصابة من الطير ينظرن الذى هو صانع

ولمروان بن أبى حفصه:

لا يشبع الطير إلا فى وقائعه فحيث ما سار سارت فوقه زمرا
عوارف أنه فى كل معترك لا يغمد السيف حتى يكثر الجزرا

ولمسلم:

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وأخذه أبوتمام فقال:[٣٧]

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش الا أنها لم تقاتل

(٣٧) ديوانه جـ ٣ ص ٨٢.

وقد زين أبوتمام بيته الأول بصورة الجناس التام بين ـ عقبان ـ وعقبان ـ كما زين بيته الثانى بصورة التشبيه فى محاولة منه للخروج من دائرة الاتباع إلى الابتداع، وان كان الآمدى قد تعقبه فى البيت الأول وعده من أخطائه فقال:

(. . [٣٨] نواهل من النهل، وهو الشرب الأول، والعلل: الشرب بعد الشرب، والعقبان وسائر جوارح الطير لا تشرب الدماء، وانما تأكل اللحوم).

وقد عده الخطيب من الأخذ الخفى المحمود، وذكر[٣٩] أن أباتمام زاد على الأفوه بقوله: (الا أنها لم تقاتل، وبقوله: فى الدماء نواهل، وبإقامتها مع الرايات حتى كأنها من الجيش، وبها تم حسن الأول).

على أن الذى يعنينا من بيتى أبى تمام هو محاولته الخروج من دائرة الاتباع إلى الابتداع عن طريق الصورة البلاغية، إذ يرى بعض النقاد أن (أقصى ما ينتهى إليه مبرز التالين أن يزين كلامه بإيقاع أنواع البلاغه فيه، وإذا تأمل ما يجرى عليه الأمر فى استعمال أنواع البلاغة كالاستعارة والتشبيه والمشاكلة وما يجرى مجراها، علم اجتناء سالفى البلغاء من الكتاب والخطباء والشعراء ثمار المعانى التى تقع فى كل نوع منها، وذلك أن استعمال الاستعارة التى هى أحد أقسام البلاغة، بل هى البلاغة ـ بدلالة قول أرسطاليس: البلاغة حسن الاستعارة. . . وكذلك التشبيه. .)[٤٠].

حقا لا يكون الشاعر شاعراً إلا بالإبداع، كما قيل لأن المستمع إذا لم يجد فى الشعر إلا قولا معاداً انصرف عنه قبل أن يستبد به الملل.

لكن الإبداع لا يعنى اختراع الأشياء فقط، كما وهم بعض النقاد كابن الأثير مثلا حين راح يحصى معانى أبى تمام المخترعة، لأن الاختراع فى الأدب نادر، والإبداع كما يراه كثير من النقاد ما هو فى الغالب الا أن يعمد الأديب إلى قوالب قديمة فيصب فيها مادة جديدة تنبع من فكره.

---

(٣٨) الموازنة، ١/٢٥٥.

(٣٩) التلخيص: ٤٢١ ـ شرح البرقوقى.

(٤٠) مواد البيان، ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

هذا هو الحق وليس ما قاله أحد النقاد[41]: (من أن أبا تمام نظر فى الشعر القديم والحديث، وأراد أن يجدد فلم يستطع إلا فى الصياغة، وذلك لأنه كان مغلولاً بالتقاليد).

واذا كان الآمدى قد تتبع سرقات أبى تمام فانه يقول عنها: [42] (ومع هذا فلم أر المنحرفين عن هذا الرجل يجعلون السرقات من كبير عيوبه، لأنه باب ما يعرى منه أحد الشعراء..).

ويطالعنا الأستاذ عباس محمود العقاد برأى واضح صريح فى أحد كتبه تحت عنوان (كيف يكون التجديد فى الشعر) فيقول:

[43] (وإذا أوجزنا قلنا إن التجديد هو اجتناب التقليد، فكل شاعر يعبر عن شعوره، ويصدق فى تعبيره فهو مجدد، وإن تناول أقدم الأشياء، هل شىء فى هذا العالم الأرضى أقدم من الشمس؟ وان الذى يصفها اليوم صادقاً فى وصفه غير مقلد فى تصويره مجدد تمام التجديد، وإن لم يأت بكلام جديد).

الاستعارة

الاستعارة جوهر شعر أبى تمام، وتعد من أساليب الرمز فى التعبير الأدبى بل لعلها أقوى تلك الأساليب فالحقيقة فيها خفية، والمعنى المراد مستور بحجاب، والإشارة إليه تحتاج إلى فطنة وذكاء، والحق أن الرمز يجرى فى أمور كثيرة كالتشبيه والكناية، والإيجاز والمبالغة وغيرها.

كما نرى فى الاستطراد عند قول أبى تمام[44] يهجو عثمان بن إدريس الشامى:

(٤١) النقد المنهجى عند العرب، ص ٥٦.

(٤٢) الموازنة، ص ١٢٤.

(٤٣) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية / للعقاد، ص ٤١، مكتبة غريب بالقاهرة.

(٤٤) الديوان جـ ٤، ص ٤٣٤، بشرح التبريزى.

١ ـ وسابح هطل التعداء هتان على الجراء أمين غير خوان
٢ ـ أظمى الفصوص ولم تظمأ قوائمه فخل عينيك فى ظمآن ريان
٣ ـ فلو تراه مشيحا والحصى فلق تحت السنابك من مثنى ووحدان
٤ ـ حلفت إن لم تثبت أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

(ألا تراه كيف استطرد بذكر ـ وجه عثمان ـ وكأنه لم يقصد لذلك ولا أراده وانما جرته القافيه . . وفى الاستطراد يمر ذكر الأمر الذى استطردت به مروراً كالبرق الخاطف كأنك لم تقصد وانما عرض عروضا)[٤٥] .

وأكثر النقاد يفرقون بين الرمز والغموض، فالرمز من الأساليب البلاغية، كما أسلفنا، ومن خصائص التعبير الفنى، وقد يترك الرمز وراءه قليلا من الظلال (أو الزوايا المعتمة) على حد تعبير أحد النقاد المعاصرين، والشعر الذى يفهم فى طرفة عين لا يترك غالباً اثراً فى المستمع، ولا يطلب من الأديب أن تستقر معانيه داخل أسوار المعنى الظاهر، وعند حدود اللفظ، ولعل هذا ما فهمه الناقد الفذ «المرزوقى» حين أعرض عن طريقة الآمدى فى تشنيعه بأبى تمام فى مثل قوله[٤٦]:

جارى إليه البين وصل خريدة ماشت إليه المطل مشى الأكبد

وعده من ردىء استعارته وبعيدها وقبيحها فقال:

(. . . [٤٧] فكأنه أراد أن يقول: ان البين حال بينه وبين وصلها . . . فعدل إلى أن جعل البين والوصل تجاريا إليه، كأن الوصل فى تقديره جرى إليه يريده فجرى البين ليمنعه فجعلهما متجاورين، ثم أتى فى المصراع الثانى بنحو من هذا التخليط، فقال: (ماشت اليه المطل مشى الأكبد) فالهاء هنا راجعه إلى الوصل: أى لما عزمت على أن تصله عزمت عزم متثاقل مماطل، فجعل عزمها مشيا، وجعل المطل مماشيا لها، فيامعشر الشعراء والبلغاء ويا أهل اللغة العربية: خبرونا كيف يجارى البين وصلها؟ وكيف تماشى هى مطلها؟ ألا تسمعون؟ ألا تضحكون؟).

(٤٥) أنوار الربيع، جـ ١، ص ٢٢٨ ـ ص ٢٢٩.
(٤٦) ديوانه جـ ٢ ص ٤٤ من قصيدته فى مدح المأمون التى مطلعها: كشف الغطاء فأوقدى أو أخمدى . . .
(٤٧) الموازنـه ١/ ٢٨٠.

إذ نجد المرزوقى يرفق بأبى تمام، ويتودد إلى معانيه، ويلتمس وجها لما أشكل منها، يقول المرزوقى فى توجيه البيت السابق:

[٤٨] (جارى إلى هذا الرجل البين، وصل هذه المرأة، فسبقه وحصل الفراق، وهذه الخريده كانت وهى تواصله، لا تنيله ولا تنجز موعده، بل كانت تماشى المطل مماشاة سريعة، كمشى الفرس الأكبد وهو العظيم الجوف...).

ويقول الآمدى: (ومن أخطائه[٤٩]:

دعـا شوقـه يانـاصر الشـوق دعـوة فلبـاه طل الـدمـع يجرى ووابـله[٥٠]

أراد أن الشـوق دعـا ناصراً ينصره فلباه الدمع، بمعنى أنه يخفف لاعج الشوق ويطفىء حرارتـه، وهـذا انـما هو نصرة للمشتاق على الشوق، والدمع انما هو حرب للشوق، لأنه يثلمه ويتخونه ويكسر حده... وقد تبعه البحترى فى هذا الخطأ فقال ينعى الديار التى وقف عليها:

نصرت لها الشـوق اللجـوج بأدمـع تلاحـقن فى أعقـاب وصـل تصرمـا

فقال المرزوقى فى توجيهه:

[٥١] (يجوز أن يكون أراد بناصر الشوق الحزن لأنه يضرم ناره، ويثير ما كمن منه ويهيج ساكنه، فيكون المعنى أن الشوق دعا ماله، واستغاث به، وهو الحزن فأجابه ما عليه، وكان خاذله وهو البكاء، وقد صرح أبوتمام بهذا المعنى فيما قبله، فانه قال:[٥٢]

لقـد أحسن الـدمـع المحـامـاة بعـدما أسـاء الأسىء إذ جاور القلب داخـل

ويجوز أن يكون أراد بياناصر الشوق: ياناصراً على الشوق، وجاز إضافته إليه على

(٤٨) شرح مشكلات ديوان أبى تمام: ص ٨، تحقيق د. عبدالله الجربوع.

(٤٩) الموازنـه ١/٢٢١.

(٥٠) ديوانـه جـ٣ ص ٢٢.

(٥١) شرح مشكلات ديوان أبى تمام، ص ٢٢٨.

(٥٢) ديوانه جـ٣ ص ٢٢.

طريقتهم فى إضافة الشىء إلى الشىء كان له أو عليه أو منه أو به أو معه وهذا مشهور عند أهل العربية).

بل يذكر الآمدى: أن للمجاز صوراً معروفة وألفاظ مألوفة معتادة لا تتجاوز فى النطق بها إلى ما سواها ...) وهو ما لم ينص عليه أحد من البلاغيين الذين حددوا فنون البلاغة ومقاييسها، وللوقوف على هذه الصورة اقرأ قول الآمدى:

(٥٣) (ومن خطأ أبى تمام قوله: (٥٤)

بيوم كطول الدهر فى عرض مثله ووجدى من هذا وهذاك أطول

فجعل للدهر - وهو الزمان - عرضاً، وذلك محض المحال، وعلى أنه ما كانت به إليه حاجة، لأنه قد استوفى المعنى بقوله (كطول الدهر) فأتى على الغرض، فى المبالغة، قيل هذه الألفاظ صيغتها صيغة الحقائق وهى بعيدة من المجاز لأن المجاز فى هذا له صورة معروفة وألفاظ مألوفة معتادة لا يتجاوز فى النطق بها إلى ما سواها... وكذلك إذا وصفوا ما ليس له طول ولا عرض على الحقيقة، فإنما يريدون التمام والكمال - ألا ترى إلى قول الراعى:

أنت ابن فرعى قريش لو تقايسها فى المجد صار إليك العرض والطول

فاستعار للمجد ههنا الطول والعرض، لأنه أراد صار إليك المجد بتمامه وكماله...)

وحين يأتى أبو تمام بصورة طريفة بديعة فى التشبيه فى قوله: (٥٥):

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم يضق عن أهله بلد

يتجاهلها الآمدى، ويعقب عليه بقوله:

(٥٦) (وهذا أيضاً غلط من أجل أن كل بلد يضيق بأهله، وليس ضيقته من جهة ضيق الأرض).

---

(٥٣) الموازنه ص ١٩٧.

(٥٤) ديوانه جـ ٣ ص ٧٢.

(٥٥) ديوانه جـ ٢ ص ١٢.

(٥٦) الموازنه / ص ٢٠٣.

وليس معنى هذا قبول الأسلوب الذى يشكل فيه المجاز مغامرة تعبيرية لا تقف عند حد، فقد حددت كتب البلاغة ضوابط المجاز وأنواعه، كما حددت أركان الاستعاره، فذكرت أن المستعار منه [٥٧] (هو الذى وضعت له العبارة أولاً وهو الأصل، والمستعار له هو معنى الفرع وهو المعنى الذى لم توضع له العبارة والمستعار هو اللفظ الذى نقل عن معنى الأصل إلى معنى الفرع - ولابد من اشتراك الطرفين فى معنى واحد، الا أن المستعار منه له قوة فى المعنى والدلالة ليست للمستعار له وكل استعارة بليغة فهى توجب بيانا لا تقوم فيه الحقيقة مقامها ولو قامت الحقيقة ذلك المقام لأجزت ولم يحتج إلى الاستعارة. . . كصفة امرىء القيس للفرس بقيد الأوابد - والحقيقة مانع الأوابد - وقيد الأوابد أبلغ. . .).

[٥٨] كما حددت المجاز المفيد والخالى من الفائدة، والاستعارة المفيدة وغير المفيدة.

[٥٩] (ومن الاستعارة القبيحة التى تخلو من جميع وجوه البلاغة أو أكثرها قول الشاعر:

- أسفرى للعيون ياضرة الشمس -

فان الغلط إنما تم عليه لاعتقاده أن الضرة لا تكون الا وضيئة جميلة، وقال المهلب لرجل من الأزد: مذمتى أنت؟ فقال: أكلت من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين، فقال: أطعمك الله لحمك).

كما عيب على بعض السعديين قوله:

[٦٠] سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق

فاستعار الأظلاف للرجل، ولا أظلاف له.

وقول الحطيئة:

- وقصر عن برد الشباب مشافره -

(٥٧) الايضاح، ٣/١٠٤، مواد البيان، ص ١٣١.

(٥٨) الايضاح للخطيب، ٣/١٠٢.

(٥٩) مواد البيان، ص ٢٥٥.

(٦٠) المصدر السابق، ص ٢٥٥.

فاستعار المشافر للرجل ولا مشافر له وانما المشافر للابل، وقد تحسن هذه الاستعاره، اذا استعملت فى الرجل على وجه الذم، ويجوز استعمالها عند الحاجة لاقامة وزن الشعر لأن من يسمعها يعرفها، كما يقولون فى الرجل:

انه لعريض البطان ـ ولا بطان له يمد عليه، وانما يريدون عرض وسطه.

والاستعارة إما ظاهرة، واما بعيدة.

فالظاهرة كقول أبى تمام:[٦١]

نطقت مقلة الفتى الملهوف فتشكت بغيض دمع ذروف

[٦٢] وإذا أردنا اظهار تركيبه قلنا: دمع العين الباكية فى حالها كاللسان الناطق).

أما البعيدة فهى التى لا ملائمة فيها بين المشبه والمشبه به كقول أبى تمام يمدح رجلا:[٦٣]

وتقاسم الناس السخاء مجزأً فذهبت أنت برأسه وسنامه
وتركت للناس الإهاب وما بقى من فرثه وعروقه وعظامه

قال العلوى:

[٦٤] (فأما البيت الأول فليس وراءه كبير معنى ولا بليغه، فان حاصله أنك ذهبت بالأعلى من السخاء وتركت للناس الأدنى، والبيت الثاني أرك وانزل فى البلاغة) غير أن ظهور الاستعارة وخفاءها، أو قربها وبعدها ينبغى ألا يتخذ مقياسا للجودة أو الرداءة.

ذلك أن الاستعارة تبنى على التشبيه[٦٥]، أو هى تشبيه حذف أحد طرفيه وكما لا يحمد فى التشبيه قربه وظهوره وتكرره على الحس، لا يحمد ذلك فى الاستعارة أيضاً، ومن هنا

(٦١) ديوانه جـ ٤ ص ٤٧٧.

(٦٢) الطراز، جـ ١، ص ٣٢٣.

(٦٣) ديوانه جـ ٣ ص ٢٤٦.

(٦٤) الطراز، جـ ١، ص ٣٠٠.

(٦٥) أخرجه بعض البلاغيين من علم البيان لأن دلالته وضعيه، وأنه إنما يذكر فيه من أجل بناء الاستعارة عليه.

كان التشبيه البليغ ما كثر فيه التفصيل في المعنى المشترك بين الطرفين أو كان المشبه به فيه خيالياً أو وهمياً أو طريفاً بديعاً، نادر الحضور فى الذهن عند حضور صورة المشبه، يقول العلوى:

[٦٦] (وكلما كان الإغراق فى التشبيه، والإبعاد فيه، وكونه متعذر الوقوع والحصول كان أدخل فى البلاغة وأوقع فيها...).

ويقول في مراتب التشبيه:

(اعلم[٦٧] أن الشيء المشبه به كلما كان أبعد عن الوقوع كان التشبيه المستخرج منه أغرب، ويكون فى المبالغة أدخل وأعجب، فمثال القريب تشبيه السيوف بالأمواج، وأطراف الأسنة بالكواكب ومنه قول أبى تمام:[٦٨]

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

ومثال البعيد الغريب تشبيه الفحم، إذا كان فيه جمر ببحر من المسك موجه ذهب).

حقا: إن بلاغة التشبيه تأتى من إخراجه الأغمض إلى الأوضح، والخفى إلى الجلى، وما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العاده، وما ليس له قوة فى المعنى إلى ما له قوة فيه، كما أنه يخرج المعقول إلى المحسوس.

(ويمثل الغائب الخفى الذى لا يعتاد، بالظاهر المحسوس المعتاد فيكون حسنه لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد، أو يمثل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة.

ومنه قول النابغة:

فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وهذا التشبيه يجمع المقصودين من الظهور، والمبالغة، أما الظهور فلأن علم الناس

---

(٦٦) الطراز، ١/ ٢٧٤.

(٦٧) الطراز، ١/ ٢٨٠ - ٢٨١.

(٦٨) ديوانه جـ ٣ ص ١٣٧ من قصيدة في مدح المعتصم.

بأن الليل لابد من إدراكه له أظهر من علمهم بأن النعمان لابد من ادراكه له ، وأما المبالغة فان تشبيهه بالليل الذى لا يصد دونه حائل اعظم وأفحم وأبلغ فى المدح)[٦٩] .

هذا هو الأصل كما يراه أبو هلال العسكرى وابن سنان الخفاجى وغيرهما ويرى ابن الأثير أن فضيلة التشبيه تأتى من جمعه بين صفات ثلاث هى :
المبالغة ، والبيان ، والايجاز.

ومن العلماء من ينكر تشبيه المحسوس بالمعقول لأن المشبه به يجب أن يكون أظهر وأقوى من المشبه ، لكن الصحيح كما قيل أن ذلك بحسب المقام ومقتضى الحال وأن التشبيه كغيره من فنون البيان يتأثر بحال الزمان والمكان ، ويتسع فيه المجال للتهذيب والتجديد ، وقد كان القدماء يشبهون الخدود بالورود فخالفهم المحدثون وشبهوا الورود بالخدود طلباً للمبالغة ، كقول بعضهم :

عشية حياني بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وقد حمل البلاغيون ما جاء من تشبيه المحسوس بالمعقول على المبالغة ، بتقدير المعقول محسوسا حتى صار أصلا فى وجه الشبه لتستقيم لهم القاعدة ، وهى اخراج الأغمض إلى الأوضح وما ليس له قوة فى الصفة إلى ما له قوة .

ولأن الحاق المحسوس بالمعقول قلب للأوضاع ، وجعل للفرع أصلا والأصل فرعا - وهذا لا يجوز ولا يستسيغه عقل - لولا قصد المبالغة - ومن العلماء من يستحسنه كما أسلفنا لما فيه من اللطافة والرقة والغرابة ومنه قول أبى تمام :

(وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا فتك الصبابة بالمحب المغرم

فشبه فتكه بالمال وبالعدا وذلك من الصورة المرئية ، بفتك الصبابة وذلك أمر معنوى ليس محسوسا ، وهذا من لطيف التشبيهات وأرقها وأدخلها فى البلاغة وأدقها ، ووجه البلاغة فيه هو الحاق المعانى بالأمور المحسوسة المدركة فى الظهور والجلاء فيصير فى الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس وفى هذا نهاية المبالغة)[٧٠] .

(٦٩) سر الفصاحة ، ص ٢٣٨ .
(٧٠) الطراز ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ .

[٧١] وقوله يمدح أبا دلف العجلى :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

وقد نقل عن ابن جنى (أن المولدين يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ) .

والحق أن التشبيه والاستعارة والكناية أهم مميزات الأسلوب الأدبى وأن روعة الأسلوب مرتبطة بدقة التصوير وبراعة الخيال وإثارة العاطفة عن طريق التأثير بالإقناع ، أو الإمتاع عن طريق التشويق .

ـ هل تؤدى الاستعارة الرديئة إلى فساد اللغة ؟ ـ

من الذين حملوا على أبى تمام حملة شديدة لجلبه المعانى الغامضة ، والأغراض الخفية ، الآمدى ـ والقاضى الجرجانى .

يقول الآمدى[٧٢] (وان كنت تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوى على غير ذلك فأبوتمام أشعر عندك لا محالة) .

وقال[٧٣] : (ومثل من فضل أباتمام ونسبه إلى غموض المعانى ودقتها وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح ، وهؤلاء أهل المعانى والشعراء أصحاب الصنعة ، ومن يميل إلى التدقيق وفلسفى الكلام) .

ويقول الجرجانى : ([٧٤] . . . . وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق ، واخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن ، كالذى نجده كثيراً فى شعر

(٧١) الديوان ، ١/٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، شرح التبريزى .

(٧٢) الموازنة : ٣ .

(٧٣) المصدر السابق : ٢ .

(٧٤) الوساطه ، ص ٢٤ ، على الجرجانى .

أبى تمام ، فانه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، وتبجح فى غير موضع من شعره فقال :

فكـأنـما هى فى الـسـماع جنـادل وكـأنـما هى فى الـقـلوب كواكـب[٧٥]

فتعسف ما أمكن ، وتغلغل فى التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعانى الغامضة وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل فصار هذا الجنس من شعره ، اذا قرع السمع لم يصل إلى القلب الا بعد اتعاب الفكر ، وكد الخاطر والحمل على القريحة ، فان ظفر به فمن بعد العناء والمشقة . . .) .

ولعل من الطريف أن نشير هنا إلى تعقيبين عليهما يتسمان بالتشدد وعدم المسامحة مع أبى تمام ، الأول لناقد قديم ، والثانى لمعاصر .

وقبـل أن نورد تعقيب الأول وهـو ابن سنان الخفاجى فى كتابة سر الفصاحة على القاضى الجرجانى ، يحسن أن نشير إلى خلافه أيضاً مع الآمدى لنفهم مراد الخفاجى .

فقد اختار الآمدى من جملة الاستعارة الحسنة قول امرىء القيس :

فقـلت له لما تمطى بصـلبـه وأردف أعـجـازاً ونـاء بكـلكـل

وقال : [٧٦]

إن هذه الاستعارة فى غاية الحسن والصحة .

فرد عليه ابن سنان بقوله : [٧٧] وهذا الذى قاله ـ الآمدى ـ لا أرضى به غاية الرضى ، ولو كنت أسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة ، أو أجنح إلى أتباع مذهبه من غير نظر وتأمل لم أعدل عما يقوله أبوالقاسم لصحة فكره ، وسلامة نظره ، وصفاء ذهنه ،

(٧٥) ديوانه جـ ١ ص ١٧٤ .

(٧٦) سر الفصاحة ، ص ١١٢ ـ ص ١١٣ .

(٧٧) سر الفصاحة ، ص ١١٢ ـ ص ١١٣ .

وسعة علمه، ولكنى أغلب الحق عليه ولا أتبع الهوى فيما يذهب إليه، وبيت امرىء القيس عندى ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها بل هو الوسط بينهما، وانما قلت ذلك لأن أباالقاسم قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطاً وعجزاً استعار له اسم الصلب وجعله متمطياً من أجل امتداده، وذكر الكلكل من أجل نهوضه، فكل هذا انما يحسن بعضه لأجل بعض. . . . وهذه الاستعارة المبنية على غيرها، فلذلك لم أر أن أجعلها من أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد).

١ - ابن سنان والجرجانى:

قال ابن سنان[٧٨]: (وأما قول أبى تمام:[٧٩]

أيامنا مصقولة أطرافها بك والليالى كلها أسحار

فمن الاستعارة المختارة، لأنه لما أراد الأيام المحمودة الصافية من الكدر والقذى جعلها مصقولة على وجه الاستعارة، وهذا تشبيه ظاهر، وأما قوله:[٨٠]

يادهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الانام من خرقك[٨١]

وقوله: فضربت الشتاء فى أخدعيه. . . .

فان أخادع الدهر والشتاء من أقبح الاستعارات وأبعدها مما استعيرت له، وليس لقبح ذلك خفاء، ولا يعرف أبوتمام الوجه الذى لأجله جعل للشتاء والدهر أخادع إلا سوء التوفيق فى بعض المواضع).

ثم أورد ما ذكره الجرجانى من توجيه لهذه الاستعارة وهو قوله:

(وسهله ما تقدم من تسامح الشعراء فى نعوت الدهر، وتوسعهم فى استعارة الأوصاف

(٧٨) سر الفصاحة، ص ١١٩ - ص ١٢٣.

(٧٩) ديوانه جـ ٢ ص ١٨١.

(٨٠) ديوانه جـ ٢ ص ٤٠٥.

(٨١) الأخدعان: عرقان فى صفحتى العنق.
الخرق: الحمق.

له واذا قال أبوتمام ـ يادهر قوم من أخدعيك ـ فانما يريد: اعدل ولا تَجُرْ، وأنصف ولا تحف، لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل، وأن يقذفوه بالعسف والظلم وبالخرق والعنف، وقالوا: قد أعرض عنا، وأقبل على فلان، وقد جفانا وواصل غيرنا، وكان الميل والاعراض، انما يكون بانحراف الأخدع وازورار المنكب، استحسن أن يجعل له أخدعا، وأن يأمره بتقويمه.

وهذه أمور متى حملت على التحقيق وطلب فيها محض التقويم أخرجت عن طريقه الشعر، ومتى اتبع فيها الرخص وأجريت على المسامحة أدت إلى فساد اللغة، واختلاط الكلام، وانما القصد فيها التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف، والاقتصار على ما ظهر ووضح، وهذه حكاية كلام القاضى أبى الحسن) وعقب عليه قائلا. . . . . وقوله: ان أبا تمام قال: يادهر قوم من أخدعيك. . . . . لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل. . . . الخ. كلام لا يغنى عن أبى تمام شيئاً لأنا قد ذكرنا أن الاستعارة اذا بنيت على استعارة قبحت وبعدت، والواجب أن تكون لها حقيقة ترجع إليها بلا واسطة. . .

ويقال للقاضى أبى الحسن: هل تجيز لبعض المحدثين أن يبنى استعارة أخرى على الأخدع فى الدهر لأن أبا تمام قد استعمل ذلك؟ ويبنى غيره على قول هذا المحدث استعارة أخرى بعيدة، ويؤول هذا إلى ما لا نهاية له، حتى يفسد الكلام وتختل العبارة. . .).

وواضح أن ابن سنان يطلب ظهور التشبيه فى الاستعارة وقد صرح بهذا فى ثنائه على الاستعارة الأولى لأبى تمام.

ولئن حالفه التوفيق فى هذا المطلب الذى نادى به كثير من البلاغيين والنقاد قبله كالآمدى والجرجانى، فان التوفيق لم يحالفه فى تضعيف الاستعارة عند امرىء القيس. أما ما ذكره الجرجانى من أن المسامحة واتباع الرخص فى الاستعارة تؤدى إلى فساد اللغة واختلاط الكلام كما حصل فى بيتى أبى تمام فتكتفى فيه بقول أحد النقاد المعاصرين عن أبى تمام:

[٨٢] (ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب، اذ يجلله دائما بشفق يأخذ بالألباب، ونعجب اذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله، كما حملوا على اكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع، حتى قالوا انه أفسد الشعر، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهاراً رائعاً تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق وبالشعر العربى قديمه وحديثه، كما تسنده قوة ملكته التى جعلته يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية).

ويقول فى موضع آخر منتقداً موقف الآمدى من شعر أبى تمام حين يستهل حديثه عن الأخطاء التى وجهها إليه مما نقله عن الرواة ورأى أنها[٨٣] (ترد إلى مطالبة الشاعر بالمعانى اللغوية الدقيقة للألفاظ ومن حق الشاعر أن يحور قليلا أو كثيراً فى المعنى القاموسى للكلمات... وانتقل إلى أخطائه واحالاته فحمل عليه حملة شديدة غير ملاحظ أنه صاحب مذهب جديد، وأن من حق كل صاحب مذهب أن يتحيف اللغة قليلا أو كثيراً بحكم تطوره بالشعر، فكل ما ذكره من أخطائه سواء فى المعانى أو الألفاظ انما مرجعة أنه أتى بمذهب جديد، ولكل مذهب أخطاؤه وخاصة فى نشأته، والمهم أن لا يفسد صاحب المذهب الذوق العام، ومن الحق أن أبا تمام لم يفسد ذوق العربية...).

ويمضى هذا الناقد فى رده على الآمدى قائلاً[٨٤]: (والآمدى يعلل لموقف النقاد منه فيقول: انما استعارت العرب المعنى لما ليس له، اذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه فى بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشىء الذى استعيرت له وملائمة لمعناه، وهو مخطىء فى هذه القاعدة التى وضعها للاستعارة ذلك أنه أدخل فى حيز الاستعارة ما سماه العرب بالاستعارة المكنية، وكان أرسطو يسميه (وضع الشىء تحت العين) أى بث الحياة والحركة فيه، وتسميه البلاغة الغربية الحديثة باسم التشخيص، وهو ينفصل عن الاستعارة القائمة على التشبيه... ولا بد أن نلاحظ

(٨٢) العصر العباسى الأول، د. شوقى ضيف، ص ٢٧٨.

(٨٣) البلاغة تطور وتاريخ، ص ١٢٩.

(٨٤) المرجع السابق، ص ١٣٠ - ١٣١.

أيضا أن أباتمام صاحب مذهب جديد، وأن من حقه أن يخرج على التقاليد السابقة فى الاستعارة، واذا كان القدماء لم يكثروا مثله من التشخيص، فمن حقه أن يكثر منه كما تشاء له ملكته التصويريه وليس من حق النقاد أمثال الآمدى وابن المعتز أن يأخذوا على يده).

٢ ـ ذكر الآمدى[٨٥]: أن قول أبي تمام:

[٨٦](لا تسقنى ماء الملام فاننى صب قد استعذبت ماء بكائى

قد عيب وليس بعيب عندى، لأنه لما أراد أن يقول: ـ قد استعذبت ماء بكائى ـ جعل للملام ماء ليقابل ما أراد، وان لم يكن للملام ماء على الحقيقة، كما قال عز وجل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ومعلوم أن الثانية ليست سيئة وانما هى جزاء على السيئة).

وهذه صورة المشاكلة التى حددها البلاغيون بأنها[٨٧]: «ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرا».

والعلاقة فيها ليست المشابهة لأنها ليست من الاستعارة وكان الصولى قد سبق الآمدى فى تحديدها وايضاحها فى هذا البيت، ولا شك أن التوفيق لم يحالف هذا الناقد حينما رد عليهما بقوله:

[٨٨](ومن غريب الأمر أن يأخذ الناقد الصادق الذوق الآمدى برأى الصولى فى هذا البيت... ولكننا نطلب على الأقل الا يكون هناك تنافر بين الشىء المستعار والشىء المستعار له، فكيف يعبر عن الشىء المر بالماء العذب حتى ولو استعذب أبوتمام «ماء بكائه»؟ وأبوتمام لا يتصور من كل ذلك شيئاً، ولا يحس بشىء، وانما هى صنعة باطله، ثم كيف يقاس ماء الملام بالكأس المرة، بل كيف يكون للملام ماءً؟... وانما النقد

(٨٥) الموازنة، ص ١١٣.

(٨٦) ديوانه جـ ١ ص ٢٢.

(٨٧) الايضاح، ٤/٣٣.

(٨٨) النقد المنهجى عند العرب، د. مندور، ص ٩٥.

الصحيح هو أن أباتمام قد أراد البديع فخرج إلى المحال، وقد ذكر «ماء البكاء» فكان لابد له وفاء للبديع ورداً للأعجاز على الصدور، أو رداً للصدور على الاعجاز من أن يذكر «ماء الملام» وهذا سخف يدل على الاسراف وصفاقة الذوق عند أبى تمام وعند ناقديه).

والحق أنه لا يصح الحجر على الشعراء بمثل هذا التحكم مادامت أساليبهم لا تخرج عن قواعد البلاغة فالصحبة كافية لذكر الشيء بلفظ غيره ـ كماء الملام ـ مصاحباً ـ ماء البكاء ـ ولا يطلب فى الطرفين تلاؤم بل علاقة، كما يوجد مستعار ومستعار له على طريقة الاستعارة، كما فهم هذا الناقد.

والمشاكلة أسلوب بديع نهجه أبوتمام كثيراً، ويمكن أن يحمل عليه كثير من أساليبه التى كانت موضع أخذ ورد فى كتب النقد كقوله يصف بعيره وما أصابه من هزال فى رحلته إلى ابن طاهر[٨٩]:

رعته الفيافى بعدما كان حقبة ... رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

والمعنى المراد ـ أنحلته وأضمرته بطرقها الوعثه وعبر عنه بالرعى مشاكلة لرعيه أعشاب الصحراء وهذا التوجيه أولى من حمله على التضاد بين رعته ورعاها وكقوله:[٩٠]

دمن طالما التقت أدمع المز ... ن عليها وأدمع العشاق

وقوله:

[٩١]رددت رونق وجهى فى صحيفته ... رد الصقال بهاء الصارم الخذم

وما أبالى (وخير القول أصدقه) ... حقنت لى ماء وجهى أم حقنت دمى

تحقيقا للمماثله بين صيانة الوجه وحقن الدم

[٩٢]وقوله:

---

(٨٩) الديوان، ١/٢٢٢.

(٩٠) الديوان، ٢/٤٤٧.

(٩١) الديوان، ٣/٢١٨.

(٩٢) الديوان، ١/٣٥٧.

شاب رأسى ومـا رأيت مشيب الـرأ س الا من فضـل شيب الـفـؤاد

إلى غير ذلك.

وقبل أن نترك هذه المسألة يحسن أن نورد رأى هذا الناقد فى شعر أبى تمام وموقف الآمـدى منه، ليقابل رأى معاصره الذى أشرنا إليه آنفا فيهما، مؤكدين أن الخصومة الأدبية حول شعر أبى تمام التى شغلت النقاد القدماء مازالت تشغل النقاد المعاصرين، يقول الناقد:

(٩٣) (ومن الواضح أن شعر أبى تمام صادر عن صنعة ووعى بما يفعل، وأن الطبع فيه ضعيف الحظ، وهو رجل خمر الشعر ودرسه فى كافة عصوره منذ الجاهلية الى عصره، كما تدل مختاراته الست).

ويقول منتصراً للآمدى: ومؤيداً موقفه من شعر أبى تمام:

(٩٤) (وأما أن يفضل ـ تمشياً مع ذوقه الخاص ـ الشعر الطبيعى السهل على الشعر المتكلف المقتصر فهذا ليس تعصباً، وهو من حق كل ناقد، والذوق هو المرجع النهائى فى كل نقد، وانما يأتى خطر تحكيم الذوق عندما نتخذه ستاراً لعمل الأهواء التحكمية التى لا تصدر فى أحكامها عن نظر فى العناصر الفنية، واحساس صادق بما فيها من جمال أو قبح، أو عندما يكون ذوقاً غفلا لم تجتمع فيه «الدربة إلى الطبع» كما يقول الآمدى نفسه، فالذوق الذى يعتد به هو ذوق ذوى البصر بالشعر. . . وبالرجوع إلى كتاب الموازنة نفسه نجد أن المؤلف لم يتعصب للبحترى كما لم يتعصب ضد أبى تمام، وانما هذه تهمـة اتهمـه بها النقاد اللاحقون عندما فسد الذوق، وغلبت الصنعة والتكلف على الأدب العربى، ونظر هؤلاء الأدباء المتأخرون فى بعض انتقادات الآمدى لسخافات أبى تمام «ووساوسه» ولم يوافقوا على تلك الانتقادات لمرض أذواقهم فقالوا: ان الرجل متعصب ضد أبى تمام، وهذا ظلم يجب أن نصلحه. . .).

(٩٣) النقد المنهجى عند العرب، ص ٥٥.

(٩٤) النقد المنهجى، ص ١٠٠

الجناس والطباق

وهما قسمان رئيسيان من أقسام البديع الخمسة التى بنى ابن المعتز كتابه البديع عليها.

١ ـ الجنـــاس :[٩٥]

وقد ذكر عبدالقاهر (أن الحسن فيه يتعدى اللفظ والجرس الى ما يناجى فيه العقل النفس، وأنك لا تستحسن تجانس اللفظتين الا اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميدا، وما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم الا بنصرة المعنى اذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه الا مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن).

وأكد أن مبنى الحسن فيه ما فيه من الخداع والايهام، اذا أعاد الأديب عليك اللفظة (كأنه يخدعك عن الفائدة، وقد أعطاها ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها...)[٩٦].

وحذر من الاستكثار منه حتى لا يطغى على المعنى وذكر أنك [٩٧](قد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيل اليه أنه اذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء، وربما طمس بكثره ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقل على العروس بأصناف الحلى حتى يناله من ذلك مكروه فى نفسها... كما[٩٨] تجده لأبى تمام اذا أسلم نفسه للتكلف، ورأى أنه ان مر على اسم موضع يحتاج إلى ذكره، أو يتصل بقصة يذكرها فى شعره من دون أن يشتق منه تجنيسا أو يعمل فيه بديعا، فقد باء باثم وأخل بغرض حتم...).

(٩٥) أسرار البلاغة ـ تحقيق ريتر، ص ٨.

(٩٦) المصدر السابق، ص ٨.

(٩٧) المصدر السابق، ص ٩.

(٩٨) المصدر السابق، ص ١٥.

ولتمكن أبى تمام من هذه الصناعة ومغرمته بأسرارها فقد استحسن البلاغيون والنقاد قوله :[٩٩]

السيف أصدق انباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وهو مطلع قصيدته فى مدح المعتصم حين فتحت عموريه ، مع أن أباتمام قد جمع فى هذا البيت عدة من أنواع البديع وهى : التصريع ، والجناس ، والطباق . ولكن جودة المعنى فيه ومهارة أبى تمام ، وتمكنه كما قلنا حالت دون ظهور التكلف فيه وجعلته ينال ذلك الاستحسان .

ويرى بعض العلماء[١٠٠] أن (المشاكلة فى المعنى على ثلاثة أضرب : المجانس ، والمزاوج ، والمطابق ، فالمجانسة كقول أبى تمام ـ السابق ـ فقوله : (فى حده الحد) تناسب بمعنى الأصل ، وذلك أن أصل الباب المنع ، ففى حد السيف منع ، وفى الحد بين الجد واللعب منع أيضا ، لأن معناه الفصل الذى يمنع أحدهما أن يختلط بالآخر ، وفى هذا البيت ترصيع ايضاً وهو مقابلة صورة الحد بصورة الجد ـ وهما متفقان خطاً لا لفظا ، وقد سمى البديعيون المجانسة تجنيساً وهو تفعيل من الجنس . . . ووجدت عامة من نظر فى البديع لم يفرق بين التجنيس والترصيع الا أبا علي الفارسى فانه فرق بينهما ومثل لكل منهما بأمثلة تميزه عن الآخر ، وذلك أن الجماعة يرون أن ما اتفق لفظه واختلف معناه من باب التجنيس ، وأبو على يراه من باب (الترصيع) ولم أسمع لغير أبى على كلاماً فى الترصيع ، وهذا يدل على أن أبا على قسم ما ضمنوه باباً فى بابين وسمى أحدهما تجنيساً ، والآخر ترصيعا ، وقد أحسن كل الاحسان ، وذلك أن الكلمة اذا اتفقت صورها وتقابلت فى المنظر بالخط أو فى المسمع باللفظ أشبهت الجواهر المتفقة الأجسام اذا تقابلت فى النظام ، واذا تضمن الكلم ما فى البعض من الحروف فقد تجانسا لاشتمال كل كلمة على أكثر ما فى الاخرى من الحروف التى ركبت منها . . . فمن التجنيس الذى يتفق لفظه ويختلف معناه قول بعضهم : اللهم انى مسلم ، مسلم ، وهذا القسم عند أبى علي

(٩٩) ديوانه جـ ١ ص ٤٠ .

(١٠٠) مواد البيان ، ص ١٧٨ وما بعدها .

الفارسى داخل فى باب الترصيع، ومن التجنيس الذى تتقارب حروفه قول أبى تمام:[101]

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة أضاء لها من كوكب الحق آفله

وهذا هو التجنيس الصحيح على مذهب أبى علي الفارسى، لأن حروف أحد الكلمتين وهما ظلمات وظلم مجانسة لحروف الأخرى. . . . وقال أبو علي الحاتمى والتجنيس نوعان: نوع تجانس فيه الكلمة أختها فى بعض حروفها وتشتق من معناها وهو كقول الله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ ونوع تجانس الكلمة فيه الكلمة فى حروفها دون معناها كقول رجل من عبس:

وذلكم أن ذل الجار حالفكم وأن أنفكم لا يأنف الأنفا

. . . وقد حكى عن أبى علي الفارسي أيضاً أنه يرى أن التجنيس صنفان: لفظى ومعنوى، فاللفظى اشتراك الكلمتين فى أكثر حروفهما كقوله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله تعالى ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ وقوله تعالى ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ وقوله تعالى ﴿يُخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

والمعنوى: أن يأتى فى الأول كلام ويأتى فى الثانى كلام يدل على أنه جواب له، وهذا يقع فى الجزاء كقوله تعالى ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى جازوه بما يستحق على سبيل العدل وهذا هو المزاوج. .).

وقد قسم العماء الجناس أقساماً، وفرعوا لها فروعا وألفوا فيه كتبا[102]، غير أن الذى[103] يجب عليه الاعتماد فى هذا الفن أن التوهم على ضربين: ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقادا، وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ ولكنه شىء يجرى فى الخاطر).

(١٠١) ديوانه جـ ٣ ص ٢٦ من قصيدة فى مدح المعتصم مطلعها:

أجلْ أيُها الربع الذى خفّ أهله
لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله

(١٠٢) ينظر فى ذلك «جنان الجناس»، للصفدى وكتاب «جنى الجناس» للسيوطى.

(١٠٣) أسرار البلاغة، ص ١٩.

والواقع أن الذى استهوى أبا تمام هو الجناس الناقص وجناس الاشتقاق وهو الذى لا يستحكم فيه الايهام ولا يشتد، ولكنه كما قال عبدالقاهر شىء يجرى فى الخاطر - وأنت تعلم حاله وهو وان كان أقل فى الجرس، فانه أدعى لعدم التكلف، فقد تحس فى كثير من صوره عنده بسلاسة الايقاع وعذوبة النغم إلى جانب ما اشترطه عبدالقاهر من جمال المعنى كقوله يمدح أباسعيد الثغرى: [١٠٤]

من سجايا الطلول ألا تجيبا ... فصواب من مقلتى أن تصوبا
فأسألنها واجعل بكاك جوابا ... تجد الشوق سائلا ومجيبا

وقوله: [١٠٥]

يابعد غاية دمع العين ان بعدوا
هى الصبابة طول الدهر والسهر

وكقوله[١٠٦]: وهو يمزجه برد العجز على الصدر.

قالوا الرحيل فما شككت بأنها ... نفس من الدنيا تريد رحيلا
الصبر أجمل غير أن تلذذا ... فى الحب أحرى أن يكون جميلا
أتظننى أجد السبيل إلى الغرا ... وجد الحمام اذن الى سبيلا

ونقل عن أبى علي الفارس قوله: (التتميم[١٠٧] مأخوذ من التمام وهو: اتباع كلمة معتلة بكلمة صحيحة تزيد الثانية على الأولى فى الخط بحرف واحد نحو: سار وسارب، وعار وعارف، وضار وضارب، وساع وساعد، قال ومنه قول أبى تمام: [١٠٨]

يمدون من أيدٍ عواص عواصمٍ ... تصول بأسياف قواضٍ قواضبِ)

(١٠٤) ديوانه جـ ١ ص ١٥٧.
(١٠٥) ديوانه جـ ٢ ص ١٠.
(١٠٦) الديوان جـ ٣ ص ٦٦ من قصيدة فى مدح نوح بن عمرو.
(١٠٧) مواد البيان، ص ٢١٦.
(١٠٨) ديوانه جـ ١ ص ٢٠٦.

وهـذه احـدى صور الجناس المعروفة،
وللجناس قيمة فنية أشار إليها كثير من البلاغيين والنقاد وعلى رأسهم عبدالقاهر.

(١٠٩)(ومع أننا نختلف معه فى كثير مما تحويه نظريته بسبب اغفاله التام لقيمة اللفظ الصوتيه مفرداً ومجتمعاً مع غيره، وهو ما عبرنا عنه بالايقاع الموسيقي كما يغفل الظلال الخيالية فى أحيان كثيرة، ولها عندنا قيمة كبرى فى العمل الفنى) مع هذا فاننا لا نختلف معه فى لومه أباتمام فيما وقع فيه من التعمل الظاهر والتكلف الواضح الذى انتهى به إلى القبح والتعقيد فى كثير من صور هذا الفن.

ولنضرب لذلك مثلا بقوله فى مدح خالد بن يزيد الشيباني، لما أراد المعتصم نفيه، فرغب خالد أن يكون خروجه إلى مكة فأجيب إلى ذلك، ثم شفع فيه أحمد بن دؤاد فأعفاه من الخروج(١١٠).

سيل طمـى لو لم يذده ذائـد ... لتبـطحـت أولاه بالـبـطحـاء
وغـدت بطون منـى منـى سيبـه ... وغـدت حرى منـه ظهـور حـراء
وتـعـرفـت عرفـات زاخـرة ولم ... يخصص كداء منـه بالأكـداء
ولـطاب مرتبـع بطيبـه واكتـست ... بردين برد ثرى وبـرد ثراء
لا يحرم الحـرمـان خيراً انهم ... حرمـوا به نوءاً من الأنـواء(١١١)

فقد جانس بين: يذود وذائد، وبين تبطحت والبطحاء، وبين منى ومنى، وحرى وحراء، وتعرفت وعرفات، وكداء والأكداء، وطاب وطيبه، وثرى وثراء، والحرم والحرمان.

(١٠٩) النقد الأدبى، أصوله ومناهجه، سيد قطب، ص ١٢٦ الطبعة الرابعة ١٩٦٦م.

(١١٠) ديوانه جـ ١ ص ١٠ وما بعدها.

(١١١) تبطحت: اتسعت.
حرى وحراء: جبل بمكة فيه الغار المعروف، والحرا: الناحية وصوت الطير.
كداء: جبل بأعلى مكة.
الأكداء: البخل.
الثرى: الندى.
النوء: النجم.

وكما صنع فى لاميته[112] التى مدح بها محمد بن عبدالملك الزيات :

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل ... وصدرك منها مدة الدهر آهل
تطل الطلول الدمع فى كل موقف ... وتمثل بالصبر الديار المواثل

٢ ـ التضاد:

يرى ابن سنان : [113] (ان تناسب الألفاظ من طريق المعنى على وجهين احدهما : أن يكون معنى اللفظين متقارباً، والثانى : أن يكون أحد المعنيين مضاداً للآخر أو قريباً من المضاد، فأما اذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة، وقد سمى أصحاب صناعة الشعر المتضاد من معانى الألفاظ المطابق . . . وسموا المتضادين اذا تقابلا متضادين) .

ونقل عن أبى على الفارسى قوله : [114] (ان المقابلة تطبيق لفظى لأن الكلمة تقابل فيه أختها على ترتيب، وهو قول حسن لأن المطابقة لا يراعى فيها ترتيب اللفظ، وانما يراعى الإتيان بالأضداد، ومثله يقول الشاعر ـ والمثال فى البيت الثاني :

وظبيه من ظباء الانس تؤنسنى ... درية الثغر كافورية النفس
تبكى وتضحك ان صدت وان وصلت ... فنحن فى مأتم منها وفى عرس

فابتدأ بالبكاء وأتبعه الضحك، وقابل البكاء بالصد والمأتم، والضحك بالوصل والعرس على ترتيب من غير تقديم ولا تأخير) .

والصحيح أن هذا من اللف والنشر أو التفسير بعد الابهام : وهو أن يأخذ المتكلم فى معنى فيورده غير مشروح، ثم يقع له أن السامع لا يتصوره بحقيقته فيعود راجعاً على ما تقدمه فقوله (ان صدت) يعود على تُبكى، وقوله (ان وصلت) على (تضحك)، وكذا

(١١٢) الديوان جـ ٣ ص ١١٢ .
(١١٣) سر الفصاحة، ص ١٩٢ .
(١١٤) مواد البيان، لعلي بن خلف، ص ٢٠٧ .

قوله فى مأتم منها وفى عرس، على هذا الترتيب ولا يشترط فى الثانى أن يكون على ترتيب الأول بل هو يعتمد على ذهن السامع من غير تعيين أو قرينه لفظيه.

ومع ما فى هذا الأسلوب من قوة الربط واحكام السبك بين الألفاظ فليس من خصائص أسلوب أبى تمام الذى (يتضح[١١٥] فيه دقة معانيه، وغوصه على طرائفها النادرة محتكما إلى قانونى التضاد والقياس، وإلى كثرة التوليد والاستنباط).

كقوله:[١١٦]

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثام

[١١٧] (والتقدير فيه أنه يتجنب الآثام، فاذا تجنبها فقد أتى بحسنه، ثم يخاف أن لا تكون تلك الحسنة مقبولة، فكأنما حسناته آثام فلم يخف الحسنة لكونها حسنة، وانما خاف ما يتصل بها من الرد فكأنها مَخُوفَة، كما تُخَاف الآثام، وهذا يأتى على طبق الآية[١١٨] ووفقها «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله».

وهذا من بديع الأسرار والمعانى التى فاق بها على نظرائه أبوتمام وابن هانىء. وحكى عن أبى الأثير أنه سئل عن هذا البيت وقيل كيف تكون حسناته آثاما، وكيف ينطبق صدر البيت على عجزه فتحير فيه ثم فكر ونزله على مثل ما ذكرناه).

وقوله:

وظلمت نفسك طالباً انصافها فعجبتُ من مظلومةٍ لم تظلَمِ

(وأراد بقوله: ظلمت[١١٩] نفسك طالباً انصافها، أنك أكرهتها على تحمل الأثقال فى مشاق الأمور، فاذا فعلت ذلك فقد ظلمتها، ثم انك مع ظلمك اياها فقد أنصفتها

(١١٥) العصر العباسي الأول، د. شوقى ضيف، ص ٢٧٨.

(١١٦) ديوانه جـ ٣ ص ١٥٣ من قصيدة في مدح المأمون.

(١١٧) الطراز، جـ ٢، ص ٩٨.

(١١٨) سورة المؤمنون، آية ٦٠.

(١١٩) الطراز، جـ ٢، ص ١٣٠ - ١٣١.

لأنك جلبت إليها أشياء حسنة تكسبها ذكراً جميلا ومجدا مؤثلا، فكنت منصفاً لها فى صورة ظالم.

ومعنى قوله فعجبت الخ . . . ، أنك ظلمتها وما ظلمتها فى الحقيقة، فقد أعجب فى بيته هذا بجمعه فيه بين النقيضين ـ الظلم والانصاف ـ كما ترى).

وعد الآمدى من أخطائه[١٢٠] فى التضاد لأجل رداءة المعنى وفساد التقسيم قوله: [١٢١]

والحربُ تركب رأسها فى مشهدٍ ... عُدِل السفيهُ به بألفِ حليمِ
فى ساعةٍ لو أن لقمانا بها ... وهو الحكيمُ لكان غير حكيمِ
جثمت طيورُ الموت فى أوكارها ... فتركن طير العقل غير جُثُومِ

فالبيتان الأولان جيدان ـ وقوله «جثمت طيور الموت فى أوكارها» بيت ردىء القسمة، ردىء المعنى، لأنه جعل طير الموت فى أوكارها جاثمة أى ساكنة لا يُنَفرها شىء، وطير العقل غير جثوم، يعنى أنها نفرت فطارت، يريد طيران عقولهم من شدة الروع، وما كان ينبغى أن يجعل طير الموت جثوما فى أوكارها، وانما كان الوجه أن يجعلها جاثمة على رؤوسهم، ووقّعا عليهم فأما أن تكون جاثمة فى أوكارها فانها فى السلم، وفى الأمن جاثمة فى أوكارها أيضا ـ وطير العقل ليست بضد لطير الموت ولو كان قال:

جثمت طيور الموت فوق رؤوسهم ... فتركن أطيار الحياة تحومُ

لكان أشبه وأليق . . . .)

أما المرزوقى فيقول: [١٢٢] (والحرب تركب رأسها . . . الخ أراد بالمشهد المعركة والمعنى أن الحرب اهتاجت وركبت رأسها، كما يفعل ذلك الفرس الجموح فى مشهد يُعْدل الجاهل الواحد فيه بألف عاقل، وانما قال هذا لأن صاحب الحرب محتاج إلى تهور

(١٢٠) الموازنه، ١/٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(١٢١) ديوانه جـ٣ ص ٢٢٦.
(١٢٢) شرح مشكلات، ديوان أبى تمام، ص ٢٢٨، للمرزوقى، تحقيق د. عبدالله بن سليمان الجربوع.

واقدام، وقلة الفكر فى العواقب، والعاقل بمجانبته لهذه الأشياء يستحق الوصف بالعقل).

كما ذكر الآمدى [١٢٣] (من أخطائه فيه قوله: [١٢٤]

من حُرْقة أطلقتها فرقة أسرت قلباً ومن غزل فى نحره عذل

قوله: (أطلقتها فرقة) أى أبرزتها وأظهرتها، وانما قال (أطلقتها) من أجل قوله (أسرت قلبا) ليطابق بين الاطلاق والأسر، وقوله (أسرت قلبا) يعنى الفرقة، معنى ردىء لأن القلب انما يأسره ويملكه شدة الحب لا الفراق... فان قيل: فلم لا يكون (أسرت قلبا) للحرقة لا للفراق؟ قيل: لا يكون ذلك، لأن الأسر اذا قبح أن يكون فعلا للفرقة قبح أن يكون فعلا للحرقة، لأن الفرقة هى التى جلبت الحرقة فشأنها كشأنها).

والواقع أن أبا تمام كثير المزج بين الطباق والجناس، ولعله أدرك ما فى المناسبة والمقارنة بين المعانى (فان للنفوس[١٢٥] فى تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكا وايلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لآن تناصر الحسن فى المستحسنين المتماثلين، والمتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها فى شىء واحد. وكذلك حال القبح، وما كان أملك للنفس وأمكن منها فهو أشد تحريكا لها، وكذلك أيضاً مثول الحسن ازاء القبيح أو القبيح ازاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخلياً عن الآخر لتبين حال الضد بالمثول ازاء ضده، فلذلك كان موقع المعانى المتقابلات من النفس عجيبا.

وايراد المتشابهات بلفظ التماثل كقول حبيب: [١٢٦]

دِمَن طالما التقت أدمع المز ن عليها وأدمع العشاق

(١٢٣) الموازنه، ص ٢٢٥.

(١٢٤) ديوانه جـ ٣ ص ٧.

(١٢٥) منهج البلغاء ـ لحازم القرطاجنى، ص ٤٥.

(١٢٦) الديوان جـ ٢ ص ٤٤٧.

ومع تعلق أبى تمام بصور الجناس والطباق، وكثرتها فى شعره، فقد سلم له منهما الكثير الذى يدل على مهارته فيهما، وقدرته الفائقة على الغوص على الطرائف النادرة فى اجتلاب المعانى كما أسلفنا.

وأقرأ له هذه الأبيات فى[١٢٧] مدح أحمد بن أبى دُوَاد:

سعدت غربة النوى بسعاد ... فهى طوع الاتهام والانجادِ
فارقتنا وللمدامع أنوا ... سوار على الخدود غواد
كل يوم يسفحن دمعا طريفاً ... يمترى مزنة بشوق تلاد
واقعاً بالخدود والبرد منه[١٢٨] ... واقع بالقلوب والأكباد
شاب رأسى وما رأيت مشيب الرأ ... س الا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوب فى كل بؤس ... ونعيم طلائع الأجساد
طال انكارى البياض وان عُمر ... ت شيئاً أنكرت لون السواد
ياأبا عبدالله أوريت زندا ... فى يدى كان دائم الاصلاد

وقوله[١٢٩] فى مدح الحسن بن سهل:

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق ... وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب اذا لاقيتهن رددننى ... جريحاً كأنى قد لقيت الكتائبا
وقد يكهم السيف المسمى منية ... وقد يرجع المرء المظفر خائبا
وكنت امرءاً ألقى الزمان مسالما ... فأليت لا ألقاه الا محاربا

(١٢٧) الديوان، جـ ١، ص ٣٥٦ وما بعدها.
(١٢٨) رواية التبريزي (والحر منه).
(١٢٩) الديوان، ١/ ١٤٠ من قصيدة في مدح الحسن بن سهل.

- براعة الاستهلال -

انبرى أبوتمام يرثي محمد بن حميد الطوسى الطائى مراثى رائعة تصور جلده فى القتال، وصبره فى النضال حتى الموت على نحو ما يلقانا فى مرثيته العينية التى استهلها استهلال بديعاً بقوله: (١٣٠)

أصم بك الناعى وان كان أسمعا
وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا
فما كنت الا السيف لاقى ضريبة
فقطعها ثم انثنى فتقطعا

قال ياقوت فى معجم الأدباء(١٣١) عن كتاب الموازنة (وهو كتاب حسن وان كان قد عيب عليه فى مواضع منه، ونسب إلى الميل الى البحترى فيما أورده، والتعصب على أبى تمام فيما ذكره، والناس فيه بعد على فريقين، فرقة قالت برأيه حسب رأيهم فى البحترى، وغلبة حبهم لشعره، وطائفة أسرفت فى التقبيح لتعصبه فانه جد واجتهد فى طمس محاسن أبى تمام، وتزيين مرذول البحترى، ولعمرى ان الأمر كذلك، وحسبك أنه بلغ فى كتابه إلى قول أبى تمام:

«أصم بك الناعى وان كان أسمعا» وشرع فى اقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين، فتارة يقول: هو مسروق، وتارة يقول هو مرذول إلى غير ذلك من تعصباته، ولو أنصف وقال فى كل واحد بقدر فضائله لكان فى محاسن البحترى كفاية عن التعصب بالوضع من أبى تمام».

أما صاحب الطراز فيقول ان المبادىء والافتتاحات من أركان البلاغة. (١٣٢) (ومن أحسن ما قيل فى الافتتاح ما قاله أبوتمام فى قصيدته التى مدح بها المعتصم عند فتحه

(١٣٠) الديوان جـ ٤ ص ٩٩.
(١٣١) معجم الأدباء لياقوت، ٨ : ٨٧ - ٨٨، دار المأمون.
(١٣٢) الطراز، جـ ٢، ص ٢٧٦ - ص ٢٧٧.

لمدينة عمورية، وقد كان أهل التنجيم زعموا أنها لا تفتح عليه فى ذلك الوقت، وأفاض الناس فى ذلك حتى شاع الأمر، وصار أحدوثة بين الخلق، فلما فتحت عليه بنى أبوتمام مطلع القصيدة على هذا المعنى مكذباً لهم فيما قالوه ومادحاً للمعتصم فى شدة البأس واعراضه عن التطير بالنجوم فقال: (١٣٣)

السيف أصدق انباءً من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

فهذا المطلع من أجود ما يأتى فى هذا المعنى ومن مستظرفاته . . . ومن ذلك ما قاله أبوتمام يمدح المعتصم: (١٣٤)

الحق أبلجُ والسيوفُ عوار فحذار من أسد العرين حذار

وهذه القصيدة من لطائف قصائده وعجائبها، ومطلعها يناسب ما ذكره فيها من ثنائه عليه وظفره ببابك الخرمى . . .).

وسر بلاغة براعة الاستهلال، كما تذكر كتب البلاغة (١٣٥) (أن يكون أول الكلام دالاً على ما يناسب حال المتكلم، متضمنا لما سيق الكلام لأجله من غيرتصريح، بل بألطف اشارة يدركها الذوق السليم، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن المقفع، على ما نقل عنه الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين فى كلام له فى تفسير البلاغة حيث قال: (وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر: البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته) . . . ان براعة الاستهلال فى مطلع القصيدة هو كونه دالا على ما بنيت عليه من مدح أو هجاء أو تهنئة أو عتب أو غير ذلك. فاذا جمع المطلع بين حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال كان هو الغاية.

والبراعة: مصدر قولهم برع الرجل - أى فاق أصحابه - . . وانما سمى هذا النوع الاستهلال، لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به . . .).

---

(١٣٣) ديوانه جـ ١ ص ٤٠.

(١٣٤) الطراز جـ ٢ ص ١٩٨.

(١٣٥) أنوار الربيع، ١/٥٣-٥٦.

[136](قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء ويسمى براعة المطلع وهو أن يتأنق المتكلم فى أول كلامه، ويأتى بأعذب الألفاظ وأجزلها وأدقها، وأسلسها وأحسنها نظماً وسبكاً وأصحها مبنى، وأوضحها معنى، وأخلاها من الحشو والركه والتعقيد، والتقديم والتأخير الملبس والذى لا يناسب).

ومن براعة الاستهلال قول أبى تمام[137] يرثى محمد بن حميد الطوسى أيضاً:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وهى القصيدة التى قال أبو دلف العجلى فيها لأبى تمام[138]:

وددت والله أنهالك فىّ، فقال: بل أفدي الأمير بنفسى وأهلى، وأكون المقدم قبله، فقال انه لم يمت من رثى بهذا الشعر:[139].

فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر ان فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلّت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده اليه الحفاظ المر والخلق الوعر

ومن مطالع أبى تمام التى استهجنها أبوالطيب المتنبى قول أبى تمام: خشنت عليه أخت بنى خشين. . . .

[140](ومن المطالع التى لم تجمع الشروط المتقدمة قول ابى تمام ايضاً:[141]

لو أن دهراً رد رجع جوابى أو كف من شأويه طولُ عتابِ

(١٣٦) المصدر السابق، ١/٣٤.
(١٣٧) ديوانه جـ ٤ ص ٧٩ وما بعدها.
(١٣٨) الأغانى، ١٦/٢٩٠، أخبار أبى تمام والصولى ص ١٢٥.
(١٣٩) ديوانه جـ ٣ ص ٢٩٧.
(١٤٠) أنوار الربيع، ١/٧٢.
(١٤١) ديوانه جـ ١ ص ٧٥.

فانه متعلق بما بعده، لمكان جواب (لو) وهو قوله :

لعـذلـتـه فى دمـنـتـين بأمْـرَهَ ممحـوتـين لزينـبٍ وربـــــــابٍ

. . . . ومن شروط حسن الابتداء أن لا يكون المطلع متعلقاً بما بعده .

. . . . وقالوا وينبغى أن يحترس الناظم مما يتأول عليه كما قيل لأبى تمام حين أنشد : (على مثلها من أربع وملاعب) . . . . ؟

وكان فى أبى تمام حبسة شديدة فانقطع خجلا . . . .) .

- المبالغـــة -

لا نستطيع أن نفصل المبالغة عن كثير من الأساليب البلاغية : كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، والتجريد، وحسن التعليل، وتأكيد المدح بما يشبه الذم وغيرها، لذلك قبلها بعض البلاغيين دون قيد بدعوى أن أعذب الشعر أكذبه .

(. . . وان أكثر النظم اذا كشف وجد لا يعبر عن جد، ولا يترجم عن حق، وانما الحذق فيه الافراط فى الكذب والغلو فى المبالغة، وأكثر النثر شرح أمور متيقنة وأحوال مشاهدة، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتقريب)[١٤٢] .

ومنهم من وضع لقبولها شروطاً وقسمها أقساماً . . .

(وقد سماها قوم الغلو وآخرون الاغراق وآخرون الافراط فى الصنعة، قال أبوالفرج قدامه : المبالغة من نعوت المعانى وهى أن يذكر المؤلف معنى ما لو اقتصر عليه كان كافياً فلا يقتصر على ذلك المعنى حتى يؤكده، ويبالغ فيه، وينتهى به إلى أبعد غاياته . وقال الحاتمى : الاغراق هو المبالغة فى استنباط المعانى التى توجب الفضيلة استنباطها والغلو فيها بما يخرج عن الوجود وينتظمه العدم، فمذهب الحاتمى يجيز التزيد فى المبالغة

(١٤٢) سر الفصاحة، ص ٢٨٠ .

والوصول بالمعانى إلى الغاية ومذهب أبى الفرج يقتضى الوقوف عند حد ما يمكن. وقد ذهب قوم إلى استقباح الغلو لمجانبته للحق وبعده من الصدق، وهذا التحرز يجب أن يكون فى الاعتقادات الشرعية لا فى الأساليب الشعرية)[١٤٣].

وكقوله[١٤٤] يصور جود المعتصم وكثرة نواله:

تعود بسط الكف حتى لو انه ... ثناها لقبض لم تجبه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ومن المبالغات الحسنة لامتزاجها بالخيال، أو لاقترانها بما يقربها إلى الوقوع أو لاعتمادها على التفخيم والتهويل دون ادعاء وقوع المحال قوله فى مدح أبى دلف العجلى[١٤٥]:

تكاد عطاياه يُجَن جنُونها ... اذا لم يعوذها بنغمة طالب
تكاد مغانيه تهش عراصها ... فتركب من شوق إلى كل راكب

وقوله[١٤٦] يصور نشوة الظفر وقوة جند المسلمين فى فتح عموريه:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتحُ أبواب السماء له ... وتبرز الأرضُ فى أثوابها القشبِ

(١٤٣) مواد البيان، ص ٢١٧.
(١٤٤) الديوان، ٣/٢٩ شرح التبريزي.
(١٤٥) الديوان، ١/٢٠٤ بشرح التبريزي.
(١٤٦) الديوان، ١/٤٥.

المصـــــادر والمراجع

(أ) المصـادر القديمة

اســـــم المؤلف	اســـــم الكتاب
(الآمدي) أبوالحسن بشر ابن يحيى (٣٧٠)هـ	ـ الموازنه . تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ط ٢
الخطيب القزوينى وشراح التلخيص	التلخيص وشروحه .
(أبوتمام) حبيب بن أوس الطائى (٢٣٢)هـ	أ ـ ديوان أبي تمام : شرح الخطيب التبريزي تحقيق : محمد عبده عز . ب ـ ديوان الحماسه : (أبوتمام) شرح المرزوقي تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون ط ٢ .
(ابن معصوم)	ـ انوار الربيع : تحقيق شاكر هادى ط ١ ـ ١٣٨٨هـ
(الخفاجي) محمد بن سعيد ابن سنان (٤٤٦)هـ	ـ سر الفصاحة : تحقيق / عبدالمتعال الصعيدي ـ محمد على صبيح .
(الجرجاني) الامام عبدالقاهر (٤٧١)هـ	أ ـ دلائل الاعجاز : تحقيق محمود شاكر .
(السكاكي ـ مفتاح العلوم)	ب ـ أسرار البلاغة : تحقيق محمد رشيد رضا
(الجرجاني) على بن عبدالعزيز (٣٦٦)هـ	الوساطة بين المتنبى وخصومه تحقيق أبو الفضل ابراهيم والبجاوى
(قدامه بن جعفر) أبوالفرج (٣٣٧)هـ	ـ نقد النثر : تحقيق د/ طه حسين والعبادي
(الصولى) أبوبكر محمد ابن يحيي (٣٣٦)هـ	أخبار أبي تمام تحقيق / خليل عساكر ورفاقه ط ١
(على بن خلف)	مـواد البيان .
(المـرزوقي)	ـ شرح مشكلات ديوان أبي تمام ـ تحقيق د . عبدالله سليمان الجربوع .

اســـــم المؤلف	اســـــم الكتاب
(يحيى العلوي)	ـ الطراز ـ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٠هـ
(حازم القرطاجني)	ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجه .
(السيوطى)	ـ جنى الجناس .
(الصفدي)	ـ جنان الجناس .
(ياقوت الحموي) شهاب ياقوت الرومي	ـ معجم الأدباء .
(ابن خلكان)	ـ وفيات الأعيان ـ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ط ٢
(أبوالفرج الأصفهاني)	ـ الأغاني (ط . دار الكتب المصرية) .

(ب) المراجع الحديثة

اســـــــم المؤلف	اســـــــم الكتاب
(سيد قطب)	ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه
د. شوقي ضيف	أ ـ العصر العباسي الأول.
	ب ـ البلاغة تطور وتاريخ.
د. طه حسين	حديث الأربعاء (ط. دار الكتاب اللبناني / بيروت ١٩٧٤م).
د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء)	قيم جديدة للأدب العربي
الأستاذ عباس محمود العقاد	دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية.
د. عمر فروخ	عبقرية اللغة العربية.
د. محمد حسين هيكل	ثورة الأدب.
د. محمد النويهي	الشعر الجاهلي.
د. محمد مندور	النقد المنهجي عند العرب (ط. الخانجي الأخيرة).

أدب التاريخ: دراسة في المصطلح والإطار النظري

للأستاذ الدكتور
محمد عويس محمد
الأستاذ بكلية الآداب
جامعة المنيا

أحاول في هذا البحث تحديد مصطلح ما أسميه «أدب التاريخ» والبحث عن أصوله ـ من الوجهة النظرية ـ في الأدب العربي ، وأوجه التطبيق إلى ما أتصوره من معطيات هذا الأدب من خلال درس ما يتصل به من نتاج في المدونات التاريخية في النتاج الأدبي عبر عصور متلاحقة وممتدة إلى عصرنا الحاضر ، وذلك تحقيقا لتصور تطبيقي يكشف عن خصائص هذا الغرض الأدبي من بين أغراض أدبنا العربي في أجناسه الفنية المنوعة .

وثمة أنماط ثلاثة من المصطلحات يتصل بها بحثنا في هذا الموضوع :

١ ـ مصطلحات مباشرة وقوامها أربعة مصطلحات هي : الأدب ، والتاريخ وتاريخ الأدب ، إضافة إلى مصطلح «أدب التاريخ» . وسنناقش بعد قليل موقف البحث من هذه المصطلحات .

٢ ـ مصطلحات فنية تتصل بالخصائص المميزة لقوالب الكتابة ، ومن أبرزها الخبر والقصة الاخبارية والقصيدة التاريخية والرواية التاريخية والعنوان .

٣ ـ مصطلحات معجمية خاصة بأدب التاريخ ، وهي مصطلحات تكشف عن طبيعتها الدراسات التطبيقية حسب ظروف كل دراسة ومجالها ، ومن ثم لن نتوقف بشكل تفصيلي في الدراسة النظرية أمام هذا النمط من المصطلحات .

١ ـ المصطلحات المباشرة :

إذا كان «الأدب» فنا ، فإن «تاريخ الأدب» علم مجال بحثه فن الأدب ، وإذا كان «التاريخ» في وقتنا الحاضر علما ، فإنه بدأ فنا ومر بأطوار عدة إلى أن أصبح علما له أصوله ونظرياته ومناهجه . أما أدب التاريخ فهو مصطلح نوجه مجاله إلى ما يجمع بين فن الأدب وعلم التاريخ من وجهة مؤرخ الأدب بخاصة ، حيث يعنى مؤرخ الأدب بالصياغة اللغوية للمادة التاريخية ، وما إذا كان هذه المادة ذات قوالب وأشكال

ومضامين مميزة سواء في المدونات التاريخية أو في النتاج الأدبي المتصل بالموضوعات التاريخية .

فإذا كان التاريخ : «هو المعرفة أو العلم الذي يظهر الإنسانية على حقيقتها»[1] ، فإننا نتوقع أن تظهر لنا المدونات التاريخية الإسلامية وجهة نظر الإسلام في حقيقة الإنسانية ، وبالمثل نتوقع أن تكون هذه المدونات ذات طابع خاص في منهج عرض الحقيقة التاريخية ، وفي أسلوب الصياغة شكلا ومضمونا . ونبادر - في هذا الصدد - بالتنبيه على تجنب الخلط بين الصياغة التاريخية التي تعتمد على ذكر الحقائق التاريخية موثقة توثيقا يخضع لضوابط علم التاريخ ، وبين الطوابع الفنية الأسلوبية واللغوية الخاصة بصياغة المادة التاريخية سواء في المدونات التاريخية (علم) أو في النتاج الأدبي المتصل بالحوادث التاريخية أو الذي يستلهم التاريخ ويجعله مادة له (فن) .

إن مجال بحث الصياغة التاريخية يختص به عالم التاريخ من حيث بيان قيمة المادة التاريخية من الناحية العلمية . أما مجال الطوابع الفنية الأسلوبية واللغوية الخاصة بصياغة المادة التاريخية في المدونات التاريخية وفي النتاج الأدبي فيختص به مؤرخ الأدب . وهذا المجال هو الذى يختص به «أدب التاريخ» . ومعنى هذا أن عالم التاريخ يستخدم أدوات علم التاريخ في الكشف عن حقائق علمية ، وأن مؤرخ الأدب يستخدم أدوات علم تاريخ الأدب في الكشف عن ظواهر فنية تتصل بشكل ما بالحقائق العلمية ومؤرخ الأدب هنا يدرس ما نسميه «أدب التاريخ» .

ويرى «روزنتال» في كتابه «علم التاريخ عند المسلمين» أن من معاني التاريخ «الوصف الأدبي لأى نشاط إنساني ثابت سواء قام به الأفراد أو الجماعات ، والذى يتجلى في تطور أية جماعة أو فرد ، ويؤثر على تطورها ففي هذا المعنى فقط يستطيع التاريخ أن يكون موضوع دراسة علمية بالمعنى الدقيق»[1] .

---

(١) تناول فرينز رورنتال في كتابه «علم التاريخ عند المسلمين» تعريف علم التاريخ وانتهى إلى التعريف الذى أوردناه هنا . انظر كتابه بترجمه صالح العلي ط بغداد سنة ١٩٦٣م ص ١٤ ، وانظر مقدمة المترجم الصفحة (ب) ويجدر بنا ملاحظة عنوان الكتاب بالانجليزية وهو :
Muslim Historiography A History Of Muslim Historiography

(٢) السابق ١٨-١٩ .

لكن هذا القول لايخول لنا حق اعتبار المدونات التاريخية مدونات أدبية في إطار فن الأدب الخـالص ، أو المبـالغـة في تقـدير صياغـة مادة هذه المـدونـات ونعـدهـا من «الأسلوب الأدبي الجميل» باعتبارها تدخل عند بعض الدارسين في دائرة الأدب الوظيفي «Functional Literature »[٣] .

فإذا كان في صياغـة التاريخ جانب جمالي إضافة إلى الغاية النفعية العلمية من عرض الحقائق التاريخية ، فإن ذلك يتوافر لكون المؤرخين يحرصون في عرض مادتهم - خاصـة في قرون الازدهـار الثقافي الإسلامي - في أسلوب أدبي تميزت به المدونات الثقـافية الإسلامية آنذاك في التاريخ وفي غير التاريخ إذ كان الكاتب حريصا على سلامة لغته وجمالها ، ولعل هذا ما جعل لبعض المدونات التاريخية خصائص أدبية أسلوبية ، ساعد على هذا ما قررناه في صدر حديثنا من أن التاريخ بدأ فنا أدبيا ومر بأطوار عدة إلى أن أصبح علما ، والتاريخ الإسلامي ليس بدعاً في هذا الأمر إذ كان هذا شأن التاريخ الإنساني بعامة[٤] ، وبالمثل نجد هذا في التاريخ الأوربي منذ عصر التنوير إذ بدأ فنا أديبا متطور إلى أن أصبح علما[٥] .

ولكن هل كانت العلاقة بين الأدب والتاريخ في عصر الازدهار الثقافي الإسلامي تعيننا على تأكيد وجهة نظرنا في تصور ما نسميه «أدب التاريخ» ؟ إن التاريخ باعتباره علما له مناهجه وأدواته علم محدث ، لأن التاريخ في العصور السابقة كان فنا للتاريخ وتطور في فترات طويلة قبل أن تكتمل هيئته الحالية ويصبح علم التاريخ . ومن ثم نجد الفن والعلم يمتزجان في معظم الكتابات التاريخية في العصر الذهبي للثقافة

(٣) انظر ما جاء في بحث عنوانه : «الأدب في تراث العلوم الإنسانية وفي تراثنا التاريخي بوجه خاص» د . محمد فتحي عثمان ، مجلة مركـز البحـوث العدد الثاني ص ٣٩ وص ٤٢-٤٤و٤٦ - إصدار جامعة الإمام محمد بن سعود الإسـلامية - الـرياض (السعودية) محرم ١٤٠٤هـ اكتوبر ١٩٨٣م . ويرى الباحث (ص ٣٩) «أن الأدب في المجتمـع الإسـلامي يتجـاوز مقـولة (الأدب للحياة) إلى ما يمكن أن يعبر عنه (بالأدب في الحياة) أو (الأدب الوظيفي) إذ يستخدم الأدب في مختلف مجالات الحياة ويوظف ويستثمر فيها ويكون هو الحياة كلها . . » .

(٤) لعل خير مايصور لنا هذا ما جاء في دائرة المعارف البريطانية في مادة Historiography أنظر V.8.p 946-961 : Historiography Historical Metehodology

(٥) انظر كتاب «المؤرخون وروح الشعر» دارسة لإسهام الأدب والعلوم في تدوين التاريخ منذ عهد فولتير - تأليف إيمرى نف ، والعلوم د . توفيق إسكندر ، ومراجعة د . شفيق غربال - نشر الدار القومية بمصر .

الإسلامية ، ورأيناها عند كتاب ذلك العصر تسلك مع الأدب في كثير من الأحيان وهذا يسوقنا إلى الحديث عن مفهوم الأدب ومفهوم التاريخ آنذاك وأيضا مفهوم العلم .

لم يقتصر مفهوم الأدب في العصر العباسي ـ عصر ازدهار المدونات التاريخية ـ على النتاج الفني الشعرى والنثرى فقط إذ اتسع المفهوم اتساعا يمكن تصوره من خلال نظر الكتاب والمفكرين والعلماء آنذاك إلى المصطلح[٦] . . إذ رأينا طائفة منهم يعنونون مصنفاتهم باسم الأدب في حين تكون هذه المصنفات في موضوعات تثقيفية وخلقية وتربوية إضافة إلى الشعر وفنون النثر والأخبار والسير .

إن ابن المقفع أصدر كتابين هما : «الأدب الكبير» و «الأدب الصغير» وهما رسالتان في ضروب الحكم والنصائح الخلقية والسياسية . وخص الشاعر العباسي «أبو تمام» الباب الثالث من «ديوان الحماسة» باسم «الأدب» ومختاراته في هذا الباب من شعر الحكمة . وكان «الأدب» عنوانا لباب من أبواب صحيح البخارى في حين كان «الأدب» عنوانا لكتاب ألفه ابن المعتز ، فكان الأدب عند البخارى المحدّث سلوكا وخلقا ، وكان عند ابن المعتز الأديب ، بديع المنثور من الأقوال الحكمية .

وبالمثل كان الأدب بهذا المفهوم الشامل لكل مايتصل بالثقافة الإسلامية في مجال السلوك الخلقي والتربوى ، وفيما يحقق الغايات التعليمية والتهذيبية واضحا في مصنفات بذاتها تتصل بالتثقيف الموسوعي الشامل في هذا العصر من مثل ما هو واضح من مضمون كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ وكتاب «الكامل في اللغة والأدب» للمبرد ، وكتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة وكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه وكتاب «زهر الآداب» للحصرى . وفي هذا المصنف الأخير ينقل الحصرى[٧] عن الحسن بن سهل (توفى سنة ٢٣٨هـ) قوله :

«الآداب عشرة ، فثلاثة شهر جانية (أى تنسب إلى أشراف الفرس الشهارجة)

---

(٦) انظر كتاب «الحكمة في الشعر العربي» ج٢ الحكمة في الشعر العباسي «د. / محمد عويس ص ٤٨ وما بعدها ، ط . دار حراء ـ المنيا مصر ١٩٨٣م .

(٧) زهر الآداب للحصرى ١/ ١٤٠ (ط . مصر) .

وثلاثة أنوشروانية (نسبة إلى كسرى أنوشروان) وثلاثة عربية وواحدة أربت عليهن . فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس» . وسنرى بعد قليل أن مفهوم التاريخ آنذاك يدخل في حدود «الآداب العربية والواحدة التي أربت عليهن» .

وفي الرسالة السابعة من القسم الرياضي في رسائل إخوان الصفا ما يدل على المضمون التعليمي والسلوكي للأدب . أما ابن خلدون فإنه يرى أن «الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف»[٨] .

وليس معنى ماسبق أن خلطا حدث بين مفهومي الأدب (فن) والعلم إذ كان الفارق واضحا بين المفهومين في ذهن وأعمال المفكرين والعلماء والمبدعين والأدباء في هذا العصر . لكن اسم الأدب تحول إلى عنوان جامع لما يكتب بالعربية أو كاد ، وسوف يتضح لنا هذا الأمر بعد قليل ، ومن خلال مناقشة مفهومي الأدب والعلم عند احد من كتاب العصر هو ياقوت الحموى .

صنّف ياقوت معجمه الموسوم «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» بهدف بعينه أوضحه في مقدمته ، يقول[٩] :

« . . وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبار النحويين ، واللغويين ، والنسّابين ، والقرّاء المشهورين ، والإخباريين ، والمؤرخين ، والوّراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعيّنة ، وكل من صنّف في الأدب تصنيفا ، أوجمع في فنه تأليفاً . . » .

ومعنى هذا النص أن الأدب عنوان جامع لكل ما أشار إليه ياقوت من علوم وفنون ، ومن أجل هذا كان الأدب البنية الأساسية في تركيب جملة عنوان الكتاب

(٨) مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٨ طبع المطبعة البهية .

(٩) معجم الأدباء (إرشاد الأريب) لياقوت الحموى (نشر مرجليوث) ط . مطبعة هندية بمصر ١٩٢٣م ١، ٤٨-٤٩ .

وعلى الرغم من هذا فإن الفارق واضح بين ما هو فني وما هو علمي ، وهو فارق متأصل في الفكر الإسلامي ، ويدلنا على ذلك ما جاء عند ياقوت من حديث عن هذا الأمر ، يقول[10] :

«قالوا والفرق بين الأديب والعالم أن الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه ، والعالم من يقصد لفن من العلم فيعتمله ولذلك قال على كرم الله وجهه : العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه» . ويستشهد بما جاء في الشعر عن الفرق بين العلم والأدب ، يقول ، قال شاعر[11] :

«أرى العلم نورا والتأدب حلية فخذ منهما في رغبة بنصيب
وليس يتم العلم في الناس للفتى إذا لم يكن في علمه بأديب»

ومعنى هذا أنه يمكن النظر إلى أمرين في هذا الصدد :

الأول : فيما يخص مصطلح الأدب نجد إطارين ، أحدهما عام وهو كل نتاج كتب باللغة العربية يهدف الى غايات خلقية وتربوية وتعليمية وتثقيفية ، وثانيهما إطار خاص يختص بما أنتجه الشعراء والكتاب من شعر ونثر فني تتوافر فيه مقومات العمل الأدبي الفني المتعارف عليها .

الثاني : فيما يخص العلم ومن مجالاته البحث في فن الأدب أى في الوظيفة الفنية والإبداعية للنتاج الأدبي . وفي هذه النقطة خاصة نجد أن العلماء المسلمين أسهموا منذ بدء حركة التدوين في تأسيس العلوم المتصلة بفن الأدب من حيث توثيق المصادر الأدبية ومن ثم مناقشة قضايا نشأة الأدب وفنونه وتطورها ، ثم تأسيس علوم البلاغة والبديع والبيان والنقد والعروض والقافية وتصنيف المختارات الأدبية تصنيفا يعد من أسس علم تأريخ الأدب العربي . حقا بدأت هذه العلوم بدايات طبعت بالطابع الفني أى أنها كانت خطرات فنية ثم تحولت إلى علوم لها مناهجها وأدواتها المناسبة للعصر الذى نشأت وتطورت فيه .

---

(١٠) السابق ١/١٧ .

(١١) نفسه ١/١٦ .

إن مصطلح «الأدب» اتسع إذن ليشمل ما يدخل في إطار المعارف الثقافية بتنوعها في هذا العصر ، وفي نفس الوقت احتفظ بخاصية نتاج أدبي فنى خاص خضع لدراسات علمية لفن الأدب الخالص المتمثل في نتاج الشعراء وكتاب النثر الفني ، ولم يكن هناك خلط بين الإطارين في استخدام المصطلح سواء عند المبدعين أو المتلقين أو الدارسين .

ونمضى بعد ذلك إلى النظر في مفهوم التاريخ لدى بعض المؤرخين المسلمين[١٢] والذين رأينا نتاجهم يدخل في نطاق الإطار العام لمفهوم الأدب في القرون التى عاش فيها هذا المصطلح بالمفهوم العام .

يرى ابن خلدون أن التاريخ هو : «إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون» ويرى المقريزى أن غرض التاريخ «الإخبار عما حدث في العالم في الماضي» ، وأما الكافيجى فعنده أن علم التاريخ هو «علم يبحث عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تحين ذلك وتوقيته» ويرى السخاوى أن موضوع التاريخ هو «الإنسان والزمان» ، ومسائل التاريخ «أحوالهما المفصلة للجزئيان تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان «أما المرعشى فيرى أن التاريخ هو «علم يتضمن معرفة أحوال القدماء» .

وهذه التعريفات لعلم التاريخ تجعله يدخل في نطاق الإطار العام للأدب في هذا العصر الذهبي للثقافة الإسلامية ، وفي حدود الفارق الواضح بين ما هو أدب خالص وما هو علم خالص .

ويلاحظ الدارس أن ما رأيناه في مفهوم الأدب في العصر الذهبي للثقافة الإسلامية يصدق على استعمالات لفظ الأدب في العصر الحديث ، ومعنى هذا أننا نجد استعمالات لمصطلح الأدب في إطاره العام المتصل بالأخلاق والتربية والتعليم والتثقيف وكل ما يكتب باللغة في هذه الفروع من المعارف والعلوم الإنسانية . وبالمثل

(١٢) نعتمد في هذا الصدد على ما ذكره روزنتال في كتابه «علم التاريخ عند المسلمين» الترجمة العربية ص ٢٥ وما بعدها .

نجد استعمالات لمصطلح الأدب في إطاره الخاص المتصل بالإبداع الفني الأدبي في أجناس الأدب التقليدية والمحدثة .

ولسنا بحاجة إلى إثبات الشق الثاني من الاستعمالات لكن يبدو من المناسب إقامة الأدلة على استعمالات المصطلح في إطاره العام ، ويمكن تصور هذه الأدلة من خلال الحقائق التالية :

- ظهرت مصنفات عربية واستشراقية تنظر إلى الأدب في إطار المفهوم العام فعدّت كل ما كتب باللغة العربية من آدابها ، ومن هذه المصنفات كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجي زيدان ، وموسوعة بروكلمان «تاريخ الأدب العربي» وأما في علم التاريخ ، فإن روزنتال اتجه في كتابه «علم التاريخ عند المسلمين» إلى بحث هذا العلم الذى تحدد مصطلحه حديثا ، حيث وسع الدائرة ونظر إلى التاريخ باعتباره لونا من ألوان التعبير الأدبي ، ومن أجل هذا ربط في دراسته بين الأدب والتاريخ ، وهو ربط يتصل عنده بأمرين : الصياغة الأدبية للمادة التاريخية من ناحية واعتماد المادة التاريخية على النصوص الأدبية من ناحية أخرى» .

- أصبح الأدب في إطاره العام عنوانا لأسماء مؤسسات علمية وتثقيفية وتهذيبية في البلدان العربية مما يدل على شيوع استعمالات المصطلح في إطاره العام . ففي كثير من الجامعات العربية كليات تحمل كل منها اسم «كلية الأداب» وبهذه الكليات أقسام منوعة للدرسات الإنسانية وعلوم اللغة وتمنح درجات علمية في الآداب مع إشارة للتخصص الفرعي الدقيق . وهناك مؤسسات أخرى تحمل عنوان الآداب من مثل مجالس الفنون والآداب ، إضافة إلى شيوع استخدام لفظ الأدب مرادفا للفظ ميثاق ، كأن يقال للطبيب أنه يراعى آداب مهنته أى يحافظ على ميثاق الشرف الذى قطعه على نفسه . ومثل هذا يقال للصحفي وللقاضي وللأستاذ في الجامعة وفي المدرسة ، وفي أحوال لاتحصى .

وفي القوانين مواد لحماية «الآداب العامة» يعاقب من يخالفها عقابا يؤدي إلى تهذيبه . وهناك جهات يناط بها مهام المحافظة على «الآداب العامة» ومعنى هذا أن

المصطلح تنوعت استعمالاته تنوعا مماثلا لما كان عليه في إطاره العام خلال عصر الازدهار الثقافي الإسلامي .

- يقترب هذا الاستعمال للأدب في إطاره العام من المصطلح الانجليزى الذى ينظر إلى مثل هذه الكتابات على أنها من مصادر المعارف ، وتأتي كلمة مصادر Refer-ence, مرادفة لكلمة أدب Literature في البحوث المعاصرة وتعرف وتصنف هذه الكتابات تحت مصطلح خاص هو Nonfictional Prose للتفرقة بينها وبين فن الأدب الخالص بأجناسه التقليدية والمحدثة في الشعر والنثر وفنونها[١٣] .

وإذا كنا لاحظنا عدم وجود خلط بين استعمالات المصطلح في إطاريه العام والخاص خلال العصر الذهبي للثقافة الإسلامية ، فإننا نلاحظ أيضا عدم وجود خلط بين هذه الاستعمالات في أدبنا الحديث والمعاصر .

إن الفروق واضحة بين ما هو علم خالص وما هو فن خالص ، ورأينا في دائرة الفن الخالص نشاطا في محاولات تحديد شخصية مستقلة لكل جنس أدبي أدت إلى ظهور أجناس أدبية تحمل مصطلحات خاصة بها ، ولكنها في نفس الوقت ترتبط بوشائج تحدد موقعها من الفن الأدبي ، وحين يقوم مؤرخ الأدب بدارسة نتاج أديب محدث أو معاصر فإنه يفصل بين ما هو نتاج أدبي خالص وبين ما هو نتاج أدبي عام . فإذا درس النتاج الأدبي لكاتب منوع النتاج مثل العقاد أو طه حسين فإنه يفصل بين الشعر والنثر الفني وبين سيل المقالات التي كتبها الأدباء في موضوعات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية . لأن هذه المقالات تدخل في نطاق النتاج الأدبي العام ، ولها طوابع في دراستها تختلف عن دراسة النتاج المتصل بالجنس الأدبي الفني الخالص مثل الشعر . فنحن حين ندرس أدب نجيب محفوظ مثلا نستخدم أدوات بعينها في دراسة فن الرواية وفن القصة القصيرة عند هذا الكاتب ، وهي أدوات تختلف عن تلك التى نستخدمها عند دراسة خواطره السياسية ونقداته التي ينشرها في صحيفة الأهرام القاهرية وغيرها إذ تدخل هذه الخطرات في دائرة الأدب العام وتخضع لمقاييس

(١٣) ينظر في هذا الصدد دائرة المعارف البريطانية ، المقال الخاص بموضوع Literatrure, Nonfictional Prose, v. 10. p. 1014 - 1086

تختلف عن مقاييس فن الرواية وفن القصة . وقل مثل هذا في نتاج توفيق الحكيم ويوسف إدريس وغيرهما ممن تنوع نتاجهم الأدبي بين الخاص والعام . ويصدق هذا أيضا على طائفة المفكرين الذين صدر عنهم نتاج منوع ، إذ نجد فليسوفا مفكرا مثل الدكتور زكي نجيب محمود له بحوثه الفسلفية التي أصدرها في كتب لها جمهورها من القراء والباحثين ، وهي كتب تدخل في دائرة الكتابة العلمية الفلسفية . وفي نفس الوقت له مقالات في موضوعات فلسفية وفكرية ينشرها في صحيفة يومية لها جمهورها العريض والمنوع في اتجاهاته وثقافاته . ومن ثم ستكون مثل هذه المقالات . ذات طابع خاص يجعلها تقترب من الكتابات المتصلة بالأدب العام في الموضوعات الفلسفية وتدرس في إطار أدب المقالة الصحفية ومقوماته , إذن لايوجد ثمة خلط لدى المتلقين والمبدعين والدارسين في استعمالات المصطلح في اطاريه العام والخاص وهو نفس مالا حظناه في العصر الذهبي للثقافة الإسلامية .

وخلاصة القول إنّ نظرنا إلى المادة التاريخية في المدونات التاريخية الإسلامية سيكون من خلال كونها داخلة في إطار المفهوم العام للأدب ، وأنها جزء من الأدب العام ، ونحاول الكشف عن الخصائص الفنية في اسلوب هذه المدونات ، وفي نفس الوقت سندرس النتاج الأدبي الخالص الذى اتخذ من حوادث التاريخ مادة أدبية باعتبار أن هذا النتاج يمثل الإطار الخاص للأدب .

والدراسة في كل من النتاجين (الأدبي العام والأدبي الخاص) دراسة تطبق أدوات علم التاريخ الأدبي ولاتتجاوزها إلى أدوات علم التاريخ . ومن المتوقع أنه كلما اتجهت المدونات التاريخية إلى استخدام مناهج علم التاريخ كانت أبعد عن مجال دراستنا ، ومن ثم يصعب أن يكون التأليف في التاريخ لدى المؤرخين المعاصرين مجالات لهذه الدارسة ، إذ إن هذا التأليف مطبوع بالطابع العلمي الخالص .

حقا هناك كتابات تتصل بالحوادث التاريخية كتبها بعض المتصلين بهذه الحوادث من مثل بعض رجال الصحافة أو القادة والرؤساء وغيرهم . لكن هذه الكتابات تدخل في نطاق الأدب العام لأنها في أغلب الأحوال كتبت بأقلام «هواة التأريخ» حتى ولوكانوا من محترفي الكتابة أو من صناع الأحداث والقرارات التاريخية . وهؤلاء غير

علماء التاريخ الذين يستخدمون أدوات ومناهج بعينها قد لاتتوافر عند غيرهم من هواة التأريخ .

إن المدونات التاريخية الإسلامية في مرحلة مبكرة كانت مطبوعة بطابع فن التاريخ . ثم أخذت بعد ذلك في التطور لتصبح مطبوعة بطابع علم التاريخ حسب معطيات هذا العلم في عصرهم . وسوف نجد في هذه المدونات صورة الصياغة الإسلامية لتاريخ الإنسان ، وهي صياغة لاتغفل الخصائص الأدبية للكتابة العربية . إذا كان الكتاب والأدباء والعلماء في هذا العصر على الرغم من اتجاهاتهم المعرفية المنوعة يجمعون بين النظرة الشاملة والنظرة التخصصية في المعرفة الإنسانية . ومن ثم كان المؤرخ أديبا بقدر وكان الأديب مؤرخا بقدر ، وهو ما سنحاول الكشف عنه في مجال الدراسات التطبيقية لأدب التاريخ .

٢ ـ مصطلحات فنية :

يستخدم مؤرخ الأدب جملة من الأدوات تعينه في دراسة العمل الأدبي ومن بين هذه الأدوات ما يتصل بمصطلح المضمون Content والشكل إذ في المضمون يعنى ببحث ما تضمنه العمل الأدبي من المعاني والخواطر التى يرمز لها بالألفاظ والصيغ الأدبية[١٤] ، وفي الشكل[١٥] يعنى بما يتضمنه العمل الأدبي من صور العمل من صور لفظية تؤثر في الكلمات المكونة للجملة لغرض بلاغي مستعينا في ذلك بأدوات علمي البلاغة والنحو ، وما تضمنه النص من صور التراكيب التي تؤثر في الترتيب الطبيعي للجملة لغرض بلاغي من مثل تقديم المسند إليه أو تأخيره أو حذفه مستعينا في ذلك بأدوات علم المعاني . ومثل هذه الأمور المتصلة بفن إنتاج العمل الأدبي تحكمها جملة من المصطلحات الفنية المتعارف عليها في تاريخ الأدب ونقده

وهناك خمسة مصطلحات فنية تتصل بأدب التاريخ وتستخدم في علوم وفنون أخرى ولم نألف استخدام بعضها في فن الأدب وعلم تاريخ الأدب ، ونعني

(١٤) معجم مصطلحات الأدب/ مجدى وهبه ص ٨٩ .

(١٥) السابق ص ١٧١ .

مصطلحات : الخبر والقصة الإخبارية والرواية التاريخية والقصيدة التاريخية والعنوان . ولعل أكبر مجال تستخدم فيه هذه المصطلحات في وقتنا الحاضر هو مجال فن الصحافة وعلومها ، وقد يبدو للوهلة الأولى أننا سنستعير هذه المصطلحات من الصحافة إلى مجال بحثنا في أدب التاريخ ، لكن الواقع أن هذه المصطلحات لها أصولها في الأدب العربي منذ وقت مبكر سواء في الأدب بالمفهوم العام أو في الأدب بالمفهوم الخاص .

وفيما يخص مصطلح الخبر فان مفهومه وغاياته تباينت بتباين استعمالات المصطلحات في علوم كثيرة[١٦] من مثل علوم الحديث ومصطلحه وعلوم القرآن وغيرها من العلوم العربية والإسلامية منذ عصر التدوين .

وفي بحثنا في أدب التاريخ نجد أن المفهوم المعجمي المباشر للفظ «خبر» هو أنسب المفاهيم للمصطلح من حيث الإطار النظرى المناسب للجانب التطبيقي في هذه الدراسة . وقد جمع ابن منظور في مادة (خبر) ما يوضح لنا هذا المفهوم ، يقول[١٧] :

«الخبير من أسماء الله عز وجل ، العالم بما كان وما يكون . وخبرت بالأمر أى علمته وخبرت الأمر أخبره إذا عرفته على حقيقته ، وقوله تعالى : ((فاسأل به خبيرا)) أى اسأل عنه خبيرا يخبر . والخبر بالتحريك واحد الأخبار والخبر ما أتاك من نبأ عمن تستخبر (ابن سيده) الخبر النبأ والجمع أخبار وأخابير جمع الجمع فأما قوله تعالى : ((يومئذ تحدث أخبارها)) فمعناه يوم تزلزل تخبر بما عمل عليها . وخبّره بكذا وأخبره نبّأه واستخبره سأله عن الخبر ، وطلب أن يخبره .

ويقال تخبّرت الخبر واستخبرته . وتخبّرت الجواب واستخبرته . والاستخبار والتخبّر السؤال عن الخبر . وفي حديث الحديبية أنه بعث عينا من خزاعة يتخبّر له خبر قريش أى يتعرّف . يقال تخبّر الخبر واستخبر إذا سأل عن الأخبار ليعرفها . والخابر المختبر المجرب ، ورجل خابر وخبير عالم بالخبر والخبير المخبر . . والخِبْر والخُبْر والخِبْرة والمَخْبَرة

(١٦) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٩٧ وانظر تيسير مصطلح الحديث للدكتور محمود الطحان ص ١٧ وما بعدها وانظر التعريفات ص ٥١ .

(١٧) لسان العرب لابن منظور ٥/٣٠٨ من مصورة طبعه بولاق ـ الدار التقدمية القاهرة ـ مصر .

والمَخْبُرة كله العلم بالشيء . . ويقال من أين خبرت هذا الأمر أى من أين علمت» .

ومر بنا من قبل مايصدق على مصطلح الخبر بهذا المفهوم المعجمي في استعمال المصطلح في الأدب وفي التاريخ ونعيد تكرار شاهد واحد من أقوال ابن خلدون التي مرت بنا حين قال إن الأدب هو «حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف» وأن التاريخ هو إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون» . أما في الصحافة فإن تعريف المصطلح واستعمالاته توضحها الأقوال التالية التي ذكرها الدكتور عبد اللطيف حمزة في تعريف الخبر الصحفي[١٨] :

- يقول ويلارد بلاير Willard G. Bleyer في «كتابه الصحيفة وتحريرها» : «الخبر الصحفي هو الجديد الذى يتلهف القراء على معرفته ، والوقوف عليه بمجرد صدوره في الجريدة ، ومعنى ذلك أن أحسن الأخبار الصحفية هو ما أثار اهتمام أكبر عدد ممكن من الناس» .

- يقول وليم مولسبي Willim Maulsby الخبر «وصف أو تقرير دقيق غير متحيز للحقائق المهمة حول واقعة جديدة تهم القراء» .

- الخبر «أى حادث أو فكرة أو رأى ابن ساعته يمكنه أن يفهم أو يؤثر في عدد كثير من الأشخاص في مجتمع ما ويكون مفهوما منهم» .

- يقول كارول وارين عن الأخبار الصحفية إنها : «بعض وجوه النشاط الإنساني الذى يهم الرأى العام ويسليه ، ويضيف إلى معلوماته جديدا» .

يقول الدكتور حمزة، «إن رسالة الصحفي تنحصر أو تكاد تنحصر فى جمع الأخبار بأمانة وسردها ونشرها بأمانه ، ثم التعليق عليها بأمانه ، ويجب على الصحفي أن يدرك أن الخبر ليس ملكا له ولا ملكا للصحيفة التي يعمل بها ، ولا ملكا للرأى العام ، ولكنه ملك للحقيقة فقط» .

وتوضح لنا هذه الأقوال السابقة عن مفهوم الخبر في الصحافة أوجه الشبه بين هذا

(١٨) انظر المدخل في فن التحرير الصحفي ، د . عبداللطيف محمزة ، الطبعة الرابعة ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ـ ص ٥٧-٦٢ .

المفهوم وما مر بنا من قبل من ذكر مفهوم الخبر لغة ومن عناية الأدباء بحفظ الأخبار وروايتها ، ولعلنا نذكر المقولة الواصفة للشعر والتي تقول : «الشعر ديوان العرب» بمعنى مستودع أخبارهم وأنسابهم ومعارفهم ، وبالمثل لعلنا نذكر ورود لفظ الخبر في عنوانات كثير من كتب الأدب مثل «عيون الأخبار لابن قتيبة» وفي كتب التاريخ وغيرها من الكتب التي تدخل في إطار المفهوم العام للأدب مالا يمكن حصره من عنوانات تحمل معنى الخبر والأخبار صراحة[١٩] ولانشك أن الأخبار الأدبية وبالمثل الأخبار التاريخية تشارك الأخبار الصحفية في وظيفتها من حيث إنها تحقق فكرة إخبار المتلقى بما يريد معرفته من أخبار ، وإن هذه الأخبار تتسم بالصدق وتوفر في بعض الأحيان ـ خاصة في الأدب ـ عنصر الترويح والتسلية لكن هناك جملة من الفروق يجب التنبيه عليها من بينها ما توفره الأخبار الأدبية من صدق إذ سنجد هذا الصدق يجمع ما بين الصدق الفني والصدق الواقعي أى أننا نتوقع في الخبر الذى يتضمنه النص الأدبي الخالص حقيقة ملفوفة بخيال الأديب أى أن الأديب يخبرنا بالخبر مخيلا ومن ثم لانستطيع أن نعتد به باعتباره تاريخا أو وثيقة تاريخية أما الخبر في التاريخ فهو الخبر الملتزم بالصدق الواقعي ويخضع في هذا إلى معايير خاصة بعلم التاريخ ولن يدخل هذا الأمر في مجال بحثنا في الخبر التاريخي إذ سيكون قصدنا هو القالب الذى وضع فيه الخبر في المدونات التاريخية ووجه الشبه بين هذا القالب وقالب الخبر الصحفي ومدى توافر هذا القالب في الخبر الأدبي ، وثمة فارق جوهرى بين الخبر التاريخي والخبر الصحفي هو أن الخبر التاريخي يخبرنا عن حقيقة ما كان وهذا بالقطع أثر على صياغة ولغة الخبر التاريخي ، أما الخبر الصحفي فإنه يتضمن الإخبار بالأزمنة الثلاثة مع تركيز خاص على ما حدث أو يحدث في القريب من الوقت الذى مر أو الذى يأتي وهذا أيضا أثر على صياغة ولغة الخبر الصحفي بخاصة ولغة المادة الصحفية بعامة[٢٠] ولايعنينا هنا لغة الخبر الصحفي فهذا مجال آخر أما قالب أو قوالب صياغة الخبر الصحفي فهي التي تدخل في مجال بحثنا في أدب التاريخ .

(١٩) انظر الفهرست لابن النديم (طبع طهران) الفهارس ص ٨١-٨٤ حيث ذكر حوالى ١٥٠ عنوانا .

(٢٠) انظر المدخل في فن التحرير الصحفي ص ١٥٢-١٥٥ في طبيعة اللغة التي يكتب بها الخبر .

يحدد الدكتور عبد اللطيف حمزة قوالب صياغة الخبر بأربعة قوالب هي[٢١] :

أولا ـ : قالب السرد (الصحفي) .

ثانيا ـ قالب الحديث المنقول .

ثالثا ـ قالب القصة الإخبارية (سوف نتحدث عنه في مصطلح القصة الإخبارية) .

رابعا ـ القالب غير الفني (وهو خارج عن الحدود الفنية للقوالب السابقة) .

ويقول : «تعتبر طريقة السرد أيسر الطرق الفنية على الإطلاق ، ومع هذا وذاك فإن أنسب الصور الفنية لصياغة الخبر بهذه الطريقة هي صورة الهرم المقلوب ، بمعنى أن يكون للخبر صدر Lead وجسم أو صلب (متن) Body ففي الصدر نكتب خلاصة الأخبار بعبارات قصيرة فيها عنصر الإثارة ، وفي الجسم أو الصلب (المتن) نكتب الحقائق واحدة إثر الأخرى حتى نهايتها» .

ويقول : « . . على أن قالب السرد يأخذ أحيانا شكل الحكاية الصغيرة وهنا تحكى الجريدة الخبر لا على شكل هرم مقلوب ولكن على شكل هرم معتدل» .

وأما قالب الحديث المنقول فتظهر فيه «عناية الصحيفة بالخطب والبيانات والرسائل ، ونحوها من المواد التي يسجلها المخبر الصحفي ويسلك في كتابتها طريقة المستطيلات الكبيرة والصغيرة حتى ينتهي من نقل هذه المادة ، وتمثل المستطيلات الصغيرة الكلام المنقول بنصه تماما ، بينما تمثل المستطيلات الكبيرة ملخص هذا الكلام وشرحه للقراء . .» .

---

(٢١) المصدر السابق ٩٥ـ٩٨ .

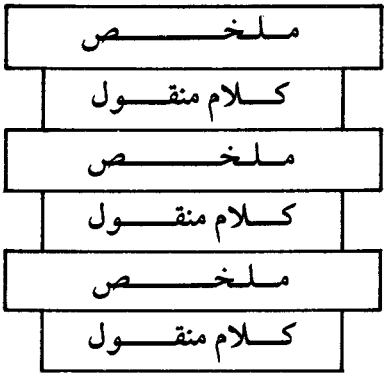

. . . وهكذا .

وتبين الدراسات التطبيقية توافر هذه القوالب إلى حد ما في أسلوب صياغة الخبر التاريخي ، وبالمثل في الخبر الأدبي مما يؤكد أصالة هذه القوالب في الأدب العربي العام والخاص واستقراراها في ذوق الأديب والمتلقي منذ زمن بعيد ، ولا نقول هذا من منطلق التحيز لأدبنا العربي ، ولكن غايتنا الكشف عما في أدبنا العربي من أصالة تعين في دراسة خصائصه وتطوره دراسة أعمق وهذا من غايات مؤرخ الأدب .

أما مصطلح القصة الإخبارية News Story فهو مصطلح معروف في فنون الصحافة وعلومها ، ولايخلط أهل الصحافة في استخدامهم لمصطلح «القصة» بين المفهوم الأدبي للقصة والمفهوم الصحفي للقصة . وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة[٢٢] «للقصة الإخبارية أصول عند أهل الحرفة (الصحافة) قلما يتعدونها إلى غيرها ، وقلما يتصرفون تصرفا ظاهرا في بعضها ، ومن هنا كان الفارق كبيرا بين الكتابة الأدبية الخالصة ، والكتابة الصحفية الخالصة . فبينما نرى الصحفي مقيدا بهذه الأصول أو الصور الفنية للقصة الإخبارية ، إذ بنا نرى الأديب طليقا من جميع هذه القيود ، حرا في الوقت نفسه في اختيار الوقت الذى يكتب فيه إنتاجه الأدبي ، حرا كذلك في المادة التي يخلق فيها هذا النتاج» .

وإذا كان للخبر الصحفي قوالب بعينها فإن للقصة الإخبارية قالب اتفق رجال

(٢٢) السابق ١٠١ ومابعدها .

الصحافة على أن يحمل شكل «هرم مقلوب» بمعنى أن يأتي الصحفي بالفكرة الرئيسية أو مايسمى الصدر Lead ثم يأتي بالتفاصيل أو الجسم بعد ذلك . وهذا عكس مايحدث في المقال إذ تكون الفكرة النهائية أو الخلاصة في نهاية المقال . أما الشواهد والتفاصيل فتكون قبل ذلك أى أن المقال الصحفي يأخذ شكل هرم قائم أو معتدل .

ومهما يكن من شيء «فإن الفرق عظيم جدا بين القصة الأدبية والقصة الإخبارية ، وهو فرق يتضح من جانبين : جانب (العقدة) ، وجانب (الأسلوب) فالقصة الأدبية لابد لها من (عقدة) ، ومهارة الأديب تظهر في اخفاء هذه العقدة أولا ، والسير بالقصة رويدا نحو حلها آخر الأمر . أما القصة الخبرية فإن عقدتها تظهر أولا ، ولايجوز للمحرر أن يؤجل ظهورها إلى ما بعد ذلك . فأهم حادث في القصة الإخبارية ينبغي أن يحتل مكان الصدارة ، ثم تأتي الأحداث التي تقل عنه في الأهمية أما من حيث الأسلوب فطبيعي أن الأديب أوسع مجالا من الصحفي في التعبير عن الحوادث التي تتألف منها القصة ، وطبيعي كذلك أن الأديب أغنى في الأدوات والأساليب التي يعبر بها عن حوادث القصة الأدبية في حين أن الصحفي مقيد أبدا باللغة التي يفهمها قراؤه ، والطرق التي عودهم عليها في كتابة القصة الإخبارية»[٢٣] .

وتتألف القصة الإخبارية من جزأين مهمين هما :

الصدر The Lead والجسم (المتن) The Body أما الصدر[٢٤] فينبغي أن تتوافر فيه شروط منها :

أولا - أن يشتمل على أهم النقط الرئيسية للقصة الإخبارية .

ثانيا - أن يكتب في جملة واحدة ، أو جمل قصيرة ليست بالكثيرة ، ولكنها مثيرة بقدر المستطاع ، وليس من المفروض أن تكون بينها أدوات الربط .

ثالثا - أن يكوّن إجابة واضحة عن ستة أسئلة معروفة وهي : من ، وماذا ، ومتى ،

(٢٣) نفسه ١٥٥-١٥٦ .

(٢٤) نفسه ١٠٣ وما بعدها .

وأين ، وكيف ، ولماذا ؟ . . فمن الذى اشترك في الحادث ؟ وماذا حدث فيه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان هذا الحادث ؟ وما الطريقة التي تم بها ؟

رابعا ـ أن تكون ملامح القصة الإخبارية واضحة في صدرها بحيث تتميز عن غيرها كي يستطيع القارىء أن يكتفي بها ـ أى بملامح القصة الإخبارية في صدرها ـ عن تكملة قراءة القصة كلها إن ضاق وقته عن هذه التكملة» .

أما الجسم فإن[٢٥] المتبع في كتابة التفاصيل عادة أن تكون على شكل فقرات متكاملة كل فقرة منها تؤلف وحدة مستقلة بذاتها ، بحيث يمكن حذف أية فقرة عندما تحتاج الصحيفة إلى ذلك ، بشرط عدم الإخلال بالمعنى العام ، أو بالقيمة العامة للخبر نفسه إذ ذاك . وهذا فرق آخر بين الأدب والصحافة ، فنحن في الأول نرى أن جميع الفقرات التي يتألف منها المقال الأدبي (أو القصة الأدبية) أخذ بعضها بعجز بعض لكننا في الخبر الصحفي نستطيع أن نستغنى عن بعض الفقرات التي يتألف منها عند الحاجة . والقصة الإخبارية الصحفية في هذه الحالة أشبه بالقصيدة العربية ، كل بيت فيها وحدة قائمة بذاتها ، ويستطيع الشاعر أو القارىء أن يحذف من هذه الوحدات ما يشاء ، أو يقدم بعضها ويؤخر بعضها متى شاء ، فلا يضر ذلك بالقصيدة . . ولاشك أن ذلك من مزايا الشكل الهرمي في كتابة الخبر الصحفي ، فلو لم يكن مصوغا على شكل هرم مقلوب لما استطاعت الصحف أن تحدث هذه التغييرات المطلوبة عند الحاجة ، ولعجزت الصحيفة عن أن تمد كل بيئة محلية بالأخبار التي تناسبها» .

وعلى شاكلة قولنا في مفهوم الخبر واستعمالاته في الصحافة والتاريخ والأدب نقول إننا في مجال «أدب التاريخ» سنجد القصة الإخبارية التاريخية قالبا من قوالب المادة التاريخية في بعض المدونات التاريخية وفي بعض النصوص الأدبية التي اتخذت من الحوادث التاريخية غرضا رئيسا لها . وإذا كنا قد أكّدنا على الفرق بين الصدق الواقعي والصدق الفني في الخبر الأدبي والخبر التاريخي ، وأيضا الخبر الصحفي ، فإننا نؤكد مرة ثانية على هذا الفرق بين القصة الإخبارية التاريخية الخالصة والقصة الإخبارية

(٢٥) نفسه ١١٣-١١٤ .

التاريخية الأدبية حيث تمتزج في هذه الأخيرة عناصر الصدق الواقعي بعناصر الصدق الفني .

وإذا مضينا إلى «أدب التاريخ» في العصر الحديث فإننا سنجد مصطلحا فنيا له قيمته في هذا الصدد ونعنى مصطلح «الرواية التاريخية» ونقول إنه مصطلح فني تتوافر فيه عناصر القصة الأدبية الخالصة وتتخذ من حوادث التاريخ موضوعا رئيسيا لها ، وهذا اللون من الفن الأدبي يدخل في رأينا فيما نسميه «أدب التاريخ» وسنجد في الإطار التطبيقي مكان هذا اللون الأدبي في أدب التاريخ .

إذن لدينا القصة الإخبارية التاريخية في بعض المدونات التاريخية ولدينا القصة الاخبارية التاريخية في النتاج الأدبي بعامة ، ولدينا القصة التاريخية أو ما اصطلح على تسميته «الرواية التاريخية» .

Histircal Novel [٢٦] وهي سرد قصصي يدور حول حوادث تاريخية وقعت بالفعل ، وفيه محاولة لإحياء فترة تاريخية بأشخاص حقيقيين أو خياليين أو بهما معا من مثل روايات جرجي زيدان التاريخية وبعض روايات نجيب محفوظ . . وغيرهما .

ومع الحرية التي يتمتع بها كاتب الرواية التاريخية إلّا أنه يجب أن يدور فيها داخل إطار التاريخ ، بحيث لاتكون له حرية التصرف في تغيير الحوادث أو الأزمنة التاريخية على خلاف ما يحدث في السيرة الشعبية التي قد يكون لها أساس تاريخي لكنها تتصرف في الحوادث التاريخية والشخصيات التاريخية تصرفا واسعا يخضع لظروف رواة السيرة . ويلاحظ أن للرواية التاريخية وظيفة تربوية واضحة ، وهي أن تصب التاريخ في قالب جذّاب وخاصة بالنسبة للشباب الذى قد يمل التاريخ في منهجه المدرسي أى أنها تحقق مارأيناه من قبل من وظائف الأدب في إطاره العام . وسيتضح لنا ذلك بشكل مفصل في مجال التطبيق حين نناقش موضوع «الرواية التاريخية» في «أدب التاريخ» الحديث المعاصر في موقعه من هذا البحث .

ويمكننا قياسا على هذا التعريف لمصطلح «الرواية التاريخية» نحت تعريف

(٢٦) معجم مصطلحات الأدب ٢١٥ وانظر الرواية التاريخية ، جورج لوكاش ترجمة د . صالح جواد الكاظم طبع العراق ١٩٧٨ ص ١١ وما بعدها .

ما نسميه «القصيدة التاريخية» ونقول إنها القصيدة التي تتخذ من الحوادث التاريخية موضوعا رئيسا لها ، وعلى الرغم من الحرية التي يتمتع بها الشاعر باعتباره فنانا مبدعا ، إلّا أنه يجب في القصيدة التاريخية أن يدور داخل إطار التاريخ بحيث لاتكون له حرية التصرف في تغيير الحوادث أو الأزمنة التاريخية ، ولكنه يملك الحرية في تصوير المشاعر والوجدان إزاء الحوادث التاريخية وشخوصها بالأسلوب الفني شكلا ومضمونا تبعا لمقتضيات القواعد الفنية لعمله الأدبي الشعرى . إذن نتوقع أن تكون القصيدة التاريخية ذات إطار تاريخي ملتزم بحقائق التاريخ ، لكنها في نفس الوقت لاتعد وثيقة تاريخية ويصعب القول إنها تعد تاريخا إذ هي صورة مخيلة للواقع التاريخي أى يمتزج فيها الصدق الواقعي بالصدق الفني .

ويرينا الجانب التطبيقي أن القصيدة التاريخية لها أصولها في أدبنا العربي منذ وقت مبكر وأنها حوت الخبر التاريخي والقصة الإخبارية التاريخية منذ تسجيلها للحوادث التاريخية في عصر صدر اسلام وعصر بني أمية وأنها استوت بشكل مميز في بنائها الفني والفكرى بفضل براعة نخبة من الشعراء العباسيين من مثل أبي تمام والبحترى والمتنبي وغيرهم في المشرق والمغرب الإسلاميين ، ويؤدي بنا هذا التطبيق إلى فهم جديد لنصوص شعرية كثيرة تسلك ـ في رأى بعض الدارسين ـ في شعر المديح وتسلك في رأى البعض الآخر في شعر الحرب في حين يرى نفر آخر أن تسلك في شعر الحماسة . . وهكذا .

فإذا كان العصر الأدبي الحديث قد شهد نضج «الرواية التاريخية» فإن العصور الأدبية الذهبية رأت نضج «القصيدة التاريخية» وساعد هذا النضج على ازدهار هذه القصيدة فى عصرنا الحديث ازدهارا طيبا جعلها واحدة من أروع ما أنتجه شعراؤنا المحدثون والمعاصرون من أعمال أدبية شعرية .

أما المصطلح الخامس فهو مصطلح «العنوان» وهو مصطلح مألوف من حيث مجالات استعمالاته التطبيقية في الأدب بإطاريه العام والخاص . وقد كان التطبيق في النثر أعم وأشمل ، أما الشعر العربي فإن استعماله للعنوان كان محدودا لظروف بعينها وهذا مجال دراسة مستفيضة نعدها عن «ظاهرة العنوان في الأدب العربي بعامة وفي

الشعر الحديث بخاصة» ونحدد مفهوم المصطلح في المعاجم ، لأنه هو المفهوم الواضح في الاستعمال الأدبي والتاريخي والصحفي لهذا المصطلح .

جاء في كتاب العين للخليل بن أحمد[٢٧] : « . . وعننت الكتاب أعنّه عنّا ، وعنونت وعنويت عنونة وعنوانا» .

وقال ابن دريد في الجمهرة[٢٨] : «وعنونت الكتاب عنوانا ، . وفي العنوان أربع لغات يقال عنويت الكتاب وعلونته وعنّته وعلنته» .

وذكر الفيروز آبادى في القاموس المحيط[٢٩] . . . وعنوان الكتاب سمته كمعناه وقد عنونته» .

وذكر ابن منظور في اللسان أقوال علماء اللغة في معنى اللفظ واشتقاقه يقول[٣٠] : » قال الأصمعى أعناء الشيء جوانبه واحدها عنو بالكسر وعنوت الشيء أبديته وعنوت به أخرجته وأظهرته ، وأعنى الغيت النبات كذلك قال عدى بن زيد :

ويأكلن ما أعنى الوليّ فلم يلت كأنّ بحافات النهاء المزارعا

فلم يلت أى فلم ينقص منه شيئا» .

وقال ابن منظور :[٣١] :

«ومعنى كل شيء محنته وحاله التي يصير إليها أمره وروى الأزهرى عن أحمد ابن يحيى ، قال المعنى والتفسير والتأويل واحد ، وعنيت بالقول كذا أردت ، ومعنى كل كلام ومعناته ومعنيته مقصده ، والاسم العناء ، يقال عرفت ذلك في عنى كلامه ومعناة كلامه وفي معنى كلامه ، ولاتعان أصحابك أى لا تشاجرهم ، عن ثعلب ، والعناء الصرّ» .

(٢٧) كتاب العين للخليل بن أحمد ، تحقيق د . عبد الله درويش ، ط بغداد ١٩٦٧ مطبعة العانى ، ص ١٠٤ .

(٢٨) جمهرة اللغة لابن دريد ، مصورة الطبعة الأولى المطبوعة فى حيدر آباد الدكن سنة ١٣٤٥هـ ٣/١٠٤ .

(٢٩) القاموس المحيط للفيروز آبادى ط ، الحلبي بالقاهرة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢م ٤/٣٦٩ .

(٣٠) لسان العرب لابن منظور منصورة ط . بولاق ـ الدار القومية بمصر ١٩/٣٣٨ .

(٣١) نفسه ١٩/٣٤١ .

وقال في تفسير اشتقاق لفظ العنوان[٣٢] :

«وعنـوان الكتـاب مشتق فيما ذكـروا من المعنى وفيه لغـات : عنـونت وعنّيت وعنّنت ، وقال الأخفش عنوت الكتاب واعنه . .

وقال ابن سيده : العنوان والعنوان سمة الكتاب وعنونة عنونه وعنوانا وعنّاه كلاهما وسمه بالعنوان ، وقال أيضا والعنيان سمة الكتاب ، وقد عناه وأعناه وعنونت الكتاب وعلونته ، قال يعقوب وسمعت من يقول أطن وأعن أى عنونه وأختمه ، قال ابن سيده وفي جبهته عنوان من كثرة السجود أى أثر .

العنـوان إذن مصـطلح معروف ومحدد في الأدب العربي بإطاريه العام والخاص واستعمـل استعـمالا يماثـل استعـمالنا إياه في عصرنا الحاضر في نتاجنا الأدبي العام والخاص . وفي الصحافة لانجد مادة بدون عنوان ويقولون أن «للخبر في أية صورة من صيغـه ، أو قالب من قوالبه ، عنوان يعرف به ، ويدل عليه ، وكتابة العنوان بحاجة إلى مهارة فنية يمكن الحصول عليها بالممارسة وطول التجربة[٣٣]» .

وتبرز الدراسة التطبيقية ظاهرة العنوان واضحة في المدونات التاريخية سواء في عنوان الكتاب أو في العنوانات الفرعية للأخبار التاريخية أو للفصول .

وبـالمثـل تبرز أن بعض القصـائـد التاريخية تتخذ عنوانات بشكل مباشر أو غير مباشر ، أما في العصر الحديث فإن العنوانات أصبحت من مقومات العمل الأدبي الخاص والعام وسوف نزيد الأمر تفصيلا عند التطبيق .

٣ ـ مجالات البحث من الوجهة النظرية :

حددت فيما سبق مفهوم «أدب التاريخ» وعلاقة المصطلح بجملة من المصطلحات المباشرة والفنية التي يقوم عليها الأساس النظرى للبحث في هذا الموضـوع ، وأصبح من الممكن الآن الحديث عن مجالات البحث من الوجهة النظرية . وإذا كان «أدب التـاريخ» يكشف لنـا عن الخصائص الأدبية للمادة المطروحة في المدونات التاريخية

---

(٣٢) نفسه .

(٣٣) د . عبد اللطيف حمزة ـ المرجع السابق ص : : ١ .

والنصوص الأدبية فإننا نتوقع أن يتدرج المضمون بين الحقيقة والخيال على النحو التالي :

أ ـ الحقيقة الكاملة من وجهة النظر التاريخية ، وهذه تتوافر في المصادر التاريخية حين تناولها للحدث التاريخي ، وبداهة أن مناقشة هذه المسألة تتصل بالبحث فى علم التاريخ وتدخل في اختصاص عالم التاريخ . ومن ثم فإننا نرى أنه يجب علينا حين نعرض لحقيقة تاريخية أن نعتمد على استقراء ما جاء في المصادر التاريخية المباشرة دون تحليل لأن التحليل والمقارنة من مهام عالم التاريخ ، ونحن هنا نبحث في نطاق تاريخ الأدب . وعلى الرغم من هذا فإننا يجب أن نحاول الالتزام بما هو متفق عليه في المصادر التاريخية من حقائق إزاء المواقف والحوادث التاريخية التي اتخذها الأدباء موضوعا لأدبهم التاريخي تحقيقا لمبدأ تكامل الدارسات الإنسانية .

ب ـ الحقيقة الممتزجة بالخيال ، وهذه تتوافر في النصوص الأدبية الشعرية والنثرية التي اتخذت من الحوادث التاريخية موضوعا تعبر عنه وتصوره وقد تكون هناك بعض المدونات التاريخية في فترة مبكرة من التدوين التاريخي من هذا النمط الأدبي الذى تمتزج فيه الحقيقة بالخيال ، وفي هذه الأعمال الأدبية والتاريخية الأدبية يكون الالتزام بحدود الحقيقة التاريخية متوافرا لكن خيال الأديب يتدخل في معالجة تصوير الوجدان والمشاعر إزاء الغرض التاريخي المتمثل في موقف تاريخي أو بطل تاريخي يكون محورا للعمل الأدبي . أيضا يمكن أن نسلك في هذا النمط من الكتابات ما يصدر عمن نسميهم «هواة التأريخ» من كتابات إذ إن طبع هذه الكتابات بالطابع الشخصي للكاتب يخرجها عن دائرة الحيدة المطلوبة في معالجة التاريخ معالجة علمية ، ومن ثم يكون عمل هاوى التأريخ أشبه بعمل الأديب من حيث المزج بين الحقيقة والخيال في تصوير الموقف التاريخي .

جـ ـ الجنوح إلى الخيال ، وهذا ما نجده في السير الشعبية بعامة ، إذ لايتوافر في السيرة الالتزام بالحقيقة التاريخية الكاملة علي الرغم من توافر أساس تاريخي بعينه تنطلق منه السيرة . وإذا كان الأدب العام يصور لنا وجدان طوائف بعينها من طوائف

المجتمع إزاء الحدث التاريخي فان الأدب الشعبي يصور لنا وجدان طوائف عامة الشعب في المجتمع الذى تصدر عنه السيرة وتروى في دائرته .

وإذا كانت مناهج المؤرخين قد تباينت في أسلوب تسجيلهم للتاريخ فإننا نتوقع بالمثل تباين القوالب التي صبت فيها هذه المناهج ، ونتبين من بين هذه المناهج منهجين تبدى فيهما تباين القوالب :

الأول : التأريخ الشامل للحوادث التاريخية من مثل ماهو واضح في تاريخ كل من الطبرى والبلاذرى واليعقوبي وابن الأثير وابن خلدون وغيرهم وهؤلاء يكون التركيز عندهم على الحادثة التاريخية .

وكان القالب الفني الذى صيغت فيه الحادثة التاريخية في أغلب الأحوال هو قالب «الخبر التاريخي» .

الثاني : التأريخ لموقف الإنسان من الحوادث التاريخية ، إذ عنى المؤرخون في مثل هذا التأريخ ببيان موقف الإنسان من هذه الحوادث ، وأثر الإنسان فيها وتأثره بها من مثل ما هو واضح في كتب السير والمغازى ومن مثل فتوح الشام للواقدى ووقعة صفين لنصر بن مزاحم وغيرهما ومن مثل ماهو واضح في مذكرات بعض صناع الحوداث التاريخية أو معاصريها قديما وحديثا . وهذا النمط من التأريخ يغلب عليه طابع القص ومن ثم رأينا سيطرة قالب «القصة الإخبارية التاريخية» على كتابات هؤلاء المؤرخين .

أما الأدب العام فلدينا الشعر والنثر ، وتتوافر في المدونات التاريخية نصوص شعرية ونثرية اعتمد عليها المؤلفون فى كتابة تواريخهم وهناك نصوص شعرية ونثرية كثيرة في دواوين الشعراء وأدب الأدباء تدخل في دائرة الأدب التاريخي إضافة إلى ما أنتجه الأدباء في العصر الحديث من روايات تاريخية وما صدر عن هواة التأريخ من كتابات نثرية وما نظمه الشعراء المحدثون والمعاصرون من قصائد ومسرحيات شعرية تاريخية . ونتفق من الآن على أن أدب التاريخي في هذه المجالات توافرت فيه درجة من فصاحة اللغة تجعله في مرتبة أعلى من الأدب الشعبي . وثمة ملاحظة أخرى

تتصل بالتطور في قوالب التعبير في الشعر بخاصة إذا نظرنا إلى التطور في فنين هما : الرجز والشعر وذلك على النحو التالي :-

أ - الرجـز :

كان الرجز أسرع إلى التعبير عن الحدث التاريخي من الشعر نظراً لطبيعة فن الرجز المناسبة للعربي الذى لديه موهبة فطرية لممارسة هذا الفن في مثل هذه المناسبات حتى تصور بعض الدارسين أن الرجز أقدم بحور الشعر العربي نشأة ومنه تولدت باقي البحـور الشعـرية الأخـرى . وكـان الرجز في الحوادث التاريخية صادراً عن بعض المشاركين فى هذه الحوادث من الفرسان والقادة والأفراد العاديين ممن لم يعرف عن كثير منهم تفـوق وبروز في فن الشعر ، ولم تكن الأراجيز في مثل هذه المواقف طويلة ، إذ الموقف التلقائي فرض قصرها . وغلبت على هذه الأراجيز سمة فنية جعلتها تصب في قالب إخبارى وأصبحت على شاكلة قالب الخبر التاريخي في كتب تاريخ الحوادث .

وتطور فن الرجز تطورا خاصا في آخر العصر الأموى وما وليه من عصور أدبية إذ ظهر فن الرجز التعليمي ، ومن ثم رأينا الرجز التأريخي التعليمي يأخذ في الظهور بدءا بالعصر العباسي . وتحولت الأراجيز التاريخية إلى أدب تأريخي صب في قالب الـرجز . وتباينت الأراجيز بتباين مناهج وثقافات الراجزين من الشعراء والمحترفين والأدباء والكتاب .

ب - الشعـر :

واكب الشعر العربي الحوادث التاريخية مواكبة تامة وذلك من خلال تصوير الشعراء لهذه الحوادث . وفيما يخص المعارك الحربية التاريخية غلب على معظم الشعر طابع المتابعة للحوادث بسبب أن معظم الشعراء لم تتوافر لديهم ظروف المشاركة الفعلية بالسلاح المادى في هذه المعارك إلا من كان منهم فارسا أو قائداً في نفس الوقت . وبدأ الشعـر في تسجيله للحوادث التاريخية قصائد قصيرة مالبثت أن تطورت وطالت في العصر العباسي وتحولت إلى قصائد تاريخية طويلة . وكان لغلبة طابع المتابعة للحوادث أثر في سيطرة قالب «القصة الإخبارية التاريخية» على هذا النتاج الشعرى سواء في

القصيدة التاريخية القصيرة أو الطويلة قديما وحديثا . وتقترب القصيدة هنا من نمط التأريخ للعلاقة بين الإنسان والحادثة التاريخية وأثر الإنسان في الحادثة وتأثره بها . وقد لايكون الإنسان فرداً بعينه إذ قد يكون أمة بأسرها في موقفها من التاريخ . ولم يتوقف تطور القصيدة التاريخية عند حد الطول الذى حدث فيها منذ العصر العباسي ، بل تجاوز هذا الحد وأدى إلى ظهور الملاحم الشعرية التاريخية والمسرحيات الشعرية التاريخية في أدبنا الحديث والمعاصر .

وإذا تركنا الشعر إلى النثر سنجد النصوص النثرية التاريخية موزعة على النحو التالي :

أ ـ نصوص أدبية عامة من مثل الخطب والوصايا والرسائل والوثائق الصادرة في المواقف والمناسبات التاريخية والمبثوثة في كتب التاريخ والأدب ، وتخضع دراسة تطور هذه النصوص لمقاييس التطور في النثر الفني .

ب ـ ما يتوافر من مذكرات صناع الحوادث التاريخية والمشاركين في المواقف التاريخية ، ودرس إلخصائص الأدبية لهذا النمط من النثر الأدبي التاريخي .

جـ ـ الرواية التاريخية نشأتها وتطورها في الأدب الحديث والمعاصر .

د ـ الخصائص الأدبية للكتابة النثرية في المدونات التاريخية وبيان الفروق الفنية بين مؤرخ وآخر فى أسلوب عرض هذه المادة والكشف عن الطوابع الفنية للغة المؤرخ وعلاقتها بموقفه من حوادث التاريخ ومنهجه في تدوينها وكيف تتباين هذه الطوابع في لغة «الخبر التاريخي» عنها في لغة «القصة الإخبارية التاريخية» إلى آخر هذه المسائل الخاصة بالتاريخ الأدبي .

أما الأدب الشعبي فإن السير الشعبية زاخرة بنتاج منوع من الفنون التي رأيناها في المدونات التاريخية والأدب العام . إذ نجد في السيرة رجزا وشعرا وخطبا ورسائل ووصايا وحكايات منوعة تصور في مجملها بلغة ركيكة وجدان الشعب إزاء الحوادث التاريخية وأبطاله التاريخيين . وتكشف دراسة هذه المادة من الأدب التاريخي الشعبي أموراً كثيرة تفيد عالم التاريخ ومؤرخ الأدب على حد سواء . ومما لاشك فيه أن الفروق

في لغـة التعبير بين الأدبين العام والشعبي تكشف عن خصائص لغوية ميزت لغة العـامـة في زمن قص وروايات هذه السير مما يفيد في دراسة الحياة اللغوية في زمن الحوادث التاريخية .

٤ ـ المصطلح واتجاهات الدراسات السابقة :

ظهرت دراسات سابقة تتناول تطبيق المنهج التاريخي للأدب على النصوص الأدبية وعلى المدونات التاريخية . ويمكن حصر اتجاهات الدارسات السابقة فيما يلي :

١ ـ اتجاه يفسر النص الأدبي في إطار الحدث التاريخي الذي يعبر عنه ويجعل النص الأدبي نصا تاريخيا يسلك في باب من أبواب الأدب من مثل باب المديح أو باب الرثاء ، وقد استحدث بعض الدارسين لبعض هذه النصوص بابا أطلق عليه باب «أدب الحرب»

٢ ـ اتجاه يخضع النصوص الأدبية في حقبة تاريخية بعينها لمذهب سياسي بعينه ويفسر النصوص طبقا لهذا المذهب الذى يراه دارس الأدب مما قد يؤدي إلى الاعتساف في التفسير تحقيقا «لأيديولوجية» بعنيها يبرأ منها النص الأدبي .

٣ ـ اتجاه يبحث في مناهج المؤرخين وتطورها الفكرى والفلسفي وهو اتجاه يكاد يغفل القيمة الفنية للنصوص الأدبية إذ عناية أصحاب هذا الاتجاه بالفكر التارخي وتطوره أكثر من العناية بفن الأدب . وهذا الاتجاه أقرب ما يكون إلى تطبيق مصطلح أدب الأفكار .

بالفرنسية Histoire des idees أو بالالمانية Geistesgeschichte أو الانجليزية His-tory of Ideas في دراسات استشراقية كثيرة من مثل ما كتبه بارجليوث .

٤ ـ اتجاه في الدراسات الغربية لأدبنا العربي ظهر في دراسات استشراقية كثيرة من مثل ما كتبه مارجليوث في كتابه «محاضرات عن المؤرخين العرب» وجب في كتابه عن الحضـارة الإسـلامية[٣٤] وروزنتال في كتابه «علم التاريخ عند المسلمين»

(٣٤) Studies on the Civilization of Islam
Hamilton A.R.G.B.B.
Beacon Press. Boston - U.S.A.

وهؤلاء يعنـون إلى حد ما بالنصـوص الأدبية في إطـار مايطلق عليه مصطلح التأريخ ، وهو بالانجليزية Historio Graphy وبالفرنسية Historis Graphie .

٥ ـ اتجاه في الدراسات الأدبية والنقدية المحدثة يتمثل في دراسات موضوعات أدب التاريخ بشكل منفرد ومستقل ودون رابط يجمعها في إطار منهجي واحد من مثل دراسة أدب فرقة سياسية في حقبة تاريخية بعينها أو دراسة جنس أدبي في إطار زمني بعينه من مثل درس الشعر السياسي في قرن بعينه أو درس الرواية التاريخية في العصر الحديث ، وهكذا من مثل هذه الدراسات التي تبدو وكأنها جزر متفرقة في محيط واسع .

ونود التنبيه هنا إلى أن المرادف الانجليزى لمصلطح «أدب التاريخ» يجب أن يكون أشمل من مصطلحي History of Ideas £ Literary Of History ونقترح أن يطلق عليه مصطلح Literary of History ويوضح الرسم المرفق الإطار النظرى للبحث .

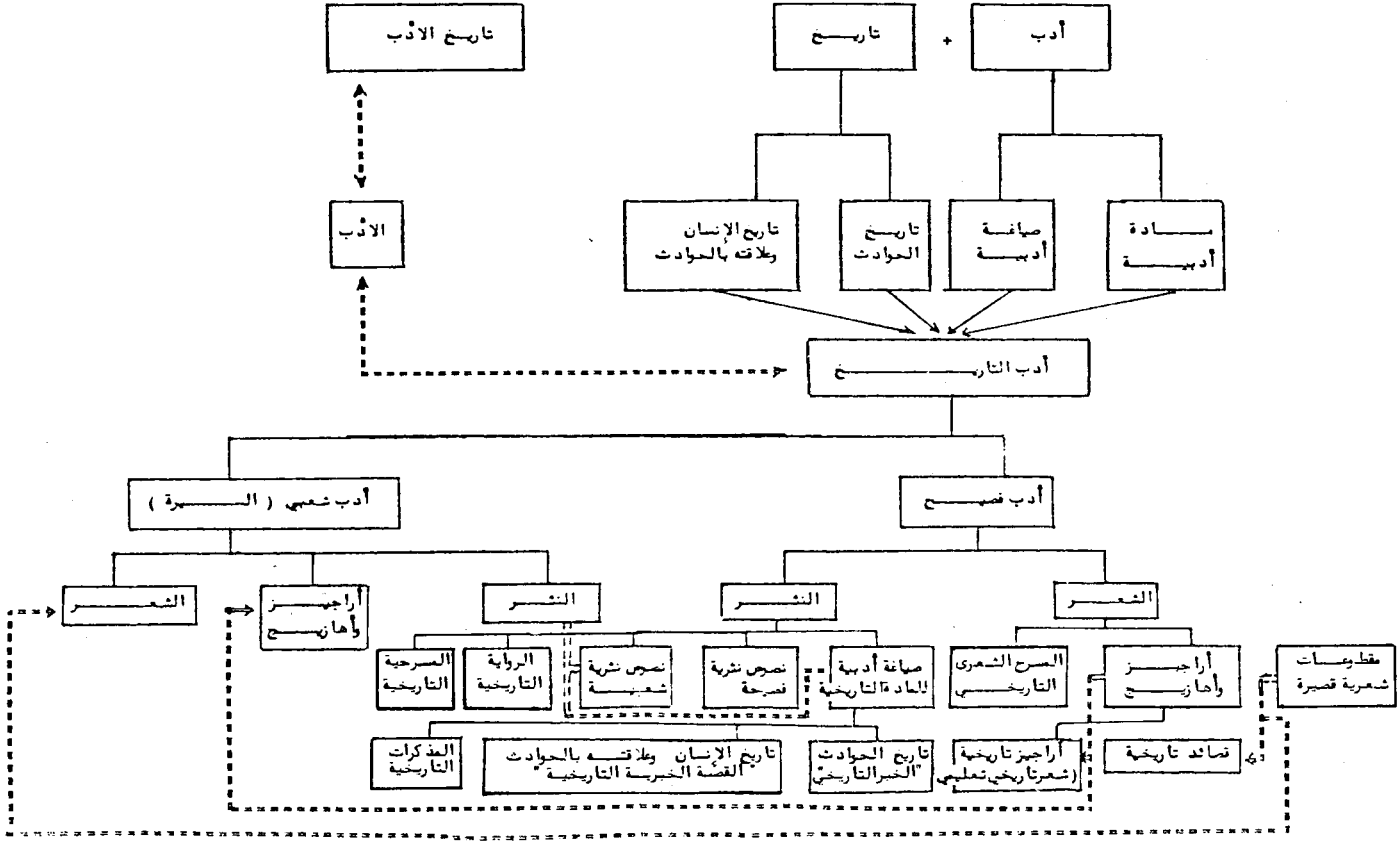
تاريخ الأدب
الأدب
تاريخ
+
أدب
تاريخ الإنسان وعلاقته بالحوادث
تاريخ الحوادث
صياغة أدبية
مادة أدبية
أدب التاريخ
أدب شعبي (السيرة)
أدب فصيح
الشعر
أراجيز وأهازيج
النثر
النثر
الشعر
المسرحية التاريخية
الرواية التاريخية
نصوص نثرية شعبية
نصوص نثرية فصيحة
صياغة أدبية للمادة التاريخية
المسرح الشعري التاريخي
أراجيز وأهازيج
مقطوعات شعرية قصيرة
المذكرات التاريخية
تاريخ الإنسان وعلاقته بالحوادث "القصة الخبرية التاريخية"
تاريخ الحوادث "الخبر التاريخي"
أراجيز تاريخية (شعر تاريخي تعليمي)
قصائد تاريخية

دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابات المؤرخ المصري « عبدالرحمن الجبرتي »

للدكتور
عبدالمنعم إبراهيم الجميعي
الأستاذ المشارك في قسم التاريخ
بكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالجنوب
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

اختلفت الآراء في تقويم دعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب بين مؤيد ومعارض، ومحايد، فالمادحون، ذكر أحدهم أنها دعوة إصلاحية تصحيحية، دعت إلى منع المنكرات والتجاهر بها، واتباع ما أمر به الله تعالى في قرآنه المجيد، من إخلاص التوحيد لله وحده، واتباع سنة رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون، والأئمة المجتهدون.[١] ومنهم من ذكر أنها كانت حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد، لذلك نادت بالعودة إلى الإسلام في صفاته الأولى، وطهارته ونقائه، ووحدانيته، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك، فلا إله إلا الله معناها كل ذلك والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد[٢]. ومنهم من قال أنها ردت على الضلالات، وأنارت مصابيح الهدى في دياجير الظلمات، ورفعت لواء التوحيد حتى عم في العالم الإسلامي نور الهدى والرشد، واستيقظ المسلمون من سباتهم، وبدت تباشير النهضة الإسلامية الشاملة[٣]. ومنهم من ذكر أنها كانت تبتغي «تقويض الحكم التركي، وتحرير الأماكن المقدسة[٤]»، وإعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى، عقيدة الصحابة والتابعين[٥].

أما القادحون، فقد تصدوا لمواجهة الدعوة، وتشويه حقيقتها، فألصقوا بها وبالقائمين عليها التهم، وأثاروا حولها الشبهات والافتراءات[٦]، وعَدُّوها شبحاً مخيفاً،

(١) عبدالرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار. الجزء الرابع، القاهرة ـ المطبعة العامرة الشرفية ١٣٢٢هـ، ص ٥.

(٢) أحمد أمين : فيض الخاطر، الجزء الخامس، القاهرة ـ النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ص ١٨٨.

(٣) مسعود الندوي : محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه ـ ترجمة عبدالعليم البستري، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤هـ، ص ص ٩، ١٠.

(٤) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ـ ترجمة عجاج نويهض، المجلد الرابع، القاهرة ـ مكتبة البابي الحلبي ١٣٥٢هـ، ص ٨٣.

(٥) نفسه : المجلد الرابع، ص ١٦١.

(٦) انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن : الدولة السعودية الأولى، جـ١ القاهرة ـ دار الكتاب الجامعي ١٩٧٩، ص ٥٠. وأحمد بن زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، القاهرة ١٣٠٥هـ، ص ٢٣٠.

وأساءوا إلى سمعتها بين الناس، فادعوا أنها مذهب جديد، كما أطلقوا عليها اسم الوهابية، وكأنها بدعة أو دعوة جديدة إلى دين غير الدين الإسلامي، يضاف إلى ذلك أنهم أطلقوا عليها أسماء أخرى، منها: الخوارج.

والحقيقة أن هذه الدعوة كانت يقظة إسلامية، سداها ولحمتها العودة إلى أصول العقيدة عن طريق التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإجماع السلف الصالح من الأمة، وقد أكد ذلك الشيخ محمد بن عبدالوهاب في إحدى رسائله قائلاً: «إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ومسلماً وما كان من المشركين، ولست ولله الحمد أدعوة إلى مذهب صوفي، أو فقيه متكلم، أو إمام من الأئمة. . . ، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، التي أوصى بها أول أمته وآخرهم» كما أنني «متبع ولست بمبتدع عقيدتي»[٧].

ومن هنا فإن هذه الدعوة لم تأت بجديد على الإسلام لأنها لم تقدم شيئاً جديداً غير التفسير الصحيح للكتاب والسنة، كما أنها لم تأت بمذهب فقهي جديد، لأنها تتبع مذهب الإمام أحمد بن حنبل، يضاف إلى ذلك أنها جاءت لتخليص الأمة الإسلامية، والعقيدة المحمدية من البدع والخرافات، والتمسك بالتوحيد بعد أن اختلطت السنن بالبدع، وترك المسلمون كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظهرت بينهم الوثنية في شتى صورها وأشكالها، فصار بعضهم يقدس الأشجار والأحجار، ويخضعون لها، ويتذللون أمامها، كما عد بعضهم الآخر قبور الأولياء مزارات حج وتقديس.

وأهمية كتابات الجبرتي[٨] لا ترجع فقط لكونه قد عاصر الأحداث، وسمع بها وكتب

(٧) جامعة الإمام محمد بن سعود: مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب. أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ القسم الخامس. الرسائل الشخصية، رسالة من الشيخ إلى عبدالله بن محمد بن عبداللطيف، ص ٢٥٢، ورسالة أرسلها إلى السويدي أحد علماء العراق، ص ٣٦.

(٨) ولد عبدالرحمن الجبرتي في القاهرة عام ١٧٥٤م وتعلم بالأزهر، وكان والده حسن الجبرتي من شيوخه، وقد شهد الجبرتي مقدم الحملة الفرنسية على مصر، وخروجها وما أعقبه من صراع على السلطة انتهى بتولية محمد علي، كما

عنها، ولكن لما اشتهر عنه من الصدق، وتحري الدقة في كتاباته والتمسك بحدود الله مهما كانت العواقب، ومهما كان حرج الموقف بالنسبة له خاصة وأنه كان يعيش في كنف وتحت سيطرة حاكم حارب الدعوة وناهضها، ومن هنا كانت كتاباته عن الدعوة كتابة المؤرخ المنصف، الذي كتب تاريخ مرحلة مهمة في حياة الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، أجاد فيها عرضه للصراع الذي خاضته الدعوة مع أعدائها والمتربصين لها، كما كان من أوائل المؤرخين الذين قدروا هذه الدعوة حق قدرها، فقد آمن بها في قرارة نفسه، لاتفاق أفكارها مع المذهب السلفي الذي يتمسك به، فقد عدها دعوة إصلاحية هدفها نبذ البدع والخرافات التي دخلت على الإسلام من زيارة الأضرحة والطبل والزمر في الموالد والأعياد ومواسم الحج، وغيرها من البدع التي كانت قد علقت بأذهان المسلمين في هذه الفترة، وقد دفعه ذلك إلى انتقاد أعدائها، فلم يخف استهزاءه بالجيوش العثمانية التي قادها طوسون ومحمد علي، وإبراهيم للقضاء على هذه الدعوة. ولما كان الجبرتي من المناهضين لزيارة الأضرحة والتشفع بالأولياء، وادعاء الغيبيات والكرامات، ويعتبر أن الوقف والنذر على القبور والأضرحة باطل[٩] فقد اتفقت أفكاره مع أفكار رجالات الدعوة، ويتضح ذلك فيما كتبه عنها وعن أصحابها في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» وكيف كان واضحاً وصريحاً في سرده للأحداث، حتى ولو كان في ذلك ما يؤدي إلى جلب المشاكل والأمثلة على ذلك عديدة نذكر منها:

أولاً: بعد أن أحدثت الدعوة فزعاً لدى مناهضيها، حاولوا مقاومتها فشنوا عليها حرباً نفسية وفكرية لا هوادة فيها، بهدف إبعاد المسلمين عنها، وإيغار صدورهم ضدها، فذكروا أن أتباع الشيخ عطلوا سبل الحج إلى الحرمين الشريفين، وأنه من الواجب التخلص من هذه الدعوة، استنقاذاً للأماكن المقدسة من سيطرتهم.

عاش فترة حروب الحجاز بين أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب وجنود محمد علي، وكتب عنها في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الذي يعد من المصادر الهامة التي كتبت عن هذه الفترة.

(٩) د. أحمد عزت عبدالكريم (اشراف): عبدالرحمن الجبرتي ـ دراسات وبحوث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦، ص ٣٧٧.

ولما كان الجبرتي يعرف حقيقة الأمر، وهي أن أتباع الدعوة لم يمنعوا أحداً من الحج، إلا إذا كان مخالفاً للطرق الشرعية والتعاليم الإسلامية الصحيحة فقد ذكر ذلك بلا لبس أو مواربة، فقال: «والحال ليس كذلك، فإنه لم يمنع أحداً يأتي الحج على الطريقة المشروعة وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل، والزمر، وحمل الأسلحة». وضرب مثلاً بالحجاج المغاربة الذين اتبعوا الطرق الشرعية أثناء الحج، فلم يعترضهم أحد، فقال: «حجوا وقضوا مناسكهم دون أن يعترض لهم أحد بشيء»[١٠] كما أوضح الجبرتي أن اتباع الدعوة لم يمنعوا قوافل الحجيج التي يتبع أصحابها البدع والطبل والزمر فجأة، بل أعطوا لأصحابها الفرصة، ونصحوهم بنبذ هذه العادات داخل الأماكن المقدسة في المرات القادمة، فذكر - في خلال حديثه عن المحمل المصري، وما يصحبه من طبل وزمر - أن أتباع الدعوة قالوا للمسؤولين عن المحمل، لا تفعلوا ذلك، ولا تأتوا به بعد هذه المرة»، وحذروهم من تكرار ذلك[١١].

ونظراً لتكرار هذه المخالفات من قافلة الحج الشامي، ومخالفة أصحابها للشروط التي اشترطها عليهم أتباع الدعوة وإصرارهم على استعمال الطبل والزمر والأسلحة، وكل ما كان مخالفاً للشرع، فقد رد أتباع الدعوة على ذلك بأنهم أرسلوا لأمير هذه القافلة يقولون له: «لا تأت إلا على الشروط التي شرطناها عليك في العام الماضي»[١٢]. ولما سمع بذلك رجع بالقافلة من غير حج لإصراره على هذه المنكرات»[١٣].

والواقع أن أتباع الدعوة لم يمنعوا أحداً من تأدية شعائر الحج في أي وقت من

(١٠) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ٥٤ تحت عنوان «واستهل شهر شوال بيوم الأحد سنة ١٢٢٣هـ. والجدير بالذكر أن المؤرخ الأمريكي لوثروب ستودارد قد أكد قول الجبرتي موضحاً أن ابن سعود لم يمنع قافلة الحج الشامي، بل طلب من أميرها عبدالله باشا والي الشام أن يدخل مكة ويقضي مناسك الحج هو وأصحابه. انظر: حاضر العالم الإسلامي جـ٤ ص ١٦٣.

(١١) الجبرتي: المصدر السابق، جـ٤ ص ٥٤ تحت عنوان «واستهل شهر صفر بيوم الجمعة سنة ١٢٢٢هـ.

(١٢) نفسه، جـ٤ ص ٥٣ تحت عنوان «ثم دخلت سنة ١٢٢٢هـ».

(١٣) نفسه.

الأوقات، خاصة وأن تمسكهم بأركان الإسلام التي من بينها حج بيت الله الحرام ورغبتهم في إحياء المبادىء الإسلامية الصحيحة تجعل من الصعب اتهامهم بذلك، وربما كانت ظروف الحرب بينهم وبين خصومهم هي التي ساعدت على ترويج هذه الشائعات، ويبدو ذلك واضحاً في أنه بعد أن استقرت الأمور لرجالات الدعوة تأكدت سلامة الحج وتأدية المناسك.

ثانياً : وعندما اشتدت شوكة الدعوة وانتشرت، وازداد أتباعها خشي أصحاب المصالح من البدع والأباطيل على مصالحهم، فأخذوا في إثارة القلاقل وبث الدعايات المغرضة ضدها، واستنجدوا بالسلاطين العثمانيين، بحجة قيام أنصار الدعوة بالاستيلاء على ما في الحجرة النبوية الشريفة من مجوهرات وأموال وتحف أوضح الجبرتي ما حدث مستنداً إلى قدرته على إيضاح حقيقة أمور الدين وجوهره فقال: «وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء من الملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم، إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها، فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء، فلما تقادمت عليها الأزمنة.. ارتسم في الأذهان حرمة تناولها، وأنها صارت مالاً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يجوز لأحد أخذها، ولا انفاقها»[١٤].

وقد علق الجبرتي على ذلك بقوله: «والنبي صلى الله عليه وسلم منزه عن ذلك، ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا في حياته، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب، واختار أن يكون نبياً عبداً ولم يختر أن يكون نبياً ملكاً»[١٥].

واستعان الجبرتي في إثبات تعفف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزهده في الدنيا بما رواه الترمذي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً قلت لا يارب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً... فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك[١٦].» كما ذكر موضحاً بأنه إذا

(١٤) الجبرتي : المصدر السابق جـ٤ ص ٩٠ تحت عنوان «واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثاء ١٢٢٣هـ.

(١٥) نفسه ص ٩٠ .

(١٦) الترمذي ، باب الزهد (٣٥) وانظر أيضاً تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي جـ٧ ص ص ١٢ ـ ١٤ .

كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد منع بني هاشم في حياته من تناول الصدقة وحرمها عليهم، فإن كنز المال في حجرته الشريفة وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين والمحتاجين أمر لا يوافق عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا الشرع[١٧] فليس في الدين تقديم الهدايا وتعليقها لقبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أن الدين يحرم كنز الذهب والفضة، ويأمر بانفاقها في سبيل الله، يضاف إلى ذلك أن الإمام سعود كان قد استفتى علماء المدينة بصرف ما في الحجرة في منفعة الإسلام والمسلمين، فأفتوه بذلك أنه ينبغي على ولي الأمر إخراج المال الذي في الحجرة وصرفه في حاجة أهل المدينة وجيران الحرم، خاصة وأن الحاجة والضرورة كانت قد اشتدت إلى إخراج هذا المال وانفاقه[١٨]. ومن هنا كانت الفريةالتي رددها أعداء الدعوة حول هذا الموضوع للنيل منها ومن أصحابها، قد فندها الجبرتي ودحضها.

ثالثاً : ولما كانت الأداة التي استغلها السلطان العثماني للحد من قوة الدعوة هي جيش محمد علي المكون من الألبان، فإن الجبرتي قد ذكر حقيقة هؤلاء الجند، ولم يخف سخطه عليهم وإظهارهم على صورتهم الحقيقية فاستهزأ بأفعالهم، وقارن بين ذلك وبين ما يفعله أتباع الدعوة الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، والذين كانوا في قتالهم يصلون صلاة الخوف، بينما كان جنود محمد علي لا يفهمون قواعد الدين، وقد استشهد الجبرتي في ذلك بصورتهم في المعسكر الذي اجتمعوا فيه قبل السفر إلى الحجاز، فحكى عن أنواع المحرمات التي فعلوها في شهر رمضان قائلاً: «يأكلون ويشربون جهاراً في نهار رمضان ويقولون نحن مسافرون ومجاهدون. . كما كانوا يأكلون الحشيش ويشربون المسكرات ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزه ويلعبون القمار جهاراً في نهار رمضان ولياليه»[١٩].

(١٧) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ٩١ (ذي الحجة ١٢٢٣هـ).

(١٨) محمد أديب غالب: من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي. المملكة العربية السعودية ـ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص ١١٣.

(١٩) الجبرتي : المصدر السابق جـ٤ ص ٢٢٨ تحت عنوان «واستهل شهر رمضان بيوم الأربعاء سنة ١٢٣٩، انظر أيضاً ص ٣١٠.

ولما انهزمت جيوش طوسون بن محمد علي في وادي الصفراء على يد السعوديين في ١٣ ذي الحجة ١٢٢٦هـ لم يستطع الجبرتي أن يخفي ما يكنه في صدره تجاههم فأوضح حقيقة ما حدث مبيناً كيف كان فرار هؤلاء الجند مزرياً، فقال: «انهزموا جميعاً وولوا الأدبار، وطلبوا جميعاً الفرار، وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم، وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة رؤسائهم، فكان القوي منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف، ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله.. حتى كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول في القطائر يخوضون في البحر إلى رقابهم كأنما العفاريت في أثرهم تريد خطفهم»[٢٠].

ثم شرح أسباب هزيمتهم واندحارهم على لسان بعضهم بقوله: «ولقد قال بعض أكابرهم من الذين يدعون الإصلاح والتورع، اين لنا بالنصر، وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهباً، وصحبتنا صناديق المسكرات، لا يسمع في عرضينا آذان ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين»[٢١].

وقارن الجبرتي بين هؤلاء وبين عساكر الدولة السعودية الأولى، فوصف تقواهم وورعهم وتمسكهم بالدين قائلاً: «والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا كان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك، لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته»[٢٢].

وبعد أن انتصر جند محمد علي في بعض المعارك، واستطاعوا الوصول إلى بدر، وصف الجبرتي ما فعله هؤلاء الجند مع الأهالي من أهوال تقشعر لها الأبدان، وقارن بين ما فعله هؤلاء وبين ما يفعله جنود الدعوة عند انتصارهم فقال عن جند محمد علي: «ولما وصلوا بدراً واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف، وبها خيار الناس، وبها

(٢٠) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ١٤٩ تحت عنوان: «ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين وألف».
(٢١) نفسه.
(٢٢) نفسه.

أهـل العلم والعلماء نهبـوهم، وأخـذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعض لبعض ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج»[٢٣].

وقد تعجب الجبرتي من هذه الأفعال قائلاً: «وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم مع أنهم مسلمون وأحرار»[٢٤]، كما آلمه القتل والتنكيل الذي أحدثته قوات محمد علي في أنصار الدعوة، فأبدى غضبه من ذلك قائلاً: «كيف تقتلون أناساً يقولون لا إله إلا الله».

أما عن اتباع الدعوة فقد وصفهم الجبرتي بأن جل همهم كان تنقية الدين من البدع والخرافات، فأوضح أنه بعد انتصار الأمير سعود ودخوله مكة في عام ١٢١٨هـ عقد مجلساً بالحرم، وتباحث في شأن البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة التي يتبعها الناس[٢٥]، وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها، وشرب الأراجيل بالتنباك في المسعى بين الصفا والمروة (كما أمر) بالملازمة على الصلوات في الجماعة، ودفع الزكاة، وترك لبس الحرير والمقصبات، وإبطال المكوس والمظالم[٢٦]. «بعد أن وصل الحال في هذه البلاد المقدسة إلى حال لا تحتمل من الظلم حتى وصل الأمر ببعض الناس أنهم كانوا يأخذون على الميت إتاوة حتى يستطيع أهله دفنه، وإذا لم تدفع هذه الإتاوة يظل الميت بلا دفن، يضاف إلى ذلك أنهم استحدثوا العديد من المكوس على البيع والشراء، وصادروا أموال العديد من الناس ومساكنهم»[٢٧].

كما طلب الأمير سعود من المجتمعين في الحرم اتباع ما أمر به الله تعالى، واتباع سنة الرسول ـ عليه السلام ـ، وما سار عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون، وترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله، مثل تقبيل

(٢٣) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ١٤٩ تحت عنوان «ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين وألف».

(٢٤) نفسه ص ٣٢٦ تحت عنوان «واستهل شهر صفر بيوم الجمعة سنة ١٢٣٥هـ.

(٢٥) نفسه جـ٣ ص ٢٦٨ تحت عنوان «شهر صفر سنة ١٢١٨هـ».

(٢٦) نفسه جـ٤ ص ٥ تحت عنوان «سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف».

(٢٧) الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ٥ تحت عنوان: «سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف».

الأعتاب، والخضوع والتذلل والمناداة والنذور واختلاط النساء بالرجال[٢٨].

كما ضرب الجبرتي مثلاً آخر لبيان الفرق بين جنود الدعوة، وبين جنود محمد علي، فأوضح أنه بعد دخول أتباع الدعوة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، «لم يحدثوا بها حدثاً غير منع المنكرات، وشرب التنباك في الأسواق، وهدم القباب ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم»[٢٩].

ومما ذكره الجبرتي يتضح أن الجند المتمسكين بعقيدتهم هم دائماً على خشية الله في أعمالهم وأفعالهم، أما الجند الذين لا يأبهون بدين أو عرف، فالنهب والسلب كان طريقهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل اشترك المصريون في جيش محمد علي أثناء محاربته للسعوديين؟.

الواقع أن المصريين كانوا بعيدين عن الجندية خلال هذه الفترة، وأن جيوش محمد علي كانت خالية تماماً منهم، بل كانت تتكون من الترك، والألبان والمغاربة، ويؤكد ذلك أن المؤرخين الذين عاصروا هذ الفترة وكتبوا عنها ذكروا في كتاباتهم أن قوات محمد علي ـ التي دخلت الجزيرة العربية ـ كانت من غير المصريين، وذكروا هذه القوات مرة باسم «الترك»[٣٠]، ومرة باسم «الدالاة»[٣١] ومرة باسم «الططر»[٣٢]، ومرة باسم المغاربة[٣٣]. وتذكرنا وقائع التاريخ أن رغبة محمد علي في التخلص من جنوده

---

(٢٨) نفسه.

(٢٩) نفسه جـ٣ ص ٣٦٧ تحت عنوان «شهر رجب ١٢٢٠هـ».

(٣٠) انظر على سبيل المثال: الجبرتي: المصدر السابق جـ٤ ص ص ١٥٥، ١٥٩، ٢٢٦، ٣٠٨.

(٣١) انظر على سبيل المثال: الجبرتي جـ٤ ص ٢٤١، ٢٤٥. والجدير بالذكر أن الدلاة جاءوا من نواحي الشام وجبل الدروز والمناولة.
للتفاصيل انظر: الجبرتي جـ٤ ص ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٣٢) انظر على سبيل المثال: جـ ٣ ص ٣٧١.

(٣٣) انظر على سبيل المثال: الجبرتي جـ ٤ ص ص ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٩٠، ٣٠٨، ٣٢٦.

الإنكشارية، والألبان الذين جلبهم معه من تركيا إلى مصر لا خراج الفرنسيين، وكانوا يثيرون الشغب والاضطراب ضده في بدايات حكمه لمصر، هي التي شجعته على دخول الحرب بهم ضد السعوديين حتى يتخلص منهم ويبعدهم عنه[٣٤]. كما تذكرنا وقائع التاريخ أيضاً أن المصريين لم يدخلوا الجندية في عهد محمد علي إلا في عام ١٨٢٠ ميلادية[٣٥]، بينما كانت حروب محمد علي في الجزيرة العربية قد انتهت في أواخر عام ١٨١٨م بسقوط الدرعية[٣٦].

يضاف إلى ذلك أن هذه الحرب كانت غرما على المصريين لا غنما لهم، فقد أوضح الجبرتى أن محمد على أرهقهم مادياً، بحجة حروبه في الحجاز فأمر بزيادة الضرائب عليهم، «وجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية، وذكر أنها مساعدة على حروب الحجاز»[٣٧]. هذا إلى جانب ما أوضحه الجبرتي من أن هذه الحروب أوجدت حالة من اختلال الأمن والارتباك الاقتصادي، وعدم استقرار معيشة المصريين، لدرجة أن عسكر محمد علي وقفوا «خارج المدينة يخطفون ما يأتي به الفلاحون من السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك»[٣٨]. وتوالت المظالم، وتزايدت أنواعها، مع «استمرار الغلاء في جميع أسعار المبيعات والمآكل والمشارب بسبب ذلك»[٣٩] لدرجة أن قل اللحم والسمن والجبن خاصة بعد أن أخذ محمد علي مواشي الفلاحين وأغنامهم[٤٠]. وكل ذلك زاد أحوال المصريين ضنكاً على ضنك، وأرهقهم في المساهمة في حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل.

---

(٣٤) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: الدارة: العدد الرابع. السنة السابعة رجب ١٤٠٢هـ/ مايو ١٩٨٢ تحت عنوان: «محمد علي ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية ص ص ٤٥ ـ ٥٣.

(٣٥) انظر على سبيل المثال: عبدالرحمن الرافعي «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ـ الجزء الثالث، عصر محمد علي. القاهرة الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م ص ص ٣٥٤ ـ ٣٦٧.

(٣٦) نفسه ص ١٥٣.

(٣٧) الجبرتي: المصدر السابق جـ ٤ ص ٣١٣ تحت عنوان «واستهل شهر ذي الحجة الحرام بيوم الجمعة سنة ١٢٣٣هـ».

(٣٨) نفسه جـ٣ ص ٣٦٩ تحت عنوان «واستهل شهر رمضان بيوم السبت سنة ١٢٢٠هـ».

(٣٩) نفسه: جـ ٤ ص ٩٠ تحت عنوان: «واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثاء سنة ١٢٢٣هـ».

(٤٠) نفسه.

وهكـذا كان موقف الجـبرتي واضحـاً في نقـده لجنـود محمـد علي الذين ارتكبوا المنكـرات، وفعلوا من الأهـوال ما تقشعر له الأبدان، في حين أن جنود ورجالات الدعوة لم يكن لهم من هدف سوى إعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى.

ولم يقتصر موقف الجبرتي في الدفاع عن الدعوة ضد خصومها، بل أوضح أهدافها وغـاياتها كما ذكرها أحد رجالاتها البارزين، فبعد أن حدث لبس وسوء فهم حول الدعوة، واختلف بعض الناس في أمرها بين مؤيد ومعارض، نشر الجبرتي الكتاب الذي كان الأمير عبدالعزيز بن سعود قد بعثه إلى أمير الحج المغربي، والذي أوضح فيه حقيقة الدعوة وأهدافها، فذكر أنها تدعو إلى التوحيد، وعدم الشرك بالله، وتشهد بأن سيدنا محمد هو عبدالله ورسوله وكل من يخالف ذلك فقد ظلم نفسه واستشهد في ذلك بقوله تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[41].

وبقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[42].

وبقوله عز وجل:

﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ... ﴾[43].

وبقوله تعالى:

﴿ ... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ... ﴾[44].

(٤١) سورة يوسف آية (١٠٨).
(٤٢) سورة آل عمران آية (٣١).
(٤٣) سورة الحشر آية (٧).
(٤٤) سورة المائدة آية (٣).

وأوضح ضرورة نبذ الخرافات، وأهمية اتباع ما أنزل الله تعالى مستشهداً بقوله الكريم:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ... ﴾[٤٥].

وأشار إلى أن أهم أسباب ما أصاب البلاد الإسلامية من نوازل وكوارث كان نتيجة لشرك الناس بالله «والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات، التي لا يقدر عليها إلا رب السماوات وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القرابين، والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد»[٤٦] مع أن الله تعالى هو القادر على كل شيء، ولا يقبل مثل هذه الأعمال، فقد قال تعالى:

﴿ ... فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[٤٧].

كما أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يقبل من عباده إلا ما كان لوجهه، فقال تعالى:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٤٨].

كما قال تبارك وتعالى:

﴿ ... مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

---

(٤٥) سورة الأنعام آية (١٥٣).

(٤٦) الجبرتي: المصدر السابق ص ص ٢٧٠، ٢٧١ تحت عنوان «شهر صفر سنة ١٢١٨.

(٤٧) سورة الزمر آية (٢، ٣).

(٤٨) سورة يونس آية (١٨).

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ...﴾[٤٩].

وأوضح الأمير سعود بن عبدالعزيز أن كل ما ذكر أجمع عليه الأئمة الأربعة، ومن سلك سبيلهم، أما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وإضاءتها والصلاة عندها ونذر النذور لها فكل ذلك من الحوادث والأمور التي حذر منها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ثبت أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ «أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه ولا تمثالاً إلا طمسه» ولهذا وجب هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما أوجب الخلاف بين أنصار الدعوة وبين من حاولوا تكفيرهم حتى وصل إلى درجة مقاتلتهم[٥٠]، امتثالاً لقوله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥١].

وهكذا ترك لنا الجبرتي وثيقة هامة بينت أهداف الدعوة ومراميها على لسان أحد قادتها، والتي اتضح منها أن أقوال أصحاب الدعوة لا تختلف عن أفعالهم.

وأخيراً فقد أكد الجبرتي قوة دعاة الدعوة وأصالتهم العلمية والدينية فبعد أن اجتمع باثنين منهم في القاهرة خلال أسر محمد علي لهما، قال: «قد اجتمعت بهما مرتين فوجدت منهما أنساً وطلاقة لسان، واطلاعاً وتضلعاً ومعرفة بالأخبار والنوادر، ولهما من التواضع والتهذيب والأخلاق وحسن الأدب في الخطابة والتفقه في الدين واستحضار الفروع الفقهية، واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف»[٥٢].

---

(٤٩) سورة البقرة آية (٢٥٥).

(٥٠) الجبرتي: المصدر السابق جـ٣ ص ٢٧١ تحت عنوان «شهر صفر سنة ١٢١٨».

(٥١) سورة البقرة آية ١٩٣.

(٥٢) الجبرتي: المصدر السابق جـ٣ ص ٢٧١.

ومع أن الجبرتي قد انصف الدعوة في كثير من المواقف وأيدها من خلال استنكاره للبدع، فيبدو أنه كان متأثراً في بعض الأحيان بالألفاظ التي رددها أعداء الدعوة، ففي خلال سياقه لبعض الحوادث ذكر بعض هذه الألفاظ مثل كلمة الوهابية، وكلمة الوهابي[٥٣] وغيرها من الكلمات التي أطلقت على الدعوة وأتباعها.

وقد يكون للجبرتي العذر في ذلك حيث كان يسجل تلك الأحداث وهو بين سمع ألد أعداء الدعوة وبصرهم، ويعيش في كنفهم وتحت سيطرتهم ونفوذهم[٥٤].

ويكفينا أن نذكر أن تمسك الجبرتي بذكر الحقائق التاريخية دون مواراة أو مجاملة لمحمد علي أو لغيره، قد جلب له الضرر البليغ ففقد ابنه خليل الذي قتله جنود محمد علي أثناء صلاة الفجر، كما فقد بصره حزناً، وكمداً على ابنه يضاف إلى ذلك أن منزله أحرق بعد وفاته بسبب كتاباته المعادية لمحمد علي.

ومهما قيل أو يمكن أن يقال عن الجبرتي، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن ما كتبه عن الدعوة، وعن حملات محمد علي وجنوده على الجزيرة كان ذا فائدة تاريخية عظيمة دائماً ما تؤخذ بعين الاعتبار، وإن ما كتبه عن الدعوة قد توخى فيه عين الحقيقة دون مواربة حيث كتب ما سمعه وما رآه بصدق سيظل مضرب الأمثال بين المؤرخين والباحثين.

(٥٣) نفسه جـ٣. انظر على سبيل المثال ص ص ٢٩٥، ٣١٨، وفي الجزء الرابع انظر: ص ص ١٧، ٨٣، ٩٠.

(٥٤) من مقدمة الأستاذ حمد الجاسر لكتاب من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ص ٨.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ أحمد بن زيني دحلان : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، القاهرة ١٣٠٥هـ.

٣ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي . الجزء السابع، بيروت دار الفكر للطباعة والتوزيع .

٤ ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب . المملكة العربيةالسعودية، أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ القسم الخامس الرسائل الشخصية .

ثانياً : المراجع :

١ ـ أحمد أمين : فيض الخاطر ـ الجزء الخامس . القاهرة ـ النهضة النصرية ـ الطبعة السادسة .

٢ ـ أحمد عزت عبدالكريم (إشراف) : عبدالرحمن الجبرتي ـ دراسات وبحوث ـ القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م .

٣ ـ عبدالرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الثالث ـ عصر محمد علي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٣٠م .

٤ ـ عبدالرحيم عبدالرحمن : الدولة السعودية الأولى جـ١ القاهرة ـ دار الكتاب الجامعي ١٩٧٩م .

٥ ـ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ـ ترجمة عجاج نويهض المجلد الرابع . القاهرة ـ مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٣٥٢هـ.

٦ ـ محمد أديب غلاب : من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، المملكة العربية السعودية ـ دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
٧ ـ مسعود الندوي : محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه. ترجمة عبدالعليم البستوي. المملكة العربية السعودية ـ مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ثالثاً : الدوريات :

١ ـ الدارة : العدد الرابع ـ السنة السابعة رجب ١٤٠٢هـ/ مايو ١٩٨٢م م١.

أثر النشاط البشري على الأرض

للدكتور
إبراهيم بن سليمان الأحيدب
الأستاذ المساعد في قسم الجغرافيا
بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

يزاول الإنسان منذ أن وجد على سطح الأرض نشاطات مختلفة زراعية وصناعية وعمرانية من أجل البقاء، والعيش برفاهية، وعمارة الأرض التي استخلفه الله عليها. وقد نجح في استخراج الثروات الطبيعية التي أوجدها الله في باطن الأرض من ماء وبترول وذهب وفضة وحديد وفحم وملح وغيرها من الثروات والكنوز المطمورة في الأرض. وازداد نشاط الإنسان بازدياد تقدمه وتطوره الحضاري والعلمي، فانتشر على سطح الأرض وغيّر كثيراً من ملامحها فقطع الغابات وحوّلها إلى مناطق زراعية أو مناطق جرداء، وحول عدداً من المناطق الجرداء القاحلة إلى مناطق زراعية خضراء، وأقام مدناً ومباني ومنشآت ضخمة على سطح الأرض.

إن ما يقوم به الإنسان من أعمال على سطح الأرض له آثار إيجابية وأخرى سلبية، فهذه الأعمال تؤدي إلى سعادته ورفاهيته وازدهاره، ولكن قد يكون لها آثار سلبية تهدده هو وممتلكاته والكائنات الحية الأخرى الموجودة بالقرب من مكان النشاط. فنتيجة لنشاط الإنسان المستمر على سبيل المثال ـ انخفضت وتصدعت بعض الأراضي في المناطق الزراعية والبترولية ومناطق التعدين. كما انهارت عدة سدود في أماكن مختلفة من العالم، ذهب ضحيتها عدد من البشر والحيوانات وكانت مصدر خطر على المناطق القريبة منها. كذلك وقعت هزّات أرضية بسبب حقن باطن الأرض بمخلفات المصانع الملوثة، أو لضخامة كميات المياه التي تجمعت خلف السدود بعد سقوط الأمطار، ومثل هذه الهزات قد تكون سبباً في انهيار المباني والسدود والمنشآت القريبة منها.

ويهدف هذا البحث إلى تعريف القارىء في الوطن العربي ببعض الآثار السلبية للنشاط البشري العشوائي الذي لا يقوم على التخطيط والدراسة السليمة، والذي قد

يكون مصدر خطر على الإنسان والكائنات الحية الأخرى. ويستعرض البحث بعض الحوادث التي وقعت في مناطق مختلفة من العالم ويناقش أسبابها والآثار التي تركتها لأخذ عبر ودروس منها ولتذكير المخططين وأصحاب القرارات في الوطن العربي بالآثار الخطيرة التي تأتي نتيجة لاستغلال الثروات الطبيعية المختلفة ـ التي أودعها الله في باطن الأرض ـ بشكل استنزافي غير مخطط. أو نتيجة لإقامة مشاريع ومنشآت ومباني لا تتناسب مع الطبيعة الجيولوجية والجغرافية للمناطق التي تقام عليها هذه المشروعات. ويتناول البحث الموضوعات التالية :

- الهبوط والانهيارات الأرضية التي تحدث نتيجة لاستخراج الثروات الطبيعية السائلة والصلبة الكامنة في باطن الأرض.
- الزلازل والهزات الأرضية التي تحدث في باطن الأرض نتيجة لحقن المياه الملوثة، أو لوجود كميات كبيرة من المياه خلف السدود، أو نتيجة للتفجيرات النووية في باطن الأرض.

وختاماً ، أسأل الله التوفيق .

أسباب الانخفاضات الأرضية والفتحات على سطح الأرض: Causes of Subsidence Surface and Sinkholes

ينخفض مستوى سطح الأرض وكذلك تظهر الفتحات والشقوق على سطحها نتيجة لعوامل طبيعية ليس للإنسان دخل في حدوثها، ولعوامل بشرية، وهي التي تحدث نتيجة لنشاط الإنسان المختلف.

من العوامل الطبيعية التي تؤثر في سطح الأرض الأمطار الغزيرة، والتذبذب في مستوى المياه الجوفية، وحدوث الزلازل[1]. وتأكسد المواد الرسوبية، وصغر حجمها نتيجة للجفاف ولتأثير عوامل التعرية[2]. وتحدث الانخفاضات والفتحات الأرضية نتيجة لذوبان الأحجار الرملية والكلسية وغيرها من المواد المكونة للأرض بسبب جريان المياه خلالها[3]. وتنخفض الأرض وتتشقق أيضاً لعوامل بشرية مختلفة كاستخراج المواد السائلة الباطنية كالماء والغاز والبترول[4].

وكذلك تنخفض الأرض نتيجة لاستخراج المواد الطبيعية الصلبة من باطن الأرض كالحديد، والفحم، والملح وغيرها من المواد الصلبة[5]. وتنخفض أيضاً نتيجة لغمر المنطقة بكميات كبيرة من المياه وخاصة في المناطق التي ردمت بالتراب[6]، أو لتغيير مجاري الأمطار والسيول عن مجراها الطبيعي[7]، وقد تحدث الانخفاضات أيضاً نتيجة لري وسقي المزارع والحدائق بالمياه وانكسار أنابيب المياه والمجاري الموجودة في المنطقة[8]. وكذلك قد تحدث الانخفاضات والانكسارات والشقوق الأرضية نتيجة لإقامة المشاريع والمباني الضخمة[9]. ويمكن تلخيص أسباب عملية الهبوط والانهيارات الأرضية كما يلي:

* إن انخفاض مستوى المياه الباطنية يؤدي إلى اختلاف التدرج في المياه ثم إلى حركة الرواسب نحو الفتحات الموجودة في الباطن، وينجم عن ذلك التحرك نشوء الفتحات السطحية.
* حدوث عملية الرطوبة والجفاف وتكرارها، وعملية التعرية المائية واختلاف مستوى

المياه يؤدي إلى ضعف المواد غير الصلبة وبالتالي إلى انهيارها.

* تسرب مياه الأمطار الغزيرة نحو باطن الأرض عبر الشقوق الصغيرة الموجودة في السطح يؤدي إلى تعرية الصخور وإحداث فتحات وأنابيب في الصخور.
* قيام الإنسان بأي نشاط في الطبقة السطحية أو تغيير في مجاري المياه والأمطار من جهتها الأصلية إلى جهة أخرى يؤثر على التربة والطبقة السطحية أو تحت السطحية، كذلك فإن تسرب المياه من البرك والأنابيب ومصاريف المياه والمجاري، والري، والسقي، والبالوعات، قد يؤدي إلى وجود فتحات أو انهيارات أرضية.
* المشروعات والمنشآت الكبيرة والتفجيرات في باطن الأرض وتحت السطح تؤثر على السطح. وكذلك إقامة المنشآت الثقيلة ذات الحمولة العالية فإنها قد تؤدي إلى تحرك التربة نحو الباطن وحدوث الانهيارات نتيجة للضغط العالي.
* إزالة النباتات أو الأعشاب ذات العروق الطويلة فإن ذلك يعطي فرصة للمياه السطحية لتتسرب نحو الباطن من خلال الشقوق في التربة. كذلك يؤدي إزالة الأشجار والنباتات إلى تفكك التربةوعدم تماسكها وبالتالي إلى تسرب المياه السطحية نحو الباطن محدثاً شقوقاً وأنابيب باطنية ينتج عنها انهيار الطبقة السطحية التي فوقها.
* استخراج الثروات الطبيعية السائلة والصلبة من باطن الأرض، فذلك يؤدي إلى ضعف الطبقات الباطنية والحاملة للطبقات السطحية فينتج عنه هبوطات وانهيارات أرضية وفتحات مختلفة الأحجام في سطح الأرض.

لقد حدثت انخفاضات وانكسارات وشقوق وفتحات في وجه الأرض بأحجام متباينة في مناطق مختلفة في العالم، ويعتبر الإنسان بطريق مباشر أو غير مباشر عاملاً رئيساً في حدوثها. ولمزيد من التوضيح سوف نقوم بذكر بعض الظواهر التي حدثت نتيجة لنشاط الإنسان وأماكن وأسباب حدوثها.

هبوط الأرض نتيجة لاستخراج السوائل: Subsidence due to fluid withdrawal

إن استغلال السوائل (ماء، غاز، وبترول) المخزونة في باطن الأرض وضخها

بكميات كبيرة تفوق كمية تغذية الخزان الجوفي الذي يتم منه سحب المادة السائلة نتج عنه انخفاضات وانكسارات وشقوق وفتحات في سطح الأرض في مناطق وبيئات مختلفة من العالم. كما أن الاعتماد على المياه الجوفية لأغراض الري والسقي في المناطق الزراعية وكذلك للشرب في المناطق الكثيفة بالسكان نتج عنه انخفاض في منسوب المياه الجوفية، وكذلك أدى إنتاج الزيت والغاز بكميات كبيرة لغرض الطاقة وغيرها إلى انخفاض كمية الزيت أو الغاز المخزونة في باطن الأرض.

إن انخفاض كمية السوائل على اختلاف أنواعها في جوف الأرض يؤدي إلى انخفاض ضغط السوائل (Fluid Pressure) في الطبقة التي توجد بها السوائل وبالتالي يحدث انخفاض أو هبوط أرضي. وكما هو معروف فإن السوائل في الأرض تكوّن ضغطاً عالياً وتستطيع أن تحمل المواد التي فوقها، وهي شبيهة بالحجر الذي يرمي في بركة فإنه يبدو خفيفاً جداً أثناء رفعه في الماء ولكن إذا سحبت المياه من البركة فإن الحجر يصبح ثقيلاً والواقع أن الماء كان يحمل الحجر. وهبوط الأرض أو انخفاضها يحدث بنفس الطريقة حيث إن جذب السوائل من الخزانات الأرضية يؤدي إلى تلاصق وتلاحم الحبيبات والذرات المكونة للرواسب الباطنية وضغط بعضها على بعض (Grain to Grain Load) تلك الحبيبات والذرات التي كانت في السابق مملوءة بالسوائل ولكنها أصبحت فارغة بعد استخراج السوائل منها فأدى ذلك إلى تلاحمها وتلاصقها ومن ثم إلى هبوط المنطقة التي فوقها[١١]. وقد هبطت مناطق عديدة من العالم نتيجة لضخ السوائل على اختلاف أنواعها من باطن الأرض بكميات كبيرة تفوق مقدار تغذية الخزان. وسوف نستعرض بعض الأمثلة لهبوط وانخفاض سطح الأرض نتيجة لسحب المياه الجوفية والزيت والغاز.

هبوط الأرض نتيجة لجذب المياه الجوفية: Subsidence due to Ground-water withdraw

إن ضخ المياه الجوفية لأغراض الزراعة المختلفة أو للشرب بكميات كبيرة تفوق كميات تغذية الخزانات الباطنية بالمياه (Recharge) يؤدي إلى انخفاض مستوى المياه الجوفية (Aquifer). وقد أدى انخفاض منسوب المياه الجوفية في مناطق عديدة

من العـالم إلى هبوط مساحات شاسعة من الأرض من ذلك ما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا وآسيا وأفريقيا وخاصة في المناطق التي تعتمد فيها الزراعة بشكل رئيسي على المياه الجوفية أو التي تشكل المياه الجوفية فيها مصدراً مائياً أساسياً لسكان المدن الكثيفة السكان. فقد انخفضت عدة مناطق من الأرض نتيجة لسحب المياه الجوفية نذكر منها بعض الأمثلة:

انخفاض الأرض في الولايات المتحدة الأمريكية: Subsidence in U. S. A .

لقد انفخضت الأرض في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة في المناطق التي تعتمد على المياه الجوفية مثل ولاية كاليفورنيا، وولاية تكساس، وولاية نيفادا، وولاية جورجيا وولاية أريزونا.

يعتبر الري عنصراً أساسياً في الإنتاج الزراعي في ولاية كاليفورنيا وتستخدم المياه الجوفية كثيراً في ري وسقي المحاصيل الزراعية المختلفة. وقد أدى ضخ المياه الجوفية بكميات كبـيرة ولمـدة طويلة إلى انخفـاض مستـوى المياه الجوفية حوالي ١٠٠ قدم (٣٠ مترا). والنتيجة الطبيعية لانخفاض مستوى المياه الجوفية هو انخفاض الأرض التي فوقها لذا هبطت الأرض في كل من منطقة مدينة لوس بوينس ـ كتلمان (Los Bonos-Kettleman City Area) . ومنطقة واسكو ـ تولر (Tulare-Wasco-area) ، ومنطقة لانكاستر (Lancaster Area) ، ومنطقة ماريكوبا ـ آرفين صـ A-rvin-Mariscopa Area)، ومنطقة وادي سانتا كلارا (Santa Clara Valley Area). كما هو موضح في الشكل رقم ١[١١].

ويختلف مقدار انخفاض الأرض في كاليفورنيا من مكان لآخر حسب كمية المياه المسحوبة وكمية المياه التي تغذي الخزانات الجوفية.

ففي منطقة الوادي الأوسط في كاليفورنيا (The Central Valley of California) تقدر المساحة الهابطة بأكثر من ٥٠٠٠ كم٢، وقد هبطت الأرض بمعدل حوالي ٣ر. من المتر في منطقة مدينة لوس بوينس ـ كتلمان ـ (Los Bonos - Kettleman City Area) وبمعدل ٣ أمتار في منطقة تقدر مساحتها بحوالي ١١٣ كم٢ وأعظم

شكل رقم (١) مناطق الهبوط الأرضي في كاليفورنيا

المصـدر / Poland, 1976

هبوط وصل إلى ٨٫٣ متر. كما هبطت الأرض في وادي سانتا كلارا (Santa Clara Valley) في مساحة قدرها ٦٤٧ كيلومتراً مربعاً، وقد بلغ أقصى انخفاض حوالي ١٣ قدماً في منطقة سان أوزيه (San Jose area). وقد أشارت الدراسات إلى أن هبوط الأرض في المنطقة بدأ منذ عام ١٩٢٠م وأن هناك علاقة كبيرة ما بين هبوط الأرض في منـطقة سان أوزيه وهبوط مستوى المياه الجوفية نتيجة لضخ المياه الجوفية لأغراض الـزراعـة المختلفـة. فقـد بدأ ضخ المياه من باطن الأرض في عام ١٩١٦ وارتفع

الاستهلاك من تسعة وأربعين مليون متر مكعب من المياه (٤٩٠٠٠٠٠٠ م٣) إلى مائة وتسعة وثمانين مليون متر مكعب من المياه (١٨٩٠٠٠٠٠٠م٣) في السنة خلال الستينات.

ونتيجة لضخ المياه بكميات كبيرة انخفض الضغط الجوفي للمياه أكثر من ٧٥ متراً وكان مجموع حجم الرواسب التي هبطت حوالي عشرة ملايين متر مكعب (١٠٠٠٠٠٠٠م٣). وقد نتج عن هبوط الأرض حدوث أضرار جسيمة وكبيرة للمباني والمنشآت والطرق والقنوات في منطقة وادي سانتا كلارا تقدر بملايين الدولارات الأمريكية. كما تقدر الأضرار التي أصابت الآبار في المنطقة بأكثر من ٤ ملايين دولار، وتقدر تكلفة إقامة الحواجز على طول الساحل الجنوبي من خليج سان فرانسيسكو لحماية المنطقة من الفيضانات بحوالي ٩ ملايين دولار أمريكي[١٢]. وقد انخفضت الأرض في منطقة واسكو- تولر (Tular - Wasco area) حوالي ٨ أقدام ما بين عامي ١٩٢٦ وعام ١٩٦٥. وهبطت الأرض حوالي ١٢ قدماً في منطقة ماريكوبا - أرفين - Arvin- Marricopa area كما حدث هبوط في منطقة تقع إلى الشمال الشرقي من جبال سان جبريل San Gabriel Mountains في كاليفورنيا، وتقدر مساحة الأرض الهابطة بحوالي ٤١٥ كم٢، ويقدر هبوط الأرض في منطقة لانكستر بأكثر من ٣ أمتار[١٣]. ومن الأمثلة السابقة يتضح أن هبوط الأرض في مناطق مختلفة من كاليفورنيا يرجع إلى انفخاض منسوب المياه الجوفية نتيجة لاستخدامها في أغراض الزراعة المختلفة بكميات تفوق كميات التغذية المائية للخزانات الجوفية. وللتخفيف من انخفاض الأرض في كاليفورنيا تم جذب المياه لأغراض الزراعة من شمال كاليفورنيا في عام ١٩٧٣ للأجزاء الشمالية من وادي سان جواكين. وقد نتج عن هذا المشروع ارتفاع منسوب المياه الجوفية في المنطقة وبالتالي إلى توقف انخفاض الأرض[١٤].

وقد وقعت أيضاً عدة انخفاضات في الولايات المتحدة خارج ولاية كاليفورنيا نتيجة لضخ المياه الجوفية بكميات كبيرة. فقد حصل انخفاض في منطقة هيوستن - جالستون في ولاية تكساس (The Houston-Galveston region of Texas)

صورة ١ . وتعتبر هذه المنطقة من المناطق التي استنزفت فيها المياه الجوفية خلال الأربعين السنة الماضية، وقد بدأ هبوط الأرض في عام ١٩٤٣ خاصة في وسط ضاحية بسادينا (The subrub of Pasadena) ، وقد تأثرت منطقة تقدر مساحتها بحوالي ٣٧٣ كم٢ وبلغ معدل انخفاض الأرض حوالي ٣ر. من المتر ولكن المعدل ازداد بعد عام ١٩٤٣ وكذلك ازدادت مساحة الأرض المنخفضة. وفي عام ١٩٥٤ بلغ معدل الانخفاض الأرضي حوالي ١ر٢ متر وقد نتج عن هذا الانخفاض دمار المناطق الساحلية وجعلها معرضة للفيضانات وكذلك أثر على الآبار العميقة المبطنة والمحفورة في المنطقة. وتقدر الخسارة الناجمة عن انخفاض الأرض والتي وقعت على الممتلكات الخاصة بأكثر من ٣٠ مليون دولار أمريكي[١٥].

كذلك حصل هبوط في مناطق أخرى من أمريكا نتيجة لانخفاض منسوب المياه الجوفية في كل من لاس - فيجاس في ولاية نيفادا (Las Vegas Nevada). فقد انخفضت الأرض حوالي ١٣ قدماً ومنطقة سافانا بولاية جورجيا (Savana, Geor-gia) كما هبطت منطقة ألوى - بيكاكو بولاية أيرزونا (The Eloy-Picacho area, Arizona) الواقعة على بعد ١٢٤ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة توسان حوالي ٣ أمتار و٦و٠ من المتر منذ عام ١٩٠٥[١٦].

الانخفاض الأرضي في مدينة مكسيكو: Subsidence in Maxico City

انخفضت أجزاء من مدينة مكسيكو (Maxico City) نتيجة لانخفاض منسوب المياه الجوفية في المنطقة. وقد ازداد عدد سكان المدينة من أقل من نصف مليون نسمة في عام ١٨٩٥ إلى مليون في عام ١٩٢٠ وإلى ٥ ملايين عام ١٩٦٠ ثم إلى ١٠ ملايين نسمة في عام ١٩٧٥. هذه الزيادة السريعة في عدد سكان مدينة مكسيكو أدت إلى زيادة الطلب على المياه الجوفية وضخها بكميات كبيرة تفوق كمية تغذية الخزانات الجوفية من المصادر المائية الطبيعية كالأمطار. فعلى سبيل المثال وصلت كمية معدل ضخ المياه في اليوم في الخمسينات من القرن الحالي حوالي ٨٠٠٠٠٠ متر مكعب من المياه بينما معدل التغذية السنوية للخزان الجوفي في نفس الفترة تقدر بحوالي ٢٠٠٠٠٠

متر مكعب لليوم. فزيادة عدد السكان أدت إلى زيادة الطلب على المياه الجوفية وإلى انخفاض منسوبها ونتج عن ذلك انخفاض الأرض، وقد بلغ الانخفاض في بعض المناطق حوالي ٧ أمتار. وكان لهبوط الأرض في مدينة مكسيكو الأثر الكبير على شبكة تصريف المياه والمجاري والطرق وسكك الحديد والمنشآت والمباني في المنطقة. ومن أهم المباني التي تأثرت بانخفاض مدينة مكسيكو قصر الفنون الجميلة (The Palace of fine arts) الذي بني في عام ١٩٣٤، فقد هبط ٣ أمتار وحدث ميلان في المبنى (صورة ٢) نتج عنه هبوط بعض السلالم دون مستوى سطح الأرض، وهي التي كانت فوق مستوى سطح الأرض عند إنشاء المبنى. وقد حاولت السلطات المكسيكية الحد

صورة (١) مساكن في منطقة خليج جالفستون بولاية تكساس، وقد انخفضت الأرض في هذه المنطقة حوالي ٢,٤ متر نتيجة لضخ المياه الجوفية بكميات كبيرة

(after, Coates, 1979 p 171)

من هبوط الأرض في المنطقة بجلب المياه للمدينة من المناطق المحيطة بها. وكذلك قامت السلطات المكسيكية بحقن الخزانات الجوفية في مدينة مكسيكو عن طريق الآبار لرفع منسوب المياه الجوفية[١٧].

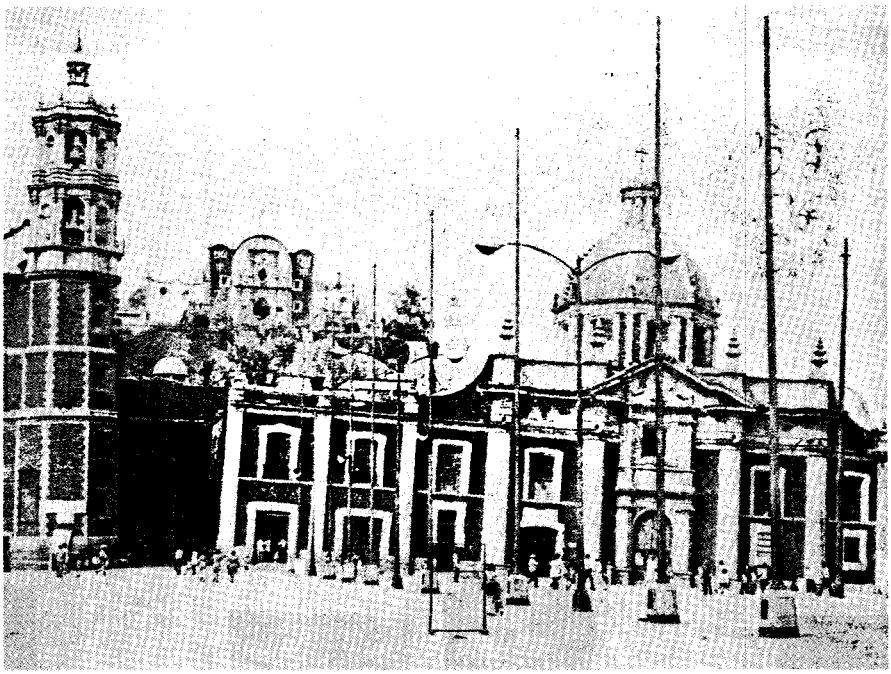

صورة (٢) توضح الصورة الميلان الجانبي للمبنى نتيجة لانخفاض الأرض في مدينة مكسيكو
(after, Oliver, 1979 p 550)

انخفاض فينيسيا (البندقية) في إيطاليا : Subsidence in Venice, Italy

تم إنشاء مدينة فينيسيا في وسط بحيرة واسعة ضحلة على ساحل البحر الإدرياتيكي في القرن السابع للميلاد، وقد نمت المدينة خلال العصور المختلفة، فقد شيدت المباني وأقيمت المصانع فيها وفي المناطق المحيطة بها. وقد أثبتت الدراسات والبحوث أن مدينة فينيسيا تهبط نحو البحر بمعدلات مختلفة وأن هذا المعدل قد زاد بشكل ملحوظ. وذكر برجينز (Berghinz, 1971) في مقالته «فينيسيا

تهبط نحو البحر» (Venice in sinking into the sea) أن فينيسيا تهبط بمعدل ٢٥ر. من البوصة في السنة وأن هذا المعدل يزداد سنوياً كما هو واضح من الجدول التالي :

السنة	مجموع الهبوط (بوصة)	معدل الهبوط السنوي (بوصة)
١٩٠٨ - ١٩٢٥	٠,٧	-,٠٤
١٩٢٦ - ١٩٤٢	١,٥	٠,٠٩
١٩٤٣ - ١٩٥٢	١,٤	٠,١٤
١٩٥٣ - ١٩٦١	١,٨	٠و٢٠

وقد أرجع برجينز هبوط مدينة فينيسيا إلى عدة أسباب منها: تحرك الصخور الباطنية فوق المواد غير الثابتة التي تشكل قاع البحيرة، وانفجار الغاز في دلتا نهر بو (Delta Po River)، وضخ المياه الجوفية بكميات كبيرة، وإقامة المشاريع والمصانع والمباني في المنطقة. وقد أشار برجينز إلى أن ضخ المياه الجوفية بكميات كبيرة للأغراض المختلفة يعتبر من أهم الأسباب في انخفاض منطقة فينيسيا، فجذب المياه الجوفية بكميات كبيرة أدى إلى انخفاض منسوب المياه الجوفية وبالتالي إلى انخفاض ضغط المياه الجوفية تحت المواد الرسوبية. فالمياه الجوفية كانت ركناً رئيساً في حمل الطبقات العليا، ولكن عندما انخفض منسوبها انخفض ضغط المياه وفقدت المواد الرسوبية جزءاً مهماً من القاعدة الأساسية التي كانت تحملها وتساندها فأدى ذلك إلى هبوطها. وتهبط مدينة فينيسيا بمعدل صغير كما هو واضح من الجدول إلا أنه يشكل خطراً على المدينة إذا علمنا أن ٧٠٪ من مساحة مدينة فينيسيا يقع على ارتفاع ما بين ٣,٥ - ٤,٥ أقدام فوق سطح البحر. فانخفاض الأرض يهدد المباني والآثار في المنطقة بالخراب والدمار، ويؤدي إلى انخفاض الأرض عن مستوى البحر وهذا يعتبر مشكلة وخاصة في تصريف مياه الأعاصير والأمطار ومياه مجاري المدينة والمناطق المحيطة بها، وكذلك يساعد انخفاض فينيسيا على تعمق المد نحو الداخل وارتفاعه

في البحيرة. إن انخفاض مدينة فينيسيا وما حولها وإن كان بمعدل صغير يشكل خطراً على المدينة وخاصة أنها تطل على البحر. ولتخفيف هبوط فينيسيا أو التخفيف منه فقد تم التقليل من سحب المياه الجوفية في عام ١٩٧٠ ثم أوقف تماماً في عام ١٩٧٥. وارتفع منسوب المياه الجوفية وقل معدل انخفاض المنطقة.

الانخفاض الأرضي في إنجلترا واليابان : Subsidence in England and Japan

انخفضت الأرض في انجلترا واليابان نتيجة لانخفاض المياه الجوفية. وقد بدأ انخفاض منسوب المياه الجوفية في (لندن ، إنجلترا) في عام ١٩٢٠، واستمر الانخفاض ووصل إلى ٧,٥ أمتار في عام ١٩٤٣ و ١٠٠ متر في عام ١٩٦٣م، ونتج عن استمرار انخفاض المياه الباطنية انخفاض الطبقة السطحية التي فوقها بحوالي ٢٠,. من المتر. وكذلك أدى ضخ المياه الباطنية بكميات كبيرة في اليابان إلى حدوث بعض الهبوط الأرضي في كل من مدينة طوكيو ومدينة أوساكا اليابانية[١٨].

التشقق والتصدع في طابة بالمملكة العربية السعودية : Subsidence in Tabah, S. A.

تقع قرية طابة تقريباً على دائرة العرض ٥١ـ ٢٧ـ شمالاً وخط الطول ١٠ ٤٢ شرقاً وإلى الجنوب الشرقي من مدينة حائل بالمملكة العربية السعودية، وتحيط بها المرتفعات البركانية من جميع الجهات (شكل ٢). ويقدر عدد سكانها بحوالي ٤٠٠ نسمة وتتألف طابة من المزارع الصغيرة والمساكن المبنية من الطين واللبن (صورة ٣و٤).

تعتمد الزراعة في طابة اعتماداً كلياً على المياه الجوفية الموجودة في باطن الأرض. وفي السنوات الأخيرة ازداد ضخ المياه الجوفية عن طريق الآبار العادية والارتوازية، وأدت هذه الزيادة إلى انخفاض مستوى المياه في الآبار. وقد ذكر أحد مواطني طابة

شكل رقم (٢) موقع وطبوغرافية منطقة طابة

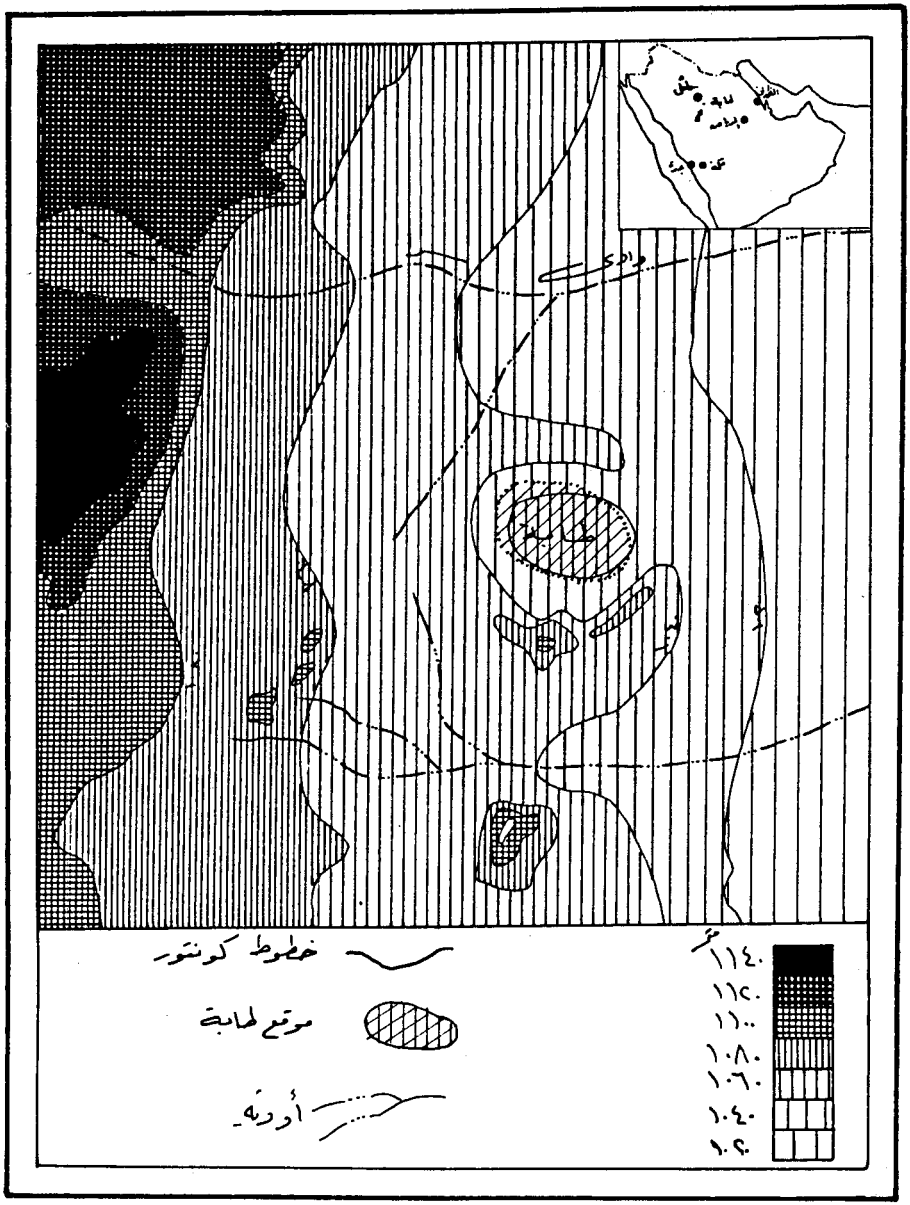

المصدر وزارة الشئون البلدية والقروية.

صورة (٣) منظر لمدينة طابة

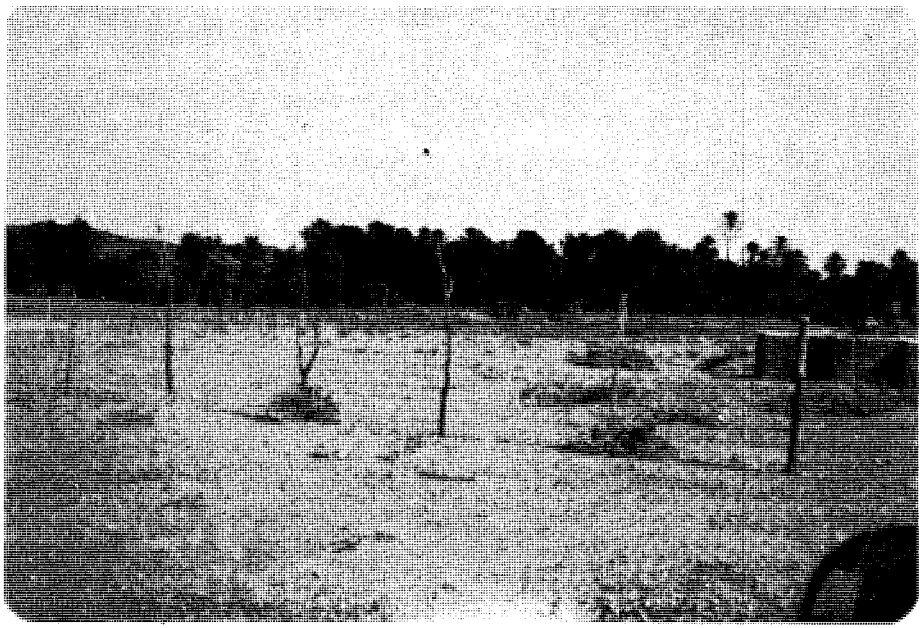

صورة (٤) منظر لمزارع النخيل في طابة

والذي تحدث معه الكاتب أثناء زيارته للمنطقة أن مستوى المياه في الآبار كان مرتفعاً في السابق ولكن بدأ منسوبه ينخفض حتى أن بعض الآبار غير العميقة جفت. ونتيجة لاستمرار ضخ المياه الجوفية وعدم وجود مصدر طبيعي مستمر كالأمطار يغذي المياه الجوفية ويعوض عن الكميات المسحوبة منها؛ انخفضت المياه الجوفية وصاحبها انخفاض في ضغطها. ولقد أدى انخفاض منسوب المياه في المنطقة إلى نشوء فراغات وفتحات بين الذرات الصغيرة والحبيبات المكونة للطبقة والتي كانت تشغلها المياه قبل ضخها ولكنها أصبحت فارغة بعد ضخ المياه مما أدى إلى ضغط الحبيبات المكونة للطبقة بعضها على بعض وانكماشها وأصبحت مقاومتها لضغط الطبقات العليا التي فوقها ضعيفة مما أدى إلى حدوث انكسارات وشقوق باطنية، وأثر ذلك على الطبقة العليا فحدثت صدوع وشقوق في سطح الأرض وبشكل واضح في وسط القرية حيث تقع المزارع والمساكن ويمكن أن يلاحظها الشخص العادي، كما ظهر أثر هذه الشقوق على جدار المقبرة الموجودة في منطقة التصدع (صورة ٥، ٦، ٧، ٨) وبعض

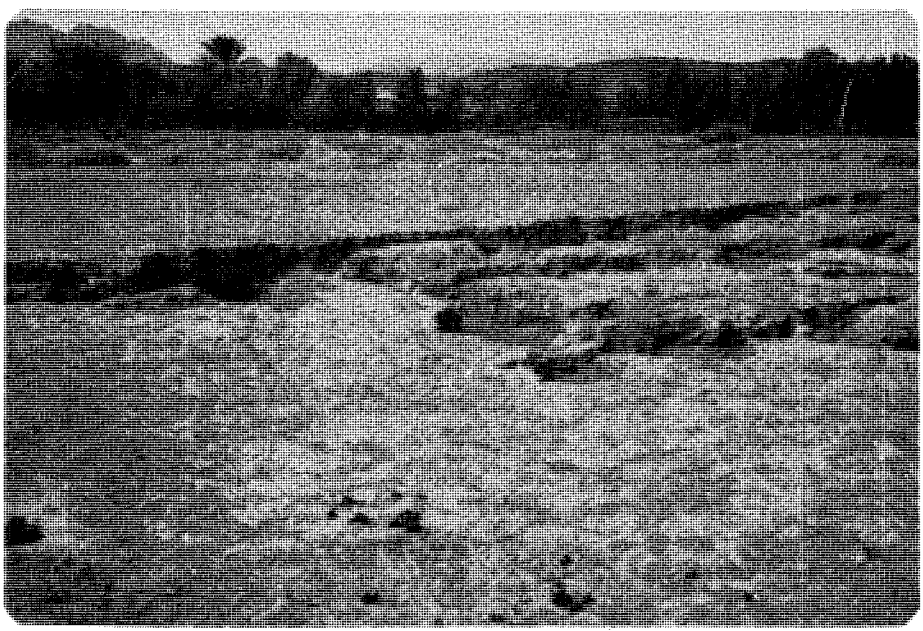

صورة (٥) بعض مناظر تصدع وتشقق سطح الأرض في طابة في المملكة العربية السعودية

المباني. ولكن لم يصاحب هذه التصدعات والتشققات هبوط أو انخفاض أرضي واضح (Subsidence Surface)، ولا يعرف ما إذا كان هناك هبوط في المنطقة أم لا لأن عملية الهبوط الأرضي تتم ببطء ولفترة طويلة وتحتاج إلى رصد وتسجيل دقيق لارتفاع المنطقة، وذلك يتم بوضع علامات ارتفاع لقياس ارتفاعها باستمرار ولفترة طويلة.

صورة (٦) بعض مناظر تصدع وتشقق سطح الأرض في طابة في المملكة العربية السعودية

إن ظهور التصدعات والتشققات الأرضية في طابة لا يشكل خطراً جسيما في الوقت الحاضر ولم ينتج عنه أضرار على الأرواح، ولكن هذه التشققات والتصدعات قد تزيد نتيجة لاستمرار ضخ المياه الجوفية لأغراض الزراعة أو الشرب. وقد أفاد أحد المواطنين بأن السيول التي تتكون في المنطقة أثناء وبعد سقوط الأمطار تتسرب بسرعة نحو باطن الأرض عبر هذه الشقوق. وهذا في الواقع يعتبر خطراً على الأرض والمياه الجوفية، فتسرب مياه السيول بكميات كبيرة عبر هذه الشقوق قد يؤدي إلى توسع الشقوق وفتح مجاري وقنوات باطنية، أو إلى ذوبان الصخور والتكوينات المختلفة

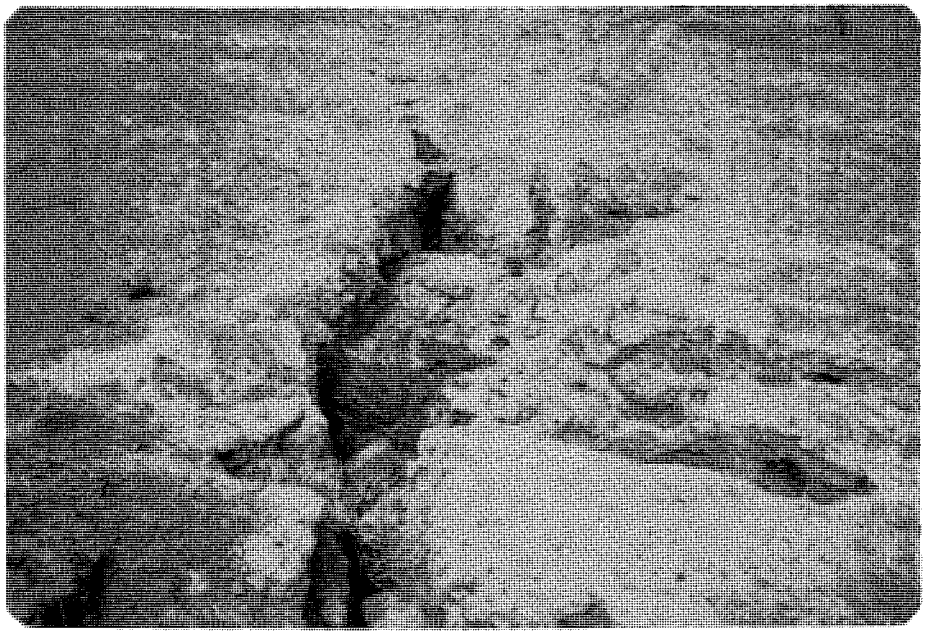

صورة (٧) تصدع أرضي في طابة

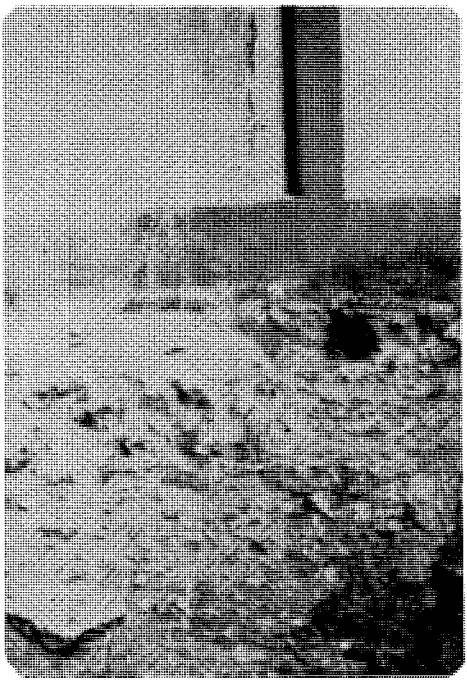

صورة (٨) تصدع الأرض وجدار المقبرة في طابة

القابلة للذوبان التي في طريقها فيضعف تماسك التربة وتتسبب في حدوث فتحات جديدة في سطح الأرض (Sinkholes) وهبوط الطبقة السطحية. والأمر الآخر الذي قد يحصل نتيجة تسرب مياه السيول عبر هذه الشقوق هو تلوث المياه الجوفية وتغير نسب تركيبها نتيجة لذوبان الصخور المختلفة المكونة للطبقة والتي تجري خلالها المياه القادمة من سطح الأرض، أو نتيجة لتلوث مياه السيول بمخلفات وبقايا

الحيوانات المنتشرة في المنطقة مما يجعلها غير صالحة للشرب في منطقة التصدع .

وهناك عدة حلول يمكن أن تتخذ لتجنب المزيد من التصدع أو حدوث شقوق أو انخفاض في المنطقة في المستقبل .

أولاً : عدم ضخ المياه الجوفية في طابة والبحث عن مصدر آخر للمياه قريب من المنطقة .

ثانياً : التقليل من استخدام المياه الجوفية بأقصى حد ممكن ويتم ذلك بإرشاد المواطنين والمزارعين إلى أهمية المياه وعدم الإسراف في استخدامها .

هذه الحلول تعطي فرصاً لارتفاع منسوب المياه الجوفية في طابة، أما بشأن التصدعات والشقوق الموجودة حالياً في المنطقة فيمكن ردمها واستصلاحها بالطرق العلمية المعروفة حتى لا تساعد على حدوث قنوات وأنابيب باطنية نتيجة لذوبان الصخور المكونة للطبقة والتي تضعف من صلابتها مما يؤدي إلى انهيار الطبقة التي فوقها . وكذلك سيؤدي ردمها إلى منع تسرب مياه السيول الملوثة نحو المياه الباطنية في المنطقة هذا التسرب الذي يجعل تلك المياه غير صالحة للشرب أو لسقي وري المزارع الموجودة في طابة .

انخفاض الأرض في مناطق إنتاج الزيت : Subsidence in the oil fields

لقد حدث هبوط أرضي في مناطق إنتاج الزيت والغاز في جهات مختلفة من العالم . وهبوط الأرض نتيجة لإنتاج الزيت أو الغاز قد يكون بطيئاً ويستغرق وقتاً أطول من الهبوط الأرضي الناجم عن ضخ المياه الجوفية . وقد لوحظ أول هبوط أرضي في مناطق إنتاج الزيت في الولايات المتحدة الأمريكية في عام **١٩٢٥** في حقل جوزكريك للزيت في ولاية تكساس (Goose Creek oil field, Texas)، وشمل هذا الانخفاض منطقة تقدر مساحتها بحوالي **٢٥**كم^{٢} وبلغ أقصى انخفاض في المنطقة حوالي متر واحد، ومن الدراسة اتضح أن هناك علاقة بين انخفاض الأرض واستخراج الزيت

في المنطقة. وقد حدث انخفاض أرضي نتيجة لاستخراج الزيت في منطقة ساحل لوس أنجلس بولاية كاليفورنيا. فقد هبطت الأرض في حقل ويلمنجتون للزيت في منطقة هاربر ـ لونج بيتش بولاية كاليفورنيا (Wilmington oil field in the harbor area, California) بالقرب من مدينة لوس أنجلس، وقد بدأ الانخفاض الأرضي في عام ١٩٤٠. وبلغ في عام ١٩٧٤م حوالي ٩ أمتار، وخاصة في وسط المنطقة[٢٠] (صورة ٩).

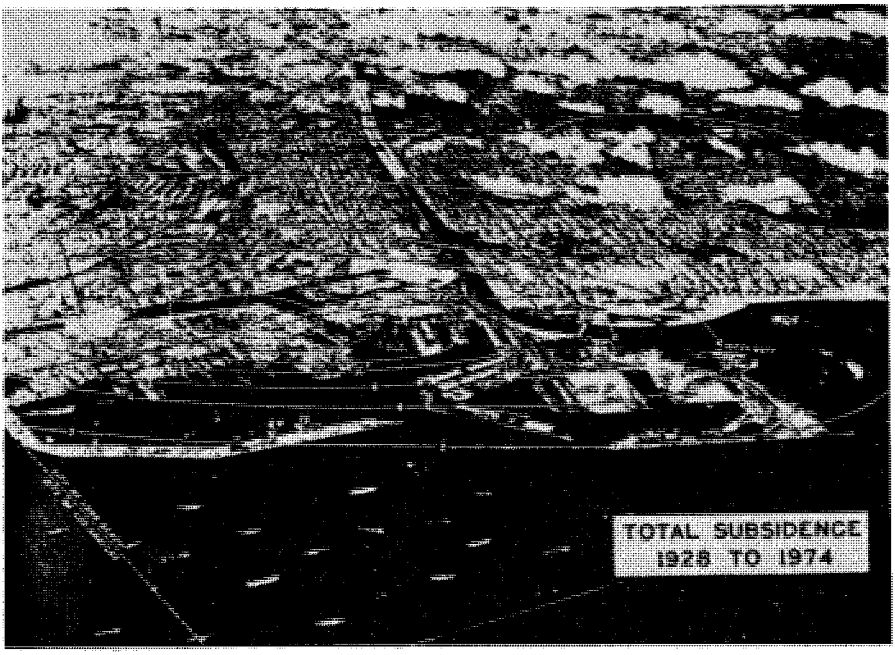

صورة (٩) صورة جوية توضح الإنخفاض الجوي في منطقة خليج لونج بيتش بولاية كاليفورنيا ما بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٧٤ ويقدر الإنخفاض بما بين ٩ أمتار في المركز، و ٦,. من المتر في المناطق البعيدة عن المركز (after, Keller, 1979. p. 147)

وهبطت الأرض في منطقة حقل إنجلوود للزيت (Engle wood oil field). ما بين عامي ١٩١٧ ـ ١٩٦٣ حوالي ٩,٧ أقدام نتيجة لضخ الزيت بكميات كبيرة. وقد كان لانخفاض الأرض في منطقة حقول الزيت أثر سيء على المباني والطرق

والمنشآت والآبار الموجودة في المنطقة، وتقدر الخسارة الناجمة عن انخفاض الأرض في هذه الحقول بمئات الملايين من الدولارات الأمريكية. وقد ذكر بولاند[٢١] نقلاً عن البحث الذي أعده ثلاثة من الخبراء هم: جنسن، وديكلاكث جوردن، وجيمس وشيلد في عام ١٩٦٧ (Janson, Duklcth, Gorden, James and shield, 1967) ذكر أن هناك علاقة كبيرة ما بين انهيار سد بالدوين هيل في ولاية كاليفورنيا (Baldwin Hill Dam, California) وانخفاض منطقة حقل إنجلوود للزيت والتي تبعد حوالي ٨٠٠ متر من السد، ويعتبر انخفاضها سبباً رئيساً في انهيار السد، وقد نجم عن انهيار سد بالدوين أضرار جسيمة في الأرواح والممتلكات فقد دمر السد أثناء انهياره كل ما في طريقه من مبانٍ ومنشآت وطرق.

وفي خارج نطاق الولايات المتحدة الأمريكية حصل انخفاض أرضي في مناطق إنتاج الزيت والغاز في كل من فنزويلا، وإيطاليا، واليابان. ففي فنزويلا هبطت الأرض في منطقة حقول الزيت بالقرب من بحيرة ماراكابيل (The oil field of lake marcaible, Venezuela) وقد بدأ هذا الانخفاض الأرضي في عام ١٩٢٣، وفي عام ١٩٥٤ بلغ هبوط الأرض في بعض المناطق حوالي ٣,٣ أمتار. كما هبطت الأرض في إيطاليا نتيجة لاستخراج الغاز في منطقة بو دلتا (Po Delta Italy) وقد بدأ إنتاج غاز الماثين (Mathene Gas) في عام ١٩٥١ وتقدر مساحة الأرض الهابطة بحوالي ٨٠٠كم٢، كذلك حدث هبوط أرضي نتيجة لاستخراج غاز الماثين (Mathene Gas) في نيجاتا باليابان (Nigata, Japan).

إن انخفاض كمية السوائل في باطن الأرض يؤدي إلى انخفاض ضغط السوائل في الباطن مما يؤدي إلى تقارب مكونات الطبقة وضغط بعضها على بعض، وزيادة ضغط السوائل يخفف من تقارب مكونات الطبقة وضغط بعضها على بعض ويخفف من هبوط الأرض أو يوقفه تماماً. وللتخفيف من هبوط الأرض نتيجة لاستخراج الزيت يمكن حقنها بالمياه، فعلى سبيل المثال تم في عام ١٩٥٨م حقن آبار إنتاج الزيت في منطقة ويلمنجتون بالمياه للتخفيف من هبوط الأرض. وقد اظهرت عملية حقن الآبار بالمياه نتائج طيبة كما هو واضح في الشكل ٣. وقد أوضحت مجموعة من

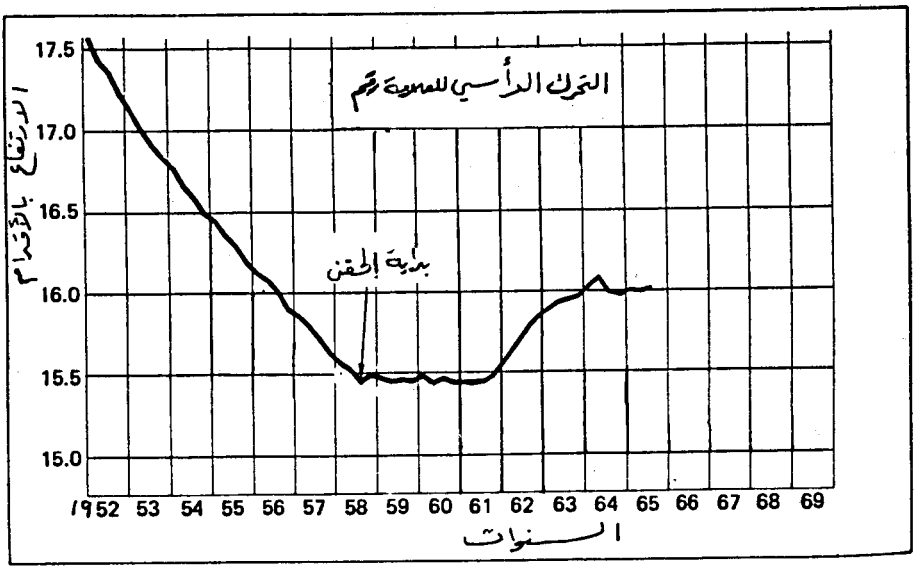

شكل (٣) توقف هبوط الأرض نتيجة لحقن السوائل في منطقة لونج بيتش بكالفورنيا (after, Po-land, 1976)

الخرائط لمنطقة ويلمنجتون أعدت من قبل قسم الزيت بمدينة لونج بيتش (City of Long Beach) أن أوضحت انخفاض الأرض قد توقف في معظم منطقة ويلمنجتون للزيت نتيجة لحقن الآبار بالمياه.

هبوط الأرض نتيجة لاستخراج الثروات الطبيعية الصلبة : Subsidence due to the Underground Extraction of Rocks and Minerals

إن استخراج المعادن المختلفة من باطن الأرض والتي تعتبر جزءاً من الحامل الطبيعي للطبقة السطحية، بغض النظر عن نوع المعدن، قد يؤدي إلى هبوط الأرض أو إلى حدوث انهيار في السطح وخاصة عندما يكون المعدن المستخرج قريباً من سطح الأرض. وينتج عن الانهيارات الأرضية في مناطق التعدين وفاة عدد كبير من البشر، أو حدوث الخراب والدمار للمباني والشوارع ومصادر المياه، وأنابيب المجاري في المناطق المأهولة بالسكان. والانهيارات الأرضية التي تقع في مناطق التعدين قد تؤثر

على مجاري المياه الطبيعية، لأنها تسمح بتسرب المياه السطحية الملوثة نحو الباطن وخاصة في مناطق التعدين مما يؤدي إلى تلوث المياه الباطنية. وهذه المياه الملوثة ترجع إلى السطح مرة ثانية إما عن طريق الضخ، أو عن طريق الجاذبية[٢٤]، وفيما يلي استعراض لبعض الانخفاضات الأرضية في بعض مناطق التعدين وخاصة في مناطق الفحم والملح، وأثر هذه الانخفاضات الأرضية على المنشآت والمباني الموجودة في مناطق التعدين.

هبوط الأرض في مناطق مناجم الفحم : Subsidence in the Coal Mines

تحدث الخسوفات والانهيارات الأرضية في مناطق مناجم الفحم، وفي الولايات المتحدة وحدها تبلغ مساحة مناطق التعدين حوالي ٢٨٠٠٠ كم٢، منها ٣٠٠٠ كم٢ مناطق هبوط، وكان الأمر أعظم خطراً في مناطق العمران حيث وقع فيها حوالي ٧٪ من مجموع الهبوط الأرضي في أمريكا (صورة ١٠).

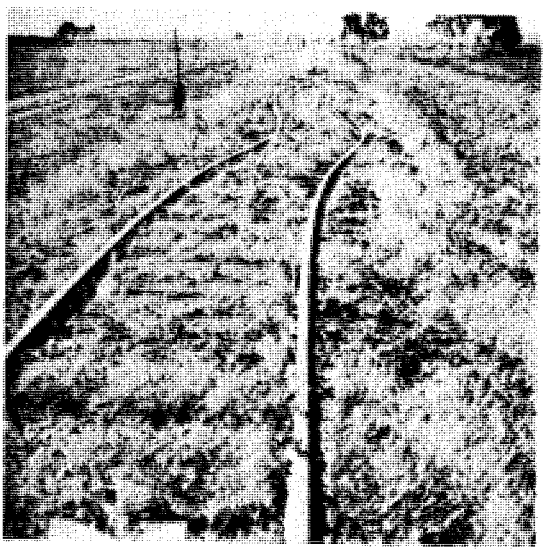

صورة ١٠ سكة الحديد في منطقة مناجم للفحم في كلورادو ويلاحظ تأثر سكة الحديد بالانخفاض الأرضي في المنطقة (after, Coates, 1979)

وتعتبر مناطق مناجم الفحم مناطق خطر على الأرواح والممتلكات، ففي عام ١٩٦٨ حصل خراب ودمار للشوارع والجسور والمياه وأنابيب الغاز والمساكن والكنائس نتيجة لهبوط الأرض في منطقة وايكز - بري في ولاية بنسلفانيا (Wilkes - Barre, Pennsylvania). وفي عام ١٩٦٠ حدث تصدع وانكسار في كولديل في ولاية بنسلفانيا (Coa dale Pennsylvania) مما أدى إلى دمار

حوالي ٢٣ مسكناً. وفي يناير من عام ١٩٧٣ وفيما كان بعض سكان ويلز يقودون سياراتهم في أحد الطرق، هبط الطريق محدثاً فتحة على الأرض عمقها ١٠ أمتار[٢٥].

وتعتبر مناطق مناجم الفحم مناطق خطر على الأرواح والممتلكات، ففي عام ١٩٦٨ حصل خراب ودمار للشوارع والجسور والمياه وأنابيب الغاز والمساكن والكنائس نتيجة لهبوط الأرض في منطقة وايكز - بري في ولاية بنسلفانيا (Wilkes - Barre, Pennsylvania). وفي عام ١٩٦٠ حدث تصدع وانكسار في كولديل في ولاية بنسلفانيا (Coa dale Pennsylvania) مما أدى إلى دمار حوالي ٢٣ مسكناً. وفي يناير من عام ١٩٧٣ وفيما كان بعض سكان ويلز يقودون سياراتهم في أحد الطرق، هبط الطريق محدثاً فتحة على الأرض عمقها ١٠ أمتار[٢٥].

وتعتبر مناطق تعدين الفحم في الولايات المتحدة مناطق خطر وذلك لتعرضها للهبوط والتصدع الأرضي. ففي غرب الولايات المتحدة حدث هبوط في منجم روكي سبرينج في ولاية وايمنج (Rock Springs, Wyoming) ويقع هذا المنجم ما بين ٣ - ٩٠ متراً تحت سطح الأرض، وقد بدأ هبوط سطح المنجم في يناير ١٩٦٨م، ونجم عن هبوط الأرض أضرار جسيمة للمساكن والطرق والخدمات العامة بالمدينة (صورة ١١)[٢٦].

هبوط الأرض في مناطق إنتاج الملح : Subsidence in the Salt Mines

إن استخراج الأملاح من الأرض يؤدي إلى حدوث أضرار جسيمة نتيجة للطريقة غير العلمية المستخدمة في إخراجه وكذلك لاستخراجه بكميات كبيرة، ويترك استخراج الملح خلفه فجوات باطنية تحت السطح. ونتيجة لوجود الفجوات في الأرض تصبح الطبقة السطحية ضعيفة ومهددة بالانكسار والهبوط لفقدان الحامل لها. وعلى سبيل المثال أدى استخراج الأملاح إلى هبوط أرضي وحدوث فتحات في سطح الأرض بالقرب من ديترويت بولاية ميتشجن بالولايات المتحدة (Detroit, Michgan, U. S. A.) وبلغ عرض الفتحة الهابطة حوالي ١٢٠ متراً وعمقها ٩٠

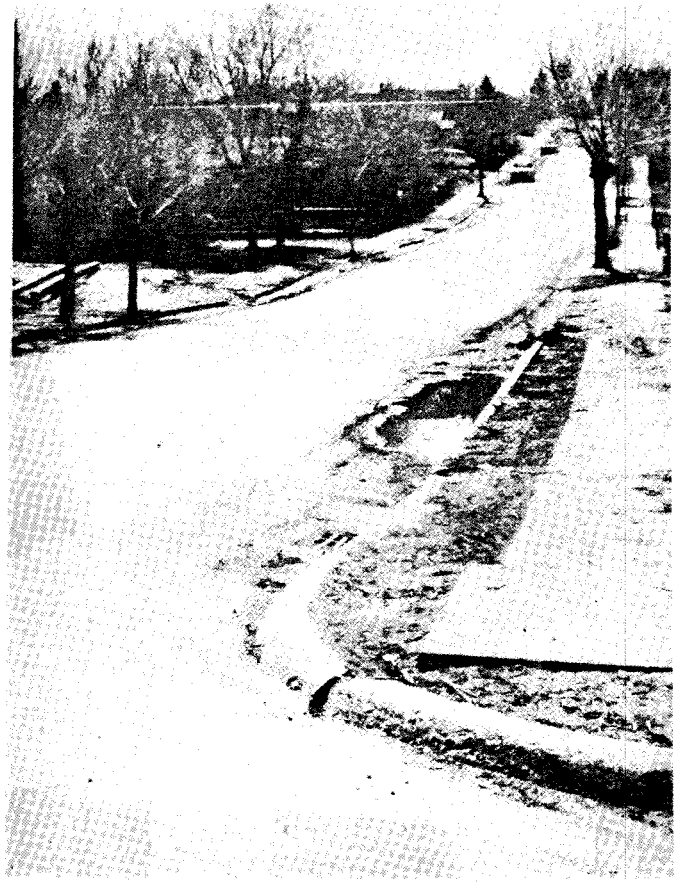

صورة (١١) انخفاض الشارع وتهدم الرصيف وتغير مجاري تصريف المياه نتيجة لانخفاض الأرض في منطقة منجم الفحم في روك سيرينج في وايمغن بسبب استخراج ا لفحم بكميات كبيرة (after, Coates, 1979)

متراً، كما أدى استغلال الأملاح بالقرب من سلتفيال في ولاية فرجينيا (Saltivell, Verginia) إلى هبوط حوالي ٧٥ متراً من سطح الأرض (صورة ١٢). ونتج عن هذا الهبوط سقوط منزلين وخرابهما[٢٧]. كما حصلت انهيارات أرضية في مناطق تعدين الأملاح بالقرب من كاشير في انجلترا (Chashire, England)، ولقد بدأ استغلال الأملاح في القرن الثامن عشر واستمرت بعض المناجم الملحية أكثر من ٤٠ سنة قبل أن تبدأ الفتحات الصخرية في الحدوث (Rockt Pit Hole). وقد حدث انهيار

سطحي في منجم أدليدا (Adelaide Mine) في عام ١٩٢٨. وتعتبر الانهيارات السطحية في مناطق تعدين الأملاح خطراً على المباني، والمزارع، والأنابيب ووسائل المواصلات والمنشآت الموجودة في المنطقة[٢٨].

صورة (١٢) حفرة كبيرة هابطة نتيجة لاستخراج الملح من منجم الملح بالقرب من سلتينال بولاية فرجينيا (after, Keller, 1979)

حدوث الزلازل والبراكين نتيجة لحقن المياه الموثة في باطن الأرض : Ear-thquakes due to Waste fluid injection in the Earth

يؤدي حقن الابـار العميقة بالسوائل الملوثة (كالمخلفات الكيميائية) إلى تصدع المنطقة المحقونة أو إحداث الزلازل، والهزات الأرضية الخفيفة فيها[٢٩]. وقد حدثت هزات ورعشات وتصدعات أرضية في مناطق مختلفة من العالم نتيجة لحقن السوائل الملوثة في باطن الأرض، فعلى سبيل المثال وقعت هزات أرضية بالقرب من مدينة دنفر في ولاية كلورادو (Denver Clorado) ويقدر عددها بأكثر من ٦٠٠ زلزال وهزة أرضية ما بين عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٥ كما هو موضح في الشكل ٤. وبلغ أقوى زلزال

شكل (٤) : (أ) يوضح عدد الهزات الأرضية التي سجلت في الشهر في منطقة دنفر.

(ب) مقدار الماء الملوث المحقون في البئر (after, Evans, 1979)

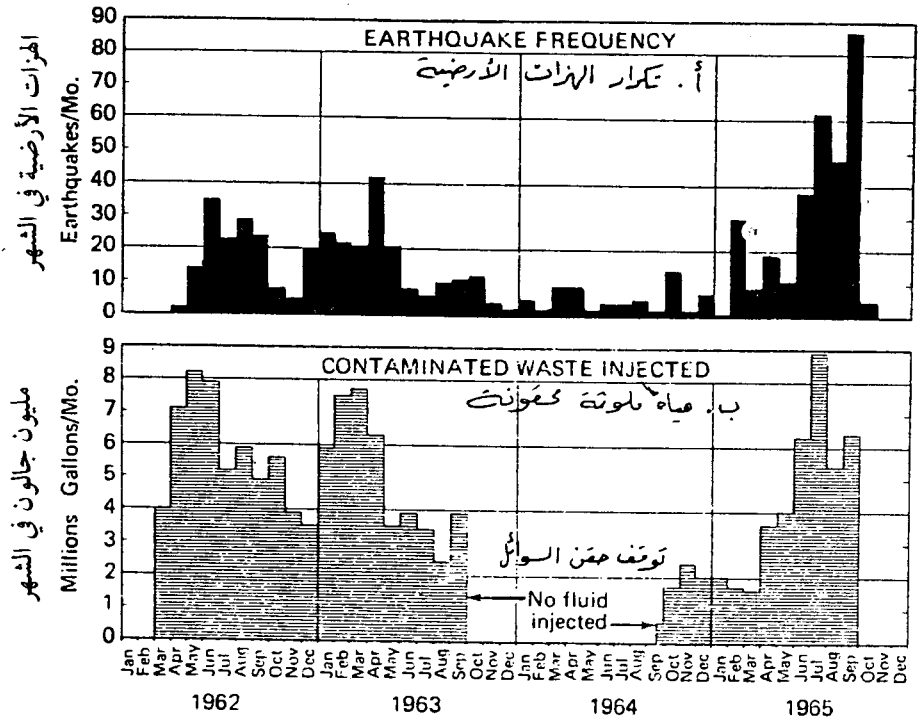

٤,٣ درجات بمقياس ريختر (Richter). وقد أقلقت هذه الهزات والرعشات الأرضية حكومة وسكان مدينة دنفر فاجتمع ممثلون من روى مكفيكر في كلورادو (Roy MC Vicker of Clorado) ودعوا إلى دراسة أسباب حدوث الهزات الأرضية في المنطقة. وفي مارس من عام ١٩٦١ أعلنت مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية (U. S. Geological) نتائج الدراسات التي قامت بها بالتعاون مع مدرسة كلورادو للتعدين في دنفر (Clorado school of Mines, Denver survey)، ولقد أوضحت الدراسات أن المياه الملوثة التي تم حقنها في البئر العميقة في منطقة جبال روكي الصناعية (The Rocky Mountain Arsenal) كانت السبب في حدوث الزلازل والهزات الأرضية الخفيفة التي تقع في الشمال من مدينة دنفر منذ

عام ١٩٦٢ .[٣٠] وقد سجلت عدة هزات أرضية ضعيفة بالقرب من حقل رانجلي للزيت (Rangly Oil field Colorado) في الشمال الغربي من كلورادوا .

ولمعرفة مدى تأثير السوائل الملوثة المحقونة على حدوث الهزات الأرضية تم حقن حقل الزيت رانجلي بالسوائل الملوثة وأقامت مصلحة المساحة الأمريكية (Rangly Oil field Colorado) في عام ١٩٦٧ أربعة مراصد (سيسموجراف) متنقلة في المنطقة وحول حقل الزيت المحقون لتسجيل الهزات الأرضية لمدة عشرة أيام تلك الهزات التي قد تنتج عن حقن البئر بالسوائل الملوثة . وقد سجلت المراصد الأربعة خلال فترة التسجيل أكثر من ٢٠ هزة أرضية ضعيفة ومحلية[٣١] .

الهزات الأرضية نتيجة لوجود كميات كبيرة من المياه خلف السدود :

Earthquakes due Reservoirs Fillings

تتجمع مياه الأمطار بكميات كبيرة خلف السدود وتكوّن ضغطاً على الطبقة الحاملة لها نتيجة لثقلها فيؤدي زيادة الضغط الناشيء عن وزن المياه في الخزان خلف السد إلى تهشم الصخور الحاملة للخزان مما يؤدي إلى حدوث حركات أو هزات أرضية، وتختلف قوة هذه الحركات أو الهزات الأرضية حسب كمية المياه المخزونة. وقد حدثت عدة هزات ورعشات أرضية في مناطق مختلفة من العالم نتيجة لوجود المياه بكميات كبيرة خلف السدود. فعلى سبيل المثال، سجل أكثر من ٦٠٠ هزة أرضية في منطقة الحدود ما بين أريزونا ونيفادا خلال عشر سنوات منذ تأسيس سد هوفر (Hover Dam) في عام ١٩٣٥ والذي يزود بحيرة ميد (Mead Lake) بالمياه (صورة ١٣). ومعظم هذه الهزات كانت محلية وخفيفة ولكن واحدة منها بلغت قوتها ٥ درجات واثنتان بلغت كل منهما ٤ درجات[٣٢]. وفي اليونان سجلت عدة هزات أرضية في منطقة سد مارثون (Marathon Dam) الذي ملىء بالماء في عام ١٩٢٩ . وقد سجلت أول هزة أرضية في عام ١٩٣١ ووقعت حركتان في عام ١٩٣٨، وبلغت قوتهما ٥ درجات[٣٣]. وفي الهند وقعت حركتان في منطقة كونا بالهند (Koyna, India) ، في عام ١٩٦٧ . وبلغت قوة إحداهما ٥,٦ درجة، وقد تسببت الهزة في وفاة حوالي

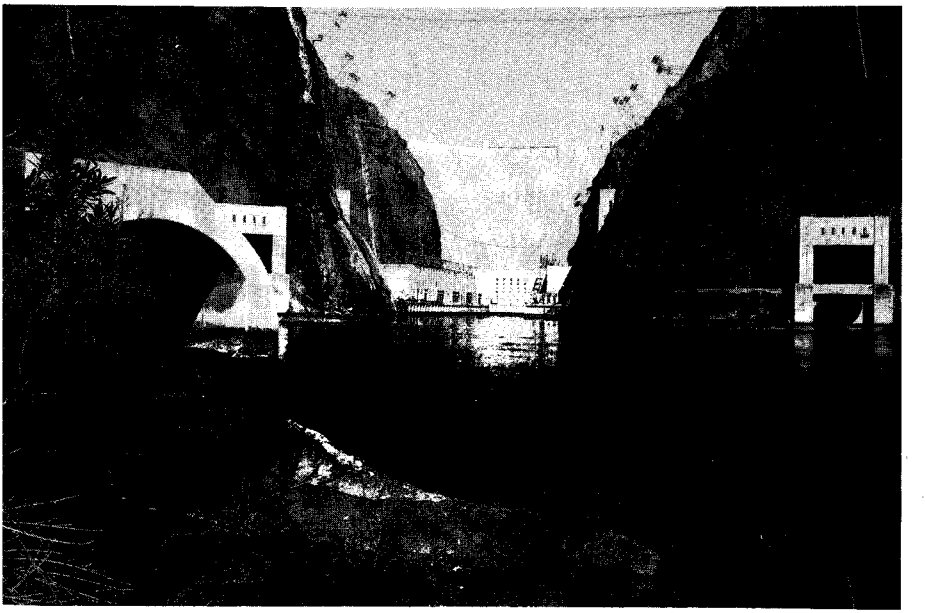

صورة (١٣) لخزان وسد هوفر في منطقة الحدود بين ولاية أيرزونا ونيفادا في الولايات المتحدة الأمريكية.

٢٠٠ شخص وأحدثت الدمار والخراب للممتلكات الموجودة في المنطقة، وقد بلغت كمية المياه المخزونة خلف السد حوالي مليوني متر مكعب في عام ١٩٦٢ و ١٩٦٣، وقد بدأت الهزات الأرضية في المنطقة في عام ١٩٦٣. وفي زامبيا أيضاً حصلت عدة هزات أرضية في منطقة بحيرة كاريبا جورج في نهر زامبازي (Lake Kariba in the Kariba George of the Zambezi Rivers). وفي ٩ أكتوبر من عام ١٩٦٣م وقعت كارثة في منطقة سد فايونت في إيطاليا (Vaiont Dam, Italy) تسببت في فقدان أكثر من ٢٦٠٠ شخص، وقد وقعت هذه الكارثة نتيجة لوجود كميات هائلة من المياه خلف السد أدت إلى تشبع الصخور الباطنية بالمياه والضغط على الصخور الباطنية الحاملة للخزان، وارتفاع منسوب المياه الباطنية في المنطقة. هذه العوامل أدت إلى ضعف الصخور الحاملة للخزان والمحيطة به مما نتج عنه انحدار الصخور العظيمة على جانبي السد نحو خزان المياه خلف السد بسرعة تقدر بحوالي ٢٥ ـ ٣٠ متراً في

الثانية. هذا الانحدار السريع للصخور التي بلغ حجمها أكثر من ٢٤٠ مليون متر مكعب نحو الخزان أحدث كتلة هوائية وصل ارتفاعها حوالي ٢٤٠م وموجة مائية بلغ ارتفاعها حوالي ١٠٠ متر فوق مستوى السد[٣٤].

وكذلك وقعت هزات أرضية نتيجة لتجمع المياه بكميات كبيرة خلف السدود في كل من مونينارد وجراندفل في فرنسا (Monteynard and Grandvale , France) ومنجلا في باكستان (Mangla, Pakistan)، وفي هندريك فرود بجنوب أفريقيا (Handrick verwoerd in South Africa) وفي كوراب وكمافوزيان في اليابان (Kurabe and Kamafusain, Japan)، وفي هينفجكينج في الصين (Hsin-fengkian, China) إن الأمثلة السابقة للهزات الأرضية في مناطق السدود توضح مدى العلاقة بين حدوث الهزات الأرضية المحلية وكمية المياه الموجودة خلف السدود، فهذه الهزات والحركات الأرضية المحلية تحدث نتيجة لتكسر أو تهشم الطبقة الصخرية الحاملة للخزان نتيجة للضغط العظيم الذي ينجم عن ثقل المياه المخزونة خلف السدود أو نتيجة لتشبع الطبقات الحاملة للسد بالمياه مما يضعفها ويجعلها غير قادرة على مقاومة الضغط الناشيء عن زيادة حجم المياه مما يؤدي إلى انهيارها.

الهزات الأرضية نتيجة للتفجيرات النووية :

Earthquakes due to Nuclear Explosions

إن التفجيرات النووية على اختلاف قوتها تؤدي إلى حدوث هزات أرضية مختلفة القوة في مناطق التجارب النووية، وذكر باكيسر وزملاؤه[٣٦] أن رويال والمتعاونون معه (Royall and his co-workers) قد سجلوا عدة هزات أرضية نتيجة للتفجيرات النووية في باطن الأرض في منطقة وكالة الطاقة النووية في ولاية نيفادا (Atomic Energy Commissions Nevada Testsite) وقد قام رويال والمتعاونون معه بدراسة انفجار الشاحنة الصندوقية في عام ١٩٦٨ (The Box car explosion)، وأشاروا إلى أن الانفجار أحدث آلاف الهزات في الشمال الشرقي من المنطقة بطول

١٢ كم وعرض ٤ كم. وقبل التفجير النووي الباطني في بنهام (Benham) عام ١٩٦٨، قامت مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية بوضع محطة تسجيل للزلازل تتكون من ٢٧ مرصداً للزلازل سيسمرجراف (Seismorgrahp) في منطقة نيفادا للتجارب النووية، وقد سجلت آلاف الهزات بعد حدوث الانفجار النووي ولكنها ليست قوية ولا تتجاوز قوتها ٥ درجات على مقياس ريختر.

خاتمة

يقوم الإنسان بنشاطات مختلفة بهدف إعمار الأرض والتمتع بالخيرات التي خلقها الله ووضعها في باطن الأرض وأمره باستقلالها. وقد قام الإنسان بتشجير الأراضي الصحراوية وشق الطرق وحفر القنوات المائية، وأقام المباني والمنشآت، واستخرج الثروات الطبيعية السائلة والصلبة الموجودة في باطن الأرض ولا شك أن لنشاط الإنسان المختلف آثاراً سلبية تهدده وممتلكاته والكائنات الحية الأخرى بالخطر. ومن الآثار التي تحدث نتيجة لنشاط الإنسان حدوث انهيارات وتشققات وانخفاضات أرضية وكذلك انهيار السدود وحدوث هزات ورعشات أرضية تهدد المناطق التي حولها وما عليها من سكان ومبان وطرق وسدود. وقد حدث العديد من الانهيارات والتشققات والتصدعات الأرضية، وانهار عدد من السدود وحدثت هزات أرضية في مناطق مختلفة من العالم كان لها آثار سيئة على ما حولها. وللحد من الانهيارات والانخفاضات الأرضية وانهيار السدود والهزات الأرضية والتقليل من خطرها على الأرواح والممتلكات يمكن اتخاذ ما يلي :

- الحد من التوسع الزراعي في المناطق شحيحة المياه التي يلاحظ فيها انخفاض منسوب المياه.
- ترشيد استخدام المياه في جميع الأغراض الزراعية والصناعية والعمرانية وغيرها من الأغراض.
- عدم إقامة مبانٍ ومنشآت بالقرب من المناطق التي ينخفض فيها منسوب المياه الجوفية.
- عدم إقامة مبانٍ ومنشآت بالقرب من مناطق استخراج البترول والغاز.
- عدم إقامة مبانٍ ومنشآت وطرق بالقرب من مناطق التعدين.
- عدم حقن مخلفات المصانع الكيميائية والمياه الملوثة في باطن الأرض حتى لا يحدث

تفـاعـلات كيميائية وبالتالي تحدث هزّات أرضية قد تشكل خطراً على السكان والمنشآت والمباني في المنطقة.

- عند إقامة منشآت كالسدود يجب دراسة طبيعة المنطقة الجيولوجية والجغرافية المقام بها السد ومعرفة قدرة طبقات الأرض على تحمل ثقل السد والمياه التي سوف تتجمع في خزانة بعد سقوط الأمطار. ودراسة مسامية التربة وخصائصها دراسة جيدة.
- عدم إقامة سدود بالقرب من مناطق التفجير.
- في حالـة ظهـور بوادر لانهيار أرضي أو انهيار سد يجب معرفة السبب. فإن كان ـ مثلاً ـ انخفاض منسوب المياه الجوفية فيجب منع ضخ المياه من البئر والبحث عن مصدر آخر وذلك لاعطاء الخزان الجوفي فرصة للاستعاضة وعودة مياهه إلى منسوبها السابق. وفي حالة ظهور بوادر لانهيار سد يجب اخلاء منطقة السد والمناطق التي تقع في طريقه من السكان حتى لا تداهمهم مياه السد الغزيرة في حالة انهياره. ويجب إصلاحه وتدعيمه ودراسة سبب تخلخله وإزالة هذا السبب.

وختاماً، أرجو أن نستفيد من الأحداث السابقة ونتجنب الأسباب التي أدت إلى حدوثها.

الهوامش

1 . Lamoreaux and Warren, 1976.
2 . Poland, 1976.
3 . Beck, 1986.
4 . Keller, 1979; white et al , 1986; Lamoreaux and Newton, 1986; and Coates 1979.
5 . Keller, 1979 and Coates 1979.
6 . Poland, 1976.
7 . White et al, 1986; and Lamoreaux and Newton, 1986.
8 . Lamoreaux and Warren, 1976.
9 . Coates, 1979.
10. Poland, 1976; Keller, 1979; and Coates, 1979.
11. Poland, 1976.
12. Coates, 1979.
13. Polar, 1976 and Oliver, 1979.
14. Coates, 1979.
15. Coates, 1979.
16. Oliver, 1979.
17. Dunne and Leopold, 1978.
18. Coates, 1979.
19. Coates, 1979.
20. Keller, 1979.
21. Poland, 1976.
22. Poland and Davids, 1969.
23. Poland, 1976.
24. U. S. Department of the Interior, 1976.
25. Keller, 1979.
26. Coates, 1979.
27. Keller, 1979.
28. Coates, 1979.
29. Keller, 1979.
30. Evans, 1976.
31. Pakieser et al, 1976.
32. Killer, 1979.
33. Coates, 1979.
34. Kierch, 1976.
35. Coates, 1976.
36. Pakiser et al, 1976.

المراجع

Beck, Barry F., G 1986, A Generalized Genetic Framework for the Development of Sinkholes and Karst in Florida, U. S. A. Environ. Geol. Water. Sci Vol. 8, No. 1/2, 5-18. Environmental Geology and Sciences Water Volume 8, Number 1/2, 1986.

Berghinz Carlo, 1976, Venice is Sinking into the Sea in Focus on Environmental Geology, ed, by Ronald W. Tank, 2nd edition, New York, Oxford University Press. 512 - 518.

Coates, Donald R. 1979, Subsurface Influences in Man and Environmental Processes, ed. by K. J. Gregory and D.E. Walling. W. M. Dawson Folkestone, Kent, England. PP. 163-188.

Dreyer, Boyd V. and Clyde E. Schulz, 1986 Evaluation, Repair and Stabilization of the Boling sinkhole. Environ. Geol. Water Sci Vol. 8, No. 1/2 pp. 19 - 23.

Dunne, Thomas and Luna B. Leopold, 1978, Water in Environmental Planning. San Francisco, W. H. Freeman and Company.

Evans, David M. 1976, Man-Made Earthquakes in Denver, Edited by Ronald Tank. 2nd Edition New York Oxford University Press, Inc. pp. 89-100.

Ghetti, Augusto and Michel Batisse, The Overall Protection of Venice and its Lagoon, Natur and Resources, Vol. XIX, No. 4, October-December, 1983. pp.7-19.

Keller, Edward, A. 1979. Environmental Geology. 2nd Edition. Bell & Howell Company. Columbus.

Kiersch, George A. 1976, The Valiont Reservoir Disaster, Ed. by Ronald Tank. 2nd Edition. New York. Oxford University Press, Inc. pp. 132-143.

Lamoreaux, Philip E. and William M. Warren, 1976, Sinkhole, ed. by Ronald Tank. 2nd Edition New York, Oxford University, Press Inc. pp. 179-180.

Lamoreaxux, Philip E. and J. G. Newton, 1986. Catastrophic Subsidence: An

Environmental Hazard, Shelby Country, Alaboma. Environ. Geol. Water. Sci. Vol. 8. No. 1/2 p. 25-40.

Oliver, E. John, 1979, Physical Geography, Principles and Applications. Duxbury Press North Scituate, Massachusetts.

Pakiser, L.C., J.P. Eaton, J.H. Healy, and, C.B. Raleigh, 1976, Earthquake Prediction and Control, ed. by Ronald Tank. 2nd Ed. New York, Oxford University Press, Inc. pp. 100-110.

Poland, Joseph F. 1976, Land Subsidence in Western United States, in Focus Environmental Geology, Ed. by Ronald W. Tank, 2nd Ed. New York, Oxford University Press in p. 351.

U. S. Department of the Interior, 1976, Surface Mining, Its Nature, Extent, and Significance, Ed. by Donald Tank, 2nd Edition, New York, Oxford University Press Inc. pp. 328-350.

White, Elizabeth. Gert Aron and William B. White, 1986, The Influence of Urbanization on Sinkhole Development in Central Pennsylvania. Environ. Geol. Water Sci. Vol. 8 1/2 pp. 91-97.

الحاجة إلى أعضاء هيئة تدريس مؤهلين في الجامعات العربية حتى عام ٢٠٠٠ م

للدكتور
محمد عبدالعليم مرسي
الأستاذ المشارك في قسم التربية
بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

لقد كثر الحديث في أدبياتنا عن عام (١٤٢١هـ) (٢٠٠٠) الميلادى ، وكأنه تاريخ ثابت لا يتحرك ولا يتغير ، بينما نحن نقترب منه بخطى متسارعة ، وسوف نتجاوزه في غضون سنوات قلائل من الآن .

ولقد سبقتنا مجتمعات أخرى ، فى الغرب خاصة ، وبالتحديد الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث مدت هذه المجتمعات أنظارها إلى ذلك العام منذ أكثر من عقدين من الزمان ، حيث شكلوا هناك لجانا علمية على أعلى مستوى ، اجتمع أفرادها . . وبحثوا . . وتصوروا . . . أو تخيلوا . . . ورسموا صورة مجتمعاتهم التى ستكون عليها ، كما رسموا صورا للعالم من حولهم ، معتمدين في دراساتهم على توقعات علمية محسوبة ، وعلى تنبؤات بحركة التغير أخذت في حسبانها معدلات التغير وسرعته ثم خرجوا علينا وعلى الجميع بصور قد لايصدقها بعضنا عن وضع العالم سنة (١٤٢١هـ) ٢٠٠٠م وعن التغير الهائل الذى سيمس الحياة البشرية على كوكب الأرض آنذاك الحياة البشرية في تعاملها مع الطبيعة المحيطة بها . . على الأرض وفي الغلاف الجوى ، بل وفي الفضاء ، حيث تحدثوا عن أشعة الليزر . . يركبونها لتتخطى بهم ملايين الأميال التى تفصل بين الكواكب ، بل إنهم تعاملوا في خيالاتهم مع حياة الإنسان في نومه . . حيث قالوا بإمكانية التحكم في الأحلام بحيث يمكن للإنسان أن يستدعى منها ما يشاء ليحلم به وكأنه يمتلك مكتبة من الأحلام . . مقارنة بمكتبة الأفلام . . !!

ثم إنهم درسوا إمكانات وتقنيات تخزين المعلومات بأكثر بكثير مما هو معروف حاليا بطبيعة الحال ، كما توقعوا أن يتمكن العلماء من تحسين ذاكرة البشر ، وتحدثوا أيضا عن تحسين (الجينات) البشرية ، بل هناك الآن ما يعرف باسم هندسة (الجينات) وقد عرجوا على النباتات فى تربتها وفكروا فيما يمكن أن يحدثه العلم فيها من تحسينات

وتـطورات ، ولم ينسوا البحار بما فيها من ثروات أودعها الله سبحانه وتعالى فيها ، ففكروا في مضاعفة استثمارها والاستفادة منها .

ومن هذه الدراسات يتضح أن هناك من المجالات ما سوف يحدث فيه تطور خطير يصـل إلى حد الثـورة العلمية ، خاصة في مجال الإليكترونيات وحساباتها ، والتى يمكن أن تسمى بها الحقبة الحالية التى نعيشها ، تمييزا لها عن عصر الذرة . . . الذى أصبح الآن في عداد الماضى(*) .

كذلـك ستشمـل هذه المتغيرات الكبيرة . . والغريبة . . مجال الإعلام والمعرفة وما يمكن أن يستفاد فيه من إمكانات الحاسبات الآلية في توصيل المعلومات إلى كل أنحاء العالم للإنسان العادى . . فى منزله . . بل إن الباحثين في هذا الميدان يرجون أن يؤدى استخـدام أشعـة الليزر في الحـاسبات الآلية إلى تسجيل ما تحتويه مكتبة بكاملها تضم عشرين ألف مجلد على ورقة صغيرة من النيكل طولها ٢٥ سم وعرضها ٢٠ سم(١) .

ويحدثنا أحد مفكرى الخليج العربي عن أننا نقف على مشارف عصر وثبة كبيرة واعـدة بتقـدم جديد مذهـل في مجال بحـوث جيدة فى الـطاقـة والذكاء الصناعي والاتصالات وأشعة الليزر وعلوم المواد وعلوم الحياة وغيرها(٢) .

ومجرد الحديث عن عام ٢٠٠٠ الميلادى ، في منطقتنا العربية ، يسوقنا إلى الحديث عن التغـير ، وذلـك لأن المجتمعات لا تنتقل هكذا من عقد إلى عقد دون أن تمر بمراحل التغير المختلفة ، ولعل هذا يكون مدخلا مناسبا للحديث عن عالمنا العربى وعن التغـيرات التى يتنتـظر أن تمر به من الآن حتى عام ٢٠٠٠م فكيف ستكون الصورة آنذاك ياترى . . ؟؟

(*) محمد عبد العليم مرسى : التعليم العالى ومسئولياته في تنمية دول الخليج العربى ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ، ص٢٦ .

(١) عبد الله عبد الدايم ، الثورة التكنولوجية في التربية ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢ .

(٢) بكر عبد الله بن بكر : نموذج جديد مقترح ودراسة لتطبيقه فى جامعة الملك فهد للبترول والمعادن ، بحوث الندوة الفكرية الثالثة لرؤساء ومديرى الجامعات فى الدول الأعضاء بمكتب التربية العربى لدول الخليج . بغداد الجمهورية العراقية ٢٠-٢٢ شعبان ١٤٠٧هـ/ ١٨/ ٢٠ أبريل ١٩٨٧م ، ص٢ .

العالم العربي . . . والتغير . . وعام (١٤٢١هـ) (٢٠٠٠م)

إن العالم العربي يقع في منطقة متوسطة ، وحاكمة بالنسبة للعالم ، كما أنه كان من الأقاليم المؤثرة في غيرها . . . عبر التاريخ . . والمتأثرة كذلك ، وإذا كان العالم العربى قد مثّل في فترات الإسلام الأولى قوة حضارية استطاعت أن تفرض نفسها على العالم المعروف آنذاك ، إلا أن المنطقة العربية قد دفعت ثمنا غاليا بعد ذلك نتيجة لابتعادها عن الدين الإسلامى . . تطبيقا وممارسة ، والذى كان هو المصدر الأساس لقوتها وعزتها وتقدمها .

ولقد كان ابتعادها هذا في فترة حرجة من حياتها ، حيث كانت أوروبا قد أخذت الخيط في يديها ، وبدأت تغزل خيوط حضارتها الجديدة ، تلك التى سخرت لها علوم المسلمين بعد ترجمتها ، ثم عملت بهمة ونشاط ، فى المجالات التطبيقية لهذه العلوم وفاجأت العالم العربي بذلك لأول مرة بعد الحروب الصليبية ، عام (١٢١٣هـ) ١٧٩٨م حين جاءت الحملة الفرنسية لتحتل مصر التى كان مماليكها مازالوا يركبون الخيول المطهمة ويتمنطقون بالسيوف المرصعة ، والتى لم نستطيع الوقوف فى المعركة أمام مدافع نابليون بونابرت ، الذى حمل معه أيضا المطبعة . . . مؤذنا بدخول المنطقة عصرا جديدا .

وإذا كانت أكثر بلدان العالم العربي قد سقطت تحت نفوذ الدول الاستعمارية واحدة وراء الأخرى ، إلا أنها عادت وحصلت على استقلالها على فترات متقاربة وكان عليها أن تنفض الغبار عن نفسها ، وأن تحاول تعويض ما فاتها في كل مجال من مجالات الحياة الحديثة العصرية ، وخاصة مجالات العلم والتعليم ومن هنا بدأت تقوم مؤسساتها من مدارس ومعاهد وجامعات ، كى تخرج لها الكفاءات البشرية المطلوبة للسير فى طريق التنمية والتقدم .

ومما لاشك فيه أن هذه المؤسسات قد أسهمت بدرجات متفاوته في البلدان العربية

في إعداد قطاعات العمل المختلفة ـ حكومية وغير حكومية ـ بأعداد كبرى من ذوى الكفاءات الذين حملوا عبء العلم ، ومضوا ساعين محاولين انتشال أمتهم من وهدة التخلف الذى فرض عليها ، بفعل القوى الخارجية وبعض القوى الداخلية ، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ، إذ أن المسيرة تحيط بها مجموعة من التحديات الخطيرة التى تعرقل الخطى وتتطلب الحذر في السير ، خاصة فيما يستقبلنا من أيام وسوف نتعرض ـ إن شاء الله ـ لهذه التحديات بشكل مجمل ، بعد أن نستعرض معا صورة العالم العربي في العام ٢٠٠٠ الميلادى .

العالم العربي في عام (١٤٢١هـ) ٢٠٠٠ الميلادى :

سوف تكون أهم المتغيرات في عالمنا العربي ، فى عام ١٤٢١هـ ٢٠٠٠ الميلادى ، متمثلة في التغير في أعداد سكانه ، وفى نوعية هؤلاء السكان ، فإذا كان سكان وطننا العربي اليوم يدورون حول رقم المائة وثمانين (١٨٠) مليونا ، فإنهم بحلول العام (١٤٢١هـ ٢٠٠٠) الميلادى سوف يصلون إلى نحو ٢٣٤ مليونا ، يقدر أن يكون ٥٠٪ منهم تحت سن الثامنة عشرة ، وهذا كلام مهم ويعنينا جدا لأننا سوف نتحدث عن دور الجامعة فى مواجهة تعليم وتثقيف هذه الملايين .

هذا بينما يقدر لنا الغنام ـ عليه رحمة الله ـ سكان العالم العربي عام (١٤٢١هـ ٢٠٠٠م) بحوالى ٢٨٦ مليون نسمة، ويعلق على ذلك قائلا بأن العالم العربي ـ حينئذ ـ سوف يتفوق فى حجم سكانه على الولايات المتحدة الأمريكية (التى ينتظر أن يصل سكانها في نفس التاريخ الى ٢٦٤ مليون نسمة ، وعلى دول المجموعة الأوربية كلها . . أما بالنسبة للاتحاد السوفييتى فسيكون في حجم سكان العالم العربى : ولكن بفارق بسيط بالقياس إلى ماهو عليه الآن[٥] .

(٤) راجع محمد عزت عبد الموجود : الدراسات العليا : طبيعتها وادارتها، مجلة اتحاد الجامعات العربية، العدد ١٩، ١٤٠٣/١٤٠٤-١٩٨٣/١٩٨٤ ص ٨٦، نقلا عن أنطوان زحلان : الوطن العربى عام ٢٠٠٠، بيروت مؤسسة المشاريع والانماء العربية ١٩٧٥م ص ٢٢ .

(٥) محمد احمد الغنام : مستقبل التعليم فى المنطقة العربية، تأملات في مستقبل التعليم في المنطقة العربية خلال عقدين ١٩٨١ ـ ٢٠٠٠، وثيقة العمل الرئيسية للندوة والإقليمية حول مستقبل التعليم في البلدان العربية، بيروت ٧-٩ اكتوبر ١٩٨٥، التربية الجديدة، العدد ٢١، السنة السابعة سبتمبر ـ ديسمبر ١٩٨٠، ص٨ .

وطالما أن بحثنا هذا متعلق بعضو هيئة التدريس في الجامعات العربية ، فهو لاشك سيهتم بحجم الشباب الذين سيكونون في سن التعليم الجامعى في عام ٢٠٠٠ ، ونسبة الذين يمكن لهذه الجامعات أن تستوعبهم وإمكانات الجامعات العربية في إعداد أعضاء هيئات التدريس الذين يمكنهم مواجهة الطلب الاجتماعي على التعليم العالي والجامعي في هذا التاريخ ، أى فى العام ٢٠٠٠ الميلادى .

فإذا أخذنا ما قال به زحلان ، ونقله عنه عبد الموجود ، من أن عدد سكان العالم العربي سيكون نصفهم أى ٥٠٪ شبابا تحت سن الثامنة عشرة ، فنحن إذن نتحدث عن مجتمع شاب ، يطلب شبابه التعليم ، وهم آنئذ سوف يكونون بعشرات الملايين .

وإذا أخذنا ما ذكره الغنام من أن سكان الوطن العربي سيكونون أكثر من سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، وأكثر أيضا ـ من سكان دول المجموعة الأوربية كلها ، وأنهم سوف يكونون أقل قليلا من سكان الاتحاد السوفيتى ، فإن ذلك يعطينا مؤشرات واضحة وخطيرة بدون الدخول في التفاصيل الدقيقة لأعداد السكان ونسب من هم في سن التعليم الجامعي على التحدى الكبير الذى ستجد جامعاتنا العربية نفسها فى مواجهته في عام (١٤٢١هـ ٢٠٠٠ الميلادى .

وهذا الحديث يمس فقط الناحية الكمية فى أعداد هيئة التدريس ، ولا يتعرض للناحية الكيفية في إعدادهم . إن واحدا من الخبراء فى مجال التعليم العالى ، في الوطن العربي يقول بأن هناك ـ حاليا ـ نقصا واضحا في أعداد أعضاء هيئة التدريس الجامعي على المستوى الوطني والقومي ، فهناك ارتفاع في نسبة (معلم/طالب) فى غالبية المؤسسات العربية ، ناتج بالأساس عن التزايد الكبير فى أعداد المسجلين من الطلاب .

ففى (١٣٩٨هـ ١٩٧٨) سجلت المنطقة العربية أكبر نسبة (معلم/طالب) في العالم ، إذ كانت ١٨ بينما كانت هذه النسبة في المناطق الأخرى أقل ، وعلى سبيل المثال فإنه في نفس السنة، كانت النسبة في الولايات المتحدة الامريكية ١٣ وفي ،

آسيا ١٦ ،فى أوربا ١١ ، فى أمريكا اللاتينية ١١ ،وفي مجموع دول إفريقية ـ بدون الدول العربية ١١ طالبا لكل عضو هيئة تدريس ، والكاتب نقل هذه الاحصاءات عن بحث عرض على المؤتمر الأول للوزراء المسؤولين عن التعليم العالى ، فى الوطن العربي[٦] .

ويحدثنا الباحث ذاته عن وجوب توفير زيادة قدرها ٤٧ ألف عضو هيئة تدريس فى الفترة الخماسية (١٤٠٦هـ) ، (١٤١١هـ) أى التى نعيشها حاليا ، وزيادة قدرها ١٩٥ ألف عضو هيئة تدريس فى الفترة العشرية (١٤١١هـ) ـ (١٤٢١هـ) ٢٠٠٠م ، وهذه التوقعات تكون صحيحة إذا ما توفر لقطاع التعليم العالي في العام ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م ما مجموعه ١٠٢ ألف عضو هيئة تدريس وإذا ما قل العدد المتوفر عن هذا ، فإن الزيادات التى يتوجب توفيرها ستكون أكبر من الأعداد المشار إليها في التوقعات .

وإذا ما انطلقنا من الافتراض القائل بأن هذه التوقعات قريبة من الصحة ، فإن العدد الكلى لأعضاء هيئة التدريس الذين يتوجب توفيرهم في الفترة (١٤٠٦هـ) ١٩٨٥ ـ (١٤١١هـ) ـ ٢٠٠٠م سيكون حوالى ٢٤٢ ألف عضو هيئة تدريس ، على اعتبار أن مجموع أعداد الطلاب في التعليم العالي في نهاية القرن سيكون حوالى ٦,٢ ملايين ، ونسبة الاستيعاب الإجمالية قدرها ١٩,١٪ فقط ، أى بنسبة (معلم/طالب) مقدرة بحوالى ١٨ ونظرا إلى التغيرات الكبيرة فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مجمل الأقطار العربية ، فإنه من المتوقع أن يزداد الطلب الاجتماعي على التعليم العالى ، وتتولد هناك ضغوط كبيرة على المؤسسات التعليمية تدفعها إلى زيادة قدراتها الاستيعابية ومن ثم فإن الطلب على أعضاء هيئة التدريس سيزداد[٨] .

(٦) عبد الله بوبطانة : إطار تصورى لإنشاء جامعة عربية للدراسات العليا والبحث العلمى ، (دار النشر غير موجودة ، وكذا التاريخ ، ص١٠٤ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٨) المرجع السابق، صص ١٠٥-١٠٦ وحل هذه التقديرات لاعداد الطلاب في التعليم العالى للعام ٢٠٠٠ انظر، عمرا . عشيان : آفاق تنمية التعليم العالى فى المنطقة العربية حتى عام ٢٠٠٠ ، دراسات عن التعليم العالى، اليونيسكو، باريس، ١٩٨٣، ص٣٩ .

وبدون أرقام ، وفي نهاية عام (١٤٠٦هـ) ١٩٨٥م ، يؤكد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، على وجود نقص في أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العربية ، وعلى أهمية الجامعة العربية للدراسات العليا في سد هذه الثغرة كما أنه نبه إلى الأعداد المتزايدة ممن يحصلون على الشهادة الثانوية ولا يجدون مكانا في الجامعات العربية[٩] .

ويزيد الأمر وضوحا ما جاء في كلمة الأمين العام لاتحاد الجامعات العربية ، حين يوضح بالأرقام خطورة النقص الذى تعاني منه الجامعات العربية في هيئة التدريس ، وأن بعض جامعاتنا العربية تبلغ نسبة عضو هيئة التدريس بها إلى الطالب ١ : ٣٠ فى الوقت الذى تحرص أغلب جامعات العالم على ألا تزيد هذه النسبة عن ١ : ٦ أو ١ : ٨ ، بل لا أبالغ إذا قلت أن إحدى الجامعات التى أتيحت لى زيارتها هذا العام لا تتعدى نسبة عضو هيئة التدريس فيها الى الطالب ١ : ٤[١٠] .

ولم يبق بيننا وبين عام (١٤٢١هـ) ٢٠٠٠ الميلادى إلا سنوات قلائل ، وإذن فنحن أمام مأزق حقيقى متمثل في النقص فى أعداد هيئات التدريس فى الجامعات العربية ، باعتراف الجميع .

بعض التحديات الأخرى :

بالإضافة إلى خطورة النقص فى أعداد هيئات التدريس في الجامعات العربية ، هناك عدد من التحديات الخطيرة التى تواجه المجتمع العربي في الوقت الحاضر ، والتي سوف تزداد حدة بحلول عام (١٤٢١هـ) ٢٠٠٠ الميلادى والتى لايمكن للجامعات العربية أن تعيش بمعزل عنها ، بل لابد لها من أن تنزل إلى الميدان سعيا لمواجهتها والعمل على التخفيف من حدتها ، ومن بين هذه لتحديات ما يلي .

---

(٩) من كلمة الدكتور محيى الدين صابر، أمام المؤتمر الثالث للوزراء المسؤولين عن التعليم العالى والبحث العلمي فى الوطن العربي، بغداد ٩-١٢ صفر ١٤٠٦هـ/ ٢٢-٢٥ أكتوبر ١٩٨٥م ، ملحق رقم (٤) .

(١٠) من كلمة الدكتور محمد فرج دغيم، أمام المؤتمر السابق، ملحق رقم (٥) .

١ ـ مشكلة الأمن الغذائي :

وهذه تمثل فى رأى الكثيرين مشكلة ذات خطر لايستهان به ، وليس سهلا أن يذكر أن مجتمعا كبيرا مثل المجتمع العربي لايجد ما يأكله بصورة كافية ، وأنه يمد يديه إلى الخارج معتمدا على دول أخرى خارج الإقليم لإطعام أبنائه ، وليست الخطورة في هذا الموضوع هى لقمة الخبز فقط ، ولكن المشكلة تتعدى ذلك إلى حرية القرار السياسى ، فالذين لايجدون ما يأكلون . . ولا ينتجون ما يحتاجون من غذاء ، لا يمكن أن يكون لهم تأثير فى عالم اليوم ولا فى عالم الغد الذى تحكمه القوة . . والمال . . والسيطرة المادية ، وويل لأمة لا تأكل مما تزرع ، كما صرح بها ابن خلدون . . منذ قرون .

إن بعض الإحصاءات الحديثة تبين أن دول مجلس التعاون الخليجى ـ وحدها ـ سوف تصل قيمة ما تستورده من مواد غذائية عام (١٤١١هـ) ١٩٩٠م إلى حوالى ١٨ بليون دولار ، في الوقت الذى كانت لاتستورد بأكثر من ٩ بلايين دولار عام (١٤٠٦هـ) ومعنى هذا أن الحاجة تتضاعف . . . كل خمس سنوات ، فماذا سيكون عليه الوضع عام (١٤٢١هـ) ٢٠٠٠م ؟؟ وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للركن الثرى من العالم العربي ـ دول الخليج العربية باستثناء العراق فماذا سيكون عليه الحال في باقي دول العالم العربي التي يصنف بعضها ضمن الدول الأفقر في العالم[١١] ؟؟

وهل يمكن لجامعاتنا العربية أن تنزل إلى الميدان تبحث وتجرب وتنير عقول الفلاحين في مزارعهم وحقولهم في خصوبة أرض . أو في انتقاء بذور ، أو فى اتقاء بعض أمراض النباتات وحشراتها ، أو في تحسين طرق الزراعة والرى ، كما فعل التعليم العالى في أمريكا منذ مائة عام تقريبا حين صدر بها قانون موريل (١٢٧٩هـ) ١٨٦٢م الذى منح ما مقداره ٣٠ ألف فدان من الأراضى الحكومية لكل عضو في الكونجرس أو في مجلس الشيوخ ، بحيث تباع هذه الأراضى وتوقف أموالها على

(١١) محمد عبد العليم مرسى : التربية والأمن الغذائي فى دول مجلس التعاون الخليجى ، مجلة رسالة الخليج العربى ، العدد ١٣ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٧٣-١١٤ .

تأسيس كلية زراعية على الأقل فى كل ولاية ، وذلك لتعليم الناس فروع المعرفة المتعلقة بالزراعة وفنون الميكانيكا المتعلقة بها(١٢) .

٢ ـ مشكلة مواكبة التعليم العالى لخطط التنمية :

نتيجة للظروف التى مرت بها مجتمعاتنا في العالم العربي والتى نتج عنها الكثير من التخلف والحرمان بدأت هذه المجتمعات في تبنى خطط للتنمية ، حددتها بسنوات معينة ، درست لنفسها أهدافا تبغى الوصول إليها ، مع نهاية كل خطة ، ولقد شملت هذه الخطط كل نواحى الحياة فى تلك المجتمعات ، فوجدنا خططا للتنمية الاقتصادية . . والاجتماعية . . والصحية . . والثقافية . . والتعليمية . . الخ .

ولكن المشكلة التى توقفت عندها معظم مجتمعاتنا كانت غياب دور التعليم العالي في هذه الخطط . . رسما . . وتنفيذا . . ومتابعة . . وتقويما . . ولقد أرجع البعض أسباب هذا الوضع إما لعدم إتاحة الفرصة من جانب المسؤولين للجامعات ورجالها كى يسهموا في ذلك ، وإما لانعزال الجامعات خلف أبراجها العاجية تبحث فى أمور لاتمت إلى التنمية ولا إلى مشكلاتها بصلة ، علما بأن الجامعات هى مصانع الرجال التى تخرج الكفاءات البشرية التي تعتمد عليها الخطط التنموية حتى تتحول إلى واقع حى ملموس .

وحين نتحدث عن التنمية لانقصد بها فقد التنمية الاقتصادية التى ترفع معدلات الإنتاج وتزيد من دخول الناس ، فتمكنهم من القدرة على الشراء والاقتناء . . ومن ثم الاستهلاك والترف ، إن ذلك نمط من التنمية لاينبغى أن يكون هدفنا ، إنما نعنى بذلك التنمية الحضارية التى تمكن الإنسان من معرفة قيم مجتمعه ، وترده إلى أصوله الإسلامية الأولى ليخرج لنا إنسانا سويا يعمل لخيره وخير الناس من حوله ، ينتج بعزم وإصرار ويستهلك ويعيش باعتدال ، وأمامه نماذج إسلامية رائعة ضربها لنا أجدادنا من السلف الصالح(١٣) .

(١٢) John Jorolimek: The Sehools In Contemporary Socitety, Analysis of Socila Current Issues Eorces, Mocmillan Pubbsling Compang, N.y., P.38.

(١٣) راجع بحوث الندوة الفكرية الأولى لرؤساء الجامعات الخليجية البحرين ٩-١٢ ربيع الأول ١٤٠٢هـ، ٤-٧ يناير ١٩٨٢م وراجع أيضا التعليم العالى ومسئولياته فى تنمية دول الخليج العربي للكاتب، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

٣ ـ مشكلة محاولة اللحاق بعالم المتقدمين :

منذ أن انفتحنا على حضارة الغرب ، ومثقفونا يحاولون دائما عقد المقارنات بين ما عندنا وعند ذلك الغرب منبهين إلى الفروق التى تفصل بيننا وبينهم هناك ، بينما عكفت طائفة أخرى من أبناء أمتنا على تراثنا الحضارى تجد فيه العزاء لما نحن فيه ، وكانت مشكلتنا أننا أصبحنا أشبه بالمتجمدين فلا نحن أسرعنا الخطى . . في عمومنا . . كي نلحق بركب الحضارة المسرع ، كما فعلت اليابان مثلا ، ولا نحن حافظنا على قيمنا القديمة وعملنا بمقتضاها .

لقد كانت خطوة أجدادنا المسلمين الواعين ، في بناء الحضارة الإسلامية الرائدة ، كانت في التمكن من علوم الدين الإسلامي ، ثم فى الاتجاه إلى ترجمة التراث العالمي الذى كان موجود آنذاك لقد ترجموا من شرق ومن غرب . . . دون خوف أو عقد ثم استوعبوا كل ما ترجموا . . وهضموه تماما وأعملوا فكرهم فيه . ثم أضافوا عليه من عندهم ، فأخرجوا للعالم حضارة رائعة فى فترة زمنية قياسية ، باعتراف علماء الغرب أنفسهم .

ويبدو أن اليابان قد سارت في نفس الطريق ، طريق المحافظة على تراثها وقيمها ، ثم طريق الترجمة والنقل من الحضارة الغربية ، ثم وصلت إلى مرحلة الإبداع التي تضعها اليوم بين عالم المتقدمين . . بل أمامهم ، وفي هذا يقول أحد أبناء الخليج «لقد تبنت اليابان أكبر حركة للترجمة شملت جميع المعارف والعلوم ، فكانت النتيجة انصهار الأفكار مع إمكانات الإنسان الياباني بتقاليده وقيمه وتراثه فى بوتقة واحدة نقلت المجتمع الياباني الى الصف الأول دون خسائر تذكر[١٤] .

لقد ترجم اليابانيون في عام واحد ، هو عام (١٣٩٦هـ) ١٩٧٦م ، عشرات الآلاف من الكتب ، كما كتبوا وألفوا مثلها ، ومعنى ذلك أنهم لازالوا حتى هذه الأيام ، ورغم التقدم الذى وصلوا إليه . . . لازالوا ينقلون عن الآخرين ويتتبعون

(١٤) محمود محمد سفر التكنولوجيا نقل أم استنبات ، ضمن بحوث الندوة الفكرية الأولى لرؤساء الجامعات الخليجية ، مرجع سابق ، ص ٤ـ٩ .

أعمالهم . . حتى لايفوتهم شيء مما يجرى حولهم في العالم[١٥] . . والتحدى الذى يواجه جامعاتنا العربية اليوم . . . ومنذ بضعة قرون من الزمان هو . . أين دورها في التعريب بحيث تعود لمجتمعاتها خلاصة الفكر العالمي وتحاربه . . ؟ والواقع يقول بوجود قصور خطير في هذا المجال ، فنحن حتى الآن لم نجد جامعة عربية واحدة تبنت ونفذت فكرة أن يترجم كل مبتعث عائد من الخارج موضوع رسالته العلمية التى حصل بها على مؤهله . . !!

٤ - موقع جامعاتنا من حاجات مجتمعاتها :

إننا لانستطيع في وطننا العربي أن ندعى أن جامعاتنا قد استجابت تماما لحاجات المجتمع من حولها ، حقيقة قدمت هذه الجامعات الكفاءات البشرية التى أسهمت في دفع عجلة الحياة على الأرض العربية ، ولكنها في الوقت ذاته قدمت للمجتمع آلافاً من الشباب الذين يحملون شهادات في تخصصات لاتحتاجها مجتمعاتهم وبالتالي انضموا إلى قوافل العاطلين ، أو الذين يجلسون على مكاتب دون أن يجدوا عملا . . حقيقيا . . . يؤدونه . إن باحثا عربيا يقول «ماذا سيفعل مجتمع كمجتمع الكويت عام (١٣٩٧هـ) ١٩٧٧م مثلا بستمائة خريج من قسم التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، ثم ماذا سيفعل عام (١٤٠٩هـ) ١٩٨٨م بضعف هذا العدد ، حيث سيكون لدينا متفلسف واحد ومؤرخ واحد وجغرافي واحد لكل ٨٠٠ شخص مقيم على تراب الكويت . . ؟ أما إذا أردنا أن نحصر النسبة في الكويتيين وحدهم فإنهم سيغرقون في بحر من الفلسفة والتاريخ والجغرافيا[١٦] . وهذا الكلام يتم في الوقت الذى تغرق فيه سوق العمل بآلاف الأطباء والمهندسيين والفنيين الأجانب الذين يعملون على أرض الكويت ، حتى إن بعض الإحصاءات تقدر المهندسيين العاملين بالكويت وحدهم بنحو ٢٥٠٠ مهندس ، فأين الجامعة من مطالب التنمية هنا[١٧] . . . ؟

(١٥) محمد عبد العليم مرسى (مترجما) التربية في اليابان المحاضرة (تأليف ادوارد د . بوشا) مكتبة التربية العربى لدول الخليج ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

(١٦) محمد جواد رضا : التربية والتبادل الاجتماعى فى الكويت والخليج العربى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٢م ، ص ٦١ .

(١٧) محمد عبد العليم مرسى : التعليم العالى ومسؤوليته في تنمية دول الخليج العربى ، مرجع سابق ، ص ٢٨ .

أمـا إذا ذهبنا إلى ألمانيا الغربية فإننا نجد الوضع معكوسا هناك ، حيث أعداد الملتـحـقـين بالتعليم الفني والمهنى ، وحيث معـاهـده أكثـر من ضعف عدد جامعـاتـه فلديهم هنـاك ١١٨ معهـدا مهنيا عاليا ، بينـما جامعـاتهم لاتـزيد على ٤٩ جامعة فقط .[١٨]

٥ ـ موقع جامعاتنا من حاجات العصر ومطالبه :

مما لاشك فيه أن العصر الذى نعيشه يختلف فى كثير من ملامحه عن أى عصر سبقـه ، وذلـك بحكم التـطورات السريعة والمتلاحقة في مجال الكشف والاختراع والتـطبيق ومن حيث سرعـة وصول المخترعات الجديدة إلى الأسواق حيث يتلقفها المستهلكـون فور نزولها ويستخدمونها في حياتهم العادية ، لقد أصبح التغير هو السمة المميزة لهذا العصر الذى نعيشه ، التغير السريع وليس التغير الهادىء الذى ألفه جيلنا في مطلع حياته ، ولا أقول جيل أبائنا أو أجدادنا .

إن هذا الوضع يلقى عبئا ثقيلا على المؤسسات التربوية عامة ، وعلى الجامعات بصفـة خاصـة ، وذلك لأن هذه المؤسسات التربوية هى التى تعد الأفراد لمواجهة الحياة . . بكل ما فيها . . وإذا لم يكن إعداد الأفراد لمواجهة التغير والتعامل معه ـ على المستوى المطلوب ، فهي إما أن تخرج أفرادا يرفضون التغير والتعامل معه ، ومن ثم يتركهم المجتمع خلفه ويمضي دونهم ، ويصبحون من الخالفين أو المتخلفين ، وإما أن يندفعوا وراء التغير دون روية يغتنمون من كل جديد . . دون وعى ، وهذا في حد ذاته خطر وغير محمود ، وقد يؤدي بهم إلى مشكلات لا قبل لهم ولا لمجتمعاتهم بها .

إن المجتمع الأمريكي الواعي قد فهم القياديون التربويون فيه روح العصر الذى يعيشـونـه ، وفهمـوا أن الحـاسبات الآلية قد أصبحت متطلبا أساسيا للمعيشة في مجتمعهم ، فبـدأوا بالمعلمـين في المـدارس الثـانوية يدربونهم على علوم الحاسبات

(١٨) راجع : التربية فى المانيا الغربية . . نزوع نحو التفوق والامتياز تأليف هانزج لينجنز، باربارا لينجنز، ترجمة محمد عبدالعليم مرسى ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

الآلية ، شريطة أن تتضمن برامج تدريبهم التدريب على مجالات الرياضيات والعلوم ، واشترطوا أن يقوم أفراد المجتمع بتعلم هذه التكنولوجيات لأنه ليس هناك ذريعة لأى مواطن حتى يقول في عالم التكنولوجيا الذى نعيشه اليوم (إنني لا أعرف شيئا عن العلوم) . . بل إنهم يقولون بأنه يجب أن يطلب من كل طالب من طلاب المستوى الثانوى أن يتعلم لمدة ثلاث سنوات على الأقل فى دراسة الرياضيات والعلوم والتكنولوجيا ، يكون من بينها عام واحد المادة الجبر ، وفصل دراسي واحد لدراسة الحاسبات الآلية ، كما يجب أن يدرس كل طلاب المدارس الثانوية مناهج متقدمة في الرياضيات والعلوم ، وأن يبدأ تنفيذ هذا الالتزام من أول سبتمبر عام ١٩٨٢م (١٤٠٣هـ)[١٩] .

هذا وإن هناك أعدادا من التغيرات في هذا المجال ، تجرى في مجتمعاتنا العربية ورغم هذا تقف الجامعات والمدارس منها موقفا سلبيا ، فمما لاشك فيه أن هناك انفتاحاً على الحضارة الغربية ، ورغم ذلك لم يحاول أحد تطوير مناهجنا سواء في التعليم العام الأساسي أوغيره كى تتوافق الأجيال الصاعدة من أبنائنا مع هذه الوافدات الحضارية الجديدة .

أكثر من هذا نجد أن هناك أساسيات في حياتنا ،مثل الخليج العربي ذاته . . . في حياة أهل الخليج ، وكذا البترول ، ورغم ذلك فماذا ندرس لأبناء الخليج فيما يتعلق بهذين العنصرين . . . ؟ ماذا يعرف أبناؤنا عن اقتصاديات الخليج وعن الثروات البحرية الكامنة فيه . . ابتداء من تلاميذ الابتدائي وانتهاء بطلاب الجامعة . . ؟؟ وفي باقي الدول العربية ماذا تقدم مناهجنا للأجيال الصاعدة عن الثروات التى تموج بها مجتمعاتنا . . . ولانعرف كيف نستثمرها الاستثمار الأمثل حتى الآن؟ مثل نهر النيل وبحيرة السد العالى التى تعج بالأسماك بالملايين منها ، فى الوقت الذى نستورد فيه غذاءنا من البلاد الأجنبية . . . ؟ وماذا درسنا عن الثروات الطبيعية في أراضى

(١٩) تعليم المواطن الامريكى من أجل المستقبل . . مقتضيات القرن الحادى والعشرين اعداد لجنة التعليم قبل المرحلة الجامعية فى الرياضية والعلوم والتقنية . . المجلس القومى للعلوم . . الولايات المتحدة الأمريكية . . ترجمة مكتب التربية العربى لدول الخليج ـ الرياض، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، ص ١٧ـ٢٠ .

السودان . . . عن الأنهار فيها والبحيرات . . عن الغابات ومساحات الأراضى القابلة للزراعة فى الوقت الذى تقترض فيه بلادنا . . . لكى تقتات . . . ؟؟

لعلنا لو راجعنا الخطط الدراسية للمرحلة الثانوية ، في مسارها المهنى . . . في اليابان لوجدنا فيها جوابا للفكرة التى أحاول إيضاحها هنا حيث تقدم تدريبا ملائما لأولئك الشباب الذين حسموا أمرهم وقرروا أن يعملوا من ميدان مهنى بعينه مثل الزراعة أو التجارة أو الفنون المحلية (أو المنزلية . . للبنات) أو الفنون بصفة عامة ، أو صيد السمك . . أو غير ذلك[٢٠] .

هذه هى بعض التحديات التى تواجه جامعاتنا العربية ، وهناك غيرها كثير ، وعليها أن تفكر في مواجهتها ، بحيث لا يأتي العام (١٤٢١هـ) ٢٠٠٠ الميلادى إلا وتكون قد فكرت فيها ، ووجدت لها حلولا أو إجابات من خلال برامجها ، بعد أن يكون أساتذتها قد أحاطوا بها علما .

(٢٠) التربية في اليابان المعاصرة مرجع سابق ، ص ٤٩ وعن المتغيرات التى تجرى خارج الجامعة وتؤثر فيها ، راجع تخطيط التطوير فى الجامعات ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ، العدد الثالث ، نوفمبر ١٩٧٢ ص ١٨ .

خطورة مهام الأستاذ الجامعى

إن الحديث عن دور الجامعات في تقدم المجتمع في العصر الحديث ، وعن دورها في تخريج أجيال من الشباب الذين تحتاجهم مجتمعاتهم ، وعن دورها في تقدم البحث العلمي والكشف والاختراع ، وكذا عن دورها في خدمة مجتمعاتها . . . هو بالدرجة الأولى حديث عن أستاذها .

أستاذ الجامعة الذى بغيره لاتكون ، وبدون جهده وبذله وعرقة وعلمه . . لايمكنها أن تستمر . . فضلاً عن أن تتقدم للأمام . . إننا حينما نتحدث عن التعليم العالى على اعتبار أنه ليس مجرد أداة لحفظ الثقافة والحضارة ونقلها فحسب ، بل إنه أصبح جزءا مكملا للتقدم الاقتصادي ، والرفاهية القومية ولخدمة هذا العمل فإنه يضطلع بوظائف متعددة مثل : الأبحاث ، والتدريب المهنى ، والدراسات العليا ، والتعليم الأساسي ، والدورات التنشيطية للكبار ، والتعليم المستمر ، وتوفير المثيرات الفكرية والندوات الثقافية لعموم المواطنين . وفضلا عن ذلك فإن العديد من المعاهد الأكاديمية يقدم خدمات عامة متخصصة ، مثل خدمات التوسع الزراعى ، وتحليل السياسة العامة ، والعلاج الطبى الميداني ، بل إن التعليم العالي يسهم بدرجة كبيرة في التطور الإدراكى ، والعاطفى والأخلاقى للطلاب ، كما يسهم في إنتاجهم الاقتصادى ، وأسلوبهم في الاستهلاك ، وحياتهم الأسرية ، وأوجه النشاط التي يمارسونها في أوقات فراغهم ومراعاة الجوانب الصحية ، ويشيد خريجو الكليات دائما من طلبة الدراسات العليا بالفوائد الثابتة للتعليم العالى وأثرها في اطلاعهم على الثقافات وطرائق الحياة المختلفة وفي تعزيز فهمهم للعلوم والثقافة ، وفي تطوير مهاراتهم الشخصية[٢١] . . حينما نتحدث عن كل هذه المهام والخدمات التي تقوم بها الجامعة . . لاشك نعنى الأستاذ الجامعى ، فهو واضع هذه البرامج . . وهو القائم

(٢١) ملخص تقرير جديد عن التفوق فى التعليم الجامعى بالولايات المتحدة الامريكية مجلة رسالة الخليج العربى ، العدد ٢١ ، السنة السابعة ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ص ص ٢٢٧-٢٢٨ .

على تنفيذها بلاشك ، كما أنه هو الذى يتابعها بالتعديل والتقويم والحذف والإضافة حتى يصل بها إلى الصورة التى يرضى عنها والتى تتمشى مع معاييرها التى وضعها في ذهنه[٢٢] .

ويقول أحد الباحثين إن عضو هيئة التدريس هو أهم ركيزة من ركائز الجامعة ، فإذا بنيت الجامعة على أكتاف هيئة ضعيفة ازداد ضعفها ، لأن الهيئة الضعيفة ـ هيئة التدريس ـ لن تنجب إلا طلابا ضعافا . . إن المستوى الضعيف لاينتج إلا مستوى ضعيفا[٢٣] .

وفي خضم المسئوليات الكبرى التي تضطلع بها الجامعات في مجتمعاتها يبرز دور الأستاذ الجامعي باعتباره ركيزه من ركائز جامعته وقاعدة من قواعد البناء الجامعي ، فدوره بالغ التأثر في شخصيات طلبته وتكوينهم العلمي .

وهو يؤدي دوره الفاعل فى تحديد البرامج والنشاطات العلمية لجامعته التى ترتبط مباشرة ببرامج مجتمعه وتعكس حاجاته ، كما يمارس دوره في تنفيذ هذه البرامج وتقويمها للوقوف على المنجز منها ودرجة إنجازه ومستواه وليكون قادرا على تعديل مسارها ورفع كفاءتها وصولا إلى الأهداف المرسومة .

والأستاذ الجامعى مدرس وباحث وعضو في لجان يمارس فيها مسئولياته ، ومرشد لطلبته وخبير في مجالِ تخصصه ، وهو يقدم المشورة لمؤسسات الدولة عند الحاجة . وتتباين الوظائف والأدوار التى يقوم بها الأستاذ الجامعي باختلاف حجم الجامعات ومسئولياتها ، وتباين الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية التى تستند إليها في صياغة أهدافها ، فالجامعات الأمريكية تهتم بالبحث العلمي مقارنة بالنشاطات الأخرى ، حيث تبين أن الأستاذ الجامعى يقضى ١ , ٢٩٪ من وقته في البحث العلمي ، وبقية

(٢٢) حول هذا المعنى راجع بحث الكاتب : ترشيد جهود أعضاء هيئات التدريس في الجامعات الخليجية فى مجال البحث العلمى ، ضمن بحوث الندوة الفكرية الثانية لرؤساء ومديرى الجامعات الخليجية ، جدة ٢٣ـ٢٥ رجب ١٤٠٥هـ/ ١٣/ ١٥ ابريل ١٩٨٥م ، وهو منشور بمجلة رسالة الخليج العربي ، العدد ١٦ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

(٢٣) حسن أحمد تيم : عضو هيئة التدريس فى الجامعات السعودية اختياره واعداده ، وتطويره ضمن بحوث ندوة عضو هيئة التدريس فى الجامعات العربية جامعة الملك سعود ، الرياض ١٤٠١ـ١٩٨٢ ، ص٦ .

الوقت يخصص لإعداد المحاضرات وإلقائها والمهام الإدارية والأكاديمية الأخرى[٢٤] .

وبمناسبة الوقت المخصص للبحث العلمى من جانب الأستاذ الجامعى ، نجد شيئا من المقارنة المثيرة حي نقرأ أنه مما يدعو إلى الدهشة والأسف معا أن نشاطات البحث العلمي التي يقوم بها أعضاء هيئة التدرس الجامعي فى الأقطار العربية لا تمثل أكثر من ٥٪ من أعبائهم الوظيفية ، بينما تمثل حوالى ٣٣٪ من أعباء هيئة التدريس في جامعات البلدان المتقدمة[٢٥] .

ومن نافلة القول أن تكتب عن وظائف الجامعة ، فى عالم اليوم ، والتى يقوم عضو هيئة التدريس بتنفيذها باعتبارها صلب عمله ، ولقد أصبح من المسلم به أن الجامعات قد خرجت عن الحدود الضيقة التى كانت فيها قديما حيث كان جل أو معظم عملها محصورا في الوظيفة التدريسية البحته .

لقد انطلقت الجامعات الآن إلى آفاق رحبة بجانب التدريس ، حيث أصبح البحث العلمي وظيفة أساسية من وظائف عضو هيئة التدريس ، بل لقد ركز كثير من الجامعات الأمريكية ـ بالتحديد ـ على هذه الوظيفة ، وخاصة الجامعات التى تهتم بالدراسات العليا ، وذلك بسبب اتصالها بالهيئات الحكومية والمؤسسات الكبرى والشركات العملاقة في المجتمع ، بحيث انغمست هذه الجامعات والمعاهد التكنولوجية العتيدة في مشروعات بحوث ضخمة ، مولتها هذه الشركات والمؤسسات واستعانت فيها بعقول العلماء من أساتذة الجامعة .

وبجانب الوظيفتين السابقتين اتجهت الجامعات إلى ميدان فسيح آخر هو ميدان خدمة المجتمع ، والذى كثرت وتعددت أوجه الخدمة فيه ، بحيث بدا وكأنه لا نهاية

(٢٤) موفق حيادى على : دراسة مقارنة لاعداد وتدريب الاستاذ الجامعى ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ، العدد ٢٢ ، ذو القعدة ١٤٠٧هـ ـ يوليو ١٩٨٧ ص ٧٩ .

(٢٥) عضو هيئة التدريس في الجامعات العربية ـ أوضاعه وقضاياه ، إعداد مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية مقدمة للمؤتمر الثالث للوزراء المسؤولين عن التعليم العالى والبحث العلمي في الوطن العربي ، بغداد ٩ ـ ١٢ صفر ١٤٠٦هـ/ ٢٢ ـ ٢٥ أكتوبر ١٩٨٥ م ، ص ٩ .

له ، فمع كل مشكلة واجهها المجتمع كانت الجامعة هناك . . . في المزرعة والمصنع . . . والنادي . . بل حتى وفي الشارع ، حتى أصبح من الأمور العادية أن نتحدث عن الجامعة المفتوحة . . وعن جامعة بلا جدران ، وعن جامعة الهواء . . الخ .

إن وظيفة واحدة ، من وظائف الجامعة ، وهي وظيفة البحث العلمي «لها جوانب وأبعاد عدة وهي تبين خطورة المهام التى يقوم بها أعضاء هيئة التدريس خاصة في العصر الذى نعيشه» إن البحث العلمي الجاد والموجه أصبح من الضروريات التي تحتمها ظروف الحياة في العصر الحديث ، فقد هيمنت نتائج البحوث العلمية والتقنية والمهارات المتعلقة بها ، وإنتاج الصناعات القائمة عليها ، على مختلف أوجه الحياة في المجتمعات المعاصرة إذ يعيش إنسان اليوم في زمن المعرفة بكل أنواعها ، وفي بيئة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها التقنية التى أدت إلى تغييرات جذرية في طريقة حياته وسلوكه ونظرته العامة لكل ما حوله ، كما أن تقدم المعرفة المستمر أدى إلى مزيد من الثروة ومزيد من الاستهلاك ومزيد من الانفتاح والاتصال والانتقال وتبادل المنافع ، بل وتبادل المعتقدات والأفكار والقيم والعادات والأنماط السلوكية والتأثير المتبادل ، وأحيانا السيطرة العسكرية والثقافية والاقتصادية ، أو مختلف أنواع السيطرة والتحكم . . تم هذا كله في مدة وجيزة لا تتجاوز الواحد بالمائة من تاريخ البشرية المعروف . ولعل العقود السبعة الماضية شهدت أعظم هذه التغييرات والإنجازات في تاريخ الإنسان كله ، إذ تمت فيها إنجازات علمية وتكنولوجية جاوزت ما حققه الإنسان خلال حياته المعروفة على كوكب الأرض[٢٦].

أما في مجال خدمة المجتمع ، وانفتاح الجامعة على مشكلاته وطموحاته . . بل وأحلامه فيكفى أن نذكر أن الجامعة الآن قد أصبحت منغمسة فى أمور لم يفكر فيها علماؤها ومنشئوها القدامي في كل من ساليرنو وبولونيا وباريس وكمبردج وأكسفورد ، فجامعة اليوم ـ بحكم صلتها العضوية بما يجرى حولها ـ تجد نفسها منغمسة في تعليم الكبار ، وفي مراكز الاستشارات الفنية ، وكذا في أعمال المزارع الكبيرة والمتوسطة

(٢٦) بكر عبد الله بن بكر، مرجع سابق، ص ١

الحجم وفي وضع البرامج المتنوعة للمؤسسات والشركات ، وأيضا في الإسهام في الخدمات الصحية في كل من الريف والحضر ، وفي عمليات استصلاح الأراض ، وفي الاستيطان البشرى ، وفي إعداد رجال أعمال الغد ، والفنيين والمديرين ، وفي الإسهام في تخريج معلمي المرحلتين الثانوية والمتوسطة[٢٧] .

ولننظر إلى هذا الكم الهائل من الأدوار التي تقوم بها الجامعة . إن للجامعة دورا في استيعاب الثقافة أولا ، ونشرها بتبادل المعرفة ثانيا ، وتزويدها بالإضافات الخلاقة ـ ثالثا ـ ولقد قادت الجامعة التقدم في النواحي المختلفة منذ القدم ، وإلى زماننا هذا ، فهى الرائدة في الكشف عن المجهول ، وحركة الأشياء ، وتفاعل المواد وكذلك الكشف عن المزيد من مصادر الطاقة التى تعد اليوم من أهم منجزات وعوامل التقدم ـ ولقد احتضنت الجامعات في أوربا البحوث والتخصصات العلمية ، وفتحت صدرها للتيارات الفكرية والنظريات المختلفة ، وماجت بالآراء التى كانت تسفر آخر الأمر عن الكشف عن حقائق الحياة والبشر[٢٨] .

ونظرة سريعة إلى منجزات جامعات أوربا تثبت إسهاماتها ، فسلسلة الأبحاث في جامعات لندن وبرلين وباريس توضح كيف أتت نظريات الجاذبية والحركة والقوى بنتائج علمية بعيدة في ميادين النقل والمواصلات والعمارة بأنواعها ، وفي تطور الصناعة ، وفي مجال تطوير الطاقة من البخار إلى الكهرباء . ولقد ارتبطت الثورة الصناعية بجملة البحوث النظرية التى قدمتها معاهد البحوث فى الجامعات ، ومنذ ذلك الحين أصبحت وظيفة من وظائف الجامعة أن تقدم للصناعة احتياجاتها من المهندسين والمحاسبين والمديرين ، ثم تحولت إلى دراسة نتائج الثورة الصناعية في المجتمعات الأوربية ، فظهرت في الوجود علوم الإحصاء والسكان والمجتمع والتخطيط[٢٩] .

(٢٧) (27) Higher Cducation / Social Charge: Promisirg Experiments In Developirg Courtries Volume, Rrege Publishers N.Y.

(٢٨) أحد العلى الصباب : دور الجامعة فى التقنية الاقتصادية والاجتماعية، دار عكاظ للطباعة والنشر ، جدة ١٩٧٦ ، ص ٢٧ .

(٢٩) المرجع السابق، ص ٢٨ .

ولنمض على الطريق . . نقرأ فيما تقوم به الجامعة من أدوار ، ما كان لها بها من عهد من قبل ، يقول باحث عربي عن الجامعة . «إنها تخدم نوعيات جديدة من البشر ، فمن ربات البيوت إلى قادة الدول ، ومن عمال الصناعة إلى رواد الفضاء ، ومن رجال المخابرات إلى الدعاة الدينيين ، ومن جيش السلام الأمريكى إلى الأطباء الحفاة في الصين ، ومن برامج غزو الفضاء إلى برامج مقاومة خطف الطائرات ، ومن أساليب تربية الطفل إلى استخدام الحاسب الآلي في لعب الشطرنج ، ومئات من البرامج تسهم فيها الجامعة بمفردها أو مع غيرها لتقديم المعرفة مبسطة واضحة منتشرة ذائعة مطبوعة مصورة . . مسموعة ومرئية[٣٠] .

وإذا كان ماضى يصف حال برامج الجامعات في الغرب المتقدم فإن جامعاتنا قد نزلت إلى الميدان وأخذت تسهم في خدمة المجتمع ، بالإضافة إلى وظائفها الأساسية ، وعلى سبيل المثال فإن إحدى جامعاتنا الإسلامية في المنطقة العربية ، بجانب إمدادها المجتمع بمؤسساته المختلفة بالمتفقهين في علوم الشريعة وأصول الدين واللغة العربية والقضاء والعلوم الاجتماعية المختلفة . . . بجانب كل هذا نجد أنها قد شمرت عن ساعديها ونزلت إلى ميدان خدمة المجتمع ومواجهة احتياجاته بل والعمل على حل ما يواجه أفراده من مشكلات .

إنها تسهم في حل مشكلة الأمية وتدريب معلمي الكبار ، كما أنها تدرب أئمة المساجد وخطباءها ، وقد مدت نشاطها إلى رعاية الأمومة والطفولة ، بل ولم تنس قطاع المعوقين وكبار السن حيث قدمت ـ وتقدم ـ برامج لرعايتهم وكيفية التعامل معهم جميعا .

بل إنها تقدم برامج في تعلم الآلة الكاتبة باللغتين العربية والانجليزية كما تقدم برامج في كيفية استخدام الحاسب الآلي والاستفادة منه في علوم المكتبات وكذا اهتمت بالوسائل التعليمية وتكنولوجيا التعليم ، ولقد عرجت على أهمية المرور في حياة التلاميذ وكيفية التعامل مع مسؤوليه . . وتعليماته ، بل إنها غمست نفسها في مواجهة

(٣٠) حسان محمد حسان : نحو أهداف سلوكية التعليم الجامعى العربى، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٥٠ . «مراجع برامج عمادة خدمة المجتمع الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض .

مشكلات المجتمع مثل التدخين والمخدرات والمسكرات ، وبيان مخاطرها وسبل الوقاية منها وأنواع علاجها . . بالإضافة إلى جهودها فى الشؤون الإدارية وعلومها ، وخاصة فى مجال الإدارة المدرسية ، وفي مجالات الصحافة والإعلام والتلفزيون والعلاقات العامة وتدريب العاملين في حقولها . . . وهذه أمور ما كان يتصور أكثر المتفائلين أن تذهب إليها الجامعة ، ولا أن تشغل نفسها بها .

والخلاصة فى كل هذا هى أن ميادين عمل الجامعة قد اتسعت وتنوعت وتشعبت بشكل هائل ، وأن عضو هيئة التدريس هو الذى يقوم بهذا كله ، تفكيرا وتخطيطا وتنفيذا ومتابعة وتقويما . . الخ .

ويبقى السؤال المحورى ـ فى كل هذا ـ وهو هل نعد عضو هيئة التدريس في جامعاتنا العربية للقيام بكل هذه الوظائف ، وخاصة الوظائف الثلاث الأساسية : التدريس . . والبحث . . وخدمة المجتمع . . . ؟؟

والإجابة واضحة وقاطعة بالنسبة لوظيفة واحدة فقط ، وهي أننا نعده بالفعل في مجال البحث العلمى فطالما أنه يشترط للتعيين فى وظائف عضو هيئة التدريس أن يكون حاصلا على درجة الدكتوراه ، فإن شاغل هذه الوظائف لابد وأن يكون قد تمرس فى أمور البحث العلمي ، وذلك من خلال إعداده لرسالتى الماجستير والدكتوراه ، وإن كان العمل ـ بعد ذلك ـ يزيد من تمرسه وتعمقه في هذه الوظيفة . . . وظيفة البحث العلمي .

أما وظيفتا «التدريس» وخدمة المجتمع فلازالت الإجابة عليهما تحتاج إلى شيء من التروى والتقصى وإعمال الفكر ، إننا نفترض أن أى إنسان يحصل على الدكتوراه قادر بالضرورة على التمكن من فنون التدريس وتوصيل المعلومات لطلابه ، سواء في المرحلة الجامعية ، أوفي مرحلة الدراسات العليا . . وهذا الافتراض قد لايكون صحيحا بالنسبة لكثير ممن يحملون مؤهل الدكتوراه ، خاصة أولئك الذين لم يدرسوا شيئا عن التربية وطرق التدريس وعلم النفس ، وذلك لأن هذه الأمور تمثل علوما قائمة بذاتها لها قواعدها وفنونها التى لابد من امتلاكها لمن يريد أن يبرع فيها وأن يتمكن من أسرارها .

حقيقة قد يبرع الكثيرون ممن لايحملون مؤهلات تربوية ، في توصيل العلم لطلابهم ، وذلك بسبب أو بحكم أنهم يمتلكون الموهبة أو أنهم يحبون أن يكونوا معلمين وهؤلاء يندرجون تحت ما يعرف بإسم «المعلمين الموهوبين» Teatcher by nature ولكن ذلك لايمنع أن هناك كثيرا من فنون التدريس وطرائقه تغيب عنهم ، ولايحيطون بها علما ، كما أن كثيرا من المواقف النفسية التى يمر بها بعض طلابهم قد تسبب لهم حرجا عند افتقارهم للأسلوب العلمي عند التعامل معهم .

«إن المتمكن من موضوع المادة لا يكون بالضرورة مدرسا ، لأن أداء التدريس يتطلب حضور الطالب والاتصال بين المدرس والطالب . والاتصال عملية أخذ وعطاء وعندما يهتم المدرس بالاتصال يجد نفسه مهتما بطرق الاتصال المناسبة . إن طرق الاتصال تختلف باختلاف المدرس وباختلاف موضوع المادة ، ولكن الطريقة المثلى يمكن وصفها أنها أفضل طريقة ممكنة لنقل المعلومات بين المدرس والطالب . فالتحدث بين الاستاذ والطالب لايتم بالمصادفة ، ولكنه أمر يتم بالمبادرة من أحد الطرفين ثم يعمل نفس الطرف على استمراره وتوجيهه نحو نهاية معينة مع المحافظة على الغاية والاتجاه[٣١] .

ويتساءل الكاتب ، صاحب الفكرة السابقة ، فيطرح سؤالا ذا مغزى وهو : هل تحقق الدكتوراه إعداد عضو هيئة التدريس الجامعي . . . وتأتينا إجابته قائلا «إن الدكتوراه ضرورة في إعداد عضو هيئة التدريس الجامعى ، لأنها تؤهله لإجراء البحوث ولكنها لاتفى بجميع المتطلبات للقيام بمهمة التدريس[٣٢] .

ويقول د . قاضى إننا في العالم العربي لم نهتم بهذا الجانب ، عند إعدادنا لأستاذ الجامعة ، بينما يعزى التقدم الذى وصلت إليه الولايات المتحدة الأمريكية في التعليم الجامعى لهذا الجانب ، لأنهم اهتموا ـ في إعداد الأستاذ الجامعي بالمنهج الدراسي

(٣١) صبحى عبد الحفيظ قاضى : عضو هيئة التدريس الجامعى . إعداده ومسؤولية ومشكلاته، رسالة الخليج العربى، العدد ١٠ السنة الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ص ٩٩ .

(٣٢) المرجع السابق ص ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

وطرق التدريس . بل إنهم درسوا أيضا الطالب . . . المدرس الإدارة في الجامعات[٣٣] .

وتشير إحدى وثائق اليونسكو ، والتى قدمت إلى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي ، إلى أن برامج الدراسات العليا كانت ـ ومازالت تعتبر المصدر الوحيد لإعداد المدرس الجامعى ، كما تعتبر الشهادة التي يحصل عليها طالب الدراسات العليا ضمانا لدخوله إلى حقل التدريس الجامعى ، ورغم ذلك تمضى الوثيقة لتقول إن «سياسة الدراسات العليا لا تأخذ فى الاعتبار مسؤولية إعداد المدرس الجامعى ، ولكنها تحصر مسؤولياتها في التدريب على البحث ، كما أن برامج الدراسات العليا هذه تختار الطلاب دون النظر إلى أى ميل لهم نحو التدريس ، كما أنها لاتهتم فى مقرراتها بتنمية مهارات التدريس[٣٤] .

وتبين لنا الوثيقة أن العديد من رؤساء الجامعات فى العالم قد تنبهوا إلى ضرورة إعداد وتدريب المدرس الجامعى على طرق وأساليب التدريس قبل أن ينضم إلى هيئة التدريس بالجامعة ، وكذلك أثناء الخدمة .[٣٥]

كما توضح وثيقة اليونسكو هذه أن الجامعات البريطانية كان لها فضل السبق في مجال الإعداد التربوى للمدرس الجامعى ، وقد أنشئت في جامعات بريطانية كثيرة وحدات خاصة للتدريب الجامعى تضم أنشطة البحث والتدريب ، ومن أمثلة هذه المراكز «وحدة التدريس الجامعى University Teaching unit في جامعة لندن ، ومركز التدريس الجامعي في جامعة لانكستر Lancaster ، كما توجد مراكز مماثلة فى جامعة ليدز وصرى (Surrey (Leads) وساوثها مبتون (South-Hampton) وبدفورد (Bedford) .

كما أن هناك جامعات آسيوية تحاول أن تحتذى النموذج البريطاني في الإعداد التربوى لأعضاء هيئة التدريس ، ومن أمثلة ذلك جامعة شولالونج كورن

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٣٤) عضو هيئة التدريس فى الجامعات العربية أوضاعه وقضاياه مرجع سابق ص ٤ .

(٣٥) المرجع السابق .

(Chula Long Korn) في بانكوك (تلايلاند) ، وجامعة مانيلا (الفليبين)، أما الجامعات الأمريكية فيوجد في بعضها مراكز للتقويم والبحوث ، والهدف منها تطوير التعليم الجامعي ، بصفة عامة ، دون الاقتصار على تطوير التدريس الجامعي[٣٦] .

وإذا انتقلنا إلى عالمنا العربي نجد أن هناك بعض المحاولات الجادة على الطريق في هذا الموضوع ، غير أن المحاولات المنظمة التي قطعت شوطا في هذا المجال هى تلك التى تقوم بها الجامعات المصرية منذ منتصف السبعينات[٣٧] .

ويرجع الفضل في استحداث نظام الإعداد التربوى للمدرس الجامعي في مصر إلى جامعة القاهرة ، حيث تبنت قيادة الجامعة عام (١٣٩٣هـ) ١٩٧٣م هذه الفكرة وبدأت في تطبيقها في أوائل عام (١٣٩٣هـ) ١٩٧٤م ، وقد تم تعديل قانون الجامعات المصرية لينص على ضرورة اشتراك المعيد أو المدرس المساعد في دورة تدريبية على طرائق التدريس بالجامعات قبل أن يتم تعيينه في وظيفة عضو هيئة تدريس (محاضر فأعلى) . ونص القانون على أن ذلك الشرط يشمل أيضا الدارسين بالخارج ، وعليه بدأت سائر الجامعات المصرية في تنفيذ هذا النص مسترشدة بالتجربة الرائدة لجامعة القاهرة[٣٨] .

ويحدثنا باحث آخر عن جهود الجامعات العربية المتواصلة ، في مجال إعداد عضو هيئة التدريس في الجامعة ، فيقول : «لقد أوضحت مذكرة قدمها المدير العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج عام)١٤٠٨هـ) ١٩٨٧م إلى مؤتمر التعليم العالى ، الحاجة إلى الممارسة التربوية للأستاذ الجامعى لقلة معرفته بالأسس العلمية التربوية للتعليم وأساليب وطرائق التدريس الجامعى ، وضعف خبرته في مجال التقويم وقياس إنجاز الطلبة[٣٩] .

(٣٦) المرجع السابق، نقلا عن عزت عبد الموجود «التعليم العالى واعداد هيئة التدريس» التقرير النهائي للمؤتمر الأول للوزارة المسؤولين عن التعليم العالى في الوطن العربى، الجزائر مايو ١٩٨١م، ص ٥ .

(٣٧) المرجع السابق، ص ٦ .

(٣٨) المرجع السابق .

(٣٩) موفق حيادى على مرجع سابق، ص ٨٦ .

وقد عرض الباحث السابق لبعض الجهود العربية في هذا المجال ، حيث حدثنا عن تجربة الجامعات المصرية السابق الإشارة إليها قبل ذلك ، والتى بدأت في السبعينات بجامعة عين شمس ، وجامعة القاهرة . كما تعرض لتجربة العراق في هذا المجال في جامعات الموصل ، وبغداد والبصرة ، خلال الثمانينات ، كما عرض فى عجالة لما تم فى الجزائر عام)١٤٠٧هـ) ١٩٨٦م حيث بدأ الاهتمام بالإعداد المهنى لأساتذة الجامعة الذين لم يسبق لهم دراسة المواد التربوية والنفسية[٤٠].

ويتناول أحد الباحثين موضوع «الإعداد المهنى» لعضو هيئة التدريس بأسى واضح ، حيث يقول « ومن المؤسف أن برامج الدكتوراه ومتطلباتها المعمول بها في مختلف الجامعات لا تأخذ جانب الإعداد المهنى بالحسبان بأى حال من الأحوال ، إذ أنها تعد ذلك أمرا منفصلا لا شأن لها به وقد يكون ذلك لكون العديد ممن يلتحقون ببرامج الدكتوراه لايكون هدفهم من وراء ذلك الالتحاق بعضوية هيئة التدريس على المستوى الجامعى ، إذ أن الكثير منهم يخطط للعمل فى الشركات وفي مراكز البحوث[٤١].

ويمضى الكاتب السابق ليحدثنا عن التجربة الأمريكية ، فى هذا المجال ، فيقول : وقد تنبه العديد من المسؤولين عن التعليم العالمي من داخل الجامعات الأمريكية وخارجها إلى هذا النقص فى إعداد عضو هيئة التدريس الجامعي ، وظهرت هناك آراء واقتراحات متباينة لمعالجة هذا الموضوع فقد اقترح كيلباتريك (Kitpatrich) وجونز (Jons) إحداث نوعين من درجة الدكتوراه في الجامعات ، تؤهل الأولى منها صاحبها للتدريس الجامعى ، بينما الأخرى ليصبح باحثا في المقام الأول ، إذا أراد أن يسلك هذا الطريق في تحديد مهنته المستقبلية ، ولقد لقى هذا الاقتراح بعض المعارضة لأن طالب الدكتوراه على الأغلب يحب أن يرى نفسه في المقام الأول باحثا وليس مدرسا ، أسوة بأساتذته بالإضافة لكون العمل في مهنة التدريس ، بالنسبة

(٤٠) المرجع السابق، ص ص ٨٦- ٨٩ .

(٤١) عبد الرحمن عدس : إعداد عضو هيئة التدريس في الجامعات العربية، وثيقة رقم ٣ قدمت للمؤتمر الثالث للوزارء المسؤولين عن التعليم العالى والبحث العلمى فى الوطن العربى، بغداد ٩-١٢ صفر ١٤٠٦هـ/ ٢٢-٢٥ أكتوبر ١٩٨٥م، ص ٦ .

للكثيرين ، يخلو من الحوافز المادية والمعنوية التي تتوفر للباحثين الذين يعملون في المؤسسات والشركات ومراكز البحوث الموجودة في خارج الجامعات[٤٢] ، وإزاء هذه الآراء اقترح بعضهم عدم المساس ببرامج الدكتوراه الحالية ، ولكن في الوقت ذاته العمل على تحديد الراغبين في التدريس الجامعي مستقبلا وإمدادهم بنوع من التدريب التربوى إما عن طريق إلحاقهم ببعض الأساتذة المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة ليساعدوهم في بعض أعمالهم التدريسية ، أو عن طريق إتاحة الفرص أمامهم للتفرغ الجزئى ليعملوا في التدريس الفعلي في المعاهد غير الجامعية ، أو في تدريس طلبة السنتين الأولى والثانية الجامعيتين ، ولايخفى أن هذه الأساليب لها محاذيرها ، إضافة إلى أنها تطيل من أمد المدة الزمنية المطلوبة للحصول على الدكتوراه[٤٣] .

وماتزال هذه المشكلة قائمة ، وقد حاولت بعض الجامعات عمل ما من شأنه التخفيف من حدتها ، حيث قامت بعض الجامعات الأمريكية الشهيرة ، كجامعة هارفارد وجامعة ميتشجان ، على سبيل المثال ، بتطوير مواد في التدريس الجامعى ، بحيث تقدم إلى طلبة الدراسات العليا الراغبين في العمل بالتدريس الجامعي مستقبلا ـ كما أقام العديد من الجامعات الأمريكية والأوربية في السنوات الأخيرة مراكز لتطوير العملية التدريسية على المستوى الجامعى بما فيها مساعدة الراغبين في تحسين كفاءتهم التدريسية . ومن الجدير بالذكر أن جامعة ميريلاند في الولايات المتحدة الأمريكية قد دأبت منذ عشر سنوات على عقد مؤتمر دولى سنوى ، يستهدف تحسين عملية التدريس الجامعى ، ويدعى إليه كل الراغبين فى الاستفادة من نتائج الأبحاث والدراسات التى تعرض فيه ، وقد ألقى في المؤتمر العاشر الذى عقد في شهر مارس ١٩٨٤ مايقرب من (١٢٠) بحثا مختلفا ، شملت جميع جوانب العملية التدريسية الجامعية ، واحتوت على خبرات مايقرب من (٦٠) جامعة في هذا المضمار[٤٤] .

---

(٤٢) المرجع السابق .

(٤٣) المرجع السابق، ص ٦ـ٧ .

(٤٤) المرجع السابق، ص ٧ .

هذه هى تقريبا معظم الآراء التى تناولت مشكلة عدم تأهيل الغالبية العظمي من أساتذة الجامعات عندنا ، للعمل التدريسى الجامعى ، وهى مشكلة ذات جذور عميقة ليس على المستوى العربي فحسب ، بل على المستوى العالمي ، وينبغى الإقرار بها والاعتراف بنتائجها ، حيث أن الاعتراف والإقرار ـ مقدما ـ هما أول طريق للإصلاح .

وإذا كان عدد من الجامعات الأجنبية ـ كما رأينا من العرض السابق ، وخاصة فى انجلترا وأمريكا ، ومثلها فى عالمنا العربي ، وخاصة فى مصر والعراق ـ قد أولت هذا الموضوع عنايتها ، وبدأت فعلا في تدريب أعداد من أبنائها العلماء العاملين فى هيئات التدريس الجامعية ، إلا أننا لانستطيع الادعاء بأن النسبة الغالبة ، أوحتى نسبة معقولة من أعضاء هيئات التدريس فى جامعاتنا العربية ، قد مر أعضاؤها من خلال برامج الإعداد أو التدريب هذه .

إن لدينا عشرات الآلاف من أعضاء هيئات التدريس في جامعاتنا ومعظمهم يدرسون لطلابهم دون أن تكون لديهم أية خلفية عن طرق التدريس ولا عن استخدام تكنولوجيا التعليم الحديثة ، بل ولا عن الأساليب النفسية القائمة على العلم والتى ينبغى الإلمام بها قبل القيام بعلمية التدريس .

وإذا كنا قد ركزنا حديثنا على هذا الجانب ، جانب الإعداد المهنى ، لعضو هيئة التدريس ، فلأنه وكما سبق التوضيح ، يمثل مشكلة حقيقة في التدريس الجامعى وإذا كنا لم نمس جانب الإعداد العلمى لعضو هيئة التدريس فلأنه ـ فيما نعتقد ـ يأخذ حقه بشكل شبه تام عند إعداد الباحث لرسالتى الماجستير والدكتوراه ، ولذا فهو جانب لايحتاج لكثير بحث أو لإعادة نظر .

وبقى جانب آخر من جوانب إعداد عضو هيئة التدريس كى يمارس وظيفته الرئيسية الثالثة ، وهي وظيفة خدمة المجتمع . وهذا الجانب ـ فيما نعتقد ـ لم يمس من جانب أحد من الباحثين ، وذلك لأنه ميدان فسيح يتسع لجميع خدمات كل أعضاء هيئة التدريس . . كل في ميدان تخصصه ، ولعل هذا هو لذى جعله مجالا صعب التناول ، ولسوف نحاول أن نسبر غوره قدر استطاعتنا بعون الله .

وبعد هذا الاستعراض الذى ثبت من خلاله أن عضو هيئة التدريس في جامعاتنا العربية في حاجة ماسة للإعداد الجيد والمتقن ، خاصة في الجوانب التربوية ، وبالذات ونحن نتحدث عن عام ٢٠٠٠ الميلادى ، وعن ازدياد أعداد الطلاب الملتحقين بالتعليم الجامعى كما سبق بيانه فإننا سوف نحاول تقصى أنجح الوسائل والأساليب في ذلك الإعداد التربوى ، أخذا في الحسبان التحديات التى تواجه المجتمع العربي المسلم الآن ـ والتى ستستمر معه إلى عام ٢٠٠٠ الميلادى ، وما بعده ، كما سوف نقدم فكرة نعتقد في وجاهتها ، بخصوص إعداد هيئة التدريس لأداء وظيفته الثالثة ـ بعد البحث العلمى والتدريس ـ ألا وهي وظيفة خدمة المجتمع . وعلى الله قصد السبيل .

وإذا أردنا أن نعد عضو هيئة تدريس ، من نوعية ممتازة في جامعاتنا العربية ، فإننا ينبغى أن نبدأ السلم من أولى درجاته ، كما ينبغى علينا أن ندقق فى كل لبنة نضعها فى هذا البناء الذى نريد له أن يكون متين العمد قوى البناء وأعنى بذلك أن نبدأ فندقق فى اختيار المعيد . . . فهو الأساس .

أولا : اختيار المعيد :

إذ من المعروف ، في معظم جامعاتنا ، إن لم يكن فى كلها ، أننا حينما نختار معيدا فإننا نكون قد وضعنا بذرة ـ يرجى أن تكون طيبة ـ وذلك لإعداده ، كى يصبح ذات يوم ـ عضو هيئة تدريس يقوم بواجباته خير قيام ويحقق الآمال المعلقة عليه ، ومن الواضح أن مشروع تعيين «المعيد» وإعداده قد شغل الجميع على مستوى الجامعات ذاتها . . . إدارة وباحثين ، وعلى مستوى وزراء التعليم العالى أيضا ، ففي التقرير النهائي لأحدث لقاء لوزراء التعليم العالى والبحث العلمي في الوطن العربي نجدهم يتبنون فكرة مؤداها «أن يكون اختيار المعيدين من بين المتفوقين والنابهين الموصوفين بالنضج الفكرى والنفسى ، والولاء لعقيدة الأمة وقيمها وتراثها ، مع توافر رغبتهم فى اختيار مهنة التعليم الجامعى تدريسا وبحثا[٤٥] .

(٤٥) المؤتمر الثالث للوزراء المسؤولين عن التعليم العالى والبحث العلمى فى الوطن العربى، التقرير النهائى، بغداد ٩-١٢ صفر ١٤٠٦/ ٢٢-٢٦ أكتوبر ١٩٨٥، ص ١٩ .

كذلك طالب المؤتمرون فى هذا اللقاء الرفيع المستوى بأن يتم إعداد المعيدين والأساتذة المعينين من خارج الجامعة إعدادا تربويا من خلال مراكز ووحدات التدريب التى تستحدثها الجامعات لتأهيل أعضاء الهيئة التدريسية وفق مقررات مكثفة فى طرائق التدريس وأساليب التقوم التربوى والوسائل التعليمية . وكذلك عن طريق تنظيم حلقات تدريبية لتحديد وتكثيف خبرة المؤهلين علميا فى طرائق التدريس التي تقيمها الجامعات عبر الندوات المختصة بوسائل التدريب للأعداد الكبيرة[٤٦] .

ومن ناحية أخرى نجد أن الندوات العلمية التى عقدها اتحاد الجامعات العربية على مدى خمس عشرة سنة تؤكد على وضع المعايير المناسبة ، بجانب التفوق العلمى لاختيار المعيدين . . كالاختبار الشخصى ، وكذا تدريب المعيدين تربويا على وسائل التدريس حتى يمكن الاستفادة من قدراتهم عى الوجه الأكمل ووضع الطريقة المناسبة لمشاركة المدرسين المساعدين (المعيدين الحاصلين على درجة الماجستير) فى الأعباء التدريسية لحل مشكلة النقص فى أعضاء هيئة التدريس بالشكل الذى يحافظ على المستوى العلمى المطلوب[٤٧] .

هذا وإننا نؤيد بشدة فكرة عقد المقابلة الشخصية لخريجي الجامعات المرشحين للعمل معيدين ، إننا لا ينبغي ـ مطلقا ـ أن نعتمد على الدرجات التى حصل عليها هؤلاء ، إنها مؤشر هام بالفعل ، ولكنها لاتكفى وحدها للحكم على شخصية أستاذ المستقبل فهناك الكثير من النواحى في شخصية المرشح ينبغى سبر غورها ومعرفتها والتأكد منها . وقد فصل أحد الباحثين ذلك قائلا . إن اللياقة البدنية ـ للمعيد ـ أمر هام ، ذلك أن ثقيل السمع ، أو ضعيف البصر ، أو المصاب بعاهة ، قد لايكون من السهل عليه القيام بالتعليم ـ ناهيك التعليم فى الجامعة . . . وأما الشروط العقلية والنفسية فتبدأ باتزان الشخصية ، وحسن التفكير والتقدير ، وتنتهى بالذكاء المناسب وإمكانية التكيف [٤٨] .

---

(٤٦) المرجع السابق .

(٤٧) توصيات الندوات العلمية التى عقدها اتحاد الجامعات العربية خلال الفترة ١٩٧١ـ ١٩٨٦م الموافق ١٣٩١هـ ـ ١٤٠٧هـ ، اتحاد الجامعات العربية الأمانة العامة : عمان، ص ص ٤١-٤٢ .

(٤٨) فاخر عاقل : انتقاء المعيد وتعيينه وتأهيله، وثيقة رقم ٢ (ضمن وثائق المؤتمر الثالث للوزراء المؤولين عن التعليم العالى والبحث العلمى فى الوطن العربي، بغداد ٩ـ١٣ صفر ١٤٠٦هـ/ ٢٢ـ٢٥ أكتوبر ١٩٨٦م، ص٢ .

وأما الشروط الثقافية فهى خلفية لازمة ، وإن كانت غير كافية للعمل فى الجامعة وكم من أستاذ جامعى عارف باختصاصه ، جاهل بمقومات الثقافة والمثقفين ، مما يجعل عمله الجامعى محدودا ضيق الأفق قليل الجدوى .

وأما الشروط الاجتماعية فتتجلى فى قدرة الموفد (المعيد حين يوفد للدراسة بالخارج) على التكيف ، ولاسيما مع محيطه الجديد ، وظروفه الطارئة ، ذلك التكيف الذى يستحيل على من كانت ظروفه الاجتماعية ومقدراته الاجتماعية فقيرة ضحلة ، ويضاف إلى هذا كله وقبل هذا كله ، شرطان أساسيان هما : التمكن من مادة الاختصاص الموفد إليه ، والعلوم المساعدة لها ، واتقان (ولا أقول معرفة) اللغة التى سيدرس بها[٤٩] .

هذا ومن جانب آخر يؤكد أحد الباحثين على خطورة وظيفة المعيد ، لأنه هو البذرة التى نغرسها ، وننتظر بعد ذلك أن تثمر ثمرا طيبا ، أى أستاذا جامعيا جيدا أو ممتازا ، وهو لذلك يقترح ألا ننتظر في اختيارنا للمعيد حتى يتخرج من المرحلة الجامعية بتقدير ممتاز أو «جيدا جدا» ، وإنما يطالب بأن يكشف عن الطلاب الممتازين منذ دخولهم الجامعة . . طلابا ، ثم يتعهدون بالعناية والتوجيه بعد ذلك[٥٠] .

كما يؤكد على الخطورة ذاتها ـ خطورة المعيد ـ حسن تيم . حيث يقول بأن مرحلة اختيار المعيد تعتبر من أخطر مراحل إعداد المدرس فى جامعاتنا ، نظرا لغياب الإعداد التخصصى لطالب الدراسات العليا كمتطلب للتخرج فى معظم جامعات العالم ، وكذلك فإن عملية اختيار أستاذ المستقبل يجب أن ينظر إليها بنفس الخطورة إذ عليها يعتمد الأمل فى مستوى جامعى متفوق[٥١] .

وبجانب التفوق المفترض فى التخصص العلمي ، الذى ينبغى أن يكون عليه المعيد عند اختياره ، ينبغى أن ينظر إلى أمور أخرى مثل ميل الخريج واستعداده

---

(٤٩) المرجع السابق .

(٥٠) أحمد عبد الرحمن ابراهيم : معايير اختيار المعيدين، ضمن بحوث ندوة عضو هيئة التدريس فى الجامعات العربية ـ جامعة الملك سعود، ١٤-١٧/٥/١٤٠٣ ٢/٢٧ ـ ٢/٣/١٩٨٣، الرياض ص ص ١-١٤ .

(٥١) حسن أحمد تيم : عضو هيئة التدريس فى الجامعات السعودية . . اختيار ص ص ١-١٤ .

الفطرى للعمل الجامعى (التدريس والبحث وخدمة المجتمع) وهذه أمور قد يصعب قياسها ولكنها يمكن أن تلمس من خلال المقابلة الشخصية التى تجريها لجان اختيار المرشحين لوظائف المعيدين[٥٢] .

ثانيا : إعداد المعيد :

فإذا ما انتهينا من اختيار المعيد ، حسب المواصفات التى يعتقد أنها تدخل إلى الجامعة أفضل العناصر من خريجيها ـ فى مرحلة الدراسات العليا . إذا تم ذلك أصبحنا مواجهين بما ينبغي علينا أن نفعله مع هذه الطائفة من الخريجين الذين انضموا للأقسام العلمية للعمل معيدين بها .

والسياسة العامة المتبعة فى معظم جامعاتنا إن لم يكن فى كلها ، هى أن المعيد يمكث فترة من الوقت ، قد تطول وقد تقصر ، حسب إمكانات القسم ، وحسب السياسة المتبعة فيه ، حتى يستقر على التخصص الدقيق الذى سيتجه إليه ، وبعض الجامعات تيسر لمعيديها الالتحاق بالسنة التأهيلية أو السنة المنهجية ، وهي عام دراسى يدرسه فى مناهج البحث خاصة وعدد من الدراسات المتعمقة التى تؤهله لولوج باب الدراسات العليا ، وهي فى الأعم الأغلب دراسات أكاديمية لاتختلف عما درسه قبل ذلك إلا من حيث العمق والتركيز .

بعد النجاح فى هذا البرنامج يمر المعيد بمرحلة صعبة بعض الشيء وهى مرحلة الاستقرار على اختيار موضوع لدراسة الماجستير والاتفاق مع أحد الأساتذة بالقسم العلمي الذى يتبعه للإشراف عليه ، هذا إذا لم يبتعث المعيد للدراسة بالخارج . أما إذا ابتعث للخارج ، وغالبا ما يحدث هذا فى الجامعات الحديثة النشأة والتى لم تتكون بها الهيئة العلمية القادرة على الإشراف العلمي بعد ، فإن إشراف القسم العلمي والكلية والجامعة يسقط تماما عن المعيد ، ولايبقى لها تأثير علمي عليه على الاطلاق . حيث تتولى ذلك جامعة أخرى . . أجنبية ، في مجتمع أجنبى ، وبالتالى فإن تشكيل عضو هيئة التدريس ، فى هذه الحالة لانملك حياله شيئا ولكن القسم العلمي يفاجأ بمن يعودون من الخارج بعد عدد من السنين ، وقد يكونون على

(٥٢) المرجع السابق .

المستوى المطلوب وقد لا يكونون ، وقد يكون فكرهم طيبا ومتمشيا مع اتجاهات مجتمعاتهم ومعتقداتها . . وقد لايكون ، وهنا وجه الخطر ، ويستثنى من ذلك بعض الجامعات التى تتبنى فكرة الإشراف المشترك على مبتعثيها بحيث تعرف الموضوعات التى يسجلونها خاصة لدرجات الدكتوراه ، وهل تخدم حاجة جامعاتهم ومجتمعاتهم أم لا .

هذا ويضيف بعض الباحثين «المحاضرين» أو المدرسين المساعدين «إلى قائمة المعيدين ، وذلك لأنهم لازالوا فى مرحلة الإعداد العلمي ليكونوا أعضاء فى هيئة التدريس الجامعية ، وكل ما هنالك أنهم حصلوا على درجة الماجستير ، وأنهم فى طريقهم للتسجيل لدرجة الدكتوراه ، وحتى بعد تسجيلها فإنهم لايزالون تحت أو ضمن هذه القائمة . . . وهم مثلهم فى ذلك مثل المعيدين ، قد يبتعثون للدراسة بالخارج إذا لم تتوفر فرص تسجيلهم فى الداخل ، وهم بذلك يقعون تحت سيطرة الجامعات الأجنبية ومجتمعاتها بكل ما فيها .

الفرق الواضح بين المعيد والمحاضر أو المدرس المساعد ، هو أن الأخير يعهد إليه ـ غالبا ـ بالمساعدة فى التدريس وتصحيح أوراق الطلاب، فهو بذلك يكتسب خبرة مبكرة تفيده فى عمله فى المستقبل ، بل إن بعض الأساتذة ، خاصة فى الجامعات ذات الأعداد الكبيرة فى عالمنا العربى ، يستعينون بالمعيدين فور انضمامهم للأقسام العلمية ، للمساعدة فى التدريس وتصحيح الامتحانات ، وذلك على الرغم من أنهم يكونون حديثين جدا فى هذا المجال ، وقد تكون نسبة كبيرة منهم لم تنضج النضج الكافى للوقوف أمام طلاب الجامعة والذين كانوا حتى الأمس القريب زملاء لهم وقد يشرف بعضهم على بعض الحصص العملية فى الكليات العملية ، أو قد يساعد فى مراجعة مواضيع المحاضرات مع الطلاب والتوسع فى حل تطبيقات تلك المحاضرات[٥٣] .

ونظرا لأهمية فترة «المعيدية» هذه فى مستقبل المعيد حينما يصبح عضو هيئة تدريس ، يقترح البعض أن تشترط الجامعات شرطا مؤداه ألا يبتعث معيد للخارج

(٥٣) حسن أحمد تيم، مرجع سابق، ص ٤ .

إلا بعد أن يقضى فترة مدتها سنة أو سنتان ، يعمل فيها معيدا ، وذلك نظرا للاستفادة والتدريب التى يحصل عليها المعيد من عمله ، خاصة إذا كان فى كلية عملية وعهد إليه الإشراف على بعض المعامل والمختبرات[٥٤] .

وإذا كان الكثيرون يركزون الآن على إعداد عضو هيئة التدريس ـ تربويا ـ بعد حصوله على الدكتوراه ، حتى إن بعض الجامعات العربية قد استحدثت برامج خاصة لهذه الإعداد ، ومن أبرزها برامج جامعة القاهرة ، تلك التى بدأت منذ عام (١٣٩٤هـ) ١٩٧٤م ، ولازالت مستمرة إلى الآن ، إلا أننا نرى أن أنسب الفترات للإعداد العلمي . . ولخدمة المجتمع ، هي فترة المعيدية سواء كان الشخص معيدا أو محاضرا ، وذلك للأسباب الآتية .

اولا : عدم حماس كثير من أعضاء هيئة التدريس الذين حصلول على الدكتوراه ، سواء من الداخل أو الخارج ، حين طلب منهم أن يجلسوا فى مقاعد الطلاب . . . مرة ثانية ولذلك نجد أن هذه العملية تتم بحكم القانون ، كما هو الحال فى مصر حين غير قانون الجامعات المصرية لينص على ضرورة الالتحاق بهذه الدورات التدريبية لأعضاء هيئات التدريس، ولقد صدر هذا القانون عام (١٣٩١هـ)[٥٥] ١٩٧١م ولا تتم برغبة داخلية من أعضاء هيئة التدريس أنفسهم ، ولا ندرى مدى إقبالهم عليها ـ حقا ـ لو أنها تركت لاختيارهم .

ثانيا : نظرا لتزايد أعداد طلاب الجامعات بشكل واضح ، في العالم العربي ، فإن أعداد أعضاء الهيئة التدريسية غير كافية للقيام بالأعباء التدريسية المطلوبة منهم ، وهذا الأمر يؤثر على نوعية التدريس الجامعى ذاته ، وليس أدل على ذلك من أن البرامج المصرية التى أعدت لتأهيل أعضاء هيئات التدريس قد أعيد النظر فيها واختصر زمنها من ستة شهور إلى ثلاثة شهور فقط .

ثالثا : لا نتصور أن دورة تدريبية واحدة سواء كانت مدتها ثلاثة شهور أو حتى

---

(٥٤) المرجع السابق، ص٥ .

(٥٥) موفق حيادى على، مرجع سابق ص ٨٦ .

ستة شهور تعتبر كافية كى يتعلم فيها عضو هيئة التدريس كل شىء يختص بالإعداد التربوى من مقررات أساسية في التربية وطرق التدريس وعلم النفس وتكنولوجيا التعليم المتجددة والمتغيرة كل حين ، وإلا كنا نهتم بالجانب الشكلى من العملية حتى يقال إنهم مروا في خبرات تربوية طيبة وإنهم أعدوا تربويا .

رابعا : يحتاج الذين يحضرون هذه الدورات إلى جانب مهم فيها ، وهو التطبيق العملي الفعلى لما درسوه نظريا ، بحيث يدخلون إلى الطلاب ويواجهونهم بالجديد الذى تعلموه ، ثم إنهم يحتاجون أيضا إلى الجلوس في حلقات علمية (سيمينارات) يناقشون فيها مع من درسوا لهم ، ومع أنفسهم أيضا ـ نتائج ما قاموا به وآثاره على العملية التدريسية وعلى الطلاب أيضا .

خامسا : ينبغى الانتباه جيدا إلى أن هذه الدورات مهمة فقط بجانب الإعداد التربوى لأعضاء هيئة التدريس وليس بأى شىء آخر . فإذا سلمنا بأن عضو هيئة التدريس يكون طيب الإعداد في النواحي العلمية التخصصية ، على أساس الدرجة العلمية الرفيعة التي يحملها ، إلا أننا ينبغى ألا ننسى أن هناك جوانب أخرى مهمة تنقصه مثل خدمة المجتمع في المجال الذى تخصص فيه ، أو المجالات القريبة الصلة من هذا التخصص ، والتى يمكنه أن يفيد المجتمع من خلالها ، ومثل ربط بحوثه العلمية ، أثناء عمله بمشكلات المجتمع الذى يوجه فيه .

لكل ما سبق فإننا نتصور أن الفترة الزمنية الملائمة لإعداد عضو هيئة التدريس ، للقيام بواجباته هى الفترة التي يكون فيها معيدا أو محاضرا (أو مدرسا مساعدا) وذلك لأنه خلال هذه الفترة يكون قابلا للتشكيل الذى تتطلبه وظيفته في الجامعة ، ومن ناحية أخرى يكون لديه الوقت الكافي ، قبل أن ترهقه المحاضرات ، والمحاضرات الزائدة بالإضافة إلى الإشراف على الرسائل ، والعمل في اللجان العلمية أو تحمل بعض الأعباء الإدارية ، علاوة على الانشغال في بعض الكتابات للصحف أو الاذاعة أو غيرها .

برنامج مقتـــرح

كما سبق القول بأن إعداد المعيد (والمحاضر أو المدرس المساعد) هو حجر الأساس في إعداد عضو هيئة التدريس ، وبناء على الأسباب السابقة التى تؤيد فكرة الاهتمام بالمعيد في مراحل تكوينه الأولى فإننا نقترح برنامجا نرجو أن يكون متكاملاً ، لإعداد المعيد والذى يصل بنا في النهاية إلى تخريج عضو هيئة تدريس تتكامل عنده الخبرات التى نتصور أنها تنقص عضو هيئة التدريس بصورته الحالية ، وسوف نركز فى هذا البرنامج ، على عدة ميادين مهمة هى : الإعداد اللغوى ، الإعداد التربوى ، الإعداد الثقافي ، الإعداد لخدمة المجتمع . . مع ملاحظة أننا لن نتعرض فى هذا البرنامج للإعداد العلمي والذى افترض مسبقا أنه لا نقص فيه ولا مشكلة ، وإلى شيء من التفصيل .

أولا : في مجال الإعداد اللغوى :

يعتبر إتقان اللغة شرطا أساسيا من شروط أستاذ الجامعة الممتاز وإذا كنا نتحدث عن ضرورة إتقان عضو هيئة التدريس لإحدى اللغات الأساسية الأجنبية ، والتى هى لغة أهل العلم ، والتى لايخلو مؤتمر من المؤتمرات العلمية ، أو ندوة من ندواتها من بحث مكتوب بها ، أو متحدث بها ، إذا كنا نؤكد على ذلك فإن الاهتمام باللغة العربية . . . لغة القرآن الكريم يعتبر مطلبا أساسيا وشرطا لابد من الوفاء به للعمل في هيئة التدريس الجامعية العربية .

وقد يرد البعض على ذلك بأن جميع الأساتذة العرب . . اساتذة الجامعات يعرفون اللغة العربية ، ونحن هنا لا نتحدث عن مجرد معرفة ، ولكنا نتحدث عن إتقان من مستوى معين ، فالأستاذ الذى يقف أمام طلابه ليتحدث إليهم باللغة العامية ناقص الإعداد بلا شك ، والأستاذ الذى يكتب كتابا أو مذكرة ، أو يعد بحثاً به الكثير من الأخطاء في لغته الأم . . إعداده ناقص دون مراء . إن اتقان اللغة إتقانا حقيقياً شرط أساسى من شروط التوصيل الجيد للمعرفة إلى الطلاب ، إن الجامعات الأجنبية

لا تتساهل مع الطلاب الأجانب الذين يلتحقون بها ، في موضوع اللغة هذا . لغتهم هم ، فما بالنا نحن بإتقان أبنائنا للغتنا نحن . . ؟؟ إن قدرة عضو هيئة التدريس الجامعي على توصيل المعلومات والحقائق إلى طلابه أمر ليس فيه نقاش[٥٦] ولن يستطيع أستاذ غير متمكن من لغته ولغة طلابه ـ في الوقت نفسه أن يقوم بهذه المهمة بالنجاح المطلوب .

وإذا كان بعض الباحثين قد بلغ بهم الحماس والاهتمام باتقان اللغة الأجنبية من جانب عضو هيئة التدريس في جامعاتنا العربية أن طالبوا بتيسير التفرغ اللغوى لأعضاء الهيئات التدريسية المتخرجين فى الجامعات العربية لتمكينهم من تعلم لغة أجنبية حتى تعينهم على التوسع العلمي في حقل الاختصاص[٥٧] . . فإننا نؤكد من جانبنا على إتقان اللغة العربية أولا ، لأنها هى الأساس . . وإذا لم تكن كذلك بالنسبة لبعض الكليات العلمية التى لم تحقق هدف التعريب بعد ، فينبغى أن تكون وفى أسرع وقت ممكن .

هذا ويؤكد بعض الباحثين على أن عدم الاهتمام بالتعريب يؤدى بنا إلى تبعية ثقافية وعلمية ، لافكاك منها ، في جامعاتنا العربية ، فمعظم بلاد العالم تدرس فى جامعاتها بلغاتها القومية ، ويستثنى من ذلك قلة من الشعوب ، ونحن للأسف الشديد ـ من هذه القلة المستثناة ـ إذ الواضح أن مشكلة تعريب التعليم الجامعي من المشكلات التى تكاد تنفرد بها الجامعات العربية ، وذلك أنه باستثناء بعض الدول الإفريقية ، جنوب الصحراء التى خضعت للاستعمار ، وبعض الدول التى كثرت فيها اللغات المحلية بحيث لاتوجد لها لغة قومية جامعة كالهند ، فإن التعليم الجامعى فى بلاد العالم يتم باللغة القومية ، فهو في بريطانيا والولايات واستراليا بالانجليزية وفى الصين باللغة الصينية ، وفي الاتحاد السوفييتى يتم بلغة كل شعب وقوميته ، بل إن مقاطعة كوبيك

(٥٦) حامد عبد المقصود، عبد الله الفيصل الشهرى : وسائل وأساليب الإعداد التخصصى والتربوى لعضو هيئة التدريس بالجامعة (ندوة عضو هيئة التدريس فى الجامعات العربية) مرجع سابق، ص٢ .

(٥٧) تقرير اللجنة الفرعية الثانية المكلفة بدارسة البند الثامن من جدول الأعمال بشأن الهيئة التدريسية فى الجاعات العربية، مؤتمر وزراء التعليم العالى والبحث العلمى، مرجع سابق، ص٦ .

فى كندا سنت تشريعا عام (١٣٩٧هـ) ١٩٧٧ يجعل لغة التعليم بكل أشكاله اللغة الفـرنسية (وهي اللغة القومية لسكان المقاطعة) حماية لجامعاتها من سيطرة الأغلبية الانجليزية . أما في الوطن العربي ، فإن قضية التدريس باللغة العربية فى الجامعات مازالت قضية إشكالية مطروحة ، ويكفي أن نشير إلى المناقشات التى دارت في مؤتمر تعريب التعليم العالى فى الوطن العربي المنعقد فى بغداد عام (١٣٩٨هـ) ١٩٧٨م ، وندوة التعريب وقضايا اللغة العربية في التعليم الجامعى المنعقد في الخرطوم في يناير ١٩٧٩م (١٣٩٩هـ) لنتبين أن قضية التدريس والبحث باللغة العربية في جامعات الوطن العربي هى أحد مظاهر التبعية الثقافية العلمية للجامعات العربية[٥٨] .

ويؤيد باحث آخر موضوع التأهيل الداخلي ـ العربى ـ لهيئة التدريس فى جامعاتنا حين يبين أن التركيز على الابتعاث يؤدي إلى : فقدان السمة الثقافية العربية المتميزة في تأهيل عضو هيئة التدريس بالجامعات الأجنبية ، كما يؤدي إلى عدم تمكن عضو هيئة التدريس المؤهل في الجامعات الأجنبية من اللغة العربية في التدريس[٥٩] .

ولعـل هذا هو الـذى دفـع محي الـدين صابر إلى القول بأن الناس ـ في بعض المجتمعـات النـامية ـ قد يجدون بعض العـذر ، فى أن تكـون لغة التعليم لديهم مشكلة ، ولكن هذا العـذر يضيق في مجتمع كالمجتمع العربي ، يملك لغة علمية قادرة تملك تراثا فكريا موصولا ، لم يكد يتيسر لأمة تاريخية أو معاصرة . . . ذلك في الـوقت الذي نجد فيه دولا أوروبية صغيرة الحجم استطاعت أن تستوعب في لغاتها الضيقة العلم الحديث ، وأن تعلم بها وأن تبحث بها ، وأن تنتج فيها[٦٠] .

وفي مكان آخر يقول هو نفسه بأن الأمة العربية ذات تاريخ عريق ، في التعليم العـالي والبحث العلمي ، ذات ريادة متميزة في مؤسسـاتهـا ، فإن الجامعات التي

(٥٨) محمد السيد سليم، الجامعات العربية وظاهرة التبعية العلمية، المستقبل العربى، العدد رقم ٤٥، يونيو ١٩٨٢، ص٩٨ .

(٥٩) عبد الله بربطانه مرجع سابق، ص ١٥٦ .

(٦٠) محيى الدين صاب : دور التعليم العالى فى تنمية الذاتية الثقافية «التقرير النهائى للمؤتمر الأول لوزراء التعليم العالى فى الوطن العرب، الجزائر مايو ١٩٨١، ١٣٤ .

أنشأها العرب في جنوب أوربا ، والتى خرّجت المثقفين والعلماء الأوروبيين ، كانت من العوامل الأساسية في تفجير نهضة أوروبا ، وكانت الريادة العربية حقيقة تاريخية بارزة فى تاريخ الجامعات الأوروبية الأولى ، فكانت صورة من الجامعات العربية في تنظيمها ومناهجها ولغتها ، وكانت اللغة العربية هي لغة التدريس فيها ، وكان الحوار القائم في الوطن العربي حول تعريب التعليم الجامعى قائما مثله ، ولكن بطريقة عكسية فى أوروبا في ذلك العصر ، فقد كان الأساتذة الذين تعلموا فى الجامعات العربية في أسبانيا وإيطاليا يرون أن العربية هي لغة العلوم ، وأنها لذلك لغة التعليم الجامعى ، وكما حسمت القضية بانتصار اللغات القومية هناك ، فسوف تحسم أيضا في الوطن العربي ، في مصلحة اللغة القومية[٦١].

لكل هذا نعود فنؤكد على الاهتمام بتعلم وإتقان اللغة العربية ، من جانب المعيدين والمحاضرين (المدرسين المساعدين) في فترة الإعداد هذه التي تسبق حصولهم على الدكتوراه ، وذلك حتى نخرج كفاءات متمكنة يستطيع أصحابها أن يدرسوا جميع العلوم بلغة عربية سليمة ، كما يكونون متمكنين من لغتهم الأم تمكنا يجعلهم يوصلون مايريدون لطلابهم دون لبس أو غموض .

ومن جانب آخر فإننا ـ في هذا المجال ـ نؤكد على أهمية دراسة إحدى اللغات الأجنبية المشهورة في مجال العلم والعلوم ، وهى فى الأعم الأغلب اللغة الإنجليزية ، وسببنا فى ذلك أن أستاذ الجامعة لابد أن يكون متمكنا من لغة العلم الحديث بحيث يستطيع أن يقرأ الجديد وأن يستوعبه ، بل وأن يترجمه ، وينقله إلى طلابه ، حتى لانتخلف عن عالم المتقدمين .

إننا إذا كنا نتحدث كثيرا عن قضية التعريب في التعليم العالى ، ونعقد المؤتمرات ، وتقيم الندوات ، بل ونطالب بوضع خطة متكاملة للتعريب تصبح بموجبها اللغة العربية لغة المعرفة الأساسية[٦٢] ، فإننا لايمكن أن نحقق ذلك إلا من خلال طائفة

(٦١) من كلمة د. محيى الدين صابر أمام المؤتمر الثالث لوزراء المسؤولين عن التعليم العالى والبحث العلمى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، ملحق (٤) ص ٤ .

(٦٢) هشام أبو قمرة : دور التعليم فى تنمية الذات العربية ، المستقبل العربي ، العدد ٤٠ ، يونيو ١٩٨٢م ، ص ١١٧ .

متمكنة من أبناء الجامعات العربية الذين يمكنهم أن يقوموا بهذا الواجب إذا أعدوا إعداداً ممتازا في مجال اللغة الأجنبية ، ولن يتم ذلك إلا إذا أخذنا أنفسنا بالحزم والعزم منذ الخطوات الأولى لإعداد عضو هيئة التدريس .

وفي الندوة الثالثة لرؤساء ومديرى الجامعات الخليجية ، نجد أنهم يعطون هذا الجانب مايستحق من اهتمام ، حتى أنهم قد حددوا نسبة ينبغى ألا يقل عنها عدد من يعرفون اللغات الأجنبية في كل قسم علمي فهم يقولون إن «الحكمة ضالة المؤمن» والمعرفة لاتعرف وطنا ، وهى نتاج مشترك بين أبناء البشرية ، لذلك فإن من يسهم في إشاعتها وتطويرها لابد وأن يحيط بلغة أخرى غير لغة الأم تمكنه من الوقوف على الجديد ، وإسهامات العلماء في مجال تخصصه من البلدان الأخرى ، وعليه فإن نسبة لاتقل عن (٨٠٪) من أعضاء هيئة التدريس في القسم الواحد ينبغى أن يجيدوا واحدة من اللغات المشهورة بوفرة الإنتاج العلمي والثقافي مثل : الإنجليزية أو الفرنسية[٦٣] .

ثانيا : في مجال الإعداد التربوى :

وهـذا المجـال من أهم المجـالات التى تستحق العنـاية الكـبرى ، من جانب الجامعات العربية ، خاصة وهى تريد تحسين نوعية التعليم المقدم من أعضاء هيئات التدريس بها . ولقد أكد على هذا الجانب بشدة التقرير النهائي الذى صدر عن المؤتمر الأول للوزراء المسؤولين عن التعليم العالى في الوطن العربي ، حيث نادى بـ «إعطاء الأولوية الكبرى للتكوين العلمي لأعضاء هيئات التدريس بالجامعات ومؤسسات التعليم العـالى . . بوضـع الخطط وتنظيم البرامج القصيرة المناسبة للإعداد المهني

حول قضية التعريب هذه، راجع أيضا بحث الدكتور سلطان الشاوى، تعريب التعليم العالى «مشكلات ومقـترحـات» مجلة اتحـاد الجـامعات العربية، العدد ١٨ جمادى الثانية ١٤٠٢هـ/ أبريل ١٩٨٢، ص ص ١٣-٢٩، خاصة وقد قدم الباحث تفصيلا مايجب أن يدرسه عضو هيئة التدريس فى اللغة العربية عند إعداده .

(٦٣) التقويم الذاتى ، الاعتماد الأكاديمى والمهنى لجامعات الدول الأعضاء بالمكتب الندوة الفكرية الثالثة لرؤساء ومديرى الجامعات : الدول الأعضاء بمكتب التربية العربى لدول الخليج، بغداد ٢٠-٢٢ شعبان ١٤٠٧هـ، ١٨-٢٠أبريل ١٩٨٧، ص٤١ .

التربوى لأعضاء هيئة التدريس الجامعى والتعليم العالى ، إحكاما لمقومات التدريس الناجح ، والمتفاعل المثمر بين الأساتذة والطلاب في العملية التعليمية[٦٤] . ويقترح أن تشتمل برامج الإعداد المهنى التربوى على دراسات نظرية تطبيقية في مجالات أسس التعليم ومبادئه ، وخصائص المتعلم فى المستوى الجامعي ، وأهداف التعليم العالى وسياساته ، وقواعد التدريس وطرائقه وتقنياته ، ومبادىء التقويم والقياس وتطبيقاتها في نظم التعليم العالى[٦٥] .

ويؤكد واحد من الباحثين العرب على النواحي السابقة . . كلها ، ويضيف إليها دراسة طرق الامتحانات والتقويم على المستوى الجامعى ، وكذا طرق التعامل مع الطلاب ووسائل إرشادهم ، وأسس التعليم الجامعى وفلسفته وأهدافه، وعلم النفس التربوى . . . الخ[٦٦] .

وفي الوقت ذاته يحدثنا باحثان آخران عن عضو هيئة التدريس الذى ينبغى أن يكون مصدرا للمعرفة ، وأن يعمل على زيادة رصيده العلمى دوما وباستمرار ، بحيث تكون معرفته متجددة ، «ملاحقا لكل جديد ، متطورا في فروع تخصصه ، كما ينبغى أن يكون قادرا على توصيل المعلومات والحقائق لطلابه ، مدركا لعقولهم ومستويات التقبل لديهم . عالما بخصائص هذه المرحلة من العمر ومتطلبات الحياة وحاجات الأفراد فيها ، متخذا من الطرق والوسائل مايؤدي إلى أن يكون مردود العملية التعليمية أكبر من حيث نوعية الطالب المتخرج ، ومستوى الخدمة التى يقدمها للمجتمع[٦٧] وبالإضافة إلى ماسبق يتبنى عدد من الباحثين ، ومن بينهم «قاضى» فكرة مؤداها أن يدرس عضو هيئة التدريس شيئا عن الإرشاد الأكاديمي والتوجيه والإرشاد خاصة وأن عددا لايستهان به من أساتذة الجامعات عندنا لايعرفون

(٦٤) التقرير النهائى للمؤتمر الأول للوزراء المسؤولين عن التعليم العالى فى الوطن العربى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزائر ١٤-١٩ مايو ١٩٨١، ص٢٢ .

(٦٥) المرجع السابق .

(٦٦) عبد الرحمن عدس، مرجع سابق، ص٧ .

(٦٧) حامد عبد المقصود، عبد الله الفيصل الشهرى، مرجع سابق، ص٣ .

شيئا عن هذا المجال ، على الرغم من أنه يعهد إليهم به[٦٨] ومؤكدا على جانب طرق التدريس يقول الباحث السابق «وفي الوقت نفسه يجب أن يكون ـ عضو هيئة التدريس قادرا على ربط مايمكن ربطه من موضوع مادته بحقول وتجارب أخرى، كما يجب أن تكون أساليب عرضه فعّالة لجعل الطالب شغوفا أيضا بالمواجهة المباشرة للعناصر الأساسية التى بنى عليها موضوع المادة دون اكتفاء بحدود المنهج المرسومة[٦٩] .

ويؤيد عبد الموجود فكرة الاهتمام بعضو هيئة التدريس ، منذ مراحل إعداده الأولى ، أى في مرحلة الدراسات العليا (المعيد والمحاضر أو المدرس المساعد) فيقول : إن تطوير الدراسات العليا هو مفتاح تطور التعليم العالى بصفة عامة ، وذلك للعلاقة الوثيقة بين الدراسات العليا وإعداد هيئات البحث والتدريس . . كما يؤكد على أن الدراسات العليا عملية تربوية متكاملة هدفها تنمية الإنسان فكرا ومهارة واتجاها .

كذلك يطالب الباحث السابق بتنظيم حلقات تدريبية عن طريق التدريس في الجامعات ، وعقد ندوات عن بحوث التدريس الجامعي ، ووسائل التدريس للأعداد الكبيرة ، بالإضافة إلى إنشاء وحدات للتدريس الجامعي ، في كل جامعة ، تكون مستقلة أوملحقة بكليات التربية ، ويكون هدفها تطوير النشاطات التدريسية ، خاصة نظم الامتحانات ونظم القبول والالتحاق واستخدام الاختبارات النفسية في عملية التوجيه والإرشاد المهنى للطلاب ، كذلك يطالب بتقويم النشاط التدريسي لعضو هيئة التدريس واحتساب نتيجة هذا التقويم في نظم الحوافز والترقيات ، شأنه في ذلك شأن البحوث ونشاطات الخدمة العامة[٧١] .

(٦٨) صبحى عبد الحفيظ قاضى، مرجع سابق، ص ١٠٥ .

(٦٩) المرجع السابق، ص ١٠٦ .

(٧٠) محمد عزت عبد الموجود، الدراسات العليا: طبيعتها وادارتها، مجلة اتحاد الجامعات العربية، العدد ١٩، ١٤٠٣/١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣/١٩٨٤ ص ص ٥٩ـ٦٠ .

(٧١) المرجع السابق، ص٩٤ .

ويوضح عبد الموجود الفرق بين مهارات التدريس ومهارات البحث ، حيث أن الأولى تتعلق بالتعامل مع البشر ، بينما تتعلق الثانية بالتعامل مع الأشياء ، لذلك ، كما يقول ، لايجوز استعمال مصطلحات التدريس والبحث استعمالا تبادليا ، وبالتالي فعندما تقدم المؤسسات التعليمية برنامجا لإعداد باحثين فإن ذلك لا يؤدي إلى إعداد مدرسين والعكس صحيح ، ومن الأهمية بمكان أن يحدث توازن حقيقي بين الجهود الموجهة للتدريب على التدريس والجهود الموجهة للتدريب على البحث ، خاصة إذا كان البحث والتدريس معا من وظائف تلك المؤسسات[٧٢] .

هذا ويعتبر التدريس الجامعى إلى وقتنا الحاضر «أسطورة غامضة» حسب رأى الباحث ، أو «سرا خاصا» بأصحاب الأبراج العاجية ، فيتصورن خطأ أن :

أ ـ البحث هو أهم وظائف الجامعة .

ب ـ الحصول على الدرجة الجامعية الأعلى (الدكتوراه) يعنى «كفاءة المعلم» وقدرته على التدريس .

جـ ـ التدريس «هواية» وليس «صنعة» ولذلك يجب أن لانجبر المدرس الجامعي على الالتزام بطرق تدريبية معينة .

د ـ التدريس الجامعى يجب أن لايتقيد بأساليب معينة ، انطلاقا من مفهوم الحرية الأكاديمية Academic freedom ، والحرية الأكاديمية لاتعنى التحفظ في الأساليب أو الفوضى في التفكير .

هـ ـ علم النفس التعليمي وطرق التدريس والوسائل التعليمية وغيرها من العلوم التربوية هى مواد يحتاج إليها تعليم الصغار ، من تلاميذ المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية ، أما المدرس العالى فهو يدرس لطلاب راشدين ، وليس في حاجة إلى مثل هذا الإعداد التربوى ، وإذا حدث ذلك فإن الجامعات تفقد «هيبتها» وتصبح مؤسسات تعليمية في مرتبة مدارس التعليم العام .

(٧٢) عزت عبد الموجود : التعليم العالى وإعداد هيئة التدريس ، المجلة العربية للتربية ، المجلد الثانى ، العدد الثانى ، سبتمبر ١٩٨٢ ، ص ٦٨ .

لقد سادت هذه المفاهيم الخاطئة عن التدريس وأهمية الإعداد له بين الكثيرين من رجال الجامعات إلى أن وضح للمجتمع الثقافي في أغلبية دول العالم مدى قصور طرق التدريس في الجامعات وتخلفها عن البحث والتطبيق التربوى الحديث ، ومن نتائج هذا القصور تسرب الكثير من طلاب الجامعات قبل استكمال دراساتهم ، وشيوع ظاهرة الرسوب ، كذلك الشكوى من ضعف مستوى الخريجين وعدم كفايتهم الإنتاجية في وحدات الانتاج المختلفة خاصة في المجالات المهنية كالهندسة والطب ، ونتيجة لهذا الضغط الاجتماعي بدأ العديد من رؤساء الجامعات يعترفون بتقاعس الجامعات عن وظيفتها التدريسية وينادون بضرورة إعداد وتدريب المدرس الجامعى على طرق التدريس ووسائله ، قبل أن ينضم إلى هيئة التدريس الجامعية[٧٣] .

ومثله مثل عدد آخر من الباحثين العرب ، في هذا المجال ، أورد لنا الباحث شيئا عن الجهود الأولى ، لعدد من الجامعات في مجال إعداد عضو هيئة التدريس لأداء وظيفته التدريسية ، كما هو الحال في بعض جامعات انجلترا التى كان لها فضل السبق في هذا المجال ، خاصة بعد أن نظم المجلس البريطاني British Council في صيف ١٩٧٥م (١٣٩٥هـ حلقة دراسية متخصصة عن طرق التدريس بالجامعات Teaching Methods University أقيمت بجامعة لانكستر Lancaser بإنجلترا واشترك فيها ممثلون من أكثر من ٤٥ دولة . . . حيث أجمع المشتركون على ضرورة تطوير طرق التدريس بالجامعات وتحديثها حتى تتمكن الجامعات من أداء وظيفيتها التدريسية ، وانطلاقا من هذا المبدأ أكدت الحلقة أيضا على ضرورة تنظيم دورات لتدريب مدرسي الجامعات قبل وأثناء التحاقهم بالخدمة[٧٤] .

كذلك عرض لتجربة جامعة القاهرة ، في هذا المجال ، وقد سبق القول ، خلال ثنايا هذا البحث ، بأنها بدأت عام (١٣٩٣هـ ١٩٧٤م وما يعنينا منها هنا هو طبيعة البرنامج التربوى الذى نفذ فيها والذى يشتمل على :

(٧٣) المرجع السابق ص ص ٦٨-٦٩ .

(٧٤) المرجع السابق، ص ٦٩ .

أ ـ مدخل نظرى مكثف عن الأسس التربوية والنفسية لطرق التدريس .

ب ـ تحليل لأهم طرق التدريس في الجامعات . والإلمام بخصائص كل طريقة وأوجه قصورها .

جـ ـ الاطلاع على بعض نماذج مستحدثات التدريس وتقنياته كالتعليم البرامجي والتعليم المتلفز ، وبناء الاختبارات الحديثة .

د ـ التدريب العلمى على طرق واستراتيجات التدريس ، حيث يشترك فى توجيه هذا التدريب متخصص في المادة ، بالإضافة إلى أحد أساتذة التربية وعلم النفس ، كما يستخدم فيه نظام التدريس المصغر Micro Teaching ، حتى يمكن تقديم نوع من التعزيز الفورى والإيجابي للمتدرب .

هـ ـ القيام بنشاط علمى يوضح مدى اكتساب المتدرب لمهارات تدريسية جديدة كأن يعد اختبارا موضوعيا ، وفقا لأسس علمية ، في مادة تخصصه أو أن يقوم المتدرب بتصميم وإنتاج وسيلة تعليمية ، أو يعد مشروعا مفصلا لتطوير دراسي في تخصصه .

و ـ اختيار اختبارات موضوعية لقياس مدى فهم المتدرب للأسس النظرية لطرق التدريس ، ومدى إدراكه لعناصر مهارات التدريس التى يتدرب عليها ، من خلال ورش التدريب[٧٥] .

نحن إذن أمام مطلب ملح وأساسى بخصوص تدريب وتأهيل المعيد (أو المحاضر) في هذه الفترة من حياته على أصول التدريس ، وعلى الجوانب المهمة في العملية التربوية التدريسية بالتحديد بما تشتمل عليه من جوانب تربوية ونفسية ، وما يصاحبها من تدريب على أحدث وسائل التوصيل . . توصيل المعلومات لطلاب الجامعة ، على أسس علمية سليمة ومدروسة .

(٧٥) المرجع السابق، ص ٧١ .

ثالثا : البحث العلمي ـ وخدمة المجتمع :

وقد دمجناهما معا في بند واحد عن عمد ، وذلك لأن إحدى مشكلاتنا الأساسية في جامعاتنا العربية تتمثل فى انفصال ماتقوم به من بحوث عن واقع المجتمعات التى تحيط بها . ومن هنا فإنه إذا كان هناك شيء من الجهد داخل الجامعة بمعاملها ومكتباتها ، إلا أن أحدا لايستطيع الادعاء بأن هذه البحوث قد خدمت المجتمع العربى الذى أنشأ هذه الجامعات . وإذا حدث وكانت هناك بعض البحوث التى تعرضت لمشكلات تواجهها مجتمعاتنا المحلية ، فإن ذلك يعد من باب الاستثناء ، وليس من باب أنه هو القاعدة ، كما هو الحال فى الجامعات الغربية ، وخاصة الجامعات الأمريكية .

لقد أصبحت الجامعة في الغرب منغمسة في أمور لم يفكر فيها علماؤها ومنشئوها القدامى ، في كل من ساليرنو وبولونيا وباريس وكمبردج وأوكسفورد ، فجامعة اليوم ـ بحكم صلتها العضوية بما يجرى حولها ـ تجد نفسها منغمسة في تعليم الكبار وفى مراكز الاستشارات الفنية ، وكذا في أعمال المزارع الكبيرة والمتوسطة الحجم ، وفي وضع البرامج المتنوعة للمؤسسات والشركات ، وأيضا في الإسهام في الخدمات الصحية في كل من الريف والحضر وفي إجراء التجارب على الحيوانات وعلى المزروعات ، وفي تدريب العمال والفنيين ، وفي عمليات استصلاح الأراضى ، وفي الاستيطان البشرى وفي إعداد رجال أعمال الغد والفنيين والمديرين ، وفي الإسهام فى تخريج معلمي المرحلتين الثانوية والمتوسطة[٧٦] .

ولن نطيل كثيرا في وصف ما تفعله الجامعات في الغرب ، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ، لأننا سبق أن ذكرنا ذلك ، ولكن المشكلة هنا في جامعاتنا نحن ، فأين تقف هذه الجامعات ببحوثها ودراساتها من ظروف مجتمعاتها ومشكلاتها . . ؟

إن عالمنا العربي يعج بالمشكلات التى تواجه مجتمعاته ، وتتطلب حلولا علمية جذرية ، بينما تبدو جامعاتنا وهى تكاد تكون بعيدة تماما عن الإسهام . . أوحتى

(٧٦) Higher Education & Social Charge: Op, cit,p.7

محاولات الإسهام في حل هذه المشكلات أو مواجهتها ، ففى مجال الزراعة وإنتاج الغذاء نجد أن العالم العربى ، مع استثناءات نادرة ، يعانى من عدم سد حاجاته الغذائية . . من الأرض ومن البحر . . على الرغم من كثرة الأراضى الزراعية والقابلة للإنتاج الزراعى ، وعلى الرغم وجود الأنهار والبحيرات ، وامتداد البحار من حوله معروف ، ولايحتاج لإعادة شرح ، ويكفي أن دول الخليج العربية كلها تأخذا اسمها من الخليج الذى تطل عليه ، وليست هناك دولة عربية واحدة يمكن أن يقال عنها جغرافيا أنها دولة داخلية . . لاتقع على بحر أو محيط ، ورغم هذا فاستيراد الغذاء من الخارج يشكل عاملا مشتركا بين الدول العربية جميعا ، ولا نكاد نجد أثرا لإسهام الجامعات العربية في هذا المجال ، علما بأن الجامعات الأمريكية كان لها أثر ضخم جدا فى رفع كفاءة الأراضى الزراعية ، وتحسين نوعيات البذور ، بل والتدخل في سلالات الحيوانات وتهجينها . . الخ وقد حدث ذلك حين نص قانون موريل في الستينات من القرن الماضى على منح كل كلية زراعية باتساع الولايات ـ ثلاثين ألف فدان لإجراء تجاربها عليها ، وبذلك قفز الإنتاج الزراعى الأمريكى قفزات هائلة ، وأصبح الفلاح الأمريكي ينتج الغذاء لنفسه . . ولمائة من الأفراد غيره على الأقل[٧٧] .

وفي اليابان ، الدولة التي يضرب بها المثل في تنمية الإنسان ، وفي الاستفادة من طاقاته الكامنة ، وفى استثمار قدراته ، نجد أن مجموعة الجزر اليابانية لاشىء فيها يلفت النظر من حيث المصادر الطبيعية ، ولكن التربية اليابانية جعلت هذا الإنسان الياباني يبحث فى الأرض وفي البحر . . وينقب ويعمل[٧٨] وينتج ، وليست الجامعات اليابانية ـ بطبيعة الحال بعيدة عن البحوث التى توجه التعليم الياباني الذى ينتج هؤلاء الأفراد الذين يثرون مجتمعهم ، بل والذين يجعلون هذا المجتمع فى قمة المجتمعات العالمية غنى وثراء .

ومما يذكر فى هذا المجال أن اليابان ، على الرغم من تقدمها الصناعى والتكنولوجي

(٧٧) John Joralimek: The Schools In Cortemporory Sociatw An Analyies of Social Current /ssuas & Forces, Maemillar Publishirg Company, N,y. 1981.

(٧٨) محمد عبد العليم مرسى : التربية والأمن الغذائى فى دول مجلس التعاون الخليجى، مرجع سابق، ص ٩٩ .

الهائل ، لم تترك البحر ـ كما فعلت بعض دول الخليج العربية بعد تدفق البترول ـ وإنما كثفت دراساتها حوله ، بحيث أصبح لها أسطول صيد من أضخم أساطيل الصيد فى العالم ، ويكفى أن نذكر أن لديهم نوعا من السفن يسمونها السفن الأم The Mother Ships وهى تصيد فى الرحلة الواحدة ١٠٠٠ طن من الأسماك[٧٩] ، أى أنها يمكنها أن تطعم شعبا من شعوبنا على مدار العام من اللحم الطرى الذى طالبنا الله سبحانه وتعالى باستخراجه وأكله . هذا بالاضافة لما تزرعه في المحيط من لؤلؤ كان ذات يوم عنصرا من عناصر الاقتصاد الوطنى لبعض دول الخليج العربية ولكنه أهمل بعد وصول البترول . مثله مثل صيد السمك . وفى مجال الصناعة يمكن قول الشىء ذاته ، بحيث أنه لايمكننا الادعاء بأن جامعاتنا قد نزلت الميدان وشغلت نفسها بأمورها ومشكلاتها أى مشكلات مجتمعاتها .

إن واحدا من مفكرى الخليج العربي قد شعر بالجامعة حين حبست نفسها وراء أسوارها ، ولم تخرج إلى المجتمع تشاركه همومه ، وتحاول إيجاد حلول لها ، ولذا نتمنى على الله أن يأتى اليوم الذى تغادر فيه جامعاتنا أسوار الحرم الجامعى ، وأن تحث خطاها إلى الأسواق والمزارع والمصانع والمستشفيات والإدارات الحكومية ، فليس من حق جامعة الخليج ـ والحديث ينطبق على كل جامعة عربية ـ أن تأوى إلى جبل يعصمها من طوفان التنمية ، فتعتزله بخيره وشره ، وتنصرف إلى كتبها وطلبتها وأساتذتها وهمومها الكبيرة والصغيرة ، تدرس حياة شاعر عاشق فى اسكتلندا قبل ألف عام ، أو تصف نباتا لاينمو إلا على ضفاف بحيرات كندا .

إن مكان الجامعة الطبيعي هو في قلب الإعصار ، في ضمير الطوفان ، عند دفة القيادة من فلك التنمية ، وهو مكان لايعطى . . . بل ينتزع . . ينتزع بالطموح وبالإصرار وبتلويث السواعد بغبار التنمية وتبليل القدمين بمياه المشكلات[٨٠] .

وفي بحثه الطيب يبين لنا مدير جامعة الخليج خطورة البحث العلمي على حياة

(٧٩) التربية فى اليابان المعاصرة، مرجع سابق .

(٨٠) غازى القصيبى : التنمية وجامعات الخليج ، محاضرة ألقاها ضمن بحوث الندوة الأولى لجامعات الخليج ، البحرين ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٥-٦ .

الشعوب ، فى عصرنا الحاضر ، وكيف أن البحوث العلمية في بعض الجامعات قد نقلت مجتمعاتها نقلات خطيرة على طريق التنمية والتقدم ، بل وكيف حمت الجامعة ببحوثها مجتمع الهند ذا الضخامة السكانية المعروفة ، من أخطار المجاعات والفيضانات . . الخ ، بينما جامعاتنا العربية لم تتجه هذا الاتجاه العلمى المنتج وحصرت جهودها في التدريس والبحث الأكاديمي فحسب[٨١] . ومن هنا يمكننا القول فعلا بأن «العلم الذى ينحصر أهله داخل أسوار الجامعات ومراكز البحوث العلمية علم عاجز قاصر بمعايير العصر الذى نعيشه ، وبمعايير قياس كفاءة عمل الجامعات في نهاية القرن العشرين[٨٢] .

ويؤكد الشيخ على أنه رغم بعض الجهود الطيبة التى بذلتها بعض وحدات البحوث التابعة للجامعات ، في بعض البلاد العربية ، إلا أن التحديات التى يجابهها الاقتصاد العربي والمجتمع العربي تتجاوز بكثير المجهودات التى بذلت حتى الآن في ميدان البحث العلمي . . وهذه المجهودات ـ حتى الآن ـ ليست على مستوى التحديات ، خاصة وأنها مجهودات متفرقة ومشتتة[٨٣] . وإذا كان هذا هو حال الجامعات فى عالمنا العربى ، إلا أننا نجد أن التعليم العالى ، فى بلد صناعى متقدم، وذى اقتصاد عظيم متطور، نجده وهو يعمل بشدة على نقل المعرفة والتكنولوجيا الى المجتمع ، وأن الاستفادة على الوجه الأكمل من القدرات البحثية التى تتمتع بها مؤسسات التعليم العالى لصالح الكفاءة الصناعية وتنمية القدرة على المنافسة تسير على قدم وساق ، مهتمة بالدرجة الأولى ـ بالمشكلات الجارية هناك[٨٤] .

هذا وإن شيئا من المقارنة بين ماتقوم به جامعاتنا العربية فى مجال البحث العلمى ، وما تقوم به جامعات الغرب ، قد يصل بنا إلى استنتاج مؤداه أن هذه الحالة التى عليها

(٨١) بكر عبد الله بن بكر: مرجع سابق، ص ص ١-٥٤ .

(٨٢) محمد عبد العليم مرسى : التعليم العالى ومسؤولياته في تنمية دول الخليج العربى، مرجع سابق، ص ٦٦ .

(٨٣) عمر حسن الشيخ : مشكلة الجامعة فى الوطن العربى . . تحليل تاريخى اجتماعى المجلة العربية للتربية، المجلد الثانى، العدد الثانى، سبتمبر ١٩٨٢م، ص ٣٤ .

(٨٤) التعليم العالى في جمهورية ألمانيا الاتحادية، ترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ الرياض، ١٤٠٨-١٩٨٧م، ص٤٧ .

البحث العلمي فى المجتمعين قد تكون هى السبب فى التبعية الاقتصادية التى يعيشها عالمنا ، ومن هنا تصدق مقولة أحد باحثينا فعلا على هذا الوضع إن المجتمع العربى قد أصبح فى غالب الأحيان مجرد مستهلك لثمار التقدم العلمى عند الآخرين وبالطبع خاضع لبهرجها ، وليس منتجا لها ، وهو إلى جانب ذلك ممزق نفسيا بين مفاهيم غازية ذات صبغة مادية استهلاكية طاغية ، وقيم روحية موروثة متجذرة يدرك أنها كنه ذاته[٨٥] .

ويؤكد باحث آخر هذا المعنى حين يقرر أن جامعاتنا العربية مازالت تضع نفسها فى شبه عزلة عن مجتمعها وعن حاجاته ومشكلاته . . ولانتحدث هنا عن آماله وطموحاته ، فالجامعات العربية مازالت تعنى بنشر المعرفة المستوردة . . دون إنتاجها أو حتى التفكير فى تطبيقها أو تطويعها بما يتناسب وظروف التقنية التى نطمح إليها ، وما زالت تعد طلبتها دونما اعتبار لحاجات التنمية من المعرفة والمهارات ، الأمر الذى نجم عنه شعور بعض طلبتها بغربتهم عنها ، وبعقم المعرفة التى يكتسبونها فيها[٨٦] .

وباختصار . . ودون أن نعيد ما كتب عن قصور الجامعة ، فى عالمنا العربي ، وهى كتابات كثرت مؤخرا في أدبيات الموضوع ، أسهم فيها عدد ليس بالقليل من أساتذة التربية ، حتى اتهم بعضهم الجامعة بأنها قاصرة عن خدمة المجتمع فعلا ، كما أن أساتذتها قد عزلوا أنفسهم عن تيار الحياة المحيط بجامعاتهم والهادر بالمشكلات اليومية ، بينما هم يكتبون بحوثا كل الهدف منها هو السعى وراء الترقية ، ولا علاقة لها بالمجتمع بل إن إنتاجية هؤلاء الاساتذة . . . حتى فى مجال البحوث العلمية قاصرة ومعيبة بالنسبة لمتوسط الأداء العالمى ، بل إن البعض قد وصل به الأمر إلى اتهام أساتذة الجامعة عندنا بأنهم حتى لا يقرأون ولا يبحثون في غالبيتهم[٨٧] .

---

(٨٥) هشام أبوقمرة : مرجع سابق، ص١١٣ .

(٨٦) عمر حسن الشيخ : مرجع سابق .

(٨٧) لمن أراد الرجوع لهذه البحوث، نسوق بعضا منها :

حامد عمار: حول التعليم العالى العربى والتنمية، المستقبل العربى العدد ٤٠ يونيو ١٩٨٢، ص ١٩-١٣٨ .

- أنطوان زحلان: العلم والسياسة العلمية في الوطن العربى، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٠ .

أقول بأنه دون حاجة لإعادة ماسبق وأن قيل فى هذا الموضوع ، نستطيع أن نلمح خيطا فكريا واضحا يؤكد على عزلة جامعاتنا عن حاجات مجتمعاتها ومشكلاتها كما أنها لاتسهم بالقدر الكافى والمطلوب في تصميم خطط التنمية بها ، ولا في تقييم هذه الخطط بعد تنفيذها .

وإذا كان هذا هو الحال ، فكيف نتحدث عن الوظيفة الثالثة من وظائف الجامعة . . . وهى وظيفة خدمة المجتمع ؟ فإذا كانت بحوث الأساتذة بعيدة عن هذا المجتمع . . . فكف تخدمه . . . ؟ هل نتصور أن مجرد إنشاء مراكز لخدمة المجتمع في بعض جامعاتنا ، ثم محاولات هذه المراكز الجادة والمخلصة لعمل شىء فى هذا المجال . . . هل نتصور أننا بذلك قد قضينا على الشقة التى تفصل الطرفين . . الجامعة والمجتمع . . . إننا نخدع أنفسنا إن قلنا ـ علميا ـ بأن هذه هى خدمة المجتمع ، أى من خلال بعض البرامج أو الدورات التى قد يستفيد منها عشرات . . أو حتى مئات من فئات المجتمع .

إن هناك مشكلات تواجه الملايين من أبناء مجتمعاتنا العربية ، وهى تحتاج لبحوث متعمقة من جانب جميع أعضاء هيئات التدريس ، كل في تخصصه ، فلدينا مشكلات فى الغذاء . . والصناعة . . . والتجارة بالإضافة لمشكلات اجتماعية بلا حصر كما أن مدارسنا تعج بالمشكلات . . فى مناهجها وإداراتها وكتبها ومعلميها . . الخ .

ومن هنا فإن الحل الذى نقترحه ، ضمن برنامج إعداد المعيدين والمحاضرين (أساتذة المستقبل) هو أن يكون هناك حسم فورى في تسجيل موضوعات الدراسات العليا . . أى الماجستير والدكتوراه ، فلا يسمح بتسجيل رسالة ـ مهما كانت ـ لاتمس مشكلة من مشكلات حياتنا ، بحيث إنه على مدار عشر سنوات ـ مثلا ـ يمكننا أن نقول بأن جامعاتنا قد انغمست بجدية في بحث مشكلات مجتمعاتها بأسلوب علمى رزين .

إن هذا الاقتراح ، لو قدر له التنفيذ فلسوف ندفع أبناءنا المعيدين والمحاضرين إلى

- محمد عزت الموجود . الدراسات العليا . . طبيعتها وإدارتها ، مرجع سابق .
- غازى القصيبى : التنمية وجامعات الخليج ، مرجع سابق .

الاهتمام بمشكلات مجتمعاتهم ، فيما يشبه الخطة المتكاملة ، وبعد هذه السنوات العشر نستطيع أن نقول بأنه قد أصبح لدينا ـ فعلا خبراء فى مواجهة مشكلات مجتمعاتهم . . . حقا .

إن الجهود التطوعية التى يقوم بها بعض المتحمسين ، من أعضاء هيئات التدريس ، فى مراكز خدمة المجتمع بجامعاتهم ، مجهودات طيبة ومحمودة حقا ، ولكن ومعذرة للصراحة العلمية ـ ينقصها العمق العلمى الذى يرتبط بالواقع فعلا . إن أى أستاذ فى أحد أقسام التربية يمكنه أن يتحدث ـ من الذاكرة عن أسباب انصراف طلابنا عن تعلم اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ، وعن ضعفهم فيها ، ولكن لن يكون هذا الحديث مثل كلام شخص تخصص فى بحث هذه الظاهرة وفى تقصى أسبابها بعمق وموضوعية ، سواء كان ذلك فى رسالة للماجستير أو الدكتوراه . ويمكن أن نطبق هذا المثل على كل مشكلة في حياتنا . إن معالجتنا لمشكلات مجتمعاتنا ينبغى أن يكون أساسها «العلم» . . وليس مجرد المعرفة والثقافة العامة التى تجعل كل إنسان متخصصا فى كل موضوع . . إننا إن سمحنا بهذا نصبح ونحن غير متخصصين فى أى شىء على الإطلاق وهذا وضع خطير نربأ بجامعاتنا أن تضع نفسها فيه .

رابعا : عضو هيئة التدريس الحالى :

إذا آمنا بالتعليم المستمر ، أو التعلم مدى الحياة . . من المهد إلى اللحد كما جاء فى الأثر ، فإن أولى الناس بهذا هم هيئة التدريس فى الجامعة لأن الأستاذ الجامعى الذى يتوقف عن القراءة وعن الاطلاع والبحث . . يتوقف ـ على وجه اليقين عن النمو والعطاء وبما أن المعرفة تغزر وتتكاثف يوما بعد يوم ، فإن الأستاذ الجامعى بقدر ما يقرأ وبقدر مايتابع الجديد ، بقدر ما ينمو ويتفوق ، وبالتالى يزداد عطاؤه وتتضح أستاذيته .

ولكى يتم ذلك ينبغى على الجامعات أن توفر لأستاذها الظروف الملائمة للبحث والاطلاع والاحتكاك العلمى ، بأقرانه فى تخصصه سواء على مستوى الوطن الذى يعيش فيه ، أو على المستويين الإقليمى والعالمي . ومن ناحية أخرى فإن توفير الكتب العلمية الحديثة والدوريات وإتاحة الفرصة أمام الأستاذ الجامعى لنشر أبحاثه أمور

ينبغى أن يكون مفروغا منها ، بحيث ينبغى ألا يشغل عضو هيئة التدريس باله بها .

إن أستاذ الجامعة الذى يجهد نفسه فى تجربة معينة ، أو فى كتابة بحث يتصور أنه مهم ثم يفاجأ بعقبات تعترض طريقه فى النشر ، يصاب ـ حتما ـ بالإحباط وقد تقتل فيه روح المبادرة العلمية ، أو قد يسعى لترك الجامعة . . . بل الوطن كله إلى حيث يمكنه النشر ، حيث يستفاد من علمه وبحوثه ، وقد أثبتت الدراسات العلمية المذققة فى هذا المجال أن هذا السبب كان وراء كثيرين اتخذوا قرارهم بهجر أوطانهم والذهاب للعمل فى جامعات الغرب المتقدم ومراكز بحوثه ، وشركاته ومؤسساته التى تعرف قيمة العلم والعلماء وتعرف كيف تستثمر جهودهم(٨٨) .

وبالنسبة للاحتكاك العملى ، أى حضور المؤتمرات والندوات ، فينبغى تشجيع الأساتذة على حضورها ، وإزالة العقبات التى تعترض طريق هذا الحضور ، مهما كانت ، شريطة أن يكون عضو هيئة التدريس قد قدم ورقة علمية للندوة أو المؤتمر ووفق عليها من الجهة المنظمة ، وشريطة ـ أيضا ـ أن يعقد (سيمينارا) فى قسمه العلمى حال عودته من المؤتمر أو الندوة ، بحيث يتحدث فيه إلى زملائه عن الورقة التى قدمها وعن الأوراق الأخرى التى قدمت ، وذلك حتى نعمل على توسيع قاعدة الاستفادة العلمية من جانب باقى أعضاء هيئات التدريس، وحتى لايظل العلم حبيس صدور عدد قليل من الأساتذة، وفى ذلك استثمار طيب ينبغى ألا يغيب عن الأذهان.

وأخيرا ينبغى أن تسعى الجامعات العربية كى يستفاد من أعضاء هيئات التدريس لديها فى مشروعات الدول العربية والمؤسسات العاملة على أرضها ، سواء كانت وطنية أو أجنبية ، وفي ذلك صقل لأعضاء هيئات التدريس ومنحهم الكثير من الثقة فيما يقومون به. وحافز لهم على الإبداع، خاصة حين يرون أنهم لايقلون عن الخبراء الأجانب الذين يستقدمون للاستشارات العلمية في مجالات يتقنها أساتذة الجامعات العربية.

والله الموفق ـ وهو الهادى إلى سواء السبيل . . سبحانه . .

(٨٨) حول هذا المعنى راجع كتاب الباحث : هجرة العلماء من العالم الإسلامى، من إصدارات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ـ ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٤م وراجع أيضا كتابه: عالم الكتب، الرياض ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

العوامل المؤدية إلى تعاطي المخدرات والمنظور الإسلامي لمواجهتها

للدكتور
سعود بن عبدالعزيز التركي
الأستاذ المساعد في قسم الاجتماع
بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض
وعميد القبول والتسجيل بالنيابة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

« صدق الله العظيم »

محتـويات البحـث

أولاً : أهميـة دراسة الموضوع .
ثانيـاً : حجم مشكلة المخدرات بصفة عامة .
ثالثـاً : حجم مشكلة المخدرات بالمملكة العربية السعودية .
رابعـاً : تحديد مشكلة المخدرات بالمملكة العربية السعودية .
خامساً : أهم المفاهيم الواردة بالدراسة .
سادساً : العوامل المؤدية إلى تعاطي المخدرات .
(أ) العوامل الشـخصية .
(ب) عوامل البيئة الاجتماعية .
(جـ) العوامل الثقافيـة .
سـابعاً : موقف الإسلام من المخدرات .
(أ) موقف الإسلام من المخدرات .
(ب) دور الوازع الديني في الوقاية من التعاطي .
(جـ) التصور الإسلامي لمواجهة المخدرات .

أهمية دراسة الموضوع:

تعتبر مشكلة تعاطي المخدرات أو إدمانها من المشكلات الإجتماعية التي تؤثر على بناء المجتمع وأفراده بما يترتب عليها من آثار اقتصادية واجتماعية سيئة تنسحب على كل من الفرد والمجتمع. وتتضح خطورة هذه المشكلة في أثر سلوك المتعاطين أو المدمنين على الأوضاع القانونية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الذي يعيشون فيه. حيث يتمثل ذلك من الناحية القانونية في ازدياد معدلات المخالفات والقضايا التي يرتكبونها نتيجة الاستغراق في السلوك المنحرف الأمر الذي يتطلب مزيداً من إجراءات الشرطة والقضاء لمواجهة هذه المشكلة. كما يتمثل الجانب الاقتصادي في الخسائر التي تعود على المجتمع من جراء فقده لهذه العناصر البشرية التي كان من الممكن أن تسهم في عملية البناء والتنمية في المجتمع، حيث يعتبر المتعاطون خسارة على انفسهم وعلى المجتمع من حيث إنهم قوى عاملة معطلة عن العمل والانتاج، يعيشون عالة على ذويهم وعلى المجتمع وإن انتجوا فإنتاجهم ضعيف لا يساعد على التقدم أو التنمية بل قد يكونون في مستقبل حياتهم عوامل هدم وتعويق لعملية الإنتاج[1] يضاف إلى ذلك ضعف أداء وكفاءة المتعاطي أو المدمن لعمله وسوء انتاجه[2] لأن الإنتاج يتطلب عقولاً وأبداناً صحيحة. وهذا لا يكون متوفراً نتيجة تعاطي المخدرات أو غيرها من المظاهر المرضية التي تهدد أمن المجتمع وسعادته.

أما تأثير تعاطي المخدرات على النواحي الاجتماعية في المجتمع فيتمثل في كون هؤلاء المتعاطين خطراً على حياة الآخرين من حيث إنهم عنصر قلق واضطراب لأمن المجتمع حيث يسعى كل منهم إلى البحث عن فريسة يقتنصها بسرقة أو نصب أو

(١) سعد المغربي، انحراف الصغار (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠) ص ١٩.

(٢) د. محمد بن إبراهيم الحسن، المخدرات والمواد المشابهة المسببة للإدمان. (الرياض، مكتبة الخريجي، ١٩٨٠م) ص ٩.

يمارسون لوناً من ألوان العمل المخالف للقانون، وهم يمثلون خطراً كبيراً على أنفسهم وعلى حياتهم نتيجة التعاطي مما يقودهم في النهاية إلى أن يصبحوا شخصيات سيكوباتية أو إجرامية أو حاقدة على المجتمع لا تعرف سبيلاً إلى أهدافها إلاّ بالعدوان أو الضغط وبعد فترة قد يقعون فريسة للمرض النفسي أو الانسحاب والانطواء وعدم المشاركة مع الآخرين في بناء المجتمع[٣]

ولقد دلت الاحصاءات الرسمية الصادرة عن الهيئات المتخصصة على أن هذا الوباء (تعاطي المخدرات) قد سجل بالفعل تهديداً لكيان المجتمعات وأسهم في عرقلة مسيرة البناء والتطور في كل المجالات ولقد تأكدت هذه الخطورة أيضاً من خلال الدراسات الميدانية المتعددة التي أجريت من قبل المتخصصين والباحثين والهيئات الدولية والمحلية، حيث أظهرت تلك الدراسات الزيادة الكبيرة التي تطرأ سنوياً على عدد الذين يتعاطون المخدرات بمختلف أنواعها وبمختلف نوعياتهم[٤].

ولقد نشرت وزارة الصحة الأمريكية في تقريرها الصادر عام ١٩٨٥م تقديراً للخسائر الاقتصادية بسبب الخمور والمخدرات في سائر المجالات الصحية والاجتماعية والصناعية وكان الرقم مذهلاً حيث بلغ ٤٣ ألف مليون دولار، وكانت الخسارة لاستراليا في نفس العام وعدد سكانها ١٢ مليون نسمة فقط ١١٠٠ مليون دولار. وقد قدر هذا التقرير عدد المدمنين في أمريكا بعشرة ملايين مدمن يتكلف علاجهم ما يقرب من ٦٢ بليون دولار. كذلك فإن الدول النامية معرضة بصورة خاصة للمشكلات التي يسببها تعاطي المخدرات بأنواعها[٥].

ولقد أشارت دراسة نبيل صبحي الطويل عن الخمر والإدمان الكحولي إلى أن

(٣) محمد علي حسن، علاقة الوالدين بالطفل وأثرها على جناح الأحداث (القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٠م) ص ٩.

(٤) عبداللطيف عرفان، جريمة الإدمان. مجلة الأمن والحياة (الرياض، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، العدد ٦، ١٤٠٣هـ) ص ١٩.

(٥) د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل، في آفاق التربية الوطنية في المملكة العربية السعودية (الرياض، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٩٨٦) ص ١٥٨.

ميزانية وزارة الصحة اللبنانية لعام ١٩٧٨م تعادل الخسارة السنوية التي سببها شاربو الخمر في محافظة الخرطوم وحدها عام ١٩٧٦ ، وذلك استناداً إلى نتائج دراسة سودانية أجريت على هذه المحافظة في نفس العام[٦] .

ولقد تبين من الدراسة التي قام بها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة عن تعاطي الحشيش والآثار المترتبة عليه، أن تعاطي الحشيش مدمر للإنسان، ولبنائه الاجتماعي ، كما أنه مدمر لاقتصاديات المجتمع ومبدد لطاقة أبنائه . وأن أسباب هذا التعاطي كانت: حب الاستطلاع والفرفشة وإظهار الرجولة من جانب صغار السن والشباب والتقليد ومجاراة الأصحاب . . إلخ[٧] .

كما أبرزت دراسة التوهامي مكي أن ظاهرة تعاطي المخدرات تنتشر بين الشباب في مقتبل العمر في المدن المكتظة سكانياً والذين يقطنون الأماكن الشعبية أو الذين يعانون من ظروف الحياة القاسية أو الذين تقل رقابة الأسرة عليهم وينخفض لديهم الوازع الأخلاقي والديني[٨] .

كما قامت إدارة التحقيقات الجنائية بدولة قطر بدراسة عن ظاهرة تعاطي المخدرات لمعرفة حجم هذه الظاهرة وأبعادها ومن ثم وضع الخطط الكفيلة بالحد من انتشارها وقد استخدمت الاحصاءات في مدة خمس سنوات وقد تبين أن أغلب الذين يتعاطون المخدرات هم من فئة الشباب دون سن ١٨ وقد تم تحديد العوامل المؤدية إلى التعاطي وهي :

- الانتعاش الاقتصادي الذي تعيشه منطقة الخليج وما أدى إليه من فائض مادي (خاصة لدى الشباب) .

---

(٦) نبيل صبحي الطويل، الخمر الإدمان الكحولي (بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ) ص ١١٥ .

(٧) المركز القومي للبحوث الاجتماعية الجنائية، ظاهرة تعاطي الحشيش في مصر (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠م) ص ١١٨ .

(٨) التوهامي مكي، ظاهرة تعاطي المخدرات في أوساط الشباب بالمغرب، (دكتوراه منشورة بالمجلة العربية للدفاع الإجتماعي، الرياض، جامعة الدول العربية، ١٩٨١م) العدد ١٢ ص ١٩٨ .

- انتشار عادة السفر إلى الخارج لقضاء العطلات في جنوب شرق آسيا وبعض الدول الأوروبية.
- استقدام أعداد كبيرة من العمالة الأجنبية[٩].

كما تبين من إحدى الدراسات في جامعة قطر عن تعاطي المخدرات والتي طبقت على عينتين إحداهما تتعاطى المخدرات والأخرى لا تتعاطى:

- أن الغالبية العظمى من أفراد العينة الأولى (٩٧٪) يقطنون المدن، ٣٪ تقيم بالريف، كما أن حوالي ٨٣٪ من أفراد العينة نفسها كانت بداية التعاطي لديهم عن طريق صديق. وأن ٧٧٪ من المتعاطين يقضون نصف وقت فراغهم أو كله في مجموعات لتعاطي المخدرات، وأن أكثر من ٥٠٪ من المتعاطين من الشباب[١٠]

كما أبرزت دراسة أخرى عن «المخدرات وظاهرة استنشاق الغازات بالأمارات العربية» أن العوامل الدافعة إلى الاستنشاق والتي طبقت على ٤٣٥ فرداً بهدف التعرف على العوامل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي تصاحب التعاطي أو الاستنشاق والتي تؤدي إليه تتمثل فيما يلي:

- غالبية الذين يمارسون استنشاق الغازات من صغار السن ومتوسط أعمارهم ١٦ سنة.
- أن أهم الأسباب المؤدية إلى ذلك هي: وقت الفراغ والملل من الدراسة وكثرة المشكلات الأسرية والملل من العمل وضع الوازع الديني.
- أن معظم المتعاطين قد بدأوا استنشاق الغازات مع الأصدقاء[١١].

---

(٩) إدارة التحقيقات الجنائية بدولة قطر، دراسة محلية حول ظاهرة تعاطي المخدرات في دولة قطر (وزارة الداخلية، قيادة الشرطة، ١٤٠٥هـ) ص ٢ - ٥.

(١٠) أحمد شوقي القباري وآخرين، مشكلة تعاطي المخدرات، دراسة ميدانية (الدوحة جامعة قطر، جـ١، ١٩٨٤م) ص ٣٧.

(١١) ناصر ثابت، المخدرات وظاهرة استنشاق الغازات، دراسة اجتماعية ميدانية استطلاعية، (الكويت، مكتبة ذات السلاسل، ١٩٨٤م) ص ٤٥.

وفي دراسة نظرية عن ظاهرة التشفيط كنمط من أنماط جناح الأحداث بالمملكة العربية السعودية، أبرزت تحليلات الدراسة أن الإحصاءات تدل على أن نسبة كبيرة من المتعاطين للمخدرات الطيارة من الأحداث (في سن ١٢ ـ ١٦ سنة)، وأن العوامل الدافعة إلى ذلك هي تقليد الأصدقاء والاستمتاع الشخصي. وقد تبين من تحليل الباحث لبعض الحالات أن الدوافع وراء التشفيط هي: الهروب والاحساس بالوحدة والشعور بالضجر من مواجهة المشكلات الشخصية والعائلية، وعدم القدرة على تحمل المسئولية[١٢].

وفي دراسة سيف الإسلام آل سعود عن «تعاطي المخدرات» في بعض دول مجلس التعاون الخليجي «السعودية، البحرين، الكويت» وذلك للتعرف على العوامل المؤثرة في ازدياد تعاطيها وأساليب الوقاية والعلاج، وكانت أهداف البحث هي:

(أ) معرفة حجم ظاهرة تعاطي المخدرات.

(ب) الكشف عن أسباب تزايد انتشار المخدرات.

(جـ) الكشف عن الآثار الاجتماعية والنفسية والصحية لتعاطي المخدرات.

(د) التعرف على أنسب الوسائل والأساليب لمكافحة ومعالجة ظاهرة انتشار المخدرات.

وقد بلغ حجم العينة ١٣٩ نزيلاً بالسجون كما طبق بإصلاحية (الحائر) بالرياض وقد تبين من نتائج البحث أن غالبية المتعاطين كانوا يسافرون خارج البلاد (٥٣٪). وأن مشكلة التعاطي ظاهرة نشأت مع التحضر حيث تبين أن ٦٣٪ من أفراد العينة كان نمط المعيشة السابق لهم في المناطق الريفية والبدوية أما نمط المعيشة الحالي فهو مناطق حضرية. كما أن نسبة كبيرة من المتعاطين (٥٧٪) من الشباب[١٣].

(١٢) منذل عبدالله القباع. التشفيط كنمط من أنماط جناح الأحداث (السعودية المؤتمر الخليجي الأول للعمل الإجتماعي في دولة الأمارات العربية، ١٩٨٥) ص ٧١.

(١٣) سيف الإسلام آل سعود، تعاطي المخدرات في بعض دول مجلس التعاون الخليجي دراسة استطلاعية للعوامل المؤثرة في أزدياد تعاطيها وأساليب الوقاية والعلاج (الرياض، ماجستير بحث غير منشور، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، ١٤٠٦هـ) ص ١٨.

ويلاحظ أن هذه الدراسة نشرت حديثاً بنفس العنوان ولكن بدون توضيح لدار النشر عام ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م).

وفيما يتعلق بالدراسات والأبحاث الأجنبية فقد ذكر تقرير وزارة العدل الأمريكية أنه توجد علاقة بين تعاطي المخدرات والاتجاه نحو ارتكاب جرائم العنف وأن العودة إلى ارتكاب جرائم السرقة البسيطة وجرائم البغاء (من أجل توفير مصدر مالي لشراء المخدرات) ـ يعد نتيجة حتمية للتعاطي[١٤].

وفي دراسة قام بها بلومر (Blumer) تبين أن الشباب الذي يتعاطى المارجوانا يميل إلى ارتكاب جرائم وأفعال غير اجتماعية[١٥].

كما أبرزت دراسة كل من إيكاردي (Icardi) ، وشامبرز (Shambers) ، التي طبقت على ٢٨٠ متعاطياً للمخدرات في ولاية نيويورك تبين منها أنهم جميعاً قد ارتكبوا أفعالاً إجرامية وأن ٧٩٪ منهم لديهم سوابق إجرامية ، ولقد ارتكب ٩٣٪ منهم جرائم الاعتداء على المال، وأن ٦٣٪ منهم من هم في سن صغيرة (١٢ ـ ١٦ سنة)[١٦].

كما لوحظ من جانب آخر أن هناك بعض الدراسات التي تحاول أن تربط بين صغار السن من متعاطي المخدرات وأسرهم فبعض الباحثين أبرز العلاقة بين صغار المتعاطين والآباء المجرمين ومتعاطي المخدرات، بينما أبرز بعضهم الآخر العلاقة بين الحدث المتعاطي وتنشئته الأسرية.

وقد أبرزت دراسة جلوك (Glueck) أن نسبة عالية من الجرائم يرتكبها آباء وأجداد وأخوة الأحداث الجانحين ومتعاطي المخدرات أكثر من نسبة الجرائم التي يرتكبها آباء وأجداد وإخوة الأحداث غير الجانحين وغير متعاطي المخدرات[١٧].

كما أبرزت دراسة فرنجتن (Ferringten) أن ٣٩٪ من أبناء المجرمين ومتعاطي

(١٤) U. S. Department of Justic-Drugs Usage and arrest Charges : Astudy of drug usage and arrest charges among arrestees in six metropolition areas on U. S. A. N.Y. Dec., 1981 p. 8.

(١٥) محمد إبراهيم فريد، علم الإجرام والسلوك الإجتماعي (القاهرة، الثقافة، ١٩٧٨) ص ٢٨٢ .

(١٦) I card ; J. chambers, C. rug Criminal Justic System (London, Kegan Paull, 1974) p. II.

(١٧) Jeraild A. B Rook J. .The Psychology of Adoleacence (N. Y. MacMillan co. inc. 3rd ed. 1978) p. 414.

المخدرات قد أصبحوا أحداثاً جانحين ومتعاطي مخدرات. بينما ١٦٪ من أبناء غير المجرمين هم الذين أصبحوا جانحين ومتعاطي مخدرات[١٨].

كما أبرزت دراسة ولسون (Wilson) أن هناك عدة عوامل تسبب تعاطي المخدرات منها غياب دور الوالدين في الإشراف والعناية بسلوك أبنائهم حيث أن تعاطي المخدرات عند الأطفال يرتبط بشكل وثيق بانعدام رقابة الوالدين على أطفالهم وعدم سؤالهم أين يذهبون؟ ومتى يعودون؟ بل هما لا يعلمان أين يكون طفلهم في أغلب الأمسيات والليالي[١٩].

وفي دراسة أخرى عن العلاقة بين غياب الوالدين وتعاطي المخدرات وبعض مشكلات السلوك لدى الأبناء (دراسة مقارنة بين الأسر المفككة وغير المفككة) أبرزت نتائج هذه الدراسة أن تعاطي المخدرات بين أطفال الأسر المفككة أكثر منها بين أطفال الأسر المترابطة. وتبدو أهمية هذه النتائج في توضيح أثر انعدام التكامل والتفاعل في الأسرة على ظهور بعض المشكلات الاجتماعية للأبناء والحرمان من مشاعر الأمن والحب والطمأنينة والتي قد تدفع الأبناء للسلوك غير السوي وتعاطي المخدرات كمظهر من هذه المظاهر غير السوية[٢٠].

وأهم ما نستنتجه من هذه الدراسات أن العوامل الأسرية وأساليب معاملة الوالدين قد يكون لها ارتباط بظاهرة تعاطي المخدرات مما يستدعي ضرورة دراستها وتحديد أبعادها حتى يمكن لعلم الاجتماع أن يضع الأطر التصورية والخطط الكفيلة بمواجهة هذه الظاهرة.

حجم المشكلة بصفة عامة:

في معظم المجتمعات نجد أن الاحصائيات التي تعكس العدد الحقيقي لمتعاطي

(١٨) Masson, P. Corger J. and Kegan, Child Development and Personality, op. cit, p. 544.

(١٩) Wilson, H. Parental Supervision, Aneglected Aspect delinuency (British Jaurnal of crimionlogy, vol 20, 1980, pp. 203-235).

(٢٠) Earl, Walter Maorris, Absent Fathers and Problem Behaivior Acomparisor of Children from Broken and nonbrokent homes (Wester Michigan University, 1983) pp. 1-12.

المخدرات ليست دقيقة ويرجع السبب إلى عدم اكتمال الاحصاءات في كثير من دول العالم إذ أن أغلب المخالفات تقوم الشرطة بالاهتمام بها وتقوم بإجراء ما يجب عمله فلا تصل إلى المحكمة وبالتالي لا تسجل ويحدث هذا كثيراً بالنسبة للأحداث الجانحين مرتكبي هذه الجرائم والذين يكونون من عائلات غنية وهذا بعكس الجانح الذي يأتي من عائلة فقيرة. ومعنى ذلك أن تقييم المخالفة أو الجريمة قد يتحدد بعوامل اجتماعية[٢١].

ولقد أوضحت الإحصاءات الحديثة في العالم الغربي أمراً خطيراً هو أن ١٢٪ من الأطفال، ٢٢٪ من الصبيان يقفون أمام محاكم الأحداث وأن أكثر أنواع الجنوح خطورة هو السطو. وقد تبين من تحليل أسبابه أن وراءه عوامل تتعلق بتعاطي المخدرات بكل أشكالها وأنواعها[٢٢].

ولقد ذكر بعض علماء الاجتماع والنفس أن الجناح ينتشر بسرعة متزايدة فقد لوحظ أن نسبة الجريمة ارتفعت منذ عام ١٩٦٠م إلى ١٩٧٩م بنسبة ٨, ٣٤٪ عند الأفراد الذين تقل أعمارهم عن ١٨ سنة. وهذا بلا شك يهدد أمن واستقرار المجتمع[٢٣].

كما دلت الدراسات الحديثة على أن الشباب الذي يتعاطى المخدرات والذين يكونون في سن دون ١٨ سنة يرتكبون الجرائم بدون تمييز ففي فرنسا كانت نسبة الاعتداء من جانب متعاطي المخدرات ٦٦٪ ونسبة ٨٢٪ ارتكبوا جرائم العنف، ٥٢٪ جرائم القتل، ٧٦٪ ارتكبوا جرائم التعدي على الموظفين الرسميين[٢٤].

ولقد بلغت حالات الوفيات بين الأحداث والشباب ـ في سويسرا ـ نتيجة تعاطي

---

(٢١) Gibbs. J. and Ericson, M., Major Development in the Socialogical Study of Deviance (Annual Review of Sociology, 1975) pp. 21-23.

(٢٢) Toder, N. and Marcia, J. Ego identily status and response to Conformity pressure in college women, Jowrnal of personality and social paychology, (1973) vol. 26, pp. 237-255.

(٢٣) Vasta, E, R, and White hurste, G. Dhild Behavior (Boston, Houghton mifflin Company, 1977) p. 468.

(٢٤) د. محمد عبدالعليم مرسي، دور البرامج الدينية في معالجة قضايا ومشكلات المجتمع (الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ) ص ٢٦.

المخـدرات سواء من خلال التعـاطي أو الاستنشاق ١٠٧ حالات عام ١٩٨١م في مقابل ٨٨ حالة عام ١٩٨٠م، ١٠٢ حالة عام ١٩٧٩م[٢٥].

ولم يقتصر الأمر في السنوات الأخيرة على المخدرات الطبيعية بل انتشرت في الآونة الأخيرة سموم حديثة أخذ استعمالها يتفاقم يوماً بعد يوم وخاصة في أوساط الصبية والشباب. وذلك راجع إلى أنها لم تخضع بعد إلى قوانين صارمة تنظم تجارتها وكذلك سهـولة الحصول عليها، وكان أول من لفت النظر إلى هذه السموم أحد الموجهين التابعين لوزارة الصحة بكندا حيث تقدم بتقرير تأكد له منه أن ١٣٪ من الشباب الـذين تتراوح أعمارهم بين ٨ ـ ١٦ سنة يتعاطون بعض أنواع المحروقات البترولية (البنزين ومشتقاته) والتي تحدث مع الزمن تدهوراً خطيراً في قواهم العقلية.

وهنـاك العـديد من المشكـلات الاقتصـادية والاجتـماعية والنفسية التي تسببهـا المخـدرات ، فمن المشكلات النفسية الهامة التي يعاني منها متعاطي المخدرات النزعة إلى الانتحـار، فقـد بينت إحـدى الـدراسات على الأحداث المتعاطين للمخدرات في الأرجنتين أن ٨٪ من والدي الأحداث قد انتحروا أو حاولوا الانتحار. وقد اعترف ٣٠٪ من الأحداث أنهم حاولوا الانتحار مرة أو أكثر من مرة.

ولقد أبانت بعض الإحصاءات أن ثلث عدد حوادث الانتحار ومحاولات الانتحار تكـون بين المـدمنـين والمدمنات للمخدرات. وقد أظهرت الدراسات في الولايات المتحدة الأمريكية أنه من ١٥ ـ ٥٠٪ من حوادث الانتحار تكون بسبب المخدرات. وفي بريطانيا بلغت نسبـة الانتحـار بين المـدمنـين من ٨ ـ ٤٥٪. وفي بولندا دلت الدراسات على أن ٣٧٪ من الجرائم عام ١٩٧٦م كانت بسبب تأثير الكحول. وفي فرنسا كانت النسبة ٤٦٪ من مجموع الجرائم المرتكبة بسبب الكحول. كما أشارت البيانات إلى أن ثلثي الوفيات بسبب حوادث الطرق في أمريكا ناتجة عن تعاطي المخدرات[٢٦].

(٢٥) محمد محمد الهواري : المخدرات من القلق إلى الاستعباد (قطر، الرئاسة العامة للمحاكم، ١٤٠٦هـ) ص ٥١.

(٢٦) شحدة عقيلان عيد، الخمر في ضوء الشريعة الإسلامية (الكويت مطبعة الفلاح، ١٤٠٠هـ) ص ١٧.

على هذا فمشكلة المخدرات مشكلة دولية تحرص الكثير من الدول والهيئات المختلفة على القضاء عليها أو الحد منها للحفاظ على شعوبهم وأوطانهم من هذا الوباء الخطير.

كما أنها مشكلة يهم مجتمعنا الإسلامي التعرف على أبعادها والوقاية منها قبل الوقوع في براثنها.

حجم المشكلة في المملكة العربية السعودية :

تعتبر المملكة العربية السعودية جزءاً لا يتجزأ، من هذا العالم تتأثر به وتتفاعل معه، ولهذا لم تسلم من ظاهرة المخدرات، حيث بلغ عدد القضايا التي ضبطت في عام ١٤٠٦هـ (٤٢٧٩) قضية مخدرات تشمل ٦٠٤٦ متهماً مقارنة بعام ١٤٠٥هـ حيث بلغت القضايا التي ضبطت حوالي ٣٨٢٢ وتشمل ٥٦٧٢ متهماً بزيادة قدرها ١٢٪ في عدد القضايا و٥,٦٪ في عدد المتهمين عن عام ١٤٠٥هـ. كما بلغت كمية المخدرات الموزونة والتي ضبطت خلال عام ١٤٠٦هـ ٢٤٨١٥,٠٢٠ كيلو جراماً وتشمل هذه المخدرات القات والحشيش والأفيون والكوكايين وغيرها. وبمقارنة كمية المخدرات الموزونة لعام ١٤٠٦هـ بعام ١٤٠٥هـ نجد أنها زادت بنسبة قدرها ٢,٣٪ وتمثل نسبة القات ٩٠٪ من مجموع كمية المخدرات الموزونة كما تمثل نسبة الحشيش ٩,٧٪ و ٣,٠٪ أفيون وكوكايين وهيروين .

كما بلغت كمية المخدرات المقدرة بالحبة والمضبوطة في عام ١٤٠٦هـ حوالي (١٠٣٢٢٩٤٧) حبة بزيادة قدرها ٢٨٪ عن عام ١٤٠٥هـ وتشمل هذه المخدرات المتدركس والامفتيامين والسيكونال والكبتاجون وأنواعاً أخرى. وتمثل نسبة الكبتاجون لعام ١٤٠٦هـ ٨,٨٩٪ من كميات المخدرات المقدرة بالحبة وتليها كمية سيكونال بنسبة ١٠٪ و ٢,٠٪ للأنواع الأخرى[٢٧].

وتعتبر المنطقة الغربية أكثر مناطق المملكة التي ضبطت فيها أكثر القضايا حيث

(٢٧) الكتاب الإحصائي الثاني عشر لوزارة الداخلية، الإدارة العامة للتنظيم والبرامج لعام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ص ٤٧ ، ٥٤.

بلغت القضايا التي ضبطت فيها حوالي ٩٩٢ بنسبة ٢٣٪ وبلغ عدد المتهمين حوالي ١٧٨٦ متهماً بنسبة ٣٠٪ ويرجع ذلك إلى أن المنطقة الغربية بها ميناء جدة الإسلامي. ومطار الملك عبدالعزيز الدولي وتعتبر الميناء الرئيسي للمملكة الذي تستقبل منه معظم وارداتها كما أنها تعتبر المركز الرئيسي الذي يقدم إليه جموع الحجاج والزوار لأداء مناسك الحج والعمرة في مكة المكرمة والمدينة المنورة الأمر الذي يؤدي بالمهربين إلى استغلال هذه المناسبات لإدخال المواد المخدرة إلى المملكة وذلك للضغط الشديد الذي يواجهه العاملون في مطار الملك عبدالعزيز وميناء جدة الإسلامي، فيعمد المهربون إلى استغلال هذا الوضع. ولهذا يعتبر شهري ذي القعدة وذي الحجة من أكثر الشهور التي يتم فيها ضبط المهربين، حيث يبلغ عدد القضايا التي تضبط في هذه الأشهر حوالي ٣٠٪ من عدد القضايا.

ويمكن تقسيم عدد المتهمين في قضايا المخدرات على حسب نوعية القضية والجنس والجنسية لعام ١٤٠٦هـ على النحو التالي[٢٨]:

نوع القضية	العدد	النسبة	سعودي		غير سعودي	
			ذكور	إناث	ذكور	إناث
مستعمل	٣٥٧٦	٥٩٪	٢٧٩٣	٢٥	٧٤٢	١٦
مروج	٢٠٦٥	٣٤٪	١٠٥٤	٨	٩٩٢	٢٠
مهرب	٤٠٥	٧٪	١٠٨	١	٢٨٤	١٢
المجموع	٦٠٤٦	١٠٠٪	٣٩٤٦	٣٤	٢٠١٨	٤٨

(٢٨) الكتاب الإحصائي الثاني عشر لوزارة الداخلية، مرجع سابق، ص ٥٥.

كما يمكن تقسيم عدد المتهمين في قضايا المخدرات موزعين حسب الحالة الاجتماعية والتعليمية والمهنية لعام ١٤٠٦هـ حسب الجدول التالي[٢٩] :

المجموع	الحالة									
	الاجتماعية		التعليمية		المهنية					
	متزوج	أعزب	متعلم	أمي	موظف	متسبب	طالب	مهني	عاطل	عامل
٦٠٤٦	٣٠٤٩	٢٩٩٧	٣٢٥٦	٢٧٩٠	١٤١٩	١٣٢٢	١٨٢	٧٤٠	٩٧٨	١٤٠٥

كما بلغ عدد القضايا التي ضبطت في منطقة الرياض حوالي ٨١٢ بنسبة ١٩٪ تشمل ١٢٨٩ متهماً بنسبة ٢١٪ من عدد المتهمين في المملكة. هذا ويمكن حصر قضايا جناح الأحداث والتشفيط والسكر والمخدرات كنمط من هذا الجناح بمدينة الرياض خلال السنوات الخمس من عام ١٤٠٠هـ - ١٤٠٤هـ في البيان الإحصائي التالي[٣٠].

السنة	قضايا الأحداث	قضايا التشفيط	قضايا السكر/كلونيا	قضايا الحبوب المخدرة
١٤٠٠	٦٤٥	١٠	٨٦ ١١٩	٢٣
١٤٠١	٦٩٦	١٠	٥٧ ٩٨	١٠
١٤٠٢	٨٢٦	١٧	٥٢ ٨٤	١٥
١٤٠٣	١٢٣٥	١٢	٢٥ ٥٤	١٧
١٤٠٤	٨٣٥	١٢	٣٥ ٧٢	١٢

وقد لوحظ من واقع السجلات الخاصة بالأحداث أن ٩٠٪ من حالات التشفيط

(٢٩) الكتاب الإحصائي الثاني عشر لوزارة الداخلية، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

(٣٠) مندل عبدالله القباع، التشفيط المخدرات الطيّارة كنمط من أنماط جناح الأحداث، غير مطبوع مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦.

تراوحت أعمارهم بين ١٢ ـ ١٥ وقد اكتشفت أول حالة تشفيط في مدينة الرياض عام ١٣٩٩هـ في قسم شرطة الديرة.

أما في عام ١٤٠٧هـ فبلغ عدد الأحداث المودعين في دار الملاحظة بالرياض والمتهمين في قضايا السكر حوالي ١٠٥ حالات، وفي قضايا المخدرات ٢٩ حالة بنسبة مقدارها ١٥,٠٤٪ من عدد الحالات المودعة في الدار.

ويعتبر حي منفوحة أكثر أحياء مدينة الرياض التي تعاني من ظاهرة الخمور والمخدرات حيث تبلغ الحالات التي ضبطت في هذا الحي حوالي (٣٢) حالة سكر، ويرجع ذلك إلى أن غالبية سكان هذا الحي من الطبقات الدنيا في المجتمع كما يشتمل هذا الحي على سكان متعددي الجنسيات سواء كانوا عزاباً أو متزوجين، الأمر الذي يؤثر على سكان هذا الحي وذلك لاختلاف العادات والتقاليد بين سكان هذا الحي من المواطنين وبين السكان الوافدين[٣١].

وفي المدينة المنورة بلغ أقصى عدد للأحداث الجانحين المسجلين في السجن العام حسب إحصائية محرم ١٤٠٥هـ (١٥) جانحاً. وقد رحل الجانحون بعد صدور الحكم عليهم من قبل المحكمة الشرعية إلى دار الملاحظة بجدة لقضاء فترة العقوبة. ولقد انشئت دار الملاحظة بالقرار الوزاري رقم ١٣٥٤ وتاريخ ١٣٩٥/٨/٣هـ بموجب قرار مجلس الوزراء الموقر رقم ٩٦١ وتاريخ ١٣٩٥/٥/١٣هـ[٣٢].

وفي عام ١٤٠٧هـ تم تسليم ٤٣١ شخصاً متهمين بحيازة مواد مخدرة، وبلغت المضبوطات لديهم ١٧٣٦ قرص مخدر + ١٦ قرص مشتبه بها. بالإضافة إلى ٤٧ جرام من الحشيش وكذلك ١١ قطعة حشيش مختلفة الأحجام + ٤ سجائر حشيش + ١٢٧١ قارورة عرق وكلونيا + ٥٦ برميل خمور + ١٢ معمل لتصنيع الخمور + ٥ صناديق خمور + ٤٣ جركل وجالون + ٨٥ لفة قات. وقد بلغ المتهمين

(٣١) التقرير التحليلي لدار الملاحظة بالرياض عن عام ١٤٠٧هـ.

(٣٢) وزارة العمل والشئون الإجتماعية بالسعودية، مجموعة نظم ولوائح وكالة الوزارة للشئون الإجتماعية (الرياض، مطابع الكتاب التجاري، ١٩٨٤م) ص ٧٣ ـ ٧٦.

المضبوطين وبحيازتهم مخدرات باختلاف الجهات التي تم تسليمهم إليها عدد ١٣٦٠ شخصاً وجد معهم ٤١٧٠٢ قرص مخدر بالإضافة إلى ٧٤ قرصاً يشتبه أن تكون مخدرة[٣٣].

تحديد مشكلة البحث وصياغتها :

يتضح لنا من العرض السابق أن مشكلة تعاطي المخدرات ـ والإدمان عليها ـ تعتبر إحدى المشكلات المجتمعية التي تكتسب قدراً متعاظماً من الخطورة، وتستدعي ـ من ثم ـ جانباً كبيراً من الاهتمام سواء على المستوى الدولي، أو على مستوى العالم الإسلامي والعربي أو حتى على المستوى المحلي داخل نطاق المملكة..

وبالنسبة لمستوى المملكة. فإن هناك احتياجاً ضرورياً وملحاً لإجراء العديد من البحوث والدراسات العلمية المتعمقة لاستجلاء مختلف أبعاد هذه الظاهرة ومتغيراتها، وذلك حتى يمكن الانطلاق من نتائج هذه الدراسات والبحوث عند وضع خطة علمية تتسم بالتكامل والشمول، والدقة والمرونة، لمواجهة هذه المشكلة والقضاء عليها.

وهناك دراسات محلية كثيرة تناولت هذه المشكلة لعل أهمها :

١ ـ المخدرات : المشكلة والعلاج، للدكتور إبراهيم بن مبارك الجوير.
٢ ـ الجوانب الاجتماعية والأمنية لمشكلة المخدرات. للدكتور محمد إبراهيم زيد.
٣ ـ أثر المخدرات على الأمة وسبل الوقاية منها. أحمد عطية بن علي الغامدي.
٤ ـ حكم المخدرات وعقوبتها في الشريعة الإسلامية. عبدالله العلي الركبان.
٥ ـ تعاطي المخدرات. للباحث سليمان بن قاسم الفالح.
٦ ـ تعاطي المخدرات في بعض دول مجلس التعاون الخليجي. للباحث سيف الإسلام بن سعود بن عبدالعزيز آل سعود.
٧ ـ جريمة المخدرات في المملكة العربية السعودية. للباحث عبدالرحمن الباحوث.

(٣٣) التقرير الإحصائي السنوي لقيادة الدوريات والنجدة بمدينة الرياض (الرياض، ١٤٠٧هـ) ص ٧٧.

٨ ـ دراسة بعض الجوانب النفسية لمتعاطي الحشيش في مدينة الرياض، للباحث أحمد عبدالله السعيد.

وهذه الدراسة تسعى إلى الحصول على إجابات لتساؤلين أساسيين هما :

أولاً : ما أهم العوامل التي ترتبط بظاهرة تعاطي المخدرات ؟

ثانياً : ما المنظور الإسلامي لهذه الظاهرة.

ومن الطبيعي أن هذين التساؤلين يتسمان بالعمومية والشمول. ولهذا فإن كلاً منهما يتمايز إلى عدد من التساؤلات الفرعية التي تتصل بمبحث ضيق أو زاوية محدودة.

ولذلك **فإن التساؤل الأول الخاص بأهم العوامل** التي تؤدي إلى التعاطي سيؤدي إلى التساؤلات الفرعية التالية :

أ) ما العوامل الشخصية المرتبطة بالتعاطي؟
ب) ما العوامل الاجتماعية المؤدية إلى التعاطي؟
جـ) ما العوامل الثقافية المتصلة بالتعاطي؟

كذلك فإن التساؤل الثاني الذي يتعلق بموقف الإسلام من المخدرات سيقودنا ـ هو الآخر ـ إلى عدد من التساؤلات الفرعية وذلك على النحو التالي :

أ) ما نظرة الإسلام إلى التعاطي؟
ب) ما تأثير الوازع الديني في الوقاية من التعاطي؟
جـ) ما أبعاد المنظور الإسلامي لمواجهة هذه المشكلة؟

وهكذا يدور هذا البحث حول محورين رئيسيين يتمثلان في مناقشة واستعراض أهم العوامل المرتبطة بظاهرة تعاطي المخدرات، ودراسة وتوضيح أهم أبعاد ومحاور المنظور الإسلامي لهذه الظاهرة باعتبارها ظاهرة مرضية (باثولوجية) ذات آثار مدمرة بالنسبة لكل من الفرد والجماعة والمجتمع ككل.

أهم المفاهيم الواردة بالدراسة :

تشتمل هذه الدراسة على عدد من المفاهيم مثل: العوامل، والمخدرات، والتعاطي، والإدمان وغيرها. ومن المفيد في الدراسات الإنسانية والاجتماعية أن يحدد الباحث المعاني والدلالات التي يقصدها من وراء استخدامه لأي مفهوم.

وتأسيساً على ذلك، نحاول في هذا الجزء استعراض وتحديد أهم المفاهيم الواردة بالدراسة حتى يتم التواصل المنشود بين القارىء والباحث. وحتى يحدد الباحث - بأكبر قدر مستطاع من الوضوح - ماذا يقصد بهذا المفهوم أو ذاك.

ولعل أهم المفاهيم التي تتطلب التحديد والتوضيح في دراستنا هذه تتمثل فيما يلي :

١ - المخدرات : سواء من الناحية اللغوية أو من الناحية الفنية والعلمية أو من الناحية القانونية .

٢ - أنواع المخدرات : وهذا المفهوم لا يشكل في حد ذاته مصطلحاً، غير أن الباحث عمد إلى توضيحه لأن مفهوم المخدرات - في دراستنا - ينسحب عن كل أنواعها وليس نوعاً واحداً منها فقط كما تفعل بعض الدراسات .

٣ - التعاطي : وذلك لأهمية التمييز - من وجهة نظر هذه الدراسة - بين مجرد التعاطي وبين الوصول إلى المرحلة الأخطر والأشد تدميراً وهي الإدمان.

٤ - الإدمان : وذلك لدحض الفكرة الشائعة عند البعض والتي مفادها أن المخدرات السوداء - كما سيتبين تفصيلاً - تصل عند مستوى «العادة» ولا تصل إلى مستوى «الإدمان» كما في المخدرات البيضاء.

وفيما يلي فكرة مختصرة عن أهم المعاني والدلالات التي يقصدها الباحث من استعماله لمثل هذه المفاهيم في الدراسة.

مفهـوم المخـدرات :

إن تعريف المخدرات أمر ضروري لفهم طبيعتها، علماً بأنه ليس هناك تعريف عام متفق عليه يوضـح مفهوم المخدرات، لذلك لم تحدد الاتفاقات الدولية تعريفاً واضحـاً للمخـدرات، حيث جاء في بعض التقـارير الخـاصة بالأمم المتحدة عام ١٩٧٩م الخاصة بالاتفاقية الوحيدة للمخدرات عام ١٩٦١م والتي عدلت اتفاقية عام ١٩٧٣ واتفـاقية المؤثرات الفعلية ١٩٧١م حصر المواد المخدرة فقط دون تعريف، متـدرجـين حسب درجة خطورتها في جداول ثلاثة ملحقة بكل اتفاقية الأخطر في الجدول الأول ثم الأقل خطورة في الثاني وهكذا. .

الجـدول الأول :

الاستورفين	الالفاميثوول	البنزيلمورفين
الاستبيلمثيادول	الالفابرودين	البيتاستيلميثادول
الاليبرودين	الانيسليريدين	البتامبيرودين
الالفايبرودين	البنزميثيدين	البياميثارول
القنـــب	الكونيتازين	ورقة الكوكة . . . إلخ
الكوكاكيين	الكودوكسيم	قش الخشخاش
الدويزومورفين	الديقوكسيلات	الايتورفين
الفيازوسين	الشيباكون	الثيبابين

ويمثل هذا الجدول ٨٩ صنفاً من المواد المخدرة ذات التأثير الضار جداً على صحة الإنسان يلي ذلك الجدول الثاني والذي يضم ٧ أنواع أساسية ولها جزئيات متعددة وهي :

الاستيلديهيدركوديين	النوركوديين	الكوريين
الفولوكودكين	الديهيدروكوديين	البروبيرام
النيكوكودين	البروبيرام	

أما الجدول الثالث فيشمل المواد الأقل خطورة وعددها (٧) أساسية عدا الجزئيات منها وهي :

الاستيديهيدروكودين	النيكودكوديين	الاثيلمورفين
الكوديين	النوركوديين	الديهيدروكوديين
دالفولكوديين		

وهذه إذا كانت مركبة مع مادة أو أكثر وكمية المخدر فيها لا تتجاوز ١٠٠ ملليغرام في الوحدة الدوائية الواحدة وكانت نسبة التركيز لا تتجاوز ٥ر٢٪ في المستحضرات غير المتجزئة[٣٤].

والاحصاء الأخير في فرنسا (١٩٨٦م) «إشار إلى أن المواد يفوق عددها ٥٠٠ مركب تتصف جميعها بتأثيرها على المتعاطي والمدمن وتؤدي إلى الاضمحلال البدني، والانهيار العصبي والضعف العقلي.

ولو حاولنا استعراض بعض المفاهيم لتعريف المخدرات نجد أن هناك من يعرفها بأنها: «أي مواد يتعاطاها الكائن الحي بحيث تعدل وظيفة أو أكثر من وظائفه الحيوية»[٣٥].

كما تعرف بأنها مادة طبيعية أو مصنعة، تفعل في جسم الإنسان وتؤثر عليه فتغير إحساساته وتصرفاته وبعض وظائفه وينتج عن تكرار استعمال هذه المادة نتائج خطيرة على الصحة الجسدية والعقلية وتأثير مؤذ على البيئة والمجموعة[٣٦].

ولقد حاول بعض الباحثين تعريف المخدرات علمياً وقانونياً وقد أشاروا إلى أن التعريف العلمي للمخدرات يشير إلى أن المخدر مادة كيميائية تسبب النعاس والنوم أو غياب الوعي المصحوب بتسكين الألم[٣٧] لذلك لا تعتبر المنشطات ولا عقاقير الهلوسة مخدرة وفق هذا المفهوم.

(٣٤) الأمم المتحدة، اتفاقية المؤثرات الفعلية لسنة ١٩٧١م، نيويورك، الأمم المتحدة ١٩٧٩م) ص ص ١٠ ـ ١٨.

(٣٥) محمد محمود الهواري، المخدرات من القلق إلى الاستعباد، (قطر، كتاب الأمة، شوال ١٤٠٧هـ) ص ٢٣.

(٣٦) فاروق عبدالسلام، سيكولوجية الإدمان (القاهرة، عالم الكتب ١٩٧٧م) ص ٣.

(٣٧) انطوان البستاني، المخدرات أعرف عنها وتجنبها (بيروت، المكتبة الشرقية، ١٩٧٩) ص ١٣.

بينما يشير التعريف القانوني إلى أن هناك مجموعة من المواد تسبب الإدمان، وتسمم الجهاز العصبي، ويحظر تداولها أو زراعتها أو تصنيعها، إلّا لأغراض يحددها القانون، ولاتستعمل إلّا بواسطة من يرخص له بذلك[٣٨].

وقد أشار د. سعد المغربي إلى أن: «المادة المخدرة هي كل مادة خام أومستحضرة تحتوي على مواد منبهة أومسكنة من شأنها ـ إذا استخدمت في غير الأغراض الطبية والصناعية الموجهة ـ أن تؤدي إلى حالة من التعود والإدمان عليها، مما يضر بالفرد والمجتمع جسمياً ونفسياً واجتماعياً[٣٩].

ويتفق الباحث مع وجهة النظر السابقة مباشرة، مع بعض التعديل الطفيف، حيث يرى أن مفهوم المخدرات يشير ـ في هذه الدراسة ـ إلى: أي مادة خام أو مستحضرة منبهة أو منشطة أو منومة، تحتوي على مواد تضر بالفرد والجماعة والمجتمع، إذا استخدمت في غير أغراضها المتعارف عليها.

(٢) أنواع المخدرات :

لا يوجد تصنيف متفق عليه في ميادين العلوم والتخصصات المختلفة حول أنواع المخدرات، ومن التصنيفات الشائعة للمخدرات ذلك التصنيف الذي يعتمد على «اللون» حيث هناك مواد مخدرة داكنة اللون يطلق عليها المخدرات «السوداء»، ومواد أخرى ليست داكنة يطلق عليها المخدرات «البيضاء».

وهذا التصنيف سهل وبسيط ولهذا يستخدمه أكثر رجال الشرطة ورجال القانون وإن كان يستخدم أيضاً في بعض الكتابات العلمية. وطبقاً لهذا التصنيف الثنائي تقسم المواد المخدرة إلى نوعين وهما :

أ) المخدرات السوداء: وهي المواد المخدرة التي تتميز بأن لونها داكن أو يميل إلى

(٣٨) عادل الدمرداش، الإدمان: مظاهره وعلاجه (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٣) ص ص ٩ ـ ١٠.

(٣٩) سعد المغربي، ظاهرة تعاطي الحشيش، دراسة اجتماعية (القاهرة دار المعارف، ١٩٦٣م) ص ٣٨.

السواد، ومثالها: الحشيش (نبات القنب) والأفيون (نبات الخشخاش).

ب) المخدرات البيضاء: وهي المواد المخدرة التي تتميز بأن لونها أبيض أو يميل إلى البياض ومثالها: المساحيق والسوائل المختلفة التي يتم تعاطيها حقناً، أو شرباً، أو شماً (الهيروين والكوكاكين والكودايين... إلخ) والأقراص (المنومة، والمنبهة، والمهدئة... إلخ) وغيرها كالغازات الطيارة التي لا لون لها.

وهناك تصنيفات أكثر تعقيداً حيث تعتمد على مصدر المادة المخدرة وليس لونها. ومن الملاحظ أن هذه التصنيفات الأخيرة تعتبر أكثر علمية لأنها أكثر دقة، ولهذا تشيع في الكتابات العلمية والطبية.

ويقترح الباحث تصنيفاً ثلاثياً للمخدرات يعتمد على مصدر المادة المخدرة، وطبقاً لهذا التصنيف تنقسم المواد المخدرة إلى ثلاثة أنواع كما يلي:

١ ـ المخدرات الطبيعية.
٢ ـ المخدرات الصناعية.
٣ ـ المخدرات الاصطناعية.

سنعرض باختصار لأهم هذه الأنواع وسوف نشير بصورة أوسع للمذيبات باعتبارها من المواد المخدرة التي بدأت في الانتشار وبصفة خاصة بين صغار السن والشباب ثم نعرض بعد ذلك لأهم العوامل الدافعة إلى تعاطيها.

أولاً: المخدرات الطبيعية:

وهي: «تلك النباتات التي تحتوي أوراقها وزهورها وثمارها على المادة المخدرة الفعالة التي ينتج عنها فقدان كلي أو جزئي للإدراك بصفة مؤقتة، ومنها ما هو منتشر ومعروف دولياً ومنها المعروف على المستوى الإقليمي فقط»[٤٠] وهي:

(٤٠) عبدالرحمن موسى: المواد المخدرة وطرق مكافحتها (الرياض، وزارة الداخلية، الإدارة العامة للتدريب والتعليم والبرامج، ١٤٠٤هـ) ص ١١.

١ ـ نبات القنب الهندي أو الحشيش (Haschish) .
٢ ـ نبات الخشخاش أو الأفيون .
٣ ـ نبات الكوكا (Caca) .
٤ ـ نبات القات .

ثانياً : المخدرات الصناعية :

تعرف بأنها: «أشباه القلويات المستخلصة من المواد المخدرة الطبيعية الخام بوسائل صناعية وهي[٤١]:

١ ـ مخدرات مشتقة من الأفيون (المورفين، الهيروين، الكودايين).
٢ ـ مخدرات مستخلصة من أوراق الكوكا (الكوكايين).

ثالثاً : المخدرات الاصطناعية :

وهي: «التي تركب من مواد كيماوية أولية كالكربون أو الأكسجين أو الهيدروجين أو النيتروجين والبنزين وطلاء المساكن. . إلخ وتحدث عند إساءة استعمالها نفس الآثار التي تحدثها المخدرات الطبيعية وأهمها حالة الإدمان»[٤٢] ومن أنواعها :

١ ـ المنومات (الباربيتورات) .
٢ ـ المنبهات (الانفيتامينات) .
٣ ـ المهدئات .
٤ ـ عقاقير الهلوسة .
٥ ـ الغازات الطيّارة (الباتكس، اسيتون. . . إلخ).

ومن المحتمل أن تصبح هذه المخدرات الاصطناعية خطراً يهدد البشرية وسوف نشير إلى بعضها نظراً لأهمية هذا النوع وإمكانية تصنيعه وتداوله.

(٤١) أحمد سيد علي، كمال حمد، مذكرات في المواد المخدرة وأسلوب مكافحة جرائمها (الرياض، وزارة الداخلية، الإدارة العامة لمكافحة المخدرات، بدون تاريخ) ص ٧٠.
(٤٢) أحمد سيد علي، كما حمد، كالمرجع السابق، ص ٣٧.

(١) المخدرات المنبهة (الامفيتامينات) :

وقد اكتشفت عام ١٨٨٧م وظلت متعذرة الصنع حتى عام ١٩٢٧م وعندما توصل أحد الأشخاص ويسمى (Alles) إلى مادة تفيد في صنع هذه المنبهات كان يبحث عن الأفيدرين. وفي عام ١٩٢٩م تمكن (Emde) من تحضير مادة الاميفتامين[٤٣]. وقد بدأ في استخدام الامفيتامينات عام ١٩٣٠م عندما استخدمت لعلاج احتقان الأنف. وقد لوحظ أن لها تأثير قوي وفعّال، وقد ساعد ذلك على استخدامها أثناء الحرب العالمية الثانية للقضاء على التعب لدى الجنود[٤٤]. وقد استخدمت الامفيتامينات أيضاً لعلاج السمنة والبدانة، ويعتقد أن الأثر المنشط للمادة هو الذي يؤدي إلى فقدان الشهية للطعام، كما استخدمت أيضاً لعلاج حالات الرغبة الشديدة للنوم وهي تسمى «الخدر»[٤٥].

ولقد بدأ حالياً عدم استخدام الامفيتامينات في المجالات الطبية كمواد منشطة أو مواد قاطعة للشهية لأنها تعتبر الآن ذات استعمالات طبية محددة كما تعتبر محدودة بالنسبة لعدد ضئيل من المرضى[٤٦].

ولقد لوحظ أن الامفيتامينات قد استخدمت بكثرة بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة عندما تعاطاها سائقو شاحنات المسافات الطويلة، كما انتشر استخدامها بين الشباب، نتيجة الاعتقاد الخاطىء بأنه يساعد على التركيز أثناء الاستذكار في فترات الامتحان[٤٧].

ولقد قدم أحد اليابانيين ويدعى «ماساكي» من جامعة «هوكايدو» تقريراً إلى

(٤٣) أنور عبدالحميد، سوء استعمال الامفيتامينات (القاهرة، الندوة الدولية لتعاطي المخدرات، ١٩٧١م) ص ٣١٠.

(٤٤) انطوان البستاني، المخدرات أعرف عنها وتجنبها (بيروت، المكتبة الشرعية، ١٩٧٩) ص ٢٨.

(٤٥) حسن قطب، مواد الإدمان الشائعة (الرياض، المطابر الأهلية، ١٤٠١هـ) ص ١٥٥.

(٤٦) كرامر وكلمرون ترجمة حمدي الحكيم، الإدمان على العقاقير المخدرة (جنيف، الأمم المتحدة، فرع المخدرات، ١٩٧٧م) ص ٢٢.

(٤٧) حسن قطب، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

منظمة الصحة العالمية فضح من خلاله استعمال بلده للمنومات وقد ظهر من خلاله أن أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ شخص يتعاطون الأمفيتامينات وأن الأمر وصل ببعضهم إلى الإدمان والوقوع في الأمراض النفسية[٤٨].

هذا وقد وصل معدل انتاج الامفيتامينات عام ١٩٦٠م إلى ١٠ بلايين حبة بواقع ٣٥ ـ ٥٠ حبة لكل شخص في الولايات المتحدة الأمريكية[٤٩].

ومن أكثر أنواع الامفيتامينات شيوعاً :

١ ـ الأمفيتامين (Amphetamine) .
٢ ـ الديكافيتامين (Dexaphetamine) .
٣ ـ الميتامفيتامين (Metamphetamine) .
٤ ـ الفيمترازين (Phemetrazine) .
٥ ـ الكبتاجون[٥٠] (Captagon) .

ويتم تعاطي الامفيتامينات عن طريق الفم، أو البلع أو الحقن في الوريد[٥١].

الآثار المصاحبة لتعاطي الامفيتامينات :

من خلال الآراء التي طرحت حول هذه الآثار لوحظ أنها تتمثل في: رفع الروح المعنوية، الإحساس بالرضا، القدرة على التحمل وخاصة في حالات الجرعات الكبيرة. وكذلك زيادة الانتباه واليقظة إلّا أن الفرد يشعر بعد ذلك بحلول التعب في الوقت غير المناسب لما يتسبب في وقوع الحوادث الخطيرة، حيث يمكن أن يستغرق

(٤٨) صلاح يحياوي، المخدرات (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م) ص ١٤٢.
(٤٩) جمال الدين حسن بلال، أضرار المسكرات والمخدرات النفسية (السعودية المدينة المنورة، المؤتمر الإسلامي العالمي لمكافحة المخدرات، ١٤٠٢هـ) ص ١٧.
(٥٠) صلاح الدين البرلسي، الكشف عن المواد المخدرة بالوسائل العلمية (الرياض، وزارة الداخلية، الإدارة العامة للتدريب، ١٤٠٤هـ)، ص ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٥١) أحمد سيد علي، وكمال حمد، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨.

الشخص في النوم وهو يقود سيارته[٥٢]، كما أنها تسبب أعراضاً جانبية تبدو على هيئة صداع وقلق وفقدان للشهية ودوار واضطراب وهذيان وجفاف بالحلق واضطرابات هضمية بسيطة وازدياد سرعة ضربات القلب وتغيرها[٥٣].

ولقد بينت شعبة المخدرات في الأمم المتحدة أن أعراض التسمم بالامفيتامينات تتميز بتغيرات سلوكية عميقة، وحالات ذهان. مع هلوسات سمعية وبصرية ولمسية قد تكون مصحوبة بمشاعر الهلع أو العدوانية والاندفاع لارتكاب أعمال خطيرة ضد المجتمع[٥٤].

أعراض الامتناع عن الامفيتامينات :

يظهر على الشخص المتعاطي للأمفيتامينات بعد الانقطاع عنها أنه يعاني من الانقباض الجسمي والنفسي مما يدفعه إلى العودة لتعاطي هذه المادة من جديد ولا يمكن أن نعتبر أعراض الانقطاع عنها مهددة لحياة الفرد من الناحية الجسمية. إلّا أن المعاناة الحادة من الشعور بالانقباض قد تزيد احتمالات التجاء المدمن إلى الانتحار[٥٥].

(ب) المخدرات المنومة (الباربيتورات) :

تعتبر الباربيتورات مجموعة مخدرات مسكنة وجالبة للنوم مشتقة من حامض الباربيوتريك (Barbituric acid acid) وتستخدم هذه المادة، مع اختلاف تحضيرها على نطاق واسع فيى علاج الكثير من الأمراض والاضطرابات التي تحتاج إلى التسكين والنوم، وتوصف هذه المجموعة طبياً في حالات الاضطراب العصبي والقلق الانفعالي وفي الحالات التي تحتاج إلى تقليل التوتر، ورد فعل الجسم للمنبهات

(٥٢) كرامر وكامرون، مرجع سبق ذكره ص ٨٢٢

(٥٣) أنور عبدالحميد، مرجع سبق ذكره، ص ٣١.

(٥٤) شعبة المخدرات ، الأمم المتحدة ، الأمم المتحدة ومراقبة العقاقير، نيويورك، ١٩٨١، ٢٢٢.

(٥٥) كرامر وكامرون، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣.

الخارجية وكذلك للتوترات والصراعات الانفعالية الداخلية وفي الاضطرابات الجسمية المصحوبة بتوتر انفعالي، أو في حالات الربو[٥٦].

وتذكر اللجنة الوطنية للدراسات الخاصة بالتوعية بظاهرة المخدرات والمسكرات بالأردن أن تاريخ استحضار الباربيتورات يرجع إلى حين قام العالمان «كونارد» و«تزايت» عام ١٨٨٢ بصنع أول مركب نتيجة اتحاد البولة مع حامض المالونيك سمياه «باربيتال..» ومع ذلك لم تدخل هذه المادة الجديدة مجال الطب إلّا في عام ١٩٠٤م بعد أن عرفت الخواص التي تتميز بها[٥٧].

ولقد راج استعمال هذه المادة بين النساء المتوسطات العمر بقصد العلاج من أعراض نفسية كالقلق والأرق ثم استخدمه المراهقون من الشباب المنحرفين. ولقد كان هذا العقار من أهم وسائل الانتحار في أوربا وأمريكا[٥٨].

ولقد صنفت شعبة المخدرات بالأمم المتحدة الباربيتورات تبعاً لتأثيرها على الإنسان إلى ثلاثة أنواع هي :

١ ـ طويلة المفعول من ٨ ـ ١٢ ساعة مثل الفينوباربيتال .
٢ ـ متوسطة المفعول من ٤ ـ ٦ ساعات مثل البنوباربيتال .
٣ ـ قصيرة المفعول ذات مفعول مؤقت أقل من ساعة أو من ١ ـ ٣ مثل التيوبنتال[٥٩].

وتوجد الباربيتورات على هيئة أقراص بواسطة الفم أو حقنة في العضل أو الوريد[٦٠].

(٥٦) د. سعد المغربي، ظاهرة تعاطي الحشيش ودراسة نفسية اجتماعية (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣) ص ٤١.
(٥٧) اللجنة الوطنية للدراسة والتوعية بظاهرة المخدرات والمسكرات بالأردن، حقيقة المخدرات، (الأردن، وزارة الصحة، ١٩٨٣م) ص ٤٧.
(٥٨) أسامة الراضي، محاضرات وندوات مختارة في الصحة النفسية (السعودية، الطائف، وزارة الصحة، بدون تاريخ) ص ٣٩.
(٥٩) شعبة المخدرات بالأمم المتحدة، مرجع سبق ذكره، ص ١٩.
(٦٠) أحمد سيد علي، وكمال أحمد ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧.

آثـار تعاطـي الباربيتورات :

بالرغم من أهمية استخدام الباربيتورات في الطب الحـديث ، إلّا أن استخدامه بدون استشـارة الـطبيب المعالج يؤدي إلى الإدمان الذي يسبب: فقدان الذاكرة. الإهمـال في المـظهر، الضعف العقلي، وأخيراً يؤدي إلى الجنون وتبدو أول أعراض البـاربيتـورات بالإرتخـاء الجسـدي العـام، ثم يتبعه عدم تناسق في الحركات التي تستوجب بعض المهارة، ثم يبدو الكلام غير مترابط، وينتاب المتعاطي دوار فيتمايل في المشي، ويرى الأشياء مزدوجة، وبعد فترة يغرق في النوم، ومع ازدياد الكمية تحصل اخـطاء في تقدير الزمان والمكان بالإضافة إلى حالات نسيان متكررة مع اضطراب الجهـاز التنفسي ثم الدخول في غيبوبة، يليها هبوط في الضغط الدموي يمكن أن يسبب الوفاة إذا لم يعالج بسرعة.

أعراض الإنقطاع عن الباربيتورات :

يسبب الانقـطاع عن البـاربيتورات نوبات صرع[٦١] كما تظهر بعض الأعراض الأخرى مثل عدم القدرة على التحكم في التحرك العضلي، ارتعاش اليد والأصابع تزايد الضغط والدوار، اختلال الرؤية، التهوّع والقيء. وقد لوحظ أن هذه الأعراض تختلف من وقت إلى آخر. حيث تبدأ ظهور هذه الأعراض خلال ٢٤ ساعة من وقت تناول المادة وتبلغ أقصى درجاتها خلال يومين إلى ثلاثة أيام ثم تبدأ في الزوال تدريجياً. وقد تبدأ في اليوم الثالث بعض الاضطرابات النفسية والتي تأخذ شكل الاختلال مع حدوث تخيلات وهلوسة ثم تكون مصحوبة بالفزع. أما الأفراد الذين يعانون من حالة إدمان عضوي، فيجب أن نلاحظ جيداً أن الانقطاع الفجائي يهدد حياتهم، ولذلك يجب أن يتم الانسحاب عن العقار تدريجياً، حتى لا يتعرضوا لخطر الموت[٦٢].

(٦١) انطوان البستاني، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.

(٦٢) كرامر وكامرون، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥.

(ج) المذيبات الطيّارة (المستنشقات) Sedative Hupontics/inhalants

وتسمى علمياً Volatile Sotvents

ولقد جاء في تقرير الهيئة العربية السعودية للمواصفات والمقاييس، أنه من خلال فحص المواد التي يقوم الأحداث بشفطها ومنها مادة «البتكس» بخاخات البوية المعدنية أنها سامة ضارة بالعيون، ضارة بالصدر، ضارة بالرئة والجلد، ويجب إبعادها عن الأطفال[٦٣].

ولقد قامت هيئة الصحة العالمية بإدراج مجموعة من المواد التي تستنشق وصنفتها على أنها مواد تسبب الإدمان وهذه المواد تحتوي على الشحوم المائية المتطايرة وتوجد في البنزين، ومخفف الطلاء (التربنتين) ومزيل طلاء الأظافر والصمغ ومزيلات البقع وسوائل التنظيف ومواد أخرى كثيرة. ولقد بدأ استعمال هذه المواد بعد أن اكتشف غاز أوكسيد انيتروز (الغاز الضاحك) والذي كان يحدث النشوة والضحك واللهو.

ولقد انتشرت المستنشقات في أوربا مع أوائل القرن (١٩) وفي الستينات انتشرت بصورة وبائية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، واليابان، والسويد، والنرويج، وفنلندا، وعلى نطاق أخطر في الدانمارك، هولندا، وفرنسا حيث انتشر استنشاق الصمغ وباقي المواد المتطايرة، ومن العجيب أنها كانت بين الأطفال والشباب من ٩ ـ ١٨ سنة. وقد وجد أن هؤلاء الأبناء ومشكلاتهم الأسرية تفوق الوصف حيث ينتشر بين أسرهم حالات إدمان الخمر والجرائم مما يؤثر على سلوك الأبناء وبالتالي قيامهم باستنشاق هذه المذيبات الطيّارة وشعورهم بالمخدر والهلوسات مما يخفف آلام ومتاعب الحياة[٦٤].

ولقد لوحظ أن أكثر المواد انتشاراً في أوربا هي مخففات الطلاء وصمغ المطاط

(٦٣) الهيئة العربية السعودية للمواصفات والمقاييس، الرياض، المملكة العربية السعودية، تقرير بخصوص تحليل عينات المواد اللاصقة رقم ٥٤٩٨ بتاريخ ١٤٠٣/١١/٢٢هـ، ص ٤.

(٦٤) وزارة الداخلية، مركز أبحاث مكافحة الجريمة، المخدرات والعقاقير المخدرة (السعودية، مركز أبحاث مكافحة الجريمة ١٩٨٥م) ص ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

والصمغ وترايكلور ايثيلين والذي يدخل في المواد المنظفة، كما يستخدم البنزين أيضاً والصمغ الصناعي في بعض الأحيان.

وبالنسبة للبنزين فهو مركب من التولوين والرايلين والتيتراثيل وبعض مركبات الكلور والبروم ويحتوي أيضاً الرصاص الذي يزيد من خطورة استنشاقه. كما يسبب الرصاص بصورة خاصة أضرار على المخ والكليتين وكرات الدم الحمراء.

وبالنسبة للصموغ فإنها تحوي فحوم مائية كلوريدية سامة وتيتراكلور ايثلين وكلوروفورم وتولوين وزايلين.

هذا وليس لمواد الاستنشاق أسماء تجارية، بينما الأسماء الدارجة هي: جلو (Glue) (الصمغ، جاز Gas، سنف Sniff.

وفيما يلي مكونات المذيبات الطيارة والتي تستخدم كمواد استنشاق:

١ - سوائل التنظيف Cleaning Fluids وتحوي تتراكلوريد الكربون، النابثا، ببركلوثيلين، ترايكلورايثان، ترايكلوراثيلين.

٢ - مزيل طلاء الأظافر Nail Polish Remover أسيتون، استيتات أليفيه، بنزين.

٣ - الجازولين Casoline : النابثا وغيرها من الزيوت الطيّارة.

٤ - الملصقات المنزلية Household Thinners : الأسيتون، ميثيل ايثيل كيتون، ميثيل ايسوبتيل كيتون، تولوين.

٥ - مخلفات الطلاء Lacquer Cement استيتات اليفية، تولوين.

٦ - وقود الولاعات Light Fuid النابثا.

٧ - المواد اللاصقة وصمغ الطائرات : اسيتون، تولوين.

٨ ـ لواصق البلاستيك Plastic Cements الأسيتون، اسيتات اليفية بنزين، تولوين، ترايكلورايثلين، ن/هكسان.

٩ ـ لاصق الاطارات Rubber Tire Patching Cement بنزين ، هكسان ترايكلورايثلين.

هذا ولكل من هذه المركبات الطيارة آثارها المدمرة وبصفة خاصة على صغار السن .

ولقد قامت وزارة الصحة بالمملكة العربية السعودية بدراسة وتحليل للمواد التي يقوم بتشفيطها الأحداث وقد تبين أن عينات اللواصق ومادة التشفيط المتداولة في الأسواق والتي تم سحب عدد منها بمعرفة الإدارة العامة لحماية المستهلك، ذات تأثير ضار على العيون والصدر والرئة والجلد ويجب إبعادها عن الأطفال.

وهناك نوع من اللدائن الحرارية يسمى كحول الفنيل المركب وجد أن له رائحة الكحول المخدرة[٦٥]. والملاحظ أن سهولة الحصول على هذا المخدر ومن ثم الإدمان عليه تجعل الحدث الصغير ينشغل تماماً بالبحث عن الطرق التي تمكنه من الحصول على هذا المخدر، والعثور على أماكن بعيدة أو مهجورة لممارسة الإدمان بعيداً عن أعين ذويه أو معارفه أو دوريات الشرطة. ومن ثم يهرب من المدرسة أو يتغيب عنها. وقد يلجأ إلى السرقة وغير ذلك من مظاهر الانحراف.

ويمكننا أن نختتم هذا الجزء بإيراد جدول يوضح المعلومات الضرورية عن أهم المخدرات وخصائصها.

(٦٥) وزارة الصحة الهيئة العامة للمواصفات والمقاييس، ص ص ٦ ـ ٨.

جدول يوضح المعلومات الضرورية عن أهم المخدرات المعروفة

الاسم	المصدر	التصنيف	الاستخدام الطبي	كيفية التعاطي	الجرعة المعتادة	فترة التأثير	الأثر المطلوب	الأعراض طويلة المدى	احتمال الاعتياد العضوي	احتمال الاعتياد العقلي	احتمال الضرر العضوي
الهيروين	شبه مصنع من المورفين	مخدر	إزالة الألم	بالحقن أو الاستنشاق	تختلف	٤ ساعات	النشوة	الادمان فقدان الشهية	نعم	نعم	لا
المورفين	طبيعي، من الأفيون	مخدر	إزالة الألم	بالحقن أو البلع	٢٥ مليغ	٦ ساعات	النشوة	الادمان والاسهال وفقدان الشهية	نعم	نعم	لا
الكودايين	نفسه	مخدر	تخفيف الوجع والسعال	بالبلع	٣٠ مليغ	٤ ساعات	الخفة والطرب	الادمان والاسهال وفقدان الشهية	نعم	نعم	لا
الميثادون	مصنع	مخدر	إزالة الألم	البلع أو الحقن	١٠ مليغ ١٠ مليغ	٤-٦ ساعات	التداوي منه	الادمان والاسهال وفقدان الشهية	نعم	نعم	نعم مع الخدر
الكوكايين	طبيعي من الكوكا وليس	مخدر منبه، موضعي	التخدير الموضعي	استنشاق بلع-حقن	تختلف	فترة وجيزة	الاثارة	الاكتئاب التشنجات	لا	نعم	لا
الماريجونا	طبيعي	مروج جالب للهلوسه	لا يوجد	التدخين، بلع استنشاق	١-٢ سيجارة	٤ ساعات	الاسترخاء	لا شيء في العادة	لا	نعم مع تحفظات	نعم
الباربيتورات	مصنع	مسكن، منوم	تخفيف ضغط الدم	البلع الحقن	٥٠-١٠٠ مليغ	٤ ساعات	تخفيف	الادمان تشنجات	نعم	نعم	نعم
الامفيتامينات	مصنع	منبه	تخفيف الاكتئاب البسيط	البلع	٢,٥-٥ مليغ	٤ ساعات	النشاط اليقظة	فقدان الشهية الوسواس	لا	نعم	نعم مع الخدر
ل. اس. دي	نسبة مصنع	مهلوس	استخدامات تجريبية	الحقن	١٠٠-٥٠٠ ميكروغرام	١٠ ساعات	تغيب الحواس	الوهم، الهلوسة الهلع	لا	لا مع الخدر	لا مع الخدر
دي. أم. تي	مصنع	مهلوس	لا يوجد	البلع	١-٣ مليغ	أقل من ساعة	تغيب الحواس	؟	لا	لا مع الخدر	لا مع الخدر
المسكالين	طبيعي (من البيوتي)	مهلوس	لا يوجد	البلع	٣٥٠ ميكروغرام	١٢ ساعة	تغيب الحواس	؟	لا	لا مع الخدر	لا مع الخدر
السيلوسايبين	طبيعي من البلبلين	مهلوس	لا يوجد	البلع	٢٥ مليغ	٦-٨ ساعات	تغيب الحواس	؟	لا	لا مع الخدر	لا مع الخدر
التبغ	طبيعي	منبه مهدىء	مخدر	استنشاق تدخين مضغ	تختلف	تختلف	الهدوء	سرطان الرئة	نعم	نعم	نعم
الكحول والخمر	طبيعي من الكروم والحبوب	مسكن منوم	مذيب معقم	الشرب	يختلف	١-٤ ساعات	تغيب الاحساس الانطلاق	العصاب الجنوني تلف الأعصاب	نعم	نعم	نعم

المصدر : مجلة المبتعث، العدد ١٠٣ شوال ١٤٠٨هـ، مايو ١٩٨٨م، المخدرات خطر يهدد كيانات الأمم والحضارات (ص ١٢) عن (٦٦) Encyclopedia of Sociology

(٦٦) مجلة المبتعث، المخدرات خطر يهدد كيانات الأمم والحضارات (واشنطن، ١٩٨٨م، ١٤٠٨هـ، العدد ١٠٣ ص ١٢). Encyclopedia of Sociology .

وهكـذا يتبين لنا أن هناك ثلاثة أنواع من المخدرات : طبيعية (موجودة بأوراق وزهور وثمار نباتات معينة)، وصناعية (مستخلصة من المواد المخدرة الطبيعية الخام بوسائل صناعية)، واصطناعية (مركبات من مواد كيماوية أولية).

(٣) مفهـوم التعاطـي :

تعاطي المخدرات Drug Use جاء في لسان العرب لابن منظور أن التعاطي هو تناول ما لا يحق ولا يجوز تناوله[٦٧]، ويعرف أنه: استخدام أي عقار مخدر بأية صورة من الصور المعروفة في مجتمع ما للحصول على تأثير نفسي أو عقلي معين، ولا يتضمن ذلك أية إشارة إلى الإدمان. وعلى ذلك فقد يكون المتعاطي مدمناً وقد لا يكون كذلك. كما أن بعض أنواع المخدرات يؤدي بالمتعاطي إلى الإدمان، والبعض الآخر لا يؤدي به إلى ذلك[٦٨].

وهنـاك من يعـرف تعـاطي المخـدرات بأنـه: رغبـة غير طبيعية يظهرها بعض الأشخـاص نحو مخدرات ـ أو مواد سامة ـ تعرفوا ـ إرادياً ـ أو مصادفة ـ على آثارها المسكنة والمخدرة أو المنبهة والمنشطة، وتسبب حالة من الإدمان تضر بالفرد والمجتمع جسمياً ونفسياً واجتماعياً[٦٩]

ويمكن للباحث أن يحدد خمسة أبعاد أساسية يراها ضرورية عند تعريف ظاهرة تعاطي المخدرات. وهذه الأبعاد الخمسة تتمثل فيما يلي:

أ) الاستخدام : أي ممارسة تناول المادة المخدرة.
ب) مفهوم التعاطي ينسحب على كل أنواع المخدرات.
جـ) صور التعاطي متعددة ومتنوعة، وهي تختلف باختلاف تنوع المادة المخدرة،

(٦٧) ابن منظور، لسان العرب، (القاهرة، دار المعارف، جـ٢، غير محدد التاريخ) ص ٣٠٠٢.

(٦٨) المركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية، تعاطي الحشيش التقرير الأول (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠) ص ١٢٦.

(٦٩) التـوهـامي المكي، ظاهـرة تعاطي المخدرات في أوساط الشباب بالمغرب، المجلة العربية للدفاع الاجتماعي (الرباط، جامعة الدول العربية، العدد ١٣، ١٩٨١م) ص ٣٢٢.

وباختلاف المجتمعات نفسها (الثقافة الفرعية للتعاطي في كل مجتمع).

د) الهدف من التعاطي مقصود ـ أو مدرك على أقل تقدير ـ ويتمثل في الحصول على تأثيرات نفسية وعقلية وجسمية معينة.

هـ) التعاطي غير الإدمان، والعلاقة بينهما ليست بسيطة، فإذا كان يستحيل أن يحدث إدمان بدون تعاطي، فإنه ليس حتماً أن يؤدي كل تعاطٍ إلى الإدمان.

(٤) مفهوم الإدمان :

يشير مفهوم الإدمان Drug Addicition إلى حالة تسمم مزمنة ناتجة عن الاستعمال المتكرر للمخدر. ويرى البعض أن هناك خصائص للإدمان تتمثل فيما يلي:

أ) تشوق وحاجة مكرهة لتعاطي المخدرات والحصول عليها بشتى الوسائل.

ب) نزعة لزيادة الكميات.

جـ) تأثيرات مؤذية للفرد والمجتمع.

د) خضوع وتبعية جسدية ونفسية لمفعول المخدر.

هـ) ظهور عوارض النقص عند الانقطاع الفوري عن المخدر، اختيارياً كان أم اجبارياً[٧٠].

ويمكن الاعتماد على هذا التحديد لخصائص الإدمان مع مراعاة أن تحول التعاطي إلى مستوى الإدمان يتوقف على عاملين هما: شخصية المتعاطي، ونوع المخدر.

العوامل المؤدية إلى تعاطي المخدرات :

يهتم علم الاجتماع بدراسة الظواهر الاجتماعية الموجودة في المجتمع دراسة علمية منظمة، ويضع لها النظريات التي تستطيع أن تفسرها وتستطيع أن تتنبأ بتطورها في المستقبل. وتعاطي المخدرات باعتباره سلوكاً منحرفاً Deviant يتمثل في عدم

(٧٠) سليمان بن قاسم الفالح، تعاطي المخدرات (السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الإجتماعية، قسم الإجتماع، ١٤٠٧هـ) ص ١٦.

مسايرة المعايير الاجتماعية، ويفضل علماء الاجتماع استخدام مصطلح انحراف بدلاً من استخدام «السلوك الشاذ» نظراً لارتباط المصطلح الأخير بالمرض النفسي أكثر من ارتباطه بعدم التوافق أو الصراع.

وقد أجريت دراسات عديدة ـ حاولت البحث عن العوامل المؤدية إلى تعاطي المخدرات ـ أشرت إلى بعضها في بداية البحث ـ وبخاصة عدم التوافق الاجتماعي، وتبين أن هناك عوامل متعددة وراء تعاطي المخدرات كما تبين من بعض النتائج أن الأفراد الذين يرفضون معايير الجماعة الكبرى غالباً ما يحاولون تكوين جماعات فرعية تضم بعض رفاقهم في الإنحراف. ويهمنا أن نشير هنا إلى أهم العوامل المحيطة بتعاطي المخدرات :

أولاً العوامل الشخصية وارتباطها بتعاطي المخدرات :

المقصود بالعوامل الشخصية تلك التي تدخل في تكوين الشخصية وقد دلت الدراسات والبحوث أن الناس يختلفون فيما لديهم من مقومات وصفات وميول واتجاهات من حيث الكم والنوع وإذا حدث أي خلل أو اضطراب في الشخصية فقد يدفع صاحبه إلى العكوف على تعاطي المخدرات أو غير ذلك من السلوك المنحرف. ولقد تبين من دراسة أجريت على عينة من الشباب المتعاطين للمخدرات أن هناك اختلافاً في السلوك والصفات الشخصية تظهر مبكرة في حياة المتعاطين للمخدرات من الشباب كما أنهم يختلفون عن غير المتعاطين في أمور عدة أهمها عدم الصدق ومضايقة الآخرين والجراءة وعدم حب الناس لهم[٧١].

ويذكر أرثر جيرسيلد (A. Jersild) وزملاؤه عن الأحداث المتعاطين للمخدرات أن لديهم سجلاً حافلاً بالسرقات أو التدخين في سن مبكرة بالإضافة إلى هروبهم من المنزل، وأنهم يقومون بهذا السلوك لاعتقادهم الخاص بأنهم بهذا السلوك

(٧١) Musson, P., Conger and Kagan, J. Child development and Personality. (N. Y., Hoper and publishees, 1979) p. 543

وهـروبهم خارج المنـزل وتعـاطيهم للمخـدرات إنما يتمتعون بحرية أكبر في الرأي والتفكير والسلوك[٧٢].

ولقد لوحظ من دراسة أخرى أن متعاطي المخدرات يتميزون بالجراءة كما أنهم يبرزون مظاهر سلوكية متعددة منها العمل ضد السلطة وما تصدره من قوانين، كما أنهم كثيرو الامتعاض عدوانيون ومظهرهم يدل على الشك والريبة[٧٣].

وفي إطار ذلك يعتبر تعاطي المخدرات سلوكاً بديلاً لتفادي الحرمان والإحباط، كما يرى بعض علماء النفس أن تعاطي المخدرات نشاط تعويضي لإعادة التوازن بين القصور والعجز من جهة، والإنجاز والعمل من جهة أخرى[٧٤].

لهذا يميل متعاطو المخدرات إلى رفض السيطرة الإجتماعية والتحدي والخروج على السلطة وعدم الإكتراث والفشل في التحصيل الدراسي ـ إذا كانوا طلاباً ـ ويبدو أن أكثر هذه الصفات دفاعية في طبيعتها مما يدل على سوء الفكرة التي كونها المتعاطي عن ذاته وإحساسه بأنه منبوذ وأنه غير مرغوب فيه حسب فكرته عن نفسه[٧٥].

إلّا أن هذه العوامل ليست هي الحاسمة، ولكن هناك عوامل أخرى ترتبط بالبيئة والوضع الإقتصادي والثقافي.

وسوف نحاول أن نشير إلى أهم هذه العوامل فيما يلي :

---

(٧٢) Jersild,A., Brook, J., and Brook, D., The Psychology of Adolescence, 3ed., N. Y., Mac-Millan Publisher, co., 1978) p. 412.

(٧٣) Fooder, E., Delinquency and susceptibity to social influence Among a dolescents as a fuctin of level moral development Journal of social psychology, vol. 86 (N. Y. 1972) pp. 257-258.

(٧٤) إبراهيم إمام، مسئولية أجهزة الإعلام ومدى تأثيرها في تكوين الرأي العام في مكافحة المخدرات والمسكرات (السعودية، المؤتمر الإسلامي العالمي لمكافحة المخدرات والمسكرات بالمدينة، ١٤٠٣هـ) ص ص ١١ ـ ١٤.

(٧٥) Fitts, W. and Hammer., The self concept and Delinquency, Nashville, Mental Health Center, Research Monography, No. 1, 1969) p. 81.

ثانياً عوامل البيئة الإجتماعية :

اهتم علماء الإجتماع في تفسيرهم للسلوك الإنحرافي بالتعرف على العمليات التي تؤدي إلى اكتساب الأفراد لهذا السلوك[٧٦]، وقد ظهرت بعض النظريات التي تؤكد على أهمية العوامل الإجتماعية في تفسير السلوك الإنحرافي بصفة عامة وتعاطي المخدرات بصفة خاصة[٧٧].

وقد حاول / سعد المغربي تفسير تعاطي المخدرات تفسيراً اجتماعياً يقوم على أساس افتراض أن أي سلوك إنساني ما هو إلّا نتيجة تتابع الخبرات الإجتماعية التي يكتسب من خلالها الفرد مفهوماً عن معنى السلوك والمواقف المرغوبة وغير المرغوبة[٧٨]، وهذا يتم من خلال الأسرة والمعايير والثقافة. . إلخ وفيما يلي عرض لذلك :

١ ـ الأسرة وعمليات التنشئة الإجتماعية :

الوالدان هما مفتاح الحياة بالنسبة للطفل إذ منهما يستمد العطف والمحبة والدفء العاطفي والأمن والأمان. ولذلك فإن كل ما يحدث أمام الطفل في البيت وما يلاحظه ويحس أو يسمع به يترك أثره وصداه في نفس الطفل. . . وعلى ذلك فإن ما ينشأ بين الوالدين من علاقات طيبة أو سيئة تؤثر في تكوين الطفل النفسي من حيث إنه أحد الذين من الممكن أن يظهر عليهم آثار بصمات طبيعة العلاقات الموجودة داخل البيت[٧٩].

ويعتبر الشجار الذي يحدث بين الوالدين أحد العوامل التي تفقد الطفل الشعور

(٧٦) سمير نعيم أحمد، الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي (القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٦٩) ص ٢٠٧.

(٧٧) سمير نعيم أحمد، خطر تعاطي المخدرات القائم بالمنطقة العربية وخارجها (القاهرة، الندوة الدولية للمخدرات، ١٩٧١م) ص ٨٤.

(٧٨) سعد المغربي، ظاهرة تعاطي الحشيش، دراسة نفسية اجتماعية (القاهرة دار المعارف، ١٩٦٣م) ص ٤٣٦.

(٧٩) محمد علي حسن، علاقة الوالدين بالطفل وأثرها في جناح الأحداث (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م) ص ١٦٩.

بالأمن لأنه يخاف على مصيره وقد يخشى أن يتحول الشجار إليه فيضربه أبوه أو تضربه أمـه أو يقسوان عليه وقد يظن أنهما يتشاجران بسببه فيشعر بالذنب وكثيراً ما يشعر بالحـيرة والبلبلة بين أن ينضم لأمه أو لأبيه ويصبح في وضع متأرجح يملؤه الخوف والقلق والإحساس بالضياع مما يفقده الثقة فيهما معاً بل وفي نفسه وفي غيره من الناس ويتـولـد لديه سلوك مضـاد للمجتمـع قد تكون أحد مظاهره الإقبال على تعاطي المخدرات، وخاصة إذا كانت الظروف الإقتصادية سيئة[٨٠].

وعـلى هذا يعتـبر الطفل ـ أو الشاب ـ هو ضحية الشجار الذي قد يحدث بين الوالدين، ومن ثم فإن العلاقات الطيبة بين الوالدين تعتبر من أهم العوامل التي تؤثر في نمـو الطفل الاجتماعي والنفسي كما أن هذه العلاقات تؤثر تأثيراً كبيراً على الجو السائد في محيط الأسرة ذلك لأنهما يقومان في الأسرة بدور القيادة والمثل الذى يحتذى به[٨١].

كما تؤكد النظريات الإجتماعية على قوة تأثير الوسط الإجتماعي على الفرد سواء أكان منحرفاً أم لا باعتبار أن تعاطي المخدرات يعتبر سلوكاً منحرفاً، لذا يمكن أن نعزو أشكال السلوك المنحرف في مرحلة الشباب بأنه «نتاج للوسط الاجتماعي والأسري» للشباب دون أن نغفل بطبيعة الحال التعود الفيزيولوجي على العقاقير منذ البدء في تعاطيها[٨٢].

ولهذا تمثل عملية التنشئة الاجتماعية عنصراً فعّالاً في التأثير المباشر وغير المباشر على شخصية الإنسان واتجاهاته المختلفة في المجتمع، حيث تمثل العملية التربوية التي يتم بها تعلم وتلقين الفرد أثناء مراحل نموه تلك الأنماط المختلفة من السلوك والتفكير وأنواع السلوك التي ترتضيها البيئة أو المجتمع الذي يعيش فيه[٨٣].

---

(٨٠) محمد علي حسن، المرجع السابق، ص ٩٥.

(٨١) روبرت شندر، ترجمة مصطفى الشعيني وآخرون، الطفل في السنوات الخمس الأولى (القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥٦م) ص ٧١.

(٨٢) أوديت موهوي، دي ماسون (ترجمة هالة الغنام) إدمان العقاقير والاستراتيجيات المتاحة لمكافحة إساءة استعمالها (القاهرة، مركز مطبوعات اليونسكو، العدد ٥٥، ١٩٨٤) ص ٩٣.

(٨٣) سعد المغربي وأحمد الليثي، المجرمون (القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٧) ص ٢٢٠.

ولـلأسرة تأثـير على تكـوين شخصية الإنسان وظيفياً وديناميـاً فهي تؤثر في نموه الجسمي والعقـلي والانفعالي والاجتماعي وقد أكد فروم From دور الأسرة في تشكيل خلق الفـرد وعن طريقها يكتسب الفرد الخلق الاجتماعي مع الاحتفاظ بما أسـماه بالخلق الفـردي. ويؤكـد ذلك سيزرلاند Sutherland في إطار نظريته الخاصة بالمخالطة الفارقة والتي كانت تنادي بأن السلوك الإنحرافي كنمط من أنماط السلوك يتعلم من خلال الآخرين خلال المخالطة، ويشير سيزرلاند إلى أن العوامل التي تهدد شخصية الفرد تكمن في الأسرة وتجعله عرضة للدخول في ألوان الإنحراف المختلفة وهي :

«وجود ميول إجرامية أو غير أخلاقية لدى بعض أعضاء الأسرة ـ وفقد السيطرة الأبوية لأي سبب من الأسباب وانعدام الجو العاطفي أو المشاعر الطيبة داخل المنزل والتدليل الزائد، الحيرة الزائدة أو وجود مشاعر الغيرة والإهمال وازدحام المنزل وغياب الرقابة الأسرية وتدخل الأقارب في التربية»[٨٤].

وقـد أثبتت إحـدى الدراسات الاجتماعية أن نسبة ٣٥٪ من الشباب دون سن العشرين يقبلون على تعـاطي المخـدرات وأن السبب في ذلـك يرجع إلى عمليات التنشئة الاجتماعية التي يمرون بها[٨٥].

كما أكدت دراسة أخرى وجود علاقة إيجابية بين نواحي القصور أو الاضطراب في وظائف عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة وبين تعاطي المخدرات. وأبرزت أن التعاطي مرتبط بفترة المراهقة أو ما قبلها والتي يلجأ فيها الشخص لجماعات التعاطي بحثاً عن الأمان وتحقيقاً لذات الفرد أو هرباً من سيطرة الأسرة[٨٦]

(٨٤) Sutherland E. and Donald, R., Principles of Criminalogy (N. Y. Bromm Company, 1955) p. 178.

(٨٥) سامية محمد جابر، الإنحراف الإجتماعي بين نظرية علم الاجتماع والواقع الإجتماعي (الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٠) ص ٣٤٩.

(٨٦) عبدالكريم العفيفي، ظاهرة تعاطي المخدرات وأثرها على التنمية الاجتماعية (القاهرة، دكتوراه، بحث غير منشور جامعة أسيوط، فرع سوهاج ١٩٨٤) ص ٤٦٤.

ومن خلال ما قام به Herbert من أبحاث على متعاطي الماريجونا وجد أن معظم أفراد العينة يعانون من اضطرابات أسرية، وأنهم يريدون أن يحددوا أسساً جديدة للتعامل مع والديهم تقوم على أساس عدم الانصياع إلى أوامر الوالدين والرغبة في الحصول على النشوة والسعادة فقط بعيداً عن التأثير العائلي(٨٧).

ومن خلال الدراسة التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية ـ مركز أبحاث بوسطن ـ في الفترة من ١٩٦٧م إلى ١٩٧٧م وجد «أن الأطفال الذين يتعاطون المخدرات ـ الأحداث الجانحين ـ إنما يقلدون والديهم أو أن ذلك ناتج عن الوسط الذي يعيشون فيه(٨٨).

ولقد أثبتت إحدى الدراسات أن بعض أمهات الأحداث الجانحين اللاتي كن يشعرن بانعدام الأمن، أو انعدام الاستقرار وسوء التوافق الزواجي كن يقلقن قلقاً شديداً على أبنائهن مما يدفعهن إلى الانحراف في إرضائهم وإجابة رغباتهم في التو واللحظة(٨٩).

ومن ثم فإن هذا النوع من المعاملة من أساليب التربية الخاطئة والذي يقوم على الحب الزائد أو الإفراط أو التسامح ـ له آثاره الخطيرة على نمو شخصية الفرد وعلى تكوينه النفسي، وعلى تسليم قيادته إلى غيره، مما يدفعه إلى الإعتماد على رفاقه وربما يخلقون منه جانح المستقبل.

٢ ـ فقد أو غياب أحد الوالدين :

حيث كشفت بعض الدراسات ومنها دراسة جلوك Glueck أن المنحرفين ينحدرون في الغالب من أسر مفككة يغيب عنها أحد الوالدين سواء نتيجة للوفاة أو

(٨٧) Herbert A., and Richard, V., Adolescent Marijuana Abusers and Their Families (N. Y. National institute of Druge Abuse, No 40, 1981) p. 17.

(٨٨) Swonger, A. Drug and threaly (Boston, Little Bromm Company, 1976) p. 238.

(٨٩) محمد علي حسن، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٨.

الطلاق أو السفر، وأن هذه الأسر غالباً ما يشيع داخلها انحراف من نوع ما، كان يكون الأب سكيراً أو مدمناً على المخدرات[٩٠].

٣ ـ ضعف الوازع الديني (والخلقي) لدى الوالدين أو أيهما :

فمن الملاحظ أن غالبية العلماء والباحثين يرون ضرورة غرس الإيمان في الفرد، وتـدعيم الذات الأخلاقية لديه، حيث اتفقوا على أن ضعف واضطرابات العقيدة الدينية والذات الأخلاقية من شأنه أن يجعل الفرد يقع فريسة للأزمات النفسية التي تؤدي إلى انحرافات مختلفة ومنها تعاطي الكحول والمخدرات[٩١].

٤ ـ الموارد الإقتصادية للأسرة :

هناك اختلاف كبير بين المفكرين الاجتماعيين في ربط السلوك الإنحرافي للفرد ـ ومنه تعاطي المخدرات ـ بالموارد الإقتصادية للأسرة. إلّا أن هناك من يرى أن الفقر والمعيشة غير المستقرة، وظروف العمل القاسية قد تساعد على انتشار تعاطي المخدرات[٩٢].

غير أن هناك آراء مخالفة ترى أن المال والغنى، وارتفاع دخل الفرد مع عدم وجود الخلق الفاضل والتربية السليمة، ومحاولة ملء وقت الفراغ، والبحث عن المتعة الزائفة بأي ثمن.. كل هذا يؤدي إلى انتشار تعاطي المخدرات[٩٣].

٥ ـ انشغال الوالدين المستمر بالكسب المادي، أو لتحقيق نجاح شخصي يحرم الأطفال من التوجيه السليم.

---

(٩٠) نبيل السمالوطي، الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي (جدة، دار الشروق ١٤٠٤هـ) ص ٢٥٤.

(٩١) عطا الخالدي، الأسباب المؤدية إلى تعاطي الكحول والإدمان عليه (الرياض المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، ١٤٠١هـ) ص ٣٢.

(٩٢) حسن فتح الباب وسمير عياد، المخدرات سلاح الاستعمار والرجعية (القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م) ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٩٣) جمال الدين حسن بلال، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠.

٦ ـ كثرة المشكلات العائلية، مما يجعل الجو الأسري مملوءاً بالاضطراب[٩٤].

وعلى هذا يمكن القول أن العوامل الاجتماعية متفاعلة مع بعضها مع التأكيد على دور الوازع والضمير، والتربية السليمة حيث أنها بمثابة الأساس في تكوين الشخصية السليمة المتزنة. ومدى توفر الوازع الديني لدى الفرد.

وفي إطار ما سبق نلاحظ أن أساليب معاملة الوالدين من: حب زائد وقسوة ونبذ وإهمال... إلخ، كلها عوامل تدفع الأفراد إلى الوقوع في الجريمة وإلى ممارسة ألوان مختلفة من السلوك الإنحرافي قد يكون من بينها تعاطي المخدرات بأشكالها المختلفة.

ومن الجدير بالذكر أن الدراسات العديدة، التي اهتمت بتعاطي المخدرات توصلت في النهاية إلى نتيجة واحدة مؤداها أن الأسر التي تفقد فيما بين أعضائها علاقات المودة والألفة والمحبة وعدم التمسك بتعاليم الدين الإسلامي تؤدي بأبنائها إلى أعلى درجات الانحراف ومظاهر السلوك المنحرف ويتميز الشخص القادم من هذه الأسر بالعدوانية الشديدة، واللامبالاة وعدم احترام مشاعر الآخرين وممارسة ألوان من السلوك الضار بنفسه وبأسرته ومجتمعه وهو تعاطي المخدرات.

٧ ـ تأثير الجماعات التي ينتمي إليها الفرد :

إذا كانت الأسرة هي البيئة الاجتماعية الأولى التي يعيش فيها الإنسان، فإن مختلف الجماعات التي ينتمي إليها الفرد تشكل البيئة الإجتماعية الثانية التي يحيا فيها الإنسان. وقد تدعم هذه الجماعات ما بنته الأسرة، وقد تهدمه وتعطل تأثيره. وقد تعوض الجماعة الفرد عن مشاعر الحرمان العاطفي وعدم التقبل، أو افتقاد الشعور بالأمن وذلك على النحو السابق توضيحه بالنسبة لجماعات التعاطي التي غالباً ما تكون جماعة الأصدقاء أو الزملاء. ولقد حاول بعض الباحثين التعرض بالبحث والدراسة لتأثير الجماعة على السلوك الانحرافي، وقد أبرز ذلك فريدرك تراشير في نظرية عن

(٩٤) جمال الدين حسن بلال، أضرار المخدرات والمسكرات النفسية (السعودية، المؤتمر الإسلامي العالمي لمكافحة المخدرات والمسكرات بالمدينة المنورة ١٤٠٣هـ) ص ٢٨.

العصابة (Gang) ، يرى تراشير أن العصابة تعد عنصراً هاماً في تسهيل ارتكاب السلوك المخالف وتعمل على انتشاره. وتنظيم العصابة الداخلي والخارجي يجعلها أداة ذات مستوى عالٍ في تنفيذ كل أنواع السلوك المنحرف. ويؤكد تراشير أن العصابات تنشأ بطبيعة الحال خلال المراحل الأولى للشباب حيث تتشكل تلقائياً من الرفاق والأصحاب الصغار، والعامل الذي يحول مجموعة إلى عصابة هو ذلك الصراع الذي ينشأ من خلال اللعب مع الجماعات الأخرى ونتيجة لهذا الصراع يكون من الطبيعي أن يتحد الصغار فيما بينهم ويشكلون عصابة لحماية حقوقهم وإشباع احتياجاتهم التي لا توفرها البيئة أو العائلة.. وهكذا يكون للعصابة سمات خاصة واسم خاص وطريقة عمل خاصة وتقنين أخلاقي خاص وشعار خاص[٩٥].

وقد أبرزت إحدى الدراسات أن متعاطي الحشيش لهم جلسة خاصة وجماعة ينتمي إليها الشخص ويندمج فيها بهدف جلب السرور وتناسي الهموم واستشعار روح الجماعة المرحة وهو عامل اجتماعي قوي يدفع الشخص إلى التعاطي[٩٦].

والحقيقة أننا سنعود ثانية إلى تأثير الجماعات التي ينتمي إليها الفرد ودورها في تشجيع التعاطي أو جعله أحد المرغوبات أو المفضلات داخل الجماعة وذلك عند عرضنا للعوامل الثقافية.

ثالثاً : العوامل الثقافية :

سنعرض هنا لعلاقة المعايير الاجتماعية بظاهرة التعاطي، ثم نناقش تأثير الثقافات الفرعية للجماعات من خلال التركيز على الثقافة الفرعية لجماعة المتعاطين حيث سنورد عدداً من النظريات التي حاولت تفسير انحراف السلوك من خلال ثقافة الجماعة التي ينتمي إليها الفرد.

(٩٥) محمد إبراهيم زيد، علم الإجرام والسلوك الإجتماعي (القاهرة دار نشر الثقافة، ١٩٧٨) ص ٣٦٠.

(٩٦) مصطفى زيور، تعاطي الحشيش كمشكلة نفسية، التحليل النفسي محاولة التخدير بالحشيش (القاهرة، المركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية، ١٩٦٣) ص ٥٨.

١ ـ المعايير الاجتماعية وعلاقتها بالتعاطي :

يعرف السلوك المنحرف بأنه «انتهاك القواعد والذي يتميز بدرجة كافية من الخروج على حدود التسامح العام في المجتمع[٩٧] كما يرى Kaplan أن فقدان المعايير وصراع القيم الفردية مع القيم المجتمعية يؤثر على سلوك الأفراد ويدفعهم نحو فقدان التوازن الاجتماعي والاتجاه نحو الإنحراف بشكل واضح[٩٨] كما قد يؤدي التغير المفاجىء في القيم إلى اتجاه أفراد المجتمع نحو ممارسة بعض ألوان السلوك المنحرف وتعاطي المخدرات وذلك حين وجود فرق كبير بين مجتمع صناعي ومجتمع زراعي أو نامٍ . وقد يتغير المجتمع ويأخذ شكلاً جديداً ويتغير أسلوب المعيشة نتيجة عدة عوامل قد تكون راجعة إلى : الهجرة أو الثروة المفاجئة في المجتمع أو نمط العمل . . . والذي قد يؤثر على تماسك الأسرة ويؤثر على أفرادها نتيجة الصراع بين أسلوب الحياة الجديدة والأسلوب القديم . وقد يكون تناول أو تعاطي المخدرات من جانب أفراد الأسرة ملجأ للهروب من هذا التغير المفاجىء وغير المناسب لهم[٩٩] .

وقد أبرزت نظرية الاغتراب والبناء الاجتماعي التي جاء بها ميرتون Merton, R. , أن الأبنية الاجتماعية تمارس ضغطاً على بعض الأشخاص في المجتمع حتى ينخرطوا في صفوف غير المتوافقين بدلاً من أن يكون سلوكهم متوافقاً مع معايير المجتمع . وقد جاء في نظريته بتقسيمات ثلاثة هي :

١ ـ الأماني أو الأهداف التي يتعلمها الإنسان من حضارته .
٢ ـ المعايير والقواعد التي يتعلمها الإنسان من حضارته .
٣ ـ الأدوات والوسائل التنظيمية أو التسهيلات المتوفرة لتحقيق الأهداف .

---

(٩٧) د. محمد الجوهري وآخرون، ميادين علم الإجتماع (القاهرة، دار المعارف ١٩٨٠) ط ٢٧٨ .

(٩٨) Kaplan, H., Freedman, A., Modern Synoposis of Conperhensive Text Book of Psychiatry (Baltimores, Willian Co, 1967) p. 680.

(٩٩) أحمد عبيد، المخدرات والمسكرات أسبابها ومقاومتها في الإسلام، (السعودية، المؤتمر الإسلامي العالمي بالمدينة المنورة، ١٤٠٣هـ) ص ٣١.

وعندما يكون هناك اضطراب بين الأدوات التنظيمية المتوفرة في البيئة والأهداف التي تعلمها الفرد من المجتمع فإن الضغوط والاحباطات تتحقق وينتج من ذلك تحطم القواعد والمعايير وبالتالي يظهر السلوك الإنحرافي[١٠٠]

ويرى برونف برنر Bronfenbrenner أن زيادة حالات تعاطي المخدرات والتي أخذت في الانتشار أخيراً بصورة صارخة له علاقة وثيقة بالتغيرات التي حدثت في البيئة الاجتماعية في أمريكا وبقية الدول الصناعية المتقدمة من حيث تمزق النموذج الحضاري الذي بنيت عليه الحياة، .وتفكك الروابط الأسرية والزيادة الكبيرة التي حدثت في السكان وما يتبعها من تغيرات اجتماعية غير منتظمة وفقدان روح المواطنة مما أدى إلى ازدياد ظاهرة المخدرات[١٠١]. وهذا يفسر أن التعاطي مرتبط بعدم وضوح المعايير الاجتماعية وعدم التكامل الاجتماعي في الأسرة وعدم تماسك المجتمع. ومن ثم قد يكون اتجاه أفراد المجتمع إلى تعاطي المخدرات مرتبط ارتباط جزئي بالتغيرات التي طرأت على البيئة الاجتماعية في الدول الصناعية المتقدمة، هذه المتغيرات مزقت الروابط الأسرية والأطر الثقافية بالإضافة إلى ما نجم من تفكك اجتماعي وتحولات في مراكز التجمع السكاني في المناطق الرئيسة، فالأسر التي تهاجر من مكان إلى مكان لتستقر في مناطق مزدحمة تواجه تعرض أبنائها للانحراف أكثر مما تواجهه أسر استقرت في هذه المناطق من أمد بعيد حيث نجد أن الوالدين في هذه الأسر المتنقلة غالباً ما تنقصهم المعرفة والمهارة التي تستلزمها ظروف البيئة الجديدة مما يجعل هؤلاء الآباء يبدون صغاراً في أعين أبنائهم. كما أن هؤلاء الآباء غالباً ما تستهلكهم وتسحقهم مشاكل الحياة مما يجعلهم عاجزين عن اعطاء أبنائهم ما يلزمهم من العناية والتوجيه[١٠٢].

ولقد أكد ذلك ميرتون Merton بقوله: «أن بعض الأفراد الذين ينتمون لطبقة اجتماعية منخفضة قد يتسبب ذلك في عدم قدرتهم على تحقيق النجاح بالوسائل

(١٠٠) Robert Merton, (Social Structure and anomie) American Sociological vol 3, 1938, p. 672.

(١٠١) Bronfenborenner, V. The Origins of alienation, Scientific American August, 1974, vol 231, p. 53

(١٠٢) Musson. p., Conger and Kagan J., op. cit., p. 542.

المشروعة وبالتالي فإنه من المرجح انخراطهم في أعمال جانحة خارجة على القانون لتحقيق قدر من النجاح»[١٠٣].

ولقد أوضحت دراسة شملت ١٩٣ مدينة بالولايات المتحدة الأمريكية واستمرت ٦ سنوات أن الفرق والاختلاف واضح في الدخل والمعايير الاجتماعية بين الفقراء ومتوسطي الحال وهو من الأسباب الهامة لارتفاع معدلات تعاطي المخدرات[١٠٤].

وفي إطار ما سبق عرضه قد يكون تعاطي المخدرات مرتبطاً بالتغيرات التي تحدث في البيئة الاجتماعية ويعتبر نتاجاً لها.

٢ ـ الثقافة الفرعية لجماعة التعاطي :

في إطار ما سبق عرضه نلاحظ وجود ارتباط بين الثقافات الفرعية للجماعات والسلوك الإنحرافي وتعاطي المخدرات كأحد أشكاله.

- تشكل جماعات المتعاطين ثقافة فرعية خاصة بها داخل البناء الاجتماعي وبالتالي يتعلمها أعضاء هذه الجماعة وتشكل موجهاً لسلوكهم الإنحرافي.
- تختلف الثقافات الفرعية الخاصة بهذه المخدرات من مجتمع لآخر فقد تفضل ثقافة نوع مخدر على آخر في مجتمع معين ويحدث العكس في مجتمع آخر.

ولقد ناقشت إحدى النظريات الاجتماعية وهي : «الاختلاط التفاضلي» والتي ترى أن السلوك الإجرامي ينتقل بالتعلم الناتج عن الاختلاط مع النماذج الشاذة ورفاق السوء هم ضمن هذه النماذج. وترى هذه النظرية أن الفرد يتعلم السلوك المنحرف من اختلاطه بغيره عن طريق مجالستهم وبتناول الحديث معهم. فالشخص الذي لم

(١٠٣) Robert, M. Social theory and Social Structure (N. Y. Freen press 1962) p. 336.

(١٠٤) Barithwart, J., The iyth of Socia Class and Criminality recomsidered, American Sociological Review vol, 46, 1981, p. 48.

يتعلم السلوك الإجـرامي لا يستـطيع أن يأتيه شأنـه في ذلـك شأن من لم يتعلم الميكانيكا، إذ هو يعجز عن أن يخترع آلة ميكانيكية[١٠٥].

وتذهب هذه النظرية أيضاً إلى أن الفرد ينحرف حين ترجح لديه كفة الآراء التي تحبذ مخالفة القانون على كفة الآراء التي تحبذ مراعاة قواعده وهذا هو مبدأ الاختلاط التفاضلي حيث يقوم الفرد بعملية موازنة ويصبح الفرد أقرب إلى الجريمة كلما توثقت علاقاته بالأنماط الإجرامية[١٠٦] وإن كانت هذه النظرية محل نقد كبير حيث أنها تقوم على افـتراض أن الفـرد يتعلم السلوك المنحـرف عن طريق اختـلاطـه بغيره وهذا الافـتراض غير صحيح فليس المجـرمون أو المنحرفون كلهم ممن يختلطون بالأنماط الإجـرامية فهنـاك الكثـير من المجـرمين يعيشون في محيط مطيع للقانون ومعارض للجريمة، والعكس هناك كثير من الأفراد غير المنحرفين ويعيشون في مناطق معروفة بنسبة الإجرام العالية[١٠٧].

كما أبرزت نظرية أخرى عن التقليد والتي أشار إليها عالم الاجتماع تارد Trade والذي عالج ظاهرة السلوك الانحرافي من منظور اجتماعي، ويرى أن الجريمة هي حصيلة ظاهرة اجتماعية واحدة هي التقليد[١٠٨]. وترى هذه النظرية أن تناول الكحول عادة أرستقـراطية تنشـأ وتشيع بين أفـراد وجمـاعات الطبقات العليا ثم تنحدر إلى مستويات الطبقات الدنيا[١٠٩].

إلّا أن هذه النظرية قد بالغت في إعطاء عامل المحاكاة أهمية واعتباره يؤدي إلى الجريمة، كما أن هذه النظرية تفتقر إلى تفسير السبب في أن غالبية الناس لا تستسلم لهذا الإيحاء والتقليد.

(١٠٥) فوزيه عبدالستار، مبادىء علم الإجرام وعلم العقاب (القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٧م) ط ٤ ص ٥٥.

(١٠٦) عبود السراج، علم الإجرام وعلم العقاب (الكويت، دار السلاسل، ١٩٨١) ط١ ص ٣٢٢.

(١٠٧) محمد عارف، الجريمة والمجتمع (القاهرة، مكتبة الانجلو، ١٩٧٥) ص ١٤٠٦هـ.

(١٠٨) رؤوف عبيد، مبادىء علم الإجرام (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٣) ص ١٤١.

(١٠٩) رؤوف عبيد، المرجع السابق، ص ١٤٢.

والخلاصة التي نستنتجها مما سبق عرضه من آراء أن هناك عوامل متفاعلة تؤدي إلى تعاطي المخدرات بعضها يرتبط بالتنشئة الاجتماعية الأسرية وما تمثله من أساليب معاملة والديه الخاطئه كالنبذ والإهمال والقسوة والتساهل. كما أن هناك عوامل أخرى ترجع إلى الجماعات التي ينتمي إليها الفرد وإلى ظروف المجتمع وما يمر به من تغييرات في بنائه الاجتماعي والاقتصادي. بالإضافة إلى ذلك هناك عامل آخر لا يقل أهمية عما سبق بل قد يكون له الأفضلية والأهمية في ممارسة هذا السلوك المنحرف وهو «ضعف الوازع الديني» لدى متعاطي المخدرات، وهذا ما سنعالجه تفصيلاً فيما بعد.

موقف الإسلام من المخدرات

أولاً : نظرة الإسلام إلى التعاطي :

لقد حرّم الإسلام تناول جميع أنواع المسكرات، سواء أكانت خمراً أم مخدرات أخرى وسواء كانت الكمية قليلة أم كثيرة. وذلك لما تسببه من أضرار في الفرد وفي جماعة الإسلام والمجتمع الإسلامي بصفة عامة.

وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[١١٠].

وفي الحديث الشريف قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «كل مسكر حرام» فلقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل النبي

(١١٠) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآيتان ٩٠ ، ٩١.

ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن شراب من العسل يقال له النبيذ، وشراب من الشعير يقال له: «المزر» وكان يصنع باليمن، فقال عليه الصلاة والسلام: «كل مسكر حرام»[١١١].

ويعلق على ذلك جمعة الخولي بقوله: «أي بأي اسم ، أو من أي مادة وما هية ولا عبرة بالأسماء، فالأسماء لا تغير الحقائق، وكل ما كان فيه إسكار فهو حرام»[١١٢].

وما رواه أبو داود في سننه من حديث شهر بن حوشب عن أم سلمة قالت: «نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن كل مسكر ومفتر»[١١٣].

وما من شك أن جميع أنواع المخدرات تحدث في الجسم الفتور، أي الضعف. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «كل مسكر حرام، وما أسكر منه العرق فملء الكف منه حرام»[١١٤].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «إن كل ما يزيل العقل فإنه يحرم أكله ولو لم يكن مسكراً»[١١٥].

ثانياً : دور الوازع الديني في الوقاية من التعاطي :

لقد أكد الباحثون والعلماء على أن ضعف الوازع الديني والذات الأخلاقية من شأنه أن يجعل الفرد فريسة للأزمات النفسية، التي تؤدي إلى الانحرافات المختلفة ومنها تعاطي المخدرات[١١٦].

(١١١) رواه البخاري في صحيحه جزء ٥، ١٩٧٩، ص ١٠٨.

(١١٢) جمعه الخولي، المسكرات والمخدرات في الشرائع السماوية (السعودية المؤتمر العالمي لمكافحة المسكرات والمخدرات بالمدينة المنورة، ١٤٠٣هـ) ص ٣٣.

(١١٣) أبو داود، سنن أبي داود (القاهرة، دار إحياء السنة النبوية، ط ٧، جـ٣ ، بدون تاريخ) ص ٣٣٩.

(١١٤) أبو داود، المرجع السابق، ص ٣٤٠.

(١١٥) أحمد ابن تيمية، مجموع الفتاوي (مكة، مطبعة الحكومة، المجلد ٣٤، جـ١، ١٣٨٦هـ) ص ٣٠٤.

(١١٦) عطا الخالدي، الأسباب المؤدية إلى تعاطي الكحول والإدمان عليه، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢.

وإن الإنسان المسلم يميز بين الحلال والحرام، وقد أحل الله الحلال لفائدته للفرد والمجتمع، وحرم الحرام لضرره وخطورته على الفرد والمجتمع كذلك. وللتمييز بين الحلال والحرام، وكلما كان الوازع الديني عند المسلم قوياً فإن خشيته من الله تعالى تزداد، ولذلك تراه حريصاً ودقيقاً على اتباع الحلال والامتناع عن المحرمات[١١٧].

وكلما تزعزع هذا الوازع وضعف عند الإنسان كان احتمال ارتكابه للمحرمات أكبر منه عند أولئك الذين اتصفوا بقوة الإيمان، فالوازع الديني انما ينشأ من صدق الإيمان وسلامة التطبيق لأوامر الله سبحانه وتعالى ومنها الصلاة حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[١١٨].

ولقد لوحظ أن هناك أنواعاً كثيرة من المخدرات وجدت منذ قرون عديدة في المجتمع الإسلامي ولكنها ما كانت مستعملة ولا شائعة بين الناس، لأن التربية الإسلامية كانت راسخة والوازع الديني كان قوياً في نفوس الناس، حيث الحلال بيّن والحرام بيّن لدى المسلمين، لذلك كانت «حرمة الخمر» وغيرها من الأشياء المؤثرة في الجهاز العصبي، مطبقة بين المسلمين في مختلف الأمصار الإسلامية وذلك في الفترات الأولى للدولة الإسلامية.

أما الآن فحال بعض المسلمين عكس ما كانوا عليه، فترى بعضهم مسلماً بالهوية لا بحقيقة الإسلام، حيث لا يعرف المسلم شيئاً من إسلامه إلّا القليل، ولا يطبق إلّا القليل مما يعرف أيضاً، ولذلك يكون الوازع الديني نحو المحرمات ضعيفاً[١١٩] وهذا ما يؤكده ارتفاع معدلات تعاطي المخدرات أو تصاعد عدد بائعيها ومروجيها بين بعض شعوب الدول الإسلامية.

(١١٧) غازي الحاجم، الاستعمال غير الطبي للأدوية أسبابه ونتائجه (السعودية، المؤتمر الإسلامي العالمي بالمدينة المنورة، ١٤٠٣هـ) ص ١٢.

(١١٨) القرآن الكريم، سورة العنكبوت، آية رقم ٤٥.

(١١٩) غازي الحاجم، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩.

وخلاصة القول يمكن أن نوضح أن قوة الوازع الديني هي التي قضت على شرب الخمر بين المسلمين حيث قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[120]. فأجاب المسلمون بقولهم: «لقد انتهينا يا رب».

ثالثاً: المنظور الإسلامي لمواجهة مشكلة التعاطي:

ولقد اتجه المنهج الإسلامي إلى معالجة هذه الظاهرة بطريقة تربوية وواقعية، حيث كان تعاطي المخدرات والمسكرات شائعاً ومستحكماً لدى عدد من الأمم قبل الإسلام. كما كانت عادة شرب الخمر متفشية بين العرب في الجاهلية والعادة إذا استحكمت جذورها فلابد من عوامل جدية في مكافحتها والقضاء عليها وأول تلك العوامل التدرج الجزئي والعلاج خطوة خطوة ومنها أيضاً إثارة النفس لتغيير تلك العادة داخلياً ويكون التعديل نتيجة إقناع ذاتي ورغبة شخصية[121].

ولقد سلك الإسلام هذا المنهج التدرجي للقضاء على الخمر في المجتمع الإسلامي، وكل مسكر من شأنه أن يضر بالمسلمين فلم يفاجئهم بتحريم الخمر، وإنما أخذ بأيديهم خطوة بخطوة في الطريق الذي أراده الله لهم[122].

ولقد استخدم القرآن الكريم طريقة التدرج في علاج الإدمان على مراحل فلكل مرحلة من هذه المراحل توجيه له غايته في المنهج الإسلامي[123].

---

(١٢٠) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآيتان ٩٠، ٩١.

(١٢١) عبدالحميد الهاشمي، المخدرات وأثرها في الحياة النفسية للإنسان (الرياض، وزارة الداخلية، إدارة مكافحة المخدرات، جـ٣، ١٣٩٤هـ) ص ١٥٦.

(١٢٢) جمعة الخولي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨.

(١٢٣) شاكر عبدالرحيم، دراسة حول علاج المسكرات والمخدرات في ضوء التوجيه الإسلامي، مجلة رسالة الخليج (الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ) العدد ١٤، ص ٣٦٦.

ولقد أشارت أول آية تعرضت للخمر في القرآن الكريم هي قوله تعالى:

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١٢٤].

وفي هذه الآية الكريمة توجيه المسلمين إلى أمر هام، ففي الثمرة الواحدة يلتقي الخبيث الحرام والطيب الحلال، ويمكن أن تكون سماً قاتلاً أو رزقاً حسناً. فتصنع من ثمرات النخيل والأعناب شراباً مسكراً مضراً لأجسامنا وعقولنا، ومفسداً للعلاقات الإسلامية بيننا، أو نأخذ منه طعاماً شهياً طيباً وغذاء مفيداً. وقد أثار هذا الإزدواج إحساس المسلم بأن هذا الصنيع ربما تعارض مع السلوك الذي يريده الإسلام فهو بحاجة إلى مزيد من التوضيح لشعور المؤمن بأمر يمس عقيدته فلا مفر من الوقوف والتعرف على بيان يرضيه فيلجأ المسلمون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يلتمسون منه إيضاح هذا الأمر.

وكانت الآية الثانية وهي قوله عز وجل:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... ﴾[١٢٥].

ومن ذلك نلاحظ أن ذلك جاء إيحاء للعاقل بترك المشروب الذي إثمه أكبر من نفعه ولذلك ترك الخمر أفضل لما فيها من إثم كبير. ويرى بعض المفسرين أن المنفعة هنا مفهومها محصور في المنفعة المادية الناتجة من البيع والشراء.

وهنا نقول أن هذه المرحلة هي مرحلة توضيح الحقائق وربطها بالواقع.

ثم كانت المرحلة الثالثة فيقول الله سبحانه وتعالى:

---

(١٢٤) القرآن الكريم، سورة النحل، آية ٦٧.

(١٢٥) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٢١٩.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ... ﴾[١٢٦].

وهنا مرحلة الامتناع وإدراك الأمور حيث في ذلك تضييقاً لفرص التعاطي، وكسراً لعادة الإدمان التي مرنوا عليها، حيث أن أوقات الصلاة متقاربة، ولا تكفي الأوقات التي بينها للسكر والإفاقة. وحتى تكون الإجابة مقنعة وشافية لكل سؤال نزل قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[١٢٧].

وهكذا كانت هذه المرحلة تحريماً صريحاً وواضحاً. وعلى ذلك استجاب المؤمنون لهذا التوجيه لأنه وضح بصورة لا تقبل الشك الآثار الضارة والسيئة على النفس والعقيدة. فكان جواب المؤمنين؛ «لقد انتهينا يارب» حتى كان الرجل وفي يده الكأس قد شرب منها بعضاً، وبقي بعض، ينتزع الكأس من فمه ويفرغها على التراب وكذلك يفعل الإيمان.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الإسلام قد اعتنى بالأسرة، وحدد لها المعالم التي تخلصها من الضعف وتقوي فيها الصلاح والاستقرار، على أساس من المودة والرحمة، كما أكد الإسلام على الاهتمام بالأطفال وتنشئتهم التنشئة الصالحة، كل ذلك من أجل إبعاد الأسرة عن المشكلات التي قد تؤدي بهؤلاء الأطفال إلى الانحرافات. قال تعالى:

---

(١٢٦) القرآن الكريم، سورة النساء، آية ٤٣.

(١٢٧) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآيتان ٩٠، ٩١.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١٢٨].

كما أخرج ابن ماجه في سننه عن الحارث بن النعمان قال: سمعت أنس بن مالك يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم»[١٢٩].

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من عنصرين أساسيين هما: العنصر الترابي ونفخه من روح الله عز وجل، وزوده الله سبحانه وتعالى بكل مؤهلات الاستخلاف عنه، فهناك الدوافع الغريزية وهناك ما يشده إلى الضعف ثم الانحراف، وهناك الدوافع الإيجابية من الارتباط بالخالق وعبادته، وتعمير الكون، وإعمال العقل، والتعارف بين الشعوب، ولم ينكر الإسلام على الإنسان حقه في الإشباع المشروع لدوافعه الفطرية لكنه نظم له أسباب الإشباع بشكل يحفظ له كرامته، ويحقق له سموه، بما يتفق مع التكريم الإلهي له[١٣٠].

كما نود أن نشير إلى أن الاكتئاب والقلق اللذين يمر بهما الإنسان هما شيء مألوف ويكون العلاج بالصلاة والإكثار من الدعاء وذكر الله سبحانه وتعالى لا باللجوء إلى تعاطي المخدرات!

قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[١٣١].

ولقد نبهنا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أهمية الصحبة في تشكيل السلوك،

(١٢٨) القرآن الكريم، سورة الروم، آية ٢١.

(١٢٩) سنن ابن ماجه، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١١.

(١٣٠) نبيل السمالوطي، الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي (جدة دار الشروق ١٤٠٣هـ) ص ٣٢.

(١٣١) القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية ٢٨.

فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يهديك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[١٣٢].

كما روى أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «لا تصاحب إلاّ مؤمناً ولا يأكل طعامك إلاّ تقي»[١٣٣].

والله سبحانه وتعالى بتحريمه تعاطي المخدرات، إنما يسعى وقاية الإنسان ورعايته وحفظ نفسه وماله وعرضه ونسله وعقله ولا يمكن أن يعيش الإنسان في ظل حياة كريمة إلاّ إذا توافرت له هذه الضروريات وتوفرت العقوبة لحمايتها. وللمحافظة عليها شرع الله تعالى أصول العبادات وشرع القصاص وشرع الزكاة وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وحرم الخمر اتقاء لمضارها وأوجب حد شاربها محافظة على العقل، فجميع أوامر الله ونواهيه شرعت لمصلحة الفرد والجماعة والمجتمع، وتحقيق الأمن والاستقرار لأبنائه.

(١٣٢) الإمام مسلم، الجامع الصحيح للإمام مسلم (القاهرة، مؤسسة الطباعة، ١٣٨٤هـ) جـ ٨ ص ٣٨.

(١٣٣) أبو داود، مرجع سبق ذكره، جـ٣ ص ٢٥٩.

التقـريرات

١

تقرير عن ندوة آثار صدور الأمر السامي بقتل مهربي المخدرات

للدكتور
عبد الله بن صالح الحديثي
الأستاذ المساعد في قسم الفقه
بكلية الشريعة بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته، واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وبعـــد:

ففي الفترة من ٧ إلى ١٤٠٨/٩/١١ هـ - عقدت الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالتعاون مع اللجنة الوطنية لمكافحة المخدرات والجامعات والادارة العامة لمكافحة المخدرات ندوة علمية لدراسة آثار صدور الأمر السامى الكريم بتطبيق عقوبة القتل على مهربي المخدرات.

وقد أحسنت اللجنة المنظمة للندوة حينما قسمت الموضوعات إلى بحوث أسند كل واحد منها إلى أستاذ متخصص في هذا الجانب الذى أنيط به. فغطت البحوث جوانب[1] المشكلة ودرستها دراسة وافية، شخصت المرض ووضعت العلاج، حيث شملت تلك البحوث الجوانب الشرعية والاجتماعية والصحية والأمنية.

ففي قاعة المحاضرات العامة بمبنى الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالرياض، افتتح الندوة صاحب السمو الملكى الأمير نايف بن عبدالعزيز - وزير الداخلية - بكلمة ضافية ألقت الأضواء على جوانب المشكلة، ووضحت ما للشريعة الإسلامية من فضل في حفظ الأمن في هذا البلد، وما نتج عن تطبيق قرار هيئة كبار العلماء المتعلق بقتل مهربى المخدرات من أثر في تحقيق معدل أمنى مطمئن، كما اشتملت جلسة الافتتاح على كلمة لصاحب السمو الملكى الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب، ثم كلمة لسعادة الدكتور صالح بن أحمد بن ناصر وكيل الرئيس العام لرعاية الشباب لشئون الشباب، ثم كلمة لمدير الادارة العامة لمكافحة المخدرات بالنيابة العميد ابراهيم الميمان.

(١) قامت الرئاسة العامة لرعاية الشباب بطبع تلك البحوث وتوزيعها مجاناً.

وبعد انتهاء جلسة الافتتاح بدأت الجلسة الأولى، وكانت برئاسة معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وقد نوقش فى هذه الجلسة بحث عن حكم المخدرات وعقوبتها في الشريعة للدكتور عبدالله بن علي الركبان ـ الأستاذ بكلية الشريعة بالرياض.

حيث بين أن المخدرات إنما يعلم حكمها عن طريق قواعد الشريعة العامة التى تشمل ما كان موجوداً وقت التشريع أو يجد بعده.

ثم ذكر الباحث الأدلة التي بنى عليها الحكم بتحريم المخدرات من الكتاب والسنة.

وبعد عرض لحكم المخدرات تناولاً وترويجاً، بدأ الباحث بتفصيل عقوبة المخدرات، فبدأ أولاً بعقوبة تناول المادة المخدرة، ثم عقوبة الاتجار بالمخدرات، وترويجها فبين أن متناول المادة المخدرة قد ألحقه بعض الفقهاء بمتناول الخمر فجعل عقوبتها واحدة، والبعض الآخر يرى أن عقوبة متناول المخدرات عقوبة تعزيرية تختلف عن عقوبة متناول الخمر. ولم يرجح واحدة منهما.

والذى يظهر أن القول بأنها تعزيرية أولى بالاختيار، لما بين الخمر والمخدرات من الفوارق من حيث الأضرار المترتبة على التناول، فالمخدرات أعظم ضررا وأشد خطراً على الضرورات الخمس من الخمر. والعقوبات التعزيرية تتناسب في شدتها وخفتها مع خطورة ما يرتكب من الجرائم، وما هذا سبيله، فمحله العقوبات التعزيرية التى يتسع مجالها ويتناسب مع ما يرتكب من الجرائم.

وفيما يختص بترويج المخدرات والاتجار بها ذكر الباحث أنه نظرا لما للاتجار بالمخدرات والترويج لها من أثر كبير في إفساد المجتمع وتقويض دعائمه. وحيث إن العقوبات تعظم بعظم الجريمة ليكون الجزاء من جنس العمل، ولكون الذين يتجرون بالمخدرات ويروجونها من عتات المجرمين الذين لا تؤثر معهم العقوبات الخفيفة، ولا يقيمون أدنى اعتبار للعفو والرأفة فهم يستحقون القتل. ثم استدل لذلك بآية الحرابة وأن بعض العلماء يرون أن (أو) الواردة فيها للتخيير. وبناء على

ذلك فإن ولى الأمر مخير حسب ما يرى أن المصلحة تقتضيه في أى عقوبة من العقوبات الواردة فيها، ثم ذكر بعض الآثار في عقوبات المحاربين، وبعض أقوال العلماء فيها.

ثم ذكر أن التجربة أثبتت عدم نجاعة العقوبات التي طبقت على مروجي المخدرات في كثير من البلدان، والتى لم تصل إلى حد القتل، بينما نجحت عقوبة القتل التي طبقت في بلاد أخرى في الحد من هذه الظاهرة.

وقد ختم الدكتور عبدالله الركبان بحثه هذا بايجاز سبل ووسائل الوقاية من المخدرات، فمن أهم ما ذكره:

١ ـ تقوية الإيمان في النفوس.
٢ ـ القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣ ـ بيان حرمة مجالسة أصحاب المخدرات والاختلاط بهم.
٤ ـ توعية المجتمع بأضرار وأخطار المخدرات.
٥ ـ العناية بتربية النشىء تربية إسلامية صحيحة، وترسيخ المثل العليا في نفوسهم.
٦ ـ الحزم في تطبيق العقوبات على متعاطي ومروجي المخدرات.

وفى الجلسة الثانية ـ وكانت في مساء اليوم التالي الأحد. وقد ترأسها معالي مدير جامعة أم القرى الدكتور/ راشد الراجح. وقد نوقش في هذه الجلسة بحثان أحدهما: عن أثر المخدرات على الضرورات الخمس، والآخر: عن المخدرات ومنطلقات الأمر السامي.

وكان الأول من إعداد د. موسى الدويش عميد كلية الشريعة في الجامعة الإسلامية ويتلخص هذا البحث في النقاط التالية:

بدأ الباحث بحثه بمقدمة موجزة عن عناية الإسلام بالفرد والمجتمع، ومسئولية الدولة في هذا الجانب، ثم بين المراد بالمخدر والمفتر في اللغة العربية. ثم بدأ بعرض المراد بالضرورات الخمس، وهى: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال. وحماية الإسلام لتلك الضرورات من خلال العقوبات المقررة على الاعتداء عليها، فذكر أن

من أغراض العقوبة في التشريع الإسلامي : حفظ المصالح ، ويعنى بها الضرورات الخمس ورحمة المجتمع ، إذ في تنفيذ العقوبات رحمة بالأمة ، وإن كانت العقوبة في ذاتها أذى ينزل بالجاني ، إلا أن نتيجة ذلك تحقيق الأمن ورحمة المجتمع بإبعاده عن الجرائم والمجرمين ، ليتمكن الفرد من القيام بالمهمة ، التى خلق من أجلها .

ورغبة في التطهير من أثر وإثم تلك الفعلة . والعقوبة الشرعية إذا عوقب بها المسلم في الدنيا ، سقط عنه الاثم المترتب على فعلته فلا يعاقب على ذلك في الآخرة ، لأن الله ـ عز وجل ـ أعدل من أن يثنى العقوبة على عبده ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة .

بعد ذلك أشار الباحث إلى الأمر السامي القاضي بقتل مهربي ومروجي المخدرات وما له من آثار وفوائد تحفظ للأمة مصالح دينها ودنياها . ثم ختم بحثه بخاتمة أشار فيها إلى أهمية تربية النشء تربية إسلامية ليقوى الإيمان في نفوسهم وتتأصل فيهم مبادىء الإسلام وقيمه .

أما البحث الآخر والذى تمت مناقشته في تلك الجلسة فكان بعنوان (المخدرات ومنطلقات الأمر السامي) . أعده : د . محمد بن محمد البناني ـ من جامعة أم القرى .

وقد بدأ الباحث بحثه بمقدمة عرض فيها خطة البحث ، ثم ذكر في الباب الأول عناصر المشكلة ، محل البحث ، وهى المخدرات ، فأشار إلى أصنافها وما يتناوله الاسم من أنواع المخدرات وآثارها على الجهاز العصبي ، ثم تحدث في الباب الثاني عن المتعاطي والمدمن للمخدرات ، وأسباب التعاطي عند كل من الأطفال والشباب .

ثم تحدث عن المتعاطين والمدمنين من الكبار ، فأشار إلى أن فرصة التوبة والرجوع إلى الله ألزم في حقهم من أى وقت مضى ، إذ لا ينتظر منهم زيادة عقل فإن لم يتب ويرجع إلى رشده الآن فمتى إذاً ؟

بعد ذلك عرض الباحث الأضرار الناجمة عن التعاطي ، فذكر أن لذلك أضراراً دينية وبدنية ، وفصل ما يتعلق بالضرر البدني للمخدرات مشيرا إلى كل نوع من أنواع

المخدرات، وما يترتب على تعاطيه من أضرار على البدن تبدأ بالقلق وفقدان الشهية إلى آلام عضلية وعظمية إلى تحطيم للجسم والعقل.

بعد ذلك عرض الباحث المرتكزات والأسس التى بنى عليها رفض المخدرات ومحاربتها وتجريم متعاطيها من حيث ما نصت عليه أحكام الشريعة الإسلامية، وما تقتضيه أدلتها العامة وقواعدها الكلية، فأشار إلى ذلك من الناحية الأصولية والفقهية. وما يجب أن يلتزم به المسلم من مراقبة الله - عز وجل - في سائر شئونه والابتعاد عن ما حرمه الله - عز وجل - من كل خبيث ومستقذر، وان فعل الطاعات وترك المحرمات سبب لنيل الخيرات والسعادة في الدارين.

ثم بعد ذلك عرض المرتكزات الصحية والأمنية والاجتماعية لرفض المخدرات، فذكر من الأضرار الصحية ما يزيد على ثلاثين مرضاً كلها تنشأ من تعاطي المخدرات.

ثم أشار إلى الناحية الأمنية وما يسببه التعاطي من دفع المتعاطى إلى الجريمة، إما للحصول على المال لتوفير المخدر، وإما فعل الجريمة تحت تأثير المخدر، فذكر صوراً وأمثلة لهذه الجوانب وغيرها مما يسببه المتعاطي من الأضرار على أمن الناس فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

بعد ذلك عرض الباحث ما يجب أن يتخذ من الخطوات لحفظ الأمة من هذا الوباء فذكر واجبات الفرد والأسرة والمجتمع والأمة.

ثم ختم البحث بعرض موسع لمنطلقات الأمر السامي بقتل مهربي ومروجي المخدرات فبدأ بالمنطلقات الشرعية وواجبات إمام المسلمين في حفظ الدين وسياسة الدنيا به، وأن عليه أن يستفتى أهل العلم فيما لا يعلمه، وفيما يجد مما يحتاج إلى اجتهاد في استنباط حكم شرعي.

وفي مساء اليوم الثالث عقدت الجلسة الثالثة للندوة وكانت برئاسة الدكتور/ فاروق مراد رئيس المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب.

وقد نوقش في هذه الجلسة بحثان، أحدهما بعنوان (أثر المخدرات وسبل الوقاية منها) للدكتـور أحمد الغامدى من الجامعة الإسلامية، والآخر بعنوان (الجوانب الاجتماعية والأمنية للمخدرات) للدكتور/ محمد زيد ـ الخبير بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب.

فالبحث الأول عبارة عن دراسة لما ينتج عن ترويج وتعاطي المخدرات من آثار على الفرد والأسرة والمجتمع، والسبل التى يمكن أن تنتهج للوقاية منها، وأكثره أشرنا إليه في البحوث السابقة.

وفيما يختص ببحث الدكتور/ محمد زيد عن الجوانب الاجتماعية والأمنية للمخدرات من وجهـة نظر قانونية بحتة، مع اشارة إلى سلامة قرار هيئة كبار العلماء بقتل مهربي ومروجي المخدرات، كما تعرض إلى عقوبة الاعدام، وما تنادى به بعض الدول حول إلغائهـا.

وفى مساء اليوم الرابع عقدت الجلسة الرابعة للندوة، وكانت برئاسة معالي الدكتور ابراهيم العواجي ـ وكيل وزارة الداخلية ـ والذى أشار في كلمته إلى أن حجم المشكلة يعتبر صغيرا في هذا البلد إذا قورن به في بلدان أخرى، الاّ أن الحرص على نظافة المجتمع من هذا الوباء كان وراء هذه الحملة ضد هذا الوباء الفتاك.

وقد نوقش في هذه الجلسة بحثان، أحدهما بعنوان (المخدرات المشكلة والعلاج) للدكتور/ ابراهيم بن مبارك الجوير الأستاذ المشارك في قسم الاجتماع بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية والآخر بعنوان (عوامل تحقيق الأمن الاجتماعي) للدكتور/ خضير الخضير من جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.

وقد غطى الدكتور الجوير جوانب بحثه من خلال عرضه للمشكلة، وأنها ليست بالخطورة المخيفة في هذا البلد النظيف، الا أن الشرخ البسيط في الجسم السليم يحتاج إلى المسارعة إلى علاجه وتنقية الجسم منه ليظل نظيفاً سليما من الأوباء والأدران. وركز على أبعاد ثلاثة لمعالجة التعاطي والانتشار للمخدرات هي :

البعد البنائي ويشمل :

أ ـ تربية الشعور الايماني .

ب ـ توجيه نظام التربية والتعليم توجيها يؤدى إلى تربية الشعور الايماني في نفوس الناشئة ويربي فيهم الشعور بالانتماء . . إلى عقيدة وأمة ووطن .

جـ ـ قيام الأسرة بواجبها .

د ـ القدوة الحسنة في البيت والمدرسة وأجهزة الاعلام والملاعب وغيرها .

هـ ـ الاهتمام برسالة المسجد التربوية .

و ـ بناء الشباب على أساس قوى عقلا وجسما وعاطفة .

ز ـ شغل أوقات الفرغ بما يفيد .

٢ ـ البعد الوقائي : ويشمل تجنب كل ما حرم الله وتجنب ما يؤدى إلى الوقوع في المحرمات ومن الأساليب الوقائية :

أ ـ الحد من العمالة الوافدة .

ب ـ الحد من السياحة الخارجية وتشجيع السياحة الداخلية .

جـ ـ الدقة في الجمارك .

د ـ زيادة التعاون الفعال مع الدول في مكافحة المخدرات .

هـ ـ القضاء عليه في مراكز الانتاج .

و ـ التوعية بأضرار المخدرات .

ز ـ العقوبة لمن يهرب أو يروج أو يتعاطى وهذا ما عالجته الفتوى العلمية .

٣ ـ البعد الثالث هو البعد العلاجي : وهو ما يجب اتباعه لمعالجة من انحرفوا ممن تعاطوا المخدرات وذلك بجهود أسرية وشخصية ومجتمعية وحكومية ، ومن مصحات وأطباء لمواجهة هذه المشكلة مواجهة ايجابية .

أما الدكتور خضير فكان بحثه والنقاش حوله يدوران حول احصائيات مبنية على دراسة ميدانية واستطلاعية للمشكلة وجوانبها .

وفى مساء اليوم الخامس عقدت الجلسة الخامسة للندوة ، وكانت برئاسة الدكتور/

زهير السباعي ـ أستاذ طب المجتمع بجامعة الملك فيصل ـ وقد عرض في هذه الجلسة بحث واحد للدكتور/ محمد على البار، بعنوان (الأضرار الصحية للمخدرات). وقد عرض الباحث نماذج واقعية لضحايا الخمور والمخدرات وما تسببه هذه الآفات من هدم ودمار للانسان والأسرة.

كما ذكر في بحثه أن للمخدرات أربعة تعاريف، أحدها: لغوى، والآخر شرعى والثالث: قانوني، والرابع: طبي، وذكر أن التعريف اللغوى والشرعي متقاربان، وأن التعريف الشرعي والطبي متفقان، أما القانوني فلكل تعريفه يدخل فيه ما يريد، ويخرج ما يريد اخراجه.

وقد قدم الدكتور البار نموذجا واضحا ووقائع بينت خطورة هذا الداء على صحة الانسان في بدنه وعقله.

وقد أنهت الندوة أعمالها بجلسة ختامية تلي فيها التقرير الختامي والتوصيات التي خرجت بها الندوة.

وكان من أهم تلك التوصيات:

١ ـ الاهتمام بالنشء وتربيته تربية إسلامية ليشعر بمكانته ومهمته التي خلق من أجلها.

٢ ـ امتصاص أوقات الفراغ لدى الشباب والتعاون مع الجماعات والجهات ذات العلاقة بتعميم المراكز الصيفية ودعم أنشطتها.

٣ ـ توعية الشباب وتعريفهم بأخطار المخدرات وضحاياها.

٤ ـ محاصرة المخدرات بمضاعفة الجهود الأمنية لمكافحتها.

٥ ـ توجيه أجهزة الاعلام لتقوم بدور بنائي في المجتمع.

٦ ـ الحد من السياحة السيئة وتشجيع السياحة الداخلية.

وبعـــد :

فان مشكلة المخـدرات مشكلة جد خطيرة، وأمتنا مستهدفة في دينها وشبابها وفي اقتصـادهـا في كيانها، وأعداؤنا يتربصون بنا الدوائر، ويترصدون لأى فرصة يجدونها للفتك بنا بقتل شبابنا وتحطيم قواه، فالأمة بشبابها المتمسك بدينه الغيور على حرماته وأعداء الأمة يدركون ذلك تماما، ولذلك وجهوا جهودهم وجنودهم للنيل منه وتقويض تماسكه وأبعاده عن سر قوته ومصدر عزته وهو دينه، والأمانة كبيرة في أعناق القائمين على أمور الشباب ابتداء من الأسرة وراعيها، وانتهاء بالجهات التي ترعى شئون الشباب. وتباشر التعامل معهم والجامعات مسئوليتها كبرت في هذا الجانب وهى تملك إمكانات كبيرة وكفاءات علمية مؤهلة، ويمكنها التعاون مع الجهات الأخرى ذات العلاقة كوزارة المعارف والرئاسة العامة لرعاية الشباب، والرئاسة العامة لهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في إقامة المراكز والمعسكرات وإقامة الندوات، وإلقاء المحاضرات لتوعية الشباب وتبصيرهم بأمور دينهم وتطلعات أمتهم نحوهم، فالأمة تريدهم حملة رسالة ودعاة حق يتمسكون بأحكام دينهم، ويستنيرون بسير أسلافهم من شباب هذه الأمة الذين عرفوا من هم وماذا يراد منهم؟، فقاموا بالمهمة خير قيام.

أسأل الله ـ جلت قدرته ـ أن يوفقنا لما فيه صلاح ديننا ودنيانا، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم..

تقرير عن المؤتمر الدولي لتطوير تعليم اللغة العربية في باكستان

للدكتور
حمد بن ناصر الدخيل
الأستاذ المساعد في قسم الأدب
بكلية اللغة العربية بالرياض
ومدير معهد تعليم اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

عقد في جامعة العلامة إقبال المفتوحة في إسلام أباد مؤتمر دولي لتطوير تعليم اللغة العربية في باكستان لمدة ثلاثة أيام ابتداء من اليوم التاسع حتى اليوم الحادي عشر من شهر شعبان من عام ١٤٠٨ هـ.

وأتى انعقاد هذا المؤتمر في اطار الجهود التي تبذلها باكستان في تطوير تعليم اللغة العربية في الجامعات والمدارس، والأخذ بالوسائل التعليمية الحديثة في تعليم اللغات ونشرها.

وقد اشتركت المملكة العربية السعودية في هذا المؤتمر ممثلة في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، وأتت مشاركتها ضمن الجهود التي تبذلها حكومة خادم الحرمين الشريفين فى نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية في جميع أنحاء العالم الإسلامي بوصفها البلاد التى نبعت منها الرسالة، وشع منها الهدى، ودرجت على أديمها العربية حتى اكتملت، واستوت على سوقها، وحيث لها الفضل بتتويجها لغة القرآن الكريم، ولسان الإسلام والدعوة إليه.

وبعـــــد...

فما كان في نيتي أن أكتب عن هذا المؤتمر الذى كان لي شرف حضوره والاشتراك فيه بعد أن قدمت عنه تقريرا مطولا إلى الجهات المختصة بعد انتهائه لولا الدعوة التى تلقيتها من سعادة رئيس هيئة تحرير مجلة الجامعة الدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيع لكتابة دراسة عن المؤتمر لنشرها في أحد أعداد المجلة، ليطلع عليها القراء والمهتمون.

وتلبية للدعوة الكريمة، يسرني أن أكتب هذه الصفحات القليلة عن المؤتمر آملا أن تؤدى الغرض المطلوب.

افتتاح المؤتمر:

كان من المقرر أن يرعى حفل افتتاح المؤتمر معالي وزير التعليم الباكستاني سجاد حيدر، ولكن مرضه المفاجيء حال دون ذلك، وقد ناب عنه في رعاية الحفل رئيس الجامعة، بمشاركة د. عزالدين ابراهيم المستشار الثقافي لرئيس دولة الامارات العربية المتحدة.

وقد بدأ حفل الافتتاح في الساعة العاشرة من صباح يوم الأحد ١٤٠٨/٨/٩ هـ الموافق ١٩٨٨/٣/٢٧م.

وقد اشتمل البرنامج على كلمة ترحيب ألقاها رئيس الجامعة الدكتور/ غلام علي ألانا، تحدث فيها عن أهمية اللغة العربية، وضرورة تعلمها للشعب الباكستاني باعتبارها لغة القرآن الكريم والثقافة الإسلامية، كما أشار إلى جهود جامعة العلامة إقبال في تعليم اللغة العربية في جميع أنحاء باكستان، وتحدث عن المراحل التي قطعها مشروع تدريب معلمي اللغة العربية الذى تتبناه الجامعة.

وألقى رئيس قسم الدراسات الاسلامية في الجامعة الدكتور/ محمد طفيل الهاشمي، كلمة تحدث فيها عن أهداف المؤتمر، وشارك الدكتور/ عزالدين ابراهيم المستشار الثقافي لدولة الامارات العربية المتحدة بكلمة بين فيها الخطوات التي ينبغي اتخاذها للنهوض بتعليم اللغة العربية في باكستان، كما ألقى الأستاذ/ جاويد إقبال سيد مدير كلية الدراسات الثقافية نظرة على أهداف المؤتمر، وما يمكن أن يصل إليه من قرارات وتوصيات.

واختتم الحفل بكلمة ألقاها الأستاذ/ محمد حنيف شودرى مدير معهد اللغة العربية والدراسات الإسلامية، شكر فيها الحاضرين على تلبية دعوة الجامعة لحضور المؤتمر والمشاركة فيه.

وقد حضر حفل الافتتاح عدد من العلماء والمهتمين بتعليم اللغة العربية في باكستان، كما حضره من السفراء والملحقين التعليميين العرب:

١ ـ سعادة سفير دولة الكويت.
٢ ـ سعادة سفير دولة الامارات العربية المتحدة.
٣ ـ سعادة سفير الجمهورية العربية اليمنية.
٤ ـ سعادة سفير جمهورية مصر العربية.
٥ ـ سعادة الملحق التعليمي السعودي بالنيابة.
٦ ـ سعادة الملحق التعليمي السوداني.

* **جلسات المؤتمر:**

عقد المؤتمر بعد حفلة الافتتاح سبع جلسات عمل، بعدد الموضوعات المطروحة في جدول أعماله، وألقيت خلال هذه الجلسات البحوث التي أعدها المشاركون في المؤتمر، وصنفت موضوعيا مع جدول الأعمال، بحيث تم القاء البحوث المناسبة للموضوع المطروح للبحث والمناقشة، ثم أعقب ذلك مناقشات حول الموضوع للتوصل إلى نقاط محددة يتفق عليها الأعضاء المشاركون وقد كانت الجلسات كالتالى:

* **الجلسة الأولى:**

- التاريخ: ١٤٠٨/٨/٩ هـ.
- الموعد: الساعة ١٥ ـ ١٦,١/٢ بعد الظهر.
- موضوع البحث: سياسة الدولة حول تعليم اللغة العربية.
- رئيس الجلسة: الأستاذ محمد سعيد.
- البحوث المقدمة:

١ ـ مشكلات تعليم اللغة العربية للباكستانيين، خاصة فى المرحلة الجامعية، للدكتور/ محمد حسنين النقوى ـ رئيس قسم اللغة العربية بجامعة بهاء الدين زكريا بملتان ـ باكستان.
٢ ـ الصعوبات والعقبات والاقتراحات في تعليم اللغة العربية في إقليم سرحد

بالباكستان ـ للأستاذ/ نور محمد ـ المحاضر في كلية جهان زيب ـ سوات ـ باكستان.

٣ ـ تأثير اللغة العربية في اللغة السندية ـ للأستاذ/ محمد ياسين ـ من جامعة العلامة إقبال المفتوحة.

٤ ـ مشكلات تعليم اللغة العربية وصعوباتها للباكستانيين ـ للأستاذ/ محمد جميل قلندر ـ المعهد القومي للغات الحديثة في إسلام أباد.

* **الجلسة الثانية:**

ـ التاريخ: ١٤٠٨/٨/٩ هـ.

ـ الموعد: الساعة ١٧ ـ ٢/١, ١٨ بعد الظهر.

ـ موضوع البحث: موقف اللغة العربية كمادة تعليمية في المدارس والجامعات.

ـ رئيس الجلسة: الدكتور/ محمود فهمي حجازى.

ـ أمين الجلسة: الأستاذ/ زاهد أشرف.

ـ البحوث المقدمة:

١ ـ جامعة بشاور واللغة العربية ـ للدكتور/ فضل معبود ـ رئيس قسم اللغة العربية في جامعة بشاور.

٢ ـ حاضر اللغة العربية ومستقبلها على المستوى الجامعي في باكستان ـ للدكتور/ ظهور أحمد أظهر.

٣ ـ وضع اللغة العربية في الجامعات الباكستانية ـ للدكتور/ ميرولي خان ـ رئيس القسم العربي بالمعهد القومي للغات الحديثة في اسلام أباد.

٤ ـ حاضر ومستقبل اللغة العربية في الجامعات الباكستانية ـ للدكتور/ محمد أكرم شودرى ـ الأستاذ بقسم اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بهاول بور.

* **الجلسة الثالثة:**

ـ التاريخ: ١٤٠٨/٨/١٠ هـ.

- الموعـــــــد : الساعة ٢/١, ٩ - ٢/١, ١١ بعد الظهر.
- موضـــوع البحث : مناهج ومقررات تعليم اللغة العربية في المدارس ووسائل الاتصال الجماهيري وكيفية الاستفادة منها.
- رئيـــس الجلسة : الدكتور/ يوسف الخليفة أبوبكر.
- أمين الجلســـة : الأستاذ/ نور محمد (سوات).
- البحـوث المقدمة :

١ - تقويم برامج اللغة العربية لجميع المراحل وإعداد برامج جديدة لتلك المراحل في باكستان - للدكتور/ حمد بن ناصر الدخيل مدير معهد تعليم اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٢ - التعـريف والتنكير، دراسـة في أخـطاء متعلمي اللغـة العـربية من الناطقين بالأردية - للدكتـور/ محمـد سليمـان فتيح - الأستـاذ في الجامعة الإسلامية العالمية باسلام آباد.

٣ - صعـوبـات التشـابه والاختلاف بين اللغتين العربية والأردية للأستاذ/ حافظ إحسان الحق - من جامعة كراتشي.

٤ - اتجاهات حديثة في إعداد مواد تعليم اللغة العربية - للأستاذ/ حبيب الرحمن عاصم - المحاضر في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.

٥ - مراجعة مناهج ومقررات تعليم اللغة العربية في المدارس - للدكتور/ محمد إسحاق قريشي.

* **الجلســـة الرابعة :**

- التاريـــــــخ : ١٤٠٨/٨/١٠ هـ.
- الموعـــــــد : الساعة ١٢ - ٢/١, ١٣ بعد الظهر.
- موضـــوع البحث : مناهج وأساليب تعليم اللغة العربية فى المدارس الدينية.
- رئيـــس الجلسة : الدكتور/ عبدالواحد هالي بوتا.
- أمين الجلســـة : الدكتور/ أمين الله وثير.
- البحـوث المقدمة :

١ ـ أسلوب تعليم اللغة العربية في المدارس الدينية ـ للشيخ وصي مظهر الندوى ـ عضو مجلس الشعب في باكستان.

٢ ـ أسلوب تعليم اللغة العربية في المدارس الدينية ـ للأستاذ زاهد أشرف ـ عميد جامعة التعليمات الإسلامية بفيصل أباد.

* الجلسة الخامسة:

ـ التاريـــــخ : ١٤٠٨/٨/١٠ هـ.
ـ الموعـــــد: الساعة ١٦ ـ ٢/١, ١٨ بعد الظهر.
ـ موضـوع البحث: معلمو اللغة العربية في الكم والمستوى والتدريب.
ـ رئيـــس الجلسة : الدكتور/ أحمد العسال.
ـ أمين الجلـــسة : الأستاذ/ خليل الرحمن.
ـ البحوث المقدمـة:

١ ـ نظرة في وضع تعليم اللغة العربية في باكستان ـ للأستاذ محمد حنيف شودرى ـ مدير معهد اللغة العربية والدراسات الاسلامية في جامعة العلامة إقبال المفتوحة.

٢ ـ معلمـو اللغـة العـربية في الكم والمستـوى والتـدريب (المـواد التعليمية وطرق التـدريس) ـ للأستـاذ / الحافظ ظهور الحسن ـ الأستاذ المساعد بكلية التربية الحكـومية بلاهـور والأستاذ/ غلام حيدر جشتي ـ أستاذ اللغة العربية بالكلية الحكومية بفيصل آباد.

٣ ـ معلمـو اللغة العربية في الكم والمستوى والتدريب في اقليم سرحد بباكستان ـ للأستاذ/ محمد عارف نسيم ـ من كلية العلوم في بشاور.

* الجلســـة السادسة:

ـ التاريـــــخ : ١٤٠٨/٨/١١ هـ.
ـ الموعـــــد: الساعة ٢/١, ٩ ـ ٢/١, ١١ بعد الظهر.
ـ موضـوع البحث: المواد التعليمية وطرق التدريس والوسائل.
ـ رئيـــس الجلسة: الدكتور/ حمد بن ناصر الدخيل.

- أمين الجلســـــة : الأستاذ/ محمد علي صديقي .
- البحــوث المقدمة :

١ - وسائل الاتصال الجماهيري وكيفية الاستفادة منها - للأستاذ خالد علي عمر - كلية أصول الدين والدعوة بالجامعة الإسلامية العالمية باسلام آباد .

٢ - من مشكلات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها - للدكتور رفعت الفرنواني - الأستاذ في الجامعة الإسلامية العالمية باسلام آباد .

٣ - الاتجاهات المعاصرة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها - للدكتور يوسف الخليفة أبوبكر - الخبير بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية - السودان .

٤ - المحتـوى اللغـوى والثقـافي في اعـداد كتب تعليم اللغة العربية لأبناء اللغات الأخرى - للدكتور/ محمود فهمي حجازى - أستاذ علم اللغة - بكلية الآداب / جامعة القاهرة .

٥ - الأسباب والوسائل العلمية لتطوير تعليم اللغة العربية فى باكستان - للدكتور/ عبدالرزاق اسكندر - مدير التعليم بجامعة العلوم الاسلامية بكراتشي .

٦ - تدريس النحو في مناهج اللغة العربية - للأستاذ/ تنوير عارف - المحاضرة في كلية البنات الحكومية بروالبندى .

* الجلســـــة السابعة :

- التاريـــــــخ : ١٤٠٨/٨/١١ هـ .
- الموعـــــــد : الساعة ١٢ - ١/٢ ,١٣ بعد الظهر .
- المناقشة المفتـوحة : تقويم العمل والتوصيات .
- كلـــمة الرئيس : الدكتور/ غلام علي ألانا - مدير جامعة العلامة إقبال المفتوحة .
- أمين الجلســـــة : الدكتور/ محمد صديق خان شبلي .
- البحــوث المقدمة .

* الباحثـــــون:

١ ـ د. حسن الشافعي.
٢ ـ د. يوسف الخليفة.
٣ ـ د. فتحي الرفاعي.
٤ ـ د. حمد بن ناصر الدخيل.
٥ ـ د. محمد اسحاق قريشي.
٦ ـ الأستاذ/ جاويد اقبال سيد.
٧ ـ الأستاذة/ رضية عباس.
٨ ـ الأستاذ/ الحافظ احسان الحق.
٩ ـ د. محمود فهمي حجازي
١٠ ـ الأستاذ/ زاهد أشرف.
١١ ـ الأستاذ/ محمد حنيف شودرى.
١٢ ـ د. محمد طفيل الهاشمي.

* المشتركون في المؤتمر:

بلغ عدد الأعضاء المشتركون في جلسات المؤتمر (٣٥) عضوا، معظمهم من الباكستانيين المهتمين بتعليم اللغة العربية ونشرها في باكستان، وممن لديهم تجارب طويلة في تدريس اللغة العربية في مختلف أرجاء البلاد.

وبلغ عدد الأعضاء المشتركون في المؤتمر من البلاد العربية ثمانية أعضاء موزعين على النحو التالي:

١ ـ الدكتور/ يوسف الخليفة أبوبكر ـ معهد الخرطوم الدولي بالسودان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
٢ ـ الدكتور/ محمود فهمي حجازي ـ من كلية الآداب بجامعة القاهرة ـ مصر.
٣ ـ الدكتور/ حمد بن ناصر الدخيل ـ من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ المملكة العربية السعودية.
٤ ـ الدكتور/ فتحي الرفاعي ـ من الاتحاد العالمي للمدارس العربية الإسلامية.
٥ ـ الدكتور/ أحمد العسال (حضر الجلسة الخامسة فقط) ـ الجامعة الإسلامية العالمية باسلام آباد.
٦ ـ الدكتور/ محمد سليمان فتيح ـ الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.
٧ ـ الدكتور/ رفعت الفرنواني ـ الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.
٨ ـ الأستاذ/ خالد علي عمر ـ الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.

* **بحوث المؤتمر:**

بلغ عدد البحوث المقدمة للمؤتمر (٢٤) بحثا، وهي بحوث جيدة في مجملها، بذل في إعدادها جهد ملحوظ، وتتجه إلى معالجة مشكلات تعليم اللغة العربية في باكستان، وتعد مرجعا مهما لكل من يهتم بموضوع تطوير تعليم اللغة العربية في باكستان وغيرها.

ولذلك اقترحنا على أمانة المؤتمر أن تطبعها جميعا في كتاب مستقل، حتى يمكن الاستفادة منها في باكستان وغيرها من البلدان التى تسعى إلى اثراء تجربة تعليم اللغة العربية وتطويرها إلى الأفضل.

* **توصيات المؤتمر وقراراته:**

وقد توصل المؤتمر إلى اتخاذ بعض التوصيات والقرارات المهمة التى ستساهم اذا ما أخذت طريقها إلى التنفيذ في تطوير تعليم اللغة العربية فى الجامعات والمدارس ودور العلم في باكستان.

وألفت لجنة لصياغة التوصيات والقرارات من الدكتور/ يوسف الخليفة أبوبكر، والدكتور/ محمود فهمي حجازى، والدكتور/ حمد بن ناصر الدخيل وثلاثة من الباحثين الباكستانيين، وتوصلت إلى الصياغة التالية (أنقلها بنصها):

«عقدت جامعة العلامة إقبال المفتوحة مؤتمرا دوليا للنهوض باللغة العربية في الباكستان خلال الفترة من ٩ - ١١ شعبان - الموافق ٢٧ - ٢٩ مارس ١٩٨٨م، وذلك انطلاقا من كون الباكستان دولة اسلامية تستمد فكرها وجذورها من الشريعة الإسلامية السمحاء، وقد حضر هذا المؤتمر العديد من المندوبين والمفكرين والأساتذة الذين يمثلون مختلف الجامعات والكليات والمؤسسات والمعاهد الدينية التي تعنى باللغة العربية ونشرها بوصفها لغة القرآن الكريم، كما حضر المؤتمر مندوبون عن عدد من الدول العربية الشقيقة.

وبالاضافة إلى الجلستين: الافتتاحية والختامية، عقد المؤتمر سبع جلسات عمل،

شارك فيها (٢٥) مندوبا من الباكستان والدول العربية، وقدم المشاركون بحوثا ودراسات قيمة حول المحاور الآتية:

١ ـ سياسة الدولة حول تعليم اللغة العربية.
٢ ـ موقف اللغة العربية كمادة تعليمية في المدارس والجامعات.
٣ ـ مناهج ومقررات تعليم اللغة العربية في المدارس ووسائل الاتصال الجماهيري وكيفية الاستفادة منها.
٤ ـ مناهج وأساليب تعليم اللغة العربية في المدارس الدينية.
٥ ـ معلمو اللغة العربية كماً ومستوى وتدريباً.

وعلى ضوء المناقشات والآراء والمقترحات التي قدمها المشاركون.
وافق المؤتمر على التوصيات التالية:

١ ـ دعوة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليكسو) والجامعات والمعاهد والمراكز المتخصصة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها لمساعدة الجامعات الباكستانية بايفاد أساتذة اللغة العربية للتدريس والاشراف على البحوث في الدراسات العليا، والمعاونة في تدريب المعلمين، وتخصيص منح دراسية للمعلمين والطلبة الباكستانيين وتبادل الوفود والزيارات بين الجامعات الباكستانية وجامعات الدول العربية، والعمل بنظام الاشراف المشترك لطلاب الدكتوراه المتخصصين في اللغة العربية وآدابها، وذلك بأن يقضي الطالب الباكستاني عامين جامعيين في إحدى الجامعات العربية بإشراف أستاذ عربي متخصص إلى جانب مشرفه الباكستاني، ودعم مشروع تدريب المعلمين وإعداد المناهج الذى تقوم به جامعة العلامة إقبال المفتوحة بإسلام آباد.
٢ ـ اتخاذ الخطوات التنفيذية نحو تطبيق السياسة التعليمية الجديدة في الباكستان لجعل اللغة العربية مادة إلزامية حتى الصف الثاني عشر، وتكوين لجنة فنية على مستوى رفيع لمراجعة مناهج تعليم اللغة العربية واعداد الكتب والمواد التعليمية، والاستعانة في ذلك بالخبراء العرب ومنح معلمي الدول العربية الضمانات الاقتصادية، ومساواتهم بأقرانهم حملة الشهادات المماثلة.

٣ - يدعو المؤتمر وزارة الشئون الدينية والأقليات إلى المزيد من تشجيع تعليم اللغة العربية في المساجد، والعناية بمدارس تحفيظ القرآن الكريم والتجويد، وربط تدريس اللغة العربية بمدارس تحفيظ القرآن.

٤ - تنظيم كادر منفصل لمعلمي اللغة العربية من حملة شهادة البكالوريوس تربية (لغة عربية).

٥ - يطالب المؤتمر بالاستفادة من أجهزة الاعلام، لا سيما الصحافة والاذاعة والتليفزيون لنشر اللغة العربية بالتعاون مع منظمة الاذاعات الإسلامية بجدة وأجهزة الاعلام العربية.

٦ - يشيد المؤتمر بالجهود المبذولة للنهوض باللغة العربية في الباكستان حكومة وشعبا، وجامعات ومعاهد، ويخص جامعة العلامة اقبال المفتوحة ورئيسها الدكتور غلام علي ألانا، وأسرة الجامعة الذين شاركوا في اعداد هذا المؤتمر وتنظيمه وانجاحه، كما يشيد المؤتمر بمعلمي اللغة العربية وصبرهم وتحمله الصعاب في سبيل نشر لغة القرآن الكريم واحتسابهم الأجر والثواب، والاعتزاز بمكانتهم الاجتماعية، ويشيد المؤتمر أيضا بالجهود التى تبذلها المملكة العربية السعودية، وجمهورية مصر العربية ودولة الامارات العربية المتحدة، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من أجل النهوض باللغة العربية في جمهورية باكستان الإسلامية.

(قـــــــرار)

قرر المؤتمر تشكيل مجلس أعلى للنهوض باللغة العربية ـ مقره جامعة العلامة إقبال المفتوحة، ويشترك فى عضويته مختلف المؤسسات والهيئات في الباكستان والعالم العربي المهتمة بتعليم اللغة العربية ونشرها، ويكون من مهمته متابعة توصيات هذا المؤتمر.

*** ***

وتنفيذا لقراره، فقد شكل المجلس من:

١ ـ الدكتور/ غلام على ألانـا.
رئيس جامعة العلامة اقبال المفتوحة.

٢ ـ الدكتور/ أحمد العسـال.
رئيس الجامعة الإسلامية العالمية في اسلام آباد.

٣ ـ الدكتور/ يوسف الخليفة أبوبكر.
الخبير بمعهد الخرطوم الدولي.

٤ ـ الدكتور/ حمد بن ناصر الدخيل.
مدير معهد تعليم اللغة العربية ـ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٥ ـ الدكتور/ محمود فهمي حجازى.
الأستاذ في كلية الآداب ـ بجامعة القاهرة.

٦ ـ الأستاذ/ محمد حنيف شودرى.
مدير معهد اللغة العربية والدراسات الإسلامية ـ بجامعة العلامة اقبال المفتوحة.

٧ ـ الدكتور/ محمد طفيل الهاشمي.
جامعة العلامة اقبال المفتوحة.

٨ ـ الدكتور/ بخـــــــارى.

٩ ـ الشيخ / وصي مظهر النـــدوى.
عضو مجلس الشعب الباكستاني.

١٠ ـ حافظ احســـان الحق.
جامعـــة كراتشـــى.

١١ ـ اسحـــــاق قريشـــي.

* **توصيات المؤتمر وقراراته في الميزان :**

من الملاحظ أن توصيات المؤتمر وقراراته ركزت بصفة خاصة على المشكلات والصعوبات التى يواجهها موضوع تعليم اللغة العربية في باكستان، واقترحت بعض الحلول المناسبة التى ستسهم بشكل كبير اذا نفذت في دفع عجلة تعليم اللغة العربية في البلاد الباكستانية.

وبناء على القرار الذى أصدره الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق ـ رحمه الله ـ منذ سبع سنوات بجعل اللغة العربية مادة إجبارية ابتداء من الصف السادس وحتى الصف الثاني عشر، فقد رأى أكثرية المشاركين في المؤتمر أن يصدر المؤتمر توصية بجعل اللغة العربية هي اللغة الثانية في باكستان بعد اللغة الأردية.

ومن الموضوعات التي أحببت أن يعالجها المؤتمر معالجة موضوعية واسعة، ويصدر فيها قراره المناسب، موضوع كتب تعليم اللغة العربية في باكستان، لأن تأليفها تم بشكل تقليدى، ولم يستفد من التجارب الحديثة في تعليم اللغات الاّ قليلا، فضلا عما تحفل به من أخطاء في اللغة (مفردات ـ وتراكيب ـ وأساليب).

ولكن يبدو أن البحث عن كتب جديدة، والسعي إلى تأليف كتب أخرى غير الكتب المقررة حالياً من الأمور التى يصعب تنفيذها في الوقت الحاضر على المهتمين بتعليم اللغة العربية في باكستان لأسباب عديدة.

ولا يتوقع من مؤتمر واحد أن يحل جميع المشكلات والعقبات التى تواجهها اللغة العربية في بلد ما، وحسبه في هذا أن يبرز أهمها، ويسعى فى حلها والقضاء عليها.

وهذا المؤتمر اذا أتيح له أن يتابع توصياته وقراراته وينفذها فسوف يحقق نجاحاً كبيرا، ويسهم بشكل جذرى في تطوير مكانة اللغة العربية وأهميتها في دولة مسلمة لا تتحدث اللغة العربية، ولم تتجه إلى نشرها والعناية بها الاّ منذ سنوات قلائل.

* المقترحـــــــات:

للمملكة العربية السعودية ممثلة فى بعض جامعاتها وخاصة جامعة الإمام محمد ابن سعـود الإسلامية، وللمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ممثلة في معهد الخرطوم الـدولي جهـود موفقة وملموسة فى تعليم اللغة العربية ونشرها فى باكستان عن طريق القنوات التالية:

١ - تخصيص بعض المنح الدراسية للطلاب الباكستانيين.
٢ - ندب بعض الخبراء في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها للمشاركة في وضع المناهج والخطط الدراسية، وتقديم المشورة والرأى فى هذا المجال.
٣ - بعث بعض المـدرسـين لتـدريس اللغة العربية والثقافة الإسلامية في المدارس والجامعات الباكستانية.
٤ - تزويد الجهات المختصة والمهتمة بتعليم اللغة العربية ونشرها فى باكستان بالكتب والمناهج والمقررات.

وتشهد باكستان في الوقت الحاضر توجها ملحوظا على المستوى الرسمي والمستوى الشعبي إلى الاهتمام بنشر اللغة العربية في جميع أنحاء البلاد، وليس أدل على ذلك من المؤتمر الدولي الذى عقدته جامعة العلامة اقبال المفتوحة، والمؤتمر الذى عقدته جمعية نشر اللغة العربية في كراتشي فى وقتين متقاربين لتطوير تعليم اللغة العربية ونشرها.

ومن يتح له أن يزور باكستان فى الوقت الحاضر يلاحظ الفرق بين حالة اللغة العربية الآن، وبين حالتها منذ عشر سنوات، وتضع توصية المؤتمر الأولى أمامنا مقدار الحاجة إلى مساهمة الدول العربية في مشروع تطوير تعليم اللغة العربية ونشرها في باكستان، وبخـاصـة فى مجال ايفـاد أسـاتـذة اللغـة العـربية للتدريس فى الجامعات والمدارس البـاكستـانية، والاشراف على البحـوث، والمعـاونة فى تدريب معلمي اللغة العربية وتأهيلهم تربويا وعلميا وتخصيص منح دراسية للطلاب الباكستانيين، وتبادل الوفود والزيارات بين الجامعات الباكستانية وجامعات الدول العربية.

وانـطلاقا من هذا كله، ومما تضمنته التوصية المشار إليها، ومن واقع مسيرة اللغة العربية في هذا القطر المسلم أقترح ما يلي :

أولاً : من الضرورى التخطيط لانشاء جيل في الجامعات ودور العلم في باكستان يجيد اللغـة العربية قراءة وتحدثا وكتابة، وبخاصة فى الجامعات التى تغلب عليهـا الدراسات العلمية التطبيقية كالهندسة والطب، لأن من المشاهد أن الـذين درسـوا في الجامعات الأوربية والأمريكية، وكذلك الذين تخصصوا تخصصات علمية بحتة من الباكستانيين لا يعرفون اللغة العربية بتاتا، لأن لغتهم العلمية هي الانجليزية بجـانب الأردية بطبيعة الحال، ومثل هؤلاء ينبغى أن تتاح لهم فرصة تعلم اللغة العربية عن طريق الجامعات والمعاهد المتخصصة فى تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وذلك ينبغى أن تتجه الجـامعـات والمـراكـز المختصة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها إلى تخصيص منـح دراسية لأبنـاء الجـامعـات البـاكستـانية عن طريق حكومة باكستـان، حيث تتـولى ترشيح عدد من أسـاتذة الجامعات وطلابها ممن لا يعرفون اللغة العربية، وتكون منحهم بالقدر الذى يتمكنون به من الدراسة فى قسم الاعـداد اللغـوى في معـاهد تعليم اللغة العربية واجتيازه، وليس بالضرورة أن تكون منحا طويلة يدرس فيها الطالب الدراسة الجامعية.

ثانياً: لعل أهم موضوع يشغل جامعة العلامة اقبال المفتوحة، وكذا الجامعة الإسلامية العالمية هو تدريب معلمي اللغة العربية في باكستان، ويبدو أن المعلمين الذين يتولون تدريس اللغة العربية للطلبة الباكستانيين يفتقرون إلى اعدادهم اعدادا لغويا وعلميا وثقافيا للقيام بالمهمة التى وكلت إليهم قياما صحيحا ومتكاملاً.

وقد شرح الدليل الذى أعدته جامعة العلامة اقبال المفتوحة عن المؤتمر هذه القضية بقوله :

« وعلى رأس هذه المشكلات ضعف مستوى معلمي اللغة العربية فى المهارات اللغوية التى تعتـبر ضرورية وهامة للمعلم، ومكملة لعملية التعليم نفسها، وبدونها لا تتم

عملية تعليمية ناجحة مهما بذل من جهد، وفي دولة باكستان آلاف المدارس التى تدرس فيها اللغة العربية، ولا تعاني هذه المدارس نقصا في عدد المعلمين من حيث الكم، بينما تعاني من ضعف مستوى المعلمين في اللغة العربية، لأن هؤلاء المعلمين تعلموا في اطار نظام تعليمي يعتمد على أسلوب تقليدى جامد لا يحظى بأى فعالية في عملية التعليم.

والدراسة في هذه المدارس تقوم على منهج ينظر إلى العربية بوصفها التراثي فحسب، ولذا يتم تعليم اللغة فيها بطريقة ينصب جل اهتمامها على النحو والترجمة فى مرحلة ما قبل الجامعة، وفي المرحلة الجامعية يدور تعليم اللغة العربية حول الحضارة العربية والإسلامية باللغة الأردية أو الانجليزية، وحظ العربية من هذه الدراسات فقط اسم الحضارة العربية والإسلامية، ولكن لا تدرس باللغة العربية، وهذا يدل على بعد هذه الدراسات عن تعليم اللغة العربية، ومثل هذه الطريقة لا تؤهل من يدرس بها، كما لا ينتظر من خريجي هذه الدراسات أن يقدموا شيئا للغة العربية.

ومن الواضح أن هذه الدراسات التى مر ذكرها بالأسلوب المذكور آنفا لا تمكن الطالب من اتقان المهارات اللغوية، ولا يتعدى فهم المقروء فقط في أحسن الحالات، كما أنها لا تشجع دراسي اللغة العربية بل تنفرهم وتضعف كل طموح لديهم في تعلم اللغة العربية. يحتاج الطالب إلى اللغة العربية في عملية التعليم والطريقة العلمية التى تمكنه من اكتساب المهارات اللغوية بأسلوب مباشر، ودراسة المادة العربية على أنها مادة حية ليست معزولة عن الحياة اليومية حتى يكون الارتباط بين الطالب والمادة قوياً، بغير تقديم المادة اللغوية في أمثلة نمطية بعيدة عن الحياة كل البعد.

يجدر بنا في هذا المقام أن نؤكد على أن معظم معلمي اللغة العربية لا يتجاوز المامهم باللغة أكثر من فهم المقروء كما ذكر آنفاً، ويفقدون تماماً مهارتي التعبير الشفوى والكتابي اللتين تعتبران من أهم مهارات اللغة بجانب مهارة النطق الصحيح . . وكما قيل : فاقد الشيء لا يعطيه، ولهذا لا يستطيعون تقديم المادة اللغوية لتلاميذهم بالأسلوب الموصل إلى الهدف المنشود، ولهذه الأسباب المقنعة بات من الضرورى تبني الوسائل الحديثة لرفع المقدرة العلمية لمعلمي اللغة العربية عن طريق الدورات التدريبية المركزة والمكثفة».

وانطلاقا من هذا قام معهد اللغة العربية والدراسات الإسلامية فى جامعة العلامة اقبال المفتوحة باعداد برامج تدريبية لمعلمي اللغة العربية، وشاركت في تنفيذه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية عن طريق معهد الخرطوم الدولي بالتعاون مع وزارة التعليم الفدرالية بحكومة باكستان، وتم تدريب (٤٣٤٧) معلما باكستانيا منذ عام ١٩٨٢م وحتى عام ١٩٨٧م خلال ست دورات، واشترك في هذا التدريب (١٤) مدرسا من معهد الخرطوم الدولي و ٩٤ مدرساً من باكستان.

كما تم تدريب ٦٣ مدرسا من أساتذة الكليات بالتعاون مع دولة الامارات العربية المتحدة.

وبهذا يبلغ عدد المتدربين في باكستان ٤٤١٠ من معلمي اللغة العربية البالغ عددهم عشرة آلاف معلم.

وأمام معهد اللغة العربية والدراسات الإسلامية مشروع لتدريب بقية المعلمين بحيث يتم تدريب ألف معلم كل عام، ومن الممكن اذا نفذ هذا المشروع أن ينتهى تدريب المعلمين خلال خمس سنوات.

وعدد المدرسين العرب الذين يحتاج إليهم المعهد كل عام للإشراف على التدريب والمشاركة فيه عشرة مدرسين متخصصين في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، يوزعون على مراكز التدريب العشرة القائمة في أنحاء باكستان.

ثالثاً: كتب تعليم اللغة العربية المقررة في المدارس والجامعات الباكستانية تحتاج إلى إعادة نظر وتقويم ومراجعة، بل تحتاج إلى اعادة بنائها من جديد لأسباب ذكرتها في البحث الذى تقدمت به إلى المؤتمر والباكستانيون أنفسهم يشعرون أن الكتب المقررة لا تفي بالمطلوب، ولا تحقق الغاية المنشودة منها، وقد أشارت التوصية الأولى من توصيات المؤتمر إلى ضرورة الاستعانة بالمتخصصين في تعليم اللغة العربية لغير العرب، والجامعات العربية في اعداد المناهج التى تعدها جامعة العلامة اقبال المفتوحة لطلابها.

* الخاتمـــــة :

لقد أتاح المؤتمر الاطلاع على قضايا كثيرة عن اللغة العربية وتعليمها ونشرها في باكستان وما تواجهه من صعوبات ومشكلات، لعل في مقدمتها عدم وجود المقررات والمناهج المناسبة، وعدم توافر المدرسين الباكستانيين المدربين تدريبا جيدا على تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

وسيكون المؤتمر فاتحة لدراسة أوسع لقضية اللغة العربية في باكستان من خلال الجامعات والمدارس، ومن خلال المهتمين بالموضوع خارج باكستان.

ونأمل أن تكلل الجهود والمساعي بجعل اللغة العربية لغة رسمية فى باكستان.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل. . .

تقرير عن مؤتمر اللغة العربية العالمي الأول

للدكتور
محمد بن خالد الفاضل
الأستاذ المساعد في قسم النحو والصرف وفقه اللغة
بكلية اللغة العربية بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* الزمان: من ١٤٠٨/٧/٢٩ هـ إلى ١٤٠٨/٨/١ هـ. الموافق ١٧ - ١٩/٣/١٩٨٨م.
* المكان: فندق بيرل كونتنتال - كراتشي - الباكستان.
* الجهة المنظمة للمؤتمر: جمعية نشر اللغة العربية، وهي جمعية تتخذ من مدينة كراتشي في الباكستان مقراً لها. وقد أسسها الأستاذ/ كمال أفضل فاروقي (رحمه الله) مع ستة من أصحابه تمكن من إقناعهم بغايته النبيلة وهي أن الشعب الباكستاني المسلم لن يكون فى وسعه معرفة الإسلام معرفة جيدة ما لم يعرف لغته التى جاء بها، وكان جاداً في محاولة إقناع كل من حوله بذلك إلى أن نجح هو وزملاؤه في تكوين هذه الجمعية وإشهارها وتسجيلها رسمياً في ٢١/٢/١٩٧٣م، أي قبل ستة عشر عاماً، وحرصاً منه على وضعها على الطريق الصحيح من البداية فقد وضع لها نظاماً إدارياً دقيقاً (ديمقراطياً) وتولى بنفسه رئاسة مجلسها مدة عامين، ثم تنحىّ عن المنصب بنفسه، وتولاه أحد الأعضاء بمقتضى نظامها الانتخابي، ولازالت تسير على المنهج الذي رسمه لها مؤسسها يرحمه الله.

وقد نشطت في تأدية رسالتها منذ ذلك الحين إلى اليوم، وأتيح لها خلال تلك المدة أن تقوم بأنشطة جيدة منها:

- دَرَّسَتْ اللغة العربية ومنحت شهادة بذلك لأكثر من عشرة آلاف مواطن باكستاني؛ منهم طلاب علم، ومعلمون، وضباط في الجيش، ومشتغلون بالتجارة وغيرهم.
- نظّمت دورات لتعليم العربية في بعض المؤسسات التجارية والصناعية كالبنوك والمصانع وشركات الطيران والمدارس والكليات وغيرها، وتم إنجاز ذلك في أكثر من (٤٨) جهة من هذه الجهات.
- لها نشاط جيد في مجال التأليف لطلابها والمستفيدين منها، ومن مؤلفاتها:

١ ـ القاموس العربي الأساسي: عربي ـ انجليزي ـ عربي يحتوي على (٤٠٠٠) كلمة من الكلمات المستعملة بكثرة في العربية.
٢ ـ القاموس الأساسي: عربي ـ أردو ـ عربي.
٣ ـ تمارين القراءة العربية: يستعمل مع الأشرطة التسجيلية.
٤ ـ الترجمة الانجليزية لتمارين القراءة العربية.
٥ ـ الفعل العربي: نشرة تبين تشكيل الأفعال من الأحرف الجذرية الأساسية.
٦ ـ المحادثة العربية السهلة: كتيّب يحتوي على جمل المحادثة الضرورية لمن يريد العمل في البلاد العربية.
٧ ـ منهاج جديد لعملية تسهيل قراءة القرآن بسهولة وثقة من قبل المبتدئين.
٨ ـ المحادثة العربية مع الترجمة بالانجليزية.
٩ ـ باكستان واللغة العربية: كتابان يحتويان على مقالات تبين أهمية اللغة العربية.

- أنشأت في مقرها دائرة للترجمة، تقوم بعمل الترجمة لأعمال الجمعية ولغيرها من الجهات الخارجية كالجامعات وغيرها.
- أنشأت في مقرها نادياً اسمه: نادي اللغة العربية، ليكون منبراً وميداناً يلتقي فيه طلاب الجمعية ومنسوبوها القدامى والجدد، ولغة الحديث فيه هي العربية فقط، وذلك لتنمية مهارات ومعلومات طلاب الجمعية ومنسوبيها، وينظم النادي لرواده مسابقات ثقافية باللغة العربية حول القرآن والسيرة والتاريخ الإسلامي، ويرصد لها بعض الجوائز الرمزية، كما يقوم بإصدار نشرة دورية باللغة العربية اسمها: صوت النادي.
- عقدت الجمعية مؤتمراً كبيراً ومهماً لكنه محلّي وليس عالمياً، اسمه: مؤتمر اللغة العربية الباكستاني، وذلك في ٥ ـ ٦ أكتوبر من عام ١٩٨٥م. وقد شارك فيه ثمانون وفداً من داخل الباكستان يمثلون معظم المؤسسات والجامعات والمراكز والمدارس المهتمة بتعليم العربية، بما في ذلك الحكومية والأهلية.

وكان من ضمن توصيات هذا المؤتمر: التوصية بعقد مؤتمر عالمي للغة العربية في مدينة

كراتشي ترعاه جمعية نشر اللغة العربية . ويدعى إليه وفود من مختلف أنحاء العالم يمثلون الجهات المهتمة باللغة العربية والمشتغلة بتعليمها .

وقد تحقق ذلك بالفعل وتم عقد المؤتمر الذي هو موضوع هذا الحديث .

* الوفود المشاركة في المؤتمر:

شارك في المؤتمر أربعة وستون وفداً، منهم ستة وعشرون من داخل الباكستان، وثمانية وثلاثون يمثلون ثماني عشرة دولة أخرى، وقد قدموا للمؤتمر ما يقرب من أربعين بحثاً تمت مناقشتها خلال جلساته .

* جلسات المؤتمر وموضوعاته :

جعل المؤتمر أعماله في سبع جلسات :

الأولى : للافتتاح، وقد حضرها حاكم مقاطعة السند/ السيد أشرف تاباني/ نيابة عن رئيس الجمهورية الذى اعتذر في آخر الوقت .

الثانية : نوقشت فيها الأبحاث التي تندرج تحت موضوع : دور اللغة العربية كلغه ربط بين الدول الإسلامية .

الثالثة : نوقشت فيها الأبحاث التى تندرج تحت موضوع : التنسيق والتعاون في تعليم اللغة العربية في الدول الإسلامية .

الرابعة : نوقشت فيها الأبحاث التى تندرج تحت موضوع : إسهام غير العرب في نشر العربية .

الخامسة : نوقشت فيها البحوث التى تندرج تحت موضوع : وسائل وتقنيات مختلفة في تعليم اللغة العربية .

السادسة : نوقشت فيها البحوث التي تندرج تحت موضوع : دور القرآن الكريم في نشر اللغة العربية بين المسلمين .

السابعة : جلسة الختام وقد تليت فيها التوصيات المعدّة من قبل لجنة سباعية رشحها أعضاء المؤتمر، وخصص الجزء الأخير من هذه الجلسة ليعبّر فيه كل وفد ـ من خلال أحد ممثليه ـ عن انطباعه الخاص وشعوره نحو المؤتمر والجمعية التى نظمته وغير ذلك .

* توصيات المؤتمر :

أسفرت أعمال المؤتمر ومداولاته عن التوصيات التالية :

١ - تأسيس اتحاد عام للجمعيات التي تعمل على نشر اللغة العربية في الأقطار العربية والإسلامية .

٢ - دعوة الدول العربية والإسلامية إلى تشريع قانون للحفاظ على سلامة اللغة العربية .

٣ - دعوة الدول الإسلامية إلى الحفاظ على الحرف العربي في الكتابة ليظل التواصل قائماً بين اللغة والدين.

٤ - دعوة الدول العربية إلى تخصيص منح دراسية كافية للطلبة المسلمين الناطقين بغير العربية .

٥ - دعوة الدول العربية إلى تزويد الجمعيات والمدارس والجامعات المعنية بتعليم العربية بالمدرسين والكتب والأشرطة .

٦ - الاهتمام بالبحث التربوي في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها .

٧ - تبادل الوفود والزيارات العلمية بين الجمعيات والمدارس والجامعات المهتمة بهذا الموضوع .

٨ - دعوة الدول الإسلامية إلى ايجاد برامج تعليمية باللغة العربية فى وسائل إعلامها المرئية والمسموعة والمقروءة .

٩ - قيام جمعية نشر اللغة العربية في كراتشي بجميع المناهج المؤلفة في هذا المجال من المؤسسات العلمية كافة .

١٠ - قيام الجمعية بإعداد دليل بأسماء الجمعيات والمراكز والهيئات التي تعنى بنشر اللغة العربية .

١١ - الدعوة إلى جعل اللغة العربية من المقررات الرئيسة في المدارس الثانوية في الدول الإسلامية .

١٢ - مناشدة الصحف في الدول الإسلامية تخصيص صفحة عربية في كل واحدة منها .

١٣ ـ قيام الجمعية بطبع بحوث هذا المؤتمر في كتاب وتوزيعه .

١٤ ـ مناشدة الدول والمؤسسات والمحسنين تقديم الدعم المالي لهذه الجمعية لتتمكن من أداء رسالتها .

١٥ ـ اعتماد الأعضاء المشاركين في هذا المؤتمر أعضاء عاملين في جمعية نشر اللغة العربية .

١٦ ـ عقد مثل هذا المؤتمر مرة في كل عامين في إحدى الدول العربية أو الإسلامية ، ونظراً لدور المملكة العربية السعودية الريادي في نشر اللغة العربية ؛ يأمل المشاركون أن تتبنّى إحدى الجامعات السعودية عقد المؤتمر القادم .

١٧ ـ دعوة الحكومة الباكستانية الموقرة إلى تبنّي هذه التوصيات عن طريق الاتصال بالدول العربية والإسلامية .

١٨ ـ تشكيل لجنة متابعة لهذه التوصيات من قبل الجمعية ، وعرض نتائج المتابعة في المؤتمر القادم .

* **ممثلو المملكة في المؤتمر :**

مُثّلتْ المملكة في المؤتمر بوفدين :

أحدهما : من كلية الآداب بجامعة الملك سعود في الرياض وهم الأساتذة :

١ ـ الدكتور: مرزوق بن صنيتان بن تنباك . وكيل الكلية .

٢ ـ الدكتور: عوض بن حمد القوزي . الأستاذ المساعد لقسم اللغة العربية .

٣ ـ الدكتور: أحمد الزيلعي . رئيس مركز البحوث في الكلية .

الثاني : من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وهم :

١ ـ الدكتور صالح بن حسين العايد . وكيل الكلية .

٢ ـ الدكتور محمد بن خالد الفاضل . الأستاذ المساعد في قسم النحو والصرف وفقه اللغة .

تقرير عن ندوة تطوير البرامج الدينية في تليفزيونات الخليج

للأستاذ الدكتور
سمير محمد حسين
الأستاذ في قسم الإعلام
بكلية الدعوة والإعلام بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مـدخـــل :

تحتل البرامج الدينية في تليفزيونات الخليج مكانة اعلامية متميزة ، وتؤدي رسالة مؤثـرة في التثقيف والتـوعية والتـوجيه ، وتسهم في بناء النهضة ومعالجة المشكلات الاجتـماعية والفكـرية بعلم وحكمـة ، مما يستـدعي القيام بدراسـة تتناول واقعها بالتحليل والتقـويم ، كما تحتـاج الى تخطيط سليم يثرى عطاءها ويجدد أساليبها في الحاضر والمستقبل .

لهذا قامت جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ بالتعاون مع جهاز تليفزيون الخليج ـ بعقد ندوة (تطوير البرامج الدينية في تليفزيونات الخليج) في الفترة من ٢٩ رجب الى ٢ شعبـان ١٤٠٧هـ (المـوافق ٢٩ الى ٣١ مارس ١٩٨٧م) تحت رعـاية صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود وزير الداخلية ورئيس المجلس الأعلى للاعلام .

الأهداف الأساسية للندوة :

وقد سعت الندوة في أبحاثها لتحقيق أهداف كثيرة أبرزها ما يلي :-

١ ـ تقويم واقع البرامج الدينية .

٢ ـ ارسـاء قواعد علمية مرشدة للتخطيط السليم لانتاج برامج دينية أعلى جودة وأصلح أثرا

٣ ـ توظيف الوسائل التقنية في تضمين البرامج الدينية عناصر الاستساغة والجذب والتشويق ، والارتقاء بمستوى معديها ومقدميها ومخرجيها .

٤ ـ دعم قدراتهـا حتى تتمكن من معالجة القضايا والمشكلات التي تهم المجتمع المسلم ومكافحة تيارات الالحاد والاتجاهات الدخيلة .

٥ ـ توسيع نطاقها من أجل أن تشمل الجاليات المسلمة وغير المسلمة غير الناطقين بالعربية في الخليج ، ولكي تمتد إلى آفاق عربية واسلامية وعالمية أوسع .

٦ ـ تقوية العلاقة بين البرامج الدينية وعلماء الإسلام .

٧ ـ فتح مجالات التنسيق ودعم أطره بين الجهات المشرفة على البرامج الدينية، وتقوية الروابط بين العاملين في هذه الجهات ، وايجاد قاسم مبدئي وفكري مشترك بين هذه البرامج والبرامج الأخرى .

المشاركون في الندوة :

وقد شارك في الندوة نخبة من علماء الشريعة والمتخصصون في العلوم الإسلامية ممن لهم اهتمام بوسائل الاعلام ، ونخبة من الأساتذة والخبراء المتخصصين في الاعلام أو الممارسين له . ونخبة من العاملين في حقل البرامج الدينية في تليفزيونات دول الخليج العربية سواء في مجال التخطيط أو الاعداد أو الاخراج ، وممثلون من بعض الهيئات والمؤسسات الاعلامية الانتاجية .

وقامت اللجنة التحضيرية للندوة بترشيح حوالي خمسة وعشرين باحثا من العلماء والمفكرين المتخصصين في علوم الشريعة الاسلامية ومن أساتذة الاعلام في الجامعات ، والخبراء في المؤسسات الاعلامية والمؤسسات الأخرى للمشاركة في تقديم أبحاث الندوة ، كما دعت الجامعة عددا من العلماء والمفكرين والباحثين للمشاركة في مناقشة الأبحاث والمساهمة في أعمال الندوة للخروج بتوصيات علمية وتطبيقية نافعة .

وقد عهدت اللجنة التحضيرية الى كلية الدعوة والاعلام بالجامعة باجراء بحث تطبيقي لتحليل مضمون البرامج الدينية في تليفزيونات الخليج ، واستكمال الاجراءات الفنية والادارية لعقد الندوة بالتعاون مع جهاز تليفزيون الخليج .

الجلسة الافتتاحية للندوة :

وفي بداية الجلسة الافتتاحية ألقى صاحب السمو الملكي الأمير نايف ابن عبدالعزيز وزير الداخلية ورئيس المجلس الأعلى للاعلام كلمة أشاد فيها بهذه الندوة . وأكد على أهميتها وعلى أنها تتم في اطار خليجي ، مما يدل على أن التعاون الخليجي يتسع ويتأصل يوما بعد يوم في جميع الميادين ، وأشار الى أنها تتحاور وتتشاور حول أربعة أمور حيوية هي : التوجيه الديني ، والمجتمعات الخليجية ، والاعلام

والقضايا المعاصرة ، وأوضح أن الاعلام يمثل قوة عصرية فعالة مؤثرة استفادة كثيرا جدا من التقدم التقني المعاصر ، وأنه لا يوجد مجال أحق بالخدمة الاعلامية المتطورة ، من المجال الديني ، مما يلقي بمسؤولية جديدة أمام التوجيه الديني وهي : ترغيب الناس في تعاليم الاسلام ومثله بالأساليب المشوقة ، والوسائل المتطورة التي لا تتعارض مع تلك التعاليم ، وأنه اذا كان من حق الاسلام أن يخدم بالوسائل الاعلامية المتطورة فيجب أن يهتدى الإعلام كله بالإسلام ، كما أوضح سموه أن السياسة الاعلامية ، فى المملكة العربية السعودية ، أولت التوجيه الديني ما يستحقه من دعم وتمكين وخصوصية ، وفي الوقت نفسه أقامت البنية الاعلامية كلها على هدى الاسلام من حيث المنطلقات ، والغايات ، والضوابط .

وأكد سموه أنه بهدى الدين ، ومن خلال التعرف على طبيعة المجتمعات الخليجية بالوسائل الاعلامية المتطورة ، تستطيع البرامجالدينية أن تؤدي رسالتها ، وتقوم بواجبها نحو قضايا : الاستقامة الفردية ، والترابط الأسري ، وتعميق فضائل العمل والانتاج والمحبة والهدوء والاعتدال والتعاون والاستقرار ، وتقديم الوقاية من المشكلات الاجتماعية ، أو علاجها حين تحدث ، ومقاومة الغزو الفكري ، والحرب النفسية ، وتوجيه الشباب ، ونشر الفكر الاسلامي القويم : القديم والحديث .

كما ألقى معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي مدير الجامعة كلمة في الجلسة الافتتاحية أشار فيها الى الرسالة العلمية التي تضطلع بها الجامعة وعنايتها بتخصصاتها الشرعية والعربية والاعلامية التي اجتمعت وتكاملت في هذه الندوة التي يلتقي فيها علماء الإسلام ومفكروه ، ورجال الاعلام . لقاء علم ، ولقاء عمل ، ولقاء تنسيق ، ولقاء تآخ وتواد ، في رحاب مؤسسة علمية سعودية هي جامعة الامام ، بالتنسيق مع جهاز خليجي متخصص هو : جهاز تليفزيون الخليج ، في كنف هذا البلد المسلم ، المملكة العربية السعودية .

كما طرح معاليه المفهوم الصحيح لموضوع الندوة وهو تطوير أساليب عرض حقائق الدين ، وتجديد ذرائع توصيله للناس ، فأهل البصيرة يعلمون أن لانتشار الاسلام سببا هو : قوة الحق ونصوعه ، ويواكب هذه الحقيقة ، حقيقة أخرى وهي : حسن

عرض الإسلام ، وهذه هي المهمة الكبرى التي ينبغي أن تتهيأ البرامج الدينية للقيام بها ، بعلم ، وحكمة ، وهمة ، وأناة.

وأوضح معاليه أن القيام بهذه المهمة يتطلب الجواب العلمي والعملي المفصل عن الأسئلة التالية :

- كيف تعرض أصول الاسلام ومقاصده وشعبه عرضا باهرا ساطع الأفق ، يملأ أقطار النفوس بحب الإسلام ؟.
- كيف ترد الأمة الى أصول الإسلام ردا جميلا مبرءا من تحامل الشانئين وعنت المغالين ؟.
- كيف تجلو منهج أهل السنة والجماعة ، وتحي الاحساس به ، وتحفز على الاستمساك به ؟ فان اجتلاء هذا المنهج واجب في كل حين ، وهو في زمن نزق الفرق الضالة أوجب وألزم .
- كيف يتفاعل علماء الإسلام مع أجهزة الاعلام تفاعلا يميط عن هذه الأجهزة جهالة المجترئين على الدين بلا علم ، ويحفظ لورثة الأنبياء مكانتهم ووقارهم ؟.
- كيف تتغذى أجهزة الاعلام من عطاء العلماء على نحو يقيها شر الغذاء الفاسد ، وبوائق الفراغ المتلف ؟.
- كيف تبعث على الأمل ، وتلقي الأضواء على الجوانب الايجابية ، وتبشر ولا تنفر ؟.
- كيف تعمل في نطاق الواقع دون أحلام ، وبلا اكتئاب ؟.
- كيف تقاوم - بثبات ودأب - الخرافة ، والوهم ، وسائر الموبقات الثالمة للدين ، المشوهة لمعنى الحياة ، المعوقة عن العمل ؟.
- كيف تتكامل مع الجهود التربوية ، والاعلامية ، والاجتماعية ؟.
- كيف تعلم الناس وتعودهم على الحوار السمح النبيل الصادق المهذب ؟.
- كيف تبرز خصائص دول الخليج وشعوبها ، وقدرتهم على العطاء الأنفس من المادة والمال ؟ فليس بالنفط والمال كنا من قبل ، بل بالدين والعلم كنا :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

- كيف يتسع البرنامج الديني لينتظم : اللغة ، والأدب ، وقضايا الشباب ، ومشكلات الحضارة ، وسير خير القرون ، والأئمة الأعلام ، وشئون العالم الاسلامي ، والسياحة في البيع والشراء ، وايثار الصالح العام ، والحفز على تكثير العمل وتجويده ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل بين الأفراد والأسر والمجتمعات ؟ .

الموضوعات الرئيسة للندوة ومناقشاتها :

اشتملت الندوة على مجموعة من الموضوعات المتصلة بالموضوع الرئيسي بلغ عددها ستة موضوعات ، وأمكن تغطية هذه الموضوعات من خلال البحوث المقدمة الى الندوة والتى نوقشت على مدى جلساتها الثمان والتي بلغ عددها ستة عشر بحثا .

ونعرض فيما يلي ملخصا لكل موضوع منها بما اشتمل عليه من بحوث ، وأهم ما أثير من تعقيبات ومناقشات حولها :

الموضوع الأول : واقع البرامج الدينية المقدمة من تليفزيونات دول الخليج :

استهدف هذا الموضوع عرض الواقع الفعلي للبرامج الدينية التي تبثها تليفزيونات الخليج من خلال دراسة تحليلية وتقويمية لمضمون عينة من هذه البرامج ودراسة ميدانية لتنظيم ادارات البرامج الدينية بتليفزيونات الخليج .

وقد قام باعداد الدراسة التحليلية الأولى وعنوانها : (البرامج الدينية المقدمة من تليفزيونات الخليج دراسة وصفية تحليلية على عينة من البرامج الدينية المقدمة من تليفزيونات الامارات والبحرين والسعودية وعمان وقطر خلال الدورة البرامجية - أكتوبر / ديسمبر ١٩٧٦م) ، فريق بحث من الأساتذة والمحاضرين والمعيدين بقسم الاعلام بكلية الدعوة والاعلام ، وأجريت هذه الدراسة على عينة من البرامج الدينية التي قدمتها خمس محطات تليفزيونية خليجية هي الامارات ، والبحرين ، والسعودية ، وعمان ، وقطر. خلال الدورة البرامجية الأخيرة من عام ١٩٨٦م أكتوبر / ديسمبر ، وشملت الدراسة تحليلا لمضمون هذه البرامج من الجوانب الموضوعية

والشكلية ، وأسفرت عن العديد من النتائج المهمة المرتبطة بواقع الممارسة الفعلية ، وجاءت أهم هذه النتائج على النحو التالي :

* تقدم المحطات التليفزيونية الخمس ٢٤ برنامجا دينيا أسبوعيا تبلغ ساعات البث الخاصة بها ١٥ ساعة بنسبة ٤٪ من اجمالى ساعات البث التليفزيوني .

* تأتي البرامج الدينية الثقافية في المرتبة الأولى من حيث عدد حلقاتها والزمن المخصص لها فى تليفزيونات الخليج حيث تصل نسبتها الى ٤٨٪ تليها برامج تفسير القرآن الكريم وبرامج الفقه والفتاوي ، ثم البرامج التربوية والاجتماعية فبرامج تفسير السنة .

* اما من حيث اشكال البرامج الدينية فتأتي الاحاديث بنوعيها وهما الحديث ، المباشر والحديث الى جمهور مستمع فى المرتبة الاولى بنسبة ٤٧٪ بينما تقل نسبة الاشكال الاخرى كالندوات بانواعها وبرامج الاسئلة والاجابة .

* الفصحى الميسرة هى المستوى اللغوى السائد فى معظم البرامج الدينية خاصة برامج تفسير القرآن الكريم والسنة والبرامج التربوية والاجتماعية .

* معظم مقدمى البرامج الدينية (٨٠٪) من علماء الشريعة والنسبة الباقية من اساتذة الجامعات فى تخصصات مختلفة .

* يغلب الطابع الساكن من حيث المعالجة الفنية ـ اللقطات وحركة الكاميرا ـ على معظم البرامج الدينية بعكس الطابع الحركى الذى يمكن ان يضفى عليها مزيدا من الحيوية .

* تمثلت اهم الموضوعات التى تناولتها البرامج الدينية فى تفسير بعض ايات القرآن الكريم وبيان الاعجاز اللغوى والبيانى فيه وشرح الآيات وتوضيح معناها وكذلك تفسير السنة ودحض الادعاءات فى مجال الاحاديث الموضوعية، كما شملت برامج الفقه والفتاوى قضايا اجتماعية واسرية واخلاقية واقتصادية الى جانب القضايا الدينية وقضايا التشريع الإسلامى واحكامه ، كما شملت البرامج التربوية والاجتماعية عديدا من القضايا الدينية والاجتماعية وموقف الدين والشرع منها .

اما الدراسة الاخرى فتتمثل فى التقرير الذى اعده جهاز تليفزيون الخليج بعنوان

«تنظيم ادارات البرامج الدينية بتلفزيونات الخليج وأفاق التنسيق وتبادل الخبرات بينها» وقد اشار التقرير الى ما توليه هيئات التليفزيون الخليجية من عناية خاصة بالبرامج الدينية ، وان اقامة هذه الندوة تأتى لاعطاء هذه البرامج قوة دفع الى الامام فى سبيل تنمية الوعى الدينى بين الجماهير .

وقد تم الحصول على المعلومات الواردة بالتقرير باستخدام استمارة استقصاء قام الجهاز بتوزيعها على الهيئات الاعضاء لتعبئتها لغرض جمع بعض المعلومات حول الوضع الحالى لادارات البرامج وقد تضمنت ثلاثة عناصر أساسية هى :

١ - التنظيم الادارى ٢ - الانتاج ٣ - التنسيق والاتصالات

وقد تلقى الجهاز المعلومات بعد تعبئتها من دول الامارات والبحرين والسعودية والعراق وعمان ، وقد أوضح التقرير ان هيئات التليفزيون الخليجية قد خصصت ادارة أو قسما خاصا للبرامج الدينية باستثناء «البحرين» وانه قد تم انشاؤها مع بدء التليفزيون فى كل دولة ، وان نسب البرامج الدينية فى هذه الهيئات تتراوح ما بين ٥٪ الى ٢٥٪ .

كما اوضح التقرير ان هناك علاقة تبادل قائمة بين تليفزيونات الخليج بالنسبة للبرامج الدينية وخصوصا التى تنتج محليا ، واشار الى ان هناك عددا من الجهات التى تتعاون معها هذه التليفزيونات لانتاج تلك البرامج ، وان العاملين بهذه الادارات من ذوى المؤهل والخبرة الشرعية ، وتناول التقرير بعد ذلك جهود جهاز تليفزيون الخليج فى مجال البرامج الدينية والتى منها اعداد ميثاق العمل التليفزيونى والمسابقات والابحاث والدراسات والندوات وحلقات البحث وتغطيه المناسبات الدينية بالاضافة الى هذه الندوة ، وكذلك آفاق التنسيق وتبادل الخبرات بين ادارات البرامج الدينية حيث ذكر ان خطة الجهاز المستقبلية تتضمن افاقا جديدة للتنسيق بين هذه الادارات ، وأورد تسعة بنود تتضمنها هذه الخطة تؤكد كلها عزم الجهاز على دعم ذلك التنسيق وتشجيع تبادل الخبرات بين ادارات البرامج الدينية فى تليفزيونات الخليج .

وكانت ابرز نقاط التعقيب والمناقشة حول الدراسة التحليلية للبرامج الدينية بتليفزيونات الخليج انها تمثل نقطة تحول كبيرة جدا فى تاريخ البحث العلمى ومناهجه فى مجال البرامج الدينية ، ونقطة تشخيص للواقع الفعلى لها ، كما كشفت ابعادا هامة وحقائق لم تكن معروفة - بهذا الشمول والتكامل - لدى المخططين والمنفذين ، وأوضحت مدى تناقض الممارسة الفعلية مع القواعد الاعلامية ، كما تعتبر عملا بنائيا ايجابيا جدا فى مجال الدارسات الاعلامية يمكن ان ينبنى عليه المزيد من النتائج حيث وضعت القواعد العلمية التى يمكن الانطلاق منها الى مجالات بحثية اخرى فى نفس الموضوع فقد اجاب البحث على الاسئلة الخاصة بماذا قيل فى البرامج الدينية وكيف قيل ؟ ومن المهم ان يستكمل ببحوث اخرى عن المشاهدين وآرائهم ورغباتهم وأنسب أوقات المشاهدة لديهم ، وما يعجبهم من برامج دينية ، ومكانة البرامج الدينية لدى المشاهدين . وعن البرامج الأخرى التى تشتمل على موضوعات دينية تعالجها من جوانب تثقيفية أو تربوية أو اجتماعية ، وعن الاشكال المختلفة - الدرامية وغير الدرامية - التى تقدم الموضوعات الدينية بطريقة مباشرة او غير مباشرة من خلالها ، وعن اثر البرامج الترفيهية على الجوانب الدينية ، ومدى علاقة البرامج التليفزيونية الاخرى بالدين وما تقدمه الى الناس بأى شكل وعلى أية صورة ، حتى لا تترك لدى المشاهدين والاجيال القادمة انطباعا بالفصل بين البرامج الدينية وغيرها من البرامج ، وكيف يمكن احداث التفاعل المثمر بين العناصر والمكونات الاعلامية المختلفة للبرامج الدينية مثل القائم بالاعداد ومقدم البرنامج والضيوف وأسلوب التقديم وطريقة العرض والاخراج ، حتى يمكن الافادة من هذه العناصر المتجاوبة فى الارتقاء بالمضمون الذى يقدم فى البرامج الدينية .

كما اسهمت الدراسة فى اثارة القضايا الخاصة بكيفية الافادة من كبار العلماء المتخصصين فى البرامج الدينية بتليفزيونات دول الخليج واقناعهم بالاسهام المستمر فيها ، وضرورة تزويد العلماء بالاحداث المعاصرة فى العالم الاسلامى بهدف اثراء مساهماتهم فى البرامج الدينية . .

اما الدرامة التى اعدها جهاز تليفزيون الخليج فقد اسفرت المناقشات التى دارت

حولها عن اهمية اعداد دورات تدريبية بالتنسيق مع جهاز تليفزيون الخليج لتدريب الكوادر الخليجية على العمل فى مجال الانتاج البرامجى ، وامكانية قيام جهاز تليفزيون الخليج بالافادة من انتاج العديد من الكتاب الاسلاميين والكتابات والروايات والقصص الاسلامية والتاريخية والتنسيق فى انتاجها بين تليفزيونات الخليج وذلك فى اطار مهامه فى التنسيق بين محطات التليفزيون الخليجية فى كافة النواحى البرامجية والهندسية وتأمين البرامج والمساعدة على انتاج البرامج المشتركة والتشجيع على الانتاج التليفزيونى الخليجى المشترك .

الموضوع الثانى التطور الفكرى والحضارى والاجتماعى والتربوى للبرامج الدينية بتليفزيونات الخليج :

ووكزت البحوث التى قدمت فى هذا الموضوع - وعددها اربعة بحوث على القضايا الفكرية والحضارية والاجتماعية والتربوية بدول الخليج كاطار عام للبرامج التليفزيونية الخليجية بعامة والبرامج الدينية بخاصة .

وكان البحث الأول من هذه المجموعة بعنوان

« الاعلام العربى من منظور اسلامى » للاستاذ الدكتور / محمود بن محمد سفر وبدأ البحث بتسجيل محنة الاعلام وتلخيصها فى جانبها الاخلاقى وذكر ما ترتب عليها من اضرار ، ثم يعرض لتطور الاعلام منذ القدم حتى يصل الى وضعه الحالى حيث اصبح ذا قدرات عالية وذا حدين ، ثم يتناول نظريات الاعلام الخمس وهى السلطة ، والحرية المطلقة ، والمسئولية الاجتماعية والشيوعية ، والمسئولية العالمية ويعرض لمثاليها جميعا وعدم مواءمتها ثم يقدم الباحث «نظرية الاعلام الاسلامى» كبديل عن كل النظريات السابقة منطلقها الاسلام بجميع معطياته وفعالياته ، ويذكر كيفية تحقيق هذه النظرة من خلال اداء مهمتين هما : المهمة الايجابية : من خلال الالتزام بالاشعاع الفكرى الايمانى المتبصر وما ينتج عنه من اعمال فنية متنوعة وملتزمة ، والمهمة السلبية : من خلال وضع ضوابط للرقابة الذاتية تجيز ما يوافقها تطرد ما يخالفها، ويعرض كذلك لأهمية وجود جهاز فكرى متكامل للانتاج وكذلك جهاز متابعة ، ثم التخطيط لاعداد الكوادر الفنية اللازمة لحركة الاعلام ، واضعا

مجموعة من المبادىء الاساسية للاعلام العربى من منظور اسلامى من أهمها :

- وجوب انطلاق الاعلام من قيم ومفاهيم مجتمعنا.
- وجوب العمل على تربية النشىء تربية اسلامية.
- ضرورة انبعاث المبادىء من منطلقات ايمانية يتم تطويعها للتطبيق .
- وجوب استيعاب تقنيات الوسائل الحديثة .
- وجوب صبغ الموضوع والمحتوى بالصبغة الاسلامية .
- وجوب التركيز على نشر اللغة العربية وآدابها .
- ضرورة الاهتمام الجاد بالجانب الترفيهى الهادف .
- وجوب العناية بما يوجه للطفل والأسرة والمهنيين.
- وجوب الاقلاع الفورى عن الركض الاعلامى خلف المقابلة الخاطئة بين دين ودنيا .

ثم تناول وظائف الاعلام العربى وهى التربية ، والتنمية ، والترويح ، والمنهج الـذى يمكن ان تتحقق من خلالـه والـذى يتمثل فى الالتزام بالموضوعية وضرورة التناسق والبراءة من الازدواجية والثنائية ويقيم الاعلاميين بشمول الاسلام وتكامله ، وارتفاق الاعلام لحالة المجتمع النفسية والاجتماعية ، والاهتمام المبالغ بالمحتوى .

ثم ضرب امثله معينة لرجل الاعلام فيما يتعلق بمحتوى البرامج التعليمية وبرامج التثقيف الدينى وبرامج الترويح والتسلية ، ثم ألمح الباحث فى نهاية دراسته الى ظاهرة تنتج عن الترويح وهى ظاهرة التكدس امام الشاشة الصغيرة واثرها على العلاقات الاجتماعية ، ونبه الى خطرها ودعا الى تضافر جهود الجميع لمثل تلك الدراسات ، خاصة مع اقتراب عصر البث المباشر للاقمار الصناعية .

اما البحث الثانى فى هذه المجموعة فكان بعنوان «**دور البرامج الدينية فى ابراز خصائص شعوب الخليج والتذكير بدورها فى خدمة الاسلام وتقديم العطاء الفكرى والحضارى**» ، للدكتور / سعيد بن مبارك آل زعير .

وقد قسم الباحث بحثه الى فصلين خصص اولهما لدراسة منطقة الخليج وطبيعة

سكانها وعلاقتهم بالاسلام عند ظهوره فى مراحله التاريخية ، والمساهمات الحضارية التى ساهم بها ابنـاء المنطقة فى الحضارة العالمية وتوضيح خصائص شعوب منطقة الخليج التى تميزوا بها عن غيرهم .

وفى الفصـل الثانى تناول البحث الجانب الاخر وهو البرامج الدينية ، وتحديد مفاهيمها فى اطار الفهم الشامل للاسلام والوظيفة التى تقوم بها البرامج الدينية فى اطار الواقع العملى فى المنطقة ، وما ينبغى ان يكون عليه العمل الاعلامى لخدمة الاسلام والمسلمين ، وذكر عددا محدودا من النقاط المهمة التى تشكل تصورا للوظيفة او الدور الذى ينبغى ان يقوم به الاعلام الدينى المتخصص وتناول البحث موضوع ضوابط البرامج الدينية .

ورسم تصورا نظريا قابلا للتطبيق للنهوض بمستوى هذا النوع من البرامج المهمة لتؤدى دورهـا على خريطة البرامج العامة ، وفى آخر مباحث الفصل الثانى تناول الباحث قضية البرامج الدينية والانتاج البرامجى ، وحدد ملامح القضية وتحدياتها ، والأسلوب العملى الذى يمكن ان تحل من خلاله قضية الانتاج على مستوى الامة الاسلامية .

وجاء البحث الثالث فى هذه المجموعة بعنوان « **دور البرامج الدينية فى معالجة قضايا ومشكلات المجتمع** » للدكتور / محمد عبدالعليم مرسى .

واشتمل البحث على مقدمة واربعة اجزاء ، استعرض الباحث فى المقدمة تاريخ منطقة الخليج العربى واوضح دور الاسلام كعامل مؤثر فى التوحد والتطور وكيف حقق مرتبة السيادة بالنسبة للعالم كله ، وتطرق الى العوامل التى ادت الى ضعف الدولة الاسلامية ، ثم اوضح الصحوة التنموية الحالية مبينا ان دول المنطقة ـ وهى تستغـل ما وهبهـا الله من ثروات وتوظفها لتحقيق الاهداف التنموية ـ قد وجدت نفسها محاطة ببعض المشكلات الاجتماعية نتيجة تدفق العمالة الاجنبية غير المسلمة على مجتمعاتها بصورة تنذر بالخطر اذا لم تواجه المواجهة السليمة .

وعرض فى الجزئين الاول والثانى لأهم المشكلات التى تواجه مجتمع الخليج من

جراء تدفق العمالة غير المسلمة ، وأوضح أن أهم تلك المشكلات تكمن فى تهديد الأمن بالدخول غير المشروع والاتجار فى الخمور والمخدرات ، والممارسات الاخلاقية الضارة ، ثم بين ان هذه المشكلات تهدد المجتمع فى قيمه واخلاقه وتؤدى الى الكسل الانتاجى والتفكك الاجتماعى وتضر باللغة والدين ، واورد العديد من الاحصائيات ونتائج البحوث التى تشرح ذلك ، اما فى الجزء الثالث فقد اوضح ان منطقة الخليج مستهدفة وان هناك دولا تنظم عملية ادخال المخدرات الى المنطقة لتعرقل نموها وتظل فى سباتها ، وأورد بعض الاحصاءات التى توضح كمية المخدرات المضبوطة والمناطق التى وردت منها .

وفى الجزء الرابع من البحث اقترح الباحث ان يقوم التليفزيون - نظرا لتفوقه على الوسائل الاعلامية الأخرى - بدور ايجابى فى التصدى لهذه المشكلات ودرئها عن المجتمع ، وقد طرح فى هذا الصدد مجموعة الاقتراحات التالية :

- تنظيم ندوات علمية مبسطة يشترك فيها المتخصصون مع علماء الشريعة وتعرض مشاهد لمرضى المخدرات والخمور وتبين مضارها .
- انتاج عدد من التمثيليات والمسلسلات التى تعالج مشكلة الخمور والمخدرات وتوضح اثارها الضارة .
- انتاج افلام توضح تاريخ الاسلام الناصع وتبرز قيمة العمل مع ابراز النهضة الصناعية وتوضيح دور العمالة الوطنية فيها .
- عرض جهود رجال مكافحة المخدرات ونماذج من جهود رجال الامن باعتبارهم حماة المجتمع .
- التركيز فى البرامج الدينية على المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والثقافية .

اما البحث الرابع فى هذه المجموعة فقد ركز على الجانب التربوى الاسلامى فى برامج الاطفال بصفة خاصة وكان عنوانه « **التليفزيون والطفل : التربية الاسلامية فى برامج الاطفال** » للدكتور محمد كرم شلبى .

وفى هذا البحث تناول الباحث العلاقة بين التليفزيون والطفل والدور الذى يمكن

ان تؤديه هذه الوسيلة المهمة فى مجالات التثقيف والتوجيه والتعليم بالنسبة للاطفال وفى مجال التربية الاسلامية على وجه الخصوص . . وطرح الباحث سؤالا محددا هو كيف يمكن لبرامج الاطفال فى التليفزيون ان تقوم بدور فعال ومؤثر فى التربية الاسلامية للصغار بكل ما يحتاجه ذلك من تعليم وتثقيف وتوجيه ؟

ويأتى البحث كله اجابة على هذا السؤال حيث يعرض اولا لطبيعة العلاقة التى تربط الاطفال بما يقدمه التليفزيون من برامج ومواد مختلفة وهى علاقة تبدأ عادة فى سن مبكرة (السنة الثانية من العمر) وتستمر وتتدرج على نحو معين يخضع لكثير من التغييرات التى تتعلق بطبيعة ونوع المادة التى يشاهدها وعدد الساعات التى يتعرض فيها للمشاهدة واثر ذلك على التعرض لوسائل الاتصال المختلفة الأخرى سلبا وايجابا .

وفى هذا الاطار يثير البحث عددا من الاسئلة ويحاول الاجابة عليها فيتساءل لماذا يشاهد الاطفال التليفزيون ؟ وما الاثر الذى تحدثه برامج الواقع وبرامج الخيال ؟ وماذا يتعلم الطفل من التليفزيون وكيف يتم ذلك .

ثم ينتقل البحث بعد ذلك الى قضية القيم والافكار التى ينبغى ان تقدمها للطفل من خلال مختلف البرامج على اساس تخطيط دقيق يراعى طبيعة نمو الطفل جسميا وذهنيا وفكريا فى مراحل العمر المختلفة على ضوء احتياجاته وقدراته واكثر الوسائل والاساليب تأثيرا فيه .

وهنا يتعرض البحث لقضية على قدر كبير من الاهمية وهى اثر برامج الكبار والبرامج الاجنبية المستوردة على الاطفال ومدى تأثرهم بها واثرها على كل تخطيط - مهما بلغت قيمته ودقته - لبرامج الاطفال فى محطاتنا المختلفة .

وكانت ابرز نقاط التعقيب والمناقشة حول البحوث الاربعة التى تضمنتها هذه المجموعة الثانية على النحو التالى :

من المستحيل ان ينبت اعلام اسلامى متكامل فى بيئة غير اسلامية فى منطلقاتها وفى مقاصدها العليا ومن هنا تتأكد ضرورة وجود نظرية اسلامية خالصة للاعلام .

* لابد ان يستقر فى ذهن المخططين الاعلاميين ان البرنامج الدينى ليس مقصورا على البرنامج التخصصى الذى يعده علماء الشريعة والمتخصصون فى العقيدة والقرآن والتفسير والسنة فقط ، ولكنه يضم كافة البرامج الأخرى التى يقدمها التليفزيون ويحرص ان ينطوى مضمونها على قيم الاسلام ويصدر عن عقيدة اسلامية .

* التليفزيون ليس جهازا تربويا ولكنه يساعد فى العملية التربوية ويساهم فى الترشيد ويعزز مسيرة العمل الوطنى ويزكى الايجابيات .

* لا يجب ان يقف الاعلام الاسلامى فى موقف الدفاع فقط ولكن عليه تكريس الحصانة والمناعة وتربية الاجيال بالقيم الاسلامية الصحيحة .

* اهمية التعرف ـ عن طريق البحوث الميدانية ـ على مدى اقبال الناس على مشاهدة البرامج الدينية والاسباب الحقيقية لانصراف بعضهم عن مشاهدتها .

* أهمية تدريب العلماء والمعدين ومقدمى البرامج الدينية من المتخصصين تدريبا يرفع مهاراتهم ويزيد من كفاءتهم فى تقديم المادة الدينية فى البرامج التليفزيونية .

* صفاء العقيدة فى منطقة الخليج بالذات ـ نظرا لعدم تعرضها للتيارات الفكرية المنحرفة ضد الاسلام او لتيارات غازية كثيرة ـ جعل منطقة الخليج من أنقى مناطق العالم الاسلامى من حيث العقيدة ، وهذه نقطة ايجابية يجب ان تهتم بها البرامج الدينية وتفيد منها ، ومن الضرورى التركيز على الخصائص الايجابية لابناء دول الخليج وابراز فضائلهم ودور الدول الخليجية فى المحافل الدولية وفى المساعدات الاسلامية والاغاثات ، مع الاهتمام بالمؤسسات الشعبية التى تقوم بالدعوة الاسلامية فى مختلف مناطق العالم .

* يجب ان تهتم البرامج التليفزيونية ـ سواء الدينية او العامة ـ بالابعاد الثلاثة التى تتأسس عليها الوظيفة الاعلامية وهى البعد البنائى والبعد الوقائى والبعد العلاجى معا وبطريقة تكاملية .

* اعداد البرامج التليفزيونية ـ بأنواعها ومستوياتها المختلفة ـ لا يجب ان يترك للافراد بل يجب ان يتم وفقا لخطط علمية مدروسة .

* اذا ما جعلت البرامج الدينية من موضوعاتها الاساسية المشكلات التى يعانى منها الناس فانها بذلك تستطيع ان تغزو قلوب الناس وتؤثر فيهم وان تقلل من آثار

البرامج الاخرى التى قد تتولى على قلوب الناس وافئدتهم، ولذلك فان ابراز المشكلات الاساسية التى يعانى منها ابناء منطقة الخليج ـ وهى جزء من العالم الاسلامى ـ من شأنه ان يرفع البرامج الدينية.

الموضوع الثالث : البرامج الدينية فى مواجهة الانحراف والالحاد .

تضمن هذا الموضوع بحثين تناولا دور البرامج الدينية فى تليفزيونات الخليج فى مواجهة الانحراف والالحاد من زوايا متعددة وكان البحث الأول بعنوان «**دور البرامج الدينية فى مكافحة تيارات الالحاد والانحراف**» للدكتور/ عبدالحليم عويس وقد قام الباحث بتحديد مشكلة هذا البحث وبلورة اهدافه من خلال تسليط الضوء على ما يحتله التليفزيون من مكانة هائلة بين وسائل الاتصال الجماهيرى الاخرى وما يقدمه التلاحم بين الاقمار الصناعية والتليفزيون فى المستقبل من افاق هائلة تتمثل فى امكانية استقبال البث التليفزيونى من أى مكان فى العالم، والاثار الخطيرة الناجمة عن هذا الزحف التليفزيونى على قيم ومعتقدات وافكار الشعوب الاسلامية وخاصة منطقة الخليج ، وسعى الباحث الى تحديد دور البرامج الدينية فى مكافحة تيارات الالحاد والانحراف وذلك فى اطار خطة للبحث تشتمل على جانبين يركز الجانب الأول منهما على ملامح الواقع الحالى لتليفزيونات الخليج من حيث الاعتماد على البرامج المستوردة والبعيدة عن الواقع القيمى والعقائدى لمجتمعات الخليج ، ومن خلال تحديد الملامح العامة لأسلوب المواجهة للغزو الفكرى يقدم الباحث خريطة للغزو تنتظم جميع الخصوم وتحدد اهدافهم الحقيقية من وراء ذلك، اما الجانب الثانى فيركز على ما ينبغى ان يكون، ويقدم الباحث لذلك ببدهيات او اساسيات فى نجاح الرصد والمقارنة منها مراعاة اوليات فن التأثير الاعلامى وضرورة الانتقاء الجيد والدقيق لكل ما يقدم ، ثم يختم بحثه بمجموعة من المقترحات والتوجيهات الاعلامية التى تساعد على زيادة دور البرامج الدينية فى مكافحة تيارات الالحاد والانحراف وذلك من خلال فهم شمولى لمصطلح البرامج الدينية على انها البرامج الاسلامية وذلك لتصبح كافة البرامج الثقافية والدينية والرياضية والاخبارية وغيرها صالحة لمقاومة الغزو الفكرى بدلا من مصطلح البرامج الدينية الذى ينحصر فى عدد محدود من البرامج المباشرة التى لا تستطيع اصلاح ما تفسده البرامج الاخرى.

اما البحث الثانى فكان بعنوان « **البرامج الدينية فى مواجهة الالحاد والانحراف** » للاستاذ سعيد عبدالله حارب وقد ركز الباحث على ان للاعلام دوره الاكبر فى صياغة الرأى العام وله تأثيره البالغ على مراكز الثقل السياسى والثقافى والاجتماعى ولوسائل الاعلام قوتها وسيطرتها وتوجيهها وهذا الاعلام يروج لتيارات فكرية متعددة ، فما دور البرامج الدينية فى مكافحة هذه التيارات .

وحاول الباحث فى بحثه تجلية هذا الامر وتوضيحه اذ القى نظرة على الاعلام المعاصر - الشيوعى والغربى واليهودى والاسلامى - وبين ان الاعلام الشيوعى والغربى مرتبطان بالسياسة خادمان لها ، بل هما رسولاها الى اذهان الناس وكلاهما لا يختلف عن الاخر وان ارتفعت يد السلطة قليلا عن الاعلام الغربى اما الاعلام اليهودى فهو اعلام عقدى مسخر لهدف يسعى جاهدا لتحقيقه واما الاعلام الاسلامى فهو اعلام متميز له شأنه ورسالته وله وسائله النظيفة الشريفة وهو متميز بالصدق ، الا انه وقع فريسة للمؤمرات التى تعرض لها العالم الاسلامى فاصبح محصورا فى زوايا ضيقة من البرامج التى لا تسهم فى بناء الامة التى تستعصى على المحو والذوبان ، وان شهدت السنوات الاخيرة اهتماما ملحوظا بالاعلام الاسلامى الصحيح ، غير ان البرامج الدينية تعيش بمعزل عن البرامج الاخرى وذلك يتضح من ناحية ضعفها وقصر وقتها وجمودها وعدم المنهجية الواضحة التى تربط بينها وبين غيرها ، وغيبتها عن طرح القضايا الهامة ، ويدور البحث حول اربع نقاط رئيسية :

* اولها دراسة التيارات الفكرية المعاصرة ومعرفة اساليبها وحدود تأثيرها لكى نتمكن من الرد عليها وتفنيد مزاعمها ، وقد قام الباحث بعمل استقصاء طرحه على عينة من سكان الخليج العربى اشترك فيه (١١١) شخصا حول التيارات المعاصرة واخطرها ، وجاء ترتيبها حسب خطورتها كما يلى : التغريب ، الشيوعية ، التنصير، العلمانية ، الصهيونية .

* ثانيها وضع خطة اعلامية لمواجهة التيارات الفكرية وتشمل هذه الخطة دراسة هذه التيارات وتحديد أوليات مواجهتها ووسائل المواجهة وتقسيم الخطة الى مراحل والاستفادة من تجارب الدول فى التغيير .

* ثالثها تحديد اهداف واضحة يأتى فى مقدمتها ترسيخ العقيدة والتربية الاخلاقية ومواجهة الخرافات والبدع وتنمية الولاء للاسلام وشرح نظام الحياة فى الاسلام وابراز دوره فى خدمة البشرية جمعاء .

* رابعها الاعداد الجيد للبرامج الدينية وهذه يتم اعدادها من خلال الاعتدال النفسى والاجتماعى ضمن اعداد لغوى وتخصص فى العمل .

* وكانت ابرز نقاط التعقيب والمناقشة حول هذين البحثين على النحو التالى :

* أهمية القيام بدراسات تحليلية عن جوانب الالحاد التى تنطوى عليها بعض البرامج ينبنى على نتائجها اعداد برامج تنطلق اساسا لمواجهة هذا الفكر الالحادى او الانحرافى .

* التنصير ليس هوالخطر الاول الذى يهدد منطقة الخليج بل الغزو الفكرى والمادى الذى تفرضه الهيمنة الامريكية على العالم بجبروتها وسلطاتها .

* قضية استيراد البرامج والموضوعات التى تعرضها تليفزيونات الخليج ـ سواء من بعض الدول العربية أو الاجنبية ـ تعتبر عملية اختيار وانتقاء ، والمهم فيها ان تتم بطريقة واعية ومدروسة حتى نتجنب اختيار الموضوعات والبرامج التى تحمل قيما سلبية أو هدامة أو لا تتفق مع قيم مجتمعات دول الخليج .

* حينما نناقش الملل الأخرى نناقشها فى تطبيقاتها الخاطئة وحينما نناقش الاعلام الاسلامى نناقشه فى مثله العليا وليس فى تطبيقاتنا نحن مع ان الخطأ فينا نحن المسلمين وليس فى الاسلام .

* ضرورة القيام بدراسات دورية ومستمرة لتحليل مضمون ما تقترحه تليفزيونات الخليج للتعرف على القيم التى تتضمنها البرامج التليفزيونية وهل هى قيم سلبية ام ايجابية ومدى تمشيها مع القيم الايجابية المرغوب نشرها فى المجتمع الخليجى .

* اهمية اعتماد عنصر البناء الذاتى كمهمة اساسية للبرامج الدينية لأن البناء يواجه الالحاد وما يخرج منه من صور شاذة ، وينبغى ان يكون هذا البناء الذاتى الاسلامى بناء قائما على مظهر الاسلام ـ كتاب الله وسنة رسوله ـ وعلى مفهوم تصحيح مفهوم الربوبية الصحيح الذى يعين فى تطوير البرامج الدينية .

* قضية التغريب تأتى فى مقدمة الاخطار التى تواجه دول الخليج ، وعلى تليفزيونات الخليج ان تدرك هذه القضية بابعادها المختلفة وتسعى الى مواجهتها .

* العلمانية من ابرز المخاطر التى تواجه الانسان المسلم عموما والتى يحتمل ان يزداد انتشارها بين الناس وعلى تليفزيونات الخليج أن تسعى للقضاء على مسببات هذا الخطر.

* كيف يمكن استخدام الاساليب الاخراجية الحديثة فى اخراج البرامج الدينية لاضفاء الجانب التشويقى عليها الى جانب الاهتمام اساسا بالمضمون وطريقة التقديم وشخصيات المتحدثين .

* اهمية ان تخرج الندوة بتعريفات دقيقة تفرق بين مفاهيم الاعلام الاسلامى والاعلام الدينى والبرامج الدينية .

الموضوع الرابع : آفاق التكامل والتعاون فى انتاج البرامج الدينية وتقديمها :

ركز هذا الموضوع على قضية تكامل المبادىء والغايات بين البرامج الدينية والبرامج التليفزيونية الأخرى وقضية التعاون بين علماء المسلمين والتليفزيون فى مجال تقديم البرامج الدينية بالتليفزيون واشتمل على ثلاثة بحوث جاء اولها بعنوان « اسس تكامل المبادىء والغايات بين البرامج الدينية والبرامج الأخرى » للدكتور / سيد محمد ساداتى ، وقد مهد الباحث للدخول الى هذا الموضوع بتحديد لطبيعة العلاقة بين النظام الاعلامى وبين النظام العام السائد فى أى بلد من البلدان ليدخل بعد ذلك الى تحديد اهداف البرامج الدينية والبرامج الأخرى (ذات الموضوعات المختلفة) فى النظام الاعلامى الاسلامى ، باعتبار انها جميعها محكومة بمقاصد الشرع الحنيف واحكامه .

وعندما عرض البحث لاسس التكامل بين البرامج الدينية والبرامج الاخرى من حيث المبادىء والغايات انطلق من ان هناك مشكلة واسبابا لعدم توافر مثل هذا التكامل ، كما خصص الباحث جزءا من بحثه لبيان كيفية علاج هذه المشكلة مؤكدا على طبيعة التكامل المنشود بين البرامج الدينية والبرامج الاخرى والاثار التى يمكن ان تترتب على مثل ذلك التكامل ، وينتهى البحث بعد ذلك الى طرح فكرة هى بمثابة

«دعـوة» الى كل المهتمـين بهذا الموضوع الى ضرورة الاصرار على العلاج الحقيقى ورفض المسكنات وعدم الوقوف عند التوصيات العلمية التى يمكن ان تنتهى اليها المناقشات .

امـا البحث الثانى فجاء بعنوان « **اسس تكامل المبادىء والغايات بين البرامج الـدينية والبرامج الاخرى** » للدكتور / محمد عبده يمانى ، وتناول الباحث فى هذا البحث عددا كبيرا من القضايا الاعلامية وتوظيفها بشكل جيد لخدمة القضية التى اعد البحث حولها .

فبعد ان عرض لطبيعة الاعلام وقوة تأثيره ذكر ما يميز النظام الذى تلتزم به المملكة العربية السعودية فى كل شئونها ومنها الاعلام ، وبين اثر ذلك الالتزام على الاعلام ، ثم دعا الى ضرورة التعاون بين المؤسسات الاعلامية فى العالم الاسلامى وضرب المثال بالتعاون الخليجى والاصول التى يمكن ان يقوم عليها هذا التعاون .

وأفراد للتليفزيون ـ الوسيلة الاعلامية المؤثرة ـ اهتماما خاصا ودعا إلى استخدامه لخدمة الاسلام انطلاقا من المنهج الاسلامى الذى يوظف كل الامكانات لخدمة الاسلام .

وركز الباحث على ضرورة اعداد الكفاءات الاعلامية واساليب ذلك الاعداد بما يتفق مع الحاجات اللازمة للعمل الاعلامى ، وعليه ايضا يتم اعداد البرنامج العام الـذى تنـطلق فيه الـبرامـج الـدينية والـبرامج الاخرى من تصور واحد هو خدمة الاسلام ، وأكد شرط الافادة للمجتمع من البرامج الاخرى او على الاقل لا يقدم فيها ما يتعارض مع المصلحة ، واستغلال المناسبات والاوقات بتقديم ما يتفق معها لان الذهن الجماهيرى حاضر فى تلك المناسبة ، وهذا يحتاج الى الحس الاعلامى المرهف لانتهاز تلك المناسبات ، وحول موضوع جذب الجماهير من خلال برامج الترفيه مع القنـاعة بضرورته واهميته لانه وسيلة لاستخدام الرغبات فى تقديم الحاجات يرى الباحث انه لا بد من ضبط ذلك بالمصلحة والتدرج .

ودعا الباحث الى ضرورة مراعاة المتغيرات فى عالم الاتصال حيث ان غير المسلمين

يقـدمـون موادا تعتمد على ارضاء رغبات الجماهير، وهذا يمثل قضية خطيرة تجعل التلفزيون الملتزم فى حرج كبير.

وجـاء البحث الثـالث بعنـوان «**التعاون وصيغه بين علماء الاسلام**» للدكتور / عبدالعزيز بن ابراهيم العسكر، ويعالج هذا البحث فى الدرجة الأولى مشكلة ضعف التعاون بين علماء الاسلام والبرامج الدينية فى التلفزيون محددا حجم هذه المشكلة وموضحا انه نتيجة لهذا الضعف فى التعاون ظهر نقص كبير فى البرامج الدينية من حيث الكم والكيف .

ويرى الباحث ان اهم اسباب هذه المشكلة تكمن في جانبين جانب التلفزيون وجانب العلماء .

اما اجهزة التلفزيون فانها تفتقر للتخطيط والتأصيل للبرامج الدينية وتحديد مهمتها وشكلها وحجمها، وكذلك يلزم انشاء ادارات متخصصة فى أجهزة التلفزيون للبرامج الدينيه فقط للاشراف على تلك البرامج والتخطيط لها وتطويرها، مع مراعاة تلافى الاخـطاء التى تظهر فى سوء اختيار وقت اذاعة تلك البرامج ، وذلك ان كثيرا من الـبرامج الدينية توضع فى اوقات ميتة او حرجة بحيث تقل الفائدة المرجوة منها مما ينعكس على نفسية معـدى ومقدمى هذه البرامج فتجعلهم يحجمون عن المشاركة ويثبطون همم غيرهم من العلماء، كما اشار الباحث الى ان للتعاون المشار اليه صيغا كثيرة وافاقا واسعة يمكن للعلماء الحريصين على خدمة دينهم وامتهم ان يسهموا من خلالهـا فى برامـج التلفـزيون، ذكـر منها برامج متخصصة للفتاوى وبرامج تعنى بجوانب الحياة الاجتماعية للناس كنظرة الاسلام للمرأة وللشباب وللصحة ونحو ذلك.

وكانت ابرز نقاط التعقيب والمناقشة حول هذه المجموعة من البحوث على النحو التالى :

* ليس من التخطيط السليم لجهاز التليفزيون ان يبث اخبارا فحسب أو ترفيها فحسب او ثقافة متخصصة فحسب أو تفسيرا للقرآن فحسب ، ذلك ان من طبيعة

هذا الجهاز ان ينوع البرامج وفق التخصصات والحاجات المهمة، والعلم بالدين ضمن هذا التنوع .

* يمكن تحقيق التكامل بين البرامج الدينية فيما بينها وبين البرامج التليفزيونية الاخرى باستخدام مجموعة أسس يتمثل اولها فى ضرورة توافر العلم الواضح بمقاصد الاسلام وموازينه فى ذهن المخطط الاعلامى وفى ارادته وهو يخطط لكافة انواع البرامج ، وثانيها فى التنسيق اليومى والاسبوعى بين البرامج حتى لا يهدف التخطيط اثناء التنفيذ، وثالثها فى التقويم الدورى بحيث يكون معيار نجاح كل برنامج قوة التزامه بسياسة التكامل المودعة فى الخطة العامة والحاضرة فى التنسيق الدائم والفهم العميق لنظام الوحدة فى المجتمع الاسلامى : وحدة الدين ووحدة طاقات الانسان ووحدة مشاعره وخصائصه .

* ان كبح جماح الشهوة لا يكون الا بتربية ايمانية، وكشف الشبهة لا يكون الا بالحجة والبرهان، والتليفزيون هو الاداة التى يمكن استخدامها فى كبح شهوات الناس وتعليمهم ما يحقق لهم الخير، وترشيد اداء التليفزيون فى هذا المجال يقتضى ضرورة تكوين هيئة دائمة لتطوير البرامج الدينية يتألف مجموعها من علماء الشريعة وخبراء الاعلام واهل الامكانات الذين بيدهم امر التنفيذ، وان تكون البرامج المقدمة عن طريق هذه المجموعة قائمة على قاعدتى البناء والرد على الاعداء .

* دور القائم باعداد البرنامج التليفزيونى فى استقبال ضيوف البرنامج والترحيب بهم وازالة الرهبة من نفوسهم خاصة عند التعامل لاول مرة مع التليفزيون .

* اهمية تقديم البرامج الدينية فى اطار جذاب ومسئولية المتحدث فى اضفاء طابع البساطة على موضوع حديثه من خلال اسلوب التقديم

* التنبيه الى اهمية عرض البرامج الدينية فى اوقات ملائمة للمشاهدة وليس فى الاوقات التى يقل فيها اقبال المشاهدين على التليفزيون.

* التنبيه الى بعض المعوقات الادارية والفنية فى التعامل مع التليفزيون من حيث وقت التسجيل والتأخير فى التصوير وضياع ساعات طويلة يمكن الاستفادة منها فى جوانب اخرى .

الموضوع الخامس : البرامج الدينية الموجهة لغير الناطقين بالعربية واشتمل على بحثين اولهما بعنوان « **البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية** » للدكتور / جعفر شيخ ادريس ،

وبدأ الباحث باثبات ان الحقائق التى جاء بها انبياء الله تعالى ولا سيما الاسلام هى اهم الحقائق التى يحتاج البشر الى معرفتها والايمان بها، ونظرا الى ان الانسان وحده لا يستطيع ادراك هذه الحقائق فقد عرفه الله بها عن طريق رسله، واشار الى انه بعد اكتمال الرسالات بالاسلام وختام الانبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد تكفل الله بحفظ الرسالة وكلف كل من آمن بتبليغها، ومن هنا كان الاعلام بحقائقها بكل وسائل التبليغ والاعلام مهمة جليلة لصالح البشرية جميعا.

وقد اكد الباحث على انه لكى تؤدى هذه المهمة لا بد وان نسير على منهج صحيح يقتضى أن نكون على علم بمن نخاطب وبماذا نخاطب وكيف نخاطب ؟ ثم استعرض ما ينبغى ان يراعى فى كل تلك الجوانب الاتية :

- أما من نخاطب فقال عنه انه هو الانسان الذى تتنوع فئاته لغويا وجغرافيا وثقافيا ولذا فانه لابد من مراعاة حاله لدى تعريفنا له بالحق وادلته ، ثم اوضح بعد ذلك ان البرامج الدينية وهى تخطب الانسان وتدعوه الى الحق فان من الطبيعى ان يكون جمهورها متحدثا بلغات متعددة وبتنوع الى فئات كثيرة .

- أما بماذا نخاطب وهى المادة المقدمة الى المشاهدين فقال انه ينبغى ان تراعى البيئة الثقافية، وان تخاطب هذه الفئات بما تحتاجه وتفهمه حتى تتنوع البرامج ويختلف نوع ومستوى مضمونها حسب الفئات ، سواء كانت تتناول شرح العقيدة ام تعلم الفقة ام القرآن ، بعيدا عن التشويه او التعصب المذهبى بالنسبة لعامة المسلمين، واقترح الباحث ان تركز البرامج الموجهة الى عامة المشاهدين غير المسلمين على المبادىء الاساسية لمسائل العقيدة والاخلاق، أما المادة الموجهة الى اصحاب الثقافة الغربية فيرى انها ينبغى ان تتناول القضايا الاساسية حول الالوهية والكون والانسان .

- أما كيف نخاطب، فيقول عن ذلك ان طريقة التقديم تختلف من وسائل لاخرى ، وفى مجال البرامج التليفزيونية يؤكد على انه يستحسن توظيف كافة الاشكال

التى تعرض المادة بطريقة تتناسب مع التليفزيون باعتباره وسيلة لها صفاتها وعاداتها وذلك فى ضوء الجوانب الشرعية .

وتحدث بعد ذلك عن طريق التقديم التى يرى انها مفيدة فى هذا الصدد وذكر منها الاحاديث الصغيرة، المقابلات والندوات والافلام الاسلامية العامة والتعليمية سواء كانت تتعلق بمسائل العقيدة او بالعبادة مثل الحج والصلاة او بتاريخ الاسلام والمسلمين .

اما البحث الثانى فكان بعنوان «**وسائل تمكين البرامج الدينية من مخاطبة غير الناطقين بالعربية**» للدكتور مانع بن حماد الجهنى ،

وتحدث الباحث فى بداية بحثه عن الذين يفدون الى دول الخليج وذكر انه يفد الى دول الخليج اعداد كبيرة من غير الناطقين بالعربية من مسلمين وغيرهم ، وهؤلاء جاءوا بقصد العمل او اداء فريضة الحج والعمرة، بعد ذلك اشار الى ان رجال الاعلام يواجهون تحديا متمثلا فى كيفية توعية هؤلاء وتعريفهم بالاسلام على الوجه الصحيح وتجنيب المجتمع الخليجى سلبيات هؤلاء الوافدين .

ثم قال ان التعريف بالاسلام وشرح مبادئه يمثل مهمة يجب على وسائل الاعلام القيام بها على وجه مرض خاصة وان هؤلاء بينهم المسلم الذى يجهل الكثير من الاسلام ومنهم غير المسلم الذى لا يجهل فقط الاسلام بل هو مشبع احيانا بافكار غير صحيحة عن الاسلام .

وقال ان لدى هؤلاء اوقات فراغ كثيرة مشيرا الى ان التليفزيون والفيديو والراديو هى الوسائل الاساسية لتسليتهم .

ثم قال : ان كل هذا يلقى على الاعلاميين مسئولية كبيرة خاصة على مقدمى البرامج الدينية الموجهة لغير الناطقين بالعربية .

بعد ذلك طرح سوءالا قال فيه ما وسائل تمكين البرامج الدينية من مخاطبة غير الناطقين بالعربية، ثم اجاب عليه بقوله ان اهداف البرامج الدينية الموجهة للمسلمين منهم تتمثل فى تعليمهم الاسلام وتفنيد الشبهات المثارة ضده واشعارهم بالانتماء الى الامة الاسلامية .

اما اهداف البرامج الموجهة لغير المسلمين فقد اجملها فى التعريف بالاسلام وكشف وتصحيح المفاهيم الخاطئة ضده، واظهار موقف الاسلام من الاديان الاخرى، وابراز مزايا الحضارة الاسلامية وبيان الاسس التى تقوم عليها والتى من اهمها المساواة والعدل والشورى وعدم الاكراه فى الدين .

اما عن مقومات البرنامج الناجح الموجه لهؤلاء فقال انه يتضمن عنصر التشويق والاهتمام بوسائل الايضاح ومعالجة الموضوعات التى تهم من يوجه اليهم واختيار الاوقات المناسبة والتعريف بالاحداث الدينية فى مناسباتها مع التزام الموضوعية والامانة العلمية، اما اذا كان البرنامج موجها الى مسلمين جدد فيجب مراعاة معالجة مشكلاتهم النفسية الناتجة عن تحولهم الدينى وعرض قصص اسلام بعضهم وتقديم تعاليم الاسلام لهم فى شكل ميسر.

ثم تحدث بعد ذلك عن البرامج الموجهة لغير المسلمين ودعا الى ان يفرق بين البرامج التى توجه الى الافارقة والبرامج التى توجه الى الغربيين، وان يفرق ايضا بين الملحدين واليهود والنصارى من هؤلاء الغربيين، ونظرا لاختلاف ألسنة الوافدين فان الباحث يرى ان توجه اليهم البرامج اولا باللغة الانجليزية حيث يعرفها الكثيرون ، منهم واقترح الباحث وجود لجنة دينية فى كل بلد تشرف على هذه البرامج .

وكانت أبرز نقاط التعقيب والمناقشة حول هذه المجموعة من البحوث على النحو التالى :

* التركيز على قضية المسلمين الجدد باعتبارهم فئة معتبرة وينبغى ان تقدم اليها الخدمة ربما اكثر من الفئات الاخرى ، باعتبار ان متابعتهم ـ وقد هداهم الله سبحانه وتعالى الى الاسلام ـ امر ضرورى وهام .
* ضرورة العناية باستخدام المداخل المناسبة لكل فئة كالتركيز على التوحيد بالنسبة للشرقيين وعلى قضية المساواة بالنسبة للافارقة وعلى المداخل العقلية المناسبة للغربيين حتى يمكن ان يصل اليهم الاسلام بطريقة مقنعة .
* اهمية استخدام أسلوب المشاركة والحوار والتفاعل فى تقديم البرامج الدينية

وتقديم الاسلام من خلالها الى غير المسلمين دون الاقتصار على مجرد توجيه رسالة مباشرة أحادية الجانب .

* الوعى بضرورة تكييف المادة الدينية المقدمة الى غير الناطقين بالعربية بما يتناسب مع مفاهيمهم ومستوياتهم الفكرية دون الركون الى الترجمة الحرفية التى قد تفرض عليهم مادة غير مشبعة لاحتياجاتهم .

* أهمية ان تتضمن البرامج المختلفة فى التليفزيون ـ بخلاف البرامج الدينية ـ اشارات غير مباشرة تساعد فى استقطاب غير الناطقين بالعربية وفى تهيئة البيئة المناسبة للدعوة .

* ضرورة الاعتناء بالبرامج الموجهة الى المرأة والافادة منها فى ابراز محاسن الاسلام وتعاليمه فيما يتعلق بالمرأة بشكل خاص .

* اهمية عمل تقسيمات للمشاهدين من غير الناطقين بالعربية ـ تكون اكثر افادة فى تعميم وتخطيط برامج ملائمة لكل فئة منهم .

* التأكيد على أهمية احداث التوازن والربط بين البرامج الموجهة لغير العرب وبرامج تعليم اللغة العربية لهم لان تعليم اللغة بداية لمدهم بالمعلومات الاسلامية .

* التأكيد على أهمية استثمار فرصة وجود العمالة الاجنبية بالملايين فى دول الخليج للتأثير فيهم هنا من خلال برامج التليفزيون .

* ضرورة الالتفات الى مجتمع هام جدا هو مجتمع ابناء المسلمين فى الخارج الذين يتعرضون لافكار قد تخرجهم عن الاسلام والعناية بهم واعداد برامج خاصة اسلامية خاصة لهم .

* الى أى حد استطاعت القنوات والبرامج التليفزيونية الخليجية الموجهة لغير الناطقين بالعربية ان تقوم بالدور المطلوب منها فى توجيه الدعوة لغير الناطقين بالمعربية؟ وما أوجه القصور فى تنفيذ هذه السياسة .

* امكانية الاستفادة من برامج الدعوة الموجودة بين الجاليات فى اوروبا وامريكا .

* أهمية اجراء دراسات على المشاهدين من غير الناطقين بالعربية للتعرف على انسب ساعات المشاهدة لديهم وانماط هذه المشاهدة لتقديم البرامج الدينية فى الاوقات المناسبة لكل فئة منهم .

الموضوع السادس : التطبيقات التكنولوجية فى مجال اعداد البرامج الدينية

وركز على امكانية استخدام تقنيات التعليم وتقنيات التليفزيون فى انتاج البرامج الدينية واشتمل على اربعة بحوث البحث الأول منها بعنوان

« مدخل تكنولوجيا التعليم وتطبيقاته فى البرامج الدينية » للاستاذ الدكتور ابراهيم امام ، وتعرض لتكنولوجيا التعليم كمدخل تربوى يؤكد فكرة استخدام الانسان للالة بهدف ترقية مستوى التعليم والنهوض به ، باعتبار ان تكنولوجيا التعليم تتجه الى هذا الهدف من خلال المزج بين الطاقة البشرية والمادية والآلية باسلوب منظم .

وفى مجال الاجابة على تساؤل حول المدى التأثيرى الذى يمكن ان تحققه تقنية التعليم والوسائل المتاحة على مجال تقديم البرامج الدينية . . تحدث عن البرامج الدينية والنظرة التجريبية فى ظل تفجر المعرفة فى هذا العصر، ثم البرامج الدينية ومفهوم النظم من خلال احتياجها للتخطيط الدقيق بهدف تحقيق فاعلية التأثير.

ولهذا فقد اوضح اهداف البرامج الدينية وخططها وتوظيف هذه الخطط لتحقيق الغايات عبر الوسائل الملائمة ، ثم تطرق البحث الى الاستفادة من الاعلام النبوى الشريف فى مجال الاستعانة بالخط والاشارة كوسيلة للتوضيح والشرح للتأثير عبر الحواس باعتبار ان الصورة الذهنية وليدة الخبرات الحسية .

ثم شرح مفهوم اللغة البصرية بين السيميوطيقا (او علم الاشارات والرموز) والسبرناطيقا (او علم الاتصال والتحكم) من خلال توضيح علاقة ذلك بما يسمى بمخروط الخبرة الذى يوضح العلاقة بين الوسائل البصرية ولغة المرئيات والرموز اللفظية المجردة .

وفى هذا السياق نجد ان البحث اشار الى قواعد لغة الصورة المتحركة والبلاغة وحركات الكاميرا . . ثم تطرق الى البرامج الدينية وايقاع التصوير بالكاميرا من خلال براعة التوليف بين علامات الترقيم فى لغة التليفزيون.

ويعود البحث الى شرح اللغة اللسانية فى البرامج الدينية وتزاملها مع اللغة البصرية

من خلال الابعـاد الصوتية لتحقيق القدرة على تسخير تكنولوجيا التعليم كاسلوب بنائى تراكمى لتقديم المفاهيم وتكوين الاتجاهات.

كما اشار الى امكان استخدام (الحقيبة الاسلامية) التى تحوى وسائل تقنية تحمل رسائل اعلامية تعليمية فى مجال الدعوة الى الله مع امكان تطوير هذه الحقيبة الى ما يسمى بالمكتبة الاسلامية الشاملة.

اما البحث الثانى فكان بعنوان « **اهمية العناصر المرئية وطرق عرضها فى البرامج الدينية** » للاستاذ الدكتور ابراهيم امام، وهو دراسة حول اهمية العناصر المرئية وطرق عرضها فى البرامج الدينية اشار فيها الباحث الى التليفزيون باعتباره وسيلة بصرية تجمع بين جميع وسائل التأثير، ثم اوضح مراحل انتاج البرنامج الدينى من تخطيط وتجهيز واعداد . . الى الانتاج وما بعد الانتاج . . كما اشار الى البرنامج الدينى بين الحقيقة الواقعية والحقيقة الفنية من خلال البعد الصوتى ومخطوطة النص ، مع شرح فى الكتـابة للتليفزيون واساليب اعداد النص فى البرنامج الدينى لتوضيح المفاهيم وشرح الـظواهـر الكـونية باستخـدام المجسمات والنماذج والعروض الميكروسكوبية والـرسـوم الخـطية والخـرائط والصـور الفوتوغرافية الثابتة والشرائح والافلام الثابتة والمتحـركة والسبورة واللوحات الوبرية والكهربائية والبلاستيكية ثم اشرطة الفيديو بانواعها وانظمتها.

كما اوضـح البحث اسلوب توظيف هذه الـوسـائـل فى تقـديم الآيات القرآنية والاحاديث النبوية بما يمكن تسميته « اللغة البصرية والدعوة الاسلامية».

اما البحث الثالث فكان بعنوان «**امكانية استخدام تقنيات التليفزيون فى انتاج البرامج الدينية** » للاستاذ يحيى بسيونى، وقد بدأ بتوضيح مفهوم البرامج الدينية واشار الى اهميتها للمجتمعات الاسلامية ودول الخليج على وجه الخصوص حيث ان هذه البرامج تمثل مرتكزا هاما من مرتكزات التربية الاسلامية التى تعمل لتحقيق اهداف المجتمـع وغـاياتـه من خلال التصـورات الاسـلامية للكون والحياة والنفس وبيان مقومات الانسان المسلم واستكشاف مكامن القوى فيه وطاقاته المعطلة وتفجيرها لخير وصالح المجتمع الاسلامى والبشرية جمعاء.

واشار البحث الى اهمية التلفزيون كوسيلة اتصال فعالة لما يمتاز به من خصائص عديدة تساعد فى تقديم الخبرات المعرفية والتعليمية والثقافية فى صورة تسهل وتيسر ادراكها وفهمها، فقد اثبتت التجارب والدراسات الحديثة كل ذلك ومادام الامر كذلك فجدير بنا ونحن امة وسط الشأن فيها اصلاح المجتمعات بالدعوة الى الله الا نقف موقفا سلبيا من هذه الاجهزة وما يعرض من خلالها، بل انه من الافضل ان نتحرك نحوها لأسلمة وتطوير برامجها واعداد وتقديم البديل الاسلامى محل الغث المستورد، وان نشحذ الهمم بنشاطات ايجابية تستخدم الوسائل المبهرة التى توصل ارقى المضامين الى الناس، ولا شك ان امة الاسلام بحاجة الى برامج عن الاسلام تحكى امجاده وقيمه ونظرته الى مواقف الانسان المختلفة وضروب معاملاته المتشابكة فى المجتمعات المعاصرة.

وفيما يتعلق بامكانية استخدام تقنيات التلفزيون فى البرامج الدينية وبخاصة فى تلفزيون الخليج فان البحث يركز على ضرورة ان تعتمد هذه البرامج بجانب قوة المضمون على اسس ثابتة قوية وقواعد جمالية وفنية رصينة، ممثلة فى تعدد اشكال العرض والاستخدام الامثل لمختلف الصياغات والاساليب الفنية الملائمة والاستفادة من وسائل التقنية الحديثة خاصة الافلام التسجيلية التى يمكن استثمارها فى الربط بين قدرة الخالق سبحانه وبين مخلوقاته بشرح وتصوير سلوك الكائنات الحية من حشرات وحيوانات بل والخلايا الحية الى غير ذلك، وباستخدام حركة الكاميرا التى تستطيع ان تنقل للمشاهد الحركة الفلكية فى الكون، كما تستطيع ان تبرز وتجسد بالتصوير البطىء قدرة الخالق سبحانه فى دفع السحاب من مكان لاخر ليسقط مكونا البحيرات والانهار، وكيف تتشقق الارض وكيف تنبت البذور وتنمو مما يوطد العقيدة ويقوى اليقين .

وقد انتهى البحث الى مجموعة من التوصيات اهمها ضرورة معالجة البرامج الدينية التى تعرض من خلال شاشات تلفزيون الخليج للموضوعات ذات الصلة بحياة الناس مع مراعاة جانب التنويع والتشويق فى البرامج الى جانب الاستعانة بذوى الثقافة الاسلامية العميقة والمتخصصين فى شتى المجالات لتجىء هذه البرامج

متصلة اتصالا وثيقا بحياة الناس وواقعهم ، الامر الذى يثير اهتمامهم ويستحسن متابعتهم .

وكـان البحث الرابع بعنوان « **امكانية استخدام الوسائل التعليمية فى كيفية اعداد البرامج الدينية** » للدكتور محمد رضا امين ، .

وتضمنت مقدمته مفهوم الوسائل التعليمية وانها عمل فنى تظهر تقدم مستخدمها فى كل المجالات ، واوضح اهميتها لجميع فئات الاعمال من طب وهندسة وادارة مبينا اهميتها فى مجال الاعلام الاسلامى وخدمة اهدافه .

وقد قسم الباحث الوسائل التعليمية الى قسمين . . وسائل تعليمية ثابتة ووسائل تعليمية متحركة او آلية ، وشمل حديثه عن الوسائل التعليمية الثابتة انواعا مختلفة مثل اللوحة الطباشيرية «السبورة» والتسجيلات الصوتية ووسائل الرسوم الايضاحية من خطوط وخرائط ورسوم بيانية والصور والافلام الثابتة والشرائح الشفافة والشفافيات .

امـا الوسائل التعليمية الآلية المتحركة فقد ذكر منها السينما حيث يتم استخدام الافلام السينمائية التعليمية فى مجالات عدة مثل الافلام العلمية والتربوية والتاريخية والجغرافية والطبية والزراعية وكذلك جهاز عرض الصور المعتمة «الفانوس» . . وآلة عرض الصـور الكثيفـة «الايسكـوب» وآلـة عرض الصور الشفافة «الدياسكوب» والحاكى وآلة التسجيل .

وتناول البحث بشىء من التفصيل ما يمكن ان تقدمه هذه الوسائل بشقيها من فاعلية وما تحدثه من تأثير متى ما استخدمت الاستخدام المناسب واتقن استخدامها .

ولتأكيد هذا المفهوم وتوضيحه عرض الباحث بعض الامثلة على امكانية استخدام هذه الوسائل فى بعض البرامج وضرب لذلك مثلا استخدامها فى شرح عملية خسوف القمر ، وفى شرح فريضتى الحج والصلاة ، وفى تقديم بعض البرامج المتعلقة بالخلق الاسلامى كاتقان العمل وحسن التعامل . . كنماذج لبرامج علمية وتعبدية وسلوكية من منظور اسلامى . . ثم اختتم البحث بالدعوة الى الاستفادة من هذه الامكانات وتوظيفها فى خدمة الدين اذ ان ذلك من متطلبات العصر وفرائض الدين . .

وكانت ابرز نقاط التعقيب والمناقشة حول هذه المجموعة من البحوث على النحو التالى :

* الدعوة الى انشاء شركة عالمية للانتاج الاعلامى الاسلامى تقوم على كوادر الكفايات البشرية الاسلامية، وتسير بقوة ما للمسلمين ـ حكومات وشعوبا وافرادا ـ وتبدأ نشاطها من منطقة الخليج .

* التنبيه الى النقطة الخاصة بنقص العناصر والكوادر الفنية العربية المدربة التى يمكن ان تعمل فى مجال الانتاج التليفزيونى وتستغل الطاقات الانتاجية المتاحة، والعوامل التى ادت الى ذلك .

* أهمية التعامل فى انتاج البرامج الدينية بروح الفريق المتكامل الذى يكمل بعضه حتى يخرج العمل متكاملا، والتأكيد على أهمية الحوافز فى عملية الانتاج البرامجى لكافة العاملين به .

* اهمية اجراء دراسات ميدانية لدراسة اثر استخدام تقنيات الاتصال فى التليفزيون على المشاهدين .

* التأكيد على أهمية الاستخدام الحذر الحكيم للوسائل التقنية فى البرامج التخصصية الاسلامية حتى لا يقع التليفزيون فى خطأ الاستخدام المفتعل لها .

* أهمية تزويد العاملين فى مجال الاخراج التليفزيونى بالثقافة الشرعية الضرورية التى تساعدهم على ان تكون نظرتهم الى المادة الاعلامية وتفاعلهم معها بدرجة عالية .

* التأكيد على أن يكون استخدام الوسائل التقنية فى انتاج البرامج الدينية استخداما علميا مدمجا فى اطار البرنامج وليس حلية او زينة تضاف الى البرنامج .

أبرز توصيات الندوة :

خلصت الندوة من الابحاث والدراسات التى تناولت القضايا الاساسية للبرامج الدينية بتليفزيونات الخليج، ومن التعقيبات والمناقشات التى اثيرت حول هذه البحوث، خلصت الى مجموعة من التوصيات تمثل ابرزها فيما يلى

- تمكين الاسلام - عقيدة وشريعة - فى حياة المسلمين : طاعة لله ورسوله وتحقيقا للعلاج الفردى والجماعى وأخذا باسباب القوة والتقدم الحقيقى .

- استنباط منهج اسلامى للاعلام - من الكتاب والسنة - يقيم الاعلام على شريعة الله ويقى النشاط الاعلامى - فى مختلف فنونه - اتباع اهواء الذين لا يعلمون من اصحاب النظريات الاعلامية الاخرى .

- التكامل بين البرامج الدينية والبرامج الاخرى تكاملا يرتكز على وحدة الاصل ووحدة المعيار ووحدة الغاية، والتخطيط العلمى الذى يعطى كل برنامج حقه من الامكانات البشرية والتقنية والمادية والزمنية، وكيان المجتمع ومصلحته اللذان لا ينبغى ان يتعرضا لتضارب فى التوجيه او تدابر فى التثقيف ، والنصح المتبادل : النصح بالعلم الشرعى من جانب ، والنصح بالخبرة الفنية من الجانب الأخر، ونفى كل ما يتعارض مع الاسلام من البرامج جميعا .

- خص العلوم الشرعية والتوجيه الدينى ببرامج تأخذ حظها الوافر من ساعات الارسال فى الاوقات الحية فى التليفزيون وينبغى ان تكون هذه البرامج شاملة متكاملة .

- التخطيط السليم للبرامج الدينية .

- تعميق الصلة بعلماء الامة وتهيئة كافة السبل والامكانات التى تعينهم على العطاء والمشاركة فى البرامج الدينية .

- اقامة مؤسسات انتاج اعلامى : تقف شُعبا منها للتخصص فى الانتاج الاعلامى ذى الصبغة الاسلامية .

- توسيع فرص التواصل ومساحات التبادل البرامجى بين اجهزة تليفزيونات الخليج فى مجال البرامج الدينية، وحث مؤسسة الانتاج البرامجى المشترك لدول الخليج على بذل جهد فنى خاص يوجه لانتاج برامج دينية عالية التجهيز والاعداد، وحسن اختيار الكفايات العاملة فى حقل البرامج الدينية :

ادارة واعدادا واخراجا وتقديما، وتهيئة فرص التأهيل والتدريب لهم، وارساء معايير موضوعية واضحة ودقيقة للرقابة على البرامج الدينية والبرامج الاخرى.

- العناية العلمية البصيرة بقضايا المجتمع ومشكلاته، والاسهام الصبور فى علاجها وفق موازين الاسلام وبأساليب تتسم بالحكمة وتقدر المصلحة فى غير تهويل او تخوير.

- حماية المجتمعات من الغزو العقدى والفكرى والثقافى بقوة الحجة المثبتة للحق فى النفوس والناقضة لحجج الغزاة والصادة لغزوهم.

- التوسع فى البرامج الموجهة الى الوافدين - من غير المسلمين - الى الدول الخليجية وتحسين مستواها الموضوعى والفنى من حيث التركيز على الاصول واختيار اساليب الترغيب والتبليغ والتأليف.

- ايلاء برامج الاطفال والمرأة والشباب والترفيه عناية خاصة تتناسب مع عناية الدين وضوابطة بالنسبة لهذه الفئات والمناشط.

- تطوير اساليب واشكال البرامج الدينية الى مستوى أفضل.

- العهد الى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - باعتبارها مؤسسة علمية موثوقة :

أ - استدامة الصلة وتطوير الحوار - بشتى الصور والاساليب - مع القائمين على البرامج الدينية.

ب - التحاور مع العلماء من أجل الانتفاع بعلمهم على اوسع نطاق مستطاع من خلال البث التليفزيونى المؤثر.

جـ - انشاء وحدة علمية تطبيقية تتبع الجامعة تسمى «وحدة البحوث» لتطوير اساليب عرض الاسلام فى التليفزيون.

تقرير عن رسالة الماجستير التى أعدها أحمد السعيد حول إدمان الحشيش

للدكتور
عمر بن عبدالرحمن المقدى
الأستاذ المساعد في قسم علم النفس
بكلية التربية
جامعة الملك سعود

اسم الرسالة : دراسة لبعض الجوانب النفسية لمتعاطي الحشيش بمنطقة الرياض

اسم الدارس : أحمد بن عبدالله محمد السعيد

القسم : علم النفس

الكلية : العلوم الاجتماعية/ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

عدد الصفحات : ٤٣١ بما في ذلك ملاحق الدراسة

التقسيم العام للرسالة :

احتوت الرسالة على ثمانية فصول بالاضافة الى المقدمة والفهارس. خصص الباحث الفصل الأول للحديث عن مشكلة الدراسة وأهميتها وأهداف الدراسة والخطة العامة لها وأورد تعريفا اجرائيا لبعض المصطلحات التى ستتطرق لها الدراسة.

أما الفصول الثاني والثالث والرابع فتحدث فيها الباحث عن المشكلة بشكلها العالمي والدراسات السابقة سواء في البيئة السعودية أو العربية أو الأجنبية وقد كان الحديث في الفصل الثالث مقصورا على الحشيش .

أما الفصل الخامس فقد خصصه الباحث للحديث عن اجراءات الدراسة والمقاييس المستخدمة في البحث . وتناول في الفصل السادس نتائج الدراسة.

أما الفصل الأخير فناقش فيه الباحث نتائج الدراسة وقدم بعض التوصيات وفي ختامه أورد قائمة بالمراجع ثم عددا من الملاحق.

إجراءات الدراسة :

العينـــة :

اختـار الباحث عينة عشوائية عدد أفرادها ١٠٠ رجل من المسجونين المتعاطين باصلاحية الحائر وعينة مماثلة من المسجونين غير المتعاطين . كما كانت هناك عينة ثالثة من الأشخـاص غير المتعـاطين وغير المسجونين وتم اختيارهم عشوائيا من منسوبي الشركة الموحدة للكهرباء بمدينة الرياض . وكان الهدف من استخدام العينة الأخيرة هو استخدامها عينة ضابطة للمجموعتين الأوليين . كما قام الباحث بعمل دراسة حالة لعشرة أشخاص من العينة الأولى .

أدوات الدراســة

استخدم الباحث عددا من المقاييس والاستمارات وهي :

١ - استمارة المستوى الاجتماعي والاقتصادي من إعداد الباحث.

٢ - اختبار الشخصية المتعدد الأوجه ويضم أربعة عشر مقياسا.

٣ - مقياس الصحة النفسية.

٤ - مقياس الشعور بالوحدة.

٥ - مقياس الحالة المزاجية.

٦ - مقياس تبادل العلاقات الاجتماعية.

٧ - مقياس قائمة القلق.

٨ - استمارة المقابلة الاكلينكية.

وقد قام الباحث باجراء هذه الاختبارات على عدة أيام.

أهم نتائج الدراسة

أورد الباحث عددا كبيرا من النتائج وهذا راجع لكثرة المقاييس التي استخدمها ولعل من أهم تلك النتائج :

أولا : فيما يتعلق باستمارة المستوى الاجتماعى والاقتصادى :

١ ـ هناك فروق ذات دلالة لصالح غير المتعاطين في جوانب عديدة تمثل قوة العلاقات الأسرية كمناقشة الأمور مع الأسرة والعلاقة بين الأسرة وأصدقاء الشخص ، وثقة الأسرة في الشخص، ومدى الاحساس بالعطف والحنان مع الأسرة وعدم وجود مشكلات داخل الأسرة.

٢ ـ يميل المتعاطون المسجونون لوصف آبائهم بأنهم متسلطون في حين يميل غير المتعاطين وغير المسجونين لوصف آبائهم بأنهم متسامحون.

٣ ـ بالنسبة للمتسوى الاقتصادي لم يكن هناك فروق دالة احصائيا بين المجموعات الثلاث في كثير من الأسئلة وان كانت هناك بعض الفروق فى بعض الجوانب ومنها : تميل مجموعة المتعاطين أكثر من المجموعات الأخرى الى اعتبار أن أسرهم تضطرهم الى مصروفات لا لزوم لها. وكذلك الى محاولة الحصول على مبالغ مالية بأية وسيلة كانت. كما يرون أن أسرهم تعاني من أزمات مالية.

٤ ـ هناك مجموعة من العبارات تدل في مجموعها على أن أفراد المجموعة الأولى (المتعاطين) يعانون من بعض المشكلات الصحية أكثر من المجموعتين الأخريين.

ثانيا : المقاييس النفسية :

أيدت نتيجة الدراسة الفروض التالية التي ذهب اليها الباحث في دراسته وهي :

١ ـ توجد فروق ذات دلالة احصائية بين متوسط درجات الأفراد المتعاطين

للحشيش ، وبين متوسط درجات الأفراد غير المتعاطين على مقياس الانحراف السيكوباتي في اختبار الشخصية المتعدد الأوجه لصالح مجموعة الأفراد المتعاطين.

٢ - توجد فروق ذات دلالة احصائية، بين متوسط درجات الأفراد المتعاطين للحشيش، وبين متوسط درجات الأفراد غير المتعاطين على مقياس الهستيريا في اختبار الشخصية المتعدد الأوجه لصالح مجموعة الأفراد المتعاطين.

٣ - توجد فروق ذات دلالة احصائية بين متوسط درجات الأفراد المتعاطين للحشيش وبين متوسط درجات الأفراد غير المتعاطين ، على مقياس الشعور بالوحدة لصالح مجموعة الأفراد المتعاطين.

٤ - توجد فروق ذات دلالة احصائية، بين متوسط درجات الأفراد المتعاطين للحشيش ، وبين متوسط درجات الأفراد غير المتعاطين على مقياس الحالة المزاجية (بيك للاكتئاب) لصالح مجموعة الأفراد المتعاطين.

٥ - توجد فروق ذات دلالة احصائية بين متوسط درجات الأفراد المتعاطين للحشيش، وبين متوسط درجات الأفراد غير المتعاطين على مقياس تبادل العلاقات الاجتماعية لصالح مجموعة الأفراد غير المتعاطين.

٦ - توجد فروق ذات دلالة احصائية، بين متوسط درجات الأفراد المتعاطين للحشيش، وبين متوسط درجات الأفراد غير المتعاطين على مقياس قائمة القلق (السمة والحالة) لسبيلبرجر لصالح مجموعة الأفراد المتعاطين.

ثالثا : دراسة الحالـــة :

كان من أهم نتائج دراسة الحالة التي أجريت على عشرة أفراد ما يلي :

١ - لا يوجد بين أفراد عينة دراسة الحالة من مؤهله العلمي أعلى من الثانوية العامة سوى حالة واحدة.

٢ ـ اتضح أن بعض أفراد العينة تعاطوا الحشيش لأول مرة خارج المملكة عندما كانوا في زيارة أو في دورة دراسية.

٣ ـ اتضح أن رفاق السوء لهم دور كبير في اغراء بعض أفراد العينة على التعاطي.

٤ ـ اتضح أن المتعاطي يقتطع جزءا من مرتبه في الحصول على الحشيش يتجاوز أحيانا ربع المرتب.

٥ ـ أكد أفراد العينة أنهم يحصلون على الحشيش بواسطة الشراء من الأجانب المقيمين في البلاد.

٦ ـ اتضح أن حادث السجن، وحادث عدم اكمال الدراسة يأتي في المرتبة الأولى في قائمة الأحداث النفسية الشديدة والمؤلمة، التي تركت انطباعا سيئا ومؤلما لديهم.

٧ ـ معظم أفراد العينة يرون أن أهم أسباب تعاطي الحشيش هي :

- مجاراة أصدقاء السوء.
- الرغبة في نسيان الهموم والمشكلات.
- البحث عن السعادة الوهمية.
- متاعب العمل.
- الرغبة في اطالة مدة العملية الجنسية.
- تحسن المزاج.

٨ ـ اتضح أن معظم أفراد العينة لم يسبق أن زاروا أي اخصائي نفسي لاستشارته.

٩ ـ قرر معظم أفراد العينة أن المتعاطي مريض وبحاجة الى علاج.

التعليـــق على الدراســـة

تعتبر هذه الدراسة خطوة هامة في سبيل علاج مشكلة الادمان وان كانت هذه الدراسة لم تهدف الى تقديم حلول للمشكلة فهي خطوة لا بد منها في سبيل ايجاد تلك الحلول. فبدون أن نتعرف عن قرب وبالطرق العلمية على الجوانب المختلفة المتعلقة بالمشكلة فلن نصل الى الحلول المناسبة. وان من أهم تلك الجوانب الجوانب النفسية للمتعاطين وهذه الدراسة محاولة جريئة في هذا الجانب.

قد بذل الباحث جهدا كبيرا في تغطية موضوع الدراسة من جوانبه المختلفة لا سيما جانبـه النظري وجانبها العملي. كما حاول الاطلاع على عدد كبير من الدراسات السابقة في هذا المجال والباحث يشكر على هذا الجهد.

وما سيرد فيما يلي من ملاحظات فهو أمر طبيعي قد لا تخلو منه أي دراسة مهما حاول صاحبها الاتقان لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها والكمال لله والهدف من ايراد بعض الملاحظات هو أن يستفيد منها الباحثون في دراساتهم المقبلة سعيا لتحسين المعرفة والارتفاع بمستوى البحث العلمي وفيما يلي أبرز الملاحظات :

١ ـ يلاحظ أن عنوان الدراسة لا ينطبق في بعض جوانبه على محتوى الدراسة اذ أنه أكثر عمومية في حين يفترض في عناوين الأبحاث العلمية الدقة التي تمكن الباحثين الآخرين من سهولة اختيار الدراسات التي تدخل في مجال تخصصاتهم ودراساتهم. فالعنـوان الحـالي هو : « دراسة لبعض الجوانب النفسية لمتعاطي الحشيش بمنطقة الرياض » بينما واقع الدراسة هو على فئة واحدة من هؤلاء وهم المسجونون ويتوقع من خلال الـدراسـات النفسية أن يكـون هناك فرق في كثير من الجوانب النفسية بين المتعاطين المسجونين وغير المسجونين لذلك كان ينبغي الاشارة في العنوان الى قصرها على هذه الفئة فقط.

٢ ـ اقتصرت عينة الدراسة على سجن واحد بالنسبة لعينة المسجونين (متعاطين

وغير متعاطين) وعلى منسوبي جهة واحدة (شركة الكهرباء). وهذا القصر قد يضعف مدى تعميم نتائج الدراسة على المجتمع فقد يكون بعض ما خرجت به الدراسة متأثرا بطبيعة المؤسسة. وهذا ما يؤيد الحاجة الى قيام دراسات أخرى على قطاعات أخرى.

٣ ـ تميزت الرسالة بالطول الشديد وطول الرسالة في حد ذاته لا يعتبر عيبا ولكن يلاحظ أن هذا الطول ناتج في كثير من الأحيان من ايراد تفاصيل لا يحتاج اليها وايراد بعض التعليقات المطولة التي يمكن الاستغناء عنها بجدول واحد والاشارة الى أهم ما فيه. فمثلا يتحدث الباحث عن الفروق بين العينات الثلاث في الاجابة على سؤال من الأسئلة وبعد ايراد الفروق يذكر أن هذه الفروق ليست دالة احصائيا، إذاً ما الفائدة من ذكر هذه الفروق ما دام أنها غير دالة احصائيا؟ أي ـ وهذا معنى غير دالة احصائيا ـ أن هذه الفروق لا يعتد بها لأنها قد ترجع للصدفة.

٤ ـ اتبع الباحث طريقة السرد في ذكر الدراسات السابقة وتتمثل هذه الطريقة في ذكر الدراسات واحدة تلو الأخرى بدون الربط بينها بالمناقشة والتحليل. وهذه الطريقة بالرغم من شيوعها ـ مع الأسف ـ في كثير من الدراسات والأبحاث الا أنها ليست من الطرق العلمية فالذى ينبغي هو مناقشة كل نقطة وابداء ما يؤيدها من الدراسات السابقة أو ما يعارضها ومحاولة تفسير التعارض بين الدراسات المختلفة وعلاقة ذلك بالدراسة التي يقوم بها الباحث.

٥ ـ أورد الباحث احصائيات تشير الى زيادة الكمية المضبوطة من المخدرات واستخدم ذلك دليلا على زيادة الاستهلاك وهذا ليس بالضرورة فقد يكون زيادة الكمية المضبوطة ناتجة عن تطور أساليب الكشف عن الجريمة وليس ناتجا عن زيادة الاستهلاك.

٦ ـ قرر الباحث أن المملكة العربية السعودية لا تتعرض لمشكلة المخدرات بالحجم الذي تتعرض له الدول الأخرى وأورد ما يمكن أن يكون سببا لذلك إلا أنه يفترض في بحث علمي كذا سيقرؤه المهتمون بالمشكلة داخل المملكة وخارجها أن يورد أدلة تثبت ذلك.

٧ - وردت في البحث كلمات غير مناسبة كاستخدام كلمة رجال الدين.

٨ - تحدث الباحث عن مراحل النمو الجنسي الفرويدي واستخدم بعض المصطلحات المتعلقة بها ككلمة الأنا والأنا الأعلى والحب وهذه جوانب في النظرية لم يعد العلم يقبلها كما أنها غير مقبولة اسلاميا .

٩ - كان هناك اختلاف بين المجموعات الثلاث في بعض الخصائص ومنها العمر، المهنة، الحالة الاجتماعية، الدخل الشهري وهذه الاختلافات قد يكون لها تأثير على ما حصل عليه الباحث من اختلافات بين المجموعات.

١٠ - أورد الباحث بعض الاستنتاجات بناء على نتائج الدراسة لكن ليس في نتائج الدراسة ما يثبت ذلك ومثال ذلك أنه نظرا الى أن معظم أفراد عينة المتعاطين لم يتجاوزوا تعليمهم الثانوي فقد استنتج الباحث أهمية التعليم في منع الوقوع في المخدرات وان كان هذا قد يكون صحيحا الا أننا لا نعرف ما اذا كان الوقوع في المخدارات بسبب التأخر التعليمي أم أن الوقوع في المخدرات هو الذي ساعد على التأخر الدراسي أو أن هناك أسبابا أخرى أدت الى قلة ظهور المتعاطين الذين لديهم تعليم عال في عينة المسجونين .

والمثال الآخر أن الباحث لاحظ كثرة نسبة الموظفين في عينة المتعاطين أكثر من أي مهنة أخرى فاستنتج أن التعاطي ينتشر بين الموظفين أكثر لكن بالرجوع الى مجتمع الدراسة يتبين أن فئة الموظفين هي أكبر الفئات سواء في المتعاطين أو غير المتعاطين مما يؤكد أن كثرة ورودهم في عينة المتعاطين يعكس نسبة تمثيلهم في الواقع وليس لأن التعاطي ينتشر بينهم أكثر من غيرهم .

١١ - اكتفى الباحث باستخدام كا ٢ للمقارنة بين المجموعات الثلاث في بعض أسئلة الاستمارات وهذا لا يكفي فعندما يشير هذا الاختبار الى وجود فروق ذات دلالة احصائية بين المجموعات فقد يكون الفرق بين مجموعتين منها فقط وبالتالى فيلزم في حالة وجود فروق ذات دلالة باختبار كا ٢ أن يقوم الباحث باختبار فروق النسب بين كل مجموعتين على حدة.

أما في حالة عدم وجود فروق ذات دلالة احصائية باختبار كا ٢ فلا داعي لمناقشة الفروق بين المجموعات .

١٢ ـ كان هناك خطأ في أحد أسئلة استمارة المستوى الاجتماعي وهو يتعلق بنوع السكن حيث كان المجيب يختار واحدة فقط من الاجابات التالية قديم ، حديث ، مستأجر، ملك. ومن الواضح أن هناك تداخلا بين هذه الاجابات وبالتالي فنتيجة هذا السؤال خاطئة .

١٣ ـ رجع الباحث الى مصادر لا تعد علمية كمجلة طبيبك وبعض الصحف اليومية في أمور علمية وليست احصاءات أو معلومات عامة .

١٤ ـ أورد الباحث بعض التوصيات الجيدة ولكنها ليست مبنية على نتائج الدراسة.

ختاما فهذه ليست كل الملاحظات وانما الملاحظات التي نتمنى أن يستفيد منها الباحثون في الدراسات القادمة حيث أنها تلاحظ على كثير من الدراسات المختلفة على كافة المستويات .

كما أن هذه الملاحظات لا تفقد الرسالة أهميتها العلمية والعملية ونرجو أن تواصل الدراسات الأخرى ما بدأ به الباحث، والسلام عليكم . .

تقرير عن رسالة الماجستير التى أعدها سليمان الفالح عن المخدرات

للدكتور
إبراهيم بن محمد العبيدي
الأستاذ المساعد في قسم الدرسات الاجتماعية
بكلية الآداب
جامعة الملك سعود

تعد المخدرات في العصر الحديث واحدة من المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي تهدم كيان كثير من الدول وذلك لما تتركه من آثار ضارة في عقل وجسم وقدرات متعاطيها حتى تتركه عضواً مشلولاً لا يستطيع المشاركة في بناء وتطوير مجتمعه وإنما يكون عالة على مجتمعه، من خلال ما يصرف على علاجه والعناية به أو سجنه. كما تستنزف المخدرات الكثير من المال والجهد في مكافحتها ودرء اخطارها والوقاية منها.

وعلى الرغم من أهمية هذه المشكلة فما تزال الدراسات التي تتناولها محدودة جداً في وطننا العربي والاسلامي، وما تزال الحاجة ماسة لدراسة متخصصة تكشف من هذه المشكلة جوانبها الغامضة وتقترح الحلول لمعالجتها والقضاء عليها. والدراسة التي بين يدينا «عوامل تعاطي المخدرات: دراسة للمحكوم عليهم في مدينة الرياض «لطالب الدراسات العليا بقسم الاجتماع ـ كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية سليمان بن قاسم الفالح محاولة جيدة حاول فيها أن يلقي الضوء على نوع محدد من المخدرات، وهي الحبوب والكبسولات المنبهة والمنومة، ولعل هذا التخصيص لهذا النوع من المخدرات يعطي لهذه الرسالة قيمة وأهمية خاصة، وذلك لما لهذا النوع من المخدرات من تشابه في الخصائص والتركيب والآثار المترتبة على تعاطيها، والآثار التي تتركها على المتعاطي والدوافع لتعاطيها والتي ربما تختلف عن الأنواع الأخرى من المخدرات.

وقد ناقش الباحث رسالته في ١٤٠٧/٩/٧ هـ ونال درجة الماجستير بتقدير ممتاز وقد أشرف على الرسالة الدكتور/ ابراهيم بن مبارك الجوير استاذ علم الاجتماع المشارك بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، وناقش الرسالة بالاضافة إلى المشرف الدكتور/ ابراهيم بن محمد العبيدي الأستاذ المساعد ورئيس قسم الدراسات الاجتماعية بجامعة الملك سعود مناقشاً خارجيا والدكتور/ عبدالله بن الخليفة الأستاذ المساعد ورئيس قسم الاجتماع بكلية العلوم الاجتماعية مناقشا داخليا.

وتتكـون هذه الرسالة من تسعة فصول بالاضافة إلى قائمة بالمراجع والملحقات، ويمكن عرض نبذة مختصرة عن كل فصل من هذه الفصول؛

الفصل الأول: تناول الباحث في هذا الفصل مشكلة البحث وأهمية الدراسة، كما حدد أهداف الدراسة بالكشف عن أهم العوامل الاجتماعية المرتبطة بتعاطي المخدرات والآثار المترتبة على هذا التعاطي. وفي الجزء الثاني من هذا الفصل قام الباحث بتعريف أهم المصطلحات والمفاهيم الواردة في الرسالة.

الفصـل الثـاني: قسم الباحث هذا الفصل إلى قسمين الأول وقد افرده الباحث للحديث عن أنواع المخدرات مركزاً على المخدرات المنبهة والمنومة من حيث طبيعتها وخصـائصها وأعراض الإنقطاع عنها وأثار تعاطيها، واختتم هذا القسم بعرض عن ظاهرة المخدرات في المملكة العربية السعودية. أما القسم الثاني من هذا الفصل فقد خصصه الباحث لقضية المخدرات من وجهة نظر الشريعة الاسلامية.

الفصـل الثـالث: ويتناول الباحث في هذا الفصل الاتجاهات المختلفة في تفسير ظاهرة تعاطي المخدرات كالتفسير الطبي والتفسير النفسي والتفسير الاجتماعي، كما أفرد جزءاً من هذا الفصل لمناقشة العوامل الاجتماعية المرتبطة بتعاطي المخدرات كالأسرة وجماعة الأصدقاء.

الفصل الرابع: ويتناول الباحث في الجزء الأول من هذا الفصل الدراسات السابقة حيث وقف على ١٦ دراسة عربية وأجنبية محاولاً كشف أهم النتائج التي توصلت لها، أما الجزء الثاني فقد أفرده لفروض البحث.

الفصل الخامس: ويتناول الجزء الأول من هذا الفصل الإجراءات المنهجية لهذه الدراسة حيث أوضح الباحث منهجه في الدراسة، وعرف اجرائياً متغيرات البحث، وحدد وسيلة جمع البيانات والتي تتمثل في الاستبانة المقننه والاستبانة المعمقة، وحدد الباحث نوع العينة وطريقة اختيارها، كما أوضح الباحث خطته في تحليل نتائج الدراسة احصائياً. وفي الجزء الثاني يبرز الباحث بعض الخصائص الاجتماعية لعينة البحث،

ولعل من أهم ما وجده الباحث هو عامل السن حيث نجد أن الأغلبية من متعاطي هذا النوع من المخدرات هم بين من تقع أعمارهم بين ٢٠ إلى ٢٩ سنة حيث بلغت نسبتهم ٦٢٪ من مجموع العينة، كما وجدت هذه الدراسة أن أغلبية المتعاطين هم من الموظفين الحكوميين والسائقين، كما ترتفع النسبة بين العزاب وذوي المستوى التعليمي المتدني.

الفصل السادس والسابع: في هذين الفصلين يبرز الباحث نتائج الدراسة حيث يتناول في أولهما وصفاً لنتائج الدراسة، أما في الفصل السابع فقد قام الباحث بتحليل نتائج هذه الدراسة ومناقشتها ومحاولة مقارنتها بالدراسة السابقة مركزاً على كل متغير على حدة، وتشير نتائج هذه الدراسة إلى أهمية العوامل الاجتماعية في ظاهرة تعاطى المخدرات، فجماعة الأصدقاء كجماعة أولية وكجماعة مرجعية في بعض الأحيان تؤثر بدورها في سلوك الفرد، وقد كشفت هذه الدراسة عن أهمية هذا العامل حيث نجد من ناحية أن الأغلبية العظمى من عينة البحث وهم من المتعاطين بطبيعة الحال لهم أصدقاء يتعاطون المخدرات، كما أن الأصدقاء ـ كما كشفت هذه الدراسة ـ هم المصدر الأول للحصول على المخدرات، كما أوضحت هذه الدراسة أن أغلبية المبحوثين عادة ما يتناولون المخدرات مع الأصدقاء، أما بالنسبة لوقت الفراغ فتؤكد نتائج هذه الدراسة أهمية هذا العامل وارتباطه بتعاطي المخدرات حيث نجد أن نسبة المتعاطين تزيد بزيادة ساعات وقت الفراغ. وفي الجزء الثاني من هذا الفصل يتناول الباحث العلاقة بين ظاهرة تعاطي المخدرات والتغير الاجتماعي مركزاً على بعض مؤشرات التغير الاجتماعي في المملكة العربية السعودية كالتحضر والاختلاط بالثقافات الأخرى عن طريق السفر، وتشير نتائج هذه الدراسة في هذا الخصوص إلى أن ما يربو على ٩٠٪ من المتعاطين قد بدأوا التعاطي في بيئة حضرية، غير أن هذه الدراسة لم تؤيد أن بداية التعاطي لهذه العينة قد أخذت مكانها خارج المملكة، كما تؤكد هذه الدراسة ارتفاع نسبة المتعاطين بين من يعيشون في مناطق حضرية، وفي نهاية الفصل حاول الباحث مناقشة العلاقة بين الطفرة الاقتصادية التي مرت بها المملكة العربية السعودية وظاهرة تعاطي المخدرات، حيث يؤكد الباحث أن توفر المال في أيدي الشباب كان من العوامل المساعدة للوقوع في هاوية المخدرات حيث بلغ متوسط ما يصرف على المخدرات ٨٩٠ ريالاً.

الفصـل الثـامن: لقـد أفـرد الباحث الجزء الأول من هذا الفصل لمناقشة الآثار الاجتماعية لتعاطي المخدرات والتي حددها الباحث في المشكلات التالية: الادمان، المشكلات المالية، حوادث المرور، وارتكاب الجريمة، يؤكد أغلبية المبحوثين أن تعاطي المخـدرات يؤدي إلى الادمـان ويؤدى إلى تعـرض الفرد إلى الضائقة المالية والاخلال بالحاجات الشخصية والالتزامات الاسرية، كما يؤدى تعاطي المنبهات والمنومات ـ من وجهة نظر المبحوثين ـ إلى ارتفاع نسبة الحوادث المرورية والجريمة. وفي الجزء الثاني من هذا الفصل يعرض الباحث بعض التساؤلات التي تثيرها هذه الدراسة والتي تحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي ومن أهم التساؤلات التي يطرحها الباحث ما العوامل التي تدفع إلى تعاطي الحبوب المنبهة وما العوامل التي تدفع إلى تعاطي الحبوب المنومة وهل يختلف متعاطي هذين النوعين من المخدرات في خصائصهم الاجتماعية ؟

الفصل التاسع: ويختتم الباحث دراسته بخلاصة لأهم نتائج هذه الدراسة ويضع البـاحث مجمـوعـة من التـوصيات ومن هذه التـوصيات توعية الأسرة بأهمية اختيار الأصـدقـاء، فعـلى الأسرة تقع مسئولية كبرى فى عملية الاشراف والضبط ومن هذه المسؤلية معرفة أصدقاء أبنائهم وما هم عليه من خلق، تنمية الوازع الديني والذي يعتبره الباحث السياج المنيع ضد المخدرات، ويقترح الباحث كذلك ضرورة الاهتمام بوقت الفراغ والبحث عن الوسائل النافعة التي يقضي فيها الشباب أوقاتهم.

REPORTS

1-A Report on the Symposium of the Effects of the Royal Decree Issuance concerning Sentencing to Death Drug Trafficking.
by : Dr. Abdulllah ibn Saleh el-Hadithi.

2-A Report on the International Conference on Developing Arabic Language Teaching in Pakistan.
by : Dr. Hamad ibn Naser El-Dakhil.

3-A Report on the First Arabic Language Conference.
by : Dr. Muhammad ibn Khalid el-Fadel.

4-A Report on the Symposium of Developing Religious Programs on Gulf T. Vs.
by : Prof. Dr. Samir Hussein.

5-A Report on Ahmad Saeed's M. A. Thesis on Hashish Addiction.
by : Dr. 'Omar el-Muffada.

6-A Report on Sulaiman el-Faleh's M. A. Thesis on Drugs.
by : Dr. Ibrahim el-'Ubeidi.

CONTENTS

1. Foreword
   by His Excellency The Rector Prof. Dr. Abdullah ibn Abdul-Mohsen Al-Torki 11 - 13
2. Documentation of Transactions : Facts and Legality.
   by : Dr. Salih O. Al-Helayel 17 - 46
3. Al-Qarafi's Influence on the Study of the Principles of Jurisprudence.
   by : Dr. 'Iydah N. Al-Sullami. 47 - 82
4. Originality and Contemporaneity: Two Characteristics of Islamic Da'wah.
   by: Dr. Muhammad A. Al-Bayanoni. 83 - 147
5. A Glance on Saying: (AMEN)
   by : ibn Al-Khashshab.
   (ed) Dr. Sulayman I. Al-'Aid. 149 - 179
6. (Al-Imala) According to Earlier Grammarians and Modern Linguists.
   By : Dr. Muhammad A. Al-'Amrousi. 181 - 219
7. Imagery in Abu-Tammam's Poetry.
   by : Abdel-Aziz A. Al-Shalan 221 - 275
8. Historical Literature : A study in Terminology and Theoretical Frame
   by : Dr. Muhammad 'Uwais 277 - 306
9. The Message of Shaykh Muhammad ibn Abdul-Wahhab in the writings of the Egyptian Historian Abdul Rahman Al-Gabarti.
   by : Dr. Abdul-Mun'im I. Al-Jumay'i. 307 - 323
10. Influence of Human Activity on Earth.
    by : Dr. Ibrahim S. Al-Ehaideb. 325 - 361
11. The Need for Qualified Staff in Arab Universities up to the Year 2000 A.D.
    by : Dr. Muhammad Abd- el- 'Alim Morsi. 363 - 415
12. Factors Leading to Drug Taking And the Islamic Solutions.
    by : Dr. Saud ibn Abd el-Aziz Al-Turki. 417 - 472

Rules Governing Publication

First : Papers, in order to be accepted for publication in the Journal, should be :

1 - original in content and right in approach.
2 - accurately documented and authenticated.
3 - correctly written, and
4 - not published elsewhere before.

Second : Papers will be referred to referees in the subject before publication.

Third : Papers published in the Journal express the opinions of the authors and do not necessarily reflect the opinions of the University.

Fourth : Contents of the Journal are arranged according to technical order.

Fifth : The authors will be given 5 copies of the Journal and 30 offprints.

Sixth : All correspondence should be addressed to the Editor.

JOURNAL OF
IMAM MUHAMMAD IBN SAUD ISLAMIC UNIVERSITY

President : Dr. Abdullah b. Abd al Muhsin al-Turki
Rector of the University.

Editor : Dr. Muhammad b. Abd al-Rahman al-Rubay'
Dean of Academic Research

Editorial Board : Dr. Abd al Aziz b. Abd al-Rahman al-Rabiah
Department of Jurisprudence, Faculty of Shariah

Dr. Ibrahim b. Mubarak al Juwayer.
Department of Sociology, Faculty of Social Sciences

Dr. Salih b. Husayn al-'Aid.
Department of Grammar and Philology, Faculty of Arabic Language

Muhammad b. Ali al-Samel.
Lecturer , Department of Rhetoric , Criticism and Curriculum of Islamic Literature, Faculty of Arabic Language.

Address:

Kingdom of Saudi Arabia
P.O. Box 18011
Riyadh, 11415
Tel.: 4358284.

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
IMAM MUHAMMAD IBN SAUD
ISLAMIC UNIVERSITY
DEANERY OF ACADEMIC RESEARCH

JOURNAL OF

IMAM MUHAMMAD IBN SAUD ISLAMIC UNIVERSITY

A SCIENTIFIC REFEREED JOURNAL

VOLUME 1, NUMBER 1
RAJAB , 1409 A. H.
(FEBRUARY, 1989 A. D.)